

متاهة قابيل



بُرهان شاوي

رواية



رواية

بُرهان شاوي

Burhan Shawi



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



4-0700-02-614-978 ISBN

الطبعة الأولى

1434 هـ ـ 2013 م



الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة ، شارع المفتي توفيق خالد ، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 1 00961

ص.ب : 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 – لبنان

فاكس: 786230 1 00961 – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http:// www.asp.com.lb

(تائهاً وهارباً تكونُ في الأرض)

الإصحاح الرابع – سفر التكوين – العهد القديم

«في منتصف طريق حياتنا،

وجدتُ نفسي في غابة مظلمة، إذ ضللتُ سواءَ السبيل.

آه، ما أصعب وصف هذه الغابة الموحشة الكثيفة القاسية،

التي تُجدد ذكراها لِيَ الخوف!»
الكوميديا الإلهية – الإنشودة الأولى – الجحيـم
دانتـــي أليجييري
«ظـلام ظـلام ظـلام جميعهم يمضون في الظلام....»
ت. أس. إليـوت
الرباعيات الأربع
ترجمة: توفيق صايغ

1

بلاد مـظلمة .. غرفة مضيئة

كانت ليلـة مظلمة . لا قمر ولا نجـوم في السماء . وكانت بغـداد كعـادتها غارقة في الظلام . ظلام بارد . ظلام كثيف . ظلام لزج يلصق بكل شيء ، يتغلغل في كل شيء . ظلام بدائي . ظلام موحش مثل ظلمة القبر . ظلمة العماء والتكوين الأول . ظلام يتداخل في ظلام ، مثل غيوم كثيفة من مادة مظلمة تتداخل في بعضها .

البغداديون ، كانوا ، وما زالوا ، يغرقون في ذلك الظلام الكثيف . يقطعون الليل بالنوم ، ومنهم من أراد أن يتحدى الظلام باليقظة .. فلاشيء سوى أن يبقى يقظا ً، فاتحا ً عينيه محدقا ً في الظلام المحيط من كل جانب ، والمختبئ في كل شيء ، والطاغي على كل شيء ، مستمدا ً جذوة الحياة من أمل يائس بقدوم الفجر البعيد .

في تلك الليلة المظلمة ، وفي تلك المدينة المظلمة ، وفي ذلك الشارع المظلم ، والبيت المظلم ، كانت ثمة غرفة مضيئة ، وكانت حواء الزاهد ، مستلقية على سريرها ، تجوس في عتمة الذاكرة ، مخترقة حجب الظلمة الكثيفة ، وهي تقرأ في إحدى المخطوطات التي تركها لها حبيبها المذبوح فجرا ً.

حبها لآدم المحروم ، المذبوح ذات فجر بغدادي ، قد أضاء مصباح القلب ، وأضاء عتمة رحمها ، فأوقده بطفلها الرضيع هابيل . وفي هذه الظلمة التي تعيشها البلاد لم يبق لها سوى مصباح القلب ، إذ على هدى نوره أن تمضي مع طفليها ، آدم الملاك وهابيل .

نظرت بحنان إلى طفلها الرضيع هابيل ، الذي ينام في مهده القريب من السرير ، أعقبتها بنظرة أخرى إلى ابنها الأكبر آدم الملاك الذي بدا لها غارقا في أحلامه البريئة . كانت قد أنجزت غسيل بعض قطع الثياب التي تستخدمها لقماط الرضيع . ووضعت شيئا من العدس في صحن أبيض عميق ، بعد أن سكبت عليه الماء ، كي يمكنها أن تعد منه شوربة في الصباح .

فتحت المخطوطة المكتوبة بخط واضح ، مقروء ، عرفت أنه خط الكاتب المغدور آدم البغدادي ، وأخذت تتصفحها أولا ً قبل أن تبدأ بالقراءة . إستوقفها النص الذي أختاره الكاتب آدم البغدادي ، وهو جملتان أقتبسهما من مسرحية (ماكبث) لشكسبير ، كمقدمة لروايته :

ماكبث : كم مضى من الليل .. ؟

ليدي ماكبث : نحن في ساعة يتنازع عليها النهار والليل .. كل يد ّ عيها لنفسه .

شكسبير – مسرحية ماكبث – الفصل الثالث – المشهد الرابع

فكرت بهاتين الجملتين . ماذا يقصد آدم البغدادي بهما؟ عن أية ساعة يريد التحدث؟ وما هي هذه اللحظة التي يتنازع النهار والليل عليها؟ ولماذا؟ لكنها كما يبدو ساعة في عتمة الليل والظلام .

هل هي ساعة مباركة أو أنها ساعة الشؤم؟ ساعة ينبلج فيها الفجر أو أنها ساعة ستقود إلى دهاليز الظلام الأبدي؟ أثارتها جملة شكسبير هذه ، لكنها لم تشأ أن تستطرد في تفسيراتها . قرأت المقاطع الأخرى التي استشهد بها .. لماذا يتوعد الرب قابيل بالتيه وبالهرب الدائم في الأرض .. ؟ ثم توقفت عند نص الشاعر إليوت .. نعم الكل يمضي في الظلام .. إنه محق قالت لنفسها ..

ثم بدأت بقراءة مخطوطة رواية (متاهة قابيل) بعد أن شطب آدم البغدادي عنوانا ً سابقا ً لها .

في حضرة اللون الأبيض

حين وصل آدم التائه إلى مطار مدينة (دوسلدورف)، كانت تنتظره مفاجأة غير سارة أبداً، إذ كانت طائرته قد أقلعت قبل ربع ساعة من وصوله. جدول مواعيد الطيران والانتقال من قطار إلى آخر كان صحيحاً ودقيقاً. لكن ثمة أحداثاً غير متوقعة، طارئة، دخلت على مسار الوقت المحدد سلفاً فغيرت إيقاع الزمن ومضت به نحو جهة مجهولة.

منذ أن خرج القطار من محطة (إيسن) الرئيسية انتبه آدم التائه إلى أن الأنواء الجوية قد تغيرت فجأة . كانت السماء قد غطتها غيوم كثيفة بيض ، والثلج ينهمر بكثافة ليغطي الأشجار على جانبي الطريق ، والحقول المحروثة التي تمتد بين مدينة وأخرى ، وأسطح البيوت القرميدية ، المحاذية لخط مرور القطار في المدن التي يمر بها ، كانت جميعها تبدو بيضا ً، بل إن الثلج قد غطى بعض جوانب إطار النافذة التي ينظر منها إلى الخارج . عالم أبيض تتخلله ، أحيانا ، نتوءات وبقع معتمة ، وكأن القطار

يسير على السكة الحديدية مثل أفعى هائلة تتلوّى في صحراء بيضاء .
خرج القطار من مدينة (إيسن)، وقبل أن يصل إلى مدينة (بوخوم) بدأ يخفف سرعته بشكل مفاجئ إلى أن توقف بالكامل ، مُطلقاً صريراً مزعجاً يشرخ السمع ويبعث في النفس شعوراً مقززاً . كان وحيداً في عربته . نظر من النافذة فلم يستطع أن يرى شيئا ، فقد امّحت الحدود والفواصل بين الأشياء ، وليس هناك سوى الثلج الأبيض يغطي كل شيء . حين بدأ القطار بالحركة ، شاهد بعض الشبيبة المتظاهرين ، رجال ونساء ، تحاصرهم قوات كبيرة من الشرطة المدججة بالدروع والهراوات .
ومن خلال بعض اللافتات المنددة بالدول الصناعية والمضادة للحرب النووية عرف بأن مجموعة من الشبيبة اليسارية الألمانية تظاهرت ، ووضعتْ الموانع أمام سكة القطار في ذلك اليوم ، لتعرقل مرور القطارات المحملة بالنفايات النووية عبر الأراضي الألمانية . ولكي تستطيع قوات الشرطة من كسر المظاهرة وتفريقها فأنها أوقفت سير القطارات لوقت طويل ، مما سبب في تأخر وصول القطار إلى المطار في الوقت المناسب .
حين نزل آدم التائه من القطار التفت إلى الوراء فلم يرَ أي مسافر ينزل من العربات ، مثلما لم يجد أمامه من نزل أيضاً. وحينما صار قريبا من عربة القيادة حاول أن يعرف من يقود القطار فلم يجد أحداً أيضاً.
أحس آدم التائه بالغرابة ، أمن المعقول أنه وحده كان في القطار؟ تذكر أنه كان وحده في المقصورة التي جلس فيها ، كذلك لم يأت موظف القطار للتأكد من بطاقته ، وها هو لا يرى أحداً في مقصورة القيادة ..!!.
في مكتب الطيران الخاص بالخطوط الجوية التي يجب أن تقله إلى مقصده ، انتظرته مفاجأة أخرى ، فقد كانت هناك امرأتان تقومان بخدمة المسافرين ، إحداهما ألمانية والأخرى كان واضحاً له أنها عربية ، لكن المفاجأة كانت حينما قرأ اسميهما على البطاقة الملصقة على صدريهما للتعريف بهما . كانت الألمانية تحمل إسم (إيفا بيرغمان) بالرغم من أنها لم تكن تشبه إيفا بيرغمان التي يعرفها ، والأخرى كان اسمها (حواء أبو سمره).
شعر بقشعريرة تسري في أوصاله قبل أن يبدأ الحديث معهما ، وبالرغم من أن لديه حجزا مؤكداً، وأن بطاقته بيده ، إلا أن موظفة المكتب إيفا بيرغمان لم تستطع أن تجد اسمه في قائمة الركاب الموجودة في جهاز الكمبيوتر ، وحينما عجزت عن ذلك طلبت من المرأة الأخرى ، حواء أبو سمره أن تساعدها . دخلت المرأة الأخرى إلى مكتب صغير يقع في خلف

الواجهة ، وبعد لحظات عادت وبيدها ورقة فاكس ، وقالت لزميلتها باستغراب :
- توجد برقية من مكتب سياحي، اسمه مكتب الفردوس للسياحة، ومديرته اسمها ولقبها مثلك بالضبط، يؤكد الحجز.
نظرت الموظفتان إلى بعضهما البعض ، ثم تقدمت الموظفة العربية نحو صديقتها ، ووضعت ورقة الفاكس أمامها ، وهي تشير إلى موضع أسفل الورقة . نظرت الموظفة الألمانية إلى آدم التائه بشيء من الإستغراب ، ثم أخبرته بأن عليه الإنتظار خمسة أيام أخرى ، حتى موعد الطائرة المقبلة ، أو عليه السفر إلى ميونخ ، حيث هناك طائرة تابعة للخطوط نفسها ستقلع بعد ثلاثة أيام .
كان آدم التائه يحس بأن شيئا غير عادي يجري معه . أمن المعقول ألا يكون اسمه في قائمة الركاب ، بالرغم من وجود بطاقة السفر بين يديه؟ أمن المعقول أن يكون اسم الموظفة الألمانية إيفا بيرغمان أيضا؟ وحتى المرأة العربية يكون اسمها حواء؟ لا .. هناك شيء غير طبيعي . يجب أن يغادر هذا المطار بأي شكل ، لكن هل عليه أن ينتظر لخمسة أيام أخرى أو يغادر إلى ميونخ؟
لم يحسم آدم التائه أمره . تجول في قاعة المطارالواسعة . توقف عند واجهات ٍ ومخازن عديدة تعرض العطور ، والحقائب ، والكتب والصحف ، والهدايا الرمزية ، والحلوى الفاخرة ، ومر بالمقاهي التي تتوسط القاعة ، والتي تتفرع منها أجنحة وممرات تقود إلى بوابات الدخول ، وتفتيش الجوازات ، والأسواق الحرة ، لكنه لم يجلس في أي منها ، وإنما توجه إلى إحدى جوانب القاعة حيث تصطف بعض الكراسي المترابطة ببعضها .
جلس على كرسي ضمن مجموعة كراس ٍ توزع عليها بعض المسافرين الذين وصلوا قبل موعد طيرانهم . أحس وكأنه يستريح بعد رحلة شاقة . تأمل سقف القاعة . كان منبهرا ً بالمطار . ظل يتأمل المسافرين ويتتبع الذين يصطفون أمام مكاتب الخطوط الجوية التي ستوصلهم إلى مقاصدهم ، أو يتتبع بنظراته النساء الأنيقات اللاتي يمرقن من أمامه .
بعد أن تيقن من أن طائرته قد غادرت المطار ، ولا أمل في رحلة طيران قريبة ، وبرغم الخيبة والإحباط اللذين تركهما وقع الخبر عليه ، شعر آدم التائه بشيء من الإسترخاء الداخلي ، وبإمتلاكه لوقت حر كاف ، لذا ظل جالسا ً ينظر بعينيه على المسافرين والأشياء وكأنه غير موجود ، أو تحول بكل كيانه إلى عينين فقط .

بعد حوالي نصف الساعة انتبه آدم التائه لنفسه وكأنه أفاق من غفوة . ماذا عليه أن يفعل الآن؟ هل يرجع إلى مدينته ، ثم يعود بعد خمسة أيام ، أو يسافر إلى ميونخ الآن ليضمن السفر بعد ثلاثة أيام؟ سأل آدم التائه نفسه .

وبدون أن يتخذ قرارا ًحاسما ًوجد نفسه ينظر إلى لافتة تشير إلى وجود محطة القطار في الطابق الأسفل . توجه لا إراديا ًنحوها . وجد مصعدا ً كهربائيا ً وسط المحطة . كان بعض المسافرين يقفون مع حقائبهم عند المصعد . انفتحت أبواب المصعد فتدافع البعض مصطدمين بالمسافرين الخارجين منه . دخل المصعد مع بقية المسافرين ، لكنه انحشر عند الباب ، ليس لكثرة عدد المسافرين وإنما لأن البعض منهم لديه حقائب احتلت المكان . وقبل أن يطبق المصعد كليا أمتدت كف نسائية لتوقف انغلاقه ، لذا انفتح الباب أتوماتيكيا ، فدخلت امرأة باهرة الجمال في حدود الأربعين من العمر ، شقراء ، أنيقة الملابس ، تلبس طقما ًأسود تألف من ثوب ٍ أسود وسترة سوداء وحذاء من الجلد الأحمر الأرجواني ذي كعب عال ، ذكرته بممثلة ما أو نجمة من نجوم الموضة ، لكنه لم يستطع تذكر اسمها .

كانت المرأة الأنيقة ، الشقراء ، تجر حقيبة سفر حمراء ، متوسطة الحجم نسبيا ً، وما أن دخلت حتى قالت بالإنكليزية للجميع :

- عفواً..

لم يجبها أحد من الركاب سوى آدم التائه الذي علق بالانكليزية ، لا إراديا ً، قائلا ً:

- لا مشكلة.. كل شيء تمام..

أحست هي بالإرتباك لصمت بقية المسافرين ، ولم تفهم سبب التجهم والعبوس واللامبالاة المرتسم على وجوه معظمهم ، لكنها برغم ذلك إبتسمت بشكل اعتيادي لآدم التائه ، وكأنها تشكره على لطفه بالإجابة ، فابتسم لها وهو يشعر بحرج شديد ، وكأن جميع العيون تراقب إبتسامته ، أو تقرأ ما يدور في رأسه من أحاسيس الإعجاب بهذه المرأة باهرة الجمال .

حين وصل المصعد إلى الطابق الذي تقع فيه قاعة الإستعلامات ومكاتب شراء بطاقات السفر ، خرج الجميع ، وأولهم كانت المرأة الشقراء ، التي انطلقت دون أن تلتفت إلى أحد .

* * *

تقع قاعة مكاتب المحطة واستعلاماتها في طابق أعلى من الطابق الذي فيه

أرصفة القطارات والسكة الحديدية ، وكان هدير القطارات الواصلة إلى المحطة أو المنطلقة منها ، وأصوات الإعلان عن موعد وصولها ، أو تحركها من المحطة ، يعلو بين فترة وأخرى .
توجه آدم التائه مباشرة إلى لوائح الإعلان الصفر ، المحفوظة في واجهات زجاجية ، والمتضمنة الجدول اليومي لحركة القطارات ومواعيد وصولها . انتبه الى أن موعد الرحلة القادم سيكون بعد نصف ساعة تقريبا ، وأن الرحلة تستغرق ما يقارب ست ساعات ، أي أنه سيصل أول المساء في كل الأحوال .
توجه إلى قاعة شراء بطاقات السفر ، فوجد أن هناك طوابير صغيرة عديدة أمام الموظفين في مكاتب بيع البطاقات . وقف بشكل لا إرادي أمام أول طابور واجهه . لم يكن الطابور طويلا ، ثلاثة مسافرين وهو رابعهم . التفت إلى جهة اليمين ، فرأى المرأة باهرة الجمال تتحدث مع موظفة في مكتب آخر للحجز . تأملها بحرية وجرأة أكثر مما كانت بالقرب منه في المصعد . إنتبه إلى أنها نحيلة نوعا ما ، ليس ذلك النحول المنفر ، على العكس ، أنها نحيلة بشكل جذاب ومتناسق . كان مستغرقا في تأمله لها حينما سمع صوت الموظف الألماني وهو يقول له بالألمانية :

- تفضل.. كيف أستطيع أن أخدمك؟

ارتبك للحظات ثم قال بألمانية مقبولة :

- أريد الذهاب إلى ميونخ.. في أول قطار يتجه إلى هناك.

* * *

بكى هابيل الرضيع الذي لم يتجاوز الأشهر الثلاثة في مهده الخشبي ، فتركت أمه حواء الزاهد مخطوطة الرواية التي كانت قد بدأت قراءة فصلها الأول ، والذي لم تكمله بعد ، جانبا ً، ونهضت إليه مسرعة كي لا يوقظ بكاؤه ابنها الآخر ، آدم الملاك . أخذته إلى حضنها . جلست على طرف السرير وفتحت الأزرار في أعلى ثوبها ، وأخرجت أحد ثدييها وبدأت ترضعه .
كانت تنظر إليه بحنان مشوب بحزن عميق . كان الرضيع جائعا ً، إذ أخذ يلتقم حلمة ثديها بشراهة بريئة . كانت أمواج من اللذة تجتاحها منطلقة من حلمتها التي يمتصها هذا الطفل اليتيم . نظرت إليه ، واستذكرت ساعة مولده الغريبة .

ولادة هابيل

فزت حواء الزاهد من نومها فجراً على إثر دوي إنفجارات متتالية هزت العاصمة بغداد . بسملت وحوقلت بشكل لا إرادي . نظرت إلى جهة السرير الأخرى حيث يرقد إبنها آدم الملاك فرأته يغط في نومه البريء . كانت تحس بإنتشار ألم في ظهرها . نهضت من السرير متجهة إلى المطبخ لتعد الفطور لابنها . في ذلك اليوم الرهيب كانت قد عددت سبعة عشر إنفجاراً، آخرها في حدود التاسعة مساءً. وكأن بغداد صارت إحدى طبقات الجحيم .

توغلت حواء الزاهد أكثر في ذكرياتها . لقد مر أكثر من سنة بقليل على ذلك الفجر البغدادي الأسود الذي جرت فيه جريمة ذبح حبيبها آدم المحروم . حينها أخذ المحققون أقوالها عن الجريمة مباشرة . اعترفت لهم بأن أخوي زوجها المتوفي في سجن بوكا ، مع رجلين آخرين ، مروا عليها في ذلك الفجر الأسود ، بعد أن اقترفوا جريمتهم ، وهددوها هي أيضا . بعد ذلك بيومين تم التحقيق معها مرة أخرى . أخبرتهم بكل ما تعرفه ، مؤكدة على ما قالته في المرة الأولى ، موضحة الأدلة على من قام بها.

ولم يمض سوى أسبوع على إنتهاء جلسة الفاتحة التي كانت مقامة على روح زوجها الذي مات في سجن بوكا ، وعلى روحي أبيها وأخي زوجها الذي كان قد سافر مع أبيها ، حتى تم إعتقال أخوي زوجها ، إستنادا إلى صدور أمر قضائي بإعتقالهما بتهمة إقتراف جريمة القتل المتعمد مع سبق الإصرار والترصد ، واعتمادا على أقوال الشهود ، واستنادا إلى تطابق بصمات القتلة التي ارتسمت على عنق الضحية ويديه وقدميه ، بالرغم من أن أحد المتهمين الأربعة كان قد إختفى بعد إرتكاب الجريمة.

عرفت زوجتا الأخوين المعتقلين بما قامت به حواء الزاهد ضد زوجيهما ، إشتعلت حرب عائلية لم تخمد إلا بتدخل المحامين ، والقضاة ، وبتوزيع الإرث والعقارات . خلال هذه الفترة زارها محاميان موكلان من قبل زوجتي الأخوين ، ونصحها أحدهما كي تختار محاميا من قبلها أيضا ، وأعطاها عنوان محام صديق له . بيّن المحاميان لها بأنها سترث مبلغاً كبيرا ، هو نصيب زوجها ، عند بيع المحلات والعقارات التابعة للأخوة.

ولأن حواء الزاهد كانت مشغولة بمصائبها المتعددة ، فأنها انتبهت بعد شهر ونصف من الجريمة إلى انقطاع دورتها الشهرية ، لكنها لم تشأ أن تصدق ذلك ، فكرت بإن تأخر العادة ربما يعود لوضعها النفسي الصعب ، لكن

بعد فترة قصيرة ظهرت عليها أعراض الحمل ، التي تعرفها هي من حملها الأول . ولم يُحسم الأمر باليقين إلا بعد زيارتها لعيادة طبيبة نسائية ، كانت لديها عيادة في مبنى متداع مطل على الشارع العام.
كانت حواء الزاهد تعيش هواجس وصراعات نفسية كبيرة جراء هذا الحمل ، وكان السؤال الأكبر هو : هل تبقيه أم تجهضه؟ هل هي مستعدة لمواجهة المجتمع؟ . وبالرغم من أنه لم يبق من عائلتها أحد ، وليس لديها أقارب ، إلا أنها كانت تفكر بالآخرين المجهولين . الجيران والناس في الطرقات . لكن كان هناك مدار آخر يجذبها . إنه مدار الذكريات ، فهذا الجنين هو ثمرة أجمل أيام عمرها ، وهو إستمرار لرجل أحبته بكل أعماقها . لذا حسمت موقفها أخيرا بالإبقاء على الجنين ، والإستعداد لتقبل كل النتائج.
بعد أيام من إلقاء القبض على أخوي زوجها المتوفي طلبت من محاميها أن يعرف ، بطرقه القانونية وعلاقاته الشخصية ، المكان الذي دُفن فيه والدها . حين عرفت مكانه ، نقلته من مدفن عائلة زوجها إلى مدفن خاص بعائلتها ، حيث قبرا أمها وأخيها . وكانت قد دفنت جثمان حبيبها آدم المحروم قربهما أيضا . كل شهر كانت تقوم بزيارتهم . تسافر مع ابنها إلى النجف لزيارة القبور ، إلى أن ثقل عليها السفر بسبب تقدمها في الحمل وصعوبة حركتها.
بعد إلقاء القبض على الأخوين ، وتأكدها من الحمل ، قررت حواء الزاهد بيع الدار والانتقال للعيش في منطقة أخرى لا يعرفها فيها أحد ، لكنها لم تكن في وضع صحي جيد ، لذا طلبت من المحامي الذي أوكلته عنها في قضية الميراث ، أن يساعدها في بيع بيتها ، وشراء بيت آخر في منطقة أخرى ، وفعلاً ساعدها المحامي ، إذ وجد لها مكتبا لبيع العقارات ، فباعت بيتها بسعر جيد ، كما ساعدها صاحب مكتب العقارات أيضا في إيجاد بيت آخر بمنطقة شارع فلسطين قرب ساحة الصخرة في الرصافة ، لكنه بيت صغير ، أشبه ما يكون بمشتمل ، بحيث استطاعت أن توفر بعض المال أيضا ، وهكذا انتقلت إلى منطقة جديدة لا يعرفها فيها أحد من الجيران ، وكان أهم شيء حرصت على نقله معها هي الكتب .
ما ساعدها على الاستمرار في العيش ، في الأشهر الأولى ، أنها اكتشفت مبلغا كبيرا نسبياً من المال كان والدها قد حفظه في حقيبته الموجودة في غرفته ، إلى جانب ما تبقى لها من مال جراء بيع البيت الكبير القديم ، وشراء هذا البيت الصغير ، وهذا ما ضمن لها العيش الكريم خلال كل

هذه الأشهر ، كما أن الإرث الذي حصلت عليه من نصيب زوجها ، وإن تأخر سبعة أشهر ، إلا أنه منحها الشعور بالأمان المادي للسنوات المقبلة.
بعد الإنتهاء من التحقيق ، في جريمة ذبح آدم المحروم ، أخذت حواء الزاهد جميع كتبه التي اشتراها لها ذات يوم لتقرأها عنده ، وأخذت هويته ووثائقه ، وحاولت عن طريق ستوديو التصوير في منطقتهم أن تكبر له ولوالدها صورتيهما ، ووضعتهما في إطارين ، وعلقتهما في غرفتها .
في أعماق نفسها كانت تحس أنها أرملة آدم المحروم التي ترتبط به روحيا ، وتحسه جسديا من خلال الجنين الذي بدأ يتحرك بنعومة في رحمها ، وكثيرا ما كانت تستعيد كل لحظة عاشتها معه ، أو عاشها بينهم في البيت.
خلال شهور الحمل التسعة صارت حواء الزاهد أكثر عملية في تفاصيل حياتها اليومية ، وكانت تفكر بشكل اقتصادي في كل خطوة تخطوها . صارت أكثر زهداً في الإنفاق ، إلا في ما يخص ابنها ، إذ أخذت على نفسها أن لا تحرمه من أي شيء ، وأن تغدق عليه ما تستطيع من الحنان والرعاية والإهتمام ، لاسيما وأنها سجلته في المدرسة القريبة منهم.
كان حملها خفيفا ، إذ لم تتعرض إلى حالت التقيؤ كثيرا سوى في الأشهر الأولى . وكانت تعرف بالضبط متى حدث الحمل ، لأن علاقتها مع حبيبها المذبوح آدم المحروم كانت قصيرة ، وفي فترة معلومة ، وبالتحديد في أيام سفر والدها . لذا فهي كانت تعرف ، تقريباً، موعد ولادتها . كما أن الطبيبة النسائية في منطقتهم أخبرتها بالتاريخ التقريبي لولادتها ، مثلما أكدت لها بأن الجنين ذكر.
ما إن تجاوزت شهرها التاسع ، ودخلت فترة أيام الولادة التقريبية ، حتى أخذت تنتبه لحدوث أشياء غريبة ، حيث بدأت تحس بأن هناك من هو موجود في غرفتها . أحيانا كانت تسمع صوت حديث نسائي في غرفة الصالون ، وحينما تغادر سريرها وتدخل الصالون لا تجد أحداً.
منتصف ليل ذلك اليوم البغدادي الرهيب ، ذهبت حواء الزاهد إلى فراشها . آخر إنفجار سمعته كان في حدود التاسعة ليلاً. حاولت أن تنام . ظلت لفترة ليست بالقصيرة عاجزة عن النوم . كانت تفكر في النوم بعينين ساهرتين . ولا تدري كيف أغمضت جفنيها ودخلت عالم النوم.
بعد ساعات طويلة من النوم ، فزت على إحساس غامض بأن هناك أشخاصاً في غرفتها . وما بين النوم واليقظة لمحت ثلاث نساء موجودات ، لكن حين فتحت عينيها لم تجد أحداً أيضا . بسملت وأخذت تقرأ آية

الكرسي ، بالرغم من أنها لم تعد تلك المرأة المتدينة.
ظلت حواء الزاهد مستلقية على السرير . كانت تنظر باتجاه الطاولة التي أنزلتها من غرفة والدها قبل أشهر ووضعت عليها الكتب التي أخذتها من شقة حبيبها آدم المحروم . وكذلك الحقيبة الجلدية التي فيها المخطوطات التي أخذها آدم المحروم من شقة صديقه الكاتب القتيل آدم البغدادي.
خلال هذه الأشهر قرأت معظم الكتب ، وكم دهشت حينما وجدت نفسها قريبة من شخصية آنا كارنينا ومدام بوفاري ، معا ً. كما قرأت مخطوطة (متاهة حواء – وادي الظلمات) للكاتب القتيل . تمنت لو أن حبيبها حي يرزق لتناقشه في الرواية ، لاسيما علاقة حواء المؤمن بالراهبتين ، وكذلك لتناقشه حول إعترافات الجارة الروسية إيفا أومسك ، إذ أنها أثناء القراءة توقفت طويلا ً عند الراهبتين اللتين كانتا تظهران في الحياة بشكل واقعي ، بينما هما روحان . كما فكرت بتحول حواء المؤمن إلى روح متنقلة أيضا.
ظلت غارقة في تأملاتها ، لكنها عادت إلى عالمها الواقعي نتيجة ضربات جنينها الناعمة على جدار بطنها . مدت يدها برفق إلى موضع حركة الجنين ، وتمنت أن تحدثه عن أبيه الذي ذ ُبح بشكل وحشي ، كما أشفقت على هذا الجنين الذي سيأتي إلى الدنيا دون أن يعرف حنان الأب ، بل ولا يجد له أبا ً أصلا ً.
نهضت بهدوء من سريرها . كان عليها أن تذهب مع ابنها لتوصله في أول يوم له بالحياة الدراسية . كانت قد اشترت له ملابس جديدة خاصة بالمدرسة ، وبعض المستلزمات الضرورية كما أخبرها مدير المدرسة حينما ذهبت لتسجيله.
مشت بتثاقل إلى الصالة . نظرت عبر النافذة فرأت الفجر قد أنار معالم الأشياء . لكنها أحست بأن الباب الخارجي مفتوح ، علما ً أنها ومنذ ذلك الفجر الأسود ، الذي حدثت فيه جريمة القتل ، أخذت تغلق الباب الخارجي بالمفتاح . استغربت الأمر . فكرت مع نفسها ربما هي قد نسيت أن تقوم بذلك ، لكن كل التفاصيل التي استرجعتها في ذاكرتها كانت تؤكد بأنها قامت بإغلاق الباب الخارجي بالمفتاح .
اقتربت من باب الصالة وتأكدت من أنه مغلق . مشت إلى المطبخ لتعد الفطور لابنها ، ولتعد الشاي لنفسها.
* * *
كان الآباء والأمهات قد جاءوا جميعا ً بأبنائهم في اليوم الأول لبدء حياتهم

الدراسية . بعض الأطفال كان فرحاً، والبعض الآخر خائفاً، ومن بينهم من كان غير مبالٍ. لم يكن العدد كبيرا بالنسبة للأطفال الذين يبدأون اليوم الأول من حياتهم الدراسية الطويلة .
استقبلها مدير المدرسة ، الأستاذ قابيل الفهد ، بالترحاب ، فقد كان واضح الإعجاب بها منذ يوم قدومها لتسجيل ابنها ، بالرغم من أنها حامل . ابنها آدم الملاك لم يألف الجو بسرعة ، فكان متشبثاً بأمه ، وقد أبدى المدير اهتماماً واضحاً به ، ليس من أجله ، وإنما من أجل أن يبقى قريبا من أمه ، وحاول أن يقنع الصغير بأن أمه سوف تنتظره في المدرسة أيضا . وهكذا عادت حواء الزاهد إلى البيت ، وهي تشعر بأنها ربما ستلد خلال ذلك اليوم .
ما إن اقتربت من رأس الزقاق حتى رأت النساء الثلاث اللاتي تراءين لها في الغرفة فجراً، وهن يخرجن من دارها ويتجهن إلى الجهة المعاكسة لجهتها . أرادت أن تدعوهن ، لكنها لم تستطع الصراخ . فكرت اللحاق بهن لكنها لم تستطع المشي بسرعة ، إلى أن إختفين في منعطف الزقاق من جهة الشارع العام.
أحست حواء الزاهد بشيء من البلل بين فخذيها . مشت بالقدر الذي تستطيعه من السرعة إلى البيت . حين دخلت الدار توجهت مباشرة إلى غرفة النوم واستلقت على السرير . كانت تشعر بتقلصات وانبساطات شديدة في رحمها ، وبتفاعلات هائلة تجري في سائر جسدها ، وبألم شديد يكاد يقصم ظهرها . عرفت أنها بداية آلآم المخاض ، وأنها ستلد اليوم أو غداً بلا شك.
لم تكن حواء الزاهد حينها تعرف ماذا ستفعل . إنها وحيدة وليست لديها علاقة بأي من الجارات ، كما ليس لديها أي أقرباء أو معارف يمكنها أن تتصل بهم . ولا تود أن تذهب إلى المستشفى ، فربما لن تلد اليوم ، وعليها أن تأخذ ابنها من المدرسة . وبالرغم من كل الوجع الذي هي فيه ، فكرت بأنها حسناً فعلت حينما أخذت تليفون إدارة المدرسة ، وتركت رقم تليفونها لديهم للإتصال بها عند الطوارئ.
كانت آلآم المخاض تتراوح في ترددها . كل نصف ساعة تأتيها موجات من الألم القوي الذي صار مع مرور الوقت يتكثف ويتصاعد كل عشرين دقيقة . كانت خلال الفترات بين موجات آلام المخاض تحاول أن تهيئ لنفسها ما تستطيع . أحضرت عددا من المناشف والشراشف النظيفة كي تلف الطفل فيه عند ولادته . كما بدأت بتسخين كمية من الماء . أحضرت مقصا وسكينا

ووضعتهما عند رأسها على السرير ، فربما تحتاجهما لقطع المشيمة . انتبهت إلى أن هاتفها النقال بعيد عنها ، مرتبط بقابس الشحن ، فأخذته ووضعته على الطاولة قربها .
كانت حواء الزاهد طوال الوقت تقرأ مع نفسها ، وأحيانا ً بصوت مسموع ، آية الكرسي ، التي تحفظها بشكل جيد . نظرت إلى ساعة الحائط في الصالة فعرفت أن الوقت قد قارب العاشرة والنصف نهارا ً. فكرت أن دوام ابنها في المدرسة سينتهي في الساعة الثانية عشرة . أحست بالخوف على أنها لن تستطيع أن تأتي به لحالتها التي هي فيها.
صارت موجات الألم تأتيها كل عشر دقائق . أحست أن ساعة الولادة قد قربت . لم تعد تستطيع تحمل الألم فأخذت تطلق صرخات حيوانية لا إرادية . مضت ، بكل ما تملك من طاقة على تحمل الألم ، إلى المطبخ ، وسكبت الماء الحار في قدر كبير ، وحملته بما لديها من قدرة إلى الغرفة . لم يعد بإمكانها التحمل . تمددت على السرير وهي تتلوى من الألم . وبدون شعور منها مدت يدها إلى وسادة ابنها وقضمتها بشدة كي تكتم الصرخة الوحشية التي تجتاحها . أحست بأنها قد ابتلت من التعرق.
لم يعد بإمكانها تحمل الألم . نهضت من السرير ثانية ، أمسكت بظهرها ومشت إلى المطبخ . فتح جارورا ً وأخذت ملعقة ، لفتها بمنشفة نظيفة من مناشف المطبخ وجاءت بها كي تستطيع أستخدامها عند تصاعد الألم . تمددت مرة أخرى على السرير في غرفتها المعتمة ، التي يضيئها بعض جوانبها من جهة الباب ضوء شاحب جدا ً، يأتي من باب السطح المفتوح في أعلى السلم ، ومن نافذة المطبخ المقابل للغرفة تقريبا.
كانت موجات الألم تتقارب ، وكانت تحس بأن رحمها بدأ يتقلص وينفرج دون إرادة منها . كانت مستلقية على السرير العريض وقربها كل ما كان يمكن أن تعده للولادة في مثل حالتها . وفي خضم آلام المخاض التي كانت فوق طاقتها على التحمل ، أمسكت بالملعقة الملفوفة بالمنشفة ووضعتها بين أسنانها.
كانت في حالة شوق لرؤية ابنها الذي في رحمها بعد ، فهو ابن آدم المحروم ، ثمرة الحب المحرم ، الحب الحقيقي ، الذي تعده أجمل لحظات حياتها التي عاشتها . كانت تحاول جاهدة إبعاد إستذكار والدها ، الذي تحبه كثيرا ، لأنها تشعر أنها ربما خذلته في هذا الأمر ، لكنها كانت تحس أنه يسامحها من كل قلبه ، هكذا كان إحساسها في تلك اللحظات .
فجأة ، أحست بألم خارق بين فخذيها ، لم تستطع أن تتحمله ، فكان

صراخها الوحشي يُسمع بالرغم من وجود الملعقة الملفوفة بالمنشفة بين أسنانها . في تلك اللحظات بالذات ، دخلت إلى الغرفة النساء الثلاث اللاتي رأتهن بشكل غائم فجر ذلك اليوم . إنها الآن تراهن بوضوح . كانت إثنتان منهن ذوات شعر اشقر ، امرأة مسنة وأخرى فتية رائعة الجمال ، والثالثة فتاة ذات شعر أسود ، شرقية الملامح ، وربما تبدو عراقية ، لانسجامها الكامل مع العباءة التي تضعها على رأسها ، بينما بدت الأخريان رائعتين بالرغم من أنهن كن يرتدين ثياب الراهبات .
شعرت حواء الزاهد بالخوف للحظة ، وخلال ثوانٍ فكرت بالطريقة التي دخلن بها إلى البيت ، إذ أن باب الصالة كان مقفلاً؟ ثم مَن هن؟ ومن أين جئن بالمفتاح؟ وماذا يردن؟.
وقفت النساء الثلاث أمامها . كن يبتسمن لها برقة ، سحبت حواء الزاهد الملعقة من فمها ، وتمتمت بكلمات متقطعة ، وهي تحاول كتمان أوجاع المخاض:
- من أنتن لو سمحتن؟
تبادلت النساء الثلاث النظرات في ما بينهن برقة وحنان مع ابتسامة خفيفة ، فقالت لها المرأة ذات الملامح الشرقية بالعربية وهي تبتسم لها إبتسامة دافئة:
- أنا حواء المؤمن. وهاتان هما الراهبتان، أنت تعرفيننا جيداً.
للحظة تكشف لحواء الزاهد المشهد كله ، إذن هن نساء رواية (متاهة حواء – وادي الظلمات) اللاتي عاشت الليالي معهن لمعرفة إن كن حقيقة أم وهماً، والتي تمنت لو ناقشت حبيبها آدم المحروم عنهن .
وبالرغم من آلام المخاض الشديدة ، ارتسمت إبتسامة على وجهها المتعرق ، ابتسامة محبة . فكّرت لثوان ، ربما الذي تراه ليس واقعاً.. ؟ لكن توجسها انقشع بسرعة حينما تقدمت حواء المؤمن منها ، نازعة عن رأسها العباءة فبدت في ثوب أزرق داكن أقرب إلى الكحلي ، ذات شعر أسود كثيف ، مصفوف ، ومفرق إلى جهتين .
أحست للحظة بسلام داخلي لوجودهن . إذن هن ملائكة الرحمة ، والأرواح النقية التي تخترق حجب الوجود المادي لتحضر من أجل مساعدة البشر في محنتهم الأرضية ، هكذا فكرت وهي ترحب بهن في أعماقها.
مست حواء المؤمن جبينها ومسحت حبات العرق التي تجمعت على صدغها ، وخلال لحظات تقدمت الراهبتان منها ، وأخذتا تقومان بدور القابلة . كانت حواء المؤمن تقول لها ، بلطف ، بأن تضغط على بطنها

للأسفل كي ينزل الجنين ، وكانت هي تستجيب تحت ضغط آلآم المخاض .
لم يستمر مخاضها طويلا ً. فبعد أقل من ساعة سمعت صرخات وليدها ، حيث قامت حواء المؤمن بقطع حبل السرة عن المشيمة ، ثم رأت حواء الزاهد وليدها بين يدي الراهبة المسنة التي احتضنته ووضعته على صدر حواء الزاهد ، التي نظرت إليه بحنان أمومي امتزج فيه الحب بالشفقة.
بعد لحظات أخذته الراهبة الشابة من بين أحضان أمه التي كانت تشعر بسلام داخلي وسعادة ، لتغسله مما علق به من دم ومواد أخرى ، بينما قامت حواء المؤمن بلملمة المشيمة التي خرجت بالكامل من رحم حواء الزاهد.
حين انتهت الراهبة الشابة من تنظيف الطفل الوليد ولفه بشرشف أبيض ، وضعته ، مرة أخرى ، على صدر أمه التي أخذته بحنان وقبلته على جبينه.
كانت النساء الثلاث واقفات قربها ، نظرت حواء المؤمن إليها بحنان وسألت:
- ماذا ستسميه؟
نظرت هي إليهن بحيرة متفاجئة من هذا السؤال . وبعد لحظات قالت:
- لا أدري.. أسميه.. هابيــل؟
تبادلت النساء الثلاث النظرات في ما بينهن وهن يبتسمن . التفتت حواء المؤمن إليها قائلة:
- إسم جميل.. لكن لماذا هابيــل؟
- لا أدري.. أول اسم خطـر ببالي.. أليس هو اسم ابن آدم الذي قتله أخوه قابيل؟
تبادلت النساء الثلاث النظرات بشكل يشي بأسرار لم يفصحن عنها ، فقالت حواء المؤمن :
- نعم.. هذا صحيح. إذاً أنت تعرفين الحكاية.. فليتبارك اسم هابيل الصغير..
كانت حواء الزاهد قد تجاوزت آلام الولادة ، وكانت تحس بسلام داخلي . لكنها فجأة تذكرت ابنها الآخر آدم الملاك . مدت يدها إلى جهاز الهاتف تحت الوسادة لتتأكد من الوقت ، إذ عليها أن تأتي بابنها من المدرسة ، كانت الساعة الثانية عشرة بالضبط . ارتسمت علامات القلق على وجهها ، فقالت لها حواء المؤمن مبتسمة:
- لا تقلقي سأذهب إلى المدرسة وآتي بآدم الملاك. يمكنك الإتصال بالإدارة لتخبريهم بأن خالته حواء المؤمن ستأتي لأخذه. ثم أن الأختين ستبقيان

معك هنا لتساعدانك في أي شيء تحتاجينه. حاولي إرضاع الصغير قليلا، بعدها يمكنك أن تنامي. نحن معك. لا تقلقي. يجب أن تستعيدي عافيتك وقوتك. فأمامك درب طويل.
إبتسمت حواء الزاهد لها برغم تعب الولادة ، وتنقلت بإبتسامتها إليهن ، وفكرت مع نفسها أنها قد كسبت صديقات حقيقيات من رواية (متاهة حواء – وادي الظلمات)، لكن كيف يمكن أن تخرج الشخصيات من أعماق الرواية لتتجسد في الواقع . وهل ما تراه هو واقع حقاً ؟ . أحيانا نرى أشياء لكن لا نثق بأننا نراها ، بالرغم من تأكدنا من رؤيتها حقيقة . هكذا فكرت مع نفسها .
ثلاثة أشهر مرّت على ولادتها . بقيت النساء الثلاث معها لمدة أربعين يوماً. كن يأتين إليها حينما كانت تشعر بالوحشة وتعيش صراعاً نفسياً مع ذاتها ، أو حينما يحتل السأم روحها . ثم أختفين ولم تعد تراهن .
* * *
في تلك الليلة ، حينما بدأت قراءة إحدى المخطوطات الروائية التي تركها حبيبها ، كانت أعماقها مزحمة بالمشاعر . كانت تقاوم الانجذاب نحو الذكريات بالرغم من رغبتها العنيفة في ألا تنسى . كانت تشعر بأنها تعيش في زمان آخر غير هذا الزمن الملعون الذي يقبض على بلادها بمخالب قاسية . كانت تشعر بأن وجودها هو ليس سوى مغالطة تاريخية .
قلبها يطفح بأحاسيس رقيقة جداً، بالصداقة مع الجميع دون استثناء ، بشرا وأشياء . حتى صورة حبيبها آدم المحروم وهو غارق بدمه ، مذبوح العنق ، لم تثر فيها ، حينما استذكرتها ، ذلك الألم كالسابق . تخيلته وهو في قبره المظلم يبتسم لها ، وينظر إليها بحنان وهي تحضن ابنه الرضيع الذي كان يلتقم حلمتها .
ظلت على تلك الحال إلى أن شبع الرضيع ونام بعمق بين أحضانها . نهضت بهدوء وهي تحمله . وضعته في مهده . غطته . رجعت إلى السرير مستلقية عليه . أخذت مخطوطة الرواية التي كانت قد بدأت قراءتها . انتبهت فجأة إلى أن ابنها الآخر آدم ، والذي ينام على طرف السرير من الجانب الآخر ، كان ينظر إليها . ابتسمت له ، إلا أنه كما يبدو كان ما بين النوم واليقظة . مدت يدها مداعبة شعره الأسود الكثيف ، فعاد فجأة إلى النوم غالقاً عينيه . ظلت للحظات تفكر مع نفسها بهذا الأمر . هل كان ابنها صاحيا أو نائما؟ وإذا ما كان صاحيا فهل هذا يعني أنه يغار من أخيه هابيل؟ لم يبد عليه خلال تلك الأشهر الثلاثة أنه يغار من أخيه

الرضيع ، لكن ربما لم تنتبه لذلك . عليها أن تنتبه للأمر .
لم تستغرق طويلا في التفكير بغيرة آدم الملاك من أخيه هابيل ، لذا دخلت عالم الرواية المخطوطة بشوق .
في حضرة المرأة الرائعة
كان القطار قد تحرك متجها إلى ميونخ . وكان آدم التائه يترنح بين ممرات القاطرات ليصل إلى عربة القطار التي قد حجز مقعداً له فيها . كان يبحث عن القاطرة رقم واحد والمقعد 95 . وحينما وصل تلك العربة اكتشف أن المقعد المخصص له يقع في مقصورة صغيرة تسع أربعة ركاب . أحس بالارتياح حينما وجد أن المقصورة فارغة . نزع معطفه الصوفي الأسود . طواه ووضعه على حمالة الحقائب أعلى رأسه . وضع الحقيبة هناك أيضا . وقبل أن يجلس أخرج كتابين أحدهما بالإنكليزية قد اشتراه من مكتبة المحطة ، وكان رواية الأحمر والأسود لستندال ، والآخر كتاب بالعربية هو مسرحية ريتشارد الثالث لشكسبير ، وقد وضعهما على الطاولة الصغيرة المثبتة على القسم الأسفل من نافذة القطار .
ما إن جلس حتى أخذ الكتاب الذي اشتراه للتو بيده متصفحا إياه ، معجبا بطباعته وباللوحة الفنية التي تم إختيارها كغلاف للطبعة الانكليزية . صحيح أنه يستطيع أن يتحدث ويقرأ بالألمانية لكنه ليس بذلك المستوى من التطور اللغوي بحيث يستطيع القراءة بحرية ، بينما كانت لغته الإنكليزية متقدمة جداً.
بينما هو يتصفح كتابه الأثير فُتح الباب ودخلت المرأة باهرة الجمال التي قابلها في المطار والمحطة . لم تقل شيئا . ابتسمت وأخذت تتحقق من مقعدها الذي كان قبالته تماما . أرادت أن ترفع حقيبتها لتضعها على حمالة الحقائب فبادر هو مسرعا لمساعدتها . إبتسمت له قائلة له بالإنكليزية :
- شكرا لك.. هذا لطف منك..
- لا شيء يستحق الشكر. قالها بإنكليزية جيدة.
جلست المرأة أمامه وأخذت تنشغل بنفسها ، نزعت عنها سترتها السوداء وعلقتها على حمالة المشجب الصغيرة عند النافذة . كانت ترتدي قميصاً حريرياً أرجواني اللون لم ينتبه له حينما دخلت المصعد أول مرة . فتحت حقيبتها وأخرجت منها كتاباً. أحس بفضول قوي في أن يعرف عنوان الكتاب ، لكنها كانت قد وضعته على الجهة المقابلة للغلاف الرئيسي . مدت يدها وأخرجت مرآة صغيرة فتحتها ونظرت لنفسها ، لعينيها وأهدابهما

وتأكدت من مكياجها غير المنظور . أغلقت ْ المرآة ووضعتها في حقيبتها .
نظرت إليه وفي عينيها لطف ورقة وكأنها اطمأنت للشخص الذي يرافقها في المقصورة . لم تقل شيئا ً. أخذت الكتاب لتقرأ فيه .
كان آدم التائه ما يزال تحت صدمة تحولات إيفا بيرغمان ، واختفاء مكتب السياحة في مدينته الأولى ، وتحول المكتب في ليلة وضحاها إلى متجر لبيع الخبز والفطور السريع ، وكذلك أحداث القطار الفارغ من الركاب ، والذي بدا له بدون سائق ، والتأخر الذي حصل بشكل غريب ومريب أثناء سفره . كان يحس بأنه يتعرض لتجربة روحية ونفسية هائلة . وها هي امرأة أخرى باهرة الجمال تعترض مسار حياته . أهناك قدر غامض يقود كل هذه الأحداث ، ويضعه في مركزها .. ؟ أم أنه ، نتيجة صدمة خيانة زوجته حواء المؤمن ، صار لا يفرق بين الوهم والواقع ، والتبس عليه الأمر؟ أتكون هذه المرأة روحا ً أم وهما ، كما كانت إيفا بيرغمان؟ وهل كانت إيفا بيرغمان وهما ً حقا ً؟ لو كانت كذلك فمن أين جاءت بطاقات السفر المحجوزة باسمه؟ لكن كيف تم تحويل موعد السفر؟ وكيف له أن يعرف أن هذه المرأة باهرة الجمال ، التي اقتحمت عالمه فجأة ، والتي تشبه إيفا بيرغمان بعض الشيء ، ليست روحا أيضا ً؟ .
ظل آدم التائه غارقا ً في أفكاره ، لكنه برغم كل تردده وتشوشه النفسي كان يسعى لكي يبحث عن سبب للحديث مع هذه المرأة . وبينما هو في سوح أفكاره وخططه فُتح الباب ودخل محصل البطاقات . قال لهما بالألمانية :

- الراكبون الجدد.. بطاقاتكم رجاءً..

بدون أي كلام أخرج هو بطاقته وناولها له ، فكبس عليها بمثقابه وأرجعها إليه دونما أي كلمة . مدت هي أيضا البطاقة له فأخذها كابسا ً عليها بمثقابه ، ثم أرجعها لها . نظر إليهما بلا مبالاة ثم خرج من المقصورة .
نظر كل منهما إلى الآخر مبتسما ً ابتسامة خفيفة تعليقا ً على تصرف موظف القطار الجاف ، لكن دون أي مبادرة بالحديث . مد هو يده للرواية التي إشتراها من المحطة واخذ يتصفحها . فكر مع نفسه ، أن وجود هذه المرأة يشغله ، ولا يمنحه الراحة والهدوء للبدء بقراءة هذه الرواية ، التي كان قد قرأها مرات عدة بالعربية ، لكن ثمة هاجس في أعماقه يؤكد له بأنه يعرف هذه المرأة ، وأنه شاهدها في مكان ما ، لكن أين ، وكيف ، ومتى؟ إنه لا يستطيع أن يتذكر شيئا .
كانت المرأة تلقي عليه أحيانا نظرة قصيرة عابرة ، دون أن تتيح له فرصة

الانتباه لذلك . كانت تود هي أن تتحدث معه ، فالطريق إلى موينخ طويل جدا ً، وهو كما يبدو لها إنسان مهذب ، وسيم ، لكن ثمة حزن يخيم على روحه ، ويسكن في أعماق عينيه . ترددت أول الأمر مع نفسها بسبب ملامحه الشرقية ، التي برغم جاذبيتها بالنسبة لها ، ذكرتها بطبائع الرجال الشرقيين الذين عرفت الكثير عن طبائعهم من صديقتها العربية في لندن . إلا أن هذا الرجل يبدو لها مختلفا ً. على أية حال فقد وجدت أنه لطيف الشخصية ، ألم يساعدها في إيقاف باب المصعد في المطار ، مثلما ساعدها في حمل الحقيبة ووضعها أعلى المقصورة على حمالة الحقائب؟ . لكنها لا تريد أن تبادر ، فلربما يفهم هو مبادرتها للحديث معه بشكل خاطئ ، فقد عرفت من صديقتها بأن الرجل الشرقي إذا ما حدثته امرأة فهو يفهم ذلك بأنها تريده أو تدعوه إليها .

كان آدم التائه يسعى بشكل واضح لفتح باب الحوار معها ايضا ً، لكنه يتجنب المبادرة . كانت كبرياؤه أقوى من فضوله بالمبادرة في التعرف عليها . لذا فكر في أن يترك الأمر للحظة المناسبة .

نظر إليها متأملا ً فرأى أنها هادئة جدا ً. تقرأ دونما انفعال واضح بما تقرأ ، وكأنها ليست منسجمة مع ما تقرأ ، وأن ذهنها في مكان آخر ، أو أن الكتاب كان قناعا ً، أو جدارا ً ليمنعه من التواصل معها ، بينما كانت هي ، بالرغم من عدم رفع رأسها من الكتاب ، تراه وهو ينظر إليها .

حاول أن يتعرف على شخصيتها من خلال قراءة ملامحها . أحس وكأنها تأسف على حلم ضائع . بدت له ، عنيدة ، هادئة ، مترفة ، رومانسية ، مع غضب مجهول خفي يتموج في نظراتها . بدت له وكأنها عرفت الكثير من الهموم والرجال ، وفي الوقت نفسه بدت ، وكأنها سيدة خالية من الهموم أو وحيدة ، مستقلة بشخصيتها ، تتمتع بحريتها ، كغزالة في غابة . فجأة رفعت رأسها إليه وحدقت في وجهه ، إرتسمت على شفتيها إبتسامة مغرية ، مع كآبة لطيفة إرتسمت على وجهها . أحس بالإرتباك وكأنه مراهق ، ولم يكن أمامه سوى أن ينهض خارجا ً من المقصورة .

حينما صار آدم التائه في الممر التفت إلى الجهة التي تقود إلى القاطرة المجاورة ، فرأى فتاة تدخن في تلك الفسحة بين القاطرتين . تحرك نحو غرفة الحمام المحاذية .

في اللحظة التي ابتعد فيها آدم التائه من أمام المقصورة ، ألقت المرأة باهرة الجمال نظرة على غلاف الكتاب فقرأت عنوانه ، وابتسمت مع نفسها ، فهي قد قرأت هذه الرواية ، وهي معجبة بستندال جدا ً، إذا ً،

وجدت سبباً تبرر فيه لنفسها اتخاذ مبادرة الحديث معه . ألقت نظرة على الكتاب الآخر فلم تستطع فك مغاليق حروفه لأنه كان بالعربية ، على الرغم من أن صورة الغلاف يحمل تخطيطا بريطاني الأسلوب . إزداد فضولها لمعرفة الشخص الذي يشاركها المقصورة . قررت مع نفسها أن تبادر بطريقة مهذبة بالحديث معه ، بحيث يكون الحوار عفوياً وغير مقصود .

حينما دخل آدم التائه إلى المقصورة ثانية رفعت رأسها إليه وعلى وجهها إبتسامة رقيقة ، فيها من التهذيب بحيث تفهم وكأنها ابتسامة مجاملة ، كتلك التي ترتسم على وجوه الأوربيين المهذبين عادة . إبتسم لها بدوره . شعر أن ابتسامتها حفزته لاتخاذ مبادرة الحديث معها ، لكن كيف؟ استعاد في ذاكرته بطل رواية (الأحمر والأسود) حينما كان يفكر محموماً في أخذ يد السيدة (مدام دي رينال) التي يعمل مربيا لأطفالها ، بحضور زوجها في عتمة الحديقة . يجب إتخاذ القرار الحاسم والمغامرة ، لكنه أحس بالشلل ، فهو ليس جوليان سوريل المغامر الجريء .

فجأة ، فُتح الباب وأطل فتى ألماني يدفع عربة تحمل مقبلات وحلوى وأباريق القهوة والشاي ، نظر إليهما وسأل إن كانا يودان شاياً أو قهوة ساخنة أو كابيتشينو . نظرآدم التائه للسيدة باهرة الجمال ، فابتسمت ، وقبل أن تقول شيئا طلب هو قهوة ، وفي لحظة كالبرق ، خطرت بذهنه فكرة أن يستضيفها على فنجان قهوة ، وليس هناك أفضل من هذه المناسبة لبدء الحديث معها ، فسألها بالألمانية إن كانت تود شرب شيء . انتبه إلى أنها ارتبكت ، فأدرك أنها لا تتكلم الألمانية فأسرع قائلاً لها بإنكليزية سليمة أن كانت تود أن تشرب شيئا ، قهوة أم شاياً أم كابيتشينو . ابتسمت وقالت إنها تفضل القهوة . صب لهما القهوة في كؤوس ورقية . وقبل أن تفتح السيدة حقيبتها كان هو قد دفع للفتى ثمن القهوة .

حينما صارا وحدهما ثانية ، نظرت السيدة باهرة الجمال إليه مبتسمة وشكرته بالإنكليزية على كرمه باستضافتها . ارتبك قليلا ، مبدياً أريحية رجل شرقي . بعد أقل من نصف دقيقة سألته :

- إنك تتحدث الإنكليزية بشكل جيد..

إبتسم لها وقال ، مهيئاً نفسه لحديث طويل :

- لقد درست الإنكليزية منذ أيام الجامعة..ثم خلال الماجستير والدكتوراه.. هي لغتي الوحيدة التي أستطيع القراءة والتحدث بها بطلاقة.

- أرى ذلك.. من كتاب ستندال الذي أمامك..

نظرت إلى الرواية ، فأدرك أنها انتبهت للرواية ، فقال لها مبتسما ً:
- أنا أعشق ستندال..
نظرت إليه نظرة إعجاب مشوب بفضول ، وسألته :
- ماذا يعجبك في ستندال؟
- أبطاله.. عالمه.. أسلوبه.. أفكاره..
- أي من أبطاله يعجبك؟
- أوه.. هذا سؤال شيق فعلاً..
- نعم.. لقد أثرت فضولي. أنا معجبة به أيضا.. لذا أحببت أن أسأل..
- يعجبني بطله (جوليان سوريل) في (الأحمر والأسود)..وكذلك (فابريسو) في (صومعة بارما)..
- والنساء..أقصد بطلاته من النساء..
- تعجبني شخصية (مدام دي رينال) في (الأحمر والأسود)
- وماذا عن شخصية (ماتيلدة دي لامول)؟
انتبه آدم التائه فجأة إلى أنه أمام امرأة غير عادية ، امرأة تعرف ستندال وعالمه النسوي وبطلاته غير العاديات ، إذ نسي ّ، في حمى نشوته النرجسية في تقديم نفسه ، وأنه يتحدث مع سيدة باهرة الجمال ، لا يفكر الرجل أمامها إلا في ملامستها وتقبيلها واحتضانها ، بينما هي تحدثه بمقدرة العارف الخبير بالأدب ، وبستندال ، على الأقل . فقال لها :
- تعجبني هي أيضا.. لكني أحببت السيدة الأولى أكثر..
- آها.. ولماذا، إذا تفضلت بإبداء رأيك..؟
- لأني أعتقد بأن (جوليان سوريل) عشق السيدة (مدام دي رينال) بكل كيانه، وبكل القوة والتحدي الذي في أعماقه. وجد فيها الأم، والحبيبة، والعشيقة. منها تعلم الدروس الأولى في الحب والجنس.. بينما علاقته بالحسناء (ماتيلدة دي لامول) كانت علاقة عقلية. أحبها بعقله المتوقد.. أقصد أنه خطط لهذه العلاقة ليصل إلى أهدافه. مع السيدة الأولى وجد نفسه دون إرادة منه غارقا في حبها، بينما مع الثانية كان يخطط كي تقع في حبه. حبه لمدام دي رينال حب عاطفي، حقيقي، حار، انجذاب جنسي لاشعوري ولا إرادي، بينما حبه لماتيلدة دي لامول هو حب عقلي، بارد، فرضه طموحه المتلتهب.
كانت المرأة باهرة الجمال تنظر إليه وعلى وجهها ابتسامة رقيقة ، وعيناها تشيان بإعجاب وتعاطف لتفسيره ، فقالت :
- يبدو لي أنك متخصص بستندال.. فتفسيرك له جميل.. بالرغم من أن لي

وجهة نظر أخرى..

- شكرا لك على المديح... لقد قرأت ستندال مرات عدة..سواء (الأحمر والأسود) أم (صومعة بارما)..

- بالإنكليزية

- لا.. بالعربية..

- آها.. وماذا عن (صومعة بارما).. كيف ترى أبطالها.. من يعجبك أكثر (فابريسو) أم عمته (الكونتيسة جينا بترانيرا)؟

أحس آدم التائه وكأنه أمام امتحان ، وعليه أن يكون حذرا في الإجابة .. فالحديث مع هذه المرأة التي تعرف أبطال ستندال بالأسماء لم يعد وسيلة للوصول إليها ، بل ربما سيتحول إلى سد منيع يفصل بينهما . فقال :

- أنا أعتقد أن ثمة وشائج بي روايتي (صومعة بارما) و (الأحمر والأسود)، بل إن (صومعة بارما) هي الوجه الآخر لرواية (الأحمر والأسود).. على الرغم من أن الثانية كُتبت قبل الأولى.. أقصد.. أن (فابريسو) لا يختلف كثيرا عن (جوليان سوريل).. بل (فاريسو) قد التحق بقوات نابليون بينما (جوليان) كان يخفي صورة لنابليون وكأنها تعويذة خلاص. كما أن (الكونتيسة جينا بترا نيرا) هي نسخة جديدة أكثر حضوراً من شخصية (ماتيلدة دي لامول).. على الرغم من أن علاقة (جوليان) بالسيدة (مدام دي رينال) هي، حسب رأيي، موجودة ضمنا في علاقة الملازم الفرنسي(روبير) مع المركيزة (دل دونغو) والدة (فابريسو) حينما سكن لديهما لمدة سنتين. ويمكن أن نجد لمسات لمثل هذه العلاقة السرية بجمل مقتضبة في الرواية.

صمتت للحظات وكأنما تفكر في ما قاله ، ثم أعقبت :

- في ما يخص تماهي شخصيات (صومعة بارما) و(الأحمر والأسود) كُتب عنه الكثير، ربما ليس بهذه الطريقة، لكن ملاحظتك عن علاقة (الملازم روبير) والمركيزة (دل دونغو) ربما أجده جديداً لأن ستندال لم يتحدث عن علاقة بينهما أصلاً.. وكذا تفسيرك لعلاقة (جوليان) بالسيدتين في (الأحمر والأسود).. شكرا لك.. لكن ألم تلاحظ أننا نتناقش في أشياء مهمة وعميقة دون أن نتعارف..!

- هذا صحيح..

وبشكل مفاجئ بالنسبة له مدت يدها لتصافحه مقدمة نفسها :

- إيفا ليسنج.. من لندن

- آدم التائه..

- تشرفنا.. من أين أنت لو لم يضايقك سؤالي..؟

- من العراق..
- أوه.. العراق.. الحرب.. الغاز الكيمياوي.. هلبجة..صدام حسين..حقوق الإنسان.. إن وضعكم صعب جداً..
- لتنزف دماً إذن يا بلدي المسكين..!
- أوه.. هذا من (ماكبث) لشكسبير
- نعم..
- أتدري.. لقد قدمت شخصية ليدي ماكبث لأكثر من سنة على أحد المسارح بلندن..!
- هل أنت ممثلة؟
- نعم.. أمثل في المسرح أساساً، لكن لدي أعمال سينمائية أيضا.. وأنا هنا للتعاقد على المشاركة بالتمثيل في مسلسل تلفزيوني يُعد عن رواية (مرتفعات وذرينغ) لأميلي برونتي..
شعر آدم التائه وكأن ستارة سميكة سوداء قد انزاحت جانبا لتكشف عن المشهد بأكمله . إذن ، أنها ممثلة معروفة ، ويبدو أنه قد رآها في فيلم ما أو رآى صورتها في مجلة ما . نعم .. نعم .. تذكرها .. لقد رأى صورا ً لها عن انقطاع علاقتها مع عشيقها .. وكيف كانت تعاني .. بل إنه تذكر أين تصفح المجلة .. نعم .. كان ذلك في عيادة الطبيبة الإيرانية حينما ذهب مع زوجته السابقة حواء المؤمن لفحصها .
أحس آدم التائه بشيء من الخيبة لكون هذه السيدة التي أمامه ليست امرأة عادية ، وإنما نجمة سينمائية معروفة ، ومن سيدات المجتمع المخملي اللاتي تلاحقهن كاميرات المصورين والبباراتزي . إذن المسافة صارت شاسعة بينهما ، وصارت هي نائية وبعيدة المنال ، فلو كانت غير مشهورة فربما سمح لخياله أن يقوده إلى تصور إمكانية إقامة علاقة معها ، لكنها نجمة مشهورة ومحاطة بأجمل الرجال ، ناهيك أن لديها عشيقا ً، صحيح أنها قطعت علاقتها به ، بيد أنها تظل نجمة سينمائية عالمية . صحيح أنها تبدو كامرأة متواضعة ، وبسيطة للغاية ، ولا يبدو عليها الغرور والكبرياء اللذان يصيبان بعض النجوم ، إلا أن في شخصيتها وحضورها الجسدي ، وأناقتها ، ما يشي بأسرار كثيرة . وللحظة فكر ، كيف لإمرأة باهرة الجمال مثلها ، يمكن أن تتماهى في شخصية دموية كشخصية الليدي ماكبث .
كانت الأفكار تمرق في ذهن آدم التائه بسرعة ضوئية . علق على كلامها قائلا ً:
- إذن أنت نجمة مشهورة..!

- أوه.. النجوم في السماء.. بينما أنا أدب على الأرض دبيباً سيئاً..
- أهذا ما تقوله الليدي ماكبث؟!
نظرت إليه وقد ارتسمت على وجهها إبتسامة حزينة مفاجئة ، وقالت :
- نعم..الليدي ماكبث عقل صغير وطموح كبير.. إنها روح تلطخت بالوحل..تسلحتْ بالقسوة كي تخون نفسها.. شهوتها للسلطة مرعبة كنار الجحيم.. لكنها أيضا امرأة مرعوبة.. ورعبها وخوفها من الوحدة والعزلة والنسيان هو الذي جعلها قاسية بهذا الشكل.. طموح هائل وروح دنيئة، خوف وضعف في أعماق النفس.. إنها قارة من الكراهية للنفس وللآخرين.. أتعرف..لقد آذاني تمثيلي لدور الليدي ماكبث كثيرا.. مررت بفترة نقاهة طويلة بعدها..
صمت للحظة وهو يتأمل مع نفسه ما قالته عن شخصية الليدي ماكبث ، ثم سألها :
- ما الذي منحك تمثيلك لشخصية الليدي ماكبث..؟
نظرت إليه للحظات بصمت . إنه يسأل أسئلة ذكية ، يحاول أن يجوس في أعماقها ، وبالرغم من أنها حذرة في أن تسمح لأي كان أن يتوغل في أعماقها ، إلا أنها أحست برغبة في أن تجيبه ، أن تكشف له عن بعض ما يجول في أعماقها ، عن بعض جوانب شخصيتها .
- لقد منحتني الليدي ماكبث فرحاً مزيفاً، لكنها ساعدتني على إكتشاف الكراهية.. الكراهية نار حقيقية، نار صافية بلا دخان، لذا فهي تلتهم كل شيء.. في معظم الأحيان لا تقع الطريدة وحدها في المصيدة، وإنما الصياد أيضا.. إن المزيد من الحزن هو كالمزيد من الفرح، أنهما يجعلان الإنسان كائناً مقدساً.. لكن الليدي ماكبث لم تكن حزينة.. وإنما كانت امرأة حقودة.. كتلة من الحقد.. عقلاً شيطانياً.. وإذا ما كان ماكبث يقول بأن عقله مليء بالعقارب، فعقل الليدي ماكبث كان عقدة من أفاعي الكوبرا السامة..
كانت إيفا ليسنج ، المرأة باهرة الجمال ، تتحدث وكأنها تحدث نفسها . نبرة حزن تعطر صوتها . أحس أنها امرأة حزينة بعمق ، ومتميزة بشكل نادر ، وذكية بشكل مأساوي .
انتبهت هي إلى حالتها النفسية ، وكأنها كانت في لحظة إعتراف . أرادت أن تغير مسار الحديث .. فسألته :
- وأنت.. ماذا تفعل.. أقصد ما هي مهنتك؟
- أنا أستاذ جامعي.. أو بشكل أدق.. كنت أستاذاً جامعياً..

- ولماذا كنت؟ والآن؟
- أنا لاجئ سياسي.. أنا كاتب..
- هكذا إذن.. وماذا تكتب؟
- أكتب روايات..
- أوه.. هذا شيء رائع.. فهمت الآن سر فهمك العميق لستندال.. إذاً، أنت خبير بفن الرواية..
- لا أدري إنْ كنتُ خبيراً.. لكني أكتب بطريقتي..
- هل لديك كتب مطبوعة؟
- لدي رواية منشورة اسمها (كوابيس القنفذ).. لكني مؤخرا انتهيت من كتابة رواية أخرى اسمها (متاهة آدم.. أو.. المرأة المجهولة)..
- آها.. وعن ماذا تكتب؟
- عن مصير الإنسان..عن حياته الرمادية، المهملة، والشاحبة كالغبار. أكتب عن الإنسان ذي القلب الحر والعقل المكبل..عن الإنسان الذي يجهل من أين هو قادم.. ولا إلى أين هو ذاهب؟
- مثير.. لكن، مَن منا يعرف إلى أين هو ذاهب؟ ليس هناك يقين كاملاً وثابتاً..

قالت ذلك ونظرت عبر نافذة القطار ، الذي كان يقطع سكة الحديد التي تخترق طريقا ً تعلوه أشجار كثيفة ، حتى بدا وكأن القطار يسير في حفرة عميقة . هيمن صمت قصير عليهما . كان كلاهما يتوغل في أعماق نفسه وتفكيره بسرعة ضوئية هائلة .

انتبهت إيفا ليسنج إلى أن هذا الرجل قد تغلغل إلى أعماق نفسها ، دون إرادة منها ، وبطريقة لاواعية . كانت تحس وكأنها وحيدة في مكان غريب مليء بالضباب ، ترتدي فستانا ً أبيض ، لكن هناك ملامح لكيان رجل لا ترى منه سوى وجهه . كان الوجه يتغير بسرعة شديدة . ربما هو وجه لجميع الرجال الذين عرفتهم ، أحبتهم ، عاشرتهم ، لكن الوجه الأبرز كان وجه عشيقها السابق ، ثم تحول لوجه هذا الرجل الغريب الذي أمامها ، لكن كلما ازدادت رغبتها في أن تقترب أكثر من هذا الرجل ، أحست بقوة مجهولة تدفعها لإبعاده عنها ، وكأنها كانت تخاف من ضعفها في أن تتورط بعلاقة غير محسوبة ، ربما ستدفع ثمنها غاليا في ما بعد ، لكن ما الذي يجعلها تحس بالإنجذاب نحو هذا الرجل الذي لم يمض سوى أقل من ساعة من تعرفها عليه؟ هل هو فراغ حياتها الآن من أي رجل ، بينما كانت هي طوال عمرها محاطة بالرجال؟ . هل ت ُرى هي تحاول أن

تتحدى وحشتها الذاتية؟ ووحدتها؟ والمجتمع الذي كان ينظر إليها من زوايا مختلفة ، ما بين نظرات التشفي من بعض غريماتها ، أو نظرات الشفقة من البعض ، والمواساة من قبل الأهل ، أو السخرية من بعض الرجال والنساء من المحيطين بها؟ ألن يتخذوا من الأمر خبراً فضائحياً لو عرفت الصحافة ذلك؟ لكن ما الذي يجري معها الآن؟ كيف جاءت كل هذه الأفكار إلى رأسها خلال أقل من الثانية؟ ما الذي جرى حتى تضع كل هذه السيناريوهات لعلاقة لم تحصل؟ إنها لا تعرف أي شيء عن آدم الغامض هذا؟ ربما سوف يمضي كل منهما في سبيله ، بل ربما هو لا يتجه إلى ميونخ أصلاً؟ .. وبدون إرادة منها وجدت نفسها تسأله :

- هل أنت ذاهب إلى ميونخ؟
- نعم.. وأنت؟
- أنا أيضا..
- طيب.. أمامنا وقت طويل إذن..

إبتسمت . أحست بشيء من الراحة النفسية . ليس عليها أن تخاف .. لتكن تجربة سفر عابرة . إرتبكت وكأنها أحست أنه عرف ما تفكر به ، لكنها لا تحب المغامرات العابرة ، لا .. إنها ليست واثقة من أنها لا ترغب في أن تعيش علاقة عابرة مع هذا الرجل؟ ما المانع؟ إنها الآن في ألمانيا وليست في لندن حيث هي معروفة ، وحيث المصورون والصحافيون يلاحقونها . لا .. لا .. لتترك نفسها على سجيتها .

بينما كانت إيفا ليسنج ، غارقة في أسئلتها مع ذاتها ، وهي تنظر من النافذة ، كان هو يتأملها . ثمة إحساس غامض راوده بأنها هي ربما نفسها إيفا بيرغمان ، الراهبة الجميلة ، والموظفة في مكتب الفردوس للسياحة ، والروح الغامضة . لكن .. لا .. فهذه تبدو أصغر منها عمراً، بل وتميل إلى النحول . عيناها أكثر إتساعاً من تلك ، وربما قامتها أقصر بقليل ، كما أن تلك المرأة كانت تتميز بصدر شامخ بنهدين عامرين ، بينما هذه المرأة ذات نهدين يبدوان صغيرين ، لكنهما مثيران ، يتناسبان مع صدرها الناحل ، وكتفيها الناحلتين . لا .. إنها ليست تلك . إذن أنها ليست روحاً وإنما امرأة من لحم ودم .

حاول أن يدرس جسدها بعينيه ، فانتبه لتناسق جسدها وفتوته . كانت بشرتها بيضاء تميل إلى اللون الوردي . بشرة صافية ملساء . فخذان مثيران متناسقان بشكل لا يمكن ملاحظتهما ، لكنهما ليسا ممتلئين ، بل يميلان إلى النحول . من المؤكد أنها تعيش حياة مثيرة مع الرجال ، فامرأة مثلها لا

يمكن أن تكون وحيدة ابدا ً، لكن لماذا هو يركز على حياتها الجنسية ، قبل أن يفكر بأي شيء آخر؟ هكذا سأل نفسه ، ولم يتردد بالإجابة عليها أيضا ، فهو يؤمن أن الحياة الجنسية هي الحياة الحقيقية ، الداخلية ، الغامضة ، والأساسية بالنسبة للإنسان ، وهي التي تشكل الأرضية لذاته الحقيقية ، سواء أدرك ذلك أم لا ، قبل بذلك أم رفض ، بل ومهما لبس من الأقنعة المختلفة بإسم العفة والأخلاق والفضيلة !!. آه كم يكره ممارسة دور الفاضل العفيف . كم من الأفراح والمسرات التي على الإنسان أن يضحي بها باسم الفضيلة والعفة؟؟ . وهذه المرأة التي أمامه ، هذه الليدي ماكبث ، كيف هي حينما يترطب ما بين فخذيها من الشهوة ، كيف ستكون حينما يخترقها الرجل؟؟ . هل هي ذات المرأة الذكية ، المتفلسفة ، التي تتحدث بأفكار عميقة ، أو أنها ستصرخ بالرجل بأن يولجه فيها حتى آخره ولا يترك منه شيئا؟ إنهن كلهن كذلك . لا .. لا .. ليس جميع البشر كذلك . ماذا عن متعة الفن ونشوة الإبداع؟ ماذا عن نشوة تحقيق الهدف؟ ماذا عن متعة الكشف والإختراع؟ ماذا عن المناضلات العقائديات ، فمعظهن ينسين حياتهن الجنسية تقريبا ً، لكن هذا ما يبدو لنا ، أما حقيقة الأشياء فنجهل معظمها؟ ألم يكن للمناضلة روزا لوكسمبورغ عشيقا ً كتبت له أجمل رسائل الحب والرغبة؟ ألم يكن لجورج صاند عشاق علنيون وسريون؟؟ ألم يحدث اللواط والسحاق في عنابر السجناء السياسيين أيضا ؟ .
كان آدم التائه منهمكا بالأسئلة ، وبالتفكير في إيفا ليسنج ، حينما انتبهت هي إلى نظراته الفاحصة لها ، والتي قرأت فيها فضول رجل نحو امرأة جميلة . لم يزعجها ذلك لكنها ارتبكت . ابتسمت له ثم قالت :

- هل روايتك مترجمة إلى الإنكليزية؟
- لا..
- خسارة.. من المؤكد أنها ممتعة.
- لا أدري إن كانت ممتعة أم لا.. لكنها كانت قد منعت في بلادي عند نشرها في بيروت.. ولم يسمح بتوزيعها إلا بعد أن كتب بعض النقاد عنها مقالات في صالحها....
- هل هي رواية سياسية؟
- لا.. رواية كابوسية.. قريبة من عوالم كافكا..

ظلا يتحاوران حول مسألة التأثر والتأثير في الأدب والفن ، ومع كل جملة أو خطوة في عمق النقاش ، كانا يحسان بتقاربهما ، وفجأة سألته :

- منذ متى أنت في ألمانيا؟ ثم لماذا ألمانيا وليس إنكلترا، مثلاً، لاسيما

وأنت تتحدث الإنكليزية بطلاقة ومقدرة ممتازة؟
- هكذا هي الظروف. أحيانا لا نستطيع اختيار أقدارنا، ولا نستطيع التدخل في مصائرنا، إذ لم يكن أمامي سوى المجيء إلى ألمانيا.. ثم أني حينها لم أكن وحدي. كنت مع زوجتي السابقة.
أحست بإنزعاج خفي عندما سمعته يذكر أنه متزوج ، لكن ما طمأنها أنه تحدث عن زوجته السابقة . انتبهت لنفسها ، ولإنزعاجها ، وأن ّبت نفسها على هذا الشعور الغيور ، ماذا يجري معها؟ سألت نفسها ، لكنها واصلت السؤال قائلة :
- أرجو أن لا يضايقك سؤالي، هل أنت متزوج ولديك اطفال؟
- لا.. كنتُ متزوجا. لم أعد كذلك. وليس لدي أطفال. وأنت؟
لا يعرف كيف جاءته الجرأة لسؤالها عن حياتها ، بالرغم من أن الكثير من تفاصيل حياتها معروف من خلال الصحافة ، لكنه لا يعرف الكثير ، سوى خبر انفصالها عن عشيقها السابق . كما أنهما خلال هذا الوقت القصير ، انزلقا بسرعة إلى المناطق الخاصة والشخصية لكل منهما دونما حرج أو شعور بسوء النية . نظرت إليه ، وظنت أنه لا يعرف عنها أي شيء ، فقالت :
- كنتُ متزوجة، لكني انفصلت عن زوجي منذ سنوات. أنا مطلقة.. لدي ابن يعيش مع أهلي ومع أبيه أحياناً.. كان لدي صديق وانفصلنا منذ أشهر. أنا الآن وحيدة.. أعيش وحدي.. هذا كل شيء.
قالت ذلك وابتسمت له ابتسامة رقيقة . أحست بفرحه لإجابتها ، ولإرتباكه في الوقت نفسه ، وقبل أن يقول أي شيء ، واصلت حديثها قائلة :
- لدي صديقة عربية في لندن. إنها من إحدى دول الخليج. لكنها ولدت وترعرعت في إنكلترا. أبوها كان خبيراً في النفط. كان مضطرا إلى أن يتنقل بين بلدان عدة، لذا كانت العائلة تنتقل معه. إنها تعرف عدداً من اللغات واللهجات. لكنها بعدما بلغت سن الرشد عادت إلى لندن، وأكملت دراستها للأدب الإنكليزي في الجامعة، ثم واصلت الدراسات العليا متخصصة بشكسبير، وبالتحديد في التراجيديات التي كتبها شكسبير. أثناء كتابتها لإطروحة الدكتوراه تعرفت عليها، ونشأت بيننا علاقة صداقة عميقة. ومن خلالها تعرفتُ على الشرق، وبشكل أدق من خلال مأساتها الشخصية في زواجها من زوج شرقي، فتعرفتُ على تفكير المجتمعات الشرقية.
لم يفهم آدم التائه عن سبب سردها لقصة علاقتها مع صديقتها الشرقية . هل هي تريد أن تحذره من الإنجرار وراء تخيلاته الدونجوانية الشرقية ،

مذكرة بأنها تعرف تفكير الرجل الشرقي ، أم أنها ذكرت ذلك لتبين له أنها قريبة من الشرق والشرقيين ، وأنها لا تشعر بأية حساسية منهم ومن صداقتهم؟ ظل لثوان يحاول أن يجد الموقف الصحيح للتعامل مع هذه القصة ، لذلك علق بهدوء قائلا ً:

- صحيح.. هناك جيل جديد من العرب والمسلمين قد ولد في الغرب وتعلم فيه، لذلك فبرغم انتمائهم للشرق لكنهم يصطدمون بعالم الشرق وعاداته..

إبتسمت هي ، إذ أحست أنه في موقف تبريري وكأنها تحمله مسؤولية ما حدث لصديقتها ، فقالت له :

- لا.. الأمر ليس كذلك..فالرجل الشرقي الذي تزوجته هو أيضا كان قد ولد في أميركا وتربى، ودرس، وتخرج، هناك. وهو لم يتعرف على الشرق إلا من خلال محطات التلفزيون العربية التي تبث من لندن وبعض البلدان الأوربية. كما أنه لم يزر الشرق إلا نادرا، حينما كان صبيا، وخلال العطل الشتوية. لكنه، بالرغم من ذلك لم يستطع أن يتفهم وضع زوجته التي لم يأت بها من بلاده. أتدري ماذا طلب منها بعد الزواج مباشرة؟!

نظر إليها مستفهما ً، دون أن يسأل ، فواصلت الإجابة :

- لقد طلب منها أن تتحجب..!! علماً أنه كان يعرف أنها قبل الزواج غير محجبة..

- آها.. وهل استجابت لطلبه؟

- وماذا عليها أن تفعل..؟ تحجبت..لم تشأ أن تخرب حياتها الزوجية، لاسيما وأن عائلته وعائلتها في علاقة طيبة جداً. لكنه لم يكتف بذلك.. وإنما أخذ يضيق عليها حركتها، ويتدخل في أصغر شؤونها الأنثوية. إلى أن أخذ يحدد لها أيام خروجها..بل وصل الأمر به إلى أن يراقب ما تقرأه من كتب ومجلات.

- وهي.. كيف كانت تواجه كل هذه التدخلات من قبله.. أكانت تعارض؟

- نعم..كانت تعارض، لكنها كانت تعرف أيضاً أنها تقدم التنازلات من أجل الحفاظ على حياتها الزوجية.. علماً أنها كانت في أعماق نفسها على يقين بأن هذه العلاقة لن تدوم. لذا أخذت تتناول حبوب منع الحمل سراً كي لا تنجب منه.

كان آدم التائه يستمع لها ، لكن عقله كان يجري حساباته التحليلية باحثا ً عن تفسير ٍ منطقي ٍ وراء سرد هذه الحكاية بتفاصيلها له . ما علاقته هو بهذه القصة؟ وإلى أين تريد أن تصل من خلالها؟ إلا أنه كان مضطرا

ً لكي يستمع لها ، متابعا ً كل جملة تنطقها ، فلربما يجد مفتاحا ً من خلال الكلام . أما هي فقد واصلت :

- عاشت على هذا المنوال لمدة سنتين. انهارت عصبيا. لجأت إلى الأطباء النفسانيين، أخذت تتناول المهدئات..لكن تفاصيل حياتها لم تتغير. ولم ينقذها الأمر إلا بعد أن عرف زوجها صدفة بأنها تتناول حبوب منع الحمل منذ فترة طويلة. أرسلها إلى بيت أهلها ثم رفع دعوى الطلاق، وطلقها بعد فترة وجيزة.

انتبه آدم التائه إلى أنه بدأ ينسجم ويتماهى مع أحداث الحكاية ، ويتعاطف مع هذه المرأة دون إرادة منه ، بل دفعه الفضول إلى أن يسأل فجأة :

- هل كانت قد حكت لك كل تفاصيل حياتها الزوجية.. أقصد علاقتها الخاصة مع زوجها؟

- نعم..بكل تأكيد.. حكت لي عن كل شيء.. عن أدق التفاصيل..

- إذاً، كيف كانت علاقتها مع زوجها، أقصد علاقتهما كرجل وامرأة..؟

نظرت إيفا ليسنج نظرة فيها بعض التردد ، وارتسمت على شفتيها إبتسامة غامضة ، وقالت :

- هل أعجبتك القصة.. هل أثارت فيك شيئا يمكن أن يصلح للكتابة؟

- لا أدري.. لكني لو عرفت أكثر عن طبيعة علاقتها بزوجها، فلربما أجد فيها ما يمكنه التوغل فيه إبداعياً.

نظرت إليه نظرة غامضة وكأنها تمتحن الشخص الذي أمامها ، ثم قالت بتساؤل :

- إذا أحببت يمكنني أن أجد الوقت كي أروي لك الكثير عن حياة هذه المرأة.. وربما يمكننا أن نكتب معاً نصاً مسرحيا عن أوضاع المرأة.. ماذا تقول؟

فوجئ آدم التائه بطلبها . فكر مع نفسه ، هل يا تُرى هذه المرأة جادة في طلبها أم أن لديها غاية من ذلك؟ وكيف تطلب منه ذلك وهي النجمة المشهورة ، بينما هي لم تقرأ له أي شيء ، ولم تعرف إمكانيته الأدبية قط؟ لكن عليه أن ينتبه معها ، ولا يعطي أي جواب قاطع .. فهذه المرأة نفسها تصلح أن تكون موضوعا روائيا ً، لذا ابتسم بغموض وقال :

- هذا شرف لي.. لكن كيف لم تجدي في لندن أو أميركا من يستطيع أن يكتب معك ما تريدين..؟

ابتسمت إيفا ليسنج برقة ، وكأنها كشفت عن شكوكه ، فقالت :

- لسبب بسيط هو أني لم أفكر في هذا الموضوع إلا خلال هذه اللحظات وأنا أتكلم معك عنها..بل لا أعرف بالضبط لماذا أنا حدثتك عن صديقتي السيدة حواء صحراوي أصلاً؟

- ما أسم صديقتك؟

حاولت أن تنطق الإسم بشكل صحيح لكن لعدم وجود حرف الهاء باللغات الأوربية فأنها قلبت الحاء إلى هاء ، ورغم ذلك حاولت الضغط على حنجرتها لإخراج حرف الحاء ، فقالت :

- حواء صحراوي..
- حواء صحراوي.. حواء مرة أخرى..
- ماذا تقصد؟
- لا شيء.. كل النساء اللواتي قابلتهن في حياتي يحملن اسم حواء، أو إيفا..أتدرين ان اسم حواء بالعربية هو نفسه إيفا في اللغات الأوربية..؟
- أعرف ذلك..فصديقتي قد أخبرتني بذلك.. لكن..

لم يترك لها فرصة للسؤال إذ تابع قائلا ً:

- لكن كيف يمكنني مشاركتك في الكتابة؟ أنا في ألمانيا.. وأنت في لندن أو أي مكان آخر حسب ظروف عملك.. ثم أني مسافر..إلى الخليج.
- متى؟
- خلال اليومين القادمين..
- خسارة.. هل ستبقى طويلاً هناك..؟
- لا أعرف
- كيف لا تعرف؟
- أنا ماض لإجراء مقابلة عمل..ربما يتم قبولي.. وربما لا..
- وإذا لم تقبل، مثلا..
- سأرجع إلى ألمانيا
- هل تستطيع المجيء إلى لندن..؟
- ربما.. لا أدري..
- على أية حال.. سأعطيك عنواني في لندن..فيه كل شيء..عنواني البريدي..أرقام هواتفي.., ويمكنك الإتصال بي في أية لحظة..

قالت ذلك وهي تفتح حقيبتها التي كانت جنبها ، وأخرجت محفظة أصغر كانت فيها فأخرجت بطاقة ملونة صغيرة وناولته إياها .. فشكرها وهو يضعها في جيب قميصه .

آدم البغــدادي : يبدو أني أحمّل بطلي آدم التائه ما يربكه حقاً. هل هذه هي آراء آدم التائه في ستندال أو هي آرائي أنا ؟ أما فكرة وجود علاقة بين المركيزة دل دونغو الملازم الفرنسي روبير ، مثلما كانت العلاقة بين مدام دي رينال و جوليان سوريل ، فهي فكرة لماحة جداً. لكن كيف أستند إليها آدم التائه .. ؟ ربما هذه شطح روائي .

ومن هي السيدة حواء صحراوي هذه ؟ بل من هي إيفا ليسنج ؟ من أين قفزت هذه الشخصية إلى عالمي ؟ هل هي ممثلة محددة أتماهى معها في رسم هذه الشخصية الروائية ؟ لا أدري .. بل أنا لا أعرف إلى أين أتجه ؟ وإلى أين يقودني آدم التائه ، أو بدقة أكبر ، إلى أين أقوده ؟ من منا تائه حقاً أنا أم هو ؟

* * *

لم تفهم حواء الزاهد تعليق آدم البغدادي ، لأنها لا تعرف من هي المركيزة (دل دونغو) ولا الملازم (روبير)، فهي لم تقرأ رواية (صومعة بارما). لكن أعجبتها شخصية إيفا ليسنج .. وتعاطفت مع حواء صحراوي أيضا .. وضعت المخطوطة على الطاولة إلى جانبها . أشعلت المصباح الجانبي الخافت الضوء . نهضت فأطفأت المصباح الكبير المعلق وسط الغرفة ، فانتشر ضوء شاحب في الغرفة . ألقت نظرة على وليدها ، ثم اقتربت من ابنها آدم الملاك واحتضنته .

كانت حواء الزاهد تحاول النوم ، لكن ثمة أرق يمنعها من ذلك . فكرت دون إرادة منها بهذا اللقاء بين آدم التائه وهذه النجمة السينمائية الشهيرة إيفا ليسنج ، كيف ستسير الأمور بينهما ، هل سيقودهما المؤلف إلى إقامة علاقة حب؟ من المؤكد سيكون ذلك ، وإلا ما معنى أن يكونا وحدهما في هذه المقصورة؟ . كانت ثمة رغبة جنسية خفية تسري في أوصالها ، وفضول قوي لمعرفة بقية القصة ، لذا استقامت بجذعها ، وأخذت المخطوطة مرة أخرى لتواصل القراءة ، عسى يحدث ما يروي رغبتها الخفية.

نبيذ الخيبة

بعد مرور ثلاث ساعات ونصف من زمن المسافة بين دوسلدورف وميونخ أحست إيفا ليسنج بحاجة لأن تشرب وتأكل شيئاً من الطعام . خلال هذه الفترة من الطريق تعمقت علاقتهما بشكل ودي وصادق ، ونشأت بينهما مودة رقيقة ، وألفة حقيقية ، وارتياح متبادل ، لذا لم تتردد حينما أحست بحاجتها إلى الشرب بأن تقول له بمرح:

- أتود الذهاب معي إلى كافتيريا القطار.. لنشرب شيئا.. أحس بالعطش

وبرغبة في أن أتناول شيئا؟
أحس آدم التائه بفرح غامر ودفق من المشاعر الدافئة نحوها . ابتسم وقال لها بفرح:
- بالطبع.. فكرة رائعة..
قاما من مكانيهما . ارتدت هي سترتها . خرجت أمامه . ودون إرادة منه أخذ يتأملها من الخلف . تأمل قامتها الجميلة والرشيقة ، ومؤخرتها المتناسقة والمثيرة ، وما كان مكشوفا من ساقيها ، فأعجبه أنها ليست بالنحيلة كما كان يتصور ، بل إنها مليئة بتناسق مذهل.
كانا يهتزان يمينا ويسارا ً وهما يخترقان أكثر من عربة من أجل الوصول إلى المطعم . الركاب نظروا إليهما بفضول . بعض الرجال ركزوا عليها أثناء ذلك ، هل عرفوها؟ هكذا سأل آدم التائه نفسه ، لكن قبل أن يصلا المطعم ، وعند الفسحة التي تربط العربة التي وصلاها بعربة المطعم ، اهتز القطار نتيجة التواء طريق السكة الحديدية ، ودخوله إلى نفق يخترق جبل صخري ، وعلى إثر ذلك اهتزا هما أيضا وتأرجحا ، فتراجعت إيفا ليسنج إلى الوراء ، وبدون إرادة منها سقطت عليه بكامل جسدها ، وكذلك هو ، وبدون إرادة منه ، أمسك بها فصارت بين أحضانه من الخلف . لم يدم الأمر سوى ثوان معدودة ، لكنه كان كافيا لكليهما بأنه أحدث تماسا ً جسديا واضحا ً، فأثناء محاولته منعها من السقوط ، مسك بها بكلتا يديه محتضنا ً، فصارت إحدى ذراعيه محتضنة نهديها اللذين أحس بطراوتهما ودفئهما على ذراعه ، والذراع الأخرى حاول الإمساك بها وتثبيت جسدها ، ومنعها من السقوط ، فمرت أول الأمر على أسفل بطنها في منطقة أعلى بقليل من فرجها ، ثم مسك بذراعها . أما هي فكانت قد انضغطت بكامل جسدها على جسده من جهة الظهر ، فصارت موخرتها على موضع عضوه ، وكل ظهرها على بطنه وصدره ، ورقبتها قريبة من وجهه وأنفاسه ، حتى أنها شمت عطره الطيب الرائحة.
أحسا للحظات بالإرتباك ، لكنها حاولت مداراة الأمر بالإبتسام والإعتذار . كان هو أكثر ارتباكا ً منها ، لأنه في آخر لحظات تلامسهما ، عندما أرادت هي التحرر ، كان لا يريد إفلاتها . حينها ، أحست بخدر لذيذ ، ودفء رجولي منحها بعض النشوة الخفية ، صحيح أن هذا الأمر لم يدم سوى بضع ثوان ، إلا أنه كان كافيا ليحفر في أعماقهما مشاعر ورغبات هدمت الكثير من الحواجز بينهما.
حينما جلسا حول إحدى الطاولات كانا يداريان مشاعرهما وانفعالاتهما

الخفية . وكانا لا يريدان أن ينظر أحدهما إلى الآخر في عينيه مباشرة ليعرف تأثير هذا التماس عليه ، فأشغلا نفسيهما بالإشارة للنادل الذي أقبل متحمسا ً. نظرت إيفا ليسنج وسألته بالإنكليزية:

- هل تتحدث الإنكليزية؟

فإبتسم النادل وقال بالإنكليزية:

- نعم سيدتي. والفرنسية.. إذا أحببت..

فابتسمت إيفا ليسنج قائلة:

- لا.. لا.. تكفيني الإنكليزية حاليا..

فابتسموا جميعا ً.. وواصلت هي:

- أي أنواع النبيذ لديكم هنا في القطار؟

ابتسم النادل وكأنها فرصة لاستعراض معارفه بالنبيذ ، فقال بثقة:

- من المؤكد أن هناك قائمة رائعة لا تنتهي من أسماء النبيذ، لكن هنا في مطعمنا المتواضع، لدينا بعض أجود أنواع النبيذ الأحمر.. لدينا (ميرلو).. مضى على عصره وتخزينه حوالي خمس سنوات.. إنه نبيذ رقيق جداً ويناسب وجبات المشويات، لكنه لا يؤخذ مع الأجبان. كذلك لدينا نبيذ (شيراز)، وهو النبيذ الذي أطلق جملة شهيرة (القلة أحيانا تعادل الكثرة).. وهو كما تعرفين نوع مشهور، فهناك الأميركي، الأسترالي، الكندي، الأرجنتيني، الفرنسي والإيطالي. لدينا (شيراز) من كل البلدان، وهو يؤخذ مع اللحوم أيضا. ولدينا نبيذ (جاردوناي) وهو فرنسي، أبيض، من أجود أعناب مقاطعة بورغون، يؤخذ مع اللحوم والسلطات والأجبان أيضا. ولدينا نبيذ (شانتي) الإيطالي الشهير من أجود أنواع الأعناب في توسكانا وهو يؤخذ وحده ومع كل أصناف الطعام.

نظرت إليه ، ثم تبادلت النظرات مع آدم التائه ، وقالت للنادل بهدوء وعلى وجهها ابتسامة رقيقة ، وفرح خفي:

- هل لديكم نبيذ (غابريا دي اورو) الأسباني؟

- عفوا سيدتي..لا يوجد لدينا مع الأسف..

- نبيذ (ماسيت) الأسباني أيضا

- عفواً سيدتي.. يبدو أنك من متذوقي النبيذ الأسباني..يؤسفني أن أقول لك بأنه لا يوجد في قطارنا الآن أي نوع من النبيذ الأسباني.. لقد نفد ما كان لدينا..

- إذن هات لنا قنينة من نبيذ (شيراز) الأسترالي..

- يبدو أنك خبيرة بالنبيذ سيدتي.. فعلا نبيذ (شيراز) الأسترالي يُعد من

أفخر أنواع النبيذ. وماذا تأمرون معه أيضا؟
نظرت إلى آدم التائه وسألته بعفوية ، وكأنهما صديقان قديمان أو زوجان في رحلة:
- ماذا تحب أن تأكل..؟ أنا شخصيا أحس بشيء من الجوع.. وأشتهي بعض المشويات، صدر دجاج وسلطة.. وأنت؟
صمت هو قليلا ً. كان يحس ببعض الإحراج ، فقال مرتبكا وعلى عجل:
- أنا مثلك، لك الصدر ولي فخذا الدجاجة مع سلطة..
نظرت هي إلى النادل وكررت عليه طلباتهما ، فكتبها في ورقة ومضى . نظر كل منهما إلى الآخر في صمت . ارتسمت على وجهها ابتسامة ملغزة ، وقالت:
- أتعرف أني ومنذ حوالي ستة أشهر أعيش حالة عزلة نفسية غريبة. وأني الآن أشعر بالراحة في الحديث معك، وكأني أعرفك منذ زمان طويل؟ لقد كنت أرفض الكثير من الدعوات، ولا أخرج إلى أي مكان، بإستثناء صديقتي حواء صحراوي، التي في معظم الأحيان تزورني في بيتي، أو نخرج معاً، وهذا ما يحدث نادراً، بشكل شبه سري، بعيداً عن أعين المصورين إلى مطاعم بعيدة نوعا ما.
- وكيف تقضين وقتك؟ هل تعملين بشكل ثابت ودائم؟
- لا.. أنا أعمل بشكل حر تقريباً. تتم دعوتي للعمل مع مخرج ما، حيث يكون المخرج قد فكر في دور لي فيتصلون بمديرة أعمالي، وهي شقيقتي الصغرى. هي التي تنجز كل التفاصيل الإدارية والبروتوكولية معهم. أستلم النص وأذهب للقاء المخرج..التمارين كالعادة حسب مساحة الدور، وتتصاعد مع بناء العرض المسرحي. أما في السينما فالأمر مختلف نوعا ما، فإيقاع الفيلم وطريقة التحضير له تختلف عن العرض المسرحي في العديد من التفاصيل.. وتختلف من مخرج لاخر..
- ليست لدي خبرة أو تصور شامل عن عمل المسرح والسينما.
نظرت إليه للحظة متأملة ثم سألته :
- هل رأيتني في السينما، أقصد هل شاهدت أياً من أفلامي؟
ارتبك آدم التائه ، فهو لا يذكر جيدا ًأنه قد شاهدها في فيلم ما ، فكل ما يذكره بها هو تلك المجلة المصورة التي كانت تتحدث عن انفصالها عن صديقها . لذا لم يشأ أن يكذب عليها مدعيا شيئا قد يورطه فيما لا يحب ، فقال:
- الحقيقة ظروفي لم تتح لي متابعة الأفلام منذ أكثر من ثلاث سنوات،

بالرغم من أني أعد نفسي من عشاق السينما. أذكر أني قبل ستة أشهر رأيت صورة لك في إحدى المجلات الألمانية.

- صحيح..؟ لم أعرف أن المجلات الألمانية تنقل صوري وأخباري!!.. هل تذكر عن أي شيء كان الخبر؟

- كان.. كان الخبرحول انفصالك عن صديقك.

- أوه.. توقعت ذلك.. لكني كنت آمل خبرا آخر غير ذلك.. نعم.. كل الصحف الأوربية قد تناولت ذلك.. إني أكره أن يدسّوا أنوفهم في كل تفاصيل حياتي.. لقد كتبوا عني أشياء غير حقيقية.. وذكروا تفاصيل عن علاقتنا لم تكن موجودة أصلاً.. وذكروا أسباباً غريبة عن انفصالنا، لم تخطر على بالي أصلاً.. كما أن صديقي السابق أدلى بأشياء غير صحيحة..

- لم أعرف ماذا كانت الأسباب.. لقد كانت صورتك كبيرة جداً، بينما الخبر يتألف من أسطر قليلة جداً هو أنك انفصلت عن عشيقك.. أعتقد هذا ما كتبوه دونما توسع..

نظرت إليه بتفحص وقالت:

- ظننتك لا تعرفني.. وإذا بك قد قرأت خبراً عني في المجلات الألمانية. أعرفتني من أول لحظة رأيتني فيها؟

ارتبك آدم التائه ، وأحس أنه ورط نفسه في شيء ما كان له أن يتحدث به ، فقال بإرتباك ، محاولا ًتبرير موقفه:

- لا..لم أعرفك.. لكن وجهك لم يكن غريباً علي.. وحتى حينما دخلت المقصورة لم انتبه لك.. لكن الإحساس بأني رأيتك في مكان ما كان يراودني بقوة. وحينما قدمت نفسك تيقنت من أني رأيتك، فتذكرت أني قرأت خبراً عنك في إحدى المجلات.

كانت إيفا ليسنج تتأمل وجهه حينما كان يجيبها ، وكأنها تود التأكد من خلال قراءة ملامحة عن صدقه في الحديث . كان هو منتبها ً لما تفعله ودوافع ذلك ، فازداد ارتباكه ، لكن النادل وصل طاولتهما في تلك اللحظات ، فانشغلا بالطعام ، والشراب.

وضع النادل الطعام أمامها وصب لهما شيئا من النبيذ في الكؤوس التي حملها خصيصا لشرب النبيذ . ومضى.

رفعا كأسيهما . قالت هي:

- لنشرب كأس تعارفنا.. صحتك.

وشربا . كان واضحا أنها تعرف أصناف النبيذ ، إذ انتبه إلى أنها تتذوقه فعلا وهي تشربه ، وبسرعة أنهت كأسها الأول فأخذ القنينة وملأ كأسها

ثانية ، بينما كان هو يشرب بهدوء ، فالنبيذ بالنسبة له جزءٌ من طقس رومانسي . فجأة قالت له:

- أنا أعتذر، لأني لم أسألك إن كنت تود أن تشرب شيئا غير النبيذ.

- ليست هناك من مشكلة.. انا أحب النبيذ فعلاً.. أشرب كأسا أو كأسين عند الكتابة أحيانا.

أثناء جلستهما تلك سألته عن كتاباته ، وعن المؤلفين الذين يحبهم ، وعن معرفته بالأدب الانكليزي ، وعن الكتّاب الإنكليز الذين يقرأ لهم . وشيئا فشيئا ، وقبل انتهاء القنينة الأولى ، أشارت للنادل بأن يأتي بقنينة أخرى ، ومع القنينة الثانية بدأت تسأله عن حياته الشخصية ، عن زوجته ووضعه في ألمانيا . أجابها بشكل مكثف وموجز عن كل شيء ، إلا في ما يخص حديثه عن زوجته ، فقد أسهب في بعض تفاصيله .

كانت لديه رغبة غامضة في أن يهين نفسه ويعذبها ، ويظهر نفسه كزوج مخدوع . كان يحصي كل الأفراح والمسرات التي ضحى بها من أجلها ، والمشاق التي تكبدها ، والأموال التي أنفقها من أجل أن يوفر لها الحياة الكريمة ، بينما هي لم تقدر كل ذلك ، بل وكيف هو تحمل مسألة كونها لم تنجب له طوال سنوات زواجه ، ولم يتأثر بذلك ولم يشعرها برغبته الغريزية في أن يكون أباً، إلا أنها لم تحترم موقفه ذلك.

كانت إيفا ليسنج تنظر إليه بتعاطف ، بالرغم من أن ملامح وجهها الفاتن كانت تدل على الإنشغال بالتفكير في أشياء أخرى ، كما كان واضحاً أنها تستمع له وهو يروي لها عن علاقته بزوجته دون مقاطعه . كانت تشعر بالتعاطف معه ، لكنها في الوقت نفسه كان لديها إحساس بأن هذا هو وجه واحد من القصة ، الوجه الآخر لدى زوجته ، إذ بالتأكيد أن لديها أسباباً لما فعلته . فسألته بتعاطف إنساني ، لكن بشكل حازم:

- لربما هناك أسباب ودوافع لا تعرفها أنت، دفعتها لتقيم علاقة مع رجل آخر..

فوجىء بمحاولة تبرير فعلة زوجته ، فأحس بغضب خفي لم يظهره ، لكنه قال:

- ربما.. أنا في النهاية رجل ولستُ إلهاً. بل من الصعب جداً على الإنسان أن يكون إلهاً.. من المؤكد أن هناك شيئاً ما وراء هذا التصرف، لكني أنا شخصيا حاولت خلال الفترة التي تلت انفصالي عنها أن أحلل الأسباب التي دفعتها لإقامة علاقة مع جاري اللبناني.. لم أجد سبباً مقنعاً.. فعلاقتي كرجل معها كامرأة كانت جيدة.. تعاملي معها كان تعاملاً حضارياً ومتمدناً.. لم

أحرمها من أي شيء.. ربما أننا لم نتواصل كثيرا بسبب الفارق الثقافي بيننا، فهي خريجة ثانوية، لذلك لم يكن من الممكن التواصل والحديث والنقاش معها في أمور الفكر والثقافة..
ردت عليه محاججة بلطف :
- صحيح إن التقارب الفكري مهم في أي علاقة، لكنه في النهاية ليس هو الحاسم في الإستمرار بتلك العلاقة أو التمتع بها. الحب هو الأساس.. الحب وحده يمكن أن يمنحنا دفق الحياة.. الحب الحقيقي هو الذي يخلصنا من السأم الوضيع في حياتنا اليومية. ربما مشكلتنا مع الحب أننا نعتقد أننا نحب شخصاً ما، لكننا لاحقاً نكتشف أن هذا لم يكن سوى خداع للنفس، ولم يكن حباً.. وإنما مشاعر أخرى أخطأنا في تشخيصها بدقة..فسميناها حباً.. وهذا ما يدفع الإنسان إلى عدم الإيمان بوجود الحب، لكنه موجود بالرغم من كل هذه الخيبات..
انتبه آدم إلى أن النبيذ قد منحها دفئا ، وأزاح عنها تحفظها ، وترددها في التعامل والحديث الحر معه في مثل هذه الأمور . كانت عيناها تلمعان ، وخداها قد توردا أثناء حديثها عن الحب . كان هو أيضا يتجلى في نشوة النبيذ الرائعة ، فبدت أمامه وكأنها إحدى نساء رينوار في لوحته الشهيرة (اللوج).
كان حديثها مزيجا ًمن النظرات الفلسفية ، التي وردت كجمل في نصوص مسرحية شهيرة ومهمة ، ومن حكمة الحياة ، وتجارب الروح والجسد العاصفة . كانت تحاول الإنتصار على خيبتها وإحباطها من خلال الإعتراف بعظمة الحب ، بينما كان هو يشعر بالرضى المصحوب بشعور الخيبة والاستسلام . كانت مثل إنسان يصلي ويتعبد لكنه أثناء صلاته وتعبده يشك في جدوى ما يفعله ، ويتحدث عن الفضيلة لكنه لا يؤمن بجدواها.
كانت تتحدث وكأنها تؤدي دورا ًوتتلو نصا ًمسرحيا ً. وكلما استمرت بالحديث عن الحب كان أحساسه يتضاعف في أنها ، بالرغم من حديثها عن الحب ، إلا أنها امرأة حزينة ، محبطة ، باردة ، غير قادرة على معرفة معاناة العشق ولواعجه ، أو أنها امرأة متقوقعة على ذاتها ، أو أنها تهرب منها .
كان يراها وكأنها تعيش مشاعر أبطالها ، والشخصيات التي جسدتها على خشبة المسرح وفي السينما . فكر ، ربما هي لم تعرف رجلا ً حقيقيا يستطيع أن يشعرها بالأمان ، بحيث تمنحه نفسها ولا تتقوقع على ذاتها؟ ربما إنها امرأة لم ينكها فحل حقيقي بحيث يعيد توازنها في العالم الواقعي

، وابتسم في أعماقه سائلا ً نفسه : هل عليه تقع مهمة نيكها وإعادتها إلى صوابها؟ لكن كيف؟ ما الذي يجري له ، هل هو سكران؟
فجأة أحس بالخوف من أن يكون قد سكر فعلا ً، وأنه لن يستطيع التحكم بتصرفاته ولغته ، وربما ستفلت منه شطحات داعرة هنا أو هناك ، إذن عليه أن ينهي الجلسة بطريقة ما . وما أن لمح النادل حتى أشار له كي يأتي بالحساب . التفتت هي إلى جهة النادل الذي جاء إليهما . وقبل أن يمد يده إلى جيبه ليخرج محفظته التي فيها نقوده ، كانت هي قد أخرجت بطاقتها المصرفية العالمية ووضعتها على الطاولة ، قائلة له بمودة:
- أنا التي دعوتك إلى المائدة.. فدعني أدفع رجاء..
- لكن كيف..لا يمكن..
نظرت إليه بتساؤل رقيق وعلى وجهها ابتسامة متسامحة قائلة:
- لماذا لا يمكن..؟
- ببساطة.. لا يمكن..
- بلى.. يمكن.. لأن ببساطة أنا التي دعوتك..
كان النادل قد أعد الفاتورة وهو في مكانه عند طاولتهما ، وأعطى الفاتورة لها كي تراها وتتأكد من المبلغ ، فأعطته البطاقة المصرفية . انصرف النادل . أخذت هي تستعد للقيام ، لكنهما كانا بإنتظار النادل كي يستقطع الحساب ويأتي بالبطاقة ووصل الدفع . وكانت القنينة الثانية غير فارغة فصبت ما تبقى من نبيذ في كاسيهما ، ورفعت الكأسين قائلة بطريقة مسرحية مرحة:
- لنشرب نخب المحبطين في الحب من النساء والرجال.. لنشرب نخب خيباتنا الإنسانية الموجعة.. لنشرب نخب نقائنا المهزوم أمام الخيانات.. نخب الذين لا يجرؤون على مغادرة الحياة لأنهم ببساطة يخافون الموت.
- نخبك أنت أيتها السيدة الرائعة...
توقفت للحظة وكأنها فوجئت بما قاله . نظرت إليه لثوان بعينين مليئتين بالشكر والعرفان لصدق نبرته ولكثافة الأحاسيس والرغبات الكامنة في تلك النبرة . لقد أدركت ْ ذلك بحكم تجربتها في التمثيل . رفعت كأسها وشربته حتى آخرة قطرة فيه ، وبدفعة واحدة ، حتى أنها حينما أنهت الكأس ، ورفعتها عن وجهها بدت له وكأنها في مكان آخر ، بدت وكأنها عاشقة حزينة.
جاء النادل بالبطاقة وورقة الدفع ، فأخرجت خمسة دولارات وأعطتها له ، فشكرها بحفاوة . قاما بهدوء واتجها إلى مقصورتهما . كانت مسترخية الجسد والأعصاب ، وكان هو أقل استرخاء ً منها ، ربما لأنها شربت نبيذا ً أكثر

منه ، هكذا فكر هو . كانت لا تتحرج في أن يحتك جسدها بجسده ، أو يتلامسا أثناء مرورهما في الممر الوسطي لعربات القطار التي عليهما اجتيازها.
أثناء مرورهما خلال العربات كان عقل آدم التائه يجري المعادلات والإحتمالات ، ويبحث عن أفضل السبل كي يهيمن على هذه السيدة الرائعة ، الإنسانة التي برغم شهرتها العالمية ، وجمالها المتميز ، وذكائها الإستثنائي ، فهي وحيدة ، مهجورة ، خائبة ، ويائسة ، بل إنها الإنسانة التي ينطبق عليها مبدأ الوفرة التي تؤدي إلى الحرمان ، فكل هذه المميزات التي لديها تدفع الآخرين إلى الإبتعاد عنها ، لأن كل منهم يحس بالعجز أمام هذه الوفرة من الجمال والذكاء والشهرة والأناقة ، فيفكر بأنها لا بد وأن تكون محجوزة ، أو أنها على علاقة مؤكدة مع رجل ما ، لذا يبتعدون عنها ، بينما هي وحيدة تنتظر رجلا ً غير عادي يفقدها توازنها . لكن هل هي فعلا ً كذلك أو أن كل هذا ليس إلا أوهامه عنها؟ . لا .. إنها كذلك .. هكذا فكر مع نفسه ، وقال لنفسه : لأجرب بالإقتراب أكثر منها ، وإذا اتضح الأمر عكس ذلك فحجتي محفوظة بتأثير النبيذ.
كان عقل آدم التائه يعمل بسرعة ضوئية . وفي الفسحة التي تفصل بين العربة التي تجاوزاها وعربتهما أحست هي بعدم الثبات ، ولم تجد إلا أن تتشبث به ، فمسكها حاضنا إياها برقة إلى صدره . ظلت لثوان مغمضة العينين وكأنها تنتظر أن يقبلها ، إلا أنه لم يفعل ، بالرغم من جوقة من الأصوات الداخلية كانت تصرخ فيه بصمت أن يقبلها : قبلها يا آدم قبل فوات الأوان .. قبلها .. إنها فرصتك الذهبية ، وهي على استعداد تام لذلك .
وفي اللحظة التي هم بتقبيلها سمع صوتا بالألمانية يقول له من الخلف:
- هل تسمح؟
كان هناك رجل في الخمسين يود أن يمر جارا ً خلفه حقيبة كبيرة . فأحس أن الفرصة قد فاتت إلى الأبد ، بينما أحست هي بالخيبة ، لكنها لم تكن محبطة مثله . وبالرغم من ذلك كان يعزي نفسه بأن هناك وقتا ً يقارب الساعة حتى وصول القطار إلى ميونخ ، وعليه أن يحسم أمره معها خلال ذلك . لكن ما أن وصلا إلى مقصورتهما ، وفتح الباب لها حتى فوجئا بوجود شخصين آخرين في المقصورة ، رجل وامرأة كبيران في السن ، كانا قد صعدا القطار أثناء وجودهما في المطعم ، ويبدو أن مقعديهما في المقصورة أيضا . أحس كلاهما بالإحباط . جلسا في مكانيهما . كان الآخران يتحدثان في شؤون عائلية ، وكانت المرأة العجوز تؤنب الرجل المسن الذي

كما بدا أنه زوجها ، وتؤكد بأنه هو السبب في أن ابنتهما قد استغلت حبه لها ودفعته إلى أن يتكفلها لأخذ القرض من البنك لزوجها ، والآن لا يدفعانه ، فعليه أن يقوم هو بذلك.

لم تكن إيفا ليسنح تفهم شيئا من حديثما ، إلا أنها كانت تتبادل بعض الإشارات البسيطة من خلال وجهها معبرة عن خيبتها لوجودهما . أخذ هو كتاب (ريتشارد الثالث) متصفحا ً، بينما هي أخذت كتابها لتتصفحه ، فانتبه إلى الكتاب هو رواية (مرتفعات وذرنغ). لم تكن تود القراءة ، لذا ألقت الكتاب من يدها وسألته بفضول واضح :

- ما هذا الكتاب الذي تقرأه؟ لقد أثار فضولي الرسم التخطيطي على غلافه..
- ريتشارد الثالث
- واو.. ريتشارد الثالث؟ أنت مولع بشكسبير..!!
- نعم.. شكسبير.. وستندال.. ودستويفسكي..
- واو.. كيف تفهم ريتشارد الثالث..؟ إنها من المسرحيات الإشكالية في مسيرة شكسبير الإبداعية.. هناك من يرى أنه ليس بصاحبها..
- أعرف ذلك..قرأت الكثير عن هذه الإشكالية والشكوك.. لكن ريتشارد الثالث نص شكسبيري بإمتياز.. فأسلوب شكسبير واضح فيه.. إنه نص من أعظم النصوص التراجيدية..
- لكن ريتشارد الثالث لا يُعد نصاً تراجيدياً..! وإنما من مسرحياته التاريخية..
- هذا من الناحية الشكلية.. لكن شخصية ريتشارد الثالث شخصية معقدة واستثنائية.. إنه أنموذج للدكتاتور في كل العصور.. شخصية غريبة..
- ربما..
- أنا أعتقد أن مسرحية ماكبث أيضا لا تصنف كتراجيديا وفق مفهوم أرسطو..

انتبهت لحديثه ، أحست ْ أنها أمام شخص عميق ، ربما يتجاوز بثقافته وعمق نظراته الكثير ممن عرفتهم في لندن وأميركا ممن يعتقدون أنفسهم متخصصين بشكسبير .. تولد لديها فضول في أن تعرف كيف يفكر بشكسبير ، لاسيما وأنها مثلت دور الليدي ماكبث ، وتعرف وجهة نظر المخرج في تحليل ذلك النص .. لذا سألته:

- لكن النقاد يصنفونها كذلك..
- ربما.. حتى في اللغة العربية تُعد من مآسي شكسبير.. لكني أعتقد أن

شخصية ماكبث تختلف عن شخصيات شكسبير المأساوية الأخرى.. في مآسي شكسبير الأخرى نجد أن الأبطال يقودون مصائرهم بأنفسهم.. هاملت هو الذي قرر: أكون أو لا أكون. عطيل هو الذي قرر خنق ديزدمونة، الملك لير هو الذي قرر توزيع مملكته بين بناته، بيد أن ماكبث لم يقرر قتل الملك دنكن وإنما الساحرات الثلاث اللاتي قابلهن رسمن له طريقه.. فمضى في طريق مرسوم له سلفاً.. لكن ماكبث مجرم.. قاتل.. والبطل التراجيدي لن يكون مجرماً، بل إن سقوطه وموته هو الذي يخلق لدينا حالة التطهير.. ماكبث هو البطل الذي صار مجرما..

- وريتشارد الثالث..؟
- ريتشارد الثالث هو المجرم الذي صاربطلاً؟ كأي دكتاتور في العالم..لاسيما في بلداننا المسكينة.. حيث القتل والدم والاغتصاب هو الطريق الوحيد للوصول إلى السلطة.
- وجه نظر ممتعة..

كان ثمة غضب مكتوم قد انعكس على ملامحه حينما كان يتحدث عن ريتشارد الثالث . كانت هي تتأمله ، وتفكر في تجهمه وشروده في التفكير . ما الذي يدور في هذا الرأس من أفكار . انتبهت إلى أنه ألقى نظرة حائرة نحو الراكبين العجوزين الذين يشاركانهما المقصورة . أحست أنه متضايق من وجودهما ، وبالرغم من أنها وجدت الأمر طبيعيا ًلوجودهما ، بإعتبارهما راكبين دفعا مالا ًكي يصلا إلى مكان ما يتوجهان له ، إلا أنها أحست بشيء من الفرح ، لأن هذا يعني أنه يخصها بمكانة متميزة ، وأنه ود لو أنه كان بمفرده معها . نظرت إليه للحظات متأملة إياه وكأنها كانت تقرر مع نفسها شيئا ، فسألته بشكل مفاجئ:

- أين ستسكن في ميونخ؟
- لا أدري. في فندق ما
- هل حجزت سلفا؟
- لا.. الفنادق كثيرة في ميونخ..
- وأنت؟
- أنا كما عرفت سأكون في صوفيتيل ميونخ.. لا أعرف عنوانه بالضبط.. المحطة التلفزيونية وشركة الإنتاج قد حجزا لي، وسيأتيان إلى المحطة لإستقبالي.. كم يوماً ستبقى كما قلت..
- سأبقى لثلاثة أيام..
- أنا باقية لأربعة أيام.. لكن أتمنى أن نتواصل خلال أيام وجودك هنا..

أرجوك، حال ما تستقر اتصل بي، وأخبرني أين تسكن، ورقم الفندق الذي تسكنه..يسعدني أن أراك ثانية.

أحس آدم التائه براحة نفسية من كلامها ، إذ أن هذا يعني أنها تود التواصل معه حقا ً، وهو لم يعد مجرد جليس قطار معها . كان الرجل المسن والمرأة العجوز ينظران إليهما ، بدهشة وفضول ، وكأنهما من كوكب آخر . لم يمر وقت طويل حتى أعلن صوت المذياع الداخلي بقرب وصول القطار إلى المحطة الرئيسية في ميونخ.

نهض الرجل المسن والمرأة العجوز وخرجا مع حقيبتهما الوحيدة ، بينما كان القطار قد دخل إلى ضواحي المدينة متجها إلى المحطة الرئيسة . قامت هي ومعها حقيبتها الجلدية اليدوية وخرجت من المقصورة . بقي هو وحده للحظات . أنزل حقيبته وأخذ معطفه ، وضع كتبه في جيب حقيبته ، ثم انتبه فأنزل حقيبتها أيضا . عادت وقد زينت نفسها بشكل كامل . انتبهت إلى أنه أنزل حقيبتها ، فالتفت اليه وشكرته . وضعت كتابها في حقيبتها اليدوية . أخذ هو معطفه . خرجا.

في قاعة المحطة كان هناك رجل وسيم ومعه فتاة شقراء شابة تحمل لافتة عليها شعار الشركة والمحطة التلفزيونية واسم إيفا ليسنج بحروف كبيرة . كانا يعرفانها لكنها لم تكن تعرف من سيستقبلها . ارتسمت علائم الاستغراب حينما رأياها بصحبة آدم التائه ، فقد كانا ينتظرانها وحدها وليس مع رجل يرافقها . ما أن وصلا إليهما حتى التفت آدم التائه إليها مودعا وهو يقول:

- لقد وصلت أنت، وعلي الآن أن أبحث عن مكان لي أيضا..

التفتت إليه قائلة ، بحرارة وصدق ، لا أثر للمجاملة في نبرتها:

- سأنتظر مكالمتك بأسرع وقت.. ما أن تصل وتستقر حتى تخبرني.. اتفقنا؟
- اتفقنا

صافحته بحرارة وفي عينيها مشاعر صداقة حقيقية ، بينما أخذ الرجل الآخر حقيبتها ومضوا . بقي هو وحده في قاعة المحطة المركزية.

آدم البغـدادي : أيمكن أن تقوم ممثلة مشهورة بمثل هذه الأريحية في إقامة علاقة صداقة مع رجل شرقي ؟ ل ِم َ لا ؟ لماذا يمكن أن نطبق مبدأ الوفرة تقود إلى الحرمان ؟ أو نسقط حالات العداء للأجانب في أوروبا على علاقة إنسانية جميلة ورقيقة ، وعلى موقف جمع بين إنسانين . أنا شخصيا أعرف مثل هذه العلاقات . لقد قرأت عن نجمات وممثلات وعلاقاتهن مع حراسهن أو سائقي سياراتهن الشخصية ، فل ِم َ نستبعد

قيام مثل هذه العلاقة ؟ .
لماذا تدفعني عقليتي الشرقية ، أنا آدم البغدادي ، الكاتب ، لإسقطها على آدم التائه الذي يعيش في أوروبا ؟ ثم لماذا جعلته يتردد في تقبيلها عند المنطقة الفاصلة بين العربيتين ؟
هل الرغبة هي ما يقود سلوكنا ؟ ما هو جوهر الرغبة ؟ هل هي نتيجة لمؤثرات خارجية تسبب تفاعلات كيمياوية داخل الجسد ، وبالتالي الجهاز العصبي والنفسي لتنطلق في شكل اندفاع نحو الآخر ؟ أحقا هذا هو جوهرها وهي التي تقود البشرية من أنفها نحو الهاوية ؟
* * *
حينما انتهت حواء الزاهد من قراءة هذا الفصل شعرت وكأنها هي إيفا ليسنج وهو آدم المحروم . لكن لا ، لوكان حبيبها آدم المحروم مكان آدم التائه لما تصرف هكذا؟ ألم يبادر هو في إقتحام جسدها بكل جرأة.
ملاحظة آدم البغدادي دفعتها للتفكير والتساؤل عن جوهر الرغبة .. الرغبة الجنسية بالتحديد؟ لماذا أجل الكاتب أن يقيما علاقة جنسية . إنها متأكدة بأن ذلك سيحدث لاحقا ً.
كان ثمة انزعاج خفي من المؤلف لأنه أطال في تتبع تطور مشاعرهما ورغباتهما ، ولم يضعهما في موقف الحب . هي متأكدة من جمال هذه العلاقة .. لماذا يا ت ُرى يتسأل آدم الكاتب عن واقعية مثل هذه العلاقة أو سرعة قيامها .. ألم تنشأ علاقتها مع حبيبها آدم المحروم في ظروف أيام معدودة فقط؟ هي متأكدة بأن هذه العلاقة ستتطور ، لذا عليها أن تواصل قراءة الفصل القادم . بعدها ستخلد للنوم . وبالرغم من أن الوقت كان متأخرا إلا أنها قررت قراءة فصل جديد من المخطوطة ، باحثة عم ّا يروي الرغبة الخفية التي ما يسري في جسدها .
الحنين إلى النسيان
لم يكن آدم التائه يعرف إلى أين عليه التوجه ، كل ما في ذهنه الآن إيجاد فندق رخيص قدر الإمكان للإقامة فيه لليومين المقبلين . تابع بنظرات منكسرة ذهاب إيفا ليسنج مع مستقبليها . أحس بأنه بذهابها يفقد شيئا غاليا ً، وأحس بأنه عاد ثانية ذلك اللاجئ البائس في ألمانيا . كانت هي بالنسبة إليه سعادة مفترضة خارج منطق الزمان والمكان أعادت له الثقة بقيمته كإنسان ومثقف . واسى نفسه بأنه سيراها ثانية.
التفت حوله باحثا ًعن أي شيء يمكن أن يساعده على خطوته المقبلة . رأى مكتبا ًللإستعلامات يتوسط القاعة فيه موظفان ، رجل وامرأة . كانت

المرأة أربعينية شقراء عليها مسحة من الجمال القروي ، وكانت منشغلة مع أحد المسافرين ، فاضطر إلى أن يتحدث مع الرجل البدين الذي بدا عصبي المزاج ، وقبل أن يفتح فمه بأي كلمة أحس أن هذا الموظف ينظر إليه بسخط مكتوم ، ربما لأنه عرف من ملامحه أنه أجنبي ، فأراد آدم التائه أن يتجنب مثل هذا الموقف فسأل بالإنكليزية عن أقرب فندق في المكان ، إلا أن الرجل انتفض دونما مبرر واضح ، وقال بصوت حاد ، حاول جاهداً ألا يتحول إلى صراخ:

- بالألمانية.. بالألمانية.. حدثني بالألمانية.. لا للإنكلزية.. بالألمانية.. نحن في ألمانيا..

فوجئ آدم التائه برد فعل الموظف الألماني ، صحيح أنه يسمع عن تعصب البعض هنا في مقاطعة باير الألمانية إلا أنه لم يكن يصل الأمر إلى شخص مهمته مساعدة الغرباء وإرشادهم وتلبية حاجاتهم إلى المعلومات ، بيد أن رغبة قوية اجتاحته في مشاكسة هذا الكائن القومي المتعصب ، فقال له بالإنكليزية بنبرة فيها حدة وتأنيب واضح:

- يفترض بك أن تعرف الإنكليزية.. هذه محطة عالمية، في عاصمة دولة مهمة وسط أوروبا.. ويفترض بالعاملين هنا أن يعرفوا لغات عديدة.. ومن أبرزها الإنكليزية.. إنها على الأقل لغة عالمية.

نظر الموظف إليه نظرة فيها من الحنق والبلاهة الكثير ، ولم يقل شيئاً، بينما توجهت المرأة الأربعينية الشقراء إليه وكأنها تعتذر ، وقالت له بإنكليزية جيدة:

- بماذا يمكنني أن أساعدك أيها السيد..؟

- إذن أنتما تتكلمان الإنكليزية.. لقد أردت أن أساله، لكنه انتفض قبل أن أسأل..

- أنا أعتذر بدلاً عنه.. لا ضير.. يمكنك أن تسألني.. كيف لي أن أساعدك..؟

- أردت أن أسأل عن أي فندق قريب من هنا..

- توجد هنا عدة فنادق حول محيط المحطة الرئيسية في ميونخ.. وهي مختلفة في عدد نجومها.

- أفضل ألآ يقل عن أربع نجوم..

ودون أن تبذل جهداً تصفحت كتاباً أمامها ، وقالت هنا :

- هنا يوجد صوفيتل ميونخ، وهو فندق خمس نجوم، وكذلك فندق كينغ هوتيل سنتر وهو ثلاث نجوم، وهنا أيضا، ليس على بعد من هنا، فندق

الفصول الأربعة وهو من سلسلة فنادق كنبينسكي يقع في مكسمليان شتراسه.. وهناك..
انتبه إلى أنها ذكرت اسم الفندق الذي ستسكن فيه إيفا ليسنج ، فقاطعها قائلا ً:
- أي منها هو الأقرب إلى المحطة؟
- الأقرب هو فندق النجوم الخمس صوفيتيل ميونخ، وكذلك فندق النجوم الثلاث كينغ هوتيل سنتر..
- اكتبي لي عنوان الفندق الأول رجاء.. صوفيتيل ميونخ رجاءً..
أخذت المرأة ورقة صغيرة أمامها وكتبت عنوان الفندق . وبينما تهم بإعطائه الورقة ، قال لها:
- اكتبي لي اسم الفندق الآخر فربما لا أجد مكان في الفندق الأول..
نظرت إليه لثوان ، لم تقل شيئا ، وإنما كتبت له العنوان . كان الموظف الآخر غاضبا ، لكنه كان منشغلا مع مسافر ألماني آخر.
أحس آدم التائه بالخجل من تصرفه . لماذا لم يقل لها إنه يريد معرفة أرخص الفنادق مباشرة؟ ولماذا تظاهر بأنه سيقيم في فندق النجوم الخمس؟ أتبقى عقد الرجل الشرقي تلازمه؟ شعر بالخجل من تصرفه هذا .
قرأ آدم التائه عنوان الفندق الرخيص ، فعرف أنه يقع في مارس شتراسه ، وما أن خرج من بناية المحطة إلى الشارع العام حتى سأل أول عابر كان يمر من أمامه عن عنوان الفندق ، فأشار له بأنه في شارع مارس شتراسه الذي يقع على مبعدة دقائق من المحطة ، وأشار إلى اتجاه الشارع . مشى متجها نحوه . وبعد ربع ساعة من المشي قرأ لافتة ضوئية صفراء كبيرة تحمل اسم الفندق ، فدخل إليه مباشرة .
كان الفندق غريبا ً في موقعه . الطابق الأرضي كان مشتركا مع مكاتب أخرى ، ولا علاقة له بالفندق ، سوى من خلال مصعد كبير يقود إلى مكتب الاستعلامات الذي تقع في الطابق الأول ، وإلى طوابق الفندق الأخرى . دخل المصعد الذي كان بابه مفتوحا ً وكأنه ينتظره . صعد إلى الطابق الأول حيث مكتب الإستعلامات . وحين خرج من المصعد كان مكتب الاستعلامات عن يمينه ، بينما قرأ على باب الجهة اليسرى اسم المطعم وقاعة الطعام .
في المكتب كانت فتاة ألمانية شقراء تميل إلى الإمتلاء قليلا ً، تقوم بالخدمة . تقدم منها ، وسألها عن امكانية وجود غرفة لليلتين ، فأجابته بالإيجاب ، سألها عن كلفة المبيت لليلة الواحدة فذكرت له رقما ً وجده معقولا ً،

طلبت أية هوية أو وثيقة رسمية له ، فأعطاها جواز سفره ، وملأ استمارة كانت قد قدمتها له . استنسخت صورة للجواز ، وأعطته بطاقة ألكترونية تستخدم كمفتاح لباب الممر ولباب غرفته التي كانت في الطابق الثاني وتحمل الرقم 223 . سألها عن مواعيد الطعام ، والفطور ، فأجابته بأنه يستطيع أن يطلب الطعام إلى غرفته أو ينزل إلى المطعم الذي يكاد يكون مفتوحا حتى التاسعة مساء ً.

توجه إلى المصعد ثانية جارا ً حقيبته خلفه ، متوجها إلى الطابق الثاني . حين خرج من المصعد وجد نفسه في حيرة ، إذ عليه أن يختار الجهة التي تقع غرفته ضمنها أرقامها ، ولم تكن هناك أرقام واضحة تدل النزلاء على ذلك .. توجه نحو اليمين ، وقرأ من وراء زجاج الباب رقم الغرفة التي تقع بمواجهة الباب فعرف أن غرفته تقع في هذه الجهة ، كما وجد بأن عليه أن يفتح باب المدخل إلى الممر بإمرار البطاقة الألكترونية في جهاز نصب داخل الباب . فتح الباب . وجد نفسه في ممر ضيق جدا ً، لا يسع حتى لشخص بدين جدا ً. توجه إلى جهة اليسار متتبعا ً تسلسل الأرقام ، فوجد أن الممر ينتهي ولا يصل إلى غرفته ، إلا إذا انعطف يسارا ً في ممر ضيق آخر طوله حوالي المتر ، ثم ينعطف يمينا ، حيث توجد غرفتان . واحدة منها تحمل الرقم 223 .

فتح باب غرفته بالبطاقة الألكترونية التي لديه . أشعل مصابيح الغرفة مباشرة . وجد نفسه في غرفة صغيرة نسبيا ً، فيها أثاث بسيط . ألقى حقيبته على الأرض . كانت الغرفة تحتوي على كرسي وطاولة عليها تلفزيون ، وصينية فيها بعض الكؤوس الفارغة ، ومفتاح لقناني البيرة وآخر أصغر لقناني البيبسي ، وبالقرب من رأسه جهاز تليفون وبجانبه أوراق ملاحظات وقلم . على الجدار ساعة حائطية تشير إلى السابعة . غرفة الحمام بالقرب من السرير . ضغط على زر النور ودخل الحمام فوجده نظيفا ً. حوض الغسيل واطئ قليلا ً، ومرآة كبيرة تتوسطه على الجدار . حوض بانيو لكن بدون دوش . خرج من الحمام ونظر إلى الجانب الآخر من السرير . كانت هناك بوابة خشبية . فتحها فوجد داخلها خزانة لتعليق الملابس ، وفي أسفلها صندوق يستخدم كخزينة لحفظ الأموال والأوراق الثمينة والحلي . وإلى جانبها ممر صغير يوجد فيه طاولة صغيرة لوضع حقيبة السفر ، تقود لنافذة صغيرة تطل على جانب من سطح الطابق الأول . نزع معطفه ، واستلقى بمنتصف جسده على السرير ، حيث بقيت قدماه على الأرض.

أفاق آدم التائه على صوت إغلاق باب مجاور قوي . نظر إلى ساعته

فانتبه إلى أنه غط في غفوة طويلة استمرت عشرين دقيقة دون أن ينتبه . كانت الساعة تشير إلى السابعة والثلث تماما ً. إستدار ، أشعل نور المصباح عند رأسه.

فكر في أن يتصل بإيفا ليسنج . أخرج الورقة التي أخذها من موظفة الاستعلامات في المحطة والتي دونت فيها عنوان وهاتف فندق صوفيتيل ميونخ هوتيل . رفع سماعة الهاتف وطلب بدالة الفندق ، فجاء جواب عامل البدالة سائلا ً عن الخدمة التي يستطيع تقديمها إليه ، فطلب منه الإتصال بصوفيتيل ميونخ ، وطلب السيدة إيفا ليسنج . بعد ثوان رن الهاتف على الجانب الآخر ، وجاء صوت إيفا ليسنج سائلا ً عن المتصل:

- إيفا ليسنج.. من يتحدث رجاءً؟
- أنا.. أنا آدم.. آدم التائه. هل تذكرينني؟
- آه يا لله يا آدم.. كيف حالك؟ من أين تتصل؟
- أنا في فندق كونغ سنتر في شارع مارس شتراسه.. هل تستطيعين كتابة الرقم..؟

أعطاها رقم هاتف الفندق ، ورقم غرفته . سألها عن رقم غرفتها ، فقالت له :

- سجل لديك.. صوفيتيل ميونخ - باير بوست - باير شتراسه 12. رقم جناحي في الفندق 333
- هل أنت حرة هذه الليلة..؟
- لا أدري آدم.. لدي الآن لقاء عمل.. يبدو أنه سيطول نوعا ما.. حينما أنتهي سأتصل بك.. ألا يضايقك إذا كان الوقت متأخراً..؟
- لا.. أبداً.. إتصلي في أي وقت وبدون أي إحراج.. أنهي عملك بهدوء.. وسأكون بإنتظارك..
- حسناً.. شكرا لك.. إذن.. إلى اللقاء..
- إلى اللقاء..

وضع سماعة الهاتف في موضعها . استرجع كل ما دار من حديث بينهما . أخذ يحلل نبرة صوتها ، أكانت متلهفة له ، أم أنها كانت رسمية معه؟ أكانت تنوي الإسراع بإنهاء المكالمة أم أنها كانت تفضل الحديث معه أكثر؟ ابتسم مع نفسه من هذه الأفكار والمراجعات مع النفس التي تشبه أفكار ومراجعات المراهقين مع أنفسهم . لكن ماذا لو اتضح أن كل ما يحصل له الآن مع إيفا ليسنج هو شبيه بما حصل له مع إيفا بيرغمان؟ ألم يكن كل شيء واقعيا ً معها أيضا؟ ألم يجلس معها ، ويتحدث معها؟ ألم تذهب

معه إلى دائرة الأجانب في بلدية المدينة ، وتكفلته عندهم؟ ألم تحجز له بطاقات السفر التي هي الآن في جيب معطفه؟ لكنها بالرغم من كل هذا قد اختفت وكأنها لم تكن موجودة إلا في ذهنه؟ بل اختفى مكتبها السياحي الذي كانت تعمل فيه ، واختفى بيتها الذي زارها فيه ، ولم يجد من أثر لها سوى قبرٍ يحمل اسمها وصورتها؟
ألا يمكن أن تكون إيفا ليسنج مثلها بالضبط؟ كيف له أن يتأكد من حقيقة وجودها؟ فجأة .. برقت في ذهنه فكرة ، اعتبرها ، في تلك اللحظة ، إكتشافاً خارقاً بالنسبة له ، إذ تذكر بأنه لم يلمس إيفا بيرغمان قط . المرة الوحيدة التي دخل عليها غرفتها حينما كان في بيتها ، محاولاً أن ينام معها ، حينها برق المكان بضوء أبيض ساطع جداً، ثم وجد نفسه في بيته المتواضع !!.
لم يحصل له قط أن احتك بإيفا بيرغمان كما احتك بإيفا ليسنج ، فلقد مسك بها في القطار ، وضمها إلى صدره ، واحتضنها عند اهتزاز عربة القطار ، وأحس بحرارة جسدها ، وكل هذا يعني أنها ليست كائناً غامضاً، أو روحاً، وإنما هي امرأة من لحم ودم ، لكن بالرغم من ذلك عليه أن يتأكد . ربما عليه إذاً أن يضاجعها ، فأن حصل ذلك فهذا يعني أنها حقيقية ، إذ لا يمكن للبشر أن يضاجعوا الأرواح !! لكن علاقتهما ربما لا تقود إلى السرير بهذه السرعة ، لاسيما وأنه سيسافر بعد يومين ، إذن ، كيف له أن يتأكد منها .. ؟
كان آدم التائه مبحراً في أفكاره تلك حينما رن جرس الهاتف عليه . رفع السماعة فجاء صوت موظفة الإستعلامات لتخبره إن فترة العشاء تمتد من السابعة إلى التاسعة . فشكرها على ذلك.
ما أن وضع سماعة الهاتف حتى أحس وكأن فكرة غريبة انبثقت في رأسه . نهض مباشرة . دخل الحمام . نظر إلى نفسه في المرآة . خرج من الحمام ولبس معطفه ثم أسرع خارجاً من الغرفة غالقا الباب بقوة . نزل السلم مسرعاً إلى الطابق الأول . توجه إلى مكتب الإستعلامات ، فوجد رجلاً هناك . ألقى التحية وسأله عن كيفية الوصول إلى فندق صوفتيل ميونخ في باير شتراسه . شرح له موظف الاستعلامات كيفية الوصول ، إذ أن ذلك الشارع يكاد يكون موازياً للشارع الذي هم فيه . شكره وخرج.
ما أن وصل آدم التائه إلى بداية الشارع الذي يقع فيه فندق صوفيتيل ميونخ حتى رأى مبنى الفندق الكبير الذي تضيئه الأنوار والمصابيح الملونة . كان يحس بخفقان قلبه كلما اقترب من الفندق . ماذا عليه أن يفعل؟ ألا

يكون قلة ذوق منه أن يفاجئها في فندقها دون إتصال ودعوة منها؟ ألا يحرجها أمام الآخرين بينما هي في إجتماع عمل؟ كانت هذه الأفكار تضغط على نفسه . أحس أنه يتنفس بصعوبة وقلبه يخفق بسرعة ، وكان قد وصل إلى بوابة الفندق.
حينما صار أمام الباب وجد عدداً من سعاة الفندق وحراسه ينتشرون عند الباب الخارجي . لم تواته الجرأة إلى أن يدخل ، فسار متجاوزاً الفندق ، وبعد حوالي عشرين متراً انتقل إلى الجهة المقابلة وقفل راجعاً إلى فندقه.
كان طوال طريق عودته يلعن نفسه على ترددها في إتخاذ الخطوات الحاسمة في الحياة . شتم نفسه ، ناعتاً إياها بالجبن والغباء والعجز ، إذ أن تردده ، وخوفه هذا سيفقده واحدة من أجمل النساء في العالم.
في منتصف الطريق إلى فندقه توقف فجأة ، وقرر العودة إلى فندقها ثانية ، والدخول لرؤيتها مهما كلف الأمر ، لكنه بعد ثوان من قراره ذاك وجد نفسه عاجزاً عن تنفيذه ، مبرراً لنفسه بأن عليه الهدوء ، فقد وعدته بالإتصال به عندما تنتهي من إجتماعها المهم الذي جاءت من أجله . إذن عليه أن ينتظر ولا يتصرف بإندفاع .
حينما وصل فندقه توجه مباشرة إلى المطعم في الطابق الأول ، في الجهة المقابلة لمكتب الإستعلامات . لم يكن يتوقع أن لا يجد أحداً في المطعم ، إذ كانت جميع الطاولات فارغة . توجه إلى طاولة صغيرة لشخصين . جلس على أحد الكرسيين . نظر إلى جهة المطبخ فلم يجد أحداً. فجأة انتبه إلى وجود امرأة معتدلة القامة ، جميلة الملامح ، ذات شعر أسود قصير ، صدرها يرتج بنهدين جميلين . وجهها ناحل ، تشد شالاً أحمر على عنقها الرقيقة ، الطويلة . ذكرّته بوجه ممثلة أسبانية اشتهرت في هوليوود في السنوات الأخيرة.
كانت المرأة ترتدي بنطلوناً أسود وقميصاً أبيض ، وسترة سوداء . اقتربت منه وسألته بالألمانية:
- ماذا يمكنني أن أقدم لك أيها السيد..؟
نظر إليها بفضول محاولاً، في لحظات ، أن يخمن مع نفسه البلد الذي جاءت منه ، فهي من المؤكد ليست ألمانية ، كما أن نبرتها تشي بلكنة أجنبية ، لم يستطع أن يحددها ، وكان عليه الإجابة ، فرد على سؤالها بسؤال قائلاً:
- ماذا لديكم كي تقدموه؟

ذكرت له كل ما لديهم في قائمة الطعام . صمت للحظة ، ثم سأل :

- هل اللحوم عندكم هي لحوم خنزير أم غنم؟
- لدينا لحوم من الإثنين.. أيهما تفضل؟
- إذن.. أريد بطاطا مقلية مع مايونيز.. وبيضتين مخفوقتين.. مع سلطة.
- ألا تريد لحماً..؟
- لا..
- وماذا تود أن تشرب؟
- قنينة من الماء غير الغازي..

كانت عاملة المطعم قد دونت ما طلبه في دفتر صغير بيدها . لكنها ظلت واقفة للحظات ، فاستغل هو ذلك ليتحدث معها ، فسألها:

- أهكذا دائما لا يوجد أحد في المطعم..؟
- لا.. كان بعض النزلاء هنا.. لكن كما تعرف هذا فندق من الدرجة الثالثة.. وقائمة طعامنا محدودة.. كما أن الفندق يقع قرب المحطة الرئيسية للقطار، وهذا يعني نحن في مركز المدينة والمطاعم المتنوعة متوفرة بكثرة.. لذا فأن معظم النزلاء يأكلون خارج الفندق، ناهيك أن بعضهم يطلب الطعام وهو في غرفته..
- شكرا للإيضاح.. لأني ظننت أني النزيل الوحيد في الفندق، فلم أقابل أحداً قط..!

ابتسمت له ابتسامة لطيفة جدا ً، بالرغم من أن وجهها ، حينما كان قريبا منه ، كان يشي بكثافة غير عادية من الحزن . استدارت لكي تذهب ، لكنها فجأة التفت إليه ، وسألته بلطف:

- هل أنت مسلم؟

فوجئ بسؤالها ، لكنه أجاب:

- لماذا؟
- لأنك سألت عن نوع اللحم.
- أوه.. لا..أنا لا آكل لحم الخنزير، ليس لأني مسلم أو غير مسلم، وإنما لأني لا أحبه، لأنه يؤذي معدتي.. ويسبب لي إسهالاً..
- أنا أيضا لا آكل لحم الخنزير.. لكني لا آكله لأني مسلمة.

فوجيء ، فسألها مباشرة:

- من أين أنت؟
- من العراق..

لم يتمالك نفسه ، أحس بأحاسيس متناقضة تداهمه . أخذ قلبه يخفق

بشدة ، وأنفاسه تتلاحق ، وأضاء بريق خفي في نظراته ، لكنه أمسك نفسه جدا ً، ولم يشأ أن يكشف عن هويته مباشرة ، لذا قال لها بالعربية الفصحى سائلا ً:

- من أي المدن العراقية أنت؟
- من بغداد..

قالت ذلك مرتبكة ، إذ لم تتوقع أن يكون هذا الرجل الأنيق يتحدث العربية الفصحى ، وبلكنة عراقية خفية ، فقالت مندهشة وبالعربية ، وباللهجة العراقية:

- من أين تعرف العربية؟
- أنا عراقي..
- من أين.. أعذرني على هذا السؤال؟
- من بغداد
- أنا من الكوت.. أو محافظة واسط كما تُسمى الآن..

انتبهت ْإلى أنها لم تأت ِه بالطعام ، فقالت له معتذرة:

- أعتذر لأني تركتك جائعاً، سآتيك بالعشاء.. وإذا لم يزعجك الأمر سنتحدث بعد ان تنتهي من عشائك.
- بكل سرور..

حينما استدارت تأملها من الخلف . راوده إحساس بأنها ارتاحت حينما عرفت أنه عراقي ً.. لماذا راوده هذا الإحساس؟ لم يستطع أن يجد إجابة مباشرة على هذا السؤال . فكر مع نفسه أنها امرأة لطيفة يمكنه أن يتجاذب معها الحديث لحين أن تتصل به إيفا ليسنج.

جاءته بما طلب وعلى وجهها ابتسامة مشرقة . تمنت له شهية طيبة ، قالت له ذلك بالعربية . وذهبت مختفية في أعماق المطبخ.

أنهى آدم التائه عشاءه . نظر إلى الساعة المعلقة على جدار المطعم فرأى أنها تشير إلى التاسعة إلا ربعا ً. بقي لدقائق ينتظر قدوم عاملة المطعم ، منشغلا ًبشرب ما تبقى من ماء في القنينة . انتبه إليها وهي تقبل وعلى وجهها ابتسامة رقيقة ، فابتسم لها بدوره . حينما وصلت إلى طاولته سألته عن العشاء ، إن كان قد أعجبه ، فأجابها بـ (نعم) سألته عن غرفته ، كي تسجل الحساب عليها ، فذكر لها بأنها 223 في الطابق الثاني ، فابتسمت قائلة له بأنها تعرف أين تقع . حملت الصحون والملاعق والقنينة الفارغة وذهبت بها إلى أعماق المطبخ ، لكنها قبل أن تذهب سألته أن كان يود كوبا ًمن الشاي ، فوافق . جاءت ثانية وهي تحمل كوب الشاي

. وضعته أمامه ، وسألته أن كان يسمح لها بالجلوس ، فارتبك لأنه لم ينتبه إلى أن يدعوها بالجلوس قبل أن تطلب هي ذلك . وحينما جلست انتبه إلى أنها امرأة مثيرة ، لكنها مثقلة بالأحزان ، متوترة ، تكاد تبحث عن أي وسيلة لكي تتحدث عن نفسها . فجأة سألته:

- هل أنت باق عندنا طويلاً..؟
- لا.. أنا هنا ليومين فقط؟
- هل ستسافر؟
- نعم.. لدي دعوة للعمل في أحد بلدان الخليج..
- هل أنت تعيش في ألمانيا؟
- نعم.. منذ ثلاث سنوات....
- لماذا تسافر إذاً؟
- يعني.. كل منا يبحث عن سعادته.. أو ما يمكن أن يعتقده سعادة..
- أحيانا نضيع حياتنا ولا نتمتع بها، بإنتظار أن تأتي السعادة ذات يوم.. ثم نكتشف بأننا ضيعنا عمرنا..لا أكثر ولا أقل.. وربما مرت السعادة بنا دون أن ننتبه لها..
- أوه.. هذا كلام عميق جداً..
- لا أعرف إن كان عميقاً أم لا.. لكنّها الحياة..

كان الحزن واضحا ًفي عينيها . نظرت إلى الساعة الحائطية فرأت أنها تشير إلى التاسعة . صمتت للحظة .. التفتت إليه ثانية بإرتباك واضح ثم جمعت شجاعتها وسألته:

- هل ستبقى في الفندق أو ستخرج لقضاء السهرة في المدينة؟
- لماذا؟ أنا موجود في الفندق، لكني أنتظر هاتفاً من شخص.
- هل ستنتظر في غرفتك أم في اللوبي..لأن فترة العشاء قد انتهت.. ليس هناك بعدها سوى الطلبات الشخصية.. ونادراً ما تحدث ليلاً..وهذه تتم بالهاتف.. وبودي أن أحمل لك صينية فواكه.
- أوه.. هذا لطف كبير منك.. سأكون في غرفتي..

برقت عيناها بفرح مفاجىء . وقامت مبتسمة ، قائلة:

- إذن سأحضر لك صينية الفواكه، بعد قليل..

قالت ذلك ومضت إلى أعماق المطعم . نهض هو من مكانه غير مصدق ما يجري له . كانت الأسئلة تضج في رأسه ، أمن المعقول أن تقوم امرأة جميلة مثلها بتقديم نفسها بهذه الطريقة البسيطة والسهلة .. ؟ لماذا؟ لكن من قال إنها تريد تقديم نفسها له؟ ألا يمكن أن تكون مبادرتها بالمجيء

إلى غرفته نابعة من حسن نية وطيبة دونما أي ظلال أخرى؟ ليكن ما يكون ، سوف نرى . قال ذلك لنفسه وهو يتوجه إلى غرفته.
ما أن دخل آدم التائه إلى غرفته حتى أسرع إلى حقيبته ، وأخرج منها عدة الحلاقة وقنينة العطر ، ومعجون فرشاة الأسنان . دخل بها إلى غرفة الحمام . انتبه إلى أن وجهه لا يحتاج إلى الحلاقة ، لكنه بالرغم من ذلك رش العطر على وجهه ورقبته . وغسل أسنانه بالمعجون والفرشاة . ثم عاد إلى السرير منتظرا ً.
مرت عشر دقائق ولم تأت . أكانت تسخر منه؟ لكن .. لا .. كانت جادة ولم يكن وجهها يشي بأي شيء مريب؟ هكذا أجاب نفسه . فجأة ، سمع طرقا ً خفيفا ً على الباب . نهض بسرعة وفتحها ، فرآها تقف أمام الباب حاملة صينية زجاجية مليئة بالفواكه المختلفة . مدت له الصينية وظلت واقفة عند الباب . فوجئ أنها لا تريد الدخول . أحس بخيبة خفية ، وإحباط رجولي ، ولا يدري كيف راودته في تلك اللحظة رغبة عنيفة في أن يحصل عليها بأي شكل ، فطلب منها الدخول.
كانت مترددة جدا ً، وخائفة من الدخول إلى الغرفة . وبالرغم من غرفته تقع في منعطف زاوية بأقصى الممر ، وليس هناك سوى الغرفة المجاورة فقط ، إلا أنها كانت مترددة .
ألح عليها بالدخول . كانت هي حائرة ما بين رغبة دفينة في أعماقها تدفعها للدخول إلى الغرفة ، وبين خوفها من رغبتها الملحة ، في أن تفقدها السيطرة على نفسها ، فتنجر لموقف ربما سيؤثر على وجودها .
أدرك هو سبب ترددها ، فساعدها على اتخاذ قرار الدخول ، إذ مسك بيدها برفق وأدخلها إلى الغرفة . أحس بإرتعاشها حينما أمسك بها ، وبدفء ذراعها . فدخلت برفق.
كانت مرتبكة جدا ً، ولم يشأ أن يزيد من ارتباكها ، فربما يدفعها ذلك إلى الهرب من الغرفة بشكل مفاجئ . دعاها إلى الجلوس على الكرسي الوحيد في الغرفة . وضع صينية الفواكه على الطاولة قرب التلفزيون ، شاكرا ً إياها على كرمها معه.
كانت هي مرتبكة ، لكنه أحس بأنها ليست خائفة ، فكأنها تجاوزت خوفها لحظة دخولها إلى الغرفة . انتبه هو إلى أنها مررت قلم الكحل حول عينيها ، ورتبت شعرها قبل المجيء إليه . أدرك ان مهمته الآن هو بث الطمأنينة في نفسها . فسألها مباشرة لدفعها إلى أن لا تفكر كثيرا ً بالموقف الذي هي فيه ، إذ عليه أن يزيل قلقها ، فأخذ يمطرها بالأسئلة:

- كم مضى عليك هنا؟
- في ألمانيا، أم هنا في هذا الفندق؟
- في الأثنين؟
- إثنان وعشرون عاماً.
- ماذا؟
- نعم.. جئت إلى ألمانيا منذ إثنين وعشرين عاما. كنت خلالها متزوجة لأربعة عشر عاما، ومنذ ثماني سنين تطلقت وأعيش حالياً مع ابني.
- هل أنت سعيدة؟
- لا أعرف.. لا أعتقد.. لم أعش يوما واحدة في سلام مع روحي أو مع الأشياء التي تحيطني.. لكني أعرف شيئا واحداً أستطيع أن أسميه سعادة.. ابني هو سعادتي.. أو لأقل إن سعادتي هي حينما أرى ابني سعيداً..
أحس آدم التائه بحقارة رغبته أمام معاناة هذه المرأة ، التي بدت أنها تخفي خلف حزنها هذا قصة مأساوية . ود من أعماقه أن يستمع إليها حقا ، وأدرك أن رغبتها في أن تتحدث عن نفسها أكبر من أية رغبة أخرى تفور في أعماقها . لكن كيف يدفعها للحديث؟ .
أحس أنها تريد الحديث لكنها مترددة ، وأنها تنتظر أي محفز لكي تبدأ الكلام . فتح الثلاجة . سألها أن كانت تود أن تشرب شيئا ً. هزت رأسها بالنفي . حمل صينية الفواكه أراد أن يتجه إلى الحمام ليغسل ما فيها ، فأكدت له بأنها غسلت جميع الفواكه قبل أن تحملها له . ظلا صامتين للحظات . أحس هو بالارتباك أيضا . فجأة برقت في ذهنه فكرة ، فسألها وهو يفتح الثلاجة:
- هل تمانعين إذا ما شربت كأساً من النبيذ؟ فأنا متعود أن أشرب كأساً كل مساء.
نظرت إليه بإرتياب أول الأمر ، ثم استرخت ملامحها وقالت:
- لماذا أمانع؟ إنك تقول بأنك متعود على.
- شكر لك..
أعجبها تصرفه معها بطلبه السماح منها ليشرب النبيذ . سحب قنينة نبيذ شانتي الايطالي . أخذ من الصينية التي كانت قرب التلفزيون كأسين ، ومفتاح لقناني النبيذ . فتح قنينة النبيذ وسكب لنفسه ولها . كانت تراقبه وهو يصب لها أيضا . وبينما كان هو منشغلا ً بصب النبيذ كانت هي تتأمله ، وتقرأ بطريقتها ما يجول في رأسه من أفكار . كانت تعيش لحظات فريدة في حياتها ، فهي لم تكن ، وحيدة مع رجل غريب غير

زوجها قط ، بينما هي الآن في غرفة الفندق ، تجلس بشكل قريب جداً مع رجل في غرفته ، حيث الفراش هو أكبر مساحة في الغرفة . رجل وسيم ، ومريح ، ويبعث على الثقة . رجل يصب النبيذ في كأسين .. رجل غريب سوف يسافر بعد يومين .. لكن ماذا ينوي أن يفعل معها .. ؟ بل ماذا تفعل هي هنا في هذه الغرفة التي أخذت تشم فيها رائحة الفحولة الخفي .. ؟ انتبهت إلى أنه أعاد سدادة الفلين إلى القنينة . رفع كأساً ومد يده إليها . فوجئت .. ارتبكت .. وقالت:

- أنا لا أشرب..

نظر إليها نظرة مليئة بالعتاب والرجاء ، وقال :

- إنه نبيذ.. وليس خمرا مسكرة.. أشربي كأساً وستشعرين بالدفء..والإسترخاء.. و بعد ذلك يمكنك أن تروي لي قصة حياتك.. أنا أعرف أنك مررت بالجحيم خلال حياتك.. وعانيت الكثير.. وأحب أن أسمع منك.. وأنا متأكد من أنك لن تستطيعي أن تتحدثي بسلاسة إذا لم تشربي النبيذ..

- أتعتقد ذلك؟

- طبعا لا.. خذي..

مدت يداً مرتعشة وهي تأخذ الكأس من يده فتلامست أصابعهما ، وأحس وكان وخزة تيار كهربائي نشأت من هذا التلامس .. مد يده وأخذ كأسه .. رفع كأسه وقال لها:

- إشربي.. لا تخافي.. في صحتك.. وصحة هذا اللقاء..

لم تقل شيئا وإنما أخذت الكأس إلى فمها وارتشفت منها رشفة كبيرة . أحست بمرارة النبيذ تملأ فمها ، لكنها أحست أيضا بدبيب دافئ يسري في أعماقها . كان هو ينظر إليها ، فشجعها قائلاً:

- اشربي الكأس إلى النهاية..

ارتشفت ما تبقى من نبيذ في رشفة طويلة . أعادت الكأس فارغة إلى الطاولة . أحست أن شرب النبيذ ليس مخيفاً وكريهاً كما كانت تعتقد ، بل إنها تحس بشعور لطيف يسري في أوصالها . صب لها مرة أخرى ، نظرت إليه وقالت:

- أخاف من أن أسكر

- النبيذ لا يسكر.. وإنما يدفع للإسترخاء.. اشربي..

لم تمانع مثل المرة السابقة ، لكنها لم تأخذ الكأس مباشرة . ظلا للحظات صامتين . فجأة سألته:

- ماذا تعمل..إذا لم يضايقك سؤالي..؟

- كنت في العراق أستاذا جامعيا..لكني هنا لاجئ سياسي..وأنا كاتب روائي
- كاتب..؟
- نعم..
- يعني أنك تستطيع أن تكتب قصتي لو حكيتها لك؟
- لا أدري.. لكن ما جدوى أن أكتب قصتك..ولمن؟

صدمها جوابه . كانت حزينة . ودون أن تنظر إليه مدت يدها إلى كأس نبيذها فأخذتها وارتشفت معظم ما كان في الكأس .. كانت وكأنها تريد أن تلقي نفسها في نهر الكلام .. نظرت إليه بحزن وقالت بهدوء ممزوج بيأس:

- أريد أن يعرف العالم كم تألمت. وكم عانيت، وكيف اجتزت الصعاب وحدي...وكيف انتهيت.. ليعرف العالم من أنا.. وكيف أن أهلي زوجوني رغماً عني..و دمروني..
- هل مشكلتك هي في زواجك..؟
- ليس في زواجي وإنما مع الرجل الذي تزوجته.. إنه رجل مريض.. مجنون..
- كيف..؟ إحكي لي.. لكن قبل كل شيء لدي شرط وحيد..
- شرط.. ما هو..؟
- شرطي الوحيد أن تكوني صريحة معي. لا تخافي أو تستحي من الكلمات البذيئة والشتائم من أن تذكريها.. فليس هناك ما يخجل..
- سوف أروي لك كل شيء.. وبكل صراحة....

قالت ذلك ومدت يدها لكأسها وأفرغت ما تبقى في جوفها . كان واضحا ً أن النبيذ قد سرى في دمها .. إذ لمعت عيناها ببريق إنثوي غريب ، وصعد الدم لوجهها .. نظرت إليه وواصلت..

- عن ماذا أحكي لك.. ومن أين أبدأ..؟
- أحكي لي عن كل شيء..لن أقاطعك إلا عند الضرورة.. أحكي لي من بدايات مشكلتك..
- ليكن..
- انتظري..

نظر آدم التائه إلى قنينة النبيذ فوجدها فارغة إلا من بقايا لا يمكنها أن تشكل كأسا . نظر إليها وسألها:

- هل يمكنني أن أفتح قنينة أخرى؟

نظرت إليه نظرة ملغزة للحظات ، ثم ابتسمت قائلة :

- طبعا يمكنك ذلك..

فتح آدم التائه الثلاجة ثانية ، وأخذ قنينة نبيذ أخرى . فتحها وصب في كأسيهما .. نظرت هي إليه وقالت مبتسمة بطريقة موحية:

- يبدو أنك تنوي الليلة أن تسكرني..
- لا..لا. أبداً.. أنا فقط أريد أن تروي قصتك بسلاسة ودونما مقاطعة.. ألا تشعرين بالراحة الآن؟
- بلى.. أحس وكأني أريد الطيران..

ابتسم لها قائلا ً

- لا أريدك ان تطيري.. وإنما أن تروي لي قصتك منذ البداية..
- ذات يوم طرقتْ بابنا إحدى جاراتنا. فتحت الباب لها. سألتني إنْ كان أبي وأمي في البيت، فقلت نعم.. دخلت أولاً، ثم دخل خلفها رجل في الأربعين من العمر.. لم يعجبني شكله من أول نظرة له.. عرفت أنه أخوها.. أبي وأمي استقبلاهما بترحاب تقليدي.. وبدون مقدمات طويلة تحدث جارتنا بأنها جاءت لتخطب يد أختي، التي تكبرني، لأخيها، الذي هو معها، والذي يعيش في ألمانيا.. وسألتْ عن أختي.. ولحسن الحظ أو لسوئه كانت أختي خارج البيت.. فجأة، نطق أخوها قائلاً بأنه لا يريد أختي التي لم يرها بعد، وإنما يريد الزواج مني، وأشار إليّ.. أخته ارتبكت..وأنا ارتبكت أيضا.. إلا أن أمي فرحت، لاسيما بعد أن عرفت أنه يعيش في ألمانيا التي لم تكن تعرف أين تقع هذه البلاد أصلاً.... طبعاً أنا رفضت، إلا أن أمي وعدتهم خيراً.. بعد يومين جاءت أخته مرة أخرى بدعوى أن أخاها يريد الرجوع إلى ألمانيا، وأنه إذا كانت هناك موافقة من قبل الأهل فيجب التعجيل بذلك، وإلا فأنه سيرجع إلى ألمانيا، فإما يتزوجني وإما لا يتزوج ابداً. لم يكن أبي راضياً، إلا أنه كان ضعيف الشخصية أمام أمي التي كان القرار بيدها، وكانت قد وافقت على هذا الزواج منذ اللحظة الأولى لكنها أرادت أن تبدي بعض الرزانة قبل أن تعلن موافقتها... عصر ذلك اليوم نفسه جاءت الأخت بخاتم الخطوبة.. وجرت الأمور بسرعة البرق.. أختي الكبرى كانت سعيدة لأنها لم تكن موجودة في البيت يوم مجيئهم الأول، لكنها كانت حزينة من أجلي..لأنها نفرت من خطيبي من أول نظرة.. مثلي تماماً.. خلال اليومين التاليين جاءوا بالمأذون.. وجرى الزواج التلقيدي الديني.. ثم مضوا بعقد الزواج إلى المحكمة فتم تسجيله رسمياً...وبعد أسبوع من ذلك كنا نتوجه بالسيارة إلى سورية، وبعد عشرة أيام أخرى توجهنا إلى ألمانيا... لحد الآن لا أستطيع أن أفهم سر موافقة أمي على زواجي هذا...... لم يكن زوجي ثرياً بحيث يمكن القول بأنه اشتراني منهم... لم يدفع سوى

ثمن الخاتم ومصاريف قليلة هنا وهناك.. لم يكن لطيفاً أثناء فترة الخطوبة حتى يمكن القول إنه قد تغير بعد الزواج. كان خشن الطباع، متعجرفاً، يحتقر الآخرين، يحقد على الجميع دونما سبب، ودون معرفة بإحد، ناقماً على البشرية كلها... لحظة وصولنا إلى مطار تيغل في برلين، قال لي بالحرف الواحد: اسمعي.. أنت بالنسبة لي لا شيء.. أنت بالنسبة لي حيوان لا قيمة له.. يجب أن تطيعيني في كل شيء.. هنا لا أحد لديك لتذهبي إليه..أنا بالنسبة لك الثاني الذي يجب طاعته بعد الله.. هكذا قال النبي..

- آها..

كان آدم التائه قد تراجع عن مخططه لإغوائها .. فقد شدته قصتها .. أخذ كأسه إلى فمه وارتشف جرعة كبيرة .. نظر إليها بتعاطف . انتبهت هي لتعاطفه معها ، فأحست بمودة صادقة نحوه ، وشجعها ذلك على أن تكون أكثر جرأة في ذكر تفاصيل قصتها ، فقالت:

- منذ أول يوم لي في ألمانيا بدأت رحلة عذابي.. لم تكن لدي أوهام عن شخصيته، فقد عرفته قبل وصولي إلى برلين، لكن الشيء الوحيد الذي كان جديداً علي واكتشفته هنا في ألمانيا، هو أنه سكير، مدمن، و مقامر، وبخيل بشكل مخيف. لم يسمح لي بتعلم اللغة الألمانية.. كان عاطلاً عن العمل، لكنه كان إذا ما خرج إلى أي مكان فأنه كان يغلق الباب عليّ بالمفتاح، ويأخذ المفتاح معه. لم يكن يسمح بإقامة أية علاقة مع الجيران. كانت هناك عوائل عراقية، كوردية وعربية وآشورية، عوائل لبنانية وفلسطينية، لكنه كان يرفض، يتفجر غضباً إذا ما دقت علينا إحدى الجارات الباب طلباً لحاجة بيتية مفقودة لديهم.. كان يشك بالجميع.. وكان يقول لي بأنه لا يثق بأي إنسان مهما كان.. لايثق حتى بنفسه.. ولا بي طبعاً.

وعلى غير توقع من آدم التائه مدت يدها إلى كأس نبيذها وأخذتها . ارتشفت جرعة كبيرة منها ، نظرت إليه وهي في حالة تألق شجاع ، وواصلت:

- ذات ليلة شرب كثيراً جداً. كان قد خسر معظم مرتبنا الشهري من دخل المساعدات الإجتماعية التي تقدمها الدولة الألمانية لنا. كان في حالة نفسية منهارة جداً.. لم أره قبل ذلك ولا بعد تلك الليلة بمثل ذلك الإنهيار.. بدأ يبكي.. يشتم أمه وأخته.. وكل الناس.. أشفقت عليه.. طلبت منه ألا يشتم أمه فهي ميتة.. فانفجر غاضبا وكاد يضربني، صارخا بأن أمه عاهرة.. ثم جلس على الكرسي وأخذ يشتمني ويشتم الجميع.. يشتم كل

من في السماء والأرض.. روى، دون إرادة منه، قصة طفولته، كيف، حينما كان صغيراً مع أخته التي تصغره، كان والده يعمل في مدينة بعيدة، كان عمه المراهق يعيش معهم في البيت. كان هو في السادسة من العمر وأخته في الرابعة والنصف حينها. ذات ليلة، رأى عمه الذي كان في السابعة عشرة من العمر، يزحف شيئا فشيئا نحو فراش أمه. كان بيتهم يتألف من غرفة استقبال، وغرفة نوم، وملحقات البيت من غرفة حمام ومطبخ.. وكان هو وأمه وأخته ينامون في الغرفة، بينما عمه ينام في الصالة.. استيقظ تلك الليلة على حركة في السرير.. كانت أمه تنام على طرف السرير، بينما أخته تنام في الوسط بينهما. انتبه إلى رأس عمه يبدو من جهة أمه. كان عمه مقرفصا على الأرض.. وكانت يده تجوس بين أفخاذ أمه محاولاً أن ينزع عنها سروالها.. ويبدو أنها كانت ترفض، لكنه كان يلح.. كان يسمعها تقول له بأن ما يفعله حرام، ولا يجوز.. لكنه كان يجيب بأنه يحبها ولا يستطيع العيش هكذا أكثر.. وأنه يريد أن ينام معها.. كانت تهمس خائفة بأن الأطفال سوف يستيقظون وستكون هناك فضيحة.. وكان يسمع عمه يقول لها بأنها إذا لم تسمح له فهو الذي سيوقظهم.. وليكن ما يكون.. كان يسمع كل شيء.. وكانت أمه تحاول أن تبعد عمه عنها..إلا أن العم المراهق كان كالمجنون..في النهاية أدارت جسدها على السرير بحيث صار جذعها الأسفل على حافة السرير، فصار هو بين فخذيها.. كانت هي تئنّ. وكان هو يتصور بأن عمه يؤذيها.. وسمع أمه تقول لعمه:

....

ترددت أن تواصل الحكاية . كان الجو في الغرفة متوترا ً لهذه الحكاية الجنسية المليئة بالشبق . كان آدم التائه منذهلا ً من طريقة سردها للقصة ، وكان يبدو أنها تتلذذ بسرد هذه التفاصيل الشبقية ، كاشفة عن رغبتها الدفينة لرجل ، لكنها ترددت حينما وصلت إلى اللغة الجنسية الصريحة . توقفت . نظر إليها ، ثم قال لها:

- اشربي كأسك وستجدين نفسك تروين الحكاية بلا تردد أو خجل.. لا تستحي.. قولي كل شيء.. ففي النهاية أنت تروين ما حدث..

نظرت إليه نظرة غامضة ، فيها الكثير من التواطؤ .. وواصلت:

- لقد كان زوجي غاضبا حينما ردد كلمات أمه لعمه، بل بكى قبل أن يقولها. كانت أمه تقول لعمه، وهي تلهث: أنت شيطان رجيم.. لا تعذبني كثيراً.. أدخله وخلصني.. أنا أموت.... قال زوجي، وهو يسترجع ذكريات

طفولته بغضب السكران: كنت أخاف أن يقتل أمي.. لم أفهم ما يجري.. لكني سمعت أمي تسأله بعد ذلك، إن كان يحبها فعلاً، فكان يقول لها: إنه يموت فيها. في اليوم التالي انتبه إلى أن أمه أخذت تعتني بعمه عناية خاصة واستثنائية، بل صارت تفضله أحيانا عليهما، هو وأخته، فبينما كانت تقلي البيضة الواحدة في السمن وتوزعها بينه وبين أخته، كانت تعد لعمه وحده بيضتين............. في الليالي التالية لتلك الليلة المحفورة في ذاكرته، كان ينهض من سريره، وحينما لم يجد أمه نائمة في غرفتهما يخرج مفتشاً عنها، وكثيرا ما كان يجدها مستلقية تحت عمه، إلا أنه في الصباح يجدها نائمة في مكانها على السرير؟؟.......... كان يصرخ باكياً: هذه العاهرة التي هي أمي، كانت تستقبل أبي حين يعود لزيارتنا بالحفاوة والحب، وتخدمه، وتلازمه، وتكيل المديح لأخيه وما يعمله من أجلهم...........(صمتتْ للحظات.. كانت تبدو وكأنها تتخيل كل ما كانت ترويه.. واصلت حديثها.. وكأنها تركت بعض تفاصيل الحكاية..).........ثم روى كيف أنه بعد سنوات مات الأب نتيجة حادث سير بإنقلاب السيارة التي كان يقلها عند عودته لزيارتهم، وكان هو حينها في العاشرة من عمره وأخته في الثامنة والنصف...... بعد ذلك بفترة قصيرة تزوجت أمه من عمه، لكن بعد فترة أشهر من زواجه منها، بدأت المشاكل بينهما، إذ كان عليه أن يعمل من أجل إعالة العائلة الجديدة، بينما كان طوال سني عمره عاطلاً عن العمل، كان يعيش من مساعدات أمي المالية له، التي كانت تستقطعها من المصروف الذي كان الأب يتركه لديها لتيسير شؤون العائلة، وكأنها كانت تدفع له ثمن ممارسته الجنسية معها......... بعد موت الأب، وزواجها من عمه، ومن أجل أعالتهم، بدأت تعمل في معمل للتبوغ.... ومع مرور السنوات، صارت لا تستطيع الرؤية بشكل جيد، وبدأت تسعل بشكل مخيف.. بدأت تذبل وتنهار. وتزداد حقداً على الجميع..... نذالة العم لم تتوقف.. فقد روى كيف أنه رجع من المدرسة ذات يوم مبكراً، وكان حينها في الرابعة عشرة من عمره، وجد أنه لا أحد في البيت، لكن فجأة سمع حركة على سطح الدار، فصعد خفية، وهناك، وجد عمه وقد نزع ثياب أخته، وأجلسها في حضنه.. كانا يتضاحكان. رآه يداعب نهديها، ويمص حلمتيها.. ويده الأخرى تداعب فرجها الأملس.. فجأة انتبهت الأخت لوجوده فقزت، وهي تلملم نفسها وتتستر بثوبها. بينما قام العم مرتبكاً ليقول له بأن أخته تعرضت لضربة شمس، وإنه أراد أن يرى الأماكن الملتهبة في جسدها....حينما جاءت أمه أخبرها بما رأى، فلم تفعل شيئا، وإنما بدأت

بعقاب أخته، وضربها وإتهامها بأنها المذنبة في إغواء زوجها، ثم لكي لا تبقي الأخت في البيت أخذتها للعمل معها في مصنع التبوغ............(صمت للحظات ثم واصلت)........ترك هو دراسته. حينها كان في المتوسطة. أخذ يعمل صنائعياً عند ميكانيكي للسيارات. كان يقضي الليل في كراج السيارات نائما في زاوية ما، أو في ورشة تصليح السيارات. لم يرجع إلى بيتهم إلا بعد وفاة زوج الأم في شجار غامض لم تُعرف أسبابه الحقيقية، حيث تعرض للطعن بالسكين في أكثر من موضع من جسده، ومات في المستشفى.... أخته صارت معروفة بعلاقاتها مع أبناء الشارع، لكنها، لجمالها، ولأساليبها الماكرة استطاعت أن تقنع شخصاً غبياً لكي يتقدم لطلب يدها والزواج منها.. وكان متأكدا بأن أخته عاهرة أيضا، وأنها ركبت لزوجها قروناً من ذهب. أمه ماتت بعد ذلك بالسل، لكنه كان يكرهها في حياتها وكذلك بقي بعد موتها.

نظر آدم التائه إليها فوجدها وكأنها كانت تعيش كل تلك التفاصيل . كانت عيناها متألقتين . فسألها بشكل مفاجئ:

- وأنت؟.. كيف كان يتعامل معك..؟

صمتت للحظات ، نظرت إلى نقطة بعيدة ، خارج المكان ، وواصلت :

- كان لا يثق بي أيضا.. كنت في نظره عاهرة.. كان يصرخ: أنا لا أثق بأحد..لا أثقك بك أيضا.. أنت لا تختلفين عن بقية النساء.. ما أن أفتح لك الباب حتى تركّبي لي قرونا من حديد. كلكن عاهرات.... عقولكن في فروجكن..إذا اشتعلت النيران ما بين أفخاذكن، فأنكن تبيعنّ الأب والأم والأخ والابن والدين وحتى الله في مزاد بخس، كل ذلك من أجل أن تدخل فيكن قطعة اللحم تلك.. عاهرات أنتن، حتى ولو كنتن قديسات فأنتن عاهرات مقدسات.......... (صمتت مرة أخرى للحظات... ثم واصلت).. كانت تلك المرة الوحيدة التي تحدث فيها، ولو لم يكن سكران لما تحدث. لقد شعرت أنه ضحية ظروف صعبة مرت في حياته، لذا صبرت عليه، محاولة أن أساعده، صبرت سنوات من أجل تلك الليلة التي كشف عن آلامه الحقيقية وطفولته التعيسة...... (صمتت للحظات دون أن تنظر إليه.. ثم واصلت الحديث وكأنها تتحدث عن شخص آخر..).. كانت حياتي رتيبة معه. لا جديد في حياتي.. لكن بعد سنوات حملت بابني. بعد ولادته تحسنت حالته قليلاً. ترك الخمر، وأخذ يأتي إلى البيت مبكراً، لكن هذه الحالة لم تستمر سوى أشهر معدودة. بعدها عاد إلى حياته التي اعتادها.. خمر.. وقمار.. وعنف.. وضرب لي.. واغتصاب.. بل حتى طفلي لم يسلم من عنفه..

بالرغم من أني بعد ولادة طفلي صرت أستطيع الحديث مع الجيران قليلاً.. طبعاً دون علمه.. خاصة حينما آخذ ابني إلى عيادة طبيبة الأطفال..كان يوصلني إلى العيادة ويذهب ليأخذني بعد ساعتين أو أكثر، وكنت خلال تواجدي في غرفة الانتظار أتعرف على النساء الأخريات.. ومنهن واحدة عراقية آشورية.. هي التي ساعدتني كثيراً في أن أغير حياتي.. لقد رويت لها بعض التفاصيل عن حياتي.. تعاطفت معي وقررت مساعدتي.. وحينما تعرضت للضرب من قبل زوجي ذات مرة، وكنت في العيادة، ورأتني على تلك الحال، شجعتني على الذهاب إلى المحامي وتقديم طلب للإنفصال.. لم أجرؤ على ذلك.. لكنها أخذتني بقوة وشجاعة.. قدمت طلبا، ومن لحظتها انتقلت إلى أحد بيوت النساء اللاتي يتعرضن للعنف والتهديد.. وهكذا بعد سنوات حصلت على الطلاق.... لكن حتى بعد طلاقي منه لم أسلم من تهديداته...... كانت المحكمة قد خصصت يوما للقائه مع إبنه، إلا انه لم يشأ أن يرى ابنه، وإنما يريد أن يراني ويهددني بالقضاء علي.. وكان يأتي كل يوم ليقف أمام نافذة شقتي...... وبالرغم من أني قد غيرت عنواني وتنقلت في سكني، إلا أنه، لا أعرف كيف ومن أين، كان يحصل على عنواني، بحيث صار يقيم ليل نهار أمام البناية التي أقيم فيها. خلال هذه السنوات، التي عشتها بدونه، دخلت دورات لتعلم اللغة الألمانية، وأدخلت ابني للحضانة، ثم المدرسة، وأخذت أعمل نادلة في المقاهي، رافضة أن أعيش على المساعدات الاجتماعية. أردت أن أنفق على إبني بسخاء وحرية، وأن لا أحرمه من أي شيء.. فكنت أعمل ساعات وساعات من أجل توفير الحياة الكريمة له.. ولكنه لم يتركنا بسلام، فاضطررت إلى الإنتقال إلى ميونخ والبحث عن عمل هنا. لم يكن الأمر سهلاً، إلى أن حصلت على هذا العمل في هذا الفندق. أعطوني غرفة صغيرة. أرسلت ابني إلى مدرسة داخلية ساعدتني بعض المنظمات الإنسانية لتحمل نفقات بقائه هناك، بينما أنا أعمل هنا...لكنه لم يتركني بسلام..

توقفت وهي تنظر إليه . رفع كأسه إلى شفتيه ، وكان من خلال الكأس يتأملها ، ليعرف كيف عليه أن يخطو الخطوة التالية معها . أشار لها بأن تشرب . عبّت الكأس حتى أفرغتها في جوفها ، وقبل أن تضعها على الطاولة بادرها بالسؤال:

- كم مضى لك من السنوات وأنت منفصلة عنه؟
- ثمان
- وخلال هذه المدة.. ألم يكن لديك أية علاقة مع أي رجل..؟

برقت عيناها وارتعشت رموشها . صمتت للحظات ، وقالت:
- لا.. لم تكن لدي أية علاقة..
- صدقاً..؟
- صدقاً..
- كيف لي أن أصدق بأن امرأة شابة مثلك.. بهذا الجمال.. وهذه الحيوية.. لم تقم علاقة مع رجل..؟
نظرت إليه بحزن وقالت :
- لقد كرست حياتي من أجل ابني
- أليست لديك رغبات..؟ في النهاية أنت امرأة. أنت إنسان يحتاج للحب..للجنس.. مثلما يحتاج للهواء والطعام..
- أعرف ذلك.. صدقني.. أنا إنسان أيضا..لدي مشاعر وأحاسيس.. واحتاج للرجل..بل أحتاجه جداً.. وكان هناك من يحاول أن يقيم علاقة معي....لكن علاقة عابرة.. وهناك من كان يريد أن يتزوجني لكن كزوجة ثانية.. وهناك مَن أرادني عشيقة لا أكثر.. وربما كان الأمر أسهل في بداية انفصالي عن زوجي.. حيث كان ابني طفلاً، لكن بمرور الأيام صار الأمر صعباً جداً.. فقد كبر ابني وصار يغار عليّ من عيون الرجال حينما نكون معاً.. أنا تعبانة جداً.. أريد أن أتمرد لكنني لا أستطيع.. ابني تربى هنا في ألمانيا، أحيانا يفكر بطريقة ألمانية ويقول لي بأن عليّ أن أجد حياتي، لكنني أتصور أني لو كنت قد تزوجت وصار هناك شخص آخر في حياتي..فربما لن أستطيع أن أوفر الراحة لابني، بل ربما سيضيع مني..لا سيما وهو في سن المراهقة..
- لكنك تضيعين شبابك..
- أعرف..
- عيشي حياتك..
- كيف؟ لقد عشتُ حياتي..
- اطلقي مشاعرك.. ارتبطي برجل..ليس المهم أن تتزوجيه..لكن أن تكوني معه.. أنت تتعذبين.. وتعذبين جسدك.. وهذا سوف يؤثر على أعصابك ونفسيتك..
- أنا تعبانة.. وأشعر بأن أعصابي متوترة.. أعرف ذلك.. لكنني لا أستطع.. كل مرة كنت أقرر مع نفسي بأن أقيم علاقة ما..لكنني لم أستطيع.. كانت أطرافي تتجمد وأشعر بالإختناق حينما أفكر في ذلك..
نظر إليها بصمت .. نظرت إليه وسألت وعلى وجهها ابتسامة دافئة:
- ماذا..؟ لماذا تنظر إليّ هكذا..؟

- لدي سؤال أود أن تجيبيني عليه بصراحة.. مثلما رويت تفاصيل حياتك بصراحة نوعا ما..

- إسأل..

- لماذا جئت إليّ..؟هل لإهدائي الفواكه..؟ أو للحديث..؟ أو لأنك أردت أن تكوني معي..؟

نظرت إليه ، ثم نظرت إلى قنينة النبيذ ، فصب لهما ما بقي في القنينة ، دون أن ينتظر جوابها .. أخذت كأسها وشربتها دفعة واحدة ، ثم أعادت الكأس فارغة إلى مكانها .. ظل هو ينتظر الجواب .. نظرت إليه .. كان واضحا ً له أنها تتعذب .. مشاعرها ورغباتها وشخصيتها وقناعاتها في صراع حاد .. وأخيرا ً نهضت من كرسيها متجهة نحو الباب دون أن تنطق بكلمة .... فوجىء هو بمثل هذا الجواب .. كيف له أن يفلتها وقد وصل إلى أعماقها؟ هل أخطأ في سؤاله؟ ماذا عليه أن يفعل الآن؟ وفجأة قرر تغيير خطته ، فبينما كانت هي تهم بفتح الباب ، احتضنها من الخلف بقوة . فوجئت هي بتصرفه . حاولت تحرير نفسها من قبضته لكنها لم تستطع .. مد يده بين أزرار قميصها وأمسك بنهدها ، فندت عنها صرخة شهوانية خافتة .. وبقوة خارقة حررت نفسها منه . التفتت نحوه وجها لوجه .. فجأة .. فتحت الباب وخرجت ، صافقة الباب خلفها.

فتح الباب . لم يكن هناك أحد . خرج إلى الممر الطويل فلم يجدها . لم يسمع صفقة الباب الخارجية للممر والتي تقود إلى المصعد والسلم ، كما لم يسمع اصطفاق أي باب في الممر . ظل في حيرة من أمره . أين اختفت؟

عاد إلى غرفته . فكر مع نفسه : أت ُرى كل ما كان ليس إلا وهما ً من أوهامي الروائية . رغباتي الدفينة؟ أكانت هي هنا حقا ً؟ نظر إلى الكأسين الفارغين ، وإلى قنينتي النبيذ الفارغتين أيضا . أترى هو وحده شربهما؟ لكن الكأس الأخرى كانت لمن؟ أكان يشرب من كأسين؟ هل هو مجنون؟

جلس على السرير مفكرا بحيرة ، وضياع . رن جرس الهاتف . وقبل أن يجيب ألقى نظرة على الساعة الجدارية فرأى أن الوقت الآن تجاوز العاشرة والنصف بخمس دقائق .. رفع سماعة الهاتف فجاء صوت من الطرف الآخر ، ومن أول حرف عرف أنها إيفا ليسنج:

- مرحبا آدم.. آسفة على التأخير.. لم أستطع أن أتصل قبل هذا الوقت..الآن فقط انتهينا من اجتماعنا.. إنني تعبِة جداً.. لكني مشتاقة

لرؤيتك.. كيف أنت؟
- أنا.. أنا الآن عند سماع صوتك أحس بالحياة.. لقد شربت قنيتي نبيذ..
- وحدك..؟
- أعتقد وحدي..
- تعتقد وحدك.. ماذا تقصد؟
- سأروي لك..
- هيه.. هل أنت مستعد لأن تأتي إليّ هنا.. في جناحي في الفندق..؟
- طبعاً
- إذن أنا أنتظرك.. وستحكي لي كل شيء.. اتفقنا
- اتفقنا..

حينما قام آدم التائه أحس بأنه ثمل قليلا ً. دخل الحمام .. عطر نفسه . أطفأ النور في غرفته وخرج . في اللحظة التي طبق فيها الباب سمع صوت الهاتف في الغرفة يرن ثانية .. أراد ان يفتح الباب .. لكنه لم يفعل وإنما انطلق نحو الخارج متوجها إلى إيفا ليسنج . وبينما كان هو في الممر كانت رنات الهاتف تصله بشكل خافت . من تراه يتصل؟ أهي إيفا ليسنج .. أتريد تأجيل اللقاء؟ ربما .. لا .. حسنا ً فعل بعدم الرد على الهاتف .. هكذا فكر مع نفسه ، وهو يهبط السلم .

آدم البغـدادي : هل أنا مجنون أم أن بطلي هو المجنون ؟ ومن هي هذه المرأة التي لم تنطق باسمها ، والتي جاءت إلى غرفته لتروي له فصولا ً من الجحيم ؟ أكانت شخصا ً واقعيا ً أم أنها من أشباح وأرواح آدم التائهه ؟ مـ َن اتصل به حينما أغلق الباب خارجا ً؟ لماذا أنهيت مشهد الأغواء الأخير ؟ أمن المعقول أن تأتي امرأة شابة بنهدين عامرين يرتجان شهوة ، إلى غرفة رجل غريب وتشرب معه قنينتين من النبيذ ، وينتهي الفصل بمثل هذه الطريقة البائسة ؟ ربما يتهيأ آدم التائه لليلة ساخنة عند إيفا ليسنج ؟ لا أدري.

ثم لماذا أدعى أنه لا يعرف فندق صوفيتيل ميونخ ، عندما اتصل بها أول مرة ، علما ً أنه أول فندق كتبته له موظفة الإستعلامات في المحطة ، هل ليبدي لها أنه لا يعرف الفندق ، أو أنه فعلا ً لا يعرف أين يقع ، فأراد التأكد ؟ غريب آدم التائه هذا ؟ أحيانا ، تبدو تصرفاته غامضة بالنسبة لي.

* * *

لم يخب أمل حواء الزاهد عند قراءة هذا الفصل . صحيح أنها كانت تنتظر فصلا ً فيه علاقات جنسية ، إلا أنها تأثرت جدا ً بمعاناة هذه المرأة

العراقية التي مرت بهذا الجحيم؟ لكنها لم تفهم بشكل واضح ، هل كانت هذه المرأة حقيقة ، أو أنها ، كما قال الكاتب آدم البغدادي هي من أشباح وأرواح آدم التائه . ومن ترى قد اتصل به وهو يغادر غرفته؟ من المؤكد أنه سيتضح كل شيء في الفصل القادم . ومن المؤكد أن الأمور ستمضي بشكل جيد ، ما دامت إيفا ليسنج قد دعته إلى جناحها في الفندق . هل أواصل القراءة .. ؟ لا .. الوقت متأخر جدا ً.. غدا ً، بعدما أوصل ابني آدم الملاك إلى مدرسته وأرجع إلى البيت لأواصل القراءة.

طوت المخطوطة . أطفأت المصباح الموجود على الطاولة فغرقت الغرفة في ظلام كثيف . غرقت حواء الزاهد في نوم عميق . رن الهاتف المربوط بقادح الشحن في غرفة الاستقبال . ظل يرن ، إلا أن حواء الزاهد لم تسمع شيئا . كانت نائمة ، بينما كان التلفون يرن .

رسائل اللا أحد

كانت أمواج مياه معتمة تصطخب وتتلاطم داخل مغارة معتمة بأعماق جبل بعيد ، في مكان مجهول . سقف المغارة كان منخفضا ً جدا ً. المياه تصطدم بجدران المغارة معلنة صوتا ً يتردد صداه في المكان . المغارة تتصل من إحدى جهاتها بفتحة تطل على مشهد البحر البعيد الذي كان صوت أمواجه المتلاطمة يصل إلى أعماق المغارة أيضا ً.

في عمق ذلك السكون البدائي الغريب ، تعالى رنين هاتف نقال . توقف صخب موج مياه البحيرة المعتمة ، ولم يبق سوى هدير أمواج البحر البعيد المتلاطمة ، وصوت رنين الهاتف.

فزت حواء الزاهد على صوت رنين الهاتف النقال . نظرت إلى جهة الباب ، فلمحت ضوء الفجر قد تسرب من خلال نافذة المطبخ المقابل لغرفة النوم ، عرفت أن الفجر قد لاح . ظنت أول الأمر أنها تحلم برنين الهاتف في تلك المغارة ، وبأصوات أمواج البحر المتلاطمة ، وبرنين الهاتف الذي تداخل مع صوت تلاطم الأمواج ، لكنها أستغربت أن صوت تلاطم الأمواج وصخب البحر كان وهما ، إذ اختفت كل الأصوات ولم يبق منها سوى صوت رنين الهاتف ، الذي وحده كان حقيقة واقعة ، لكن لم تستوعب بعد بأن رنين الهاتف كان يرن في غرفة الاستقبال وتوقف عندما أفاقت بالضبط..

التفتت إلى ولديها يمينا ً وشمالا ً فرأت ، من جهة اليمين ، ابنها آدم الملاك غارقا ً في نوم عميق ، ومن جهة اليسار ، لمحت ابنها هابيل الرضيع مستيقظا ً، فاتحا ً عينيه البريئتين ، يرضع أصابعه ، إذ استطاع أن يفلت كفيه الصغيرتين الناعمتين من قماطه ويرفعهما لفمه . ابتسمت له من كل قلبها الحنون ، وشعرت بسعادة وسلام نفسي . نهضت من السرير واتجهت مباشرة إلى المهد . أخذت هابيل بين ذراعيها ، قبلته ، وتشممت عطره الطفولي الطيب . وضعته ثانية في مهده ، وخرجت إلى غرفة الاستقبال لتعرف المتصل في مثل هذا الوقت المبكر.

في غرفة الضيوف أخذت جهاز الهاتف لتعرف المتصل ، فلم تجد أي رقم أو اسم ، ولا شيء يشير إليه سوى كلمة : غير معروف . ضغطت للإتصال بالجهة المتصلة إلا أن أي اتصال لم يحصل . حاولت مرات عدة ، لكن دون أي جدوى . أرجعت الجهاز إلى قابس الشحن ثانية وتركته على الكنبة.

بعد فترة قصيرة أعدت الفطور لابنها آدم الملاك ، وألبسته ثيابه المدرسية ،

ثم أرضعت ابنها هابيل ، ووضعته في عربته الصغيرة ، ودفعتها أمامها وهي تخرج مع ابنها آدم الملاك كي توصله إلى المدرسة.
عند الباب الخارجي بالضبط ، وقبل أن تفتحه ، تعالى صراخ وندب من أحد بيوت الجيران في الزقاق . أخذ الناس يتراكضون نحو الدار التي صدرت عنها الصرخات . بعضهم دخل الدار ، والبعض الآخر تجمهر أمامها . أحد الجيران كان مارا ، وقبل أن تسأله التفت إليها موضحا ً بأن جارهم الضابط الشاب ، الذي يعمل في وزارة الداخلية ، تم اغتياله بمسدس كاتم للصوت قبل ساعة ، أثناء توجهه لدائرته ، وقد عرفت عائلته بالخبر الآن . أحست بالكآبة تقبض على روحها . شعرت ْ بتعاطف شديد مع أهله . تذكرت ْ لحظتها ذلك الصباح الذي اكتشفت خلاله مقتل حبيبها آدم المحروم.
أوصلت ابنها سريعا إلى مدرسته القريبة وعادت تدفع عربة طفلها هابيل مسرعة إلى البيت . دخلت صالة الإستقبال مع العربة . حملت ابنها واتجهت به إلى مهده . كان الرضيع هابيل نائما.
كان خبر مقتل ابن جارتهم الضابط الشاب قد سبب لها كآبة وخوفا ً.
اتجهت إلى المطبخ لتهيىء طعام الغذاء سريعا كي تعود إلى مخطوطتها ، فقد أحست بأنها تريد الهروب من أخبار القتل والذبح التي صارت عنوانا ً لحياة العراقيين خلال هذه السنوات السود ، إلى جانب أنها في شوق لمعرفة ماذا سيحصل بين آدم التائه وإيفا ليسنج ، ولمعرفة لغز رنين الهاتف عندما خرج من غرفته.
لا إراديا ً ربطت بين رنين الهاتف في غرفة آدم التائه ، وبين سماعها لرنين الهاتف وسط صخب الأمواج المتلاطمة في منامها ، ورنين هاتفها النقال صباح فجر هذا اليوم ، ولا إراديا ً استعادت ْ التفسير الشائع لسماع رنين الهاتف في الأحلام بأنه إشارة لقرب سماع أخبار .. ليس المهم أن تكون الأخبار جيدة أو سيئة ، إنما تعني وصولها أساسا ً.
وضعت الرز في صحن كبير لغسله وأخرجت بعض البطاطا وعلبة معجون الطماطم ، وقنينة الزيت ، وقطعتين من البصل ، استعدادا ً لإعداد وجبة الغداء . لكن صوتا ً داخليا ً همس في أعماقها بأن تعاود الاتصال بالرقم الذي اتصل بها فجرا ً، والذي كان قد اتصل حينها مرات عدة . صحيح أنه ليس هناك اسم أو رقم يشير إلى صاحبه إلا أنها تستطيع أن تطلبه . توجهت إلى حيث الهاتف النقال في غرفة الاستقبال . أخذت الهاتف وجربت الاتصال مرات عدة ، لكن دون جدوى . تركت الهاتف وفي داخلها

قلق خفيف بدأ ينتشر . حاولت أن تهرب من مخاوفها ، وأن تشغل نفسها ، فاتجهت ثانية إلى المطبخ لتعد وجبة الغداء.
مرت ساعة من الوقت تقريباً حينما رن الجرس . مضت مسرعة إليه وفتحت الخط على المتصل في الجانب الآخر من الخط ، لكن المفاجئ لها هو أن الشخص الآخر لم يشأ أن يتحدث معها . كررت قائلة للمتصل بأن يتحدث ، وأنها تسمعه ، إلا أن الشخص الآخر ظل مصراً على صمته . أحست بالإنزعاج قليلاً. أغلقت الخط ووضعته في مكانه ، وما أن استدارت لكي تغادر المكان حتى رن الهاتف مرة أخرى . أخذت الهاتف بعصبية وقالت مخاطبة الشخص في الطرف الآخر من الهاتف بعصبية واضحة:
- إذا كنت لا تنوي الكلام فلماذا تتصل.. أنا أسمعك..تفضل.. ماذا تريد؟
الشخص على الطرف الآخر من الهاتف أصر على عدم الإجابة . فجأة شعرت بتيار من البرد يمس جسدها فاقشعرت خوفاً. رمت الهاتف من يدها ، وغادرت الغرفة بسرعة ، وكأنها تخاف من أن تبقى وحدها في تلك الغرفة مع الهاتف النقال . توقفت للحظة مترددة ، أرادت أن ترجع لتغلق الهاتف ، لكنها في اللحظة نفسها فكرت ربما يتصلون بها من المدرسة ، إذ أحيانا يتصل مدير المدرسة الأستاذ قابيل الفهد بها لتأتي قبل الوقت لتأخذ ابنها ، لأن بعض الدروس قد ألغيت لغياب المعلمين ونقصهم لتقديم الحصص ، وهذا ما كان يحدث دائما تقريباً، لذا قررت عدم إغلاق الهاتف.
حينما تأكدت من أن وجبة الغداء جاهزة ، مضت لتغير قماط ابنها هابيل وإطعامه . حينما انتهت من ذلك وضعته في مهده ليواصل نومه البريء . كان لديها الكثير من الوقت . فكرت للحظة بنفسها . ماذا كانت تفعل لولا هذه الكتب؟ الكتب تجعل الحياة ممكنة ، هكذا فكرت مع نفسها.
مضت دون إرادة منها إلى المخطوطة . أخذتها بين يديها . أخذت تتلمس الورق . سألت نفسها متعجبة : كم من العذابات والأحلام والمعاناة والرغبات والأفكار العميقة بين طيات هذه الحزمة من الأوراق ! أين هي الحياة الحقيقية ، تلك التي نعيشها في المكان والزمان ، أم تلك التي في الخيال والذهن وعالم التصورات ، سواء التي نتخيلها من خلال الكتب ، أم من خلال تخيلاتنا؟ . هل يمكنها هي أيضا أن تكتب شيئاً ما ذات يوم؟ ربما . لا ... لا يمكنها ذلك .. فهؤلاء الكتاب من طينة أخرى . على أي حال ، هي تريد أن تعرف ماذا جرى لآدم التائه بعدما خرج متوجها إلى الفندق للقاء

إيفا ليسنج . تصفحت المخطوطة ، وتوقفت عند الفصل الذي انتهت منه ، وبدأت القراءة.
ما أن بدأت بالقراءة حتى سمعت رنين الهاتف . أحست بشعور غير مريح من هذا المتصل الذي لا يتكلم . وضعت المخطوطة جانبا على السرير واتجهت بغضب إلى حيث الهاتف . ومرة أخرى لم يشأ الشخص الآخر أن يتكلم . اتصلت هي به ، لكن لا أثر لأي اتصال ، وكأنها تتصل بالفراغ . استغربت ذلك . هل تتوهم وجود اتصال ، مثل أبطال الكاتب آدم البغدادي !
نظرت إلى شاشة الجهاز وضغطت على وظيفة المكالمات الفائتة ، فوجدت أن هذا الشخص غير المعروف قد اتصل منذ الليلة البارحة ولحد الآن ثلاث عشرة مرة ، وما تبقى كانت باسم الأستاذ قابيل الفهد مدير المدرسة خلال الأيام الفائتة ، إذن فهي ليست واهمة ، فهناك متصل حقيقي ، لكنه مجهول ، ولا يريد أن يتكلم ، إذن ماذا يريد؟ ومن هو أصلا ً؟.
عادت إلى الغرفة قلقة . كانت أشد لهفة إلى القراءة هذه المرة ، لأنها كانت تريد الهروب من هاجس الخوف الذي بدأ يقتحم تفكيرها . من تراه يتصل بها ولا يريد أن يتكلم؟ وإذا لا يريد الكلام فلماذا يتصل؟ ولماذا حين تتصل به لا يرن هاتفه ، ولا يعطي إشارة بالإنشغال أو حتى بعدم الرغبة في الرد .. ؟ ماذا يريد ، بل من هو أصلا ً؟.
كانت الأفكار تصطخب في رأسها ، دون أن تجد جوابا ً مقنعا ً، أو حتى إحتمالا ً مناسبا لما يحدث . وما أن أمسكت بالمخطوطة حتى رحلت مع آدم التائه في طريقه إلى الفندق.
ليلة ميونخ السوداء
حين صار آدم التائه في الشارع ، استغرب أن تكون مدينة ميونخ الكبيرة ، عاصمة مقاطعة باير ، شبه مقفرة في تلك الساعة من الليل ، فالشوارع فارغة إلا من سيارة وأخرى تمرق بين فترات متقطعة . المحلات مغلقة والأضواء مطفأة ، إلا من أضواء المصابيح العامة.
كان آدم التائه يشعر باصطخاب المشاعر وتناقضها في داخله ، فهو لم يشف بعد من جراح خيانة زوجته حواء المؤمن ، ثم تلتها تجربتة مع إيفا بيرغمان الغامضة ، وها هو يلتقي بإيفا ليسنج الحلم ، والليلة زاحمته هذه المرأة العراقية المجهولة التي لم تدعه يعرف حتى اسمها.
كان آدم التائه معبأ ً بأشد المشاعر حساسية ، ففي أعماقه تصطخب المشاعر الجميلة التي منحتها له إيفا ليسنج خلال الحوارالأدبي والفكري

معها ، مع مشاعر مضطربة أثارها حديث هذه المرأة عن علاقة العم بزوجة أخيه وإبنتها ، ولغز هذه المرأة المجهولة التي جاءت إلى غرفته.

لم يكن قد وصل فندق صوفيتيل ميونخ بعد ، لكنه كان يفكر بما يمكن أن يسفر عنه هذا اللقاء ، لاسيما في مثل هذه الساعة من الليل ، وفي جناحها الخاص ، فمن المؤكد أنهما سيتقاربان أكثر ، وربما ستسمح له أن ينام معها ، أو ستطلب منه أن ينتقل للعيش معها خلال وجوده في ميونخ لليومين القادمين ، ومهما يكن ، فهذا اللقاء حاسم في تثبيت علاقته معها بشكل أساسي . هكذا كان يفكر ، حينما انتبه بأنه صار عند مدخل الفندق.

انتبه إلى غياب أي من السعاة أو الحراس الذين كانوا يقفون عند المدخل . حينما دخل الفندق لم يجد أي شخص في مكتب الإستعلامات ، وكان اللوبي شبه معتم ، أضواؤه خافتة ، وخاليا ً بالكامل من النزلاء والضيوف . وقف حائرا ً لا يعرف ماذا يفعل . فكر مع نفسه ، هل يصعد مباشرة إلى جناحها ، كيف والفندق مزود بكاميرات مراقبة .. ؟ وربما سيساء فهم تصرفه ويعرضه لمساءلة قبل الوصول إليها ، أم عليه أن يسأل في مكتب الإستعلامات ، أو أي شخص يجده .. ؟ لكن لا أحد هنا ، وكأن الفندق مهجور !!

وبينما كان هو في حيرته تلك ، خرج رجل ألماني من الغرفة المجاورة لمكتب الاستعلامات . كان يبدو أن دخول آدم التائه قد قطع عليه استرخاءه . نظر إلى آدم التائه بعدم رضا واضح ، وسأله:

- مساء الخير أيها السيد. هل أستطيع أن أخدمك؟

ارتبك آدم التائه ، فقال بشيء من التردد :

- لدي موعد عند السيدة إيفا ليسنج، الجناح رقم 333.

نظر إليه موظف الاستعلامات بإندهاش ، وقال ليتأكد مما سمعه:

- هل فهمتك بشكل صحيح، تقصد لديك موعد، والآن؟
- نعم..
- في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل..؟
- نعم..
- هل أنت متأكد بأنك جئت على العنوان الصحيح؟
- نعم.. أليس هذا هو فندق صوفيتيل ميونخ؟
- نعم.. هذا صحيح
- إذاً، أنا جئت على العنوان.. وموعدي هنا بالضبط..

- مع من لديك موعد كما قلت حضرتك؟
- مع السيدة إيفا ليسنج..
- أي جناح قلت حضرتك؟
- الجناح المرقم 333
- سنرى إن كانت على إستعداد لإستقبالك..
- يمكنك ذلك.. إتصل بها..

اتصل موظف الاستعلامات بالجناح 333 . ظل الهاتف يرن لنصف دقيقة ، لكن لم يكن هناك من يجيب . نظر موظف الاستعلامات إلى آدم التائه بريبة ، وقال له:

- لا أحد يجيب في الجناح 333 أيها السيد.
- لكن كيف.. لقد اتصلت بي وأخبرتني بأنها ستنتظرني..!

نظر الموظف إليه بريبة أكبر ، وفجأة سأله:

- ما هو اسمها الكامل؟
- السيدة إيفا ليسنج..

أخذ موظف الاستعلامات يضرب على لوحة المفاتيح التي أمامه ليتأكد من وجودها ، وكان يردد متمتماً مع نفسه اسمها . فجأة رفع رأسه وصمت للحظة وهو يتفرس في وجه آدم التائه ، وقال بشكل فيه اتهام مبطن :

- أتعرف أيها السيد بأنه لا أحد لدينا في هذا الفندق بهذا الإسم؟ بل وإن الجناح 333 محجوز باسم السيدة إيفا بيرغمان، من شركة الفردوس للسياحة.
- ماذا؟؟

أحس آدم التائه بالصدمة وهو يسمع ذلك ، لكنه أراد التأكد أكثر ، فسأل:

- أرجوك، هل يمكنك أن تخبرني باسم من حجز الجناح؟
- السيدة إيفا بيرغمان من شركة الفردوس السياحية المعروفة..
- هل هذا يعني أن السيدة التي في الفندق هي السيدة إيفا بيرغمان من شركة الفردوس للسياحة، وليست السيدة إيفا ليسنج، الممثلة البريطانية؟
- ممثلة بريطانية لدينا هنا في الفندق..!! لم أسمع بهذا الأمر أبداً.. المعلومات التي أمامي هي التي ذكرتها لحضرتك.

أحس آدم التائه بانقباض في قلبه ، وشعر بأن رجليه أخذتا بالارتجاف قليلاً. لم يقل للموظف شيئا ، نظر بخوف واضح ، وانسحب بسرعة ، وكأنه أراد أن يهرول هارباً من الفندق . ظل موظف الإستعلامات مندهشاً من رد فعله . تابعه بنظرات مستفسرة ومريبة ، ومن ثم مد يده إلى جهاز

الهاتف واتصل بجهة ما.
حين صار آدم التائه في الشارع أحس بخوف حقيقي مما يجري معه . ود لو يصل إلى غرفته بخطوة واحدة . أخذ يسرع المشي ، صار وكأنه يهرول من أجل أن يصل إلى فندقه . كان يحس بأنه أتعس مخلوق على وجه الأرض . فكر مع نفسه أنه لو كتب رواية عم ّا جرى له مع إيفا بيرغمان ، والآن مع إيفا ليسنج ، فلن يصدقه معظم الناس ، وسيظنونه كاتبا ً خرافيا ً، كاتبا ً ماورائيا ً يؤمن بالأرواح والخرافات ، وسيسخر منه النقاد ، وربما القراء ، ولا يؤخذ ما يكتبه مأخذ الجد ، لكن هو لا يهتم لرأي أحد ، ما دام هو يروي الحقيقة التي عرفها وعاش تفاصيلها ، لا .. لا .. عليه التريث ليتأكد أكثر ، فلربما هذه المرأة العراقية التي كانت عنده في غرفته هذه الليلة هي أيضا وهم أو روح غامض ، ولا توجد أصلا ً عاملة في المطعم ، لكن كيف لا توجد وقد تعشى في المطعم هذا المساء ، كما أنها حملت له صينية الفواكه؟ سيتأكد من صينية الفواكه أيضا حال دخوله إلى غرفته ، هكذا حسم آدم التائه النقاش الداخلي مع نفسه.
* * *
فجأة رن جرس الهاتف النقال في غرفة الإستقبال . أحست حواء الزاهد لثوان وكأنها في عالم الرواية ، وأن الهاتف يرن في غرفة آدم التائه ، إلا أن الرنين كان يشق الصمت في بيتها الساكن . نهضت على عجل ، وهي تحس بغيظ من هذا المتصل المجهول.
حينما أخذت الهاتف بيدها لم تستطع السيطرة على نفسها فصاحت بغضب:
- أما تكف عن هذا اللعب، إما أن تتكلم، وإما ألا تتصل مرة أخرى، هل فهمت؟
لم يجب الشخص على الطرف الآخر من الخط بأية كلمة وإنما جاء صوت قهقهته الساخرة ، مستهزئا ً بها . استمر الشخص للحظات وهو يقهقه ، قهقهات عالية كانت ت ُسمع حتى بعد أن أبعدت الهاتف عن أذنها قليلا ً، ولم تستطع أن تتحمل هذه الإهانة أكثر ، فصرخت به:
- يا حقير..
وأغلقت الخط بوجهه . رمت الهاتف على الكنبة ، وجلست شبه منهارة.
لأول مرة منذ سنة تقريبا ً تشعر بأن ثمة فراغا ً عميقا ً في داخلها ، يتستر بهذا السكون والهدوء الذي يحيط بها ، والذي كان يمنحها ، أحيانا ً، شعور َ الثقة بالنفس ، والقوة ، لكن الآن ، قد تخلخل هذا السكون ،

بأبسط الأشياء ، بإتصال شخص مجهول سخر من غضبها ، وأهانها بقهقهته . لقد اضطرب عالمها كله ، ووجدت نفسها ضعيفة ً، هشة ً، سهلة الإنكسار ، وتقف ، تقريبا ً، على حدود اليأس الشائكة.
شعرت بحاجتها الحقيقية للحماية ، تذكرت حبيبها آدم المحروم وأباها آدم الزاهد ، وفجأة ، أجهشت ببكاء حاد ، لم تبكه منذ زمن . استمرت تبكي لنصف ساعة تقريبا ً، بكاء إنطلق من أعماق نفسها الحزينة ، فيه من رثاء النفس ، ورثاء هذه الحياة الموحشة ، أكثر مما فيه من رثاء المفقودين من أحبتها وأهلها.
حينما انتهت من البكاء ، أحست براحة نفسية ، لكن الكآبة جثمت على نفسها ، إذ لم تكن كئيبة إلى هذا الحد منذ زمن ، فقد انتبهت إلى أنها وحيدة وحدة قاتلة ، ليس لديها سوى ذكريات أيام معدودة من الحب الحقيقي والفرح الجسدي ، وحفنة من ذكريات ومشاعر مشوشة تجاه أب قضى عمره في السجون ، وحينما خرج من السجن ، عاش سجنا ً آخر ، سجن الذات النزيهة التي رأت سقوط الأفكار والمبادئ والعقيدة التي قضى أجمل سنوات عمره في أقبية السجون من أجلها ، أو حفنة ذكريات مر ّة عن موت مأساوي لأخ غامض التصرفات ، كان يحبها من كل قلبه ، لكنه كان ينظر إليها كمخلوق ناقص . أما أمها ، فلا تشعر إزاءها بشعور فقدان خاص ، فقد كانت ذكرى إنسان ، شبحا ً تعيسا ً يقبع في الظل ، ظل امرأة لا رأي لها ولا شخصية ، بحيث أن فقدانها لم يكن مزلزلا ً لحياتها كما كان فقدان الأب الحنون ، أما زوجها ، فقد نسيت ملامحه ، فهي لا تعرفه جيدا ً، إذ كانت تعيش عنده وكأنها خادمة لشخصه ، مع امتياز أنها تنام في نفس سريره ، لكن حتى حياتها الحميمة معه ، حياتها الجنسية ، كانت في الظلام فقط ، فهي لم تره يوما عاريا ًقط ، بل لم تر حتى جزءا ً بسيطا ً من جسده . تتذكر جيدا ً أنها كانت تهابه جدا ً لدرجة أنها كانت تكتم أنفاسها ، عند المضاجعة ، حتى لا يسمعها إلى أن ينهي وطره منها ، لأنه ذكر ذات مرة بأن النساء فاسقات وأنهن يلهثن وراء شهوتهن ، وأنهن سبب بلاء العالم وكل خطاياه . حياتها يمكن اختصارها في أسبوع أو أكثر بقليل ، هي تلك الأيام التي عاشتها مع حبيبها آدم المحروم . هكذا استرجعت حواء الزاهد سنوات حياتها الماضية ، وحينما تأملت وضعها الحالي ، وجدت نفسها تائهة ، وتدور في متاهة أشد هولا ً وضياعا ً من متاهة حواء التي كتب عنها الكاتب آدم البغدادي روايته.

كانت جالسة على الكنبة ، غارقة في استرجاع ذكرياتها ، محدقة بواقعها الذي هي فيه الآن ، حينما سمعت صوت رسالة الكترونية تصلها عبر الهاتف . أخذت الجهاز ونظرت إلى المرسل فعرفت أنها من الشخص الغامض نفسه ، فضغطت لتقرأ الرسالة . كانت الرسالة تتألف من كلمة واحدة : انتظريني.
أحست بخفقان قلبها . ثمة هلع خلخل سكونها . ما أن ألقت الجهاز حتى بدأت أصوات رسائل متكررة تصدرعن الجهاز . كانت ثلاث رسائل أخرى . الرسالة الأولى كانت تتألف من كلمتين هما : انتظريني يا عاهرة.
شحب لونها وهي تقرأ الرسالة ، ضغطت مرة أخرى على الرسالة التالية فكانت تتألف من ثلاث كلمات : انتظريني ، يا أم النغل ، أما الرسالة الأخيرة فكانت تتألف من أربع كلمات : أين تفرين من إنتقامي؟
ما أن قرأت الرسالة الأخيرة حتى رمت الهاتف من يدها وكأنما عقرب قد لدغتها . من هذا؟ وماذا يريد؟ هل يعرفني؟ ما معنى أم النغل؟ هل يقصد هابيل أو أنه أطلق شتيمة لا أكثر؟ لا . لا . إنه يعرفني ، وإلا كان أطلق شتيمة أخرى ، فهذه شتيمة غير عادية ، إلا إذا كانت مقصودة ، لا .. لا .. هذا شخص يعرفني جيداً ، لكن من هو؟
لم تستمر طويلاً في جلستها تلك ، إذ أخذت الجهاز وأغلقته . في تلك اللحظة سمعت بكاء طفلها هابيل يأتيها من غرفة النوم فنهضت واتجهت إليه.
كانت حواء الزاهد في دوامة التفكير ، لكنها بالرغم من ذلك قامت بتغيير حفاظات الطفل الرضيع ، كما أرضعته من ثديها الممتلىء ، وأرقدته في مهده ثانية كي يواصل نومه البريء.
جلست على حافة السرير شاردة البال . مسلوبة الإرادة ، خائفة ، وعاجزة . هوية المتصل الذي أرسل إليها رسائل التهديد تلك تحيرها ، وتملأها بالرعب . فجأة ، انبثقت فكرة محتملة لكشف هوية المتصل ، إذ فكرت بأحد أخوي زوجها القتيل واللذين قاما بذبح حبيبها آدم المحروم ، فربما قد هرب أحدهما من السجن ، أو دفع رشوة لأحد الضباط أو المحققين وتم إخراجه ، أو إبداله بأي عابر سبيل يتم إلقاء القبض عليه في الشارع ويزج في السجن بدلاً عن السجناء أصحاب الأموال؟ . نعم .. لقد سمعت من أبيها وحبيبها آدم المحروم الكثير من هذه القصص خلال السنوات الماضية والحالية ، فهذه بلاد يتم فيها غسل الضمائر بأسرع وأكثر بكثير من غسل الأيادي ، فهنا ، في هذه البلاد ، يمكن سماع قصص لا يمكن تصورها حتى

في الجحيم ... نعم ربما الأمر كذلك ، لأنه بعث رسائل تؤكد بأن ابنها هابيل ليس طفلا ً شرعيا ً، وإلا ما معنى تلك الجملة : يا أم النغل؟ .. لكن لو كان الأمر كذلك فلماذا لم يشر إلى ابن أخيه ، أقصد ابني الكبير آدم الملاك ، ولم يهدد بأخذه كما هددوها سابقا ً؟ ثم أي من الأخوين يمكن أن يكون هو لو كان أحدهما هاربا كما تفكر هي ، صاحب المطعم ، أم صاحب المحلات التجارية؟ .. لا .. ربما أنا أتوهم ذلك لمجرد أنه شتمني بتلك العبارة ، إذ ربما هو لا يعرفني أصلا ً، وإلا لماذا أشار إلى طفل واحد؟ .. من هو إذا ً، يا ت ُرى؟ يجب أن أعرف من هو ، وأتوصل إلى ذلك قبل فوات الأوان .. لكن كيف؟ من يساعدني في ذلك؟ ماذا علي ّ أن أفعل؟ هل أذهب إلى الشرطة ، أو إلى الجيران؟ .. لا .. لا علاقة لي هنا بأحد .. حتى جارتنا أم قابيل صاحبة المشتمل صارت تتجنبني منذ الجريمة التي جرت ْ في المشتمل ... لمن أتوجه لمساعدتي ونصحي؟.

كانت حواء الزاهد تتجول مضطربة في أعماق نفسها وفكرها باحثة عن بصيص نور في هذا النفق المظلم الذي وجدت نفسها فيه . وفجأة ، انبثق وجه مدير المدرسة أستاذ قابيل الفهد في ذهنها ، فهو دائم الإهتمام بها ، وعطوف على ابنها ، وهي بغريزتها الأنثوية تعرف أنه يرغب فيها ، ويحاول التقرب منها ، وتقديم أية مساعدة لها من أجل ذلك ، فهل عليها التوجه له ، بالرغم من أنها تعرف نواياه ومشاعره نحوها؟.

ظلت هي محتارة في حسم أمرها ، لكن بدون إرادة منها ، وبلا وعي ، انجذبت إلى استرجاع تفاصيل وجهه ، وإلى استرجاع المشاهد والمواقف التي كان هو حاضرا ً فيها ، منذ أول يوم رآها مع ابنها فيه ، ولحد الأسبوع الماضي الذي كان هو عند باب المدرسة ليشرف على دخول التلاميذ ، حيث جاء هو بنفسه إليها وأخذ بيد ابنها ، وحياها بلطف سائلا ً عن أحوالها ، راجيا منها ألا تتردد في التوجه إليه في تقديم أية مساعدة تحتاج إذا مرت بأي ظرف صعب .. نعم . نعم .. هو قال لها ذلك ، أكدت حواء الزاهد مع نفسها ، وكأنها بهذه التداعيات قد حسمت أمرها للتوجه إلى الأستاذ قابيل الفهد لمساعدتها ولسماع رأيه في ما يجري معها.

أحست حواء الزاهد بالراحة ، وشعرت بسريان تيار من الفرح والأمل يسري في أعماقها نتيجة لقرارها بمفاتحة مدير المدرسة الأستاذ قابيل الفهد ، وقررت أن تذهب إليه في الحال .

نهضت من سريرها ، فتحت دولاب الملابس وأخرجت شالا ً أسود ، ثم رأت مع الملابس بعض أدوات الزينة المتروكة منذ سنين ، وبرغبة لا تقاوم أخذت

قلم الكحل الأسود ، خرجت مسرعة إلى غرفة الحمام .
وقفت أمام المرآة ومررت قلم الكحل حول جفنيها ، ولم تتجرأ على أن تضع أحمر الشفاه ، وإنما عضت بنفسها على شفتيها حتى احتقنتا بالدم قليلا ً، بالرغم من أن شفتيها تتميزان بلون ساحر دونما حاجة لأي أحمر شفاه ، إلا أن شعورا ً بالخجل هجم عليها فجأة ، ماذا تفعلين يا حواء؟ هل أنت مجنونة؟ أنسيت حبيبك آدم المحروم؟ لماذا تبحثين عن أية ذريعة لكي تبدئي مغامرة جديدة ؟ شعرت بتأنيب ضمير ، فغسلت وجهها بالماء ماسحة الكحل الذي زينت عينيها به قبل لحظات . أحست بالراحة ، وأقنعت نفسها بأنها صمدت أمام الغواية وأنها مخلصة لحبيبها ، وأنها ظلت وفيه لمشاعرها ، إلا أنها لم تتراجع من الذهاب إلى المدرسة ، إذ خرجت من غرفة الحمام ، وتوجهت لإعداد عربة طفلها الرضيع ، ثم أخذته من مهده ، وضعته فيها ودثرته جيدا ً. أخذت عباءتها وخرجت متجهة إلى المدرسة لمقابلة المدير قابيل الفهد .

النفق المظلم

استدار الأستاذ قابيل الفهد عن كرسيه وخرج من وراء طاولة مكتبه الكبيرة ، وأخذ يرتب الغرفة من الملفات الكثيرة التي كانت تتراكم على الكنبات الموزعة في الغرفة ، بحيث استطاع على عجل إخلاء الكنبة الكبيرة التي أمامه ، كما رتب كرسي المحادثة ، ووضعه بالمقابل منه من طرف طاولة المكتب الأخرى . خلال هذه الأثناء دخلت حواء الزاهد وهي تدفع عربة طفلها الرضيع ومعها الفراش.

رحب الأستاذ قابيل الفهد بها بحرارة والفرح يتألق في أعماق عينيه ، وكان سعيدا ً حقا ً بمجيئها ، حتى ولو كان السبب محزنا ً، لكنه لم يظهر كل ما كان يشعر به ، إذ كان يقمع نفسه ويقول لها : اكتمي فرحك يا نفس ، عليك بشيء من الرزانة وإلا سننفضح ، لذا مزج فرحة بحيث يفهم كجزء من الترحيب والمجاملة.

أشار إليها بالجلوس على الكنبة ، وساعدها في وضع العربة بطريقة صحيحة دون أن تضايق أحد . سألها عما تحب أن تشرب . شكرته بأنها لا تود أن تشرب أي شيء لأنها في عجلة من أمرها .

أحست حواء الزاهد بالإرتباك ، وشعرت بمهابة الوضع حينما تأملت الأستاذ قابيل الفهد وراء مكتبه . تأملت ملامحه وهو يحاول أن يشعرها بالأمان وعدم الإرتباك ، فكرت مع نفسها بطيبة هذا الكائن وبساطته ، ثم انتبهت إلى صوته وهو يقول لها:

- لقد شرفتنا بمجيئك يا أم آدم .. خيرا ً إن شاء الله .. هل حدث شيء تحتاجين أن أساعدك فيه..؟

تأملته قليلا ً، وقررت أن تلقي بثقل أوجاعها النفسية أمامه ، فقالت:

- نعم أستاذ قابيل.. هناك شيء أريد مساعدتك فيه.. أنت بالذات.. فأنا لا أحد عندي في هذا العالم سوى ابنيّ.. وأنت الوحيد الذي أستطيع أن ألجأ إليه.. وأذكر أنك دائما كنت تؤكد لي بأني لو احتجت لأية مساعدة فعلي التوجه إليك..

- هذا صحيح.. هذا صحيح.. وما زلت عند قولي..والآن اخبريني بماذا أستطيع مساعدتك؟

نظرت حواء الزاهد قلقة إلى الباب ، ففهم بأنها تخشى أن يدخل عليهما أحد ، أو أن الفراش سيسمع ما تقول ، ففهم هو حالتها ، فأشار إليها بأن تقترب وأن تجلس على كرسي المحادثة القريب منه ، كي تتمكن

بالحديث بصوت واطئ ، فنهضت من مكانها وجلست حول طاولة المكتب من الجهة الأخرى ، فصارت المسافة بينهما أقرب بكثير مما كانت عليه وهي على الكنبة ، إلا أنها كانت لا تعرف كيف تبدأ بسرد حكايتها ، ومن أين تبدأ ، ففهم هو حالتها النفسية ، لذا شجعها على الحديث . شعرت بالإطمئنان حينما قال لها بلطف ، وبنبرة طيبة ، فيها الكثير من الأمان:

- أنت هنا في أمان يا أم آدم.. لا تخافي.. ولا تترددي أن تخبريني بأي شيء، وبكل شيء.. وكوني مطمئنة بأن ما تتحدثين فيه سيكون موضع اهتمامي وتقديري.. وسأسعى بكل ما لدي من إمكانية لمساعدتك..

أحست بمشاعر الأمان والسلام النفسي حين سمعت كلماته تلك ، وفكرت في الوقت نفسه بأنها قد كسبت إنسانا طيبا يمكنها أن تعتمد عليه مستقبلا ً، لذا حزمت أمرها على أن تروي له كل شيء ، فقالت:

- تأتيني تهديدات يا أستاذ قابيل..
- تهديدات..؟ من يهددك..؟ وكيف..؟ ولماذا؟
- كل هذه الأسئلة لا جواب لديّ لها..
- احكي لي من البداية ما جرى.. دون أن تهملي التفاصيل كي أستطيع أن أصل معك إلى حل..

تحدثت حواء الزاهد له عن التهديدات التي وصلتها من خلال رسائل الهاتف النقال ، وعرضتها عليه ، فقرأها ، لكنه سأل عن الإحتمالات التي في ذهنها فأخبرته عن أخوي زوجها ، ترددت أول الأمر ، لكنه كلما كان الوقت يمر ، تعمقت ثقتها به ، وتعلقها بشخصه ، فحدثته بشكل سريع عن كل شيء ، عن اسمها ، وأصلها وفصلها ، عن زواجها الكئيب ، واستشهاد أخيها ، وموت أمها ، وذبح أبيها ، وعن جريمة ذبح حبيبها آدم المحروم ، وأخبرته بأنه هو والد الرضيع هابيل ، ودور آدم المحروم في حياتها وما قام به من تأثير على طريقة تفكيرها ورؤيتها للحياة.

كان قابيل الفهد ، وهو يستمع إليها ، غارقا ً في تأمل وجهها المثير ، وحضورها الأنثوي الطاغي ، يشعر أنه أمام شخصية متميزة ، وأنها قد دخلت حياته بقوة ، وأنه واثق الآن بأنه لا يستطيع أن يتخلى عنها ، إلا أنه في ما يخص قضيتها فأنه كان أيضا حائرا ً في تحديد هوية المتصل.

فجأة برقت في ذهنه فكرة بسيطة ، بدت وكأنها حل مؤقت ، تستطيع من خلاله كشف حقيقة المتصل ، إذ برقت عيناها فرحا ً حينما قال لها:

- لدي الحل..
- ما هو؟

- غيّري رقم هاتفك.. فإذا كان المتصل شخصاً عابراً، افتراضاً أنه مريض، أو يريد التحرش بك، أو أي شيء من هذا القبيل، فأنك بتغيير رقم هاتفك لن يستطيع الوصول إليك، أما إذا كان المتصل شخصاً يعرفك، واحتمال أن يكون من أخوة زوجك، أو من أقربائهم، كما تعتقدين، فأنه بالتأكيد حينما يجهل رقمك فأنه سوف يجد وسائل أخرى لتهديدك.. وبالتالي سنعرف من هو..

نظرت إليه بفرح ممزوج بالشك ، وقالت وفي صوتها من الضعف الأنثوي والرجاء ما دفعه للإحساس وكأنها حبيبته ، إذ قالت:

- أتعتقد ذلك..؟

- نعم.. أعتقد ذلك.. وحالياً هو الحل الوحيد أمامنا..

انتبهت للغته ، إذ قال أمامنا ولم يقل لها أمامك ، وهذا يعني أنه يهتم بها بشكل شخصي ، وأنها صارت قضيته أيضا ، هكذا فكرت مع نفسها ، فغمرها دفق من الأحاسيس الجميلة نحوه ، وأحست برغبة في أن ترتبط به أكثر ، فسألته:

- ومن أين آتي برقم جديد؟

ابتسم لها بطيبة وحنان ، وقال لها وفي صوته نبرة دافئة مليئة بالحنان والدفء:

- أنا سآتيك به.. وأتمنى أن تسمحي لي بأن أتولي مسألة حمايتك.. أنت والطفلين..إلى أن نجد حلاً لهذه المشكلة.. أتسمحين لي بذلك..؟

نظرت إليه بحنان ممزوج بالتردد ، وقد صعد الدم إلى وجهها حياء ً، إلا أن عينيها تألقتا بفرح أنثوي خفي ، فقالت:

- لكننا سنحملك عبئاً إضافيا.. فإلى جانب عملك المدرسي، والعائلي.. نأتي نحن لكي..

وقبل أن تنهي كلامها ، قاطعها ، ليطمئنها ردا ًعلى إشارتها لوضعه العائلي:

- أنا وحيد.. لا عائلة لي.. أنا أصلاً من الكوت، حيث أمي وأبي وأختي يعيشون هناك، وأنا وحدي هنا في بغداد.. لقد استأجرت شقة لي في منطقة العقاري أعيش فيها وحدي، لذا إشارتك (وابتسم لها بطريقة خاصة) عن وضعي العائلي ليست في محلها.. أما عملي المدرسي فهو روتيني..لذا أتمنى عليك أن تسمحي لي بأن أكون عند حسن ظنك..لأني عرضت عليك مساعدتي.. فاسمحي لي أن أشعر بأني فعلاً أستطيع مساعدتك.. ولا تنسي أنك امرأة وحيدة مع طفلين..ومن الضروري أن يقف رجل إلى جانبك.. هل تسمحين..؟ إلا إذا اعتبرتني غريباً..

- لو كنت قد اعتبرتك كالغريب لما توجهت إليك.. أقصد أنك شخص معروف ومحترم ولك مكانتك، وطيب، وتريد مساعدتي، فكيف اعتبرك غريباً..؟
كانت مرتبكة في التعبير عن نفسها ، فهي لا تستطيع ان تمنحه مكانة غير موجودة لحد الآن ، سوى ذلك الارتياح لشخصه ، وطيبته ، واستعداده لمساعدتها وهي في ذلك الحال ، كما أنها شعرت بالارتياح ، لأنها أحست بأنه من خلال كلامه عن وضعه ، يشير إلى شيء أبعد من تقديم هذه المساعدة ، شيء يمنحها الثقة بالأيام القادمة ، ويفتح لها أفقا كان مسدودا ً .
انتهز قابيل الفهد حالة الارتباك التي هي فيها ، وإدراكه بأنها تميل إليه وتستلطفه ، فحسم الأمر قائلا ً:
- إذن اتفقنا.. سأشتري أنا لك رقما جديداً.. هل تليفونك مفتوح أم مغلق..؟
- مغلق..
- حسناً.. ابقيه مغلقاً إلى أن أمر عصراً على محل بيع الهاتف، وسأشتري الرقم الجديد وأحمله إليك.. هل ستكونين في البيت عصراً في حدود الرابعة والنصف أو الخامسة..؟
- طبعاً.. أنا دائماً في البيت..لكن لماذا تكلف نفسك كل هذا المشوار؟ يمكنني أنا أقوم بشراء الرقم..
- لا..لا..أنت لا تخرجي من البيت.. أنا أقوم بهذه المهمة.. وسآتي إليك به.. وسأسلمه لك عند الباب.. وأرجو أن لا يزعجك ذلك.. وإذا كان الأمر يضايقك، فيمكنك أن تمري عليّ غداً هنا في المكتب، وستستلمينه مني..
- نعم..نعم.. أفضل أن أمرَ غداً إلى هنا.. سيكون أفضل.. أنت تعرف أنا امرأة وحيدة.. وألسنة الناس لا ترحم.. إنهم اليوم لا يفرقون بين الأخ وأخته، والأب وابنته.. الناس صارت بلا ضمير..
- هذا صحيح.. إذن ستمرين غداً.. وستجدين الرقم الجديد.. ونصيحتي لك أن تُبقي الهاتف مغلقاً..
- نعم.. سأبقيه مغلقا..
وبالرغم من أنهما اتفقا على أن تمر غدا ً، إلا أنها لم تشأ أن تخرج من المكتب . كانت تحس بالأمان مع الأستاذ قابيل الفهد ، لكنها لا تعرف كيف تستمر بالحديث معه .. أخذت تتنقل بعينيها في أرجاء الغرفة فرأت خزانة خشبية ت ُستخدم كمكتبة ، إذ انتبهت إلى أنها تكتظ بالكتب ، فقالت:

- هذه مكتبتك؟

نظر إليها متأملا ً، وأدرك بأنها لا تريد الإنصراف ، إلا أن اهتمامها بالكتب أعجبه ، فقال:

- لا.. هذه بعض كتب المدرسة.. مكتبتي أنا في البيت.. هل تحبين قراءة الكتب؟

- نعم.. أنا أقرأ بنهم كما يقال.. لكني ولسنوات طويلة من عمري كنت غارقة بقراءة الكتب الدينية والتراثية.. وفي الفترة الأخيرة فقط بدأت قراءة كتباً أخرى مختلفة..

- مثلاً.. ما هذه الكتب المختلفة التي تقرأينها...؟

- خلال السنة الأخيرة سمعت بأسماء كثيرة لم أسمع بها سابقاً.. لقد تعرفت على دستويفسكي وتولستوي وفلوبير وستندال..عن ماركس وانجلز وفرويد..عن اليمين واليسار.. عن هادي العلوي وعلي الوردي.. قرأت العديد من الكتب والروايات.. هل تعرف آدم البغدادي؟

كان قابيل الفهد مندهشا ًحينما سمع بها تنطق بكل تلك الأسماء الكبيرة والباهرة ، فهو يعرفها جيدا ً، وهي أثيرة لديه أيضا ، وعرف من خلال ذلك طبيعة تفكير هذه المرأة باهرة الجمال ، والمثقفة بشكل إستثنائي في بلد يعيش مرحلة متدهورة فكريا ًوثقافيا ً.. ثم ما علاقتها بآدم البغدادي الذي تم اغتياله قبل أكثر من عام تقريبا .. ؟ فرد على سؤالها بسؤال :

- أتقصدين الكاتب الذي اغتيل في شقته قبل سنة تقريباً؟ من أين تعرفينه؟

- كان صديقاً لأبي هابيل.. كما أني قرأت مخطوطاته: متاهة حواء..وأقرأ له أيضا رواية أخرى..

- هل تقصدين روايته متاهة آدم..؟

- لا.. أقرأ له رواية مخطوطة..

- مخطوطة..؟!

- نعم.. لدي بعض مخطوطاته..

- ماذا تقولين؟

- نعم..

- هذه شيء مثير.. فالكاتب الراحل تعرض للغدر بإعتباره صوتاً شجاعاُ أراد تعرية هؤلاء الأوغاد الذين يحكموننا اليوم باسم الدين.. باسم دم الحسين وعدالة علي بن ابي طالب..هؤلاء الذين هجموا على البلاد مثل هجوم الجراد الأسود..

كانت تنظر إليه وقد ارتسمت على وجهها ملامح حزن عميق .. انتبه هو لذلك ، فسألها:

- ماذا بك؟

- إنك تتحدث مثل آدم المحروم، أبي هابيل.. بل ومثل الكاتب آدم البغدادي في رواياته..

- هل لي أن اقرأها..؟ أقصد روايته غير المنشورة (متاهة حواء..)

- طبعاً.. فأنا لا أعرف ماذا أفعل بها..؟

- يجب أن تُنشر بأي ثمن.. سأحاول أن أنشرها مع بعض أصدقائي..

- لدي روايتان له أيضا.. أقرأ حالياً بواحدة منها..

- يجب أن ننشر مخطوطاته.. هل تعرفين أنني حين نظرت إليك أول مرة، أعجبني فيك، واسمحي لي بقول ذلك، أعجبني فيك جمالك..؟ لكنني الآن منذهل من شجاعتك.. وسعة أفقك.. وأفكارك.. أتدرين الوضع المأساوي الذي نعيش فيه كعراقيين.. وتعيشه النساء العراقيات.. نحن شعب تصور أنه تخلص من دكتاتورية فردية لشخص أهوج مع عائلته.. وإذا بنا نقع في دكتاتورية لشلة من الأوغاد والجواسيس.. الحديث عن جاسوسيتهم ليست بمثابة شتيمة سياسية، وإنما هي حقيقة ومثبتة بالوثائق.. فمعظم هؤلاء الذين يحكموننا اليوم، عملاء ولديهم ملفات لدى دوائر أمن وتجسس دول الجوار.. عملاء بشكل رسمي..

- ألا تخاف من هذا الحديث.. كيف يبقونك مديراً لمدرسة وأنت تحمل هذه الأفكار..؟

- أوه.. الوباء قادم.. وسيتم تنظيف المدارس والثانويات والجامعات وكل دوائر الدولة من الذين يفكرون بمجتمع مدني، ويطالبون بفصل الدين عن الدولة..

- هل أنت شيوعي..؟

ابتسم لها بطيبة وقال مازحا ً

- ماذا بك.. أأنت مثلهم..؟ كل من يطالب بالمجتمع المدني يتهم بالشيوعية.. وأعتقد سيأتي يوم يُتهم فيه كل من يطالب بالمجتمع المدني بالكفر والإلحاد.. وربما سيعدم..

- يا ساتر ياربي.. وما الحل..؟

- لا حل الآن.. أعتقد أننا قد دخلنا في نفق مظلم لخمسين سنة قادمة.. اللهم إلا إذا انتفض الشعب.. وهذا بعيد جداً لأنه شعب مشوه.. شوهته الحروب، والآن شوهته الكهرباء..

- الكهرباء؟
- نعم الكهرباء.. أتعتقدين أن الأمر له علاقة بالفساد فقط..لا.. الأمر أبعد من ذلك.. هناك آلهة في بلاد أخرى تريد لهذا الشعب أن يعيش في الظلام، وينام في الظلام، ويأكل في الظلام.. ويتناسل في الظلام.. يحيا في الظلام، ويموت في الظلام.. الظلام..الظلام.. بالرغم من أننا جميعنا..نحن..وهم..كلنا نمشي في الظلام..
أحست بانقباض في قلبها من سماع كل هذا الحديث عن الظلام . خافت على ولديها من هذا الظلام الزاحف بشراسة كالطاعون على البلاد والعباد . نظرت إليه بحزن ونهضت من مكانها لتغادر .. نهض هو أيضا ، إذ أحس بتأثرها من كلامه ، لكنه أيضا انتبه للفزع الذي استقر في أعماق عينيها .. وبدون قصد مسبق ، وبعفوية ، مد يده إليها مصافحا ً، فترددت قليلا ً، انتبه إلى أنها ربما لا تصافح رجلا ً، أراد أن يسحب يده ويعتذر عما بدر منه ، لكنه قبل أن يسحب يده ، مدت يدها مصافحة له أيضا.
أحس بحرارة يدها تسري في كل جسده . أما هي فأحست بالدفء ، وكأن دفقا ً جديدا ً من ماء الحياة بدأ يسري في عروقها . قبل أن تغادر الغرفة ، التفتت إليه ، فلاحظت أنه ما زال واقفا ً ينظر إليها ، لكنه كان حزينا ً جدا ً. سألته إن كان بإمكانها أن تأخذ ابنها معها الآن ، فليس في مقدورها أن ترجع ثانية ، فوافق بسرعة ، ونادى على الفراش طالبا ً منه أن يأتي بابنها من صفه ليذهب معها إلى البيت .
طلب المدير منها الدخول والانتظار في مكتبه ثانية ريثما يأتي الفراش بابنها ، فدخلت وجلست على كرسي المحادثة ثانية ، بينما جلس هو على كرسي المحادثة المقابل لها لكي يكون أقرب إليها .
في تلك اللحظات بالذات دخل إلى المكتب رجل ، كان واضحا من هيئته ، وبقعة السواد على جبينه ، وقميصه المفتوح عند الرقبة ، وملابسه السوداء ، بأنه من الإسلاميين . فوجئ حينما رأى حواء الزاهد في المكتب ، ارتبك ، واصفر وجهه ، وسرت رجفة في عضلات وجهه الشاحب ، ثم ارتسمت عليه ملامح الغضب ، بينما حدقت هي إليه برعب ، ونهضت وغادرت المكتب . وبينما هي تغادر غرفة المدير التقت عند الباب بالفراش وهو يقود ابنها ، فأخذت ابنها وهرعت شبه راكضة .
خرج المدير قابيل الفهد خلفها ، محاولا ً الإستفسار منها عما جرى لها عندما رأت المحاسب آدم الأسير ، إلا أنها كانت قد غادرت المدرسة . بقي المدير قابيل الفهد واقفا للحظات محاولا ً تفسير ما حدث وربط المشهد

ببعضه ، فلم يخلص إلا إلى نتيجة واحدة هي أن المحاسب آدم الأسير يعرف السيدة حواء الزاهد ، وأنها تعرفه ، وربما هناك شيء مرعب بينهما ، إذ كلاهما ارتعب حينما رآى الآخر ، لكن كيف له أن يستل المعلومات عن هذه العلاقة من هذا المحاسب الأصولي المقيت.

حينما دخل المدير قابيل الفهد إلى مكتبه ، كان المحاسب آدم الأسير لا يزال يقف شاحباً وغاضبا . وآدم الأسير هذا ، وهذا لقبه ، كان أسيرا لسنوات طويلة في إيران ، وأنه يجيد اللغة الفارسية جداً، وقد عاد إلى العراق بعد سقوط النظام واحتلال العراق ، ولأنه ينتمي إلى أحد التنظيمات الدينية التي كانت ناشطة في ايران ، فقد تم تعيينه كمحاسب في هذه المدرسة ، بالرغم من أنه لا يملك حتى شهادة الإبتدائية ، لذا لُقب بآدم الأسير . وبدون أي مقدمات سأل المدير:

- عفواً أستاذ قابيل.. هل تعرف هذه المرأة؟
- عفواً.. ماذا تقصد؟
- سؤالي واضح أستاذ قابيل.. هذه المرأة لا يليق بها أن تدخل إلى مدرسة محترمة لأنها ستسيء لسمعتها.. إنها امرأة سيئة السمعة..؟
- سيئة السمعة. من أين تعرف ذلك؟
- أنا أعرف ذلك من مصادري الخاصة..

نظر إليه المدير قابيل الفهد متفحصاً، وقال له ما بين السخرية ومحاولة استسقاء المعلومات منه:

- ألا يمكن لمصادرك أن تكون مخطئة، وأنها ترمي المحصنات دون علم أو دليل أو برهان؟..!
- مصادري لا تخطىء أستاذ قابيل..قال ذلك بعصبية وتحد.
- لكني أعرف أنها أرملة وحيدة.. وتسعى لتربية أبنائها..
- أي أبناء أستاذ قابيل.. أحد أطفالها نغل.. ابن زنا..
- استغفر ربك يا رجل.. أنت مؤمن.. فكيف تتجرأ أن تقذف النساء بمثل هذا الكلام..؟

نظر المحاسب آدم الأسير وشفتاه ترتجفان إلى المدير قابيل الفهد وقال بعصبية واضحة ، فيها خروج على أدب الحوار بينهما:

- ما هذا يا أستاذ قابيل.. أتظهر نفسك بمظهر الرجل الملتزم.. وتتهمنا بقذف المحصنات..؟ الأولى بك ألا تلتقي بها أصلاً.. وألا تختلي معها وحدك في المكتب، أو كان الأولى أن تدعو شخصا آخر ليحضر اللقاء، كالحاجة حواء آل حجر الموظفة الموجودة في ذاتية الإدارة..لاسيما وأن هذه المرأة،

لعنة الله عليها، تضج بالفتنة والشهوة من أعلى رأسها إلى باطن قدميها، وهي رمز للغواية والفسق والتهتك.
احتقن المدير قابيل الفهد من كلام المحاسب آدم الأسير ، وأحس برغبة عارمة في أن يلكمه ، لكنه كظم غيظه ، وقال بحزم:
- إلزم حدودك سيد آدم.. لا أسمح لك بتجاوزها.. أنت في مكتب مدير المدرسة، وهذا المكتب يستقبل ذوي التلاميذ في أي وقت من أوقات الدوام الرسمي، وقد جاءت هذه المرأة لتأخذ ابنها قبل انتهاء الدوام، لأن لديها موعداً عند الطبيب.. فدعوتها للجلوس في المكتب.. ومن واجبي أن استقبلها..ناهيك أن هذا التفكير الأسود، والاتهامات الجاهزة للناس لا تعنيني أبداً.. فلستُ وصياً على تصرفات الآخرين.. أنا مسؤول على التلاميذ في هذه المدرسة، ولا يعنيني من هم آباؤهم أو أمهاتهم.. وأريد أن أقول لك سيد آدم الأسير إن عليك أن تستغفر ربك قبل أن تطعن بشرف الناس..
فوجئ المحاسب آدم الأسير من ردة فعل المدير قابيل الفهد ، فصمت للحظة ، وأراد أن يخفف من توتر الموقف ، فابتسم ابتسامة صفراء وقال:
- إنني استغفر ربي كل يوم وكل ساعة، لكني.. يا سيد قابيل.. مصر بأن هذه المرأة فاسقة، وسيئة السمعة، وأن ابنها الرضيع هو ابن زنا.. وانا لا أتحدث عن ابنها الكبير..فهو ابن شهيد ومجاهد إسلامي.. لكنها أساءت لسمعته ولوثت شرفه..
- عجيب أمرك.. سيد آدم.. ما زلت مصراً على موقفك.. من أين لك كل هذه الثقة بما تقوله عنها وتتهمها به..؟
- كما قلت لك سيد قابيل.. مصادرنا الموثوقة.. وهذه المرأة سوف تنال عقابها في الدنيا قبل الآخرة..
شعر المدير قابيل الفهد بإنقباض في قلبه . راوده يقين بأن المحاسب آدم الأسير ، هو من كان يتصل بها ، وهو من هددها من خلال الرسائل . نظر كل منهما إلى الآخر بتحدٍ وعداءٍ مبطن ، لكنه كان واضحاً لكليهما ، وكأنما كان كل منهما يتوعد الآخر بصمت ، ولم ينته هذا التوتر الذي دام لنصف دقيقة تقريباً، إلا بمغادرة المحاسب آدم الأسير للمكتب.
جلس قابيل الفهد على كرسيه حول طاولة المكتب منهكاً من هذه المحادثة القصيرة . كان متعباً، ومستفزاً، وخائفا على حواء الزاهد من هذا المحاسب ، وكان على يقين بأنه سيؤذيها . لكن ماذا عنها ، لماذا ارتعبت عند رؤيته وغادرت المكتب مباشرة ؟ لا بد وأنها تعرفه أيضا ، بل وتعرف الكثير عنه . إذن ، لابد من رؤيتها بأسرع فرصة . هل عليه أن

يذهب إليها إلى البيت؟ لا .. لا .. بما أنها ستأتي غداً فسيحدثها؟ لكنها بعد أن رأت المحاسب آدم الأسير هل ستتجرأ على المجيء؟ .. غرق قابيل الفهد في لجة من أفكار متلاطمة سوداء ، بإنتظار ما ستتكشف عن الأمور قريباً.

أما المحاسب آدم الأسير ، الذي دخل المكتب بنية أن يحدث المدير عن تخصيص مبلغ من النثرية لإقامة بعض الولائم وشراء البيارق السوداء ، والصور ، بمناسبة عاشوراء ، ووجد تلك المرأة ، فما أن خرج من غرفة المدير حتى ذهب إلى غرفة ذاتية الإدارة ، وجلس يهمس بخفوت للموظفة المحجبة حواء آل حجر عما جرى بينه وبين المدير ، كي لا تسمع الموظفة الأخرى ، المحجبة أيضا لكنها كانت غير متعصبة مثلهما وغير منتمية إلى أي تنظيم إسلامي .

كانت حواء آل حجر تطلق بين جملة وأخرى تأوهات متوجعة ، ومثيرة ، رافعة رأسها ، متمتمة بأصوات غريبة ، ناطقة بجمل كلها تهديد ، ووعيد بنار الجحيم التي أعدت للفاسقين ، متعوذة من هذا المدير الذي يستخدم مكتبه لمقابلة النساء الفاسقات ، والذي يسيء لمهنة التعليم المقدسة ، متوعدة بإيصال كل هذه المعلومات إلى (الحجي)، سواء في لقاء مباشر معه وفي مكتبه ، أو عن طريق (الحجية) زوجته.

بعد أن أكدت الموظفة المحجبة حواء آل حجر له بأنها ستتصرف بحزم ضد الفاسقين والفاسقات ، وقف المحاسب آدم الأسير كالذليل أمامها ، ثم انسحب بذل وطاعة . ما أن غادر غرفة ذاتية الإدارة ، حتى قامت حواء آل حجر إلى التليفون وأخذت السماعة ، وبدأت باختيار أرقام تعرفها .

نظرت الموظفة الأخرى إليها مستفسرة ، فأجابتها بحماس:

- سننظف العراق من كل هؤلاء العلمانيين الملحدين الكفرة.. سنستأصلهم عن بكرة أبيهم.. رجالاً ونساء..

نظرت الموظفة الأخرى إليها بخوف ، فقالت لها حواء آل حجر :

- لا تخافي.. صحيح أنك لست ملتزمة، وأن الله لم يهدك بعد.. لكنك على الأقل محجبة.

أحنت الموظفة رأسها وسرت في جسدها رعدة من هذا التهديد المبطن.

غرفة مضيئة في مدينة مظلمة

بدأ هدير المولدات الكهربائية يتعالى ، كانت حواء الزاهد قد انتهت من تحميم ابنها هابيل ، وتبديل حفاظاته ، وملابسه ، وإرضاعه ، ومن ثم وضعه في مهده لينام في هدوء . توجهت إلى المطبخ ، لتسخن الطعام لابنها آدم ، لكنها كانت سارحة بما رأته اليوم في مكتب المدير قابيل الفهد . فجأة ، أحست بأرضية المطبخ ترتج تحت قدميها ، رافق ذلك صوت إنفجار هائل ، هلع له قلبها ، وركض على أثره ابنها آدم إليها متشبثاً بها من الخوف ، بينما تعالى صوت هابيل آخذاً بالبكاء.

احتضنت ابنها كي تبعث الأمان إلى نفسه البريئة القلقة ، واتجهت إلى مهد ابنها الرضيع ، فهزت المهد قليلاً ، فعاد الطفل إلى نومه . عرفت أن انفجاراً كبيراً قد وقع في مكان قريب . تركت ابنها آدم الملاك في غرفة النوم ، ومضت إلى غرفة الاستقبال . ضغطت على الريموت كونترول فظهر على الشاشة برنامج لأحد القنوات العراقية التي تبث من الخارج ، وكانت تعلن خبراً عاجلاً عن حدوث انفجار هائل لسيارة ملغومة في ساحة الصخرة بشارع فلسطين ببغداد ، راح ضحيته عدد كبير من القتلى والجرحى . وقبل أن تعود لتصب العشاء لابنها ، خرجت فأغلقت الباب الخارجي بالمفتاح والترباز ، ثم أغلقت باب غرفة الاستقبال بالمفتاح والترباز أيضا ، وعادت إلى المطبخ فصبت العشاء لصغيرها وحملته إلى غرفة الاستقبال ثم نادت على ابنها لكي يتناول وجبة طعامه ، فجاء راكضاً.

أخذت الريموت كونترول وبدأت تتنقل بين المحطات ، فانتبهت إلى أن جميعها كانت تنقل الخبر العاجل عن الإنفجار الهائل الذي حدث في منطقتهم . لكنها لم تكن مستفزة من خبر الإنفجار وحده ، وإنما كانت تشعر بخطر داهم مجهول ، منذ لحظة رؤيتها للرجل الذي دخل غرفة الأستاذ قابيل الفهد . هي لا تعرف اسمه ، ولا تعرفه شخصياً ، لكنها تعرف جيداً أنه أحد الرجال الأربعة الذين طرقوا بابها في ذلك الفجر الأسود ، وقد كان قميصه ملطخاً بالدم ، بدم حبيبها آدم المحروم . فكرت مع نفسها ، أيكون هو الذي كان يتصل بها ويقهقه في الهاتف ، وأرسل لها رسائل التهديد؟ لكن لماذا ذعر وأصابته الدهشة حينما رآها؟ وما علاقته بالمدرسة التي يتعلم فيها ابنها آدم؟ وهل يعرف أن ابنها تلميذ فيها؟ وما علاقته بالمدير قابيل الفهد؟ أتُرى يعرفه ، أترى سيخبره عني؟ ربما الأستاذ قابيل الفهد له علاقة بكل هذا؟ ألا يمكن أنه هو الذي قام بكل

ذلك ، من أجل أن تلجأ إليه؟ لا . لا . هذا غير منطقي ومعقول ، فليس من طبع شخص مثله أن يقوم بمثل هذه التصرفات؟ هذا مستحيل .. لكن ما معنى وجود هذا الرجل القاتل ، وهو الرجل الرابع الذي اختفى ولم يتم اعتقاله ، في هذه المدرسة؟ . كيف لي أن أعرف .. لا .. لن أدع ابني آدم يذهب إلى هذه المدرسة بعد الآن ، ولن أذهب غداً صباحاً لأخذ الرقم كما اتفقت معه . عليّ أن أكون حذرة ، فالقاتل قريب مني ، ومن المؤكد أنه سيحاول أن يؤذيني .. فهو خائف أن أبلّغ عنه ، وهذا ما سيدفعه أكثر للتخلص مني أو الانتقام مني ومن ولديّ.

أحست بخوف شديد على ولديها وعلى نفسها . كانت تستمع لأصوات يأسها التي تهمس في أعماقها . عليها أن تختبئ في هذا البيت مع ولديها . لديها ما يكفي من الرز وقناني الدهن والشاي والسكر ، والمعلبات ، ربما ستستطيع أن تعيش لأكثر من شهر دون أن تخرج إلى الشارع ، ولن تفتح الباب لأي كان ، حتى تقتنع بقرار ما ، تتخذه بمنتهى السرية للخروج من وضعها هذا.

أطفأت جهاز التلفزيون . نهضت حاملة صحن الطعام الذي كانت قد صبت لابنها فيه . ذهبت إلى المطبخ . ومنه إلى غرفة النوم.

أخرجت أقلاماً ملونة لابنها آدم وكراسات وورق للرسم ، وتركته يرسم ويلون ما يجود به عالمه البريء . كان ابنها الرضيع هابيل غارقاً في نومه . فكرت مع نفسها ، كم هو بريء وسعيد ، لأنه بعيد عن زماننا المظلم هذا.

ظلت تحدق إلى الفراغ في وجه صغيرها النائم في مهده ، وهي في تلك الغرفة المضيئة ، في ذلك البيت المظلم . فجأة ، انتبهت إلى أنها قد سرحت بعيداً. نظرت إلى ابنها آدم فرأته قد ملأ الأوراق بخطوط ملونة . بعد فترة ليست بالقصيرة ، طلبت منه ، أن يلملم أوراقه ويدخل السرير لينام . نظر إليها وكأنه لا يريد ذلك ، لكنها قبل أن يقول شيئا ، انحنت عليه وحضنته ، وهي تغرقه بالقبل . أخذ الصغير يكركر فرحاً بهذه المحبة الأمومية ، مستجيباً لما طلبته ، فلملم أوراقه ، وأقلام الملونة ، ووضعهما على أرضية الغرفة بالقرب منه إلى الجانب الآخر . دخل الفراش فغطته جيدا ، وظلت ممسكة بيده ، غارقة في أفكارها ، إلى أن أغمض جفنيه ، سارحاً في مملكة النوم البريء.

لم تستطع حواء الزاهد أن تتوقف عن التفكر بما جرى لها خلال هذا اليوم . سألت نفسها : كم عليها أن تبقى هكذا مع هذين الطفلين ، وعلى

هذه الحال من الخوف والرعب؟ ألم يكن عليها أن تسقط جنينها حينما عرفت بحملها .. ؟ أما كان العبء أخف مما هي عليه الآن؟ لا . لا . سواء كان قرارها خاطئا أم صحيحا ً، فأنها على استعداد أن تتجلل بالعار على أن تمس شعرة من ابنها هابيل . عليها أن تنام ، لكن هل سيأتيها النوم؟ سألت نفسها . وبدون إرادة منها مدت يدها إلى المخطوطة التي كانت قريبة منها ، فأخذتها ، وقالت لنفسها ، لأتوه مع آدم البغدادي في متاهاته ، عسى أن أجد دربا ً لمتاهتي ، وبدأت في القراءة.

ليلة سوداء مثل قط أسود

ما أن فتح آدم التائه باب غرفته ، وقبل أن يمد َ يده إلى زر الضوء شعت في وسط ظلام الغرفة عينان فسفوريتان ، وبدون إرادة منه تراجع للوراء قليلا ً، لكن أصابعه قد ضغطت على زر المصباح الكهربائي ، فأضاء الغرفة . فزع حينما رأى على سريره ، وسط الغرفة ، قط أسود كبير الحجم ، يجلس مقرفصا ً مثل القطط الفرعونية . كان القط الأسود ينظر إليه عابسا ً وكأنه يتأهب للقفز عليه .

لم يستطع آدم التائه أن يفكر لحظتها بهذا القط الأسود الكبير ، وكيفية دخوله إلى غرفته ، فقد كان همه أن يخرجه من الغرفة ، لذا فما كان منه إلا أن فتح الباب على مصراعيه ، فقفز القط قفزة هائلة صار في ثوان خارج الغرفة ، وركض منعطفا ً في الممر.

نظر في أرجاء الغرفة عسى أن يجد فتحة أو نافذة كان القط الأسود قد دخل من خلالها ، إلا أنه لم يجد أي منفذ في هذه الغرفة الضيقة . انتبه إلى أنه أراد أن يتأكد من وجود صينية الفواكه ، لكنه لم يتعب نفسه بالبحث عنها ، لأنها كانت أمامه على الطاولة قرب التلفزيون . إذا ً، فالمرأة العراقية ليست روحا ً، وليست إحدى إستحالات إيفا بيرغمان الغامضة.

ألقى بنفسه على السرير متعبا ً، ومستفزا ً. لم يكن يريد النوم ، لكنه كان يشعر بالإحباط الممزوج بالخوف من المجهول والغموض الذي يحيط به . نزع معطفه الأسود . مد يده وأخذ حبة عنب قانية اللون ، ودفعها إلى فمه . أحس أنها بلا طعم.

فكر أن يتصل بعاملة المطعم ، متحججا ً بطلب عشاء . في اللحظة التي أراد فيها أن يأخذ سماعة الهاتف ليطلب طعاما ً، رن الهاتف . ففزع من توارد الأفكار هذا ، لكنه مد يده إلى سماعة الهاتف ، وقبل أن ينطق بأي كلمة جاء صوت إيفا ليسنج متسائلا ً:

- أهلا آدم.. أين أنت؟ لماذا لم تأت؟ أما كان بك أن تخبرني بأنك لن تأتي؟ لقد انتظرتك طويلاً ولما يئست قررت أن أتصل بك للفندق لكي أتأكد من وجودك. ما الذي حصل لماذا لم تأت؟

أحس آدم التائه بالخوف ، والصدمة . أراد أن يلقي بسماعة الهاتف ، إلا أن صوت إيفا ليسنج كان يحدثه ، وكان مسموعا:

- أين أنت يا آدم؟ لماذا لا ترد؟ أرجو أنني لم أزعجك بإتصالي هذا في مثل هذه الساعة من منتصف الليل؟

فقال بصوت مرتبك قليلا ً:

- لا.. أبداً..لم تزعجيني.. لكن من المتكلم رجاءً؟

- أنا إيفا ليسنج يا آدم.. ماذا أنسيت صوتي؟

- إيفا ليسنج أو إيفا بيرغمان؟

- من؟

- إيفا بيرغمان؟

- أية إيفا بيرغمان يا آدم، أنا إيفا ليسنج.. ألم أتصل بك قبل أكثر من ساعة، واتفقنا أن نلتقي عندي في جناحي بفندق صوفيتيل الليلة؟

- نعم.. نعم.. إيفا..لقد كنت هناك..في الحادية عشرة تقريباً، إلا أنك لم تكوني في جناحك.

- بلى كنت في جناحي.. أهذا أنت الذي اتصل؟ لقد كنت آخذ دوشاً بعد ذلك اللقاء المتعب.. وكنت أستعد للقائك.. سمعت جرس الهاتف الذي رن طويلاً، لكنني حين خرجت لم أستطع الرد، لأنه قد انقطع..ولم أكن اعرف أنك من كان يتصل..

- ليس هذه هي المشكلة فقط..

- وماذا بعد..؟

- لقد أخبرني رجل الإستعلامات بأنه ليس هناك نزيل في الفندق باسم إيفا ليسنج، وإنما باسم إيفا بيرغمان..من شركة الفردوس للسياحة، وأن الجناح محجوز باسمها..

- لا أعرف إيفا بيرغمان.. ربما الأمر كذلك..فأنا شخصياً لم أحجز الجناح في الفندق، وإنما المحطة التلفزيونية وشركة الانتاج هما اللذان قاما بالحجز عبر شركة سياحية يتعاملون معها.. ماذا قلت اسمها..؟

- شركة الفردوس السياحية..

- ومديرتها من..؟ ما هو الاسم الذي ذكرت؟

- إيفا بيرغمان..

- الآن فهمت.. نعم إنها شركة الفردوس للسياحة هي التي حجزت لي بطاقات السفر، من لندن إلى باريس، إلى دوسلدورف.. وكان علي البقاء ليومين في دوسلدورف، لكني آثرت المجيء بسرعة إلى ميونخ لإنجاز عملي واتفاقي بالكامل بأسرع وقت ممكن.. كانت الرسالة المرسلة لي لمراجعة مكتب الخطوط الجوية لتسلم بطاقة سفري موقعة من قبل المديرة إيفا بيرغمان.. فلربما لهذا السبب أن جناحي محجوز باسمها.. يا إلهي.. ما هذا..الصدف الغريبة..

- إنها ليست صدفة..

- ماذا تقصد..؟

- سأروي لك ذلك ذات مرة..إذا التقينا، وإذا لم تكوني إيفا بيرغمان وإنما إيفا ليسنج..

- ماذا بك يا آدم..هل تمزح..؟

- أمزح.. أمزح..وربما لا امزح..

- طيب.. تعال إذن لتتأكد من أني لست تلك المرأة.. وإنما أنا إيفا ليسنج..

- أليس الوقت متأخراً الآن..؟

- متأخر.. نعم متأخر.. طيب سأنتظرك غداً صباحاً، في حدود الحادية عشرة.. لأني سأبدأ إجتماعي في حدود الثانية عشرة، ولدي معهم فترة غذاء في الساعة الثانية، وٍأنتهي في الخامسة.. ولا أعرف بعد ذلك ماذا سيكون.. إذن سأنتظرك في الحادية عشرة في اللوبي.. اتفقنا..

- اتفقنا..

- تصبح على خير..

- تصبحين على خير.

وضع سماعة الهاتف في موضعها . شعر أن وجهه قد تبلل بالعرق . لقد كان غير مصدق بأن من تحدث معها هي إيفا ليسنج فعلا ً، لكنه قال لنفسه مؤنبا ًأيضا ، بأن الصوت هو صوت إيفا فعلا ً، كما أن التفسيرات التي قدمتها له منطقية جدا ً، بالرغم من غرابتها.

ظل جالسا على سريره ، ينظر في نقطة بعيدة بأعماق الفراغ ، باحثا ً عن تفسير لما يجري له . مرت دقائق وهو على حالته تلك . لكنه ، ودون إرادة منه ، تذكر القط الأسود الذي كان في الغرفة ، وأخذ يسأل نفسه مجددا ًعنه ، كيف دخل إلى الغرفة؟ فكر بفتاة المطعم مرة أخرى ، وأراد التأكد من وجودها الحقيقي من خلال الاتصال بالإستعلامات وطلب أي

شيء من الطعام وفق نظام خدمة الغرف ، وأنها هي ، كما فهم منها ، التي ستقوم بذلك . أحس بحماس للقيام بذلك فأخذ سماعة الهاتف وطلب الإستعلامات قائلا ًللشخص على الجانب الآخر من الخط:

- عفوا.. أنا آدم التائه، النزيل في الغرفة 223، أحب ان أطلب طعاماً، فقد عدت لتوي وأنا جائع.

- عفوا سيدي.. الآن الوقت متأخر، إننا نقترب من منتصف الليل، والمطعم يغلق في تمام التاسعة، وخدمة الغرف في فندق مثل فندقنا ربما ستتأخر، فهل لديك القدرة على التحمل لنصف ساعة في أقصى الأحوال..

- لا ضير.. سأنتظر..
- حسناً.. ماذا تأمر..؟
- أردت لو كان هناك طبق أومليت مع الخضار وبدون جبن..
- اعتبره قد تم إعداده سيدي
- شكراً..

أحس َ باسترخاء لذيذ يسري في تلافيف دماغه المتعب ، لأنه أحس من خلال كلام موظف الإستعلامات بأن فتاة المطعم التي كانت في غرفته هي حقيقية ، وليس من تجليات إيفا بيرغمان الغامضة.

تمدد على السرير دون أن ينزع ثيابه ، سوى حذائه الجلدي ، وأخذ الريموت كونترول وضغط عليه ، فظهرت على الشاشة إعلانات جنسية تدعو المشاهد للإتصال إذ أحب الدردشة . أخذ يتنقل بين المحطات ، فلم يجد قناة يمكنه أن يستقرعلى مشاهدتها ، إلى أن رأى إحدى القنوات تبث فيلما أبطاله من نجوم السينما الذين رحلوا عن عالمنا ، فتوقف عنده دونما رغبة خاصة ، من حيث أنه كان قد شاهد هذا الفيلم سابقا ً في بغداد ، إلا أن بطلة الفيلم ممثلة تعجبه جدا ً.

بعد مرور عشرين دقيقة سمع وقع خطوات في الممر ، وبعد لحظات من ذلك سمع طرقا ً خفيفا ً على الباب . نهض بنشاط ليستقبل المرأة العراقية المثيرة . فتح الباب . فوجئ حينما وجد أمامه رجلا ً ضخما ً يحمل بيده صينية عليها ما حجز من طعام.

لم يستطع آدم التائه أن يخفي حالة الإحباط التي وجد نفسه فيها على أثر رؤيته لموظف خدمة الغرف ، إذ كان يهيىء نفسه لسهرة ممتعة ، إلا أن موظف الخدمة لم يفهم سبب علامات الإحباط التي ارتسمت على وجهه ، لكن لم يذهب بعيدا ً في تفسير ذلك ، إذ اعتبر أن النزيل ربما هو متعب وجاء متأخرا ً، وهو ربما مستاء لتأخر الطعام عليه . وضع

الصينية على الطاولة قرب التلفزيون ، متمنيا ً له شهية طيبة . وقبل أن يغادر سأله آدم التائه بطريقة ملتوية ، من أجل أن يستمد معلومات أكثر عن عاملة المطعم ، قائلا ً:

- طلبت مساء هذا اليوم من عاملة المطعم أن تبعث لي ببعض الفواكه، فقالت إنها ستشتري لي من المحل القريب من الفندق، وفعلاً حملت لي صينية الفواكه هذه، لكني نسيت أن أدفع لها..

كان موظف الخدمة ينظر إلي بدهشة صادقة ، فقال مستغربا ً:

- سيدي، لا توجد لدينا عاملة في المطعم..أنا كنت اليوم في المطعم..ولا أحد غيري كان هناك، فاليوم هو يوم خدمتي..

- لكني كنت هناك في حدود التاسعة مساءً..

- التاسعة؟

- نعم

- لكننا اليوم أغلقنا على غير عادتنا في الساعة الثامنة.. صحيح أن موعد الإغلاق هو التاسعة، لكن تسربا للغاز في ثلاجات المطعم جعلتنا نتوقف عن تقديم الطعام في الساعة الثامنة.. وأنا بنفسي من كتب إعلان الإعتذار لنزلاء الفندق عن هذا الحدث الطاريء..

نظر آدم التائه إلى موظف الخدمة بتحدٍ وكأنه يريد أن يقول له إنك تكذب ، لكنه عوضا ًعن ذلك قال له:

- لكني تعشيت هناك قبل التاسعة بقليل..

ابتسم الموظف بطيبة وكأنه يريد أن يفند مزاعمه ، فقال:

- عذرا.. لكن إذا كنت قد تناولت هناك عشاءك في التاسعة، فلماذا تطلب الآن عشاء آخر، وفي مثل هذا الوقت المتأخر من الليل..؟ عذرا على كلامي هذا.. ولا تأخذه بسوء نية..

- أين كنت أنا أذن؟

- هذا ما لا أعرفه..الذي أنا متأكد منه، هو أني أغلقت المطعم في الساعة الثامنة وعلقت إعلاناً على الباب معتذراً..

نظر كل منهما إلى الآخر باستغراب ، وحينما لاحظ موظف الخدمة بأن آدم التائه لا يود مواصلة الكلام ، انسحب بأدب قائلا ً:

- تصبح على خير أستاذ

- تصبح على خير..

ما أن غادر موظف الخدمة الغرفة حتى ألقى بنفسه على السرير جالسا ً بحيرة وذهول . أحس برغبة شديدة في أن يسترخي فتمدد على السرير ،

ودون أن يدري كيف غط في سبات عميق.
أفاق آدم التائه على طرقات خفيفة على الباب . كان صوت امرأة ألمانية يأتي من الممر وهي تشغل ماكنة التنظيف . لم يكن يدرك شيئا ً مما حوله . غرفته مضاءة وشاشة التلفزيون تعرض الوقت الذي يشير إلى التاسعة . ماذا هل الوقت صباحا ً؟ ألقى نظرة على ساعتة اليدوية فرأى أنها تشير إلى التاسعة . أدرك أنه قد نام طويلا ً، ثم انتبه إلى أنه نام بملابسه ، وأنه لم يطفىء نور الغرفة ولا التلفزيون .. نهض على عجل . نزع ثيابه عنه ، وذهب إلى الحمام غالقا ً الباب خلفه.
حينما خرج آدم التائه بعد أن تحمم وارتدى ملابسه وجد أن الغرفة قد تم ترتيبها . كان فراشه قد غ ُيرت شراشفه وتم ترتيب السرير ، واختفت قنينتا النبيذ الفارغتان ، وكذلك اختفت صينية الفواكه . سأل نفسه مستغربا ً: متى دخلت المنظفة إلى غرفته ، فهو لم يفتح لها الباب؟ أدخلت ْ حينما كان يتحمم ولم يسمع بذلك؟ لكنها كيف دخلت دون أن تستأذنه ، أظنت أنه غادر الغرفة؟ .
لم يتوقف آدم التائه في بحثه عن الإجابات ، لذا قرر النزول إلى المطعم ليتأكد مما يجري له ، لا سيما وأن موظف خدمة الغرف خلخل تفكيره ليلة البارحة حينما أخبره بأنه هو من كان في المطعم مساء أمس ، وأن المطعم في الوقت الذي تناول هو فيه عشاءه هناك كان مغلقا ً!.
حين دخل آدم التائه إلى المطعم كان مكتظا ً بنزلاء الفندق ، لكنهم كانوا ساكنين مثل شخوص في لوحة تصور مطعما ً مليئا ً بالرواد ، وكان ثمة صمت هائل يطغي على المكان . استغرب لجمودهم في أوضاعهم الخاصة بالرغم من أنهم كانوا يتنفسون ويبتسمون ابتسامات جامدة ، أو يتحدثون بصمت بعضهم للآخر حيث لا أصوات وإنما حركة شفاه ميتة . فتش عن مكان يجلس فيه فلم يجد ، إذ كانت الطاولات كلها مشغولة . ظل يتلفت باحثا ً عن أي مكان شاغر . فجأة ، انتبه إلى وجود طاولة شاغرة لشخصين في زاوية القاعة عند باب الدخول ، وخلف إحدى شفتي الباب . توجه إليها وجلس مواجها للقاعة . كان يتنقل بعينيه بين وجوه النزلاء . بدوا له وكأنهم أشبه بتماثيل متاحف الشمع المنتشرة في أوروبا . فجأة ، وكأنما في فيلم سينمائي ، دبت الحياة في الجالسين وتعالت أصوات الجالسين . استغرب مما حصل ، لكنه فسره بأنه أحيانا يحدث له أن لايسمع شيئا ، بالرغم من وجود حركة واضحة أمام عينيه ، ثم فجأة تنفتح أذناه على الضجيج وكأن بوابات مغلقة داخل أذنيه قد ف ُتحت.

ظل للحظات يفتش في جهة المطعم التي يمكن أن يأتي من خلالها موظف الخدمة في المطعم ليسأله عن طلبه ، إلا أنه اكتشف أن هناك بوفيه مفتوح ، وأن بإمكانه أن يذهب بنفسه ويحمل ما يشتهي لفطوره . قام على مهل ، وحذر ، وتوجه إلى حيث الطعام المصفوف على طاولات متجاورة . أحس بخيبة حينما أدرك بأنه لا يستطع التحقق من كلام موظف خدمة الغرف . حمل لنفسه بعض قطع الجبن الطري وعلبة صغيرة من العسل والمربي ، وقطعتي خبز أسمر ، ثم عاد لطاولته في الزاوية.

إنهمك آدم التائه في طعامه خافضا ًرأسه ، مفكرا ًفي تفاصيل ما يجري له . لم يكن جائعا ًوإنما كان وكأنه يشغل نفسه بالأكل . كان يحرك سكينه ليطلي الخبز بالعسل ، حينما لمح ظلال سوداء قرب طاولته ، فرفع رأسه . كانت المرأة العراقية ، موظفة الخدمة في المطعم ، تقف أمامه مبتسمة ، وتحييه بالعربية:

- صباح الخير أستاذ..

تلعثم في اللحظات الأولى ، إذ لم يستطع رد التحية ، لكنه أجاب بعد ذلك بقليل ، وفي صوته نبرة الدهشة الممزوجة بالتردد:

- صباح النور..
- هل نمت جيداً..؟

نظر إليها متفحصا ً، ثم نظر إلى الجالسين حول طاولاتهم ليتأكد من أنه في مكان واقعي ، ثم أعاد النظر إليها ، سائلا ً:

- ألم أكن هنا البارحة في حدود التاسعة مساءً؟
- نعم.. وتعشيت هنا أيضاً..
- أكيد..؟
- طبعاً.. لقد تعارفنا مساء أمس هنا، ثم بعد ذلك حملت إلى غرفتك صينية فواكه، ثم شربنا قنينتين من النبيذ، وتحدثتُ أنا عن نفسي كثيراً، وربما أزعجتك في ذلك.. ثم.. ثم..اتصلت بك بعدها لكنك كنت كما يبدو قد غادرت الغرفة، أو أنك قد نمت، لأنك كنت متعباً أيضا.. أنا أعتذر جداً..ربما أزعجتك..

قاطعها هو ، فرحا ًبما روته له ، وقال على عجل :

- يعني أنكِ كنت فعلاً عندي في الغرفة..؟ وأني كنتُ هنا في حدود التاسعة..؟
- نعم.. هل تشك في ذلك..؟
- وأنك أنت من اتصل بي بعد مغادرتك الغرفة مباشرة..؟

- نعم.. بعدها بأقل من دقيقة.. لأن غرفتي أساساً في الطرف الآخرمن الطابق نفسه.. لكن قل لي ماذا بك أستاذ..؟
- آدم التائه..
- عاشت الأسماء..أستاذ آدم التائه..
- وحضرتك..؟
- أنا حواء..
- أي حواء؟
- حواء فقط..
- أليس لديك لقب أو اسم عائلة..؟
- بلى.. أنا حواء المظلوم.. لكن قل لي سبب كل هذه الأسئلة؟
- لأني حين رجعتُ إلى الفندق في حدود منتصف الليل، طلبت عشاء لأني كنت جائعاً.. فحمله لي رجل طويل القامة.. وحينما سألته عنك بطريقة غيرمباشرة..نفى أن تكون هناك امرأة تعمل في مطعم الفندق، وأنه هو الذي كان يعمل في المطعم مساء أمس وقد أغلق المطعم في الثامنة نتيجة لتسرب الغاز من الثلاجات، وقد كتب إعلان اعتذار علقه على الباب..
نظرت حواء المظلوم إليه نظرة غامضة ، وقالت :
- هذا غير معقول أبداً.. فلا أحد غيري يعمل في المطعم.. لكن الغريب أنه ليس هناك من طلب عشاء ليلة أمس في هذا الوقت..؟
- أنا شخصياً طلبت عشاءً... وقد جاء لي ذاك الرجل بطبقٍ من الأومليت حسب طلبي..
- هذا مستحيل..
- اسمعيني جيدا رجاء.. هل لديك وقت في أن تأتي لغرفتي بعد قليل.. أريد أن أتأكد من بعض الأمور..
- لكن..
- رجاءً..
- طيب.. بعد دقائق معدودة ستنتهي فترة الفطور الصباحي.. انتظرني هناك..
لم يكن يصدق ما جرى له ، فأخذ يسأل نفسه إن كان ما رآه وما تحدث به كان حقيقة . انتبه إلى أنها كانت تتحدث مع عائلة على طاولة أخرى ، وتنظر إليه بين الفينة والأخرى مبتسمة بمودة واضحة . نهض على عجل ، وغادر صالة المطعم متوجها إلى غرفته.
مرت أكثر من نصف ساعة على مغادرته للمطعم وانتظاره لها . نظر إلى

ساعته فكانت تشير إلى العاشرة وعشر دقائق . لم يبق لديه الكثير من الوقت ، إذ عليه مغادرة الفندق في حدود العاشرة والنصف ، فموعده مع إيفا ليسنج في حدود الحادية عشرة ، ومن غير اللائق أن يصل متأخرا ً، لاسيما وأن لديها موعد عمل في الثانية عشرة ، لذا فلا وقت كافيا ً لديه . لقد كان ينوي أن يجرها للحديث عن هذا الفندق الغامض . لقد وعدت بأن تأتيه إلى الغرفة ، وها هو ينتظرها كل هذا الوقت ولم تأت ، ربما طرأ شيء ما أعاقها من الحضور ، لكنها من المؤكد ستأتي ، فقد وعدته ، ثم أنها كانت لطيفة معه ، بل واعتذرت عما بدر منها ليلة أمس ، ولو كان قد رفع سماعة الهاتف عند رنينه بعدما أغلق الباب ، فلربما كانت قد وافقت أن تأتيه إلى الغرفة ثانية ، فقد كانت هي مثارة أيضا ً. على أية حال سينتظرها لخمس دقائق أخرى ، وألا سيضطر لمغادرة الفندق . هكذا كان يحاور نفسه.

كان آدم التائه يغلي في أعماقه مع مرور الوقت وعدم مجيء حواء المظلوم ، ولكي يشغل نفسه فتح الثلاجة ، فوجد أن المنظفة قد وضعت قنينتي نبيذ جديدتين هناك . أغلق باب الثلاجة ، نظر إلى ساعته اليدوية فوجد أن عشر دقائق أخرى قد مرت وليست خمسا ً. نهض بعصبية . دخل إلى الحمام ورش على نفسه شيئا من العطر ، وغادر الغرفة إلى الطابق الأول حيث حواء المظلوم في مطعمها.

استغرب حينما وجد أن الممر القصير الذي يقود إلى المطعم كان مظلما ، فضغط على زر النور فأضاء الممر ، وحينما اقترب من المطعم وجد ثمة إعلانا ً مكتوبا ً بالألمانية بأن إدارة الفندق تعتذر بسبب تسرب الغاز من الثلاجات إلى إغلاق المطعم ، راجية تفهم النزلاء .

كانت رؤية الإعلان وقراءته صدمة قوية لآدم التائه . تيقن بأن هناك شيئا ما غير طبيعي يجري في كل تفاصيل مسيرة حياته ، منذ لحظة تعرضه للأزمة القلبية في مدينته الأولى ، ثم أن الأمر ليس له علاقة بإزدواجية شخصية الكاتب الذي فيه ، وشطحاته الروحية ، وتهيؤاته النفسية ، وإنما له علاقة بغوامض الواقع المحيط به .

لم يبق طويلا ً في ذلك الممر أمام باب المطعم المغلق ، وإنما فر مسرعا ً الخطى وهو يهبط السلم قافزا ً، خائفا ً، محاولا ً مغادرة الفندق بالسرعة الممكنة ، ولم يشعر بالأمان إلا بعد أن صار في الشارع ، ولفح وجهه الهواء البارد الذي أنعش روحه ، وأعاد الحيوية إلى نفسه ، لكنه انتبه إلى الثلج الذي غطى الشارع . تذكر أنه حينما عاد في منتصف الليل لم يكن

هناك ثمة ثلج ، إذاً فقد هطل الثلج في ساعات الفجر الأولى ، هكذا فكر مع نفسه.
ظل واقفاً أمام الفندق للحظات ، ولما رفع رأسه إلى الأعلى لينظر إلى طوابقه ، رأى حواء المظلوم تقف وراء ستارة نافذة مفتوحة في الطابق الثاني ، تنظر إليه مبتسمة بمودة ، وهي ترفع يدها إليه بتحية وداع هادئة . اضطرب قليلاً، وأشاح بوجهه زعلاً، وغضباً منها لأنها لم تأت إليه كما وعدت ، وحينما رفع رأسه ثانية إلى تلك النافذة ، وجده حائطا من الطابوق الأحمر في ذلك المكان ، وليست هناك نوافذ من هذه الجهة المطلة على الشارع ، إذ أن لافتة الفندق الضوئية تحتل الجزء الأكبر من واجهته .
أحس بكآبة تقبض على روحه ، لكنه بالرغم من ذلك ، كان عليه أن يسرع إلى فندق صوفيتيل ميونخ ، حيث سيلتقي بالسيدة باهرة الجمال إيفا ليسنج ، وقد قرر مع نفسه أن يكون أكثر حميمية معها . يجب أن يطرد من نفسه وذهنه كل ما مر عليه في هذا الفندق الكئيب ، وأن يكون أكثر إشراقاً حينما يقابلها ، لكن هل يستطيع ذلك؟ يجب عليه أن يكون كذلك ، هكذا قرر مع نفسه وهو يتوجه إلى شارع مكسمليان شتراسه ، لكنه مع أول خطواته أحس بأن عليه أن يكون حذراً في السير ، فربما سيتزحلق ، لأن حذاءه ليس حذاءً شتوياً يساعده على تجنب التزحلق على الثلج.
* * *

شعرت حواء الزاهد بالخوف عند قراءتها لما جاء في ذلك الفصل ، وفكرت مع نفسها ، أين الحقيقة في كل ما جرى آدم التائه ، فأيهما كان حقيقياً، الرجل موظف الخدمة أم حواء المظلوم؟ ربما كلاهما وهم ومن اختلاق ذهن آدم التائه .. ؟ لكنه هو نفسه طرح على نفسه هذا السؤال ، وتأكد من نفسه ، بأن ما يجري له ليس له علاقة بالتهيؤات أو أزدواجية الشخصية ، فما جرى له قد جرى فعلاً، دونما أية أوهام ، لكن كيف ستجري أموره مع إيفا ليسنج؟ هل ما روته له كان حقيقة أو لتضليله؟ ثم .. إذا ما رجعنا إلى رواية آدم البغدادي (متاهة حواء) ومشهد محاولته مضاجعة إيفا بيرغمان ، سيفهم أن قراره بمحاولة مضاجعة إيفا ليسنج للتأكد من شخصيتها سيكون صحيحاً ومقبولاً، على الأقل بالنسبة له ، وقد نوى ذلك ، فهل سيتيح له الكاتب آدم البغدادي هذه الفرصة أو أنه سيقصيه عنها في آخر لحظة ، ليزيد من توتر الرواية .. ؟ ولا تدري

لماذا كانت لديها رغبة غامضة في أن يدفع الكاتب آدم البغدادي بهما إلى مشهد حميمي يتلاحم فيه جسداهما بعنف؟ ربما لأنها لا تنسى مشاهد علاقتها الجنسية مع حبيبها آدم المحروم الذي اكتشفت نفسها وجسدها معه .. ؟ هكذا كانت حواء الزاهد تفكر بعد توغلها في الفصل الذي بدأت قراءته.

كان يدفعها فضول لمتابعة بقية الفصل ، لكنها قبل أن تواصل القراءة ، قامت بهدوء لتنظر إلى هابيل وهو غارق في نومه البريء ، فانحنت لتقبله قبلة صغيرة على جبينه الناعم ، ورجعت إلى سريرها لتواصل القراءة.

قابيل .. آدم .. قابيل

وصل آدم التائه إلى الفندق في تمام الحادية عشرة . اقترب من نوافذ اللوبي الزجاجية المطلة على الشارع العام ، فرأى إيفا ليسنج جالسة حول طاولة مخصصة لإثنين ، وكانت في منتهى الأناقة ، ترتدي ثوبا أبيض من قطعة واحدة تمتد إلى ما تحت الركبتين بقليل ، وعليه سترة بيضاء أيضا ، وعلى الطاولة حقيبة سوداء صغيرة جدا ً.

حين صار في الباحة ، وقبل أن يتوجه إليها نظر إلى مكتب الإستعلامات عسى أن يرى موظف الليلة البارحة ، إلا أنه وجد بدلا ًعنه امرأة جميلة الوجه كانت تتحدث مع أحد النزلاء بلطف واضح . في تلك اللحظة التفت إلى جهة اللوبي فرأى إيفا ليسنج تبتسم ، وتؤشر له ، فذهب إليها فرحا ، وكأنه نسي كل انفعالاته ومخاوفه وأفكاره القلقة حول هويتها ، إذ أنه لا يرى أمامه الآن إلا سيدة باهرة الجمال ، فائقة الحضور والفتنة.

حين وصل إليها مدت إليه كفها مصافحة وهي في وضع الجلوس ، ودعته إلى أن يجلس على الكرسي المقابل لها . التفت إلى النادل الذي جاء من تلقاء نفسه إليهما ، متوجها ًبالسؤال إلى آدم التائه عما يود أن يشرب ، فطلب كوبا ًمن الشكولاته.

كانت إيفا ليسنج تتأمله وهو يتحدث مع النادل ، وحينما التفت إليها ابتسمت له برقة أنثوية صادقة ملأت روحه نشوة محت ما تعرض له خلال ليلته الماضية من أشياء غامضة ، وقالت معتذرة:

- أنا آسفة لما حصل لك ليلة أمس..أرجو أن تتقبل اعتذاري..
- لا عليك.. إنه مجرد سوء فهم..
- كنت مشتاقة فعلاً للحديث معك.. لكن لا ضير أمامنا المساء كله..
- متى تنتهين من اجتماعك؟..
- لقد أخبرتك.. في الساعة الثانية عشرة سيبدأ الاجتماع، وقيل لي، في

الثانية سيكون لدي موعد على الغداء ثم نبدأ في الثالثة وننتهي في الخامسة.. بعد ذلك لا أعرف.. لكن حتى لو دعوني إلى سهرة ما فسأعتذر.. أنا متعبة حقاً من هذه الإجتماعات.. عادة ما تقوم أختي بكل هذه التفاصيل.. لكن هذه المرة أراد المخرج أن يتحدث معي بحضور الشركة المنتجة..

- وهل تحدثتِ معه..؟ أقصد مع المخرج..
- نعم.. إنه مخرج معروف، لاسيما في البلاد الناطقة بالألمانية..
- هل اتفقتم..؟
- طلبت منهم أن أقرأ السيناريو قبل الموافقة النهائية.. مبدئياً أنا موافقة..لكن يجب أن أعرف مساحة دوري في المسلسل..
- هل هو مسلسل أم فيلم..؟
- كما أخبرتك في القطار.. إنه مسلسل عن رواية (مرتفعات وذرينغ) لأميلي برونتي.. لكن كما فهمت فأن المخرج يميل إلى التحليل النفسي للقصة، مركزاً على مشاعر الغيرة، وسوء الفهم الذي يسبب المأساة، عن الحقد والإنتقام، وعن الكبت الجنسي، أو بشكل أدق عن الحب الجنسي، وكما فهمت فأنهم يريدون أن يعرضوا الكثير من تلك المشاهد، أو كما نقول بمصطلحات السينما يريدون عرض الكثير من اللحم.. لذا عليّ قراءة السيناريو قبل أن أوافق بشكل نهائي..

لم يتأخر النادل كثيرا إذ جاء وهو يحمل صينية صغيرة فيها كوب الشكولاته وصحن فيه قطعتان من البسكويت ، وضعها على الطاولة وانصرف . كانت إيفا ليسنج خلال لحظات حضور النادل قد صمتت ، وما أن انصرف حتى قالت وكأنها تخبره عن شيء مهم:

- أتدري مع مَن تحدثتُ صباح هذا اليوم؟
- مع مَن؟
- مع حواء صحراوي
- مع مَن؟
- مع صديقتي العربية التي تعيش في لندن، والتي حدثتك عن حكايتها مع زوجها..
- نعم..نعم..تذكرت..
- لقد حدثتها عنك مطولاً.
- عني..؟ وماذا قلت لها..
- حدثتها عن لقائنا في القطار.. وحديثنا عن شكسبير وستندال..حدثتها عنك

بأنك كاتب روائي.. لكنها لم تعرفك.. أقصد لم تقرأ لك..
أحس آدم التائه بالارتباك الممزوج بالخجل في أنه ليس كاتبا ً معروفا ً، فقال :
- من المؤكد أنها لا تعرفني..فأنا أصدرت رواية واحدة.. ربما كان انتشارها محدوداً.. كما أن روايتي الثانية لم تنشر بعد.. بالرغم من أني أفكر كتابة رواية جديدة..
- أوه..هذا شيء رائع حقاً.. عن أي شيء تنوي الكتابة..؟
- لا أعرف بالضبط، ربما عن قابيل.. فأنا أرى أن الإنسان محاصر بتأريخه كإنسان.. كيف أشرح لك فكرتي..؟ أقصد أن الإنسان كما قال عنه القديس أوغسطين، محكوم باللعنة الأبدية، أي أن خطيئة آدم لم تسيء إلى آدم وحده، وسببت طرده من الفردوس فقط، بل أساءت إلى الجنس البشري كله، حيث أن على الإنسان أن يتخلص من خطيئته ويكفر عنها، بالرغم من أنه لا علاقة له بها أصلاً..!
- لكن ما ذنب البشرية.. وما علاقتها بآدم..ما ذنب الطفل الذي يولد ضعيفا، عارياً، بريئاً، أن يؤخذ بجريرة آدم..؟ الطفل يأتي إلى العالم بريئاً، مثلما كان حال آدم قبل الخطيئة، فلماذا يكون محكوماً عليه بالخطيئة..؟ هذا غير معقول ولا منطقي..
- لكن الأديان، والكنائس، تؤكد على أن الإنسان محكوم عليه بالخطيئة الأولى..
- هل تؤمن أنت بذلك حقاً؟
- لا.. طبعاً أنا لا أؤمن بذلك، لكني أود مناقشة فكرة السقوط والخطيئة البشرية.. فأنا أعتقد أن حكاية آدم هي أسطورة.. وهنا نحن نناقش أساطير وليست وقائع وأحداثاً حقيقية.. لكن لا ضير في ذلك.. فالوعي الأسطوري سواء كان دينياً أم علمياً، من حيث أن هناك أساطير علمية أيضا، يبقى تأويلاً وتفسيراً شعرياً لمحنة الوجود.. نحن نختلف عن آدم الأب.. لأن آدم انتقل من حالة البراءة التي تحدثتِ عنها إلى الخطيئة، لذلك ثمة سقوط رهيب..بينما نحن البشر، سلالة آدم، نحن أبناء خطيئته وسقوطه، فننتقل من حالة الخطيئة التي وجدنا أنفسنا فيها بالتبعية كأبناء لخطيئة آدم الأول، إلى حالات أخرى من الخطيئة، نقترف خطايانا هنا على الأرض وليس في الفردوس وبوعي.. أي نحن نتاج الخطيئة ونعيش في الخطيئة، وأن طبيعتنا الإنسانية تجنح للخطيئة، لأنها مستقرة في أعمق أعماقنا، طبعاً هذا إذا فهمنا الخطيئة بأنها الشهوة والرغبة الجنسية بالتحديد. وأنت.. بماذا

كيف تنظرين لقضية الخطيئة الأولى؟
كانت إيفا ليسنج تنظر إليه بتمعن ، وفي أعماقها إعجاب بهذا الرجل الذي يحدثها عن سقوط آدم وخطيئته ، في الحادية عشرة صباحا ًوعلى طاولة الفطور !. فقالت له بهدوء شديد وكأنها تقطّر الكلمات :
- أنا أعتقد أنه ليست هناك أية خطيئة. أقصد أن قرار أبينا آدم لم يكن خطيئة، بل هو تجسيد لإرادته الحرة، وأن عليه أن يتحمل تبعات قراره، وهذا ما جرى له، أي تم طرده من الفردوس.
- لكن بهذا المعنى فأن إبليس أيضا مارس حريته بعدم السجود لآدم..
- هذا صحيح.. لكن خطيئة إبليس هي من نوع آخر..
- كيف؟
- إبليس لم يسقط في الخطيئة، إبليس تحدى قرار الرب، لكن من شدة حبه للرب، أو من كبريائه.. وهذه قضية أخرى، فليست هناك إبليس أنثى.. ثمة إبليس واحد..
ابتسم لها بمودة ، وقال :
- رؤية جديدة وممتعة..
- لا أدري أن كانت جديدة.. أو حتى ممتعة.. لكني أود أن أجد تفسيراً لخطيئة إبليس.. وعموماً.. أعتقد أن سؤال الخطيئة ربما يقودنا إلى السؤال عن الخير والشر في الإنسان، هل الإنسان مجبول على الشر بالفطرة، أو أنه خير بالفطرة؟
- ماذا تعتقدين أنت؟
- لا أدري.. أنا أعتقد أن الخير والشر وجهان لمرآة واحدة، لا يمكننا أن نرى أنفسنا في المرآة، في الوجه الزئبقي الصافي لها، بدون الوجه المعتم لها، أو كما يتحدث سيجموند فرويد عن طبقات النفس الثلاث، عن الغريزة، والأنا، والأنا العليا. وأن الصراع بين طبقات النفس، وسيطرة أي منها، وتحالفاتها هي التي تحدد طبيعة الخير والشر عند الإنسان..
- أعتقد أن النصوص الدينية تبقى خارج حدود العقل.. ففيها الكثير من التناقضات واللامنطق..
- وكيف تريد أن تبني روايتك لتوضح أفكارك هذه..؟
- لا أعرف بالضبط..
نظرت إليه وعلى وجهها ملامح الإستغراب ، وقالت :
- لا تعرف بعد كيف ستكتب روايتك..؟
- نعم.. هل تصدقين ذلك..؟! صحيح أن البعض يخطط ويرسم ويفتح

ملفات.. لكنني أتوجه للرواية، أو على الأقل هذه الرواية، بدون تخطيط مسبق للأحداث..

- لماذا..؟

- لا أدري بالضبط.. لأني بعد كتابة روايتي الثانية (متاهة آدم – المرأة المجهولة).. وتوغلت في فكرة الخطيئة التي تحدثنا عنها الآن.. وجدت أن الإنسان الأول ليس أبانا آدم..

- ماذا؟

- أبونا آدم صنعه الرب من طين.. أليس كذلك؟

- نعم..

- أي لم تلده امرأة.. ولم ينشأ في رحم امرأة.. وبالتالي ليس إنسانا بهذا المفهوم البايولوجي الذي نعرفه..

- ثم ماذا..؟

- قابيل هو الإنسان الأول.. هو ابن آدم وحواء.. هو الإنسان الذي خلق من نطفة، ونما وتشكل داخل رحم حواء وتغذى من دمها.. فهو الإنسان..بينما آدم لم يتشكل من نطفة.. وإنما من طين.. وكذا حواء الأم التي تشكلت كما تقول الأسطورة الدينية من ضلعه.. ولا يمكنني تخيل ذلك إلا باعتبار المرأة استعارة مجازية..

نظرت إليه صامتة للحظات ، وكأنها تستقرأ ما يدور في ذهن هذا الرجل الشرقي ، وقالت :

- لكنك كنت تتحدث عن آدم وخطيئته..

- صحيح.. لكني سأتوقف عند مصير قابيل.. بالمناسبة.. يمكن التوقف عند المفهوم الديني للمسيح أيضاً.. فهو نصف إنسان.. فالرب لم يخلقه من طين.. وإنما زرعه في رحم مريم.. تغذى من دمها وتشكل في أعماقها، وخرج من بطن امرأة.. وليس من يدي الرب..

- وتريد الحديث عن كل هذا دون أن تتشكل الحكاية لديك بعد..؟!

- نعم.. أو لأقل هذا هو الوضع الآن على الأقل..

نظرت إليه وعلى وجهها علامات تفكير واضحة ، ثم قالت:

- لدي فكرة..

- ما هي..؟

- لماذا لا تأتي إلى لندن، وتتعرف على صديقتي حواء صحراوي، ومن خلال حكايتها الحزينة والمتشابكة، ستتوغل في فكرتك عن الخطيئة، لأنها بالتأكيد ستروي لك الكثير من التفاصيل التي يمكن أن تفيدك في عملك

الروائي.. بالمناسبة زوجها اسمه قابيل الموسى..
- أنا نفسي غارق في الخطيئة يا إيفا..
- ماذا تعني..؟
- إذا كانت الخطيئة في الجوهر هي الرغبة الجنسية، فنحن جميعاً محكوم علينا بالخطيئة.. وإذا كان عقاب الخطيئة الأولى طرد آدم من الفردوس، فنحن لم نكن في الفردوس كي نطرد منه..!! وبالرغم من ذلك الخطيئة تطاردنا كلعنة أبدية، بينما نحن ندور في متاهة وجودنا الأرضي باحثين عن فردوس مفقود..
ابتسمت إيفا ليسنج قائلة:
- يريدون منا أن نقتل الرغبة في أعماقنا كي نعود إلى الفردوس المفقود..
- وأين هو فردوسنا المفقود، في الأرض أم في السماء؟
- ربما في أعماق النفس..؟
- نعم.. في أعماق النفس.. فردوسنا المفقود هو هناك، في أعماقنا العميقة، الموغلة في الظلام الكثيف..
لم تعلق شيئا ً، نظرت إليه وقالت وهي تبتسم له بمودة ومرح:
- آدم.. أما ترى أننا نتشابه قليلاً.. أقصد أننا نجلس هنا في ميونخ بألمانيا، أنا قادمة من لندن، وأنت من بغداد، لنتحدث عن أبينا آدم الأول وعن سقوطه وخطيئته الأولى.. وها أنت تجرنا للحديث عن قابيل باعتباره الإنسان الحقيقي الأول..أما تعتقد أنه لو كان صموئيل بيكت حاضرا مثل هذا المشهد الذي نحن فيه الآن، لكان أضافه إلى مسرحيته (في انتظار غودو).. باعتباره يجسد محنة الإنسان في هذا الوجود..منتظراً غودو كي يحل له اللغز ويخرجه من متاهة الضجر والإنتظار..
أخذا يقهقهان بصوت خافت ، ثم علق آدم التائه باسما على كلامها قائلا ً:
- أنا أعتقد أن آبانا آدم الأول قد ضجرَ من الفردوس، ورتابة حياته هناك، فأراد التغيير..
- لذا قفز على أمنا حواء..
استمرا يقهقهان بخفوت ، لاسيما بعد أن لاحظا أن الجالسين حول الطاولة القريبة أخذا ينظران إليهما باستهجان مبطن ، ويتمتمان بينهما بكلمات لم ت ُسمع.
كانت إيفا ليسنج خلال لحظات قهقهتها تفكر مع نفسها ، بأن عليها ألا تفقد هذا الإنسان الغريب الجالس أمامها مهما كانت الأحوال والظروف .

حين انتهيا من القهقهة ، صمتا ، وفي أعماق كل منهما دفقات من الفرح ، ومن المشاعر الدافئة نحو الآخر.

كان يتأمل وجهها الجميل ، فلمح فجأة ، بأن هناك ما أثار انتباهها ، فنظرت إلى ساعتها اليدوية وقالت بإحباط:

- كم يمضي الوقت سريعاً، إنها الثانية عشرة إلا ربعاً.. ها هم يدخلون.. يبدو أن عليّ الذهاب للإجتماع..

التفت هو فرأى ثلاثة رجال ومعهم امرأة ينظرون إليهما . رفعت هي يدها إشارة للتأكيد بأنها موجودة .. تقدمت إليهما المرأة التي كانت مع وفد شركة الانتاج ، وسلمت عليهما ، بأدب ، ثم قالت لإيفا ليسنج بأنهم سينتظرونها في القاعة ، ثم انصرفت . أشارت هي إلى النادل .

كان هو متضايقا ً من مرور الوقت بهذه السرعة ، حيث كان يريد قول أشياء أخرى ، أعجبها أنه تضايق من مرور الوقت ، وحين جاء النادل بقائمة الحساب ، وقعت في أسفل القائمة وأرجعتها إليه ، ثم نظرت إلى آدم التائه ، وهي تقول لنفسها في أعماقها ، بأن الرجال يبقون في بعض تصرفاتهم كالأطفال الصغار .. رفعت رأسها إليه ، ثم قامت فقام معها ، فقالت مبتسمة:

- إذن.. عليّ الإلتحاق بهم في القاعة.. شكراً لمجيئك.. سنلتقي هنا في الخامسة أو بعدها بقليل..

- لا تشكريني.. أنا الذي عليّ أن أشكرك لمنحي كل هذا الوقت الجميل.. سأنتظرك هنا في الساعة الخامسة..

- إلى أين ستذهب الآن؟
- لا أدري.. سأجد شيئا أشغل نفسي به..
- إذن.. إلى اللقاء في الخامسة
- إلى اللقاء..

تصافحا بحرارة . نظر إلى أعماق عينيها فوجدها قلقة وكأنها تريد الإلتحاق السريع بالإجتماع ، فتركها تذهب . كان ينظر إليها من الوراء ، رآها وهي تتجه صوب المصاعد . وقفت منتظرة المصعد . فكر مع نفسه بعظمتها الإنسانية وتواضعها ، وعمق تفكيرها . بقي واقفا ً إلى أن دخلت أحد المصاعد.

حين صار آدم التائه في الشارع ، أحس بشيء من الحزن لأن عليه مغادرة ألمانيا ومفارقة هذه الإنسانة العظيمة ، هذه السيدة باهرة الجمال والفتنة ، كما حزن على نفسه ومصيره الكئيب . أحس بالدمع يترقرق في عينيه حزنا ً

على نفسه ، وعلى حياته البائسة ، التائهة ، إذ شعر وكأنه حوت ألقى بنفسه في المياه الضحلة ليموت على الساحل . ترُى ما هو هدف وجوده الآن؟ فعلى الرغم من أنه يعرف جيداً بأنه في بلاد بعيدة آلاف الكيلومترات عن بلده المخرب ، إلا أنه يشعر هنا أيضا ، في كل لحظة ، بأنه غريب ، وأنه ضيف ثقيل غير مرغوب فيه ، دخيل خطير ، وفي أفضل الأحوال إنسان مسكين يستحق الشفقة والمساعدة وتوفير لقمة العيش ، لكنه أيضا كان موضوعياً في تفكيره ، فهو يكن الشكر لهذا البلد الذي آواه ، وأطعمه ، ومنحه ثقته وهويته المؤقتة ، أو على الأقل تحمل وزره قانونياً أمام العالم كله ، ولهذا كان يشعر ببعض العزاء للخروج من ضيقه النفسي.

انتبه آدم التائه إلى أنه صار أمام محطة القطار الرئيسية دون أن يقصد ذلك ، لأنه لم يقطع الشارع الذي يذهب به إلى الفندق ، فقرر أن يدخل المحطة الدافئة ، ليتخلص من البرد والثلج.

* * *

حينما وصلت حواء الزاهد إلى لحظة دخول آدم التائه إلى المحطة الرئيسية للقطارات في ميونخ ، توقفت عن القراءة . أخذت تفكر في الحوار الذي جرى بين آدم التائه وإيفا ليسنج عن آدم وقابيل والخطيئة الأولى وأصل الخير والشر .. سألت نفسها : لماذا الإنسان مدان ومتهم دون أن يقترف ذنباً أصلاً.. ؟ لماذا تسعى الأديان جاهدة إلى تحقير الإنسان وإذلاله؟ وإذا كانت الغريزة الجنسية هي سر الخطيئة وجوهرها ، فأن البشرية بهذا المعنى هي ثمرة الخطيئة ..! فلماذا إذن صار تشريع للخطيئة من خلال الزواج .. ؟ بل ومنحت هذه الخطيئة قداسة خاصة ، باسم الزواج .. ؟ بينما صارت هذه الخطيئة خارج تشريع الأديان ، خارج الزواج ، تعُد زنى وخطيئة يعاقب عليها .. ؟ بحيث تنبذ ثمارها من قبل المجتمع والدين والقانون؟ ألا تكون الأديان بهذا المعنى الحارس والشرعي والمقنن للخطيئة ؟ بكلمة أخرى قوادين شرعيين لها ؟؟ .. لا .. لا .. إلى أين ذاهبة أنا بتفكيري .. ؟ !

أحست حواء الزاهد بالخوف من شطحات تفكيرها . نظرت إلى ابنها هابيل الذي هو ثمرة حبها وعشقها الحقيقي ورغبتها العميقة ، لكن المنبوذة من المجتمع والدين .. ؟ ثم التفتت إلى ابنها آدم الملاك ، الذي هو ثمرة علاقة غير مبنية على الحب ، لكنه الابن الشرعي أمام الدين والمجتمع .. صحيح أنها لا تفرق بينهما ، فكلاهما نشأ في أعماق رحمها وهو قطعة من جسدها ، إلا أنها تشعر بالأسى على ابنها هابيل الذي بلا شك سيواجه ،

يوما ما ، حقيقة مرة ، بالرغم من أنها قد سجلته باسم زوجها الذي مات في سجن بوكا !!.

كانت حواء الزاهد تفكر في مصير ابنها هابيل . أحست بالإختناق . قامت إلى غرفة الإستقبال . وقفت أمام النافذة وأخذت تنظر إلى الظلام الذي كان قد جثم على صدر المدينة . أحست ببرودة تسري في جسدها . رجعت إلى غرفتها ، استلقت على السرير . كان أمامها وقت طويل كي تقطع كل هذا الليل .. أخذت المخطوطة لتواصل رحلتها مع آدم التائه ، في رحلته الغامضة في متاهة النفس ومتاهة وجوده الغامض .

دموع الليدي غراي

حين دخل آدم التائه إلى القاعة الكبرى لمحطة القطار الرئيسية في ميونخ أحس بالدفء . لم يكن يعرف إلى أين يذهب ، إذ لديه ما يقارب الخمس ساعات من الوقت ، فموعده مع إيفا ليسنج هو في الخامسة عصرا ً في بهو الفندق . تذكر أن عليه متابعة قضية سفره لليوم التالي ، لكنه تذكر بأنه ليس هناك في محطة القطار الرئيسية مكاتب لشركات الطيران ، وإنما عليه الذهاب إلى المطار . توجه بشكل لا إرادي نحو مكتب الإستعلامات في وسط القاعة ، وقبل أن يصل تذكر ما جرى له مع موظف الإستعلامات لحظة وصوله إلى ميونخ ، لكنه شعر بالارتياح حينما رأى امرأتين في المكتب ، فوقف في طابور صغير جدا ً، حيث كان شخصان يقفان أمامه ، وخلال لحظات صار بإمكانه أن يسأل إحدى الموظفتين عن كيفية الذهاب إلى مطار ميونخ الدولي ، فأخذت الموظفة تشرح له بأن عليه أن يصعد القطار الداخلي المسمى (إس بان S)، وأن المسافة إلى المطار تستغرق 45 دقيقة ، وأن القطار ينطلق كل عشرين دقيقة ، كما أرادت الموظفة أن تشرح له أكثر ، إلا أنها رأت علامات الضيق والعجلة بادية على وجهه ، فاكتفت بأن أعطته كراسا ً صغيرا ً عن مدينة ميونخ فيه مواعيد القطارات ، وكيفية الوصول إلى المطار ، وخريطة للمدينة إلى جانب معلومات عامة أخرى.

فكر آدم التائه مع نفسه ، بأنه يحتاج إلى ساعتين ذهابا ً وعودة ، إذن يمكنه أن يذهب بهدوء فلديه ما يكفي من الوقت ، لكن هل عليه أن يذهب إلى فندقه؟ أحس بعدم الرغبة في أن يعبئ نفسه بالانفعالات والمخاوف الغامضة ، بينما هو يريد أن يركز اليوم في علاقته مع إيفا ليسنج ، ولا يسمح لأي توتر آخر أن يشوش عليه وضعه النفسي الذي هو فيه الآن ، لاسيما بعد لقائهما اليوم ، لا .. لن أذهب إلى الفندق ، هكذا سمع صوتا ً قويا ً، صامتا ً، انطلق من أعماقه.

ولكي يقضي بعض وقته دخل إلى إحدى محلات بيع المجلات والصحف وكتب وروايات المحطات . أخذ يتنقل بين الصحف المختلفة ، رأى صحفا ً بالعربية فشعر بدفق من مشاعر حنين ، بالرغم من أن تلك الصحف العربية يصدر بعضها في لندن وبعضها في بعض البلدان الخليجية ، وبعض آخر في بيروت ، وأن تأريخ صدورها يعود إلى يوم سابق أو يومين ، كما انتبه لبعض المجلات الأسبوعية المصرية والخليجية ، لكن وكأن هناك شعاعا ً جاذبا ً أدار وجهه نحو بعض المجلات الإنكليزية والألمانية والفرنسية ، فوجد صورة إيفا ليسنج على غلاف إحدى المجلات . أخذ المجلة المصورة ، وكانت مجلة انكليزية ، وتصفحها بسرعة ليتوقف عند الصفحات التي تتحدث بالصور عنها . كانت بينها صور لها مع صديقها الذي انفصلت عنه قبل بضعة أشهر ، وصورة وهي مع ابنها حينما كان عمره في حدود السنة ، وصور من أفلامها ، التي لم يشاهد أيا ً منها ، وكذلك صور من بعض أعمالها المسرحية ، وأنتبه إلى إحدى الصور وهي في دور الليدي ماكبث ، وكانت هناك صورأخرى تبدو فيها شبه عارية ، وأخرى في وضع إغراء واضح ، وصورة أخرى تنظر إلى الكاميرا وفي عينيها إثارة.

ظل يحدق إلى الصورة التي تكشف فيها الكثير من تفاصيل جسدها ، وكذلك أخذ يتأمل صورتها مع صديقها ، وهو يمسك بكفها ، وهما يتجهان إلى حفل أو كونسيرت . قرأ العنوان الرئيسي للتحقيق المصور الطويل : إيفا ليسنج .. من الليدي ماكبث إلى مرتفعات وذرينغ .، ثم قرأ في العناوين الفرعية : يجب أن نمنح حياتنا معنى محترما ً..، ليس لي سوى أن أحتفي بذاتي وبوجودي في الزمان ، المكان ليس هو المهم ، لذا لا أتردد في تجسيد أي دور ٍ تدور أحداثه في أزمنة مختلفة.

بدون تردد اشترى آدم التائه تلك المجلة ، وغادر المحل مسرعا ً، باحثا ً عن أي مقعد في قاعة المحطة الصاخبة ، ليجلس ويقرأ هذا التحقيق المصور . تجول قليلا ً في المحطة ، ولم يجد أفضل من الدخول إلى قاعة شراء بطاقات السفر ، حيث هناك صف من المقاعد الشاغرة ، فجلس هناك ، وأخذ يقلب صفحات المجلة التي نشرت التحقيق المصور.

عرف آدم التائه من خلال قراءة التحقيق المصور بأنها كانت على علاقة وثيقة مع صديقها الذي انفصلت عنه ، وأن هذه العلاقة كانت قد امتدت لسنتين ، إلا أن أنها كانت علاقة متوترة ، ومرت بأزمات انتهت بالانفصال عن بعضهما قبل أكثر من ستة أشهر ، وأن الغيرة هي التي لعبت الدور الأكبر في هذا الإنفصال ، فمن ناحيتها كانت لا تحب السهر خارجا ً، ولا

الحفلات ، بينما هو على الضد من ذلك ، يحب الاحتفالات والسهر في النوادي وحضور حفلات الفنانين والفنانات ، وأنه كان يغار من علاقتها بصديقتها العربية الخليجية ، حتى أنه مرة اتهمها بأنها امرأة سحاقية ، بالرغم من أنها تقيم معه ، إلا أن بعض أهم المخرجين السينمائيين والمسرحيين أشادوا بثقافتها العالية جداً قياساً إلى عشرات الممثلين والممثلات ، إلى جانب موهبتها الإستثنائية في التمثيل ، لكنهم لم ينكروا طبيعتها الانعزالية نوعاً ما ، وزهدها في الأضواء المبالغ فيها ، فهي تحترم ضرورات العمل حينما تطلب شركات الانتاج منها ، أو فريق العمل أن تقف أمام الكاميرات للترويج لأعمالها ، أو أن تحضر المؤتمرات الصحافية اللازمة ، بل جاء في التحقيق الصحفي ، أن السبب الرئيسي في انفصالها عن صديقها وإنهاء علاقتها به يعود لكونها اكتشفت أنه كان قد صورها عارية بجهاز هاتفه النقال دون أن تنتبه ، وأنها بالصدفة رأت ذلك في جهازه ، فتشاجرت معه ، ومسحت تلك الصور ، التي لم يكن هو قد نقلها إلى جهاز الحاسوب الذي يخصه ولم ينشرها أو يبعها لأحد بعد ، بينما هو رد على ذلك بأنه انتبه إلى أنها حينما تستقبل أو تودع صديقتها العربية فأنها تحضنها بطريقة تثير الإحساس بمثليتها الجنسية .. وفي نهاية التحقيق أسئلة وأجوبة قصيرة معها ، تتحدث فيها عن طفولتها ، وتأثير جدتها ووالدها المتحرر عليها ، وأنها تحب موسيقى بيتهوفن وموتسارت وجايكوفسكي كثيراً، وتقرأ كل شيء عن حضارات الشعوب الأخرى ، وتميل إلى روحانية الشرق ، وتعشق شكسبير ودوستويفسكي ، وأنها تتعلم من الناس البسطاء الكثير ، وأنها ضد العنصرية ، وضد النزعات الفاشية لدى بعض الشرائح الاجتماعية في المجتمعات الغربية ، وأنها تؤمن بالتسامح ، فليس أمامنا سوى التسامح كي نكون بشراً ويمكننا أن نعيش بسلام.

أعجبته أجوبتها العميقة والذكية ، والتي تكشف عن جوانب لم يكن يعرفها عنها ، فهي تحب دوستويفسكي مثله أيضا ، لكن أزعجه تصرف صديقها ، إذ وجد فيه نذالة وخسة ، كما أزعجه اتهامه لها بأنها سحاقية . فجأة توقف هو عند هذه النقطة ، حينما استذكر حديثها عن هذه المرأة العربية الخليجية التي اسمها حواء صحراوي ، والتي حدثته عنها ، وحدثتها عنه ، وروت له بعض جوانب حياتها المأساوية مع زوجها الثري ، أتكون سحاقية حقاً؟ لكن ذلك لا يبدو عليها بتاتاً، فهي رقيقة جداً، ورومانسية ، وتحت هذا الهدوء ثمة نار كامنة ، وشبق خفي ، تهذبه ثقافتها وشخصيتها المتميزة والفاتنة ، لكن كيف يتحدثون عن مشروع

مسلسل مرتفعات وذرينغ ، بينما هي لم تقرر الموافقة النهائية بعد ، كما أخبرته اليوم. . ؟
كان آدم التائه سعيداً بأن خطاه قادته إلى هذا المحل ليشتري هذه المجلة ، ومن المؤكد ستكون مفاجئة بالنسبة لها ، فتاريخ إصدار المجلة يعود إلى يوم أمس ، وقد كان كلاهما في القطار . ظل لدقائق يتأمل الصور التي تكشف تفاصيل جسدها ، أحس بإثارة جنسية ، ورغبة تتصاعد في أعماقه ، ودمٍ يسري في عروقه ليؤجج أعضاءه ، وراح يتخيلها عارية أمامه ، بل أحس برغبة جامحة في أن يكون عنيفاً معها ، في أن يضاجعها بعنف ، ويخترقها بعنف.
انتبه آدم التائه للوضع الذي هو فيه ، فهو يجلس في مكان مزدحم بالناس ، أحس بالارتباك أمام نفسه ، ومن تخيلاته الشبقية ومن حالة التهيج التي هو فيها . طوى المجلة كي يتخلص من تأثيرها عليه . نهض ببطء مغادراً المكان.
حين صار في وسط القاعة لمح فتاة تمسك بالكمان وتستعد للعزف عليه ، انتبه إلى أنها في عمر أكبر من أعمار الشباب الذين كثيرا ما يقومون بمثل هذه العروض في الأماكن العامة . كانت الفتاة ترتدي بنطلون جنس أزرق لا يتلاءم وحالة البرد ، كما تلبس جاكيتة من الجلد الأحمر . بدت في حدود الثلاثين من العمر . طويلة القامة ، ناهداً، وردية البشرة مع شعر أحمر . اقترب منها . جلس على مصطبة تتألف من كرسيين تم لصقها بالجدار الحديدي الذي يتوسطه من الجهة الأخرى درج كهربائي يصعد إلى الطابق الأعلى في المحطة.
أحس برغبة غامضة تدفعه لتأمل هذه المرأة الشابة وما تفعله من شد الأوتار ودوزنتها ، وما ستعزفه من قطع موسيقية بهذه الآلة التي يحبها كثيراً. نظرت هي إليه وابتسمت ابتسامة مجاملة وكأنها تستمد منه تشجيعاً لها . لم يكن أحد من رواد المحطة قد انتبه إليها بالكامل ، فالبعض يلقي عليها نظرة عابرة وهو يمشي ، إلا هو فقد جلس على المقعد قبالتها قبل أن تبدأ ، فأحست أنه مستمعها الوحيد الذي لا بد أن تعزف له . كانت المرأة قد فتحت صندوق الآلة الموسيقية أمامها ، بمثابة صندوق للتبرع لها ، إلا أنها لم تبدأ بعد . فجأة وقفت امرأة مع طفلتها البالغة تسع سنوات تقريبا ، بإنتظار أن تبدأ العزف.
بعد لحظات انطلقت موسيقى حزينة جداً من ذلك الكمان الذي كان للحظات قبل ذلك قطعة خشب صماء . كانت تعزف مقدمة الكمان

الأساسية لكونسرت شهير للموسيقار مندلسون . لم تمض لحظات قليلة حتى بدأ الناس يتجمعون حولها ، حتى أنهم حجبوها عن نظره ، لكنه كان يلاحظ أنها كانت تسعى ، بالرغم من انسجامها مع ما تعزف ، لرؤيته من بين الفجوات التي يتاح لها عند تحرك الآخرين من أمامها . أحس أن ثمة خيطا ًسريا ًربط بينهما ، وأن تفاهما ًغير مقصود وحد بينهما.
كان يعرف هذا الكونسيرت جيدا ً، وكان يحب أن يسمعه بأداء عازفة الكمان الألمانية آنا صوفي موتر ، وبالرغم من أن ثمة أوركسترا كاملة تصاحب الكمان ، إلا أنها كانت تعزف وكأنها تجسد الكونسرت كاملا ً. حين انتهت بعد دقائق من عزفها ، تعالى تصفيق المتجمعين ، وأخذ البعض يلقي بالقطع النقدية في صندوق الكمان . انحنت لهم بأدب تعبيرا ً على تقديرهم لعزفها أكثر مما لأنهم دفعوا ، فبعضهم لم يدفع ، وإنما استمع لها ثم ذهب ، وحينما صار أمامها فراغ ورأته جالسا ًعلى كرسيه ، انحنت له خصيصا ً، فابتسم ، ثم أحنى لها رأسه جوابا ً. بعد لحظات أخذت تعزف قطعة موسيقية حزينة جدا ، مست مشاعره وارتجف لها قلبه . حاول تذكر القطعة الموسيقية أول الأمر فلم يتسن ّ َله ذلك بسرعة ، لكنه تذكرها بعد لحظات ، إذ انها الحركة الأولى من كونسيرت الكمان لجايكوفسكي . تذكر أن هذا الكونسيرت لا يبدأ بالكمان ، وإنما بجمل موسيقية أوركسترالية ، ثم يدخل الكمان ليشكل اللحن الأساسي للكونسيرت ويقود الموسيقى في عوالمه الساحرة ، لكن هذا الكونسيرت فيه صنعة موسيقية ، لا يفهمها إلا العارفون بفن الموسيقى ، وليس عابرو السبيل في محطة للقطارات ، وبالرغم من ذلك استطاعت هذه المرأة الشابة أن تمسك بأحاسيس الناس ، حيث تجمهروا حولها مرة أخرى ، لا سيما بعد أن أخذت تؤدي التداخلات الموسيقية للآلات الأخرى في الكونسيرت بواسطة الكمان أيضا ، فبدت وكأنها أوركسترا كاملة.
أحس أن هذه المرأة الغريبة صارت قريبة جدا ً إلى نفسه ، وكأنها تعبر عن خلجاته وحزنه الشفيف ، من خلال جايكوفسكي . سمع صوت تصفيق حاد لها من قبل جهرة المستمعين لها ، وفجأة رأى أنها تحاول أن تتأكد من وجوده عبر الفجوات التي أمامها ، وحين رأته بدأت تنحني تحية للآخرين . تفرق بعض المتجمهرين من أمامها ، فبدأت تعزف لحنا رقيقا ً من باليه بحيرة البجع لجايكوفسكي أيضا ، فأحس وكأن هذه القطعة موجهة له بالتحديد ، وكأنها تحاول أن تشرح له معاناتها من خلال رقصة البجعة البيضاء . تجمع الناس حولها أكثر ، صار من الصعب أن يراها أو

تراه ، فحتى لو تحرك أحد المتجمهرين فأن أمامه سيجد سداً آخر من الناس ، لكنه ظل مستمتعاً بالموسيقى ، وفرحاً بوجود هذه العازفة الغامضة ، التي بدت وكأنها انبثقت من العدم لتقف في ذلك المكان.
كان آدم التائه في حالة غوص في أعماقه السحيقة ، وحين عاد إلى سطحها ، سمع التصفيق الحاد الذي كرم به المتجمهرون عزف هذه الفنانة الغريبة ، التي بدا وكأنها تعتاش من عزفها في الأماكن العامة . فجأة سمع كمانها منفعلاً وحزينا ، وثائرا في لحظات ما ، وهو يبث أنغامه في فضاء هذه المحطة . كانت تعزف مقاطع من السيمفونية الخامسة لجايكوفسكي أيضا . انتبه لعلاقة هذه الفنانة الخاصة بجايكوفسكي ، فقد أدت لحد الآن ثلاث قطع موسيقية لجايكوفسكي وحده . كان عزفها حيوياً، منفعلاً بكثافة ، مثل كثافة الدفق العاطفي لموسيقى جايكوفسكي . كانت القطعة الموسيقية طويلة نوعاً ما ، ومن الصعب عزفها بدون نوطة موسيقية ، إلا إذا كان العازف متخصصاً جداً بالموسيقى ، وبجايكوفسكي بالتحديد ، وهذا ما تأكد منه من خلال براعتها في العزف ، بحيث استعاد هو العزف السيمفوني في ذهنه كاملاً، فهو من المولعين بهذا الموسيقار الفذ.
حين انتهت ، هيمن على جمهرة الناس حولها صمت دام للحظات ، ثم انطلق تصفيق حاد لها . لقد نالت اعجاب هؤلاء العابرين الذين بدأوا يتفرقون شيئا فشيئا ، إلى أن بقيت وحيدة مع كمانها . نظرت إليه بتعاطف ومودة ، انتبه إلى أنها كانت متعبة من عزفها للقطعة الأخيرة ، وكأنه أيقظ فيها شحنات كبيرة من الألم . لملمت ما تبرع به الناس من نقود ، وضعتها في جيبها ، ثم وضعت الكمان وقوسه في الصندوق ، وأطبقت عليه غالقة إياه . ظلت لدقائق واقفة ، حائرة ، لا تعرف إلى أين تذهب . فجأة حملت معطفاً أسود كان مطوياً وموضوعاً خلفها ، لكنه لم ينتبه إليه ، فلبست المعطف ، واتجهت نحوه ، وسألته بالإنكليزية:
- هل تسمح؟
- طبعا.. تفضلي
- شكرا..
جلست إلى جانبه دون أن تقول شيئا آخر . مدت يدها إلى جيب معطفها وأخرجت كيساً صغيرا ، فتحته وأخرجت منه سندويشا بالجبن والخضار ، وقبل أن تبدأ بالأكل مدت يدها إليه دون كلام ، بإشارة لرغبتها مشاركته إذا كان جائعاً، فنظر إليها وعلى وجهه ابتسامة حزينة وقال لها:
- شكرا لك..

ابتسمت هي بدورها ابتسامة حزينة ، بينما كان وجهها يشي بأنها تفكر بأشياء أخرى . نظر إليها وهي تأكل . كان وجهها يوحي بأنها تعلم أنه ينظر إليها ، فلم ترفع نظرها ، ولم تلتفت نحوه ، لكنها سمعته يقول لها:

- هل تسمحين أن أحمل لك كوب قهوة معي..؟

نظرت إليه للحظات وكأنها تفكر في الإجابة ، ثم ابتسمت وهزت رأسها موافقة . نهض فرحا ً وتوجه للمقهى الذي يبيع المشروبات الساخنة والوجبات السريعة ، والذي كان على جهة اليمين منهما . ظلت هي تنظر إليه وهو يطلب كوبين من القهوة الساخنة .

فكرت بهوية هذا الشخص الذي كان مؤمنا بها ، واستمع لها منذ البداية وحتى النهاية دون أن يتزحزح عن مكانه ، فكرت أن ملامحه شرقية ، لكنه يبدو مثقفا ، فليس هناك من يتذوق الموسيقى الكلاسيكية وجايكوفسكي دون أن يكون على حد معين من الثقافة . هكذا كانت تفكر مع نفسها ، حينما عاد وهو يحمل القهوة في كأسين من الورق المقو ّى الذي ي ُعد للإستخدام مرة واحدة.

شكرته وهي تأخذ كأسها ، فقد كانت في حاجة لمثل هذه القهوة الساخنة . نظرت إليه مبتسمة ، وبعد لحظات من الصمت ، سألته:

- من أين أنت، إن سمحت لي بالسؤال؟
- من العراق
- أوه.. من بلاد ألف ليلة وليلة..من بلاد شهرزاد..

ابتسم آدم التائه بحزن ونظر إليها للحظات صامتا ً، ثم قال:

- نعم.. من بلاد ألف ليلة وليلة..وشهرزاد.. وعلي بابا والأربعين حرامي..

انتبهت لنبرة الحزن في صوته وسألته:

- هل سمعت القصيدة السيمفونية لريمسكي كورساكوف المسماة شهرزاد..؟
- بلى.. سمعتها مراراً..
- إنها مستوحاة من قصص ألف ليلة وليلة الساحرة..

نظر إليها متأملا وجهها الذي بدا أجمل عن قرب ، وقال لها:

- أتعرفين.. بلادنا لم تعد بلاد القصص الساحرة.. انما بلاد الكوابيس والرعب..؟
- سمعت القليل عن حروبكم مع البلدان المجاورة لكم..
- لكنك لم تسمعي عن الموت المجاني الذي نعيشه..
- هذا مؤسف حقا..

تأملته قليلا ً، ثم مدت يدها إليه بصداقة ، وقدمت نفسها بمرح:

- إيفا جايكوفيسكايا..
- آدم التائه..

انتبه هو عند لفظها للقبها ، فسألها:

- هل أنت من عائلة جايكوفسكي..؟

نظرت إليه بفخر وعيناها تتألقان بشعاع غريب ، وقالت:

- نعم.. كان بيوتر ايليتش عماً لجدي.. ونحن نحمل اللقب نفسه. جدي هو ابن أخيه مودوس..
- آها..
- أنت روسية إذن؟
- بلى..
- لهذا كنت تعزفين معظم أعمال جايكوفسكي..
- أنا أستطيع أن أعزف الكثير من أعماله..لقد درست الموسيقى في موسكو، في المعهد الذي يحمل اسمه.. لكني لم أستطع، بعد انهيار الإتحاد السوفيتي وخصخصة كل شيء، أن أجد عملاً ثابتاً في الفرقة السيمفونية، ولظروف خاصة بي رحلت من روسيا.. وها أنت كما تراني أعيش من عزفي في الأماكن العامة..

نظر إليها بتمعن ، وفكر بأنها ليست في عمر أول الشباب بحيث يمكنها تحمل هذا الحال من التنقل والتشرد بين البلدان ، فسألها بحذر:

- وهل تستطيعين العيش من خلال ذلك؟ أليس هذا صعباً؟

لم تجب ، بل ولم تلتفت إليه . كانت تحدق إلى نقطة غير موجودة ، وقد ترقرقت الدموع في عينيها ، لكنها لم تذرف دموعها ، وإنما التفت إليه فجأة سائلة:

- هل أنت من سكنة ميونخ؟
- لا..
- أنت مسافر إذن؟
- نعم..مسافر.. لكني سأسافر غداً..ربما.. لماذا؟
- هل أنت تسكن في فندق أو شقة ما..؟
- أسكن في فندق..

نظرت إليه متأملة وجهه ، وكأنها تريد أن تقول شيئا ، لكنها مترددة ، ثم حزمت أمرها ، وقالت:

- هل يمكنني أن أذهب معك إلى الفندق؟

استغرب من طلبها ، لم يصدق ما سمعه ، فأراد التأكد ، فسألها:

- هل قلت بأنك تريدين أن تأتي معي إلى الفندق؟
- نعم..
- لم أفهم؟
- قد أبدو لك غريبة الأطوار.. لا تفهمني بأني أعرض نفسي عليك..لكني أريد أن أغتسل.. أغتسل بشكل جيد.. أتحمم.. وأنام لساعة من الزمان.. ما لدي من نقود لا تكفي ربما لليلة في فندق..فإن كان ذلك ممكناً.. فس...
لم ينتظر شروحاتها الأخرى ، وإنما أجابها بتعاطف:
- يمكنك أن تأتي معي الآن.. لكن أنا لدي موعد في الخامسة عصرا.. كنت أود الذهاب إلى المطار الآن..لكن لا ضير، سأذهب غداً مباشرة..
نظرت إليه بعينين مليئتين بالشكر وبالطيبة . فنهض ، وهو يقول لها:
- الفندق ليس بعيداً عن المحطة.. يمكننا أن نمشي إليه..
نهضت معه ، ومشى أمامها فتبعته ثم صارا يمشيان معا . كان يفكر مع نفسه وهو يمشي بخطوات تميل إلى السرعة ، سأل نفسه إن كانت عاهرة ً، أم أنها امرأة تمنح نفسها لأي عابر سبيل ، فهي فنانة ، وامرأة جميلة . كانت هي تشعر بالحرج ، وتسأل نفسها إن كانت قد أخطأت بسؤاله ، فربما يتضح هو كبقية الرجال عامة ، والشرقيين خاصة ، بأن يريد النوم معها مقابل هذه الخدمة ، أو أنه فهم طلبها بأنها امرأة رخيصة ، وهو لا يعلم أنها تريد أن تغتسل من دورتها التي أحست خلالها بأنها وسخة ، لأنها لم تستطع أن تستحم منذ خمسة أيام ، لكن لا يبدو هو كذلك ، هكذا كانت تفكر مع نفسها وهي تمشي معه نحو فندق كنغ هوتيل سنتر.
حينما وصلا إلى الفندق ، صعدا مباشرة بالمصعد إلى الطابق الثاني ، ولم يكن أحد ما هناك في الممر . فتح باب الغرفة ودخل قبلها ، بينما وقفت هي للحظات مترددة في الدخول . استغرب هو لعدم دخولها ، وفهم مباشرة ترددها بسبب خوفها منه ، فابتسم لها قائلا بمودة وحنان:
- لا تخافي.. لن آكلك.. كوني مطمئنة من ذلك.. سوف تأخذين راحتك إلى ما تشائين لأني سأخرج بعد قليل.. أو اعتبريني كغيمةٍ في بنطلون.. كما يقول مايكوفسكي.
نظرت إليه بحزن ، وأحست بالذنب لأنها فكرت بشكل خاطىء للحظات عنه ، فهو رجل شهم وطيب ، فابتسمت بخجل ودخلت الغرفة.
لم يكن هناك الشيء الكثير للشرح ، إذ وبدون أي كلام نزعت معطفها ، ألقته على السرير ، ووضعت آلتها الموسيقية كذلك قرب التلفزيون ، ودخلت

غرفة الحمام وأغلقتها على نفسها من الداخل.
كان آدم التائه يتابع محاطات التلفزيون الألمانية حينما خرجت هي من الحمام بعد حوالي نصف ساعة تقريبا . نظر هو إلى ساعته التي كانت تشير إلى الواحدة والنصف بعد الظهر . وقفت عند باب الحمام بملابسها التي كانت فيها ، ونظرت إليه بعينين ملئيتين بالعرفان والمودة الصادقة ، وكان ثمة شعور بالأمان والثقة والارتياح يرتسم على وجهها الجميل الذي تألق بعد الحمام الساخن . أشار لها بيده أن تجلس على الكرسي الوحيد في الغرفة ، فابتسمت شاكرة له لطفه ، جالسة على الكرسي ، وهي تقول له:
- أنا أشكرك من كل قلبي على لطفك..فأنا لم استحم منذ خمسة أيام.. وقد كنت مريضة للأيام الأربعة الماضية، ولم أعمل إلا اليوم، لذا لم يكن بمقدوري استئجار غرفة في فندق..
كان آدم التائه بطبعه يكره التبريرات ، وخاصة التبريرات التي يقدمها الآخرون له ، فهو يحس بأن فيها إذلالا ً للآخر ، لذا ، قاطعها قائلا ً:
- لا حاجة لك بشرح أي شيء.. أنا لم أفعل شيئا استثنائيا.. المهم أنت تشعرين الآن بالراحة.. لأني شعرت أنك كنت عصبية وأنت تعزفين المقطوعة الموسيقية الأخيرة.. أعتقد كانت من السيمفونية الخامسة لتشايكوفسكي..أليس كذلك؟
- بالضبط.. يبدو أنك فنان موسيقي.. أليس كذلك؟
- لا.. أنا كاتب.. كنتُ أستاذا جامعياً، لكني حاليا بدون عمل..
- أوه.. هذا شرف عظيم لي بأن أجالس كاتباً مهماً..
- لا أعرف إن كنتُ مهماً أم لا، فهذه قضية لا تعنيني كثيرا.. المهم أن ما أكتبه هو المهم بالنسبة لقلقي الروحي وأسئلتي الملحة..
- هذا صحيح.. وهو قانون لكل إبداع.. المهم أن يكون الإبداع له علاقة بعالم المبدع وقلقه وأسئلته.. وما تبقى من تقبل لهذا الإبداع فقضية تالية، ليس لها من قيمة حقيقية، إلا باعتبارها مكافأة للمبدع.. وكثيرا ما لا تكون مجزية، بل موجعة... فالكثير من المبدعين لم يفهموا في زمانهم، أو فُسرت أعمالهم تفسيراً شيطانياً، أو أهملت، بينما تألقت هذه الأعمال في أزمان تالية، وهذه قسوة لا مثيل لها.
كان ينظر إليها متأملا ً حضورها الجسدي المهيب ، فهو لم ينتبه لها كل هذا الوقت ، لمح دقة تفاصيل وجهها ، وشعرها الذي بدا له في المحطة أحمر ، لكنه الآن يتهدل مبلولا ً، ذهبيا ً قاتما ً، وكأنها من نساء لوحات

القرن التاسع عشر.
نظرت إيفا جايكوفسكايا إليه ، أحست أنه يفكر في شيء آخر غير موضوع الحديث . انتبه هو إلى أنها انتبهت لشروده ، فقال لها:
- أتعرفين الليدي جين غراي؟
- لا.. من هذه؟
- أتعرفين الفنان بول دولاروش؟
- لا.. من هو.. وما علاقتهما بما نتحدث عنه؟
- إنك تشبهين الليدي جين غراي..
- جميل.. ومن هي هذه الليدي..؟
- إنها امرأة من القرون الوسطى، كانت ضحية للتعصب الطائفي في انكلترا.. نحن لا نعرف عنها الكثير، سوى لوحة رسمها بعد قرون الفنان بول دولاروش بعنوان إعدام الليدي جين غراي، وهي لوحة تصور أشهر عملية إعدام جرت في القرن السادس عشر.
- ولماذا أُعدمت؟
- هذه المرأة تولت عرش بريطانيا لبضعة أيام فقط، قبل أن يُزج بها في السجن وتُعدم.
- غريب.. ومن أعدمها إذن؟
- حسب ما مذكور في بعض الكتب التاريخية والفنية عنها، بأنها كانت قد نُصبت ملكة بناءً على وصيّة ابن عمّها الملك ادوارد السادس، لتصبح الملكة البروتستانتية التالية لانكلترا، لكنّ أخت ادوارد الكاثوليكية، ميري الأولى، عارضت ذلك، وتآمرت مع الكنيسة ضدها، ولم تلبث سوى أيامٍ معدودات لتعلن مطالبتها بالعرش. الليدي جين غراي تنازلت عن العرش فعلا بعد أن حكمت انكلترا لمدة تسعة أيّام فقط، إلا أن الملكة الجديدة ميري كانت تخاف من وجود الليدي جين غراي على قيد الحياة، فزجت بزوجها ووالده في السجن، ثم سارعت بإصدار أمرها بإعدام الليدي غراي التي كان عمرها في ذلك الوقت سبعة عشر عاما، بالإضافة إلى إعدام زوجها وذلك بقطع رأسيهما. وهكذا تمَ إعدامها....... بعد ثلاثمائة عام تقريباً، أتى فنان فرنسي مولع بالتاريخ وقصصه المرعبة، هو الفنان بول دولاروش، ليرسم لوحة عن لحظة إعدام الليدي جين غراي، طبعاً مستعينا بالوثائق التاريخية. واللوحة لو تنظرين إليها لوجدتها تصوّر اللحظات الأخيرة في حياة امرأة، سيدة فتية في غاية الجمال والرقة، تذهب إلى الموت وهي ترتدي ثوباً أبيض حاول دولاروش أن يجعله بمثابة كفناً لها. طبعاً هناك تفاصيل

كثيرة حول قصة حكم الليدي جين غراي، لكنها في كل الأحوال تؤكد تعطش البشر، رجالاً ونساءً، إلى السلطة، والسعي إليها عبر إراقة الدماء، الكثير من الدماء.

- قصة محزنة حقاً..

- المحزن في تاريخ الحماقة البشرية، والتعصب الأعمى، هو أن ملك أسبانيا آنذاك، فيليب الثاني، الكاثوليكي، اشترط، لإتمام زواجه، أن تقوم ملكة انكلترا بتصفية جميع البروتستانت في مملكتها. طبعاً البروتستانت أعتبروا الليدي جين غراي شهيدة.

كانت إيفا جايكوفسكايا تنظر إلى آدم التائه بعينين مليئتين بالإعجاب والفتنة ، ابتسمت وقالت له:

- أتدري.. أنني بالرغم من كوني خريجة من معهد فني شهير في الموسيقى، ودرست الفن وتاريخه، إلا أنه لم يكن لدي الوقت الكافي للمتابعة والقراءة خارج الإختصاص.. معظم عمري لو أعده بالسنين، قضيته في التدريب على الآلات الموسيقية، وبعد ذلك بالتدريب على القطع الموسيقية التي على فرقتنا تقديمها.. على أية حال.. وددت أن أقول لك أيضا، بإنك إنسان طيب!

ابتسم لها وقال بمشاكسة مرحة:

- لا.. لا أدري إن كنتُ كذلك..؟

- لقد كنت أراقب ملامحك وأنت تتحدث عن الليدي جين غراي، لقد كنت سارحاً هناك، وأعتقد أنك كنت، وكأنما تشهد لحظة إعدامها، كنت متعاطفاً ومليئاً بالشفقة والحنان، الذي انعكس في نبرة صوتك..

- ربما.. فأنا رأيت هذه اللوحة للفنان دولاروش في الكثير من الكتب وألبومات الرسم الجيدة، وقد أثرت بي حقاً، وقد تذكرتها الآن وأنا أنظر إليك، فهناك شبه كبير بينكما، بالرغم من أنها كانت مشدودة العينين بعصابة، لكن هيكلها، واستدارة وجهها، و أنفها وشفتيها، تكادان أن تكونا طبق الأصل.. كثيرا ما أفكر في مشاعر تلك الفتاة الجميلة البريئة في لحظات التي سبقت الإعدام، بل تلك اللحظات التي تم فيها شد عينيها بعصابة بيضاء قبل أن تحني رأسها على الدكة الخشبية، قبيل أن يقطع بلحظات..ما الذي كان يراود الليدي غراي في تلك اللحظة..؟

ابتسمت هي وعلقت:

- لكني لا أريد أن أُعدم.. ولا أريد أية سلطة.. أنا نفسي ضحية السلطة، لكنها سلطة من نوع آخر..

- كلنا بهذا الشكل أو ذاك ضحايا السلطات.. وأولها سلطات المجتمع الثلاث.. بعد ذلك تأتي سلطة الغريزة التي هي أشد وأقوى..
- نعم.. أنت محق.. سلطة الغريزة هي أشد وأقوى..
أحس بأن العلاقة بينهما صارت أشد وأكثر أمانا ً وثقة في أن يتحاورا .. فقال لها:
- لماذا أنت هكذا؟ أقصد أنك امرأة جميلة، مثقفة، فنانة، عازفة هائلة، بينما أنت تعزفين في المحطات والأماكن العامة، في البلاد الغريبة، بحثا عن لقمة العيش..؟ ما الذي يدفعك إلى هذا؟ لا أستطيع أن أتصور أنك مضطهدة سياسياً، لاسيما بعد انهيار الدولة السوفيتية، وحلّ الحزب الشيوعي، وتفكك أجهزة القمع عندكم..
نظرت إليه وكأنما تستحضر ماضيا ًحزينا ً، فقالت بنبرة حزينة هادئة:
- لا.. لستُ مضطهدة سياسياً.. وإنما أنا مضطهدة غريزياً..
- غريزياً؟
- نعم.. غريزياً، لماذا تتعجب.. أما كنت قبل قليل تتحدث عن سلطة الغريزة..؟ أنا التي أمامك أحدى ضحاياها..
- كيف؟
- ألديك وقت لتسمعني؟ ألم تقل بأن لديك موعداً في الساعة الخامسة.. الآن هي الثانية.. متى عليك أن تذهب إلى موعدك..؟
- الرابعة والنصف..
- إذن أمامك ساعتان ونصف.. أتريد أن أروي لك شيئا عن الإضطهاد الغريزي.. ثم أذهب بعدها..
- نعم..أمامي وقت كاف.. يمكنني أن أسمعك..
رحلة إيفا جايكوفسكايا الغامضة
- ربما أخبرتك أنني من أحفاد عائلة جايكوفسكي .. الموسيقى ، تأثرا ًبعمنا ، أو لنقل جدنا ، بيوتر ايليتش جايكوفسكي صارت من إلتزامات الأسرة على مدى عقود من الزمان ، فمن ليس موسيقيا ً، فهو متخصص فيها كتابة ً، أو في أضعف الأحوال من متذوقيها البارزين ، وهذا ينسحب على الجنسين في العائلة جايكوفسكي .. أنا لم أخرج عن هذه الدائرة ، فكنت أعزف منذ صغري ... دخلت مدرسة الباليه ، ثم عندما كبرت وقبل أن أدخل المعهد الموسيقي الذي أطلق عليه اسم جدنا الكبير ، كنت أعزف على معظم الآلات بتمكن . وقد دخلت المعهد من أجل الحصول على الشهادة وتوسيع مداركي وخبرتي الموسيقية .... كنت حينها في السابعة عشرة

من عمري ، وربما لن تصدق إذا ما قلت لك بأني حتى ذلك العمر لم يكن لدي أية تجربة جنسية ، وليست لدي خبرة ، سوى قبلة يتيمة من زميل لي في الثانوية ، كنت استلطفه ويستلطفني ، ومرة أوصلني إلى قرب البناية التي نسكنها ، وفي زاوية معتمة أردنا أن نتبادل القبل ، ولم يكن لدي مانع حينها فأنا أردت ذلك ، وأنا استلطفه حقاً ، وربما كان ينظر بقية الطلبة إلينا وكأننا نحب بعضنا ، وكنت أنا أسمع همس الصديقات عن علاقتنا ، وكنت مزهوة بذلك .. المهم .. حينما أراد أن يقبلني ، شممت رائحة فمه الكريهة .. لكنه أطبق لحظتها على شفتي .. فدفعته وأخذت أركض صاعدة السلم بسرعة هائلة ، ودخلت شقتنا ، وبدون أن ألقي التحية على أحد من عائلتي ، توجهت إلى غرفة الحمام ، وأغلقت الباب عليّ وبدأت بالتقيؤ .... بعدها لم أتحدث معه .. ولم يفهم المسكين سر إنقلابي عليه .. كانت خبرتي تتشكل من خلال أحاديث صديقاتي مع أصدقائهن .. بل واحدة منهن كانت تقيم علاقة مع أحد أساتذتها ، ولكونه كان يخاف من السلطات لكونها قاصراً ، فكانت تأخذ عضوه في فمها ، وأحيانا كان يأتيها من الخلف ، لكنها كانت تروي حكايته كثيرا بين الصديقات ، والصديقات كن يروين ذلك لأصدقائهن .. وهكذا استدعته اللجنة الحزبية في المدرسة ، واختفى بعدها . ظلت صديقته خائفة ، بل وحزينة لأنها سببت له بالتأكيد كارثة لا أحد يعرف ما هي ، لأننا لم نسمع عنه بعد ذلك قط .... لدي أخت أخرى أصغر مني ، لكنها كانت مثل النار .. لم تكن قد بلغت الخامسة عشرة ، حتى أخذت تحدثني عن علاقاتها مع أصدقائها .. أمي كانت معلمة موسيقى ، وأبي خبيرا في دار نشر (مير – العالم) للمطبوعات الموسيقية ، وفي الوقت نفسه مديراً للأرشيف الموسيقي التابع لمكتبة لينين الشهيرة .. عموماً ، لم يكن صعبا عليّ دخول المعهد ، بل ولم تكن الدراسة صعبة ، على الأقل بالنسبة لي ، لكن التمارين لوقت متأخر هي ما كان يتعبني .. بحيث كنت أبقى في المعهد لساعات طويلة بعد انتهاء الحصص النظرية لأتدرب على عزف بعض النوتات الجديدة المعقدة .... وفي المعهد تعرفت على صديق ، زميل لي ، الذي كان يهتم بي فعلاً ، وكنت أُحس بميل نحوه ، ولم أختبر نفسي إن كان ذلك الميل هو ميل جنسي أم لا ، لكني كنت أشعر بحضوره ، بما يشبه الإرتعاش في أسفل البطن . وكان يحاول تقبيلي لكن كنت أتجنب ذلك ، بالرغم من أن رائحته طيبة . هذا الصديق استطاع أن يتغلب على ترددي في هذا الأمر ، ولا أدري كيف جرى ذلك ، كان ذلك في رأس السنة ، حيث التقينا

مجموعة من الأصدقاء معا ً، وعند دخولنا السنة الجديدة ، شربنا كأس الشمبانيا وأخذنا نحضن بعضنا البعض ، وقد قام هو بتقبيلي من شفتي ، ووجدت الأمر مثيرا ، وفي تلك الليالي عرفت معنى القبل الحقيقية ، إلا أنه لم يكتف ، وأراد أن يتطور الأمر إلى ما هو أكثر من ذلك ، فمد يده بين فخذي ومسكني من هناك ، فنفرت كالمهرة ، لا لعدم رغبتي ، وإنما لخوفي من أن أنهار في أول تجربة ، إذ شعرت بأن ذلك المكان هو نقطة ضعفي ، ومن يمسكني من هناك ، يستطيع السيطرة علي .. ولم أشأ أن يسيطر علي أحد .. أكره السلطات كافة ، إلا سلطة العقل ، وسلطة الفن ، والموسيقى بالتحديد .... لا أريد أن أطيل عليك .. استمر الحال بيني وبين صديقي ، لكن لم يتطور الأمر إلى ما هو أكثر من القبل . وذات مرة عنده ، وطلب مني أن أخذ عضوه في فمي ، فصفعته وانصرفت . طبعا لم يقطع علاقته بي ، وانما إعتذر مني لتصرفه الأحمق ، لكنه مع مرور الأيام أخذ يتذمر ، لأنه يريدني ، لكني لا أمنحه ما تعرضه بقية الفتيات عليه ، وكن يعيرنه بأنه رجل ضعيف ، وأنه لا يستطيع أن يروضني ، لذا ، وكما يبدو ، قرر إخضاعي لسيطرته ، وكسر شكيمتي .. فقد كنا ذات يوم في المسبح ، وفي وقت متأخر ، دخل علي في القسم المخصص للنساء ، وأنا أتحمم تحت دوش الماء . كان هو عاريا ً بالكامل ، وأنا كنت عارية بالكامل ، فحاول أن يخترقني لكنني كنت أدافع عن نفسي ، إلا أنه صفعني بقوة ، فتراخيت قليلا ً، فاستطاع أن يدفع بعضوه بين فخذي ، مغتصبا ً إياي ، لكني لم أشعر بأنه اخترقني ، كما أني لم أر َ دما ينزف مني .. لكني استجمعت كل قواي ودفعته عني ، وأنا أصرخ ، فخاف وهرب إلى حمامات الرجال .. على أثر ذلك قطعت علاقتي به . وبقيت في حيرة من أمري ، فأنا لا أستطيع أن أشارك أحدا ً تفاصيل هذه التجربة ، فوالداي ، يعيش كل منهما في عالمه الخاص ، وهموم عمله ، لذا لم أجد سوى أستاذ مادة الهارموني ، وكان رجلا ً في منتصف الخمسين من عمره . كان هذا الأستاذ وسيما ، طيبا ً، وكنا نحبه ونحترمه ، وكان هو يخصني بعناية خاصة ، تحببا ً منه بجد العائلة العظيم جايكوفسكي .. كنت بعد الحادث أعيش حالة نفسية خانقة ، ولم أكن أركز في المحاضرات ، وذات مرة في محاضرة ذلك الأستاذ ، سألني فلم أستطع الجواب ، لأني بالرغم من وجودي في قاعة الدرس ، إلا أني لم أكن هناك .. فقال لي بأن علي الإنتباه أكثر ، وعند نهاية الدرس استدعاني إلى مكتبه . لم أكن قد دخلت مكتب أي من المدرسين ، لذا كنت أشعر بمهابة وأنا أدخل عليه في مكتبه .. فقام

مرحبا بي ، وطلب مني الجلوس على كرسي المحادثة القريب منه ، وأخذ يسألني عن أشياء مختلفة ، إلى أن هدأت ُ، فسألني ، إن كانت لدي مشكلة خاصة ، لأنه لاحظ منذ فترة بأني أفتقد التركيز في دروسي ، وهذا انطباع بقية المدرسين الذين انتبهوا لذلك أيضا ، وأنه يريد مساعدتي ، فلم أدر كيف هطلت الدموع من عيني .. نهض وأحاط كتفي بكفيه ، أحسست بالأمان معه ، فقلت أنا لدي مشكلة ومشكلة خاصة جدا ً، فسألني أن كنت أود الحديث عنها ، لكني وبدون إرادة مني قلت : أتريدني هنا أن أروي لك مشكلتي ، فالتقط ما قلته سائلا ً إن كان بإمكاني أن أتجنب الحديث عن الموضوع هنا ، فيمكن اختيار مكان آخر .. لم يكن قصدي ألا أتحدث في مكتبه ، لكنها هفوة بسيطة ، زلة لسان

أمسك هو بها ، فسألته من باب الفضول ، وأي مكان آخر يكون أفضل من المكتب ، فقال لي دون تردد : عندي ، في شقتي .. فوجئت . ولكنه تدارك الموضوع قائلا ً بأنه يخاف من القيل والقال ، يخاف علي وعلى سمعتي كطالبة ، وعلى سمعته كأستاذ أيضا ً، لذلك إذا التقى بي في مكان عام فربما ستحدث فضيحة ، وإذا لم أشأ أن أذهب إلى أي مكان فيمكنني الحديث في المكتب .. ولا أدري ما هو سر ذلك الفضول الذي دفعني تفضيل اللقاء به في شقته ، وأقسم لك أنني لم يدر في ذهني إقامة علاقة معه أبدا ً....(صمتت إيفا جايكوفسكايا قليلا ً، ثم واصلت)... وذهبت إلى شقته التي أعطاني عنوانها . كان ينتظرني هناك ، وكان الوقت عصرا ً، حيث غبت عن بقية المحاضرات التي كانت ضمن جدولي ذالك اليوم ... فتح قنينة من النبيذ الأحمر .. ترددت أول الأمر ، لكني كنت مرتبكة ، فقررت أن أشرب كي أتشجع على الكلام .. في بداية حديثي عن علاقتي بزميلي بدأت أتعثر في الكلام ، فصب لي كاسا ً كبيرة ، وطلب أن أشربها دفعة واحدة .. وفعلت .. وشرحت له الأمر كله .. لكن جو الشقة ، والاسترخاء اللذيذ الذي أخذت أشعر به ، ودفء حضوره الرجولي الجميل ، فتح مسامات جسدي ، وهيج أعصابي ، لاسيما وأنه جلس قربي ، فكنت أشم رائحة الرجل ، وحين مد يده ليداعب شعر رأسي ، أحسست بكل جسدي يرتعش ، وبدون مقدمات رفع رأسي إليه قليلا ً وأخذ يقبل شفتي بحرارة استهوتني ، ولا أدري أن كان قد عرف سري ونقطة ضعفي ، لأنه مد يده بين فخذي ، فتشبثت بيده وانا أرتجف ، فقام دون أي حوار ، بنزع كل ما كان يحفظني من الداخل ، واخترقني ، لكن برغبتي ، وبشهوتي أنا . حينها اكتشفت أن صديقي لم يكن إلا صبيا ً صغيرا ً، أمام رجولة

أستاذي ... وهكذا صرت عشيقته ، بل لقد عشقته بشكل جنوني ، وصرت أغار عليه من ظله ، صرت خادمته المخلصة .. كنت أتغيب عن دراستي لأحضر إلى شقته لتنظيفها ، كما كنت أطبخ له الطعام ، وأغسل له ملابسه وأقوم بكيها .. وبدون إرادة ووعي مني ، صرت أنقل إليه ما يدور بين الطلبة من أحاديث عنه ، وما تقوله الفتيات عنه ، ولم أكن أعرف أنه كان يستخدم كل معلوماتي عن الطلبة ، لاسيما الفتيات ، ليتقرب منهن . كنت غبية جدا ً... لا أدري .. استمرت علاقتي به ثلاث سنوات .. كنت سعيدة مثل طائر الكناري الذي لا يرى العالم سوى في القفص الذي هو فيه .. لكنني كنت في سوء فهم مستمر مع نفسي ، بينما كنت أعتقد بأني أعرف ذاتي جيدا ً، وأعرف ما أريد .. كنت مأخوذة به ، وفي الحقيقة كنت مأخوذة بالشهوة ، بالمتعة الجنسية وحدها ، وكانت الذروة الجنسية التي أصلها بالنسبة لي أقصى ما أتمناه من الحياة ...... كان يعرف مسامات جسدي جيدا ً، وكنت كالدمية القطنية بين أصابعة ، يعرف بأي أصبع يحركني ، كان يعرف كيف يضاجعني إذا كنت متعبة ، وكيف يضاجعني إذا كنت نشيطة ، وكيف يضاجعني إذا كنت مهمومة ، أو غاضبة ، وكنت مأسورة به ، فكل ما يفعله بي يثيرني ، ولم يترك زاوية في جسدي لم يتمتع بها أو يمتعني بها .... لكن الصدمة كانت حينما لمحته بالصدفة ، الصدفة التي لم تكن صدفة وإنما قدر محتوم ، لأني مررت من بارك الثقافة ، وهو بارك مشهور في موسكو ، وكنت ُ قد مررت على مكتبة للكتب الأجنبية ، اسمها دار التقدم ، لأشتري بعض الكتب بالإنكليزية ، إذ أن لغتي ّ الإنكليزية والفرنسية قويتان جدا ً لأني درستهما منذ الصغر .. وهناك رأيته يحتضن إحدى الطالبات ، وهو يمشي معها ، وكانت هي زميلة لي ، وكان يسألني عنها ، وكنت أتحدث له عنها بكل غباء ، طبعا ً كان وقع الموقف علي كالصاعقة .... ذلك اليوم لم أرجع لشقة أهلي وإنما انتظرته في شقته ، ولم يكن يتوقع ذلك ، فأنا كنت حريصة أن أكون في شقة عائلتي وفق مواقيت الجدول الذي تعرفه عائلتي جيدا ً.. لذا لم يتوقع أن أنتظره في الشقة ، فدخل ، وكنت مهيئة بأن أتشاجر معه ، لكني ما رأيته حتى أخذت أنتحب ، متأسفة على نفسي ، ناعتة إياه بالخيانة وقلة الوفاء ، وحينما بدأ ينكر ، صرت عصبية فذهبت إلى المطبخ ، وأخذت أهشم الصحون وأقلب الأواني ، ثم عدت إليه وبدأت أتهمه بالخيانة وبكلمات قوية ، فصفعني على وجهي ، لكن مع كل ضربة كنت أشعر بالنشوة ، وأخيرا ً أركعني على الصوفة واغتصبني ، بعنف ، وكانت

تلك المرة الوحيدة التي لم يهتم بوضعي ، إذ أنهى كل دفقه في داخلي ، ولم أبال ِ، لأني كنت في بداية انتهاء دورتي .. وبقيت معه ، لا لأني تناسيت ذلك ، أو صدقت تبريراته الساذجة ، وإنما لأني كنت عبدة لشهوتي ، كنت أحتاجه في داخلي ليل نهار ، هل أنا مريضة .. ؟ لا أعرف .... وخلال الأسابيع التي تلت ذلك اكتشفت بأني حامل .. وأجبرني على الإجهاض ، بينما تصورت أنا الغبية بأنه ربما سيتزوجني .. وخوفا ً من غضبه ، ولكي لا أفقده ذهبت إلى المستشفى وأجهضت حملي ، أجريت العملية في صباح مبكر جدا ً، وبقيت لساعات تحت تأثير المخدر ، وعصرا ً أخذت تأكسي إلى البيت ، ثم تمارضت ، حيث بقيت في سريري ليومين آخرين .... والغريب ، وأنا في تلك الحالة ، كنت أتأجج شهوة ورغبة فيه !!!..... وخلال سنوات علاقتي به ، حتى بعد أن أنهيت المعهد ، مررت بمشاكل الحمل والإجهاض لثلاث مرات ، بحيث عرفت ُ من الطبيبة بأنه سيكون من الصعب علي ّ مستقبلا ً أن أنجب أطفالا ً..... بعد ذلك عملت في الفرقة السيمفونية ، كعازفة .. ولم تنقطع علاقتي معه ، بالرغم من أنه لم يعد ذاك الفحل القوي .. لأن علامات العجز المبكر بدأت تظهر عليه ، وربما الكبر إذ اقترب من الستين .. وبالرغم من ذلك لم أشتك من هذا الوضع .. ليس لأني صرت باردة أو أقل ضراوة في إلتهام المتعة ، وإنما لأني كنت مطمئنة بأنه لن يستطيع أن يخونني أكثر ، فهو بالكاد يستطيع أن يثبت فحولته معي ، لكن في تلك الفترة بدأت انتبه لحالة غريبة .. إذ لاحظت بأن عضوه بدأ بالإنكماش .. كان عضوه حينما لايكون منتصبا ً صغيرا ً جدا ً كعضو طفل صغير ، لكنه حينما يتهيج ينتصب متينا وقويا وطويلا ً بما يكفي لإرضاء أية امرأة .. إلا أنه ، وبمرور السنين ، صار منكمشا ً، بحيث لا يمكن رؤيته إلا من خلال تلمسه ، فيبدأ بالنعوظ قليلا ً......... لا أعرف ماذا أقول لك ...... لقد اكتشفت ُ أشياء غريبة في أعماق نفسي .. ولا أدري هي موجودة عند بقية النساء أم لا .. ؟ بالرغم من أني خلال تجاربي وجدتها موجودة ، لكن الكثير من النساء يخفينها لأسباب أخلاقية ، أو اجتماعية ، أو نفسية ، فلا يعترفن بوجودها .... المهم .. اكتشفت أن أهم شيء في حياة المرأة وعلاقتها بالرجل هو عضوه ، ونشاط ذلك العضو ، وقدرته على القيام بواجباته ..... فحتى لو أحبت المرأة رجلا ً، وظلت مخلصة له برغم ضعف نشاطه وانكماش عضوه ، فأنها في أعماق نفسها تحس بالتعاسة ، وربما هي لا تعرف سبب تعاستها الذاتية ..... أنا شعرت ُ بالتعاسة .. واكتشفت أني عبدة لعضو الرجل الذي أحببته ، صحيح أني

بقيت على حبي له ، لكنه ظل مثل حب يقتات من الذكريات .... مصيبتي بدأت حينما انهار الإتحاد السوفيتي ، وبدأ الإنكماش والتقشف ، بل والإمتناع عن دفع المرتبات ، أو وضع ميزانيات للمسارح والفرق الموسيقية .. وبدأت مشاريع الخصصة حتى في المؤسسات الفنية .. المهم .. حتى معهد الموسيقى مر بأزمة خانقة ، فتوقفت الرواتب ، وصارت الدولة تعطي الأساتذة والموظفين التموين للعيش بدل الرواتب .. فصارت حياتنا صعبة جدا ً، وكنت أحاول جاهدة أن أساعده ، وصرت أقضي معظم وقتي معه ، مثل عجوزين هرمين .....(صمتت وكأنها تسترجع بعض ذكرياتها ، أو تختار ما تشاء منها ، وتمتنع عن الحديث عن أشياء أخرى ... ثم واصلت)…. ذات يوم كنت أعد لنا شوربة ، وكان هو غير موجود ، ففتقدت الملح ، ولم يكن أمامي لحظتها سوى أن أطرق باب الشقة المقابلة لنا ، والتي كانت تسكنها عائلة أستاذ آخر ، ففتح الباب ، وكان كما يبدو قد خرج من الحمام توا ً، فاعتذرت له ، وأخبرته عن حاجتي للملح ، لكنه أعتذر بدوره عن الوضع الذي هو فيه ، وطلب أن أدخل إلى المطبخ لأخذ الملح ، لأن زوجته وأطفاله قد سافروا إلى أهله في ضواحي موسكو ..... ترددت أول الأمر ، إلا أن رؤيتي له وهو عاري الصدر ، بالرغم من وضع المناشف على جذعيه الأعلى والأسفل ، جذبني بشكل لا إرادي ، فدخلت إلى المطبخ مفتشة عن الملح ، فوجدته مباشرة ، فأخذت شيئا منه ووضعته في ورقة طويتها ، وبينما كنت أريد الخروج ، وددت أن أشكره .... في تلك اللحظة ألقيت نظرة على الغرفة التي كانت مرآة خزانتها شبه مقابلة للباب ، فرأيته عاريا بالكامل .... وهو يلبس بجامته البيتية .... لا أستطيع أن أصف لك حالتي في تلك اللحظة ، هل تصدق أن ما أعجبني ، بل وأثارني جنسيا ، هي عجيزته .. كيف؟ لماذا؟ لا أعرف ، لكني أحسست بتهيجي .... ووجدت نفسي لا أريد الخروج ، بل أتحجج بالبقاء وفتح أي سبيل للحوار .. فشكرته بصوت عال ... فخرج سريعا ً وقال معتذرا بأنه آسف لغياب زوجته ، فهي التي تهتم بكل شيء يخص الطبخ والمطبخ .. فشكرته ثانية وقلت له بأني سأحمل له صحنا ًمن الشوربة التي أعدها ، فرحب بذلك لأنه كان جائعا ً.. رجعت بسرعة إلى الشقة ، وأنهيت عمل الشوربة ، وكنت أتمنى أن تنضج فورا ً، لأني كنت منجذبة للعودة إلى الشقة المقابلة .. وفعلا ً.. حملت صحن الشوربة ، ومضيت إليه ، ففتح لي الباب ودخلت .. وضعت صحن الشوربة على مائدة الطعام ، في المطبخ .. بينما اعتذر هو عن استقبالي بالبيجاما ، كنت أنا أحاول أن أرتب له

المطبخ قليلا ً.. فأعتذر عن الفوضى ، لأنه لا يعرف أيا ً من الأعمال المنزلية ، فطلبت منه بجرأة أن أقوم بمساعدته على ترتيب البيت ، فوافق شاكرا ً معتذرا ً إن كان هذا الأمر سيكون ثقيلا ً علي .. وأخيرا ً قمت بذلك ، وكنت أنحني متقصدة لأبين تقاسيم جسدي ، فسألني ان كنت راغبة بكأس من الفودكا .. والفودكا آه ٍ من الفودكا .... وافقت طبعا ً، وبعد كأسين صغيرين وجدت خدي ّ يلتهبان حرارة .. وهو قد إسترخى ، وصار ينظر إلي ّ بشهوة واضحة .. قمت أريد الخروج ، لأني كنت واثقة من نفسي ، بأني سأرتمي عليه إذا لم أنهض .. فقام ليوصلني .. وعندما التفت عند الباب لمصافحته مودعة ، فوجدت نفسي أحتضنه وأقبله ، لم يندهش هو كثيرا ، إذ مد يده إلى ما بين فخذي ، فدعوته إلى غرفة النوم ...... ولأول مرة أحس أني أغتصب ُ رجلا ً، لا .. لم يكن يهمني الرجل .. وإنما عضوه .. ولا أعرف عدد نوبات الذروة التي وصلت إليها خلال ذلك الوقت القصير ، فجأة انتبهت لنفسي .. هربت وأنا ألملم ثيابي .. بنطالي وقميصي .. لم أستطع وأنا أغادره سوى ارتداء سروالي الداخلي .. وحينما صرت في شقتي المقابلة .. أحسست بالسعادة ..، واكتشفت أني عبدة لشهوتي لا للرجل .... عبدة لشهوة لا أستطيع منها فكاكا ً...... وهكذا بدأت ألتهم الرجال .. تركت صديقي أستاذ الهارموني الذي لم يحمل الهارموني لحياتي ، بل خلخل حياتي ، التي كانت خارج الإيقاع دائما ً.......... وبالرغم من أن مظهري لا يدل على أني شهوانية ، بل ملامحي فيها بعض البراءة والرزانة ..، لكني لم أترك فرصة لي مع رجل لم أستغلها ..... أعرف الرجال جيدا ً..... وأستطيع أن أحدد كيف هو ، وما حجم عضوه ، وكيف سيكون معي ..... كنت أفكر مع نفسي وأسألها : هل أنا عاهرة .. ؟ لا أعتقد ..... لأني ، وطوال عمري ، لم أتقاض شيئا ً مقابل أي مغامرة جنسية لي ..... هل أنا متهتكة .. ؟ لا أعرف .. لأني هربت من وضعي إلى البلاد الغريبة عني ...... على ظن أن لحاجز اللغة تأثيرا ايجابيا .. بحيث لا يمكن أن أنجر ّ للمغامرات بسهولة .. ولكن بدون جدوى ، فالناس في أوربا يمكن أن يتفاهموا نوعا ً ما بالإنكليزية والفرنسية ، وأنا أتكلمهما بطلاقة .. كما الآن ...... لا أدري ...... هذا ما عنيته بإضطهاد الغريزة ..... طبعا ً قرأت الكثير من الكتب عن الغريزة والجنس وعالم المرأة ، والكبت ، وما شابه ذلك .. لكني وجدت أن هذا هو حال الناس ، النساء والرجال ، إلا أن الكثير منهم يستطيع السيطرة على هذه الغريزة ، لكنه يدفع ثمنها من تعاسته ، وفقدانه لملذات الحياة ، فيحيا بتعاسة وبؤس .... ربما يربح الإنسان المتعفف

الإرتياح النفسي والرضى الأخلاقي .. لكنه يفتقد الحياة السرية الغامضة .. يفقد الجوهر .. لكن هل جوهر الحياة في الذروة والمتعة الجنسية .. لا أعرف..

كان آدم التائه منذهلا ً من هذه الإعترافات ، ولم يشأ أن يقاطعها حينما كانت تتكلم ، لكن الأسئلة كانت تتراكم في داخله ، وحينما انتهت من حديثها ، اكتشف أنه لم تبق هناك أسئلة ، فقد كانت في غاية الوضوح والصراحة النادرة التي يمكن لإمرأة أن تتحدث بها ، لكن كان في أعماقه سؤال مشاكس ، خجل أن يطرحه ، إذ أراد أن يسألها عن تصورها له ، ولعضوه ، وهل راودتها الرغبة فيه ، لكن أحجم عن أن يسأل .. نظر لا إراديا لساعته .. كانت تشير إلى الرابعة والربع .. أوه .. لم يبق الكثير من الوقت .. انتبه إلى أنها كانت متعبة حقا ً، وهذا الحديث أتعبها أكثر .. صمت لحظة .. كانت تتوقع أن يسألها ، أو سيقوم بمضاجعتها ، لكنه لم يفعل ، إنما نظر إليها وهو يقف ، قائلا ً لها بمودة و ألفة:

- أنا ذاهب الآن.. ربما سأتأخر..لا أعرف.. يمكنك أخذ راحتك.. والنوم هنا على سريري..

نظرت إليه بمودة ، ومدت ذراعيها إليه ، فمسك بكفيها ، نهضت وقبلته على وجنته . وألقت بنفسها على السرير ، وهي تبتسم .. وسألته بدلال:

- هل ستحمل لي معك عشاء أو أي شيء نأكله حينما ترجع..؟

- بالتأكيد..

نظر إليها طويلا ً وهي مستلقية على السرير ، وود لو أنه بلا موعد .. لكنه فجأة فتح الباب وخرج ، غالقا ً الباب خلفه . فتح الباب ثانية وسألها:

- هل أطفئ الضوء؟

ابتسمت له وقالت:

- أكون شاكرة لو قمت بذلك..

أطفأ النور الكهربائي وأغلق الباب.

* * *

انتبهت حواء الزاهد لنفسها ، كان العرق قل بلل جبينها . مسحته بكفها ، ووضعت المخطوطة جانبا ً.. أخذت تفكر بهذا الكم من المعلومات التي اقتحم حياتها من خلال هذا الفصل .. سألت نفسها ، ما الذي يريده الكاتب آدم البغدادي من هذه الحكايات المتداخلة .. ؟ فهنا حديث عن الموسيقى ، والرسم ،.. مسكينة هذه الليدي غراي ، كم قساة هم أصحاب

السلطة ، فالمسكينة كانت في السابعة عشرة لا أكثر .. وهذه إيفا جايكوفسكايا .. كم هي صريحة .. انتبهت إلى التفاصيل التي تحدثت عنها إيفا جايكوفسكايا ، وأخذت تتصور العضو الذكري في مخيلتها .. تذكرت أنها لم تر عضو زوجها قط ، بينما تلمست عضو حبيبها آدم المحروم ، وأخذته بين يديها وفمها .. ابتسمت من ملاحظتها عن إنكماش عضو صديقها .. لكنها هذه إنسانة غريبة .. ربما هي محقة .. ؟ إنها شجاعة جداً .. لكن الآن ماذا سيفعل آدم التائه وهو بين امرأتين جميلتين .. ؟ ماذا سيحدث الليلة معه ومع إيفا ليسنج .. ؟ وهل هي سحاقية حقاً ؟ كم هو حقير صديقها الذي كان يصورها دون أن تدري .. آخ من الرجال ! هكذا كانت الأفكار تصطخب وتتداخل في مخيلتها.

كان الوقت متأخراً .. نهضت بهدوء .. توجهت إلى المطبخ ، أعدت قنينة حليب لابنها ، فبالرغم من أنها ترضعه من ثدييها ، إلا أنها في الليل تعد له قنينة من الحليب احتياطاً. حين عادت إلى الغرفة ونظرت للمهد ، وجدت رضيعها هابيل فاتحاً عينيه ، ينظر إلى السقف . ابتسمت مع نفسها ، ثم انحنت على المهد وأخذته بين ذراعيها ، وهي تشمه وتقبله.

المطاردة

في اليوم التالي لم تأخذ حواء الزاهد ابنها إلى المدرسة ، وحينما سألها الصغير لماذا لا تأخذه إليها ، قالت له بأن ذلك اليوم عطلة ، فنظر إليها دون أن يفهم شيئا ، لكنه فرح لأنه سيبقى معها ، وسيرسم طوال اليوم.

طوال النهار كانت حواء الزاهد قلقة ، وتسأل نفسها إن كان عليها الذهاب إلى المدرسة ، للقاء المدير قابيل الفهد ، كي تأخذ الرقم الجديد للهاتف منه ، لكنها كانت ترتعب حينما تتخيل لقاء ذلك القاتل في المدرسة مرة أخرى ، لذا ظلت ذلك اليوم كله في البيت ، بل لم تحاول حتى أن تفتح الباب المطل على الباب الخارجي.

أشغلت نفسها بغسيل كل ما كان متراكما من أشياء تستحق الغسل ، وقامت بتنظيف البيت ومسح الأثاث ، ومن ثم إخراج بعض الكتب العائدة لمكتبة والدها من صناديقها المحفوظة فيها ، لأنها لم تفتحها منذ انتقالها إلى هذا البيت الجديد ، فما لديها من كتب هي تلك التي اشتراها لها حبيبها القتيل آدم المحروم.

كانت تحاول الهرب من التفكير بموعدها ، والمدير ، والقاتل الذي قابلته ، ورسائل التهديد الغامضة ، إلى العمل البيتي والإنشغال بأي شيء ، ضروريا ً كان أم غير ضروري ، إذ قامت بغسل أرضية الدار من الداخل .. أرضية غرفة الإستقبال ، وأرضية المطبخ ، أرضية الحمام ، بل وحتى أرضية غرفة النوم . وكان ابنها آدم الملاك يرسم ، وهو جالس على سرير النوم العريض ، بينما يغط هابيل الرضيع في نومه البريء . كانت تعمل بحركة جسدية نشيطة ، غير أن ذهنها لم يكن حاضرا ً معها . كانت تهرب من التفكير في أحدهما لتجد نفسها تفكر في الآخر . أحست أنها تعبت من التفكير . أمامها وقت طويل إلى أن يحل المساء ، فقد تجاوزت الساعة منتصف النهار ، ولم يبق على دوام المدرسة إلا القليل.

في ذلك الوقت بالذات كان المدير قابيل الفهد ، قلقا ً جدا ً لعدم مجيئها ، لاسيما وأنه انتظرها خصيصا ً عند باب المدرسة ، بحجة أنه يستقبل التلاميذ كعادته اليومية ، إلا أنها لم تأت ، ولم ترسل ابنها إلى المدرسة . كان لا يستطيع الاستقرار في مكانه ، ولا يستطيع أن يسأل المستخدم ساعي المدرسة عنها ، كي لا يثير الشبهات حول نفسه وحولها ، لاسيما وأن هذا الشخص نفسه ، حينما جاء إليه صباح هذا اليوم حاملا ً كوب الشاي ، همس له بأن المحاسب آدم الأسير ، والموظفة المحجبة حواء آل حجر ،

يتآمران ضده ، ويدبران له مصيبة عند أسيادههم ، وحينما سأله عن مصدر معلوماته أخبره بأن الموظفة الأخرى في ذاتية الإدارة ، أخبرته خائفة ، قائلة له بأن المحاسب جاء غاضبا ً وجلس يوشوش هامسا ً للموظفة حواء آل حجر ، عن علاقة المدير بامرأة سيئة السمعة ، وأنه وجدهما في أوضاع غير سوية ، وأنه يسيء استخدام منصبه الوظيفي بإقامة علاقات مع أمهات أو أخوات التلاميذ ، وأحيانا لديه علاقات شاذة مع بعض الصبيان الصغار ، وطلبت مني أن أخبرك لكي تنتبه منهما.

صحيح أنه لم يهتم لما قاله المستخدم ساعي المدرسة ، إلا أن قلقه كان يتصاعد ، ليربط بين عدم مجيئها بلقائها مع المحاسب آدم الأسير ، وأدرك بما يشبه اليقين بأنها خافت ، لذلك لم تأت بابنها إلى المدرسة .. لكن كيف يمكنه مساعدتها .. ؟ لاسيما وأن أحس بأنها استلطفته ، كما أنها إنسانة مثقفة ، فقد حد ّث صديقه الصحفي آدم الشبيبي عنها ، فأبدى إعجابه بشجاعتها في أن تواجه المجتمع وحدها ، وأن تمتلك وعيا ً مدنيا ً متقدما ً، وأيده في ضرورة مساعدتها ، كما أنه مر على محل لبيع الموبايلات فاشترى لها رقما ً جديدا ً، وحينما طلبوا منه الأوراق الثبوتية قدم لهم أوراقه الخاصة به ، لكنها لم تأت .. حاول الاتصال بها مرارا ً، إلا أن هاتفها كان مقفلا ً، وهو يعرف ذلك ، لأنه هو أيضا قد نصحها بذلك ، لحين الحصول على رقم جديد . ما العمل إذا ً؟ كيف يمكنه الاتصال بها والوصول إليها؟ هل عليه استخراج عنوانها من ملف ابنها ، ويذهب إلي بيتها؟ نعم .. عليه أن يعرف عنوانها قبل كل شيء .. قام وفتح دولابا ً فيه ملفات الطلبة .. أخرج ملف أبنها آدم ، ودون عنوان الدار من شهادة تأييد السكن .. لكن كيف سيذهب إليها ، بينما هي رفضت ذلك أمس ، عندما قال لها بأنه سيحمل الرقم إليها في بيتها ، إذا ً، سينتظر للغد ، فإن لم تأت فسيذهب إلى بيتها.

انتهى الدوام الرسمي في المدرسة ، وذهب جميع التلاميذ والمعلمين إلى بيوتهم ، ولم يبق سواه والمستخدم ساعي المدرسة الذي ينام فيها ويعمل كحارس أيضا . حين غادر هو المدرسة قال له المستخدم ساعي البريد ، بأن عليه أن ينتبه ، فهؤلاء السياسيون الجدد ، الذين استلموا الحكم من الأميركان ، لا يعرفون الرحمة ، إنهم لا يعرفون غير الغدر والخيانة ، فمنهم من كان في أجهزة النظام السابق السرية ، ومارس القتل والتعذيب ضد المعارضين ، وصاروا اليوم يربون اللحى ويندبون الحسين في عاشوراء ، ومنهم من تربي في مخابرات الدول المجاورة ، وجاء لينفذ ما يتم تخطيطه لهذا

البلد هناك ، من قتل وتصفيات للمعارضين ولمن يفكر بطريقة لا تعجبهم ، لذلك فهو ينصحه كأب بأن ينتبه لنفسه ... ولا يعرف لماذا زرعت تنبيهات هذا الرجل الطيب الخوف في نفسه.
حين غادر قابيل الفهد المدرسة بسيارته القديمة ، التي اشتراها قبل سنة بسعر معقول ، انتبه إلى أن سيارة بيجو بيضاء كانت تقف على مسافة خمسين متر عن مدخل المدرسة ، وما أن تحرك بسيارته حتى تحركت خلفه . حاول أن يقنع نفسه بأن لا علاقة لتلك السيارة به ، وأنها خلفه من باب الصدفة لأنهما في كل الأحوال في الشارع العام ، ولكي يتأكد من أنها لا تتبعه أخذ يتباطأ بالسير ، وحاول التوقف عند محل لبيع الكباب ليأخذ طعامه معه ، فاصطف على الرصيف الجانبي داخلا ً من فتحة أحد أعمدة الإسمنت التي تحجب المحلات عن فضاء شارع فلسطين العام ، والتي وضعت خوفا ً من تفجيرات الانتحاريين والسيارات المفخخة ، فانتبه إلى أن تلك السيارة دخلت خلفه ، لكن لم يترجل منها أحد .
دخل هو إلى المطعم ، وطلب وجبة كاملة من الكباب ، وظل ينتظر بقلق ، وهو يراقب السيارة التي تتبعه بحذر . انتبه إلى أن السائق شاب في الثلاين من العمر ، مفتول العضلات ، وبجانبه رجل في حدود الخمسين من العمر ، ملتح ، وذو ملامح حادة ، ومتوحشة ، وفي المقعد الخلفي إثنان ، لم يميزهما ، لكنه اشتبه بالمحاسب الذي كان يحاول أن يخفض رأسه كي لا يراه أحد.
أخذ قابيل الفهد طعامه الذي وضع له في كيس من النايلون . فكر في الإتصال بصديقه ، فأخذ تليفونه واتصل بصديقه آدم الشبيبي ، فجاء صوت الآخر مرحبا ، أخبره بأنه مرتبك ، ويحس ، بل هو متأكد من أنه مطارد من قبل رجال لا يعرفهم ، لكنه يشك بواحد منهم ، فسأله صديقه الصحفي آدم الشبيبي بأن يحاول أن يضللهم ، ثم يأتي إليه ، في نادي نقابة الصيادلة ، فسأله قابيل إن كان الوقت مناسبا ً للذهاب إلى النادي في ذلك الوقت ، فجاء جواب صديقه ، بأنهما يمكن أنا يلتقيا في شقته ، وأنه سيتصل بصديقه معتذرا عن اللقاء .. فاستحسن قابيل الفهد الفكرة ، واتفقا بأنه سيوافيه في الشقة.
حين تحرك قابيل الفهد بسيارته خارجا من تلك الفسحة بين المحلات والسياج الإسمنتي عبر فجوة في الجدار مخصصة لخروج السيارات ، إتجه بالسيارة نحو شمال شارع فلسطين ، ثم التف يسارا ً، وأكمل استدارته راجعا في شارع فلسطين جنوبا ً، وخلال كل تلك الاستدارات كانت سيارة

البيجو البيضاء تتبعه ، و بعد أن إجتاز مقر اللجنة الأولمبية وقبل أن يعبر من تحت الجسر ، استدار يمينا ً. انتبه ، من خلال المرآة الداخلية ، إلى أن سيارة البيجو البيضاء ما زالت تتبعه . ما أنقذه من تلك المطاردة الغامضة ، هو وجود نقطة نفتيش عسكرية ، ووجود طابور طويل من السيارة يسير ببطء شديد قبله ، فخرج من نظام السير ودخل في فجوة بين السيارت ضمن طابور السيارات المتلاصقة.
حينما وصل إلى نقطة التفتيش العسكرية ، رأى عسكريين يحملون الأسلحة الرشاشة ، أحدهم كان يتحدث مع صاحبه ، وآخر كان يتصل هاتفيا وبيده جهازه النقال ، ثالث كان يحمل سلاحه ، لكنه كان مشدوها ً وكأنه يحلم بمكان آخر ، أما العسكري الذي كان يقوم بالتفتيش فكان ينظر إلى وجوه الركاب نظرة تمتزج فيها البلاهة ، والإتهام ، والخوف ، ثم يلقي على سائق السيارة أسئلة ساذجة ، لا تتناسب مع معنى وجوده في تلك النقطة ، لاسيما في تلك الظروف التي تمر بها المدينة : من أين أنت قادم؟ فأجاب : من شارع فلسطين ، وإلى أين أنت ذاهب؟ سأله العسكري . إلى الجادرية ، أجاب هو ، أمض على بركة الله ، قال له العسكري باسما ً. حين سمح له بالسير انطلق بسرعة فائقة ، بحيث لم يجد المطارودن أي أثر له بعد إجتيازهم نقطة التفتيش.
حين وصل إلى شقة صديقه آدم الشبيبي وجده بإنتظاره ، وقد أعد الشاي . تعانقا ، وتبادلا التحية ، وبعد أن وضع قابيل الفهد وجبة الكباب على الطاولة ، جاء آدم الشبيبي بما تبقى من مرق البطاطا والرز ، إلذي كان قد أعده قبل إتصال صديقه قابيل به . وخلال الأكل كانا يتحدثان عما جرى له مع المطاردين ، وأيضا ما رواه له المستخدم ساعي المدرسة بمؤامرة المحاسب آدم الأسير والموظفة المحجبة حواء آل الحجر ، وما يخبئونه له من مصائب . كان صديقه آدم الشبيبي لا يقاطعه إلا لتوضيح نقطة تحتاج لتوضيح أو إسهاب في توصيف موجز . وحينما انتهى قابيل الفهد من سرد التفاصيل ، نظر إليه صديقه آدم الشبيبي نظرة فاحصة وقال :
- أتدري ياصديقي بإنك قد تورطت في قضية خطيرة دون أن تعرف؟ فهؤلاء كما يبدو يعرفون السيدة حواء الزاهد، ولهم علاقة بذبح صديقها آدم المحروم، ولأن أحدهم قابلها في مكتبك، فيظنون بأن لك علاقة معها، أما تخميناتهم فتنصب في محورين كما أتصور، أولهما: إنهم يعتقدون بأن لك علاقة خاصة بها، وهذا سبب مهم بالنسبة لهم للقضاء عليك كما فعلوا مع صديقها آدم المحروم، أو أنهم يظنون بأنها تعرفت على المحاسب

آدم الأسير الذي هو أحد القتلة الأربعة الذين زاورها بعد أن اقترفوا الجريمة، وبالتالي فهم يتابعونك ليعرفوا تحركاتك، رواحك ومجيئك، فلربما يفكرون بأنها أخبرتك عن شخصية المحاسب القاتل، وأنك ستذهب إلى الجهات المختصة لتبلغ عنه.. هذا ما أعتقده..

- كل هذا الرعب يمارسونه معي أنا، وهم كما تقول يخمنون هذا الشيء أو ذاك، فماذا عنها هي، حواء الزاهد، ماذا سيفعلون بها، وكيف سيرعبونها؟

- ألم تقل إنهم أخذوا يرسلون إليها تهديدات عبر جهاز الهاتف؟

- نعم.. هم فعلوا ذلك.. لكنهم كما يبدو استطاعوا حقا بث الرعب في قلبها..لذا لم تأت اليوم بابنها إلى المدرسة.. لكن ربما حدث لها شيء..ربما آذوها..

- لا أعتقد ذلك..

- وكيف نعرف أنهم لم يفعلوا لها شيئا..؟

- لا أدري

- إذن لا بد أن اذهب إليها بنفسي إلى بيتها.. أولاً لأطمئن عليها، وثانياً: لأسلمها الرقم الجديد..

- لا أنصحك بذك..

ظل الصديقان يتبادلان الحديث عن الكيفية التي يتمكنان من خلالها أن يتأكدا من سلامة حواء الزاهد ، وقد اتفقا أن يكتب قابيل الفهد لها رسالة ويضعها مع الرقم الجديد ، ويذهب إلى دارها ، يطرق الباب ويرمي بالرسالة من فوق السياج ويمضي ، كي لا يسبب لها حرجا ً، وسيتصل بها بعد ساعة من رمي الرسالة ، لأنه سيكتب لها بأنه سيتصل بها ، كما اتفقا بأنها إذا لم تأخذ الرسالة أو تنتبه لها ، ولم تستلمها لأي سبب فأن آدم الشبيبي ، سيكلف إحدى الصديقات الصحافيات ، أن تذهب إليها ، وتلتقي بها ، وسيكون الأمر أكثر طبيعية من أية محاولة أخرى .

بعد أن شربا الشاي ، إنزوى قابيل الفهد ، وكتب لها رسالة رقيقة ، مهذبة ، لكنها دافئة ، مع شرح واف عن كيفية الاتصال بها . ومع تحول الشمس نحو المغيب ، وزحف الظلمة على أزقة بغداد ، طرق هو باب بيتها لعدة مرات . ورمى بالرسالة من على السياج . ومضى.

في تلك اللحظة ، حينما سمعت حواء الزاهد أول طرقة على الباب ، كانت في غرفة الإستقبال ، لذا قفزت مباشرة إلى قرب النافذة المطلة على جهة الشارع ، فرأت من تحت الفتحة الأرضية أثرا ً لقدمي رجل بحذاء جلدي

أسود . وبعد طرقات عدة وكأنها شيفرة ، رمى رسالة إليها عبر السياج . ارتعبت ، كانت على يقين بأن هذه الرسالة هي من رسائل الموت الطائفية التي كانت لا تحوي سوى طلقة أو كلمة مختصرة واحدة ، إرحل ، لكن هذه المنطقة شبه مغلقه طائفيا ، فمن هذه الناحية لا خطر عليها .. إذن من رمى بالرسالة .. ؟ وماذا يريد .. ؟ كانت قلقة ، خائفة جدا ً، ومترددة ، هل تخرج لتأخذ الرسالة ولتعرف ما فيها ، أو تهملها؟ وكان عدم حسمها لقرارها يشعرها بعجزها ، وضعف شخصيتها.

ظلت لفترة طويلة تنظر إلى ذلك الظرف الملقى بين الباب الخارجي وباب غرفة الإستقبال دون أن تجرؤ على فتح الباب وأخذه . كانت بين فترة وأخرى تنظر إليه من خلال النافذة مثلما تنظر المحكومة بالإعدام إلى جلادها ، أو إلى موتها القريب أو المؤجل . حتى حينما جثم الظلام على المدينة بأكملها ، وهيمن الليل على البلاد ، وأختفت الرسالة في الظلمة ، كانت تفتح عينيها محاولة رصد مكانها على الأرض . فجأة ، وكأن صوتا ً متمردا ً صرخ في داخلها بأن عليها مواجهة وضعها بشجاعة ، وعليها أن تعرف ما في الرسالة كي تستطيع أن تفهم ما يجري .. قامت وفتحت باب غرفة الإستقبال ، وركضت إلى الرسالة وحملتها ، ثم رجعت مسرعة إلى داخل الدار . انتبهت إلى ان تصرفها لم يكن شجاعة منها وإنما قمة اليأس التي تدفع بصاحبها أحيانا إلى يلقى بنفسه إلى الأمام .

أغلقت الباب خلفها بالمفتاح . أطفأت الضوء في غرفة الإستقبال وذهبت إلى غرفة النوم . كان ابنها آدم الملاك يلعب بدفاتره وأقلامه الملونة ، وابنها الرضيع نائم في مهده . جلست على السرير وأخذت تقلب الرسالة بين يديها . ظلت لحظات لا تتجرأ على فتحها . وأخيرا ً فتحتها . رأت فيها ورقة مطوية ، فتحت الورقة بهدوء ، فرأت في وسطها شريحة هاتف نقال . تدفق الدم في قلبها ، وإزداد نبضه ، وبشكل لا أرادي شهقت من المفاجأة ، إذ عرفت أنها من مدير المدرسة قابيل الفهد . فتحت الرسالة بعجلة كي تقرأها . كانت تلتهم الكلمات . إنها أول رسالة يكتبها لها أحد طوال حياتها . كانت الرسالة قصيرة جدا ً:

السيدة حواء الزاهد .. تحية .. لقد قلقت جدا ً لعدم مجيئك اليوم ، وانقطاع التلميذ النجيب آدم عن الدوام ، وما أقلقني أكثر هو ما جرى أمس عند رؤيتك لمحاسب المدرسة آدم الأسير ، فقد كنت مرعوبة ، وغادرت المدرسة وكأنك تهربين من شيطان رجيم . ولا أخفيك أنه كان مرعوبا من رؤيتك ، أيضا . لكنني تأكدت من أنه إنسان سيىء جدا ً،

ويكن لك كرها واضحا ًً، وحقدا ًً دفينا ًً. اشتريت لك رقما جديدا ًً، تجدين شريحته طي هذه الرسالة ، سأنتظر اتصالا ًً منك بعد ساعة ، وإذا لم تتصلي فهذا يعني أنك لم تستلمي الرسالة ، وللتأكد على سلامة وضعك ستمر بك في البيت زميلة لأحد أصدقائي الصحافيين واسمه آدم الشبيبي ، كي تطمئن عليك ، ولا تخافي منها فهي من طرفنا ، وللتأكد ستقول لك إنها من طرف الأستاذ آدم الشبيبي ، صديقي . رقم هاتفي لديك ، ويمكنك الإتصال بي في أي وقت . انتبهي لنفسك . أنت لست وحدك . أنا معك ، وأصدقائي معك . وكل الطيبين معك . المخلص قابيل.

من شدة الفرح قرأت الرسالة لأكثر من مرة ، ومع كل قراءة كانت تحس أنها ليست وحدها ، وأن هناك في هذه اللحظة أصدقاء يفكرون بها وبوضعها . هي لا تعرف آدم الشبيبي ولا الصحفية صديقته لكنها تعدهما الآن من أصدقائها ، أما قابيل الفهد ، فهو شخص مميز في حياتها الآن ، كما لامت نفسها كثيرا على ترددها في أخذ الرسالة في الوقت المناسب ، لكانت قد اتصلت بالأستاذ قابيل الفهد ، وتحدثت معه ، ولشرحت له الكثير عن سبب خوفها ومغادرتها للمدرسة بتلك الطريقة المثيرة . فجأة ، نهضت مسرعة إلى غرفة الإستقبال ، أخذت الجهاز وعادت إلى غرفة النوم ، جلست على السرير مرة أخرى ، قامت بسحب الشريحة القديمة ووضع شريحة الهاتف الجديدة ، ثم شغلت الهاتف . وبسرعة جاءتها رسائل من الشركة التي تقدم الخدمة.

فكر ّت ْ حواء الزاهد مع نفسها ، إن كان من اللائق الإتصال بالأستاذ قابيل الفهد الآن ، فقد تجاوزت الساعة الآن التاسعة ، لكنها فكرت أيضا ًً بأنه كان ينتظر الرد على رسالته بعد ساعة من رمي الرسالة وقد مضى على ذلك ثلاث ساعات تقريبا ًً، أي أنه يعتقد الآن بأن رسالته لم تصل ، وأنه أبلغ صديقه آدم الشبيبي عن ذلك وأن صديقتهم الصحافية ستزورها غدا ًً. ظلت مترددة ، ففي أعماقها اندفاع قوي جدا ًً لكي تتواصل مع قابيل الفهد ، ومن ناحية أخرى هي مترددة ، واخيرا ًً فكرت أنه من الأفضل أن ترسل له رسالة تؤكد له بأنها بسلام كي يطمئن ، وربما سيبادر هو بالإتصال . أعجبتها الفكرة جدا ًً، فأسرعت بكتابة رسالة مختصرة له تشكره على مساعدتها ، وتطمئنه على أنها بخير ، وأرسلتها.

بعدما ضغطت حواء الزاهد على زر الإرسال أحست بالخجل ، لأنها شعرت وكأنها تدعو الأستاذ قابيل الفهد صراحة للحديث معها ، كان بإمكانها أن لا تكتب له الآن وتنتظر إلى صباح الغد ، فماذا سيفكر هو برسالتها هذه؟

كانت تعيش أحاسيس متناقضة ، اختلط عليها الفرح والحياء ، والترقب .
كانت تنتظر بحرارة أن يرد عليها أو يتصل بها ، لكنه لم يفعل .
مر ّّ َأكثر من ربع ساعة طويلة عليها وهي تنتظر أي رد فعل منه على رسالتها . فجأة ، تألقت شاشة الجهاز بإضاءة خضراء ، وسمعت صوتا ً كإشارة لوصول رسالة ، وبيد مرتعشة ولهفة واضحة ضغطت زرا ً لقراءة الرسالة : مساء الخير . شكرا لرسالتك . هل أستطيع الاتصال بك الآن ؟ .
وبدون أن تنتظر ، كتبت ردا ً من كلمة واحدة : نعم . وأرسلتها . ثم نظمت جهازها على الوضع الصامت بحيث لا يزعج صغيرها النائم ، وبعد أقل من دقيقة رأت إضاءة شاشة الجهاز ، وعرفت ْانه يتصل بها ، فهي تعرف رقمه أساسا ً والذي ينتهي بتكرار الرقم سبعة لثلاث مرات متتالية .
أخذت الجهاز وغادرت غرفة النوم إلى غرفة الاستقبال ، وهناك في الظلمة أخذت تتحدث معه.
كان صوته دافئا ، وحنونا ً وهو يسأل عنها ، وعن ولديها ، ثم اعتذر مرة أخرى على إتصاله في هذا الوقت المتأخر ، وبين لها ما جرى له خلال ذلك اليوم وما سمعه من المستخدم ساعي المدرسة ، وسألها بصوت مليء بالرجاء أن تروي له كل ما تعرف عن المحاسب آدم الأسير . ترددت أول الأمر ، ثم أخبرته بأنه أحد قتلة آدم المحروم ، وهي لا تعرف اسمه ، والآن منه فقط عرفت أنه محاسب في مدرسة ، وعبرت له عن خوفها من حكاية المطاردة ، لأن هذا يعني بأنهم يبحثون عنها من خلاله ، لذا عليه الحذر ، لكنه ألح عليها بأنه يريد رؤيتها ، فأبت ذلك خوفا ً عليه ، واتفقا على أن يتواصلا خلال هذه الفترة من خلال التلفون ، وعبر الصحفية صديقة صديقه آدم الشبيبي . تمنى لها ليلة سعيدة ، واعدا ً إياها بأنه لن يتخلى عنها أبدا ً، وأنه من خلال صديقه آدم الشبيبي سيتابع هذه القضية ، وطلبت هي راجية أن ينتبه لنفسه ويكون على حذر من هؤلاء لأنهم لا يعرفون غير الغدر . أحس هو بالسعادة حينما استشف من خلال صوتها اهتمامها به وحرصها على سلامته ، فسأل نفسه ، هل هي تحبه؟.
خرج قابيل الفهد من الغرفة الثانية في شقة صديقه آدم الشبيبي إلى الصالون ، فرأى أن الصحافية حواء الكرخي موجودة أيضا ، فصافحها بحرارة ، وكان واضحا ً أن صديقه آدم الشبيبي قد روى لها كل التفاصيل التي يعرفها عن حواء الزاهد ، وما جرى لقابيل الفهد على أثر تواصله معها ، وشرح لها خطتهما بأن تقوم هي بزيارتها لبيتها ، لأنها امرأة ولا تثير أية شبهة بالدخول إلى بيتها والتواصل معها.

شرح قابيل الفهد لهما التفاصيل الجديدة التي عرفها من حواء الزاهد عن المحاسب آدم الأسير ، الذي اتضح بأن صديقتهم حواء الكرخي تعرفه ، إذ أخبرتهما بأنه أحد الكوادر الحزبية لتنظيم إسلامي شيعي ممول ومسلح من إيران ، ووعدتهم بأنها ستقوم بزيارتها غداً ، وستوافيهم بالأخبار أولا بأول ، ثم غادروا الشقة ، حيث كان على حواء الكرخي أن تأخذ تاكسياً يقلها لبيتها ، وأيضا ليمر آدم الشبيبي وقابيل الفهد على محل بيع أشرطة الفيديو الذي يبقى إلى العاشرة أو الحادية عشرة من الليل.

في ذلك الوقت نفسه ، كانت حواء الزاهد جالسة في العتمة بغرفة الإستقبال ، إذ أنها ظلت هناك ولم تغادرها بعد انتهاء المكالمة مع الأستاذ قابيل الفهد . كانت تشعر في داخلها بهواجس وتوقعات تخاف أن تحدث ، رغم رغبتها العميقة والغامضة بأن تحدث ، فقد أخذت تشعر بأن الأستاذ قابيل الفهد ، أخذ يزيح صورة ومكانة حبيبها آدم المحروم في أعماقها ، وأنها صارت تفكر فيه أكثر مما تفكر في حبيبها القتيل ، بل أخذت تطرح أسئلة عن طبيعة علاقتها بحبيبها آدم المحروم ، أيمكن أن تكون لعلاقة دامت أسبوعا أو اكثر بقليل ، أن تحكم كل حياتها ومستقبلها ، ووجودها في هذه الحياة؟ أليس الحي أبقى من الميت ، كما تقول الحكمة الشعبية؟ ما الذي فعله آدم المحروم لها غير أنه أيقظ جسدها من سباته العميق ، وأرشدها إلى طريق وعيها الذاتي؟ هل هذا يعني أن يكون ظله يطاردها ، في اليقظة والمنام ، وتعيش عمرها مسترجعة لحظات قليلة قضتها معه؟ من الآن يمكنه أن يقف معها ، هل حبيبها آدم المحروم أم الأستاذ قابيل الفهد ، الذي جند نفسه وأصدقاءه من أجل مساعدتها وحمايتها؟ كانت حواء الزاهد تسبح وسط أمواج أفكارها المتلاطمة ، في ظلمة تلك الغرفة ، ولم يخرجها من تلك اللجة سوى صوت بكاء وليدها هابيل ، أحست وكأنه إجابة حاسمة من طرف حبيبها ، بأنه موجود وباق في حياتها من خلال ابنه هابيل . وبالرغم من كل هذه المشاعر المتناقضة التي تتقاسمها ، إلا أنها كانت تشعر بسعادة خفية ، في أنها ما زالت امرأة مرغوبة ، ويسعى الآخرون إلى التقرب منها والسعي لنيل ودها ، والوقوف إلى جانبها ، لكن عليها أن تكون حذرة جداً ، فالخطر كما اتضح قريب جداً منها.

مرت أكثر من ساعة على حديثها مع الأستاذ قابيل الفهد ، حيث نام ابنها آدم الملاك ، وحممت ابنها الرضيع هابيل ، وغيرت قماطه ، وأرضعته حتى شبع ونام ، وها هي في غرفة نومها ، مستلقية على السرير ، تسترجع في ذاكرتها مشاهد من لقائها مع الأستاذ قابيل الفهد ، وما دار بينهما من

حوار في مكتبه ، فهو كما عرفت ًلا ينتمي إلى أي من الأحزاب الإسلامية ، كما أنه يفكر مثلها ، وهو يعرف الكاتب آدم البغدادي ، ومتحمس لنشر مخطوطاته ، لكنه لم يشر إلى أنه يعرف حبيبها آدم المحروم ، بالرغم من أنه كاتب صحفي أيضا؟ هل هو يعرفه ولم يقل ذلك ، أو هو يغار منه فلم يشر إليه؟ على أية حال ، لم يبد منه ما يشي إلى الغيرة أو التجاهل ، فربما هو لا يعرفه فعلا ً. لا .. لا بد أن يعرفه ، ألم يقل إن صديقه صحفي ، هذا يعني أنه من المتابعين للصحافة ، فكيف لم يعرفه؟ فكرت لحظتها بأنه لم تقم ضجة على مقتل حبيبها ، سوى خبر صغير في بعض الصحف ، مضمونه هو العثور على جثة صحفي كان يعمل لإحدى الصحف بالقطعة ، مذبوحا في شقته ، ولم يتطرق الخبر إلى أبعد من ذلك ، بل وأهمل مقتله ، ونسي تماما ً.

حينما أحست حواء الزاهد بأنها تعبت من الأسئلة التي تتناسل في داخلها ، دون أن تجد الأجوبة الشافية لها ، قررت اللجوء إلى القراءة ، ومواصلة حكاية آدم التائه الغريبة ، ففتحت المخطوطة وبدأت تقرأ من حيث انتهت.

خديعة المرآة

في الطريق إلى فندق صوفيتيل ميونخ كان آدم التائه يفكر بما روته له إيفا جايكوفسكايا ، لم يفكر سابقا ًبدور العضو وحجمه في تحديد طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة ، فجأة إستذكر زوجته حواء المؤمن وعلاقتها بجارهم آدم اللبناني ، أيكون السبب بأن الآخر لديه عضو أكبر من عضوه؟ لا . لا . ما هذه التخاريف يا آدم ؟ هكذا ردد مع نفسه . حينما ذهبت معه للمرة الأولى لم تكن تعرف شيئا ً عن هذا الأمر ، إن كان عضوه أكبر ، أم أنشط ، لأن دافعها كان بالأساس أن تذهب معه لتلبي رغبة دفينة في أعماقها ، حاجة جسدية أو روحية ، لكن ما هي؟ لم يكن هو سيئا ًمعها ، ولا هجرها جنسيا ً، " على العكس كنت أمارس معها بشكل مستمر ، ولم أقلل من أحترامي لها ، فما السبب الذي دفعها إلى خيانتي؟ " .

كان يحس بالغضب المكتوم يتصاعد في داخله ، لقد أحس بالعجز عن معرفة السر ، فبالرغم من أنه أستاذ جامعي ، وكاتب يعرف كيف يغور في أعماق النفس ، لكنه لم يستطع أن يعرف سر هذه المرأة ، التي عاش معها سنوات عديدة ، وتحمل معها سنوات الرحيل والمنفى . " المرأة لغز ، نعم المرأة لغز ". هكذا ردد مع نفسه ثانية.

انتبه إلى أنه قد وصل إلى مدخل الفندق ، فدلف إلى بهوه ، وفي نفسه شيء من الكآبة التي خلفها التفكير في خيانة زوجته له . كان البهو مزدحما ً بمسافرين يودون المغادرة وآخرين وصلوا قبل قليل وهم ينظمون أمر سكنهم مع مكتب الإستعلامات . التفت إلى اللوبي مفتشا ً عن إيفا ليسنج فلم يجد لها أثرا ً.

كانت ساعة الفندق تشير إلى الخامسة وخمس دقائق . ظل حائرا ً، أحس بالضيق من أن يذهب لحاله ويجلس بمفرده هناك ، لاسيما وأنه ليس من نزلاء الفندق . توجه ناحية المطعم الذي هو في الجهة الثانية المقابلة ، ليس بهدف أن يجدها هناك ، لأنه ليس وقتا ً للعشاء ، وإنما ليكسب بعض الوقت عسى أن تصل خلال هذه الدقائق التي سينفقها في الذهاب إلى المطعم والعودة ثانية إلى اللوبي .

ما أن هم بالتوجه إلى المطعم حتى رآها تلوح له من الطابق الأول ، حيث قاعات الإجتماعات ، وقاعة خدمات رجال الأعمال . كانت تشير إليه بأن يصعد إليها . أحس بأنه تخلص من ضيق كبير وجد نفسه فيه ، فتوجه إلى مكان المصاعد ، ودخل أول مصعد فتح أبوابه. ، حيث ضغط على زر الطابق الأول .

- أهلا آدم..هل أنت هنا منذ فترة طويلة؟
- لا..لقد وصلت قبل دقائق..
- طيب لنمضِ إلى جناحي..
- لنمضِ..

في المصعد قالت له متأسفة بأنها لم تستطع أن تتحرر من دعوة العشاء التي ستقام على شرفها ، حيث تمت دعوة بعض الوجوه التي ستمثل معها في المسلسل ، وتم الاتفاق النهائي معهم ، بينما هي ما زالت تصر على قراءة النص ، رغم موافقتها المبدئية على العمل.

أحس آدم التائه وكأنها خانته بقبول هذه الدعوة ، فلقد أكدت له صباحا ً بأنها سترفض دعوة العشاء ، لكنه من جانب آخر فتش عن تبرير لها في أعماق نفسه ، فربما لم تستطع أن ترفض هكذا دعوة ، حيث تم دعوة بقية طاقم العمل في المسلسل.

في الطابق الثالث ، حيث يقع جناح إيفا ليسنج ، أحس آدم التائه بكآبة غير مفهومة تخيم على روحه ، فلم يكن حزينا وكئيبا ً إلى هذه الدرجة ، فما الذي جرى؟ إن إستذكاره ، وهو في الطريق إلى الفندق ، لخيانة زوجته حواء المؤمن ، ليست بالجديد عليه ، كما أنه لم يكن كئيبا ً إلى هذه

الدرجة كما هو الآن ، حينما وصل الفندق ، فلماذا هو هكذا ، الأن إيفا ليسنج قبلت دعوة العشاء التي ستقام في الثامنة مساء ً؟ أليس أمامه ثلاث ساعات سيكون معها ، وفي جناحها ، وحدهما ، فماذا يريد أكثر من ذلك؟ كان آدم التائه يسير خلفها بنصف خطوة ، مما منحه فرصة أن يتأمل قوامها الجسدي ، وحركة ردفيها ومؤخرتها . قال لنفسه : عليك بالهدوء يا آدم ، إهدأ.

فتحت إيفا ليسنج الباب ودخلت أولا ً، ثم وقفت عند الباب لترحب به بحركة مليئة باللياقة والإحترام ، فدخل متهيبا ً قليلا ً. من أول نظرة غمره إعجاب شديد بسعة الجناح ، وحسن تصميمه ، وأثاثه ، وأناقته ، وأعجبته باقة الزهور التي تتوسط طاولة موجودة في وسط صالون الإستقبال . ألقى نظرة بانورامية سريعة على الجناح ، فلمح من جهة اليسارغرفة النوم ، ومن الجهة الأخرى ثمة مطبخ ، وبينهما غرفة الحمام الواسعة ، بينما يتوسط صالون الإستقبال ، ومن إحدى جهاته جهاز تلفزيون عريض الشاشة.

دعته إيفا ليسنج إلى الجلوس بينما ذهبت هي إلى غرفتها ، وطلبت منه أن يكون على سجيته . جلس آدم التائه ، وفتح أزرار معطفه ، ثم مد يده وأخرج المجلة التي فيها التحقيق الصحفي مع إيفا ليسنج . كانت المجلة مطوية وملفوفة ، فأخذ يضغط على غلافها من أجل أن تأخذ شكلها الأول . وبينما هو يقوم بذلك عادت هي وقد غيرت ملابسها ، حيث ارتدت ثوبا ً أسود ، عريضا ً، مهفهف الأطراف ، شفاف القماش ، ومفتوح الصدر . وما أن رأته حتى قالت مبتسمة:

- ما هذا الذي تفعله؟

وبدون أن يجيبها رفع المجلة ، من جهة الغلاف ، لترى بنفسها . فوجئت . ابتسمت بتساؤل ، وأخذت المجلة منه مباشرة لتتصفحها . فتحت الصفحات التي تتحدث عنها . رأت الصور ، أحست بالإرتباك حينما رأت صورها مع صديقها السابق . صمتت . غاصت في القراءة.

كان آدم التائه يتأمل وجهها ، يحاول قراءة الإنعكاسات النفسية التي ترتسم عليه . شغل نفسه بنزع المعطف الصوفي ، ووضعه جانبا على الصوفا . أحس بارتباكها الشديد وهي تقرأ ، وكلما استمرت في القراءة ، كان هو يرى كآبة تحاول أن تمنحها معاني الجدية والإهتمام ، ترتسم على وجهها الفاتن ، وثمة قلق ممزوج بالحزن يشع من عينيها.

حين انتهت من القراءة ، ظلت للحظات صامتة ، ثم رفعت رأسها إليه محاولة أن تبتسم ، لكن إرتباكها وكآبتها كانت أكبر من أن ترتسم

الابتسامة على وجهها ، وسألته:

- هل قرأت ما جاء في المجلة..؟
- نعم..قرأته..
- لقد أجروا معي هذا اللقاء منذ أكثر من شهر تقريباً، لكن الغريب أن ينشر الآن..! أنا لم أتحدث عن مسلسل (مرتفعات وذرينغ) فمن أين لهم هذه المعلومة... ربما أنها أختي، التي زودتهم بهذه المعلومة، لذا استغلوا سفري إلى هنا للتباحث حول المسلسل، فنشروا اللقاء ليحققوا السبق الصحفي. ما رأيك أنت؟
- في ماذا؟
- في الحوار..
- أحسستُ كثافة من الحزن في أعماقكِ..

نظرت إليه وكأنما تريد أن تتحق من جديته في قوله ذاك ، وقالت:

- أعتقد أن أحد الكتاب أو الفلاسفة قد قال: لكي يكون الإنسان سعيداً سعادة حقيقية لابد من أن يكون في قلبه شيء من الحزن الدفين العميق.
- أعتقد أنه ستندال الذي قال ذلك، ولدينا شاعر عربي اسمه نزار قباني، يقول في إحدى قصائد: إن الإنسان بلا حزن ذكرى إنسان.

أحنت رأسها تنظر إلى نقطة ما بعيدة .. فسألها:

- هل أنت سعيدة؟
- كنتُ أعتقد ذلك..
- والآن؟
- لا أعرف.. لم أعد واثقة من أي شيء.. إلا من وحشتي..
- هوني عليك.. أنت نجمة عالمية مشهورة.. وفي قمة مجدك وشبابك..

ابتسمت بحزن ، صمتت للحظات وهي شاردة الفكر ، رفعت رأسها إليه وعلى وجهها ابتسامة ماكرة ، وكأنها تشير إلى وجود أشياء أخرى ربما يتعمد ألا يذكرها ، فسألته:

- ألم تلاحظ شيئاً آخر..؟

انتبه آدم التائه إلى أنها تريد ان تجره للحديث ، ربما عن علاقتها بصديقها ، وما مكتوب من أقاويله عنها ، واتهامه لها بممارسة السحاق والتشكيك بعلاقتها بصديقتها العربية ، فأراد أن يتجاوز هذا الأمر ، فقال لها:

- أتدرين يا إيفا.. أنت إنسانة موهوبة حقاً. تستطيعين التعبير عن جوهر الأشياء بشكل واضح ومكثف وبهي.. أنت لست مثل هؤلاء المتصنعين البلهاء

الذين يلبسون دائماً أقنعة لوجوه جادة، ومتزمتة، أنت لا تنافقين.
- شكرا لك.. أنت تدفعني للثقة بنفسي بشكل أفضل..
فسألها وفي نبرة صوته تساؤل قلق:
- ألا تثقين بنفسك..؟
- بلى.. أثق بها.. لكن أحياناً أمر بلحظات أريد فيها أن أفرض الصمت على عقلي وقلبي، ليس لأني أخاف من سوء فهم الآخرين لما أقوله، وإنما أخاف من أن يكون ما أقوله ليس إلا زفرة من زفرات القلب، وكآبة عقلية أمر فيها لحظة القول.
- ولماذا تخافين من الكآبة..؟ الكآبة من علامات العظمة.. ولا أقصد الكآبة المتأتية من الفقدان، وإنما الكآبة التي تنبثق عن الوفرة.. وليس الفقدان..
نظرت إليه وعلى وجهها ملامح من لم تفهم القصد ، فسألته:
- لم أفهم فكرتك بالضبط..؟ هل لك أن توضحها لي أكثر..؟
- أقصد الكآبة التي تولد عن الفكر والتأمل.. كآبة بوذا الذي كان يتأمل ما لديه من متع ومال وجاه وسلطة..لكنه آثر العزلة..لأنها تلك الوفرة لن تنقذه من الموت، ولا تدفع عنه الهرم والشيخوخة والعجز.. ولا الألم، ولا المرض.. كآبة الوجود إذا صح التعبير..
إسترخت ملامحها ، وقالت وهي تهرب بنظراتها إلى الجدران والسقف ، ثم عادت إليه:
- ربما أنت محق.. فأحيانا..حينما أرجع لبيتي ليلاً..وأكون وحدي، بعيداً عن الأضواء، وحفاوة اللقاءات الفنية، وإعجاب الجمهور..حينما أكون وحدي..وحدي فقط في بيتي.. أفكر في المدينة النائمة، أو الساهرة، لا فرق.. أحس بأنه ليس هناك أي معنى للشهرة.. والمال.. والمبالغات الصحفية والفنية.. أحس بأنني إنسانة ضعيفة..معزولة، ووحيدة.. وحيدة في عراء هذا الوجود.. لكن ما أن أصحو صباحاً، وأرى الشمس.. والحركة.. حتى أحس بإقبالٍ نهم على الحياة.. أفكر أحيانا بأن تلك الأفكار الكئيبة والموحشة التي تنتابني ليلاً، ربما هو نتاج العزلة.. وليس حقيقة للوجود الإنساني.. لذا أهرب أحيانا من العزلة.. لكن أحيانا لا أعرف إلى أين..؟ فأغوص في العمل.. وفي اللجوء إلى الأصدقاء..
كانت مشاعر آدم التائه الرقيقة تجاهها تتدفق مع تدفق الحديث . ود حينما انتهت من جملتها الأخيرة لو قام وضمها إلى صدره ، وغمرها بحنانه ، إلا أنه وجد نفسه مكبلا ً، مشاعره تريد ذلك ، لكنه يحس بالعجز ، يحس وكأن جسده لا يطاوعه للقيام بهذه الحركة ، لم يستطع سوى أن

يقول لها:
- أنت تطرحين أفكاراً في غاية الدقة.. هل تعلمين أنك ربما من خلال تجربتك الحياتية الشخصية تنفذين إلى جوهر مفهوم الحب الذي طرحه بعض المفكرين؟
- الحب؟
- نعم الحب.. بإعتباره هروباً من العزلة..
نظرت إليه بمودة ، وقالت له متسائلة:
- أتقوم بتحليل شخصيتي..؟
- لا أبداً.. لم يكن قصدي كذلك..
نظرت إليه بمودة ، قافزة ً إلى موضوع آخر ، قائلة:
- أتدري أن كوني ممثلة هو نعمة ونقمة معاً؟
- كيف؟!
- أن تكون ممثلاً، يعني أنك تفقد أن تكون ذاتك أنت..وتفتقر لأن تعيش جوهر شخصيتك، لأنك منذ بداية قراءتك للنص، ولدورك، ومن ثم التدريبات، وفترات العروض..كل هذا يبعدك عن نفسك، وإنما تكون غيرك.. وهذا الأمر، في حالة الكآبة الوجودية هو نعمة.. لأنك تهرب من نفسك إلى الشخصيات التي تمثلها.. لكن من جانب آخر هو نقمة، لأنك لا تعيش حياتك.. وإنما حيوات آخرين.. شخصيات أخرى..بل إنك لكثر ما تؤدي من أدوار، وتحفظ من حوارات لتلك الشخصيات، تعيش حالات تلبس، بحيث تتكلم أحياناً جملاً، وكأنك تستلها من نصوص المسرحيات..
نظر إليها آدم التائه متأملا ً. لم يرد على ما قالته ، لأنه أحس بأن اللقاء أخذ طابعا ً جديا ً، وهو يريد أن يكون قريبا منها ، وأن ينام معها ، إنه يتأجج رغبة فيها ، لاسيما وهو يعيش أحلام اليقظة معها منذ أن رأى صورها في المجلة ، بالأخص تلك الصورة التي فيها كشف لبعض تفاصيل جسدها ، والتي أججت شهوته ، لذا فكر أن يدير موضوع الحديث ، لكنه لم يجد المدخل الصحيح لتغيير الحوار ، وظل مع نفسه يفكر . إمتد الصمت بينهما للحظات ، وبدا وكأنها أيضا أرادت أن تغير من اتجاه الحديث ، فالتفتت إليه ، وسألته:
- هذا الحوار سيحرجني مع الألمان..
- كيف؟
- أنا لحد الآن لم أعط موافقتي النهائية، فإذا ناقشتهم وطلبت بعض التغييرات، ورفضوا فسيحرجهم هذا الأمر، مثلما سيحرجني. عموماً.. ألم يثرك

ما تناوله التحقيق عن اتهامي بالمثلية الجنسية..؟
أحس آدم التائه بأن عليه أن يكون حذرا ً في الإجابة ، فسأل بطريقة مفاجئة:
- أيوجد لديك نبيذ؟
- أوه.. أنا آسفة جداً..لقد أخذنا الحديث عما منشور في المجلة.. طبعاً يوجد..
قامت مسرعة ودخلت المطبخ ثم عادت إلى الصالة وهي تحمل قنينة نبيذ وكأسين فارغيتين ، ثم رجعت ثانية إلى المطبخ ، تأخرت قليلا ً، لكنها عادت بصينية فيها الزيتون ، والجبن ، وشرائح لحم رقيقة جدا ً، رقائق البطاطا ، ومفتاح لقناني النبيذ ، فسألها إن كانت تحتاج إلى أية مساعدة ، فابتسمت له قائلة بمرح:
- أنت ضيفي.. وشخصياً أحب أن أقوم بواجب الضيافة بنفسي..
- وددت المساعدة لا غير..
- شكرا جزيلاً..
وبينما كانت تذهب تمضي بين الصالة والمطبخ ، قام هو بفتح القنينة ، وصب النبيذ في كأسيهما . كان الوقت يمضي سريعا ، التفت آدم التائه إلى ساعة الصالون الجدارية ، فرأى أن نصف ساعة قد مرت دون أن يحقق شيئا يذكر ، فقرر أن يبادر هو باقتحام عالمها ، وحين عادت ، وجلست قبالته ، قال لها:
- أتدرين ما الذي جرى معي في هذا الفندق الذي أسكنه؟
- لم تحدثني عن ذلك بعد..
- قبل كل شيء لنشرب نخب نجاح مباحثاتك مع الألمان.. ثم أروي لك ما جرى.
رفعا كأسيهما وشربا ، لكنه كان ينظر إليها وهي تخفض نظرها وتشرب . أحس أنها تفكر بأشياء أخرى ، فكر مع نفسه بأن عليه ألا يفقدها ، من المؤكد أنها تفكر بصديقها الذي انفصلت عنه ، يجب أن يغير الجو ، فليدخلها في عالمه ، قبل فوات الأوان ، فسألها:
- هل أنت مستعدة لسماع قصة غريبة لا تكاد تصدق..؟
نظرت إليه بمرح مفاجىء اجتاحها ، وكأنها كانت تريد أيضا أن تهرب من أفكارها وأحزانها الخاصة ، فقالت:
- مستعدة..
روى لها آدم التائه ما جرى معه في الفندق مع المرأة العراقية ، وموظف

خدمة الغرف ، وعن لقائه مرة أخرى بالمرأة ، وعن مطعم الفندق الغريب ، وعن القطة السوداء التي رآها على سريره وسط الغرفة ، وعن الجو الغامض الذي يسود الفندق وكأنه فندق مهجور ، لكنه لم يتطرق إلى قصة إيفا جايكوفسكايا ، لأنه بذلك ربما يغامر بفرصة الحصول عليها ، فكيف هو يريدها بينما تنام امرأة أخرى في سريره ، لذا فكر حينها بأن لا ينبس بأية كلمة حولها ، أما هي فقد أحست بالخوف قليلا ً، ثم ضحكت وقالت:

- أتدري.. إن ما جرى معك يذكرني ببعض تفاصيل فيلم (البريق) لستانلي كوبرك، والذي يحكي أيضا عن كاتب يذهب للعمل كحارس لفندق بعيد، فيذهب مع ابنه وزوجته إلى هناك، وهناك يرى كوابيس، واستذكارات.. ويصاب بمس، فيحاول قتل زوجته..إنه فيلم شهير مأخوذ عن رواية لكاتب شهير هو ستيفن كينغ.. ألم تشاهده..؟

انتبه آدم التائه فجأة إلى ما ذكرته ، استذكر الفيلم ، لقد شاهده مرتين ، نعم .. نعم .. ثمة أحداث متشابهة حقا ً.. لكن هو لا تتلبسه أي من تلك الأرواح التي يضج بها الفندق . فكر مع نفسه بأنه ربما تأثر بالفيلم وعالمه بحيث تغلغل إلى لا وعيه دون أن ينتبه ، فقال :

- نعم..شاهدت الفيلم..وشخصيا أحب المخرج ستانلي كوبريك جداً.. خصوصاً فيلمه أوديسا الفضاء.. لكن هل تعتقدين بأني أتخيل ما جرى، وأن ما رويته لك هي فنتازيا وخيالات كاتب..؟

- لا.. لا أقصد ذلك بالتأكيد.. وإنما أحسست أن فضاء الأحداث متقارب..

- هذا صحيح..أقرّ بذلك..لكن ما رويته لك هو ما جرى معي فعلاً..

- أصدقك.. تحدث معنا في الحياة الواقعية أشياء لا يمكن فهمها من خلال المنطق العقلي، والقوانين التي تحكم حياتنا..

- هذا يعني أنك لا تجدين غرابة في ما مررت به من أحداث..؟ وما رأيته ليس وهما..؟

- لا أدري أن كان وهما أم لا.. أنا لا أعتقد بوجود الأوهام، وإنما أعتقد بوجود عالم موازٍ..أشبه بالوهم..عالم غير مادي، ضباب، روحاني، لكنه متجسد صورياً، ويتحرك بشكل واقعي لكنه لا يخضع لشروط واقعنا..

- هل تقصدين عالم أرواح؟

- لا أعرف إن كان يمكن أن نسميه عالم أرواح.. لكنه عالم موازٍ لعالمنا..ربما نجد أنفسنا فيه أيضا، ومن النادر أن يتداخل هذان العالمان.. لكن في حالتك حدث مثل هذا التداخل..

- وهل يمكننا نحن أن ندخل عالمهم..؟
- لا أعرف.. ربما..
- أتدرين.. أنت إنسانة غريبة يا إيفا..؟
- كيف..؟

نظرت إليه بدهشة وتساؤل ، مبتسمة ، فقال لها بحرارة ، محاولا ً التقرب منها ، صابا ًالنبيذ في كأسيهما مرة أخرى :

- من يراك لأول مرة، يرى أمامه أنثى شهية، ويدرك فوراً أنها امرأة ذات شخصية، وأنها امرأة متشبثة بالحياة، مرتوية بالمتعة، هل تفهمين ما أقصده؟ امرأة لديها كم من العشاق، امرأة شبقة، لا ترتوي، امرأة نهمة إلى السلطة، السلطة على الرجال، وعالم الأضواء، والشهرة..
- وماذا بعد؟

سألت مبتسمة بحزن.

- أرجو أن لا أكون قد جرحتك بكلامي هذا..
- لا أبداً يا آدم..لأنك بالضبط عبرت عن وجهة نظر الآخرين عني.. إنك تردد بعض كلمات صديقي الذي انفصلت عنه، فحينما تشاجرنا ردد معظم ما قلته عني الآن..
- هذا يعني أنه لم يفهمك على حقيقتك..
- هذا صحيح..وهذا ما آلمني حقا ودمر أعصابي.. لكن، أنت، كيف تراني..؟

نظر إليها بمودة ، وحنان كبير يملأ قلبه نحوها ، وقال لنشرب نخبك أيتها الرائعة . نظرت إليه بمودة ، وعيناها تأتلقان بشعاع غريب ، وقالت:

- أشكرك..

شربا ما في كأسيهما ، وتناولا شيئا من الجبن والزيتون ، وقالت له وكأنها تحثه على الكلام:

- لم أسمع رأيك بعد.. أرجو ألا يكون مثل الآخرين..

أحس آدم التائه بأنها فرصته المواتية التي سيتحدث فيها عن مشاعره تجاهها ، فقال:

- أبداً.. أنا أرى أنك امرأة حزينة، وأنك، في أعماقك، تعيشين وحشة شاسعة.. ربما أنت فعلاً امرأة تحب المتعة، لكنك خجولة...

نظرت إليه باستغراب ، وسألت قائلة بخوف واضح في أنه يكشف عن أعماقها بكل هذا الوضوح والبساطة:

- خجولة.. كيف أنا خجولة..لو كنت خجولة لما أصبحت ممثلة....؟
- لا علاقة للتمثيل بذلك.. أنت خجولة في أن تعبري عن رغباتك الجنسية

الدفينة بصراحة..حتى حينما تقيمين علاقة مع الرجل، فأنك تبقين تعيشين لحظات متعتك معه وحدك.. تعيشينها في تصوراتك الخاصة.. وكأنك تتصورين عالماً آخر ورجلاً آخر..تتحدثين مع نفسك بصمت.. دون أن تبوحي..

ارتبكت قليلا ًمن حديثه ، أحست وكأنه يعريها ، فقالت له مستفسرة:

- هل تقصد أني أخفي رغباتي الحقيقية، وأهرب منها، وأمثل، بالهروب من خلال تجسيد تمتعي برغبات أخرى..أقصد هل تصدق ما قاله عني صديقي السابق بأني سحاقية..؟

صمت ، فلم يود أن يجيب مباشرة ، فكر للحظات منتقيا كلماته ، وقال :

- ربما هو لم يفهم طبيعة علاقتك بصديقتك العربية الخليجية..لذا حكم عليك بسهولة وسرعة، وبحكم مسبق، كما هي عادة أحكام الرجال حول تصرفات بعض النساء غير المفهومة من قبلهم..لكني لا أقصد ذلك..

- ماذا تقصد إذن..؟

- أقصد أنك في أعماقك، تمتزج المتعة لديك بالألم..وباللغة غير المفهومة..التي تودين البوح بها، لكنك تتجنبين قولها للرجل الذي يعاشرك..لأسباب مجهولة تعرفينها أنت فقط..

نظرت إليه طويلا ً، ثم سألته بنبرة حزينة :

- هل تلمح لنزوعي الجنسي المثلي مثلاً؟

- لا أستطيع أن أقول شيئا عمّا تشعرين به في أعماقك حقيقة، فأنت وحدك تعرفين إن كنت سحاقية أم لا..

فقالت له وكأنها تدفع عن نفسها تهمة ما :

- لكن أنا لدي رغبة بالرجال.. لذا أنا معك حاليا..كما أود أن أعرفّك بصديقتي حواء صحراوي، فلو كنت كذلك، فلماذا أود أن أعرفك عليها..؟

- ربما لأنك تهربين من مشاعرك الحميمة نحوها.. فتريدين أن تقومي بمهمة التعارف بيننا لتثبتي لنفسك أنك لست كذلك..!

- أتدري بالرغم من أنني لا أفهمك بوضوح كامل..؟ لكني أشعر بأني أفهمك.. وربما لم أفهمك بعد أيضاً..

انتبه هو إلى أنها بادرت هذه المرة بنفسها لتصب لهما ما تبقى في القنينة من نبيذ ، وحينما جلست واضعة ساقا ً على ساق ، لمح جزءا ً كبيرا ً من فخذها ، فأحس بالدم يتدفق في جسده سريعا ً. وبدون أي تعقيد ، وببساطة مدت ذراعها إليه وهي تقول بحنان وعلى وجهها ابتسامة مشرقة:

- تعال قربي.. أحب أن تكون قريباً مني حين نتحدث..

أخذ كفها ، وانتقل من مكانه إلى جنبها على الصوفا التي تجلس عليها . أحسها قريبة منه . صمتا . وفجأة ، أخذ كفها إلى شفتيه وطبع عليها قبلة حارة . أحس بإرتعاشها في تلك اللحظة . ضغطت هي على كفه ، فتشجع واقترب منها أكثر ، فأحست بأنه يريدها ، فقالت له ، بشيء من الدلال:

- لا أرجوك يا آدم..

فهم من نبرة صوتها أنها تمانع دلالاً وليس عن عدم رغبة ، فمال برأسه إلى عنقها ، وأخذ يمرر شفتيه من هناك ، نافخا بحرارة تحت أذنيها مقبلاً شحمة أذنها ، فأحس بها تضغط بقوة على كفه ، وتقول وهي في حالة تهيج:

- أرجوك يا آدم.. توقف..

صوتها المتكسر بالشهوة والرغبة هيجه أكثر ، فأمال وجهها إليه طابعاً قبلة على شفتيها . انسجمت لثوان معه ، لكنها قامت وكأنها تهرب منه ، وهي تقول:

- لا يا آدم.. أرجوك.. لا تثرني هكذا..

قالت ذلك وهي تتجه لغرفة نومها . بقي هو وحده في الصالون ، أحس أنه ربما تجاوز حدوده معها ، وأنه ربما فهمها بشكل خاطىء ، فقرر مغادرة الجناح ، لكنه قبل ذلك أراد أن يعتذر عن تصرفه ، فقام متجهاً لغرفة النوم ، وحينما دخل وجدها مستلقية على السرير ، فاقترب منها ، لكنه بدلاً من أن يعتذر منها ، تمدد قربها وأخذ يقبلها من عنقها ، الذي عرف أنه منطقة إثارتها . تمانعت قليلاً، لكنها ليست الممانعة الحازمة ، فأخذ يقبل وجهها ، ويده تداعب جسدها . وأخيراً، حزم أمره ، فأخذ يقبل وجهها نازلاً إلى نهديها ، وبحركة مفاجئة ، دفع ساقيها وصار بينهما ، كانت هي بين الموافقة الخجولة والممانعة الهشة ، وخلال ذلك كانت يده تفك حزام بنطاله ، وبسهولة فائقة دفعه فيها .

كانت سهلة جداً، سهولة لا تتناسب مع اسمها الفني ، وشهرتها ، وشخصيتها القوية ، ومقامها . كانت طيعة ، شبقة ، ورقيقة ، تمتزج اللذة لديها بالمعاناة والألم . كان هو يدفع نفسه فيها بقوة ، وبعد لحظات من التهيج سمعها تهمس في أذنه بكلمات صريحة جداً، بأن ينيكها بشكل جيد .. وأنها تحتاجه جداً، وأنها تحبه جداً، وستكون له إلى الأبد إن أحب ذلك .. لكن عليه الآن أن يجيد عمله معها .. وأحسها تلتقم ، في حمى شهوتها ، شحمة أذنه .. التفت َبشكل غير مقصود إلى جانب السرير ، فوجد مرآة كبيرة ، رأى نفسه عليها فتيقن أنها ليست إيفا بيرغمان ،

نظر إلى وضعه ، فرأى نفسه وهو يدفع نفسه فيها ، وكأنه يريد أن يدخل بكامل جسده إلى رحمها .. ارتبك من عنفه ، وحالته الحيوانية التي هو فيها .. وأخيراً أنزل فيها ماءه الدافق . كانت هي تصرخ صرخات تحاول كتمانها ما استطاعت ، لكنها لم تستطع أن تكتمها بالكامل . أحس أنها وصلت مرات قبل أن ينتهي هو .. وحينما سحب نفسه عنها ، استدارت بجسدها على السرير ، وغطت وجهها بكفيها ، وقالت له بصوت فيه نبرة عتاب وتأنيب ضمير ، وتعب واضح من المتعة:

- لماذا فعلت ذلك..؟ إذهب أرجوك..إذهب.. أريد أن أكون وحدي..

فوجىء ببردة فعلها . انسحب ببطء ، وقبل أن يخرج دخل غرفة الحمام ، غسل عضوه ، ومسح ما علق ببنطاله من بقايا مائها . وغادر الجناح.

* * *

أحست حواء الزاهد بتهيجها عند قراءة الفصل ، فقد تخيلت نفسها إيفا ليسنج ، وأن آدم التائه ليس إلا الأستاذ قابيل الفهد . فجأة شعرت بخوف ممزوج بتأنيب الضمير من أحلام اليقظة تلك ، أترُاها نسيت حبيبها آدم المحروم ، بحيث صارت تخونه في أحلامها؟ هكذا كانت تعذب حواء الزاهد نفسها . ولكي تهرب من أفكارها ، عادت ثانية لتواصل القراءة.

السـيمـفونيـة النـاقـصـــة

كانت ساعة البهو تشير إلى السابعة إلا ربعاً حينما غادر آدم التائه الفندق وصار في الشارع . انتبه إلى أن عاصفة ثلجية تهب على المدينة ، كما رأى كيف تراكم الثلج في الشارع وعلى أسطح البنايات ، وغطى كل شيء.

انتبه لصوت خطواته على الثلج . يعجبه الصوت الذي ينطلق من ضغط قدمه على الثلج . كانت قداماه تغوصان في الثلج . وكانت حركته بطيئة جداً بحكم تراكم الثلج . في الجهة الأخرى ، رأى كاسحات للثلج ، صغيرة الحجم ، تقوم بإزاحة الثلج عن الطريق العام ، وتجمعه أكواما على جهة من الرصيف.

طوال الطريق إلى الفندق كان يفكر بما جرى له مع إيفا ليسنج . هل يمكن تفسير ذلك بأنه اغتصبها ، أو أغواها ، وجرها إلى ما لا تريد .. ؟ هل ضيعها إلى الأبد .. ؟ هل ستتصل به .. ؟ كيف يمكن أن يتيقن من موقفها .. ؟ إنها لم تعترض بالكامل ، كان بإمكانها أن تقاوم لو لم تود ذلك .. ؟ لماذا طلبت منه أن يذهب ، ويغادر الغرفة .. ؟

كان آدم التائه مشغول البال مع نفسه حينما وجد نفسه قد سها عن

الطريق المختصر ، إذ وجد نفسه أمام محطة القطار ، للمرة الثانية . تذكر بأن عليه أن يأخذ الطعام لإيفا جايكوفسكايا ، وله أيضا ، فدخل محلا ً كبيرا حيث اشترى بعض قناني العصير ، ورقائق البطاطا ، والجبن ، وبعض الشكولاتة ، وشيئا ً من الفواكه ، كما مر ّ ّ َ على محل المشويات التركي فأخذ معه أربع لفات صغيرة من الشاورما.
حين وصل فندقه كانت الساعة تقارب الثامنة . صعد إلى غرفته ، وقبل أن يفتح الباب سمع أصواتا ً تأتي من الغرفة ، أخذ يتنصت على ما يدور . فتح الباب رأى إيفا جايكوفسكايا متمددة في السرير وتنظر إلى التلفزيون.
حين رأته نهضت مباشرة ، ولبست بنطالها ، إذ أنها بعد خروجه نزعته ودخلت إلى السرير . حاول هو أن يتشاغل عن النظر إليها لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه بالنظر إليها بشكل سريع . وضع الأشياء التي اشتراها على الطاولة قرب التلفزيون ، أخذ ت هي تساعده فأخذت منه بعضها ووضعته على الطاولة أيضا . الغرفة ضيقة ، وليس هناك مكان للجلوس غير الكرسي أو السرير . جلس على السرير مرتبكا قليلا ً، فما زال رد فعل إيفا ليسنج يقبض على روحه.
انتبهت إيفا جايكوفسكايا إلى الحزن الدفين في عينيه ، والضيق النفسي الذي يقيد حركته ، فظنت أنه متضايق من وجودها في غرفته ، فربما هو متعب ويريد الراحة والإسترخاء في سريره . نظرت إليه لتطمئنه بأنها ستغادر فقالت له:
- أرجو أن تعذرني.. إنني اشكرك جداً على طيبتك بالسماح لي أن أستحم في غرفتك.. لا تقلق ساغادر بعد قليل.
نظر إليها متفاجئا ً، وأحس بأنها انتبهت للحالة النفسية التي هي فيها ، فقال لها مرتبكا وكأنه يعتذر:
- عفوا.. أنا متضايق قليلاً، ولكن ليس للأمر علاقة بك بتاتاً.. خذي راحتك.. إلى أين تذهبين في هذا المساء والثلج ينهمر في المدينة..ولا مال لديك..؟ أنا آسف.. ثم..أنا حملت معي طعاماً لنا..
ومد يده إلى أحد الأكياس وأخرج منه لفات الشاورما . نظرت هي إليه بحنان ومودة حقيقية ، وقالت:
- أنا لا أعرف حقاً كيف أشكرك؟
- لا تشكريني.. لم أعمل إلا ما أملته علي نفسي.. يا حفيدة جايكوفسكي..
نظرت إليه مبتسمة وقالت:
- ظننتكم أنتم الشرقيين لا تتذوقون الموسيقى الكلاسيكية.. لكن يبدو هذه

نظرة غير صحيحة.. فأنت كما لاحظت تعرفها جيداً كخبير فيها..

- أنا لستُ إلا متذوقاً لها.. لدينا فرق وطنية سيمفونية.. وندرّس الموسيقى في المعاهد أيضا..

فجأة سألته ، على غير توقع منه :

- كيف تنظر إلى بيوتر جايكوفسكي..؟

- ماذا تقصدين؟

- أعني هل تعرف تفاصيل حياته..؟

- أعرف عنه أشياء عامة، عن سيرة حياته، ومؤلفاته الموسيقية الشهيرة.. بحيرة البجع، وكسارة البندق، روميو وجوليت، وسيمفونياته خاصة الخامسة والسادسة، والكونسيرت الأول للأوركسترا وبعض القطع الموسيقية الأخرى.

- عظيم جداً.. لكن هل تعرف شيئا عن حياته الخاصة، عن علاقته بالسيدة ناديجدا فون ميك..؟

لك يجبها مباشرة ، صمت لحظة وكأنه يستذكر شيئا ، ثم قال :

- لقد شاهدت فيلما عنه.. أليست هذه السيدة التي أحبته وخصصت له راتباً..

- نعم..نعم..لكنها لم تكن حبيبته..

- وماذا كانت..؟

- صديقته..

- صديقته..؟

- نعم.. صديقته.. أتدري أنهما كانا يعيشان في موسكو، وبالرغم من ذلك فقد تبادلا ألفاً ومائتي وأربع رسائل خلال فترة دامت أربعة عشر عاماً، بينما لم يلتقيا خلالها سوى مرة واحدة، وبشكل خاطف؟ أتدري أنها إشترطت عليه ألا يذكر اسمها في أي محفل عام، وألا يهديها أياً من مؤلفاته الموسيقية؟ وأنها عرضت عليه مسألة الإستقالة من المعهد الذي كان يدرّس فيه،والذي درستُ أنا فيه بعد عقود من الزمان، وأنها منحته مرتباً شهرياً جيداً، ومسكناً آمناً، لكن بشرط عدم التقرب منها، وعدم الإعلان عن علاقتهما أبداً؟ بل إنها توقفت عن الكتابة إليه بعد طلاقه لزوجته!

نظر إليها قائلا ً بإهتمام :

- هذه معلومات جديدة عليّ.. لكن لماذا لم يلتقيا.. وهذا العدد الكبير من الرسائل..كم قلت؟

- ألف ومائتان وأربع رسائل خلال أربعة عشر عاماً..

- هذا يعني في حدود ست و ثمانين رسالة في السنة، وهذا يعني سبع

رسائل تقريبا في الشهر الواحد، أي في حدود رسالتين أسبوعياً.. دون أن يرى أحدهما الآخر، وهما يعيشان في المدينة نفسها.. هذه بحد ذاتها واحدة من أجمل قصص الحب الرومانسية..

- لم تكن حباً إعتيادياً.. بل كانت صداقة عميقة.. الحب فيه شيء من التملك بينما الصداقة عطاء وحب.. لقد كانا حساسين جداً.. لقد اعتزلا الناس، ليس خوفاً منهم، إنما خوفاً من الخيبة فيهم..

- أنا أعرف أنه لم يكن طبيعيا في حياته الجنسية..

ارتبكت إيفا جايكوفسكايا قليلا ً، وارتسمت الخيبة على وجهها ، وقالت بصوت حزين:

- نعم.. لقد كان كذلك..

- لكنه كان متزوجاً..كما قلت.. أليس كذلك..؟

- نعم.. لكن زواجه هذا كان مليئا بالألغاز..التفسيرات تضاربت في حل لغز هذا الزواج، فهناك من فسر الأمر بأنه سعى من وراء ذلك تغطية الشائعات التي بدأت تنتشر عن سلوكه الجنسي الشاذ، إلا أن صديقه الحميم الموسيقار (لاروخ) ترك لنا، في كتاب عنه، تفاصيل غاية في الدقة والأهمية، تؤكد بأن هذه الفتاة الجميلة التي كانت طالبة في معهد الموسيقى، عشقت جايكوفسكي، وتقربت منه، إلا أنه لم يكن يدرك مراميها، ثم أخذت تكتب له الرسائل العاطفية التي تبوح فيها بحبها له، ولم يكن هو يجيبها، وأخيرا كتبت له رسالة هددت فيها بالإنتحار إذا لم يتزوجها، وحينما لم يستجب لها أقدمت فعلا على الإنتحار. وبما أن الشائعات كانت قد انتشرت فعلا عن سلوكه الشاذ، فما كان منه إلا أن تزوج هذه الطالبة شفقة منه عليها، وتغطية لوضعه وسمعته.

- آها..

كانت إيفا جايكوفسكايا تتحدث عن جايكوفسكي وكأنها في مرافعة تاريخية للدفاع عنه ، بينما كان آدم التائه مستمتعا ًبحديثها لأنه بدأ يشعر بأنه لم يفهم جايكوفسكي بشكل دقيق ، والآن بدأ يفهم سر هذه الكثافة من الحزن والسوداوية ، والرقة ، والطهرانية ، في موسيقاه .. نظر إلى إيفا جايكوفسكايا بإعجاب شديدة ، بينما استمرت هي وكأنها تستلهم الكلام من مصدر مجهول ، فقالت بحماسة:

- كل الذكريات والمذكرات عنه تؤكد بأنه كان خجولا جداً، هادئا، صموتا، بل ومرتبكاً، كما كان طيباً، أصيلاً، وشجاعاً في إتخاذ المواقف اللائقة بالإنسان في اللحظات الحرجة. ويبدو أن هذه الفتاة كانت تعشقه حقاً، إلا

أن هذا الحب، ثم الزواج كان كارثة حقيقية على كليهما، فقد عاشا معاً في بيتٍ واحد، لكن دون أية علاقة زوجية. ومهما كانت ملابسات وضعه وسيرته الذاتية إلا أن تفاصيل قصة هذا الزواج تكشف عن شخصية الطيبة، وإستعداده للتضحية بالذات من أجل إسعاد الآخرين. وقد كشف عن بعض تفاصيل هذا الزواج في رسالة بعثها إلى (ناديجدا فون ميك)، التي كانت تعيش مع نفسها صراعا آخر، على الرغم من أن هذا الأمر قرّب جايكوفسكي منها أكثر..!

وجد آدم التائه منسجما مع تفاصيل حياة جايكوفسكي المثيرة ، فسأل :

- كيف..؟

- خلال سنوات تدريسه في المعهد كتب جايكوفسكي مؤلفات موسيقية مهمة جدا. وبرغم أن مرتبّه خلال هذه السنوات قد تضاعف، تصاعدا مع امتداد سنوات خدمته ونمو شهرته، إلا أن متطلبات الحياة العائلية، وتبذير زوجته التي كانت مولعة بالمظاهر، وضعته في ضائقة مادية، فاضطر الى إعطاء الدروس الخصوصية. كان أول إتصال له بناديجدا فون ميك، شريكة حياته الإبداعية، حينما أستلم رسالة منها في 18 ديسمبر - كانون الأول العام 1876. الذي حقق هذا الاتصال هو أحد تلاميذ جايكوفسكي الذي كان يعطي الدروس لأحد أبناء السيدة فون ميك. وكان هذا المعلم الفتي يروى للسيدة فون ميك عن عزلة أستاذه جايكوفسكي، ووحدته، وظروفه المادية الصعبة، فهبت هذه السيدة التي كانت تعشق موسيقاه، إلى مساعدته، ولكي لا تحرجه وتحرج نفسها، كلفته كتابة قطعة موسيقية لأحد ابنائها كي يتدرب عليها، وخصصت له مكافأة مجزية لم يكن يحلم بها. طبعاً كل هذا الاتصال كان يتم عن طريق الرسائل.

سألها وعلى وجهه علامات إهتمام واضحة :

- ولكن من هي هذه السيدة، ولماذا تسكت كتب السيرة عنها؟

- على العكس.. هناك الكثير من الكتب عن علاقتهما.. وناديجدا هذه، والتي اسمها يعني (الأمل) بالروسية، كانت أرملة لمهندس سكك حديدية، ألماني الأصل، جاء إلى روسيا للعمل فيها، فمد خطوط سكك الحديد هناك، وجنى من خلال ذلك ثروات طائلة، لكنه مات مخلفا أحد عشر ابنا وبنتا، فتولت زوجته إدارة هذه الأملاك والثروات من بعده. كانت (ناديجدا فون ميك) في الخامسة والأربعين من العمر حينما مات زوجها. وحينما بدأت مراسلاتها مع جايكوفسكي، كانت روحاً هائمة في الموسيقى. امرأة اعتزلت المجتمع الإرستقراطي، مركزة إهتمامها على تربية أبنائها وإدارة أملاكهم،

لكنها وجدت خلاصها في الموسيقى.

- لكن كيف انتهت علاقتهما.. ولماذا؟

كانت إيفا جايكوفسكايا تحس بفرح خفي لإهتمام هذا الرجل الغريب بقصة عرابها الروحي وجدها البعيد ، بيوتر ايليتش جايكوفسكي ، لذا استمرت في سرد مرافعتها الفنية والتاريخية عن جايكوفسكي:

- بعد أن توثقت العلاقة بينهما، عن طريق الرسائل طبعا، عرضت عليه أن يترك وظيفته في المعهد الموسيقي، وأن يتفرغ للإبداع والتأليف الموسيقي، مقابل مرتب جزيل تصرفه له شخصيا كل شهر، ومسكن يؤمن له الراحة، لكن بشرط ألا يسعى الى التقرب الشخصي منها، وأن لا يعلن عن علاقتهما وتفاصيلها أبداً، بل وطلبت منه ألا يهدي لها أي عمل موسيقي بشكل علني، لكن وفاءه لها لم يمكنه من ذلك، فقد أهدى الحركة الثانية من السيمفونية الرابعة (الى صديقة عزيزة)، وكان يقصدها بذلك. من أغرب الأمور أن العلاقة بينهما إنفصمت بعد أن طلق هو زوجته الشابة، التي لم تطق الحياة معه بهذا الأسلوب، فانطلقت تروي ظمأها الروحي والجسدي، وتعيش حياتها الخاصة بعيداً عنه، ربما إنتقاما منه لتجاهلها في حياته، وقد انتهى بها هذا الطريق إلى مستشفى المجانين. وقد كان ذلك قبل ثلاث سنوات من موت جايكوفسكي.!.. لكن أسرار القطيعة بين جايكوفسكي وناديجدا فون ميك ظلت غامضة، وقد ظلت أسرار هذه القطيعة المفاجئة موضع بحث من المهتمين بحياة جايكوفسكي لعقود من الزمان. بعظهم يعزيها لخسارة السيدة فون ميك لأملاكها وثرواتها في البورصة، وهذا ما لمحت إليه في رسائلها الأخيرة إليه، وبعضهم فسر الأمر إلى إنتشار الشائعات عن حياة جايكوفسكي الخاصة، وشذوذه الجنسي، مما دفعها للحفاظ على سمعتها، لا سيما وأن أبناءها قد كبروا، لكن هذا الأمر غيردقيق أبداً، لأنها كتبت له في أولى رسائلها إليه، بأنها تعرف كل صغيرة وكبيرة عنه، وتعرف كل ما يذمه الناس به، وما يتناقلونه عنه، وما إلى ذلك. أبي..خلال سنوات عمله في مكتبة الأرشيف الموسيقي عثر على بعض الوثائق التي تؤكد بأن زوج ابنتها، الذي كان بمثابة سكرتير لها، وبعض أبنائها، أتفقوا على إعدام هذه العلاقة والقضاء عليها بشكل ماحق، وإيقاف المساعدات، بل وساهموا في عدم إيصال الرسائل التي يرسلها هو إليها، وبالعكس، تمزيق الرسائل التي كتبتها له، ولدينا بعض الرسائل التي كتبها هو إليها بينما نفتقد للرسائل التي كتبتها هي كجواب لهذه الرسائل ولم تصل. وقد ظل هو كئيبا من هذه القطيعة المفاجئة، كما أحست هي بالخيبة من إنقطاعه

عنها، ظنا منها أنه كان يراسلها، لأنها كانت تساعده ماديا فقط، وحينما انقطعت المساعدة انقطع عن الكتابة لها..!!

- وكيف عاشا بعد هذه القطيعة بينهما؟

- الغريب أن ناديجدا فون ميك ماتت بعد ثلاثة أشهر تقريبا من موت جايكوفسكي، فقد مات هو في6 نوفمبر 1893، بينما ماتت هي في 13 يناير 1894، بعد ثلاث سنوات من إنقطاع الرسائل بينهما، مخلفا سيمفونية ناقصة هي السيمفونية السادسة.

- أتعرفين.. قصة جايكوفسكي وناديجدا فون ميك، تؤكد لي بأن التاريخ ظالم وغدّار، ومليء بالقذارات، فهو لا يذكر، بل لا يؤكد سوى شذوذ جايكوفسكي، بينما يخفي تفاصيل هذه العلاقة التي هي من أغرب قصص الحب، إنها درس عظيم في الحب، لكل النساء والرجال، ولكل العصور والأزمان.

انتبه آدم التائه بأنهما لم يأكلا بعد ، بالرغم من أنه قد أخرج لفات الشاورما ، ثم مد يده فأخرج قناني العصائر أيضا ، وقال معتذرا ً:

- أنا آسف جداً.. شغلت بهذا الحديث الشيق عن جايكوفسكي، بينما كان يفترض أن تأكلي لإنك بلا شك جائعة أيضا.

ابتسمت قائلة:

- جائعة نعم.. وأنت هل أكلت حينما خرجت؟

- لا..لم آكل شيئا..

- إذاً، فأنت جائع ايضا..؟

انتهيا من الأكل ، وشربا من عصائر الفواكه التي حملها معه ، وبينما هو يفتح الكيس الآخر الذي فيه بعض المكسرات ورقائق البطاطا والجبن ، رن جرس التليفون . فز كلاهما ، وكأن هناك من اقتحم عزلتهما . رفع السماعة ، فجاء صوت إيفا ليسنج مرحا ًونشيطا ً:

- أهلا آدم.. كيف أنت؟

- أنا.. لا بأس..

فقاطعته بصوت حنين:

- أنا آسفة جداً للطريقة التي تعاملت بها معك.. صحيح أنني لم أكن أتوقع أن يحصل الذي يحصل بيننا بهذه السرعة، هذا لا يعني أنني لم أكن راغبة بذلك، لكن سرعة حدوثه أفزعتني.. لذلك جاء رد فعلي هكذا.. لذا أعتذر عما بدر مني..

نهضت إيفا جايكوفسكايا ودخلت إلى غرفة الحمام ، وأغلقت الباب ، كي

تمنحه فرصة أن يتحدث وحده . كانت دفقات من الفرح تروي خلاياه وتبعث النشوة في داخله ، فقال لها:

- لا تعتذري.. ربما عليّ الإعتذار أيضا، فأنا لم أصدق بأني سوف أسافر ولا أراك ثانية، كما أنني لم أستطع أن أمسك نفسي.. فأنا..أنا..

- لا تكمل.. كان شيئا جميلاً حقاً.. أنا الآن في حفل العشاء.. لا أدري متى أنتهي..ربما الحادية عشرة.. أتود أن تأتي إليّ بعد الحادية عشرة..؟

- طبعاً..

- إذاً سأنتظرك في جناحي.. الان هي التاسعة.. سأنتظرك بعد ساعتين..إلى اللقاء..

- حسناً.. إلى اللقاء..

ما أن وضع سماعة الهاتف حتى خرجت إيفا جايكوفسكايا من الحمام .. وقالت له:

- أنا اعتذر لأني أقتحمت عليك خلوتك..

- لا عليك..بالمناسبة.. يمكنك المبيت الليلة هنا وحدك..

- وحدي.. وأنت؟

ارتسمت على وجهها علامات غريبة امتزجت فيها الخيبة والإحباط مع الفرح ، فقال لها موضحا ً

- ربما سأخرج خلال ساعة ونصف.. ومن المحتمل أن أنام خارج الفندق..فيمكنك أن تأخذي راحتك..

- من المحتمل.. هذا يعني هناك أمكانية أن ترجع أيضا..؟

نظر إليها متفحصا ًوكأنه يريد أن يعرف ماذا تقصد ، فقال:

- لا أعرف بالضبط.. لكن في كل الأحوال خذي أنت راحتك..

- أنا لا أعرف كيف أشكرك.. غداً بالتأكيد سأغادر غرفتك

- أنا باق غداً أيضا.. وبعد غد سأسافر..

- أتمنى لك كل خير أينما تكون..

- والآن.. حدثيني عن نفسك.. كيف تعيشين من العزف في الأماكن العامة..لماذا هذه الحياة.. إنك تهربين من نفسك، لكنك تلوذين في النهاية إلى نفسك..

- يبدو أنك لم تصدق قصتي عن اضطهاد الغريزة..

- بلى.. ولكن..

* * *

فجأة ، رأت حواء الزاهد شاشة الهاتف وهي تتوهج مضيئة باللون الأخضر

، وسمعت صوت إشارة وصول رسالة هاتفية . أخذت الهاتف وضغطت زرا ً لعرض الرسالة : فأصابها رعب شل ملامحها ، حيث قرأت : هل تعتقدين أنك ستهربين مني؟ نحن نراقب ونتصنت لتليفون عشيقك الجديد يا سافلة . نحن أقرب إليك من حبل الوريد . وستدفعين الثمن ، وتعرفين كيف ننتقم.

أحست حواء الزاهد فجأة بالبرد ، وبعرق ٍ بارد ٍ أخذ يبلل جسدها ، وبإستسلام كامل . تمددت على السرير وغطت نفسها باللحاف ، وكأنها تخاف أن يدخلوا عليها حالا ً.

ظلت حواء الزاهد تحت اللحاف مختبئة لعدة دقائق . كانت تفكر بهؤلاء الذين أرسلوا إليها الرسالة ، أهو نفسه المحاسب آدم الأسير الذي تحدث عنه الأستاذ قابيل الفهد ، أم هم غيره .. ؟ ومن أين لهم هذه السلطة بأن يتنصتوا على هواتف قابيل الفهد؟ وماذا يريدون منها؟ من المؤكد أنهم سينتقمون من الأستاذ قابيل الفهد لظنهم أنهما في علاقة خاصة .. ومن المؤكد أن المحاسب القاتل هو وراء هذا الأمر ، بحيث أنهم طاردوا الأستاذ قابيل الفهد ، ف ماذا عليها إذن أن تفعل؟ كانت الأفكار تلف حواء الزاهد في دوامة سوداء . لا . لا . يجب أن أخبره بأمر الرسالة وأنهم يتنصتون لهاتفه .. ؟ يجب أن تفعلي شيئا يا حواء ، لقد فقدت حبيبك آدم المحروم ، لكنك ستفقدين الأستاذ قابيل الفهد أيضا ، إذا لم تكوني قوية .. هكذا كان ثمة صوت داخلي في أعماقها يناديها.

جلست حواء الزاهد بعد أن دفعت اللحاف عنها ، وأخذت جهاز الهاتف ، وأرسلت ما وصلها من رسالة إلى قابيل الفهد ، بعد ذلك أرسلت له رسالة كتبت فيها : أرسلت إليك رسالة قد وصلتني الآن منهم ، أنت مراقب ، وهاتفك مراقب ، كن حذرا ً. حواء . وأرسلتها إليه.

بعد مرور دقائق قليلة وصلتها رسالة منه تقول لها : استلمت رسالتك . شكرا لتنبيهي ، يبدو أنهم من المتنفذين في السلطة . لا تخافي . كوني شجاعة . نحن معك.

أحست بفرح مشوب بقلق ، لكنها ما زالت خائفة . كانت تحس وكأن للجدران عيونا ً تنظر إليها ، تراقبها ، وليس آذانا ً كما يقول المثل الشائع ، إنها مراقبة ، وربما هم يعرفون أين تسكن ، بل ربما هم يقفون الآن في الزقاق منتظرين لحظة الإنقضاض عليها . ظلت حواء الزاهد تتحدث مع نفسها ، إلى أن أدركها الفجر . فدخلت الفراش وهي تحس بالتعب.

حواء الكرخي

فزت حواء الزاهد على دوي إنفجارات هزت المنطقة . نظرت مرعوبة في أرجاء الغرفة فرأت ابنيها ما يزالان يغطان في النوم . لقد تعودت أن تفز يوميا ً تقريبا ً، ومنذ سنوات ، على أصوات الإنفجارات . كانت تحس أنها تحتاج إلى أن تنام لفترة أطول ، لذلك لم تستطع أن تنهض من سريرها ، وإنما استمرت في النوم ، وفعلا ً ما أن اغمضت جفنيها حتى غطت في نوم عميق ، لم تصح منه إلا على طرقات على الباب ، وعلى يد ابنها آدم الملاك وهو يوقظها قائلا:

- ماما.. الباب يُطرق..ماما استيقظي..الباب يُطرق..

حينما فتحت عينها وجدت ابنها آدم الملاك قريب منها وهو يهز ذراعها ، التفت مذعورة إلى جهة المهد ، فرأت ابنها هابيل فاتحا عينية وينظر إلى سقف الغرفة بهدوء . أحست برجفة مست قلبها . سمعت طرقات متقطعة على الباب الخارجي ، تذكرت أنها تنتظر الصحفية التي حدثها الأستاذ قابيل الفهد عنها ليلة البارحة . قبل أن تنهض سمعت صوت رسالة هاتفية ، فأخذت الهاتف الذي كان قرب على الطاولة الصغيرة ، انتبهت إلى ان الرسالة من الأستاذ قابيل الفهد وتنص : صباح الخير . الأخت حواء الكرخي عند الباب . إنها هي من تطرق الباب . لا تخافي . افتحي لها.

نهضت مسرعة . دخلت الحمام ، رتبت رأسها بشال خفيف . وخرجت لتفتح الباب للطارق ، لكنها بالرغم من معرفتها من خلال رسالة الهاتف لهوية الطارق ، إلا أنها سألت قبل أن تفتح:

- من هناك؟

فجاء صوت نسائي رقيق ، وهادئ :

- هذه أنا حواء الكرخي.. من طرف الأستاذ آدم الشبيبي

لم تفكر حواء الزاهد بشكل الصحافية حواء الكرخي قط ، ولم تسأل عن مواصفاتها خلال حديثها مع الأستاذ قابيل الفهد ، لذا كانت بالنسبة لها مفاجئة هائلة ، حينما وجدت أمامها امرأة ناضجة في نهاية الثلاثين من العمر ، بنية الشعر مع ميل للشقرة ، ذات بشرة بيضاء تميل إلى الوردي ، جميلة القوام ، صدر ناهد قليلا ً، سافرة الوجه ، واسعة العينين ، صريحة النظرات ، لا تشي ملامحها وأناقتها بأنها عراقية أبدا ً، فهي أميل إلى النساء الأجنبيات ، اللاتي صارت رؤيتهن في بغداد شيئا نادرا ً. كانت ترتدي بنطلونا ً أسود وبلوزة سوداء مع قمصلة جلدية بنية اللون ، وتلف على

عنقها شالا ً أصفر.
ابتسمت حواء الكرخي بمودة وصداقة ، وقالت وهي تنظر إلى وجه حواء الزاهد المذعور:
- صباح الخير.. أنا حواء الكرخي.. جئت من طرف الأستاذ آدم الشبيبي..
ارتبكت حواء الزاهد ، وتلفتت يمينا ً ويسارا ً، وفتحت لها الباب مرحبة ، وحينما صارتا خلف الباب من الداخل أخذتها حواء الزاهد بالحضن متبادلة معه قبلات التحية والترحيب على عادة النساء العراقيات ، وهي تقول لها مرحبة بشكل متقطع :
- أهلا وسهلاً بك.. ست حواء.. نورتِ بيتي المتواضع.. أهلا وسهلا..
- أهلا بيك أخت حواء..
وابتسمت قائلة:
- أنت اسمك حواء أيضا، لذا حينما نتخاطب فسنكون كمن يكلم نفسه..
وضحكتا..
أحست حواء الزاهد بفرح غامر لرؤية حواء الكرخي ، فشخصيتها القوية وحضورها البهي ، منحاها شعورا ً بالأمان ، وبأنها ليست وحدها . وأحست أنها لأول مرة بعد مرور سنة تقريبا ً، منذ انقطاع مجيء حواء المؤمن والراهبتين ، لم تتحدث مع أية امرأة ، سوى تبادل السلام والتحية وبعض الكلمات مع الأستاذ قابيل الفهد ، حينما تقابله صباحا عند باب المدرسة ، أو حينما يتصل لإخبارها بضرورة أخذ ابنها من المدرسة لغياب المعلمين ، وأيضا الحوار الأخير معه قبل يومين ، لذلك فأن مجيء الصحفية حواء الكرخي فتح شهيتها للحديث.
لم تمض دقائق على دخول حواء الكرخي إلى داخل البيت حتى أحست كلتاهما بأنهما منجذبتان لبعضهما ، وكأنهما تعرفان بعضهما منذ فترة طويلة ، فالفرح الذي أخذ يشع من وجه حواء الزاهد ، كان جليا ً، كذلك جو الألفة العائلية بحضور الصغيرين آدم الملاك والرضيع هابيل ، أشعرا حواء الكرخي بجو عائلي مفقود بالنسبة إليها ، فأحست بتدفق حنين لمشاعرها تجاه هذه العائلة المهددة والمرعوبة.
لم تكن العائلة قد تناولت فطور الصباح ، لذا قامتا بإعداد الشاي ، وقلي البيض ، وتسخين الخبز ، وإخراج علب المربى بأنواعها ، وتجمعوا حول المدفأة التي أوقدتها حواء الزاهد ، فهي منذ أشهر لا تجلس في غرفة الضيوف إلا لدقائق لتشاهد خبرا ، أو برنامجا ً، وبالتالي قلما توقد المدفأة ، لكنها أحست الآن باستعادة الحياة المفقودة ، ولو قليلا ً.

تداخل الحديث بينهما ، وتجاوزت حواء الكرخي مهمتها بنقل أخبارها إلى آدم الشبيبي وقابيل الفهد ، إذ أحست أنها صارت جزءا ًمن هذه العائلة ، وأن حواء الزاهد صديقة لها ، وكأنها وجدت نفسها في هذه العائلة المنقطعة عن العالم والمهددة من قبل وحوشه الجدد ، بل وأحست أن مهمة الدفاع عن حواء الزاهد وولديها صارت مهمتها هي أيضا.

ولأول مرة أحست ببساطة الحياة ، فقد جلست معها على الأرض لتتناول فطور الصباح ، ولم تقل لها بأنها قد فطرت قبل ذلك ، لأنها أرادت أن تمنحها شعورا ً بالمشاركة . كان الصغير آدم الملاك فرحا ً بوجود حواء الكرخي التي أخذته في حضنها ، وأخرجت من حقيبتها بعض الشكولاته التي اشترتها من الدكان الذي في الشارع العام.

تطرقتا مباشرة إلى وضع حواء الزاهد والتهديدات التي وصلتها ، فحواء الكرخي عرفت بها من قابيل الفهد ، لكنها لم تكن تعرف بأنهم هددوها على الرقم الجديد أيضا ، لذلك حينما أخبرتها حواء الزاهد بذلك ، ارتبكت قليلا ً، وقالت لها:

- هل لديك أقرباء هنا في بغداد..؟ أقصد هل لديك مكان آخر تذهبين إليه لو خرجت من هنا؟

- لا.. لماذا..؟

- مجرد سؤال..

- لا..لقد بعت بيتنا القديم في منطقة المشتل واشتريت هذا البيت هنا، وكنت أعتقد أنني صرت في أمان.. لكن يبدو أن يد هؤلاء طويلة جداً..

- نعم.. يد هؤلاء صارت طويلة.. جداً..

- هل تعتقدين أنهم يعرفون بمكان سكني هنا؟

لم تشأ حواء الكرخي أن تقول لها بأن لديهم القدرة على أن يعرفوا ذلك ، فقد صارت كل أجهزة الدولة ومؤسساتها مليئة بعناصرهم الحاقدة على كل شيء .. لذا قالت لها:

- لا أعتقد ذلك..ليس من السهل عليهم ذلك..خاصة ونحن لا نعرف من هم أصلاً..

- لا أدري.. لقد رأيت أحدهم في المدرسة قبل يومين، وقد أخبرني الأستاذ قابيل الفهد بأنه محاسب المدرسة واسمه آدم الأسير لأنه كان أسيرا في إيران، وأنه عين محاسباً بالرغم من أنه لم يحصل على أية شهادة في هذا المجال.. ولو لم أره عند الأستاذ قابيل، لفكرت بأخوي زوجي الراحل.. لكنهما في السجن..

- هل لك أن تحدثيني بالتفصيل عنهما.. وتعطيني كل ما تعرفينه عنهما..!
- لماذا..؟
- لا شيء..لأعرف أكثر عنهما.. وعن هذا آدم الأسير..
- سأحكي لك كل شيء منذ البداية..

وحكت حواء لحواء كل شيء . حدثتها بحنان عن حبيبها آدم المحروم ، ودوره في إعادة إعتبارها الذاتي لنفسها ، ووعيها لكل هذا الظلام الذي يحيط بالبلاد ، وروت تفاصيل ذلك الفجر الأسود الذي دخل فيه الرجال الأربعة إلى منزلها .. وكيف كشفت عنهم بشجاعة لدى المحققين الذين لم يمكنهم إلا أن يتخذوا إجراءاتهم الإدارية ، قبل أن يتمكنوا من الاحتياط لذلك . كانت أسئلة حواء الكرخي دقيقة ، بحكم خبرتها الصحفية ، حيث سألتها عن تاريخ الحادثة ، وتاريخ اعتقالهم ، وأسماء المحامين ، وعنوان محاميها الشخصي في قضية الميراث . سجلت في دفتر صغير كان معها كل ما تحتاجه من معلومات ، إذ قررت أن تتحقق من وجود أخوي زوجها في السجن ، فهي تعرف الفساد المستشري في قطاع القضاء والجيش والشرطة في البلاد ، لكنها لم تخبر حواء الزاهد عن مخاوفها كي لا تزيد من رعبها.

خلال الساعات التي قضتها حواء الكرخي في بيت حواء الزاهد اتصلت بقابيل الفهد فوجدت أن هاتفه النقال مغلق ، فظنته مشغولا ً، فاتصلت بآدم الشبيبي ، واخبرته عن وجودها ، ولم تستطع أن تكتم إعجابها الشديد بحواء الزاهد ، وشخصيتها المتميزة ، وأعربت عن فرحها بالتعرف الشخصي عليها ، ووعدته بأن تمر عليه في شقته مساء ً.

احتفت حواء الزاهد ذلك اليوم بمجيء حواء الكرخي إلى بيتها لأول مرة ، فأعدت وجبة غداء شهي من الرز ومرق الفاصوليا . كانت حواء الكرخي قد روت لها جانبا ً مهما ً من حياتها ، حيث ولدت لعائلة متدينة لكنها ليست متعصبة ، وكان لديها إثنان من الأخوة ، أحدهما كان شيوعيا ً والآخر في حزب الدعوة ، وبالرغم من أن الأب والأم متدينان إلا أنهما كانا يميلان إلى ابنهما الشيوعي الذي كان أقرب إلى وجدانهما في حب العدالة والدفاع عن الفقراء ، والوقوف بوجه الأغنياء ، بينما ابنهما المتدين الذي ، وإن كانا يعجبان بإلتزامه الديني ، إلا أنه أدخل العائلة في حقول الحرام والحلال ، والنجس والطاهر ، وكانا يحسان أنه حاقد على الدنيا وما فيها ، فالكل كفار وأشرار ومصيرهم النار ، وأن الساعة آتية لا ريب بعد دقائق .. تعذبت العائلة من هذا التنافر بين الأخوين ، لكن عذابها الأكبر جاء من السلطة التي كانت تطارد كلا الأخوين . في نهاية السبعينات وبداية

الثمانينات تم اعتقال الأخ الشيوعي ، وبعد سنتين عرفت العائلة بأنه قد ا ُعدم في سجن أبي غريب ، بينما هرب الأخ المتدين إلى إيران.
لم يبق في العائلة سواها ، لكنها كانت أقرب إلى أفكار أخيها الشيوعي ، وشيئا فشيئا ً تعرفت على أفكاره التقدمية ، وخلال تلك السنوات المظلمة ، التحقت بتنظيم للنساء تابع للحزب الشيوعي ، وهناك تعرفت على مسؤول خليتهم الحزبية ، الذي كان رجلا ً يكبرها بخمس وعشرين سنة ، فتعلقت به . كانت هي في السابعة عشرة من عمرها ، تكتب الشعر والخواطر الأدبية ، وكانت تبحث عن بطلها ، عن فارسها المناضل ، لذا انبهرت به ، وبسعة أفكاره ، وانبهرت بالحلم الشيوعي عن المجتمع الخالي من الطبقات . عشقته بالرغم من فارق السن ، وقد انتبه هو لها ، ولإندفاعها الثوري ، وتعلق هو بها مأخوذا ً بقصص النضال اليساري ، بالرغم من ظروف العمل السياسي الصعبة جدا ً في تلك الأيام . وحينما تقدم لخطبتها ، انقلبت الدنيا ، إذ رفض الأهل ذلك بشدة.
بعد سنة مات الوالد ، فبقيت وحيدة مع أمها المريضة ، وبعد ذلك بأشهر طلب المسؤول الشيوعي يدها من أمها ، فرفضت مرة أخرى ، لكن حواء الكرخي تدخلت هذه المرة مهددة والدتها بأنها ستفر معه وتخلق للعائلة فضيحة إذا لم توافق ، ولم تجد الأم سوى الموافقة ، فهي تعرف اندفاعات ابنتها ، وأنها يمكن أن تفعل ما هددت به .. وتزوجت حواء الكرخي مسؤولها الحزبي ...
عند ذاك سألتها حواء الزاهد عن حياتها مع حبيبها ، فقالت حواء الكرخي لها:
- الحياة صفقة خاسرة.. لابد من أن تدفعي ثمناً للذتك وسعادتك..تدفعين.. لكن ليس مالاً، وإنما تدفعين من حياتك، وأعصابك، ونفسيتك.. وأحلامك الوافرة..لقد اكتشفت أن حبيبي متناقض.. فهو يتكلم ليل نهار عن الفقراء، الثورات، والرايات الخفاقة، لكنه كان في الواقع يكره الغوغاء والرعاع..وهي التسمية الأخرى للشعب..كان نظرياً يدافع عن الشعب، لكنه روحياً يجد نفسه بعيداً عنه.. كان حصوله عليّ، أو على جسدي، وكأنما هو نهاية مطافه النضالي، فبعد زواجنا أخذ يطلب مني الابتعاد عن العمل السياسي، بحجة أنه لا يريد أن أتعرض للخطر، وحينما كنتُ أواجهه بأني تزوجته لأني كنت أريد أن أشعر بحريتي معه في النضال، فكان يجيبني بأنها الآن تخصه هو، ولا يريد أن يخسرني بأي ثمن!.. حين كنت أسأله لماذا إذن يطلب من النساء الأخريات أن يخاطرن بحياتهن، وحياة عوائلهن، وأزواجهن،

كان يصمت. معه أكتشفتْ جنون الحياة البليدة، وسقوط الأفكار، وزيف القيم، وخواء الشعارات، لكن بالرغم من خيبتي فيه، فهو الذي فتحت عينيّ معه على الحياة وألوانها البهية غير المنظورة، عرفت أفراح الجسد معه، لكنه كان يطلب مني أن أخدع نفسي، وأكذب عليها، وأغلق عينيّ عن ألوان الحياة المتوهجة.. واصلت الحياة معه لثلاث سنوات.. كنت أحياناً أنسل من فراشي الزوجي، أصعد إلى سطح دارنا، أنظر لسماء الليل البهيم.. أشعر بأن نجمتي هناك في السماء تنظر إليّ أيضا.. لقد منحت نفسي فرصة أن تفعل ما تريد، فتحديت أهلي، ووقفت ضد الرؤية التقليدية للمجتمع.. حتى أن أمي ماتت حزناً وكمداً.. وصار عليّ أن أدفع الثمن..لذلك كنت أشعر بالخديعة.. صرت أذهب ليلاً إلى السرير لأنام وحيدة مع موتي..صرت أخاف من المستقبل..أخاف من شيء مجهول..هل تصدقين يا حواء، صرت أحس بأن ثمة وجوهاً وأشباحاً في داخلي..لا سيما بعد انهيار ما سُمي بالجبهة الوطنية.. فقد تم اعتقال عدد من الرفيقات، وإعدام بعضهن..طبعاً عرفت بذلك في ما بعد.. لأننا بعد اعتقال إحدى الرفيقات، نتيجة اعتراف رفيقة أخرى تم اعتقالها وتعذيبها،هربنا..أردنا الخروج إلى سوريا أو الأردن.. أتدرين ما جرى......... في نقطة الحدود العراقية مع سوريا، تم تدقيق الجوازات.. حينها جاء شرطي وطلبني إلى مكتب الضابط المسؤول، الذي، والحق يقال، كان مؤدبا معي، وهو الذي أخبرني بأن هناك منع على اسمي من مغادرة العراق..زوجي أراد البقاء معي..لكني طلبت منه السفر..وبأني سأتدبر أمري..

- وماذا فعلت؟

- رجعت إلى بغداد..

روت حواء الكرخي قصة رجوعها إلى بغداد ، ومحاولة معرفة سبب المنع ، الذي اتضح أنه نتيجة اعترافات بعض النساء من أعضاء خليتها ، وأنهن اعترفن تحت وطأة التعذيب ، وأنه تم إعدام بعضهن ممن رفضن الإعتراف بأي شيء ، لكن مع الأسف تم إصدار أمر إعدامهن بتهمة إدارة بيوت للدعارة ، وليس لأنهن مناضلات شيوعيات باسلات . روت كيف أنها بدأت حياتها الصحفية بنشر الأقاصيص الصغيرة ، والخواطر في الصحف ، وكونت لها دائرة من المعارف ، الذين ساعدوها على الحصول على جواز سفر بإسم آخر مستعار ...... و بعد سنتين ونصف تمكنت من السفر إلى سوريا ... إلا أن الكارثة كانت تنتظرها هناك ، حيث اكتشفت أن زوجها كان قد تحول من الإيمان بالأفكار الماركسية إلى الإيمان بالأفكار الدينية ، وأنه أخذ يحقد

على جماعته السابقة ، لأنه حين وصل إلى سوريا لم يستقبلوه كما يجب ، ولأنه لا يعرف أيا ً منهم ، ولا يعرفونه جيدا ً، فقد شككوا بوجوده في سورية ، وأعتبروه جاسوسا ً أرسل إليهم من قبل أجهزة النظام ، وهذا ما جعله يحقد عليهم ، فعاش ظروفا ً صعبة جدا ً، لم ينقذه منها إلا أحد أقربائه ممن كان يعمل في أحد التنظيمات الإسلامية الممولة من إيران ، فأخذ يعمل معه ، ونزع ثوب اليسار ، وبدل حياته بالكامل ، فربى لحيته ، ولبس محابس َ من الحجر الأسود ، وأخذ يحمل معه في جيبه نسخة صغيرة من القرآن ، مستأجرا ً غرفة في منطقة السيدة زينب ، كما أخذ يعيش متنقلا ً بين النساء ، ممارسا ً زواج المتعة مع الأرامل والمطلقات ، الموجودات هناك .

- هل لديك أطفال..؟

سألت حواء الزاهد ، وهي تحس بالمرارة من سقوط الأحلام في الحضيض ، لأنها وهي تستمع لحواء الكرخي وهي تتحدث عن انقلاب الأفكار لدى الرجال ، فكرت بحبيبها آدم المحروم ، أت ُرى كان يتصرف هكذا أيضا ً؟.

- الحمد لله لم أنجب أطفالاً منه، وإلا لكانت كارثتي مضاعفة..

روت لها كيف أنها حينما وصلت دمشق ، فتشت عن جماعتها من الشيوعيين واليساريين ، إلا أنها لم تستطع أن تجد الترحاب منهم بسهولة ، إلا بعد أن تعرف ّ َ عليها صديق لأخيها الشهيد الشيوعي ، من الذين هاجروا إلى دمشق ، وحينما عرف منها أنها تبحث عن زوجها ، أخبرها أنه إنقلب فكريا ، وصار منتميا ً لأحد التنظيمات الإسلامية ، وبرغم ذلك أرشدها إليه . ولأنها كانت أكثر صدقا ً وتعلقا ً بأفكارها ، فقد طلبت من زوجها الطلاق . رفض زوجها في البداية ، إلا أن بعض هؤلاء المتدينين ممن يعرفون أخاها الآخر ، الإسلامي ، الذي صار اسمه معروفا ً في الأوساط الدينية الإسلامية ، ساعدوها في الحصول على الطلاق ، بعد تهديدهم لزوجها بحرمانه من العمل الذي منحوه إياه ومن امتيازات الإقامة والسكن ، إذا لم يوافق . فوافق مرغما ً.

حدثتها عن مصاعبها مع الرجال ، كلهم بدون استثناء ، يمينا ً أو يسارا ً، شمالا ً أو جنوبا ً، لكونها مطلقة ، وجميلة ، ويسارية ، فظنوا أنها سهلة ، ومتحررة ، ولا تقف عند حدود الحرام والحلال ، أو المسموح وغير المسموح به ، وبأنهم يمكنهم أن يناموا معها بسهولة . كان كلما يتقرب منها أحد ، مبديا ً روح الصداقة والتعاون الأخوي في بداية الأمر ، ينتهي به الأمر إلى محاولاته أن يحصل عليها ، على جسدها ، وحينما تصده يبدأ بالحديث عن

أخلاقها السيئة ، ويشوه سمعتها ، بل وبعضهم لا يتردد في القسم بأنه نام معها ويتحدث عن تفاصيل في جسدها .. بل حتى المتدينون الشيعة في دمشق عرض بعضهم عليها زواج المتعة.
كما روت لها مغامرتها الكارثية مع رجل عراقي اسمه آدم المسعود ، الذي تقرب منها ، وتعلقت به هي أيضا ً، وكان وسيما ، وشجاعا ً، ومثقفا ً، ومناضلا ، وشهما ً، ووعدها بالزواج ، لكنه لم يخبرها أبدا ً، بأنه قد ّم طلبا ً لل ّجوء من خلال مكاتب الأمم المتحدة ، ولجانها المختصة بشؤون اللاجئين . كانت قد وثقت به ، ومنحته نفسها عن حب وقناعة ، وكانت سعيدة بهذا العطاء ، لأنهما نويا على الزواج ، لكنه اختفى فجأة ، وبعد أيام عدة سألت عنه ، لكن بدون فائدة .
وذات يوم جاءها أحد العراقين ممن ينتمون إلى تنظيمات يسارية متطرفة ، وكانت تعرف أنه صديق آدم المسعودي حبيبها ، فأخبرها بأنه هاجر إلى أستراليا ، وأنه من هناك اتصل به ، وطلب منه أن يتعذر لها من كل قلبه لأنه لم يخبرها ، وأن ظروفه الآن سيئة ، وطلب من صديقه هذا أن يساعدها ويقف إلى جانبها ، لذلك فرض هذا الصديق نفسه على حياتها بحجة أنه يلتزم بطلب صديقه .
كانت هي منهارة نفسيا ً لضربة الغدر التي تلقتها من آدم المسعود ، وكانت تشعر بالحاجة للحماية والإهتمام ، ووليد ٍ تنتشلها من هذه الخيبة والإنكسار الذي وجدت نفسها محطمة وسطه ، لذا كان هذا الصديق حاضرا ً، لكنه كان حاضرا ً لأشياء أخرى ، إذ أخذ يتقرب منها أيضا ، وألغى بحضوره شخص آدم المسعود ، وانزلقت مع صديقه ، ومنحته نفسها أيضا ، لكن الكارثة الأخرى جاءت حينما اكتشفت بعد فترة أنها حامل ، وحينما كاشفت صديقها بالأمر رفض بشدة ، وأنكر أن يكون الجنين منه ، وأنه ربما من آدم المسعود .
حاولت الإنتحار من أثر الصدمة ، والخيبة بالرجال وبالقيم والناس ، وأيضا خوفا ً من الفضيحة ، إلا أنها باحت بكل شيء لصديقة لها ، عراقية تعيش مع زوجها في مدينة حلب ، فجاءت تلك المرأة مع زوجها وأخذاها معهما إلى حلب ، وهناك ، من خلال معارفهما ، توصلا إلى طبيب أجرى لها عملية الإجهاض .. وظلت هناك في حلب لأشهر ، بعد ذلك عادت إلى دمشق......
كانت حواء الزاهد تستمع لها كالمأخوذة ، وكانت في بعض اللحظات تمسح دموعا ً من مآقيها ، وكانت حواء الكرخي تتحدث ، وعيناها في البعيد .

كانت تتحدث ببطء وكأنها تصف شريطا ً سينمائيا ً يمر على شاشة غير مرئية لا يراها إلا هي . حينما صمتت حواء الكرخي للحظات ، كانت تستجمع فيها القوة لإستراجاع ذكرياتها ، ولإجراء عملية إختيار أجزاء الحكاية التي يمكن أن تبوح بها ، والأشياء التي ستبقى في غياهب ذاكرتها وروحها ، فسألتها حواء الزاهد:

- وماذا جرى بعد ذلك؟

نظرت حواء الكرخي إليها بعينين محايدتين وكأنما لا ترى من سألها ، وواصلت حديثها:

- حينما عدت لدمشق كانت إحدى رفيقاتي في العراق قد وصلت إلى دمشق، وهي زوجة لأحد السياسيين الشيوعيين الموجودين في دمشق، فعدت للعمل السياسي الذي توقفت عنه من جديد، وكان الحزب قد رفع شعار إسقاط الدكتاتورية، وكان يرسل الرفاق للذهاب إلى كوردستان كمقاتلين، لذلك طلبت الإنتقال إلى منطقة القامشلي لأكون عند نقطة العبور، وأهيىء مستلزمات العبور للذين يتوجهون إلى الداخل كما كنا نسمي العراق آنذاك. لم تكن الأمور سهلة ابداً، وحدث في بعض المرات أن قامت الجندرمة التركية عند نقطة التماس التركي العراقي السوري بدوريات عسكرية، وأطلقت النار على رفاقنا، وحدث أن مات منهم بعض الرفاق الشباب، الأبرياء، الذين جاءوا من جامعاتهم في الدول الإشتراكية آنذاك، وبعضهم ترك دراسته متحمساً في النضال ضد الطغاة في بغداد.. آخ يا ربي.. تخنقني العبرة حينما أستذكر وجوههم البريئة، وخوف بعضهم حينما يتوجهون في الظلام لعبور الحدود.. المهم..بعد سنة من ذلك، رحلت أنا نفسي إلى جبال كوردستان، مقاتلة في صفوف الأنصار..

- أنت؟ حملت السلاح؟

قالت حواء الزاهد بدهشة واستغراب.

- نعم أنا.. ولستُ وحدي من فعل ذلك، بل كانت هناك عشرات الرفيقات قبلي حملن السلاح أيضا. نساء عراقيات رفعن السلاح بوجه الطغاة.. كانت الأجواء غير الأجواء الحالية.. والظروف غير الظروف.. وبالمناسبة، كان هناك بعض التنظيمات الإسلامية تقاتل ضد الطغيان في بغداد أيضا.. ولا أعرف كيف تحول هؤلاء أنفسهم إلى طغاة جدد.. وكأنما لم يتعظوا من درس التاريخ.. بأن لا مكان للطغاة في مسيرة التاريخ، وأنهم سيسحقون أيضا..عموما.. هناك تزوجت من أحد الرفاق الذين يكبرني بالسن أيضا، وكأنما هوايتي صارت الزواج من الذين يكبرونني سناً.. وشاءت ظروف

عديدة أن نرحل من هناك، ونأتي إلى تركيا ومنها إلى أوروبا، وطلبنا اللجوء السياسي في ألمانيا.. إلى أن حصلنا على الجنسية الألمانية، وصار بإمكاننا التجول في كل دول العالم بدون خوف..لكن زوجي مات في ألمانيا نتيجة مرض السرطان الذي لم يمهله كثيرا.. مات هناك في ألمانيا ودفنته في إحدى مقابرها بدوسلدورف.. وبعد احتلال بغداد وسقوط نظام صدام.. عدت إلى العراق.. ومنذ ذلك الوقت أتنقل ما بين دوسلدورف وبغداد.. وأعمل في الصحافة أيضا. هذه قصتي يا صديقتي.. حواء.
نظرت حواء الزاهد إليها بحزن ، وسألتها بصوت خفيض :
- كل هذا جرى لك.. وما زلت تأملين أن يتغير العالم..ألم تفقدي ثقتك بالأشياء؟
- فقدت.. لكنني لا أعرف غير أن أناضل ضد الظلم أينما يكون..نضالي ليس له علاقة بثقتي في الآخرين.. وإنما له علاقة بإحترامي لنفسي..
أحست حواء الزاهد بالأسى والتعاطف مع حواء الكرخي بعد سماعها لكل هذه المآسي التي مرت بها ، وشعرت بأن مشاكلها الشخصية لا شيء قياسا ً لما مرت به صديقتها ، وقالت لنفسها بأن شخصية مرت بكل هذه المعاناة ستكون خير صديق لها ، وخير مرشد ، لاسيما وهي لا تعرف أحدا ً.
كانت ْحواء الكرخي وكأنها قد قرأت ما كان يدور في حوار داخلي في أعماق حواء الزاهد ، فقالت لها:
- كما ترين ياصديقتي.. فإن ما تواجهينه، هو شيء بسيط قياساً لحجم ومعاناة الكثيرين في هذا البلد الذي خرج من ظلام البعث ليدخل في ظلام الأحزاب الدينية..وأشباح الظلام..لكن بالرغم من كل ذلك سأكون إلى جانبك، ولن أتركك، بل وكلنا سنقف إلى جانبك في محنتك هذه.. فلا تخافي، بل إني لأفكر بأن تخرجي من قوقعتك هذه، وتتعرفي على الناس، والأشياء التي تحيط بك.. وما يجري في هذه البلاد.. وأي نفق مظلم أدخلنا فيه هؤلاء الذين لا يفكرون إلا بتحويل حياتنا إلى اللون الأسود.. هؤلاء فرسان زواج المتعة وتجار المآتم التاريخية..
نظرت حواء الزاهد إليها ، أحست بالإرتباك ، فقالت لها بصوت منكسر:
- لكني أخاف.. أنا لا تجربة لدي..لقد كنت أعتبر نفسي قوية، ومثقفة، لكنني من خلال رحلتك القاسية في هذه الحياة اكتشفت بأني لاشيء، أنا ظل باهت.. أنا شبح لم يعرف نور الشمس..الاضطراب يحيط بي من كل جانب، بينما كنتُ أعتقد نفسي أعيش في سلام دائم في عزلتي..لكني وجدت نفسي مثل لاعب الأكروبات في السيرك، يسير فوق حبل مشدود، بينما

القاعة مليئة بالشياطين الحاقدة التي تراقب المشهد، ينتظرون لحظة السقوط، يتمتعون بالسقوط فقط، لأنهم بعدها يمكنهم أن ينطقوا بحكمتهم.. أستغرب أحياناً حينما أجد هؤلاء يجدون متعة في الحقد، بل ومتعة في التعبير عن ذلك الحقد أيضا..أحس نفسي، وأمثالي من الناس، وكأننا جوقة من الحمقى أمام جيش سري من القتلة..
ابتسمت حواء الكرخي لها بمودة وقالت وهي تبتسم:
- تعجبني لغتك الأدبية.. تعبيرك ينم عن ثقافة أدبية رصينة.. وكأنك كاتبة أو شاعرة..
أحست حواء الزاهد بالخجل ، وبالزهو أيضا ، إذ اتقدت عيناها فرحا ً، وقالت:
- لدي محاولات بسيطة في الكتابة.. أكتب خواطر، وجملاً شعرية.. لنفسي.
- من يعرف، ربما ستكونين ذات يوم كاتبة..!
- مثل آدم البغدادي..
- هل تعرفين آدم البغدادي..؟
- نعم.. أقصد أن حبيبي آدم المحروم كان يعرفه، بل صديقه جداً، ومقتله هو سبب تعارفنا.. ولدي مخطوطاته التي أقرأ بواحدة منها الآن..
- هائل.. هل يمكنني أن أقرأها أيضا..؟
- يمكنك طبعاً..
- طيب.. أنا أتفقت أن أزور الجماعة اليوم مساءً.. وربما سأمر عليك غداً.. أو لأقل لك..ربما سآتي للمبيت عندك.. ما رأيك..؟
تفاجأت حواء الزاهد من بساطة صديقتها وسرعة التآلف والإنسجام بينهما .. وقالت وهي تبتسم:
- سأكون في منتهي السعادة..
- إذن عليّ الآن الذهاب لأعدَّ نفسي، وأنجز بعض ما علي من واجبات.. رقم هاتفك لدي، وسأتصل بك الآن حتى تحفظي رقمي أيضا..
أخرجت هاتفها واتصلت برقم هاتف حواء الزاهد ، فأجابتها الأخرى ، وهما تضحكان:
- ألو من هناك..؟
واستمرت حواء وحواء في الضحك .. وكل منهما تطرح أسئلة غامضة على نفسها.

لم ينم قابيل الفهد في شقته تلك الليلة ، وإنما بات عند صديقه آدم الشبيبي ، وفي الصباح انطلق بسيارته إلى مدرسته ، لكن المفاجأة كانت حينما لمح أمامه ، في الجهة الأخرى من جانب المدرسة ، سيارة البيجو البيضاء التي طاردته أمس تركن فارغة . أحس بارتباك شديد ، وقبل أن يترجل من سيارته فكر مع نفسه إن كان عليه أن يدخل المدرسة أو يغادر المكان راجعا ً، هاربا ً منهم ، لكن إلى متى يبقى هاربا ً؟ وماذا عليه أن يفعل؟ وبينما هو يحاور نفسه ويقلب أفكاره رن هاتفه النقال ، نظر إلى رقم المتصل فعرف أنها حواء الكرخي ، التي أخبرته بأنها تقف عند باب بيت حواء الزاهد ، لكنها وكما يبدو تخاف أن تفتح الباب ، وطلبت منه أن يتصل بها كي تفتح لها الباب ، وفعلا أرسل إليها رسالة أخبرها بوجود حواء الكرخي عند الباب.

أثناء إجابته على اتصال حواء الكرخي وإرساله الرسالة إلى حواء الزاهد ، خرج من المدرسة ثلاثة رجال ، جميعهم يرتدون الملابس السود ، متجهمي الملامح ، واتجهوا إلى سيارة البيجو البيضاء ، ودخلوا فيها . عرف السائق المفتول العضلات ، والرجل الخمسيني الملتحي ، وهما كانا بالأمس يطاردانه في السيارة نفسها . أحس بالرعب حينما شاهدهم خارجين من المدرسة . من هم؟ وماذا يريدون منه؟ وماذا كانوا يفعلون في المدرسة؟ أجاءوا لأخذه؟ فكر مع نفسه سريعا ، ولم يكن يعرف ماذا يفعل الآن بالضبط ، أيستدير راجعا ، وفي هذه الحالة سيتبعونه ، أم يدخل المدرسة ، ويذهب لمكتبه ليمارس عمله؟ لكن ماذا لو جاءوا إلى المكتب؟ فهؤلاء كما يبدو يقصدونه بالذات . وبدون أي قرار حاسم ، وبإندفاع غريزي استدار بسيارته وانطلق.

كان الرجال في سيارة البيجو البيضاء قد انتبهوا لمحاولته الاستدارة والفرار ، فانطلقوا مسرعين تجاهه ، ولكنه كان أسرع منهم ، إلا أن المسافة بينهم لم تكن كبيرة ، وعند منعطف الشارع وقبل أن يصل إلى الشارع العام ، أسرعت سيارة البيجو وانحرفت عرضا فسدت الطريق أمام سيارته ، وبسرعة خاطفة نزل ثلاثة رجال منهم ، فتحوا باب سيارته ، فقبض إثنان منهم على ذراعيه ، وسحب الثالث مسدسا ً وضعه على ظهره وجروه إلى سيارتهم . أدخلوه إليها عنوة في القسم الخلفي . وبسرعة وضوعوا لاصقا على فمه لمنعه من الصراخ وطلب النجدة . وقبل أن تنطلق السيارة سأل حامل

المسدس:
- هل يحمل الهاتف النقال؟
فتش أحدهم جيوبه ، فلم يجد شيئا ً، فقال:
- لا..لا يحمل أي هاتف..
- إذن هو بالسيارة
وخرج حامل المسدس ، وفعلا ً وجد جهاز الهاتف على المقعد الجانبي ، فأخذه ، وأغلقه مباشرة ، وصعد في القسم الخلفي من السيارة ، بينما كان قابيل الفهد بينه وبين رجل آخر . انطلقت بسرعة هائلة دون أن تنتبه للسير.
في تلك اللحظة لم يكن هناك سوى صبي صغير ، كان يريد التوجه إلى المدرسة ، رأى كيف أوقفوا السيارة وجروا المدير قابيل الفهد إلى سيارتهم وانطلقوا به ، فأخذ يصرخ مناديا ً امه وأباه:
- ماما.. بابا.. خطفوا مدير المدرسة أستاذ قابيل..خطفوا مدير المدرسة أستاذ قابيل..
ف ُتح باب عند منعطف الشارع وخرجت امرأتان ورجل ، وإمارات الفزع والاستياء على وجوههم . وسأل الأب ابنه:
- من الذي خطفه..وإلى أين توجهوا..؟
فأشار الصبي إلى الاتجاه الذي توجه الخاطفون نحوه ، وقال:
- من هنا رحلوا.. أنا رأيته.. مدير المدرسة أستاذ قابيل.. إثنان كتفّاه، والثالث كان يحمل مسدساً.. أدخلوه السيارة..وتحركوا بسرعة..
صاح الأب على أحد داخل المنزل بأن يأتيه بالهاتف النقال ، وبعد لحظات ظهرت فتاة شابة قرب الباب ، أعطته جهاز الهاتف ، فاتصل فورا ً بأرقام يعرفها ، قائلا ً لهم بأن مدير المدرسة الابتدائية التي في منطقتهم قد أ ُختطف من قبل مجموعة ، وأن سيارته موجودة ومفتوحة الباب.
حينما اتصلت حواء الكرخي بآدم الشبيبي ، كان الآخر ينقح تحقيقا ً صحفيا ً كان قد أعده عن مجموعة من الرجال المثليين ، الذين يعيشون في بيت قديم ، في المنطقة التي تقع فيها أكاديمية الفنون الجميلة ، لذا فما أن حدثته حواء الكرخي عن انطباعاتها الأولية التي تولدت لديها من زيارتها لحواء الزاهد ، حتى اتصل بقابيل الفهد مباشرة بعد الانتهاء من مكالمته ، ليخبره بانطباعات حواء الكرخي عن الزيارة ، إلا أن هاتف صديقه كان مغلقا ً، فتصور أن الأمر له علاقة بروتين العمل ، بالإصطفاف الصباحي للتلاميذ ، وما شابه من مشاغل بداية الدوام اليومي ، فعاد إلى

عمله في إعداد التحقيق للمجلة الإسبوعية التي يعمل فيها محررا ًفي قسم التحقيقات.

بعد مضي ساعة ونصف من محاولة اتصاله الأولى ، اتصل ثانية ، فكان الجهاز مغلقا ًأيضا . راوده شعور غير مريح ، لكنه لم يذهب ذهنه بعيدا ً إلى الحد الذي يتصور فيه بأن يتعرض للإختطاف . صحيح أنه حدثه بالأمس عن مطاردة سيارة بيجو بيضاء له ، ويعتقد أنه رأى محاسب المدرسة آدم الأسير ضمن الرجال المطاردين له ، لكن تبقى هذه المطاردة كإستفزاز ، كرسالة تهديد مبطنة . فجأة ، داهمه القلق .. صحيح أنه لم يقلق أول الأمر ، لكنه استذكر ما قاله له ليلة أمس بأن حواء الزاهد استلمت رسالة تؤكد بأنهم يتنصتون على هاتفه ، ويتهمونه بأنه عشيق الأرملة حواء الزاهد .. أيمكن أن يكون هؤلاء فعلا ًقد فعلوا له شيئا ؟.

كانت الأفكار تتصاعد وتتكاثف مثل غيوم سود في ذهن آدم الشبيبي . اتصل مرة أخرى بقابيل الفهد ، إلا أن الهاتف كان ميتا بالكامل . خطرت في ذهنه فكرة أن يتصل برقمه الأرضي ، وفعلا ً جرب الاتصال بهاتف المكتب الأرضي.

كان الهاتف الأرضي يرن .. ويرن .. ولا أحد يجيب . فكر مع نفسه بأنه ربما يكون مشغولا ً، سيتصل بعد قليل أيضا ً. قام ليعد لنفسه الشاي ، وبينما هو في المطبخ رن هاتفه النقال ، فركض مسرعا ، لكن أمله خاب حينما عرف بأن الاتصال من القسم الفني بالمجلة ، وهم يسألونه عن الصور المرفقة بالتحقيق ، وأن عليه أن يرسلها إليهم كي ينتقوا منها ، ولكي يجروا عليها بعض الضبط من خلال برنامج الفوتوشوب ، فوعدهم بأن يقوم بذلك بعد قليل . عاد إلى المطبخ ، فأعد لنفسه كوبا ًمن الشاي ، وعاد إلى طاولته حيث يعمل ، وما أن وضع الكوب حتى أخذ جهاز الهاتف متصلا ًبهاتف قابيل الذي كان مغلقا ً، فطلب هاتف المكتب مرة أخرى ، رن الهاتف ، وظل يرن ، وفجأة تم رفع السماعة ، وقبل أن يسمع أي صوت صاح :

- أين أنت يارجل..؟ منذ أكثر من ساعة وأنا أتصل بك دون جدوى..تليفونك مغلق..

لم يجبه أي أحد من الطرف الآخر ، فصاح:

- ألو.. قابيل؟

فسمع صوتا ًمرتجفا ًيجيب:

- من حضرتك..؟ ومع مَن تريد أن تتحدث؟

- أنا آدم الشبيبي..صديق الأستاذ قابيل.. هل أستطيع الحديث مع الأستاذ قابيل رجاءً؟

صمت الصوت في الجهة الأخرى للحظات ، ثم جاء الصوت المرتجف ثانية ، وهو بالكاد يُسمع لشدة ارتباكه ومحاولة كتمانه:

- لا أعرف ماذا أقول لك أستاذ.. لا أستطيع أن أؤكد..لكن سمعنا أن الأستاذ قابيل قد تم اختطافه من أمام المدرسة صباح هذا اليوم..

- ماذا تقول..؟

قفز آدم الشبيبي من كرسيه ، وبحركة لا إرادية دفع الكوب فانسكب الشاي على الطاولة مبللاً بعض الأوراق .. فأخذ منديلاً كان على ظهر الكرسي وألقاه على الشاي المنسكب وهو يصرخ منفعلاً:

- متى.. وكيف.. ولماذا.. ومن؟ كيف حدث ذلك..؟

- لا أعرف أستاذ.. أحد التلاميذ شاهد عملية الإختطاف.. وجاءت الشرطة، وهم يجرون تحقيقاً..

- سوف آتيكم الآن..

- أنصحك ألا تأتي.. حفاظاً على سلامتك.. لكن إذا كانت لديك علاقات بالمسؤولين في الدولة.. والأحزاب الدينية فيمكنك أن تتحرك إليهم..

- ماذا تقول.. ومن أنت أولاً..؟

- أنا مستخدم وساعي بريد المدرسة.. وصدقني يا ابني الأستاذ قابيل كان مثل ابني أيضاً..لذلك من محبتي له أقول لك.. لا تأت إلى المدرسة.. وأسرع إلى معارفك من المسؤولين.. لا أحد يعرف..فربما يريدون مالاً.. وربما ثأر عشائري.. لا أعرف..

لم يستطع آدم الشبيبي أن يستوعب الحدث ، جلس منهاراً على الصوفا الجلدية في صالون الشقة ، وكان يسمع صوت المستخدم في الطرف الآخر من الهاتف يصيح:

- ألو..ألو.. أستاذ.. ألو..

لم يستطع آدم الشبيبي أن يواصل الكلام ، فقطع الاتصال بالطرف الاخر ، وانهار باكياً.

لا يعرف آدم الشبيبي من أين أتته كل هذه الدموع ، ولم يكتشف عمق محبته لصديقه قابيل الفهد إلا هذه اللحظة ، حين أحس أن صديقه في خطر ، وأنه قد يُقتل بسهولة ، وبدون أي شعور بالتردد أو الشفقة ، فقد كان يتخيل هؤلاء الخاطفين ، الذين سمع عنهم ، وشاهد جثث ضحاياهم المشوهة من أثر التعذيب ، والقتل الوحشي ، وفكر مع نفسه ،

أيعقل أن يكون المحاسب آدم الأسير وراء ذلك؟ فجأة ، أخذ الهاتف واتصل ثانية بمكتب قابيل الفهد ، وبعد لحظات من الرنين ، سمع صوتا ً خشنا ً يجيبه مباشرة:

- ألو..

انتبه آدم الشبيبي لنبرة الصوت الخشنة ، فأدرك بأنه ليس المستخدم الذي حدثه قبل قليل ، لكنه لم يتردد ، فسأل:

- عفواً.. من يتكلم؟.. الأستاذ آدم الأسير.. المحاسب..؟
- أنا هو.. من حضرتك..؟

أحس آدم الشبيبي بالخوف ، فأغلق الخط مباشرة . كيف يمكن أن يكون آدم الأسير في المدرسة ، بينما قابيل قد تم خطفه؟ هذا يعني أنه ليس معهم؟ أو أنهم خططوا لذلك بحيث يبعدون الشبهة عنه؟ وإذا لم يكن لآدم الأسير صلة بالإختطاف ، فمن يا ترُى قام بذلك؟ كانت الأفكار تدور في عقل ونفس آدم الشبيبي . فجأة ، انتبه إلى أنه يضيع الوقت بجلوسه دون أن يقوم بأي فعل يساعد في كشف ملابسات الإختطاف ، فكر أن يتصل بصديقته حواء الكرخي ، لكنه يعرف أنها عند حواء الزاهد ، كما أنه لا يريد أن يرعبهما ، إلى أن يتأكد من الأمر ، والمهم الآن أن يتصل بأي شخص من أصدقائه لديه بعض النفوذ ، فاتصل بأصدقاء له في المجلة ، وأخبرهم باختطاف قابيل الفهد ، وكان بعضهم يعرفه من خلال آدم الشبيبي.

أحد الأصدقاء أخذ على عاتقه أن يتصل ببعض الوجوه القيادية في بعض التنظيمات ، وطلب منه ذلك الصديق بأن يأتيه إلى المجلة ، فقام آدم الشبيبي على عجل ، ولملم أوراقه على الطاولة وكاميرته ، ووضعهما في حقيبة جلدية تحمل على الكتف ، ثم التقط هاتفه النقال وخرج.

* * *

كان قابيل الفهد قد أدخل إلى غرفة جرداء في بيت مهجور وناءٍ بمنطقة تقع خلف مدينة الحسينية بأطراف مدينة بغداد في الطريق المتجه نحو الخالص وديالى . وكانوا قد عصبوا عينيه بعصابة سوداء طوال الطريق.

لم يكن في الغرفة شيء سوى كرسي يتوسطها ، أجلسوا قابيل عليه وشدوا وثاقه بقوة ، أما الجدران فجميعها كانت ملوثة بلون أحمر مائل للسواد يبدو وكأنه دم أشخاص تم تعذيبهم هنا ، ويبرز من أحد جدارنها حمالة حديدية تشبه حمالات الجثث في مجازر القصابين.

كانت ذلك البيت يقع ضمن صف بيوت مهدمة ومهجورة . فبعض تلك

البيوت قد تهدمت سقوفها وانهارت داخل الغرف ، وحتى البيت الشقة التي أدخل قابيل الفهد إليه قد انهار جانب من سقوفه ، إلا أن ثلاث غرف منه ما زالت صالحة ولم تتعرض لأذى ، لكن البيت في كل الأحوال لا يثير الإنتباه لكونه ضمن سلسلة بيوت مهدمة بعيدة عن المنطقة السكنية نسبيا ً.
كان قابيل الفهد منذ لحظة إختطافه يحاول أن يعرف هوية هؤلاء الذين قاموا بإختطافه ، فبالرغم من أنهم قد كمموا فمه بشريط لاصق ، إلا أنه كان يسمع حوارهم النادر ، فقد أدرك بأنهم حذرون جدا ًمن الكلام في السيارة ، وكانوا طوال الوقت شبه صامتين ، ولم يتبادلوا سوى جمل شبه مشفرة ، لم يستطع أن يصل من خلالها إلى شيء.
كان ثمة شيء بارد أشبه بسائل الموت قد سرى في كل كيانه ، فقد استسلم لمصيره بشكل عبثي ، ولم يحزنه سوى أنه لا يعرف من هم .. ؟ ولماذا اختطفوه .. ؟ وماذا يريدون منه؟ ولا يدري لماذا تذكر وهو في تلك اللحظات كلام صديقه المندائي الذي حدثه عن سر سلام الطائفة المندائية وعدم خوضهم القتال ، لأنها تعتقد بأن الإنسان يجب أن يموت موتا ً طبيعيا ً، سريريا ً، وإلا فأن روحه تظل هائمة ، ولا تذهب إلى الفردوس ، لذا فإذا ما قُتل بهذه الطريقة غير الطبيعية ، على أيدي هؤلاء ستبقي روحه هائمة ، لكنه تذكر أيضا بأنه ليس مندائيا ً، ولكن لماذا ألحت عليه هذه الفكرة في مثل هذا الوضع المرعب الذي يمر به؟
كان غارقا ً في عالمه الذاتي ، حينما سمع صوت رجل رابع قد دخل الغرفة ، وهو يقول لهم بحقد وغضب مكتوم:
- هذا هو العشيق الجديد لتلك العاهرة إذاً؟
- نعم هو يا حاج هابيل
- سنرى ما ذا يمكننا أن نفعل به، لكن قبل كل شيء أريد أن أعرف منه كيف ومتى بدأت علاقته معها؟ وهل ناكها أيضا؟
- أنت تأمر يا حاج هابيل.. سندعه يتقيأ كل ما يعرفه وما فعله معها.
- إذاً، باشروا..
أدرك قابيل الفهد بكل وضوح بأن هؤلاء يقصدون السيدة حواء الزاهد ، إذا ً فما قاله المستخدم ساعي بريد المدرسة صحيح ، كما أن حديثه مع المحاسب آدم الأسير ودفاعه عن حواء الزاهد هو ما عجل بإختطافه ، لكن إذا كان آدم الأسير هو أحد القتلة الأربعة ، والثلاثة الباقون هم في السجن فمن هو الحاج هابيل إذا ً؟ أدرك قابيل الفهد بأنه في خطر

حقيقي ، وأنهم سيقتلونه مثلما قتلوا آدم المحروم ، لكن آدم المحروم كان عشيقاً حقيقياً لحواء الزاهد ، بينما هو حاول التقرب منها لا أكثر ، ولو كان معها فعلاً ، لما أحس بمثل هذه الخيبة والشفقة على نفسه .
وبينما كان هو غارقاً في أفكاره تلك حتى أحس بيد تسحب الشريط اللاصق عن فمه فشعر بألم لإلتصاق بعض شعر شاربه بالشريط ، كما أحس بأن شيئا من أطراف شفتيه قد سلخ مع الشريط ، فشعر بسائل دافئ ينساب على طرف شفتيه . وسمع صوتاً يخاطبه بحزم ونبرة كراهية واضحة:

- ما هو اسمك؟
- قابيل الفهد..
- وما هو عملك؟
- مدير مدرسة.. وأعتقد أنكم تعرفون ذلك وإلا كيف جئتم بإنسان لا تعرفون من هو؟

لم ينته من كلمته الأخيرة حتى أحس بصفعة قوية جاءت على رقبته من الخلف ، فهزته هزاً كاد يسقط هو والكرسي على أثرها ، إلا أن أحدهم أوقف اهتزاز الكرسي برجله . فسمع من يقول له:

- لسانك الطويل هذا سنقطعه وندخله في طيزك إذا فتحت فمك بأكثر مما نسألك، هل فهمت؟

لم يجب قابيل الفهد ، وإنما أحنى رأسه ، إلا أنه بذلك أثار غضب الذي يستجوبه ، فصرخ المقابل بشكل هستيري ، وبعنف:

- هل فهمت؟

فتمتم قابيل الفهد بصوت منكسر:

- فهمت..

لأول مرة منذ لحظة إختطافه أحس قابيل الفهد بالذل والإهانة . من أين يا تُرى هؤلاء الرجال ، لأية فئة من الناس ينتمون ، ما هذا الحقد الذي يتأجج كالنار في نفوسهم ، يا إلهي ، هل هؤلاء هم يحكمون البلاد الآن؟ لا .. لا .. هذه أساليب أجهزة المخابرات والأمن في نظام البعث ، وبلا شك هؤلاء كانوا يعملون في تلك الأجهزة ، والآن لبسوا السواد ، وأطالوا اللحى ، ونظموا المواكب والتعازي الحسينية ، وصاروا من كوادر الأحزاب الدينية التي كانت تبحث عن أتباع ، نعم ، وإلا أين تعلموا أساليب الإختطاف والاستجواب؟ . كان قابيل الفهد يفكر مع نفسه . ومرة أخرى قاطعه صوت الذي يستجوبه:

- ما علاقتك بالعاهرة حواء الزاهد؟
لا يعرف قابيل الفهد من أين جاءته الشجاعة في ذلك الموقف العصيب ليجيبهم بتحد:
- أولاً هي ليست بعاهرة، وإنما امرأة شريفة، أرملة تحاول أن تربي أبناءها لا أكثر ولا أقل، وأنا لستُ......
ولم يكمل جملته إذ جاءته ركلة من أحد الرجال الواقفين أمامه في صدره فانقلب مع كرسيه إلى الوراء ، ولسوء حظه ، كان ثمة خشبة فيها مسمار بارز قليلا ً، فأصطدم رأسه بتلك الخشبة ، فندت عنه صرخة ألم وحشي ، فأسرعوا بتعديل الكرسي المشدود هو إليه . سال الدم غزيرا ً، ملطخا ً شعره من الخلف ، ورقبته ، وياقة قميصه ، بسرعة أذهلت المختطفين ، فأسرع أحدهم لسحب الخشبة التي انغرز مسمارها عميقا ً في رأسه ، وآخر أسرع إلى إحدى الغرف ، ثم عاد بعد لحظات ببقايا قميص ممزق ، فشد رأسه بقوة ، فصار رأسه مشدودا ً بعصابتين ، إحداهما على عينيه والأخرى على الجرح.
أحس قابيل الفهد بصداع يخترق رأسه ، وكأن قلبه صار في رأسه ، وأن دماغه ينبض أيضا ً. سمع صوت الحاج هابيل الذي ميزه من جملته التي قالها في هذه الغرفة ، يسأله بغضب:
- لا نريد منك شهادة حسن سلوك عن العاهرة حواء الزاهد.. وإنما نسألك عن علاقتك بها، هل فهمت، وإلا لن تخرج من هذه الغرفة حياً؟
فقال بصوت ممزوج بالألم :
- ليست لي علاقة بها..
أحس بصفعة قوية على خده ، وبصفير وطنين في أعماق أذنه.
- كذاب..
- هذه هي الحقيقة..
تمتم قابيل الفهد بحزن وكأنه يبكي . هيمن صمت للحظات ، تبادل الرجال الخمسة النظرات في ما بينهم ، إلا أن الحاج صاح به:
- وماذا كانت تفعل عندك في المكتب؟ ألم تكتف بأن تفعل بها في البيت، حتى صارت تأتي إليك في المكتب لتنيكها؟
أجاب قابيل الفهد بصوت بنبرة فيها يمتزج فيها التوسل والشجاعة المرتبكة :
- أنا لم أزرها أبداً في البيت، وقد جاءت لمرة واحدة إلى المدرسة لتأخذ ابنها آدم، لأنها كانت تريد أن تذهب بابنها الرضيع إلى الطبيب.. هذا كل ما في الأمر..

- ابنها الرضيع نغل.. آدم الملاك وحده ابن أخي..
فجأة ، أحس قابيل الفهد وكأنه صار خارج دائرة الغرفة ، إذ تيقن بأن هذا الحاج هابيل هو أخو زوج حواء الزاهد ، وربما هو قد هرب من السجن ، أو دفع رشوة للخروج من السجن ، وهو الذي ذبح آدم المحروم ، إلا أنه عاد إلى واقع الغرفة على أثر تكرار الحاج هابيل لجملته:
- ابنها الرضيع نغل.. آدم الملاك وحده ابن أخي.. هل فهمت؟
- فهمت؟
التفت الحاج هابيل إلى البقية ، وسمع قابيل الفهد صوته ، وهو يقول لهم:
- إبقوه الليلة هنا.. مع الخروف الآخر في الغرفة الثانية.. سنعود إليه مساءً لنفهم منه أكثر..
أحس من وقع الأقدام بأن الذي يسمونه الحاج هابيل قد غادر المكان ، وما أن سمع هدير محرك سيارته المغادرة ، حتى حمله ، وهو على جلسته مشدودا ً إلى الكرسي ، إثنان منهم ، وخرجا به من الغرفة ، وأدرك أنهما أدخلاه إلى غرفة أخرى ، حيث كانت الرائحة عطنة ، جيفة لبراز ، وقيء ، وبول ، ورائحة دم متخثر . وفجأة ، سمع أنينا ً خافتا ً، لم يعرف مصدره ، إذا ً هو ليس وحده هنا . تركاه هناك ، وسمع الباب يغلق.
* * *
حين وصل آدم الشبيبي إلى المجلة التي تقع في الطابق الثالث من بناية قديمة متعددة الإستخدام حيث فيها مكاتب تجارية وعيادات أطباء ، ومخازن لأصحاب الدكاكين المتخصصة ببيع الكرزات والحلويات التركية والإيرانية ، تقع بالقرب من المسرح الوطني ، وجد أن الجميع ينتظرونه .
الجميع كان ينتظر أن يروي لهم أحداث عملية الإختطاف ، لكنه حين صار في القاعة الرئيسية ، تجمع معظم العاملين حوله ، فروى لهم باقتضاب ما جرى ، منذ مطارد سيارة البيجو البيضاء له أمس ، ثم انزوى مع زميله الذي وعده بالاتصال بالمسؤولين القياديين في التنظيمات الإسلامية المسلحة ، وتحدثا قليلا ً عن بعض التفاصيل التي تخص قابيل الفهد ، معلومات شخصية ، وتخمينات دوافع الإختطاف ، وشرح له آدم الشبيبي بعض ملابسات علاقته بحواء الزاهد ، ومشكلتها مع رسائل التهديد ، فاتصل زميله بأكثر من شخص من الكوادر القيادية في التنظيمات الإسلامية المختلفة .
الجميع تأسف للحادث ، ووعد أن يتقصى الأمر ويجيب عن نتيجة المحاولات فورا ً.

ظل آدم الشبيبي مزروعا ًقرب صديقه الذي كان ينتظر أية مكالمة من الأطراف التي اتصل بها . مرت ساعات دون أن يتصل بصديقه أحد ، وكان صديقه يحاول تهدئته ، وتهدئة نفسه أيضا ، مبررا ًفي أن هؤلاء لم يتصلوا بسبب محاولاتهم لتقصي الأمر من التنظيمات المسلحة التي ترتبط بهم ، لذا فليس أمامهم من شيء سوى الإنتظار.

كان آدم الشبيبي محتارا ًما بين أن يتصل بحواء الكرخي ويخبرها بالأمر ، فهو يشعر بحاجته إليها جدا ًفي مثل هذا الوضع ، وبين التريث للحصول على الخبر اليقين من هذه التنظيمات ، مهما كان طبيعته ، ومن ثم الاتصال بها . وأخيرا قرر ألا يتصل بها ، لاسيما وهي أخبرته بأنها ستمر عليه عصرا ً.

حين قاربت الساعة الخامسة عصرا ً، يئس آدم الشبيبي وصديقه من الوصول إلى نتيجة حول مصير قابيل الفهد ، بالرغم من أن صديقه اتصل بتلك الجهات مرات عدة ، إلا أنهم جميعا ًكان يبدون اهتماما ًخلال حديثهم ، لكنهم يختفون لساعات دون أن يعطوا أي جواب ، ولم يكن أمامهما سوى أن يستسلما للأمر الواقع ، فغادر آدم الشبيبي المجلة عائدا ً إلى شقته ، بينما وعده زميله بأنه سيخبره بأية نتيجة يتوصل إليها.

بينما كان آدم الشبيبي يفتح باب شقته رن هاتفه فأخذه بلهفة دون أن يكمل فتح الباب ، فقرأ اسم حواء الكرخي ، وقبل أن ينطق بأي شيء ، جاء صوتها متدفقا ً، دافئا ، مليئا بالفرح ، حيث سألته مباشرة عن مكان تواجده ، فقال لها بانه عند باب الشقة بالضبط ، فقالت له بأن ينتظرها ، فهي تريد أن تحدثه عن حواء الزاهد ، وسألته أن كان قابيل الفهد سيأتي إليه ، لأنها اتصلت به مرتين وكان تليفونه مغلقا ً، فلم يعلق شيئا ، وسألها أين هي فقالت إنها قرب باب العمارة ، وخلال دقائق ستكون عنده.

حين صار آدم الشبيبي في الشقة لم يكن يعرف ماذا يفعل . كان يائسا ً، وخائفا ً، ولديه إحساس بكارثة قريبة ستحل عليه ، وخبر فاجع سين ّهد على رأسه كنيزك سماوي ، فقد كان يتهرب من يقين داخلي يعرفه جيدا ً، بأن من يقع في أيدي مثل هؤلاء المختطفين ، فأنه سي ُقتل بطريقة بشعة ، وربما لن ي ُعثر على أثر له ، وبينما كان غارقا في مشاعره أحس بالعبرة تخنقه شفقة وحزنا على صديقه الذي وقع بين أيدي هؤلاء الأوغاد . خلال تلك اللحظات سمع رنين جرس الباب ، فقام منكسرا ، محاولا ً أن يتماسك أمام حواء الكرخي ، لكنه ما أن فتح لها الباب حتى ارتسمت

ملامح الخوف والدهشة على وجهها حينما نظرت إليه ، ولم يستطع هو أن يرحب بها ، أو أن يقولوا شيئا ، وإنما فتح الباب لها وعاد إلى داخل الشقة ، فدخلت تتبعه ، متلهفة لمعرفة ما جرى ، إلا أنه كان يتجنبها ، فقفزت وصارت أمامه ، وهزته من ذراعه وهي تقول بصوت حازم وبصوت عال:

- قل لي ماذا هناك، ماذا جرى؟

صمت للحظات لكنه لم يستطع الكتمان أكثر فألقى بنفسه على الصوفا وقال والعبرة تخنقه:

- لقد اختطفوا قابيل الفهد؟

كان وقع الخبر على حواء الكرخي قويا ً صادما ً. كانت تأمل أن تراه هنا كي تحكي له انطباعاتها الرائعة عن حواء الزاهد وجمالها وشخصيتها الساحرة ، لكنه رحل بهذه السرعة ، فليس هناك من أمل في مثل حالة قابيل الفهد ، فهؤلاء أوغاد يريدون الانتقام منه ، ولم يقدموا على فعلتهم من أجل الحصول على المال . أحست بساقيها ترتجفان ، وقلبها يخفق بشدة ، وانقباض يمسك بصدرها ، فجلست بهدوء على الكرسي أمام الطاولة ، ووضعت رأسها بين يديها وهي تفكر بالحالة التي ستكون عليها حواء الزاهد لو عرفت بالخبر.

تج ّار الموت

حين أحس قابيل الفهد أن الخاطفين قد ذهبوا ، وصار وحيدا ًفي الغرفة ، رك ّز كل ذهنه في إعادة شريط ما مر به من أحداث ، وتفسير كل جملة قيلت ، والتفكير في ما سيحدث معه مساء ً، وما يمكن أن يحدث مع السيدة حواء الزاهد ، إلا أن الأنين الذي كان يسمعه في الغرفة ، أعاق تفكيره.

كلما كان يتوغل في تفكيره ، يتصاعد الأنين فيحس أنه مراقب !. م َن تراه في الغرفة معه يئن هكذا؟ أهي لعبة منهم في أن يملأوه بالكوابيس؟ لكن هل ت ُرى هناك كابوس أبشع من الذي يعيشه الآن كي يزيدوا من محاولات تحطيمه نفسيا ً؟ هكذا كان يهمهم مع نفسه بصوت صامت . فجأة ، أحس بحركة ما في زاوية الغرفة ، وبعد لحظات سمع صوت بكاء مكتوم ، صوت إنسان في منتهى الخوف ، واليأس ، والضعف ، ثم تمتم صوت بالكاد يكون بشريا ً، صوت مليء بالقهر والخوف واليأس والتوسل:

- أين أنتِ يا أمي..؟ تعالي انقذيني.. سيذبحونني.. آخ يا أمي..

إذا ً، فهو ليس وحده هنا في هذه الغرفة ، فثمة شخص آخر ، وهذه ليست لعبة من قبلهم لبث الرعب في نفسه ، وفجأة ، أحس قابيل الفهد أنه أدرك معنى كلمة (الخرفان) التي قالها الحاج هابيل قبل أن يخرج ، أي أن هناك من سي ُذبح ، ويبدو أن هذا الفتى مرشح للذبح ، وهو أيضا ، لكنهم لم ينتهوا منه بعد.

تردد قابيل الفهد قليلا ً، قبل أن يبادر بمحاولة الحديث مع الشخص الآخر ، لكن فكر مع نفسه بأنه عليه أن يبحث عن أي وسيلة للخلاص ، على الأقل معرفة ما يجري هنا ، وأين هو أساسا ً، فسأل بصوت مكتوم ، ملؤه الخوف والتردد:

- هل هناك أحد هنا؟ من يبكي؟

فجأة انقطع البكاء والأنين ، وهيمن صمت كامل على الغرفة . أدرك قابيل الفهد بأن الآخر خاف من وجوده . بعد لحظات كرر سؤاله:

- هل هناك أحد غيري هنا في هذه الغرفة؟

لم يجبه أحد.

- هل يوجد أحد هنا؟

كرر سؤاله.

فجأة سمع صوتا ًخائفا ً، مرتعشا ً، يائسا ً، يسأله جوابا ًعلى سؤاله:

- مَن أنت؟

برغم التدهور النفسي الذي هو فيه ، أحس قابيل الفهد بشيء من الألفة ، والتعاطف الذي ينشأ بسرعة بين الضحايا ، دونما مقدمات ، أو تفسير ، لذا أجاب الشخص الآخر دونما تردد:

- أنا قابيل الفهد، مدير مدرسة، وأنت؟
- أنا آدم ذوالنورين، طالب بكلية الآداب، سنة ثانية؟
- ما هي قصتك؟ لماذا جاءوا بك إلى هنا؟
- لا أعرف.. كنتُ خارجاً من الكلية، منتظراً أمي كي تأخذني بسيارتها، وكنت على بعد أمتار من موقف سيطرة للحرس الوطني. فجأة، اصطفت سيارة نزل منها ثلاثة أشخاص، سحبني إثنان منهم إلى السيارة، أما الثالث فسحب مسدساً ووضع فوهته في ظهري، وبسرعة مذهلة أركبوني السيارة وانطلقوا، وبعد دقيقتين عصبوا عيني بشال، وكمموا فمي بشريط لاصق، وجاءوا بي إلى هنا. لا أحد من رجال الحرس الوطني تدخل، كانوا يبحلقون بنظراتهم الجامدة صامتين وكأن الأمر لا يعنيهم، وليس ثمة إنسان يختطف أمامهم، وكذلك بقية الناس المتجمعين بانتظار سيارات الأجرة، لم يتدخل أحد منهم، سوى امرأة، سمعتُ صوتها وهي تصرخ مشيرة للخاطفين: إنهم يخطفون الولد..إنهم يخطفون الولد يا ناس... لكن لم يتدخل أحد..

كان الشاب يتحدث بصوت متقطع ، وخائف ، لكنه أحس بشيء من الألفة لوجود ضحية أخرى معه ، حاله حال قابيل الفهد ، إلا أنه صمت .. ولم يكمل . انتظر قابيل الفهد أن يواصل قصته ، ولما طال انتظاره ، سأل:

- وماذا بعد.. هل جاءوا بك إلى هنا مباشرة؟
- نعم..
- وماذا جرى معك..هل فهمت لماذا جاءوا بك إلى هنا؟
- نعم..
- لماذا؟

صمت الشخص الآخر ، الذي قال إن اسمه آدم ذوالنورين للحظات ، ثم واصل:

- لأن أبي كان قاضياً.. وهو الذي حكم على هذا المدعو الحاج هابيل بالسجن لسنوات عديدة، هو وأخوه وشخص آخر، لأنهم ذبحوا شخصاً في شقته، ولا أعرف كيف خرجوا من السجن، لأنهم بعد ثلاثة أشهر من ذلك اغتالوا أبي، عند باب البيت وهو يهم بالذهاب إلى المحكمة. أنا متأكد من أنهم الذين قاموا بعملية الإغتيال، والآن اختطفوني لإستكمال إنتقامهم..

أحس قابيل الفهد بإرتعاش هز كل جسده . اصطخبت الأسئلة في نفسه : من هم هؤلاء الناس؟ وأية سلطة يملكون ، بحيث يذبحون البشر بالسكاكين كالخرفان كما عبر الحاج هابيل ، ويقتلون القضاة بالرصاص لمجرد أنهم أصدروا حكماً بناء على مواد قانونية ، وأية قلوب تنبض في صدور هؤلاء؟ .

أحس بخفقان سريع في قلبه ، ورغبة حادة في التبول ، ولم يتردد في أن يطلق مثانته فأحس بالبول الحار يبلله من الأسفل ، وينزل البول عبر ساقه ، إلى جواربه ، ثم إلى داخل حذائه ، كما تصاعدت رائحة اليوريا الخانقة ، فأحس بالخجل لأن رائحة البول انتشرت في الغرفة ، ولا بد أن آدم ذوالنورين قد عرف الآن بأنه بال على نفسه خوفاً، ولكي يبعد هذه الفكرة عن رأسه ، سأله:

- وكيف عرفت كل هذه التفاصيل، أقصد كيف عرفت أنهم هم الذين اغتالوا أباك؟

- هم قالوا لي ذلك اثناء استجوابهم لي..بل إنهم أول ما جاءوا بي إلى هنا، اتصلوا بأمي وطلبوا منها عشرة دفاتر.. كي يطلقوا سراحي، وهددوها أن لا تبلغ أحداً..

- تقصد مائة ألف دولار؟ وهل استجابت والدتك لهم؟

- نعم.. وفي آخر مرة عذبوني فيها، قالوا لي، وهم يسخرون، بأنها استجابت لهم..وطلبت منهم مهلة لجمع المبلغ....

- وكم يومٍ مضى عليك هنا؟

- لا أدري.. لقد اختطفوني ظهر يوم الأثنين.. ومن حينها لا أعرف الليل من النهار..

- اليوم هو الأربعاء..

- ياه..كل هذا الوقت لم يكن سوى ثلاثة أيام؟ ظننته أسبوعاً أو أكثر.. لكن كيف عرفت؟

- لأنهم اختطفوني صباح هذا اليوم؟

- هذا يعني أنك جديد؟

صمتا كلاهما للحظات ، وكأن كلاً منهما كان يبحث عن أسباب خلاصه ، أو عن مصيره ، مع نفسه . فجأة سمع قابيل الفهد الفتى يسأله بخوف ممزوج باليأس:

- هل تعتقد أنهم سيطلقون سراحي بعد أن يستلموا الفدية من أمي؟ أنا خائف..

- ولماذا لا يفعلون ذلك؟ لكن هل أمك تستطيع أن توفر هذا المبلغ الكبير..؟

- أعتقد ذلك.. ربما ستبيع داراً صغيرة نملكها في منطقة راغبة خاتون..أنا متأكد أن أمي ستفعل المستحيل من أجل إنقاذي..أنا ابنها الوحيد..

فجأة انهار الفتى باكيا ًمثل طفل صغير مستنجدا ًبأمه البعيدة ، مخاطبا ً إياها بأن تنجده ، لآئذا ًمن جحيم تلك الغرفة المنسية ، في تلك الخرائب المنسية ، في تلك المنطقة المنسية ، في تلك البلاد المنسية ، إلى حضنها الصغير الدافىء ، باحثا ًعن الأمان . وبالرغم من أن قابيل الفهد يواجه مصيرا ً مشابها ً، إلا أنه أحس بقلبه ينقبض شفقة على هذا الفتى الجامعي المدلل الذي ما زال في أعماقه طفلا ًبريئا ً.

لم يستمر آدم ذوالنورين بالبكاء ، إذ توقف فجأة ، وبعد لحظات سأل بصوت مرتبك ، محاولا ً أن يبدو متماسكا ً، وكأنه لم يكن يولول باكيا ً قبل لحظات كالطفل :

- وأنت؟ لماذا أنت هنا؟ هل أنت سني أم شيعي؟

صمت قابيل الفهد للحظات ، فهو يكره هذا السؤال الذي صار من أكثر الأسئلة التي تطرح على ألسنة الناس من مؤيدي الأحزاب التي تحكم البلاد الآن ، لكنه كان مضطرا ًللإجابة وبصراحة ، فأمام الموت لا مجال للكذب ، ولا مجال لارتداء الأقنعة ، هكذا قال قابيل الفهد لنفسه ، فأجاب بصوت حزين :

- أنا عراقي.. وبس..لا أريد التفكير بأكثر من هذا.. وإذا ما أردت أن أتجاوز هذا التصنيف، فأنا إنسان.. إنسان فقط.

- هل هذا يعني أنت هنا ليس لأسباب طائفية؟

- نعم..

- لكن هؤلاء طائفيون..طوال وقت تعذيبهم لي كانوا يشتمونني، ويشتمون كل الصحابة والخلفاء وكأنني وريثهم الشرعي....!

- إنها الغطاء لتحقيق رغباتهم الدنيئة.. كل طرف يغطي جرائمه بوشاح الإيمان، كي يحولوا ضحاياهم إلى قرابين مقدسة باسم الجماعة التي ينتمون إليها.. وفي النهاية ليس هناك من خاسر أو قربان مجاني سوى قطيع الخرفان من الطرفين، بل ومن العابرين في هذا الليل البهيم..

صمت آدم ذوالنورين للحظات وكأنه يريد أن يستوعب وهو في تلك الحالة النفسية الصعبة مثل هذا الكلام النظري الذي يشبه ما يقرأه في كتب الأنثربولوجيا .. لكنه سأل دون أن يعلق على ما قاله قابيل الفهد:

- إذاً لماذا أنت هنا؟
- بإمكانك أن تسألهم لو أستطعت...!
لم يعلق الفتى على جواب قابيل الفهد ، إذ أحس فيه شيئا ًمن السخرية ، لكنها سخرية على النفس وعلى الآخرين أيضا . في تلك اللحظات التي كان الفتى فيها يفكر مع نفسه ، كان قابيل الفهد يفكر في البرودة التي أخذ يحس بها في بنطاله وساقه ، إذ تحول البول إلى ما يشبه البلل البارد ، لكنه انتبه إلى أن الفتى لم يعلق على جوابه ، وأدرك أن الآخر فهم جملته كسخرية ، بينما هو قالها يأسا ً لعبثية إختطافه ، وأحس بشفقة غريبة على نفسه وعلى الفتى المذعور ، فقال مواصلا ً كلامه:
- لقد اختطفوني بالخطأ.. أقصد أن الحاج هابيل يعتقد أنني على علاقة مع زوجة أخيه..
- وهل أنت على علاقة بها حقاً؟
- لا
- وكيف ستثبت لهم ذلك؟
- لا أعرف..
فجأة ، سمعا وقع خطوات قادمة ثم ف ُتح الباب ، وتوجه أحدهم إلى الفتى وهو يشتمه:
- خذ تحدث مع أمك.. لا تريد أن تدفع الفدية قبل أن تسمع صوتك، خذ حدثها..
- مَن..؟ أمي..؟
قال الفتى بصوت مرتعش ، ولأن عينيه معصوبتان فقد كان ينتظر أن يمد الآخر له بجهاز الهاتف النقال ، فمد يده في الفراغ . كان الآخر ، الملتحي لحية خفيفة ، يقف مبتسما ً بسخرية وهو ينظر إلى هذا المدلل الذي صار خلال ثلاثة أيام ذكرى كائن بشري ، وليس فتى جميلا ًتم اختطافه بعد خروجه من كليته . لم يكن أمام الآخر سوى أن يضع الهاتف في كفه ، فارتبك الفتى وأخذ الهاتف بيد متورمة ، وهو يصرخ باكيا ً، غير ملتفت إلى الموجودين:
- ماما.. الحقيني.. ادفعي لهم ما يريدون.. خلصيني من هنا، أبوس يدك يا أمي.. ماما..أرجوك.. بسرعة..
أخذ الرجل الآخر الهاتف من يده وخاطب أم الفتى بصوت حازم وقوي:
- اسمعت صوته الآن؟ ألم نقل لك إنه ما زال حياً يرزق.. وفي سلام وأمان.. وما عليك الآن إلا أن تدفعي المبلغ.. وسنحدد لك المكان في اتصال

آخر.. لكن إياك أن تتصلي بالشرطة أو الحرس الوطني... لأنك سوف تخسرين ابنك.. ولا تعتقدي أننا لن نعرف ذلك إذا ما فعلته.. لأن جماعتنا في كل مكان.. هل فهمتِ.. وإلى الاتصال المقبل..

أغلق الآخر جهاز الهاتف ، ثم نظر إلى الفتى المذعور ، وقال له بسخرية وشماتة:

- اليوم راح ننيك أمك.. نحن نعرفها..هي حلوة.. ومثيرة..بالرغم من أنها في بداية الأربعين..وهي من أجل ابنها المدلل، لن تبخل بكسها وإنما ستبيع الأول والآخر.. وكل ما تملك من أجله.. بالمناسبة.. نحن نعرفكم جيداً.. وقد راقبناكم لأشهر.. ونعرف أن لأمك عشيقاً ينيكها، لديه مخزن للملابس في المنصور.. تذهب إليه بحجة شراء الملابس لها ولك.. لكن كثيرا ما تذهب لينيكها لا أكثر.. أنت تعرفه..صاحب مخزن آدم وحواء.. الشاب الحلو الذي يقاربك بالعمر، والذي عرفتّك أمك عليه، وصار صديقك.. يعني ينيك زوجة القاضي المحترم واحد بعمر ابنها.. أتعرف من أين لنا كل هذه المعلومات؟ لأننا استجوبنا ذلك الشاب نفسه. أتينا به إلى هنا، وفي هذه الغرفة اعترف لنا بكل شيء.. روى لنا كل شيء عن أمك.. نحن نعرف ما الذي تحبه أمك عند النيك.. هل تريد أن..؟

وبدون إرادة منه ، صرخ الفتى آدم ذوالنورين بالرجل:

- كفى.. يا حقير.. كفى.. لا تتحدث عن أمي بهذا الكلام البذيء..إنها أشرف منك ومن أمك وزوجتك وأختك..

لم يدع الرجل للفتى أن يعبر عن إحتجاجه لما تفوه هو به عن أمه ، إذ ضربه برجله على وجهه ، فانقلب الفتى وكرسيه على الجدار .. ولم يسمع أحد شيئا ً سوى الأنين . وقف الرجل للحظات ، ثم نظر إلى قابيل الفهد ، وقال له غاضبا ً:

- وأنت.. أيها الحقير.. سنعلمك معنى أن تصير دون جواناً.. انتظر إلى عودة الحاج هابيل.. وسنعلمك..

- أنا لستُ دون جوان..

تمتم قابيل الفهد ، إلا أن الرجل دفع برجله كرسيه بقوة ، فانقلب مع كرسيه على إحدى كتفيه ، وشعر بألم قوي في ذراعه ، بينما كان الرجل يصرخ غاضبا ً:

- يا حقير.. أتدري أن مصير كل من يقترب من حواء الزاهد هو الذبح؟! أتدري أن الحاج هابيل كان يريد أن يتزوجها بعد وفاة زوجها الشهيد بسجن بوكا؟! لكن العاهرة كانت قد صادقت شاباً شيوعياً حقيراً.. نال

جزاءه بالذبح في فراشه.. وأن كل من يقترب منها سوف يذبح.. حقراء.. مصيرك لن يختلف عن ذلك الشيوعي الحقير.. وربما أنت شيوعي حقير مثله..

قال ذلك وخرج ، بينما كان قابيل الفهد ، وآدم ذوالنورين يتلويان من الألم.

* * *

بعد أن تجاوزت حواء الكرخي صدمة الخبر الفاجع ، واستمعت بالتفصيل لمحاولات آدم الشبيبي الفاشلة من أجل الوصول إلى معرفة مصير قابيل الفهد ، بادرت هي بطرح فكرة الاتصال بأخيها ، الإسلامي ، الذي صار اليوم من القادة البارزين في الحزب الإسلامي الحاكم ، بالرغم من أنهما لم يتحدثا مع بعضهما البعض منذ أكثر من ثلاثين سنة ، ولم يكن بينهما أي تواصل شخصي ، حتى ولو عبر الهاتف ، فهي في نظره امرأة مارقة ، ومتطرفة في تحررها ، لكنه بالرغم من كل ذلك كان في أعمق أعماقه يكن لها إعجاباً لشجاعتها وقوة شخصيتها.

رحب آدم الشبيبي بالفكرة ، لكنه كان يائساً من استجابته لها ، لأنه يعرف ما بينهما من خلاف ، بينما كانت هي أكثر عملية منه ، إذ أخذت جهاز الهاتف واتصلت بأحد الأقرباء طالبة رقم هاتف أخيها ، ولأن ذلك القريب كان يعرف ما بينهما من توتر في العلاقة ، فقد أعطاها الرقم راجياً منها عدم ذكر اسمه أمامه إذا ما سألها عن كيفية حصولها على الرقم ، فطمأنته بأنها بالتأكيد لن تفعل ذلك.

كتبت الرقم على ورقة ملاحظات صغيرة ، وحينما همت بطلب الرقم أحست بالرهبة قليلاً ، واصطخبت في أعماقها مشاعر متضاربة ، وانهمرت الأسئلة في ذهنها : ماذا لو أغلق الهاتف في وجهها؟ ماذا لو أساء بالكلام لها؟ ماذا لو رحب بها ودعاها لزيارته؟ ثم كيف ستبدأ الحديث معه؟ . لم تتوقف كثيرا عند الأسئلة المنهمرة ، بل فكرت بأنها يجب أن تتصل به لأنه الوحيد الذي يمكن أن يساعدها في معرفة مصير قابيل الفهد.

- ألو.. من يتكلم؟
- هل أستطيع التحدث مع الأستاذ آدم الكرخي رجاءً؟
- من يتحدث.. ؟ أنا هو آدم الكرخي..
- أنا.. أنا.. حواء يا آدم..

مرت بينهما فترة صمت امتدت لما يقارب الدقيقة ، أحست حواء الكرخي خلالها بأنه اصطدم لسماع صوتها ، ولإتصالها المستحيل ، وفعلاً ، كان

توقعها صحيحا ً، إذ أن نبرة صوتها الأخوية والبسيطة فجرت فيه مشاعر كامنة طوال كل هذه السنوات ، فهي الوحيدة الباقية من عائلته ، ووجد نفسه ، لا إراديا ً، يأخذ دور الأخ الأكبر ، فجاء صوته رقيقا ، رقة مكتومة ، كي لا تفسره ضعفا أو إندفاعا ً، أو مسامحة ، سائلا ً:

- هل أنت في بغداد؟
- نعم..
- منذ متى؟
- منذ أشهر عديدة..
- كل هذا الوقت في بغداد ولم تتصلي بي؟
- أنت الآن مشغول ، ومسؤول كبير في الحزب والدولة، عضو برلمان..و..و..
- كفى.. كفى.. أنت ما زلتِ مشاكسة.. على أية حال نحن نبقى أخوة.. هل اتصلت ببنات عمك وبأعمامك؟
- لا
- أحسن.. أين تسكنين؟
- أنا أعيش في شقة مستأجرة..
- لماذا لا تأتين عندي في المنطقة الخضراء؟ لدي بيت كبير ..
- لديك العراق كله.. العراق كله صار عقاراً مسجلاً باسمكم ..
- كفى..لا تدعيني أندم على أني تحدثت معك..
- أنتم الآن في الحكم، وتتضايقون من كلمة بسيطة تقال لكم .. بماذا تختلفون، إذاً، عن الذي سبقكم؟
- نختلف بأننا لسنا نظام المقابر الجماعية.. وأننا لا نلاحق أحداً بسبب معتقداته..
- هل أنت متأكد مما تقول؟
- هل تشكين في ذلك؟
- نعم..بل أنا على يقين بأن الأمر ليس كذلك، ولهذا أنا أتصل بك..

صمت آدم الكرخي للحظات ، ثم قال معاتبا ً:

- هذا يعني أنك لم تتصلي بي لأني أخوك.. وإنما لأن لديك طلباً.. هاتي ما عندك؟ ماذا هناك؟

أحست أنه قال الجملتين الأخيرتين بغضب مكتوم ، وبحزم ، وبنبرة رسمية ، ولولا أنها تريد إنقاذ قابيل الفهد لأنهت الحديث معه ، إلا انها أمسكت نفسها من أن تنجر لرد الفعل ، فقالت له:

- القضية وما فيها يا سعادة النائب.. أن جماعة ينتمون إلى إحدى

التنظيمات الإسلامية قد اختطفت مدير مدرسة في شارع فلسطين صباح هذا اليوم، وهذا الشخص يهمني، فهو من دائرة الأصدقاء المقربين..

- شيوعي؟
- لا.. إنه إنسان مستقل، لكنه ليس متأسلما ً في كل الأحوال؟
- هل هو شيعي أم سني؟
- هل أصدق ما أسمعه يا آدم؟ أمن المعقول أن تسألني أنت مثل هذا السؤال؟ هل صار اختطاف الناس يتم على أساس انتمائهم الطائفي..
- لا تفهميني بشكل خاطىء.. أنا أتحدث عن واقع الحال، وليس لأني اؤمن بذلك..
- أي حال هذا الذي أوصلتمونا إليه.. التأريخ لن يغفر لكم ذلك..
- أعطيني المعلومات الكاملة عنه، وتفاصيل الاختطاف وزمانه ومكانه.. وسأحاول.. لكنني لا أعدك بشيء.. فأنت تعرفين لسنا وحدنا في الساحة..
- متى يمكنني أن أتصل بك للحصول النتيجة..؟
- خلال ساعة أو ساعة ونصف.. فالخطوط في معظم الأحيان عاطلة بسبب التشويش..وسوء أداء شركات الإتصال..

أخبرته بكل الذي تعرفه عن قابيل الفهد ، بما في ذلك علاقته بحواء الزاهد ، الذي تذك ّر آدم الكرخي أباها جيدا ، ووصفه بالرجل النزيه ، وتأسف لأنه قتل بتلك الطريقة البشعة ، ووعدها بمزيد من الإهتمام إكراما لها ولآدم الزاهد.

كان آدم الشبيبي قد استمع للحوار الذي دار بين صديقته حواء الكرخي وأخيها القيادي المعروف في الحزب الحاكم ، فشعر بفرح خفي في أن تكون حواء الكرخي صديقته ، لكنه لم يبد لها ذلك ، وإنما كان قلقا ً على صديقه . فجأة سألها:

- هل تعتقدين أنه سيفعل شيئاً؟
- أعتقد ذلك، فهو ملتزم بوعوده..هذا الذي أعرفه عنه سابقاً، أما الآن، بعدما صار في السلطة، وبعد بريق نجمه، فلا أعرف هل تغيّر أو لا؟ سنرى ذلك..لقد وعدني بالإجابة خلال ساعة..وسننتظر..
- هل تعتقدين أنه من المناسب أن نتصل بحواء الزاهد لنخبرها بالأمر؟
- لا أعتقد ان ذلك سيكون تصرفاً سليماً من قبلنا..أعتقد أن علينا الانتظار حتى معرفة النتيجة..ناهيك عن كونها هي بالأساس مرعوبة من رسائل التهديد..فكيف نخبرها بأنهم وصلوا إلى الأستاذ قابيل الفهد..!
- هذا صحيح..علينا التريث لحين معرفة النتيجة..

* * *

طوال النهار الذي قضته حواء الكرخي في المنزل كانت حواء الزاهد تشعر بسعادة افتقدتها منذ رحيل والدها ومقتل حبيبها آدم المحروم ، فقد شعرت نحوها بمحبة كبيرة ، وحينما غادرت أحست بفقدان مفاجىء وشعور بالفراغ ، لكنها كانت تواسي نفسها بأنها قد وعدتها بالعودة للمبيت عندها .

كانت حواء الزاهد تستعيد كل ما دار بينهما من حديث ، وأحست أنها قد تعرفت من خلال حواء الكرخي على عالمٍ جديد ، وعلى مشاهد واسعة وشاسعة لحياة الناس والمرأة في هذه البلاد ، وعرفت أن هناك أشكالا ً أخرى من الحياة لم تسمع بها سابقا ً، وكم تمنت لو أنها تستطيع أن تخرج من شرنقتها التي هي فيها كي تحلق عاليا ً، لكنها سرعان ما تنظر إلى ولديها وتحس أن حياتها قد أغلقت دائرتها ، فليس هناك ثمة حياة أخرى لها غير تربية هذين الطفلين ، وتوفير السعادة لهما ، وأنها لا تريد من هذه الدنيا غير الأمان ، ولتستمر الحياة من أمام بابها بكل صخبها وضجيج أفراحها ، دون أن تطرقه ، فقد رضيت بهذا القليل من الفرح ، فعالمها هو هذا البيت ، وهذان الطفلان ، وشيء من الفرح تمنحه لها قراءة الكتب ، فالكتب والروايات بالتحديد تأتي بالعالم إلى غرفتها ، أو تنقلها إلى بلدان غريبة ، وتنزل بها إلى أعماق النفس ، لدرجة أنها ترى ذاتها هناك ، هكذا كانت حواء تفلسف الأشياء مفكرة مع نفسها . فجأة تذكرت رواية آدم البغدادي ، وأحست بشوق لمعرفة ما جرى لآدم التائه مع إيفا ليسنج ، وماذا سيكون مصير علاقته مع إيفا جايكوفسكايا ، وبما أن حواء الكرخي قد وعدتها بالمبيت عندها ، إذن فلتستغل الوقت بالقراءة لحين مجيئها.

نظرت إلى ابنها آدم الملاك فوجدته ، في غرفة الاستقبال ، لاهيا بدفاتره وأقلامه ورسوماته الطفولية التي كان قد أخرجها حينما كانت حواء الكرخي موجودة ، والتي علمته رسم منظر النهر الذي يعلو أمواجه قارب صغير ، وعلى إحدى ضفتيه كوخ صغير وعلى الضفة الأخرى نخلة ، وفي السماء شمس غاربة وغيوم وبعض الطيور المحلقة ، فكان مشغولا بتقليد تلك الصورة التخطيطية ومحاولة تلوينها بالأقلام المبعثرة أمامه . أحست أن ابنها كان سعيدا ً بوجود حواء الكرخي التي غمرته بعواطف لم يعرفها من آخرين سوى من أمه ، وجده ومن حبيبها آدم المحروم.

حين دخلت إلى غرفة النوم كان رضيعها نائما ً، وانتبهت إلى أنه يحرك

شفتيه وكأنه يرضع شيئا ً، ابتسمت ، فكرت لحظتها مع نفسها ، هل الأطفال يحلمون مثل الكبار أو لا؟ . جلست على حافة السرير . أحست ، فجأة ، بأن ثمة فراغا ً هائلا ً في رأسها ، وثمة شعورا ً بهدوء غريب ، وعدم الرغبة في أي شيء ، وكأنها قد ف ُرغ ّت من أية أفكار ، وأحست وكأنها تطير في الهواء ، فتمددت قليلا ً على السرير ، وللحظات أحست بأنها خارج المكان ، أغمضت عينيها وغابت في البياض.

أفاقت حواء الزاهد بعد دقائق قليلة ، لكنها شعرت وكأنها قد غفت طويلا ً، وأنها قد انفصلت عن هذا العالم ، لكن أين كانت؟ لم تشغل نفسها بالتفكير طويلا ً، وإنما مدت يدها إلى المخطوطة وسحبتها إليها ، وبهدوء بدأت تقلب صفحاتها ، إلى أن وصلت إلى الفصل الذي توقفت عنده ، اتكأت على والوسادة وبدأت رحلة القراءة.

أشباح كالدخـان

كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف ليلا ً، حينما غادر آدم التائه غرفته في فندق كونغ سنتر ، متوجها ً إلى فندق صوفيتيل ميونخ ، كي يكون هناك في الساعة الحادية عشرة بالضبط . كان متأكدا ً من أن نصف ساعة من الوقت سيكون كافيا ً للوصول إلى الفندق في مثل هذا الطقس البارد ، وحيث الثلوج تغطي الشوارع كلها.

أغلق الباب خلفه ، تاركا ً إيفا جايكوفسكايا تشاهد التلفزيون . لقد روت له أشياء كثيرة جدا ً عن حياتها العائلية والخاصة ، بتفاصل جديدة وغريبة ، بحيث أخذ بمراجعة تصوراته النظرية ، في مجال تحليل النفس البشرية ، التي كان مؤمنا ً بها ، معتقدا ً أنها عامة ، ويمكن أن تكون لدى جميع البشر ، فما روته أكد له العكس ، من أن دروب البشر للوصول إلى إرواء رغبتهم الجنسية ، تختلف من إنسان إلى آخر ، بغض النظر عن كونه رجلا ً أو امرأة ، بل وإن هذه الدروب تتشعب وتتغير في كل مرحلة من مراحل حياته ، وربما سيكتب عن تجربة إيفا جايكوفسكايا ذات يوم في رواياته التي يخطط لكتابتها.

كان الممر الضيق في طابقه خاليا ً، وكان هو يسير بعدم انتباه كامل ، مشغول البال . فجأة أحس بمرور شيء ما أمامه ، شيء غير منظور ، لكن أثره كان محسوسا ً. ركز انتباهه ، فلم يجد شيئا ً. فكر مع نفسه بأن الأمر ربما له علاقة بتعبه ، وشروده الذهني ، إلا أن مرور هذا الشيء غير المرئي تكرر ، لكنه هذه المرة ترآى له وكأنه يرى هيكلا ً أقرب لقامة الإنسان ، شفافا ً جدا ً، لونه كالدخان ، يمرق كالشبح السريع ، ويتلاشى في

الهواء كالدخان خلال ثوان . راوده خوف من هذا الأمر . قفز سريعا ً فاتحا ً الباب الداخلي للممر الذي يفضي إلى باحة المصعد ، ولأن المصعد كان في الطابق الأخير من البناية فأنه أخذ يقفز السلم بسرعة كي يصل الشارع.

حين صار في الشارع كان يتنفس بصعوبة ، بل أحس أنه تعرق قليلا ً من سرعة الهبوط ، ووقف منتشيا ببرودة الهواء التي لامست وجهه ، فأنعشته . كان ضوء لافتة إعلان الفندق المضيئة يلو ّن مساحة الرصيف الممتدة أمام الفندق باللون الأصفر . وبدون أن يشعر رفع رأسه إلى الأعلى ، حيث نوافذ الفندق المطلة على الشارع ، فرأى ظلال امرأة تقف ، عند أحد الشبابيك ، خلف ستارة شفافة ، تشبه في ظلال قامتها وتسريحة شعرها عاملة الفندق حواء المظلوم . فكر مع نفسه للحظات في سر هذه المرأة العراقية الغريبة ، هل هي حقيقة موجودة أو هي شبح من أشباح هذا الفندق المليء بالغموض؟ وما سر هذه الأشكال الهلامية كالدخان ، التي برغم انسيابيتها فهي تأخذ قوام البشر ، ثم تتلاشى في الهواء بسرعة خاطفة؟ . ثم سبق أن رأى بأن هذه الجهة من الفندق كانت بلا نوافذ .. ؟ هل كل هذه التهيؤات من إنتاج خياله ، وتأثير السينما وأفلام الرعب عليه؟.

كان الشارع خاليا ً من أي أثر للحياة . لا سيارات تقطعه ، ولا مارة ، ولا إنسان ، بل إن الثلج قد انهمر أكثر ، لاسيما في ساعات المساء الأخيرة ، بحيث صار حذاؤه يغوص في الثلج بكامله ، ويختفي فيه ، وحين انعطف إلى الشارع الذي يقع فندق صوفيتيل ميونخ فيه رأى أضواء لافتة الفندق مضيئة ، وأمام مدخل الفندق ثمة بقعة ضوء شاحبة . كان لديه بعض الوقت ، لذا لم يقلق من الوصول في الوقت المناسب.

أحلام اليقظة هيمنت على ذهن آدم التائه ، فدعوتها له في مثل هذه الساعة لا تحتاج لتفسير في أنها تريده أن يقضي الليل عندها ، واستذكر ما جرى بينهما عصرا ذلك اليوم ، فبرغم ممانعتها الخجولة فقد استمتعت هي جدا ً بما جرى ، واعتذارها تليفونيا ً، ودعوتها له ، كلها تشير بأن الأمور رائعة ستكون بينهما.

حين دخل الفندق رأى أن موظفة جديدة في الأربعين من العمر تجلس في مكتب الاستعلامات ، ولا أحد في لوبي الفندق ، فقد أغلق كل شيء تقريبا ، حتى البار الموجود في أقصى القاعة . وقف للحظات في ارتباك مجهول المصدر ، فهو يرتبك دائما للحظات قبل أن يبدأ بأي شيء دائما ً، لكن

ذلك لا يستمر سوى للحظات لا أكثر . انتبهت موظفة الاستعلامات لوجوده ، وقبل أن يبادر بالتوجه إليها ، سألته بلطف:

- هل يمكنني أن أساعدك؟

ابتسم لها ، وتوجه إلى مكتب الاستعلامات بثقة ، وهو يجيب:

- نعم.. لدي موعد مع السيدة إيفا ليسنج في الجناح المرقم 333.. فهل يمكنك أن..

قبل أن يكمل جملته ، أجابته:

- هل أنت السيد آدم ال..تايه؟

لم تستطع أن تلفظ اسمه بسهولة وطلاقة ، إلا أنه أجاب بابتسام ، مفكرا ً في تلك اللحظة ، بأنها وضعت اسمه في مكتب الاستعلامات كي لا يحدث معه مثلما حدث في المرة السابقة ، إلا أن موظفة الاستعلامات ، فتحت جارورا ً، وأخرجت منه ظرفا من ظروف الفندق ، وسلمته له ، وهي تقول:

- لقد تركت لك السيدة ليسنج هذه الرسالة السريعة، وكنا قد اتصلنا بك في فندقك، لكنك لم تكن موجوداً..

أخذ آدم التائه الرسالة بيد مرتعشة ، وقال مرتبكا ً:

- لماذا..؟ ماذا جرى..؟

- لاشيء.. لقد غادرت السيدة ليسنج الفندق قبل نصف ساعة تقريبا، وكنا قد اتصلنا بك، لنخبرك بألا تاتي إليها في مثل هذا الطقس الفظيع..

ودون انتظار ، وأمام موظفة الاستعلامات ، فتح المظروف ، فوجد في داخلها رسالة قصيرة جدا ، فقرأ نصها :

عزيزي آدم .. أرجو أن تكون بخير .. حين تستلم رسالتي هذه ، أكون في طريقي إلى المطار ، راجعة إلى لندن على طيارة تغادر فجر هذا اليوم . لقد حصلت كارثة غير متوقعة . لقد اتصلت بي أختي لتخبرني بأن صديقتي التي حدثتك عنها ، حواء صحراوي ، قد أقدمت على الإنتحار ، وهي الآن في وضع حرج ، وقد طلبتني مرات عدة خلال هذين اليومين ، قبل أن تقدم على الإنتحار .. أنا آسفة جدا ً، فقد كان بودي أن نقضي وقتا أجمل .. أرجو أن تتفهم موقفي .. سأتصل بك غدا ً مساء ً في حدود التاسعة بتوقيت ألمانيا ، فكن في غرفتك .. المخلصة إيفا ليسنج.

كانت موظفة الإستعلامات تنظر إلى وجهه وهو يقرأ الرسالة ، ولما لم تستطع فك رموز ملامح وجهه ، فقد سألته مباشرة وبلهفة ، حال انتهائه من القراءة وإدخال الرسالة في مغلفها:

- ماذا هناك..؟ آمل ألا يكون ثمة مكروه اضطرها إلى السفر.. لقد كنت سعيدة بمقابلتها.. أنا أحبها.. وأحب تمثيلها..خاصة في فيلم (ليلة الذئب الأخيرة).. أرجو أن يكون كل شيء على ما يرام..

- لا شيء.. ثمة عارض عائلي استدعى وجودها في لندن..

- هذا واضح.. لأنها تركت رسالة أخرى لرئيس فريق العمل التلفزيوني الذي ستعمل معه..

- تركت رسالة؟

- نعم..لكنها كانت قلقة عليك وأخبرتني بأنها يفترض أن تستقبلك في الحادية عشرة، وأعطتني اسمك كي أسلمك الرسالة.. ولكنها أكدت بأنها ستعود..

- هل هي قالت بأنها ستعود؟ ألم تحدد متى؟

- لا.. لكنها قالت إن عليها الذهاب فوراً.. ولم يكن سهلاً أن نحصل على مكان لها في الطائرة التي ستقلع فجر هذا اليوم..

- شكرا جزيلاً لك..

كانت الموظفة تود أن تواصل الحديث معه ، فهي وحدها ، ولاشيء أمامها لتفعله ، ووجدت في هذا الموضوع ما يثير حماسها ، خاصة هي فعلا ً من المعجبات بالممثلة إيفا ليسنج ، إلا أن آدم التائه ، كان يود الفرار من الفندق ، والخروج إلى الشارع ليصرخ لاعنا ً الظروف ، وحواء صحراوي ، من أثر شعور الخذلان الذي قبض على نفسه . إلتفت لموظفة الاستعلامات وقال وهو يغادر الفندق:

- شكراً لك.. وليلة سعيدة..

- على الرحب.. ليلة سعيدة.

حين صار في الشارع لم يستطع أن يصرخ كما كان يود أن يفعل قبل لحظات ، وإنما نظر إلى السماء المدلهمة وكأنه يبحث عن تفسير . وضع الرسالة في جيبه وانطلق ماشيا ً بانكسار إلى الفندق الغامض . لكنه حينما وصل ، بعد دقائق ، إلى المنعطف الذي يتجه نحو فندقه ، لم يمش فيه وإنما خطا متجها في الطريق المستقيم الذي من خلاله يصل إلى محطة القطار الرئيسية.

كانت المحطة خالية من الناس تقريبا . معظم المحلات قد أغلقت أبوابها ، ليس هناك سوى مكتب الإستعلامات ، الذي فيه موظف واحد حاليا ً، والمحل الذي يبيع القهوة والمشروبات الساخنة ، والفطائر والمعجنات ، أما المكان الذي وقفت إيفا جايكوفسكايا تعزف فيه فقد افترشه متسكع مسن

، بعد أن مد قطعاً من الكارتون على الأرض ، ملتحفاً بمعطف قذر .
كان مسافران ، فتاة وفتى في العشرينات من عمرهما ، يدخلان المحطة ساحبين حقائبهما متجهين نحو السلم الكهربائي الصاعد ، بينما على السلم الكهربائي الهابط ، كان رجل وامرأة في بداية الخمسينات من عمرهما ، يهبطان.
لم يكن آدم التائه يعرف لماذا جاء إلى المحطة . كان يشعر بأنه لم يعد يفهم منطق الأحداث والأشياء التي تمر به . سأل نفسه ، كيف له وهو الروائي أن يفسر كل هذه التفاصيل .. ؟ ولم يجد لها تفسيراً، سوى أنه ربما لعبة بيد غامضة ومجهولة ، بطل مستلب في رواية غريبة لا يعرف كاتبها .. أهو القدر .. ؟ الله .. ؟ .
فجأة سأل نفسه : ألا يمكن أن يكون هو ليس هو؟ وأنه شخصية روائية يكتبها مؤلف غريب الأطوار؟ . لكن ما معنى أنه ليس هو؟ وأنه شخصية روائية شكلها مؤلف غامض؟ أليس هو نفسه ، آدم التائه ، أستاذ جامعي وكاتب روايات ، يشكل مصائر وشخصيات أخرى ، وأنه كتب رواية (متاهة آدم أو المرأة المجهولة) عن كاتب أيضا اسمه آدم المطرود؟ لكنه أجاب نفسه مباشرة : لكنني لم أترك آدم المطرود يكتب روايته التي أراد أن يكتبها عن الشاعر آدم العندليب ! أيمكن ، أن يؤلف كاتب ما روايةً بطلها كاتب يؤلف روايات أيضاً، لكنه يترك بطله يكتب رواية أيضاً ؟ ألا يخاف هذا المؤلف الغامض ، لو فرضنا أنني أنا بطل روايته ، مثلاً، أن أكتب أنا رواية عن مؤلف غامض ، كتب رواية بطلها كاتب يؤلف روايات أيضا ، لكن هذا الكاتب ، بطل رواية المؤلف الغامض ، كتب رواية عن كاتب يكتب رواية عن مؤلف غامض كتب رواية .... ما الذي يجري معك يا آدم؟ هكذا سأل نفسه متوقفاً عن تداعياته العبثية اللانهائية عن المؤلف الغامض الذي يكتب رواية عن كاتب يكتب رواية عن مؤلف غامض كتب رواية عن كاتب كتب رواية عن مؤلف غامض...
ابتسم آدم التائه مع نفسه ، قائلاً لها بسخرية ، يبدو أن تأثيرات صموئيل بيكت قد ظهرت عليك الآن ، بعد أكثر من ربع قرن من قراءته ، يا آدم التائه !!.
كان يتسكع في أرجاء المحطة دون هدف محدد ، محاوراً نفسه في جدل ثقافي غامض . فجأة ، أحس بإنقباضات في أمعائه ، وبرغبة قوية للذهاب إلى المرافق . تلفت باحثاً عن المرافق الصحية ، فوجد لائحة تشير إلى اتجاهها ، فأسرع الخطى ، لأنه أحس وكأنه سيفعلها على نفسه . في طريقه

نحو المرافق ، فكر عن سبب ذلك ، هل هو البرد ، أو ما تناوله من طعام مع إيفا جايكوفسكايا؟ .
حين وصل إلى المرافق الصحية ، حيث تنقسم إلى مرافق الرجال وأخرى للنساء ، أسرع داخلا ً، وهناك بحث عن أي مكان فارغ للدخول ، إلا أنها كانت محجوزة ، وبعضها مغلق بسبب الترميم ، فانتظر وهو يضغط على نفسه ، وعلى منطقته الشرجية ، إلا ّأن أحدا ًلم يخرج ، فأخذ يقفز على قدميه من أجل أن يشغل جسده لحين انفراج الوضع وخروج أحدهم . فجأة ، سمع نزول الماء من أحد المرافق ، فعرف أن أحدا ً قد انتهى وسيخرج .
وقف مقابل باب المرحاض ، فخرج شاب ، بدا سكرانا ً أو متعاطيا ً لمخدرات ، نظر إلى آدم التائه نظرة إحتقار ، دون أن يقول شيئا ، ومضى ، فأسرع هو بالدخول ، فواجهته رائحة كريهة ، وجلس على المقعد ، بعد أن أسرع بنزع معطفه ، وانزال بنطاله ، فأحس بتدفق المياه السائلة والكريهة من جوفه . بعد لحظات أحس بالراحة ، لكن لم يكن قد انتهى بعد.
في جلسته تلك أخذ يفكر بنفسه ، وبالبشر عموما ً، وسأل نفسه : أهذا أنا ، الأستاذ الجامعي ، الكاتب ، الذي يفلسف جميع الأشياء ، ويتوهج بالأفكار العظيمة والإنسانية ، لست إلا حيوانا ً بيولوجيا ً تافها ً، مليئا ً بالقذارة والجيفة؟ أين أفكاري العظيمة عن الحرية ، والجمال ، والبحث عن أسئلة الوجود؟ ماذا لو كان هذا الشاب السكران قد تأخر قليلا ً؟ ربما كنت عملتها على نفسي . يا لعظمة الإنسان !!. أين تلك الرومانسيات ، وقصص الحب ، والأشعار المتوهجة ، والمشاعر الصوفية ، والرومانسيات الثورية ، أمام حالة الإسهال المعوي؟ وكيف يكون منظر أجمل الجميلات من النساء ، وأكثرهن إثارة ، في لحظة تغوطهن؟ بل كيف يكون مشهد أعظم العظماء ، والحكماء ، والرهبان ، والبابوات ، وآيات الله ، ورؤساء العالم ، وهم يقعون كأي حيوان ، ليخرج منهم ذلك الخراء الجائف؟ لماذا لم ينتبه كت ّاب الروايات لهذا الجانب البايولوجي لأبطالهم؟ لا .. لا .. لقد انتبه بول اوستر لقضية الغائط البشري ، فكتب رواية مذهلة ، ترتقي لمستوى مستعمرة العقاب لكافكا .. يجب أن انتبه لذلك في روايتي المقبلة .. لكن عن أي شيء سأكتب؟ أنا لم أخطط بعد لروايتي الجديدة .. هل سأكتب عن إيفا ليسنج ، وإيفا جايكوفسكايا ، وحواء المظلوم ، والأشباح ، وما جرى لي في هذا الفندق الغامض؟ هل ....
فجأة ، سمع طرقا ً على الباب ، فأفاق من عالم الداخلي ، مد يده إلى

ورق التواليت وسحب كمية كبيرة لينظف إسته ، وضغط على مقبض حوض الماء ، وحين خرج قابله شخص ألماني مفتول الجسم ، ملامحه مستنفرة ، نظر إليه مستهزءا ً، وقال ساخرا ً:

- ماذا، أكنت نائماً، أم تحلم بالفردوس؟

التفت آدم التائه إليه ، إلا أن الآخر نظر إليه بإستفزاز واضح ، وكأنه كان ينتظر أية ردة فعل على كلامه كي يتشاجر ، فابتعد آدم التائه دون أن يقول شيئا ً، فدخل الآخر ، وهو يتمتم مع نفسه كلمات ضد الأجانب الذين صاروا عالة على المجتمع الألماني.

حينما خرج من المحطة كان يشعر أنه كمن خرج للتو من مرض شديد ، وبدأ يتعافى ، لكنه ما زال ضعيفا ً، ويحتاج لفترة نقاهة . أنعشه الهواء الشديد البرودة الذي لامس وجهه . أحس بشيء من الحيوية والتجدد . وما أن خطا بضعة أمتار بعيدا ًعن المحطة ، بإتجاه فندقه ، حتى صار كل ما جرى له في تلك الليلة ، في فندق صوفيتيل ميونخ ، وفي المحطة ، في الصف الثاني من ترتيب اهتماماته ، فالآن ، هكذا فكر آدم التائه ، عليه التوجه إلى فندق ، ليقضي الليلة ونهار الغد مع إيفا جايكوفسكايا ، وسيسألها ما أن يصل ، عن تصوراتها عن عضوه ، وسيحاول أن يتوسع معها في هذه القضية ، فربما سيستفيد منها ، عند كتابة روايته ، نعم ، بالتأكيد سيستفيد ، الم يؤلف البرتو مورافيا رواية ضخمة عن علاقة رجل ما بعضوه اسمها (أنا وهو) ؟ ألم تمتلىء طفولته بحكايات عن دور العضو الكبير في إشباع المرأة؟ ألم ترو َالقصص عن امرأة ماتت في شارعهم ، عندما كان طفلا ً، وسمع أمه مع الجارات يتهامسن عن عضو زوجها الذي يشبه عضو الحمار ، والذي سبب لها نزيفا ً حادا ً، مما أدى إلى موتها؟ ألآ يتذكر أن أحد بائعي الأسماك في مدينة طفولته ، تزوج ثلاث مرات ، وفي كل مرة تطلب الزوجة الطلاق متخلية عن المقدم والمؤخر ، هربا ًمن عذاب عضوه الكبير؟ ألم تكن النساء يتجمعهن عند بيت آدم زبالة ، الذي كان يملك ثورا ً، فيأتي أصحاب الأبقار من ضواحي المدينة ، التي كانت أشبه بقرية كبيرة ، في موسم السفاد بأبقارهم ، ليلقحهن ثور آدم زبالة ، وكيف كانت عيون النساء تبرق بالشهوة الطاغية وهن يطلقن الضحك المكتوم مع تعليقات جنسية ساخرة ، وهن يشاهدن الثور يولج في البقرة ؟ ألم يتذكر بدايات مراهقته ، حيث كانوا يذهبون إلى الشاطىء للسباحة صيفا ، وكيف كان مع الأصدقاء يتبارون بقضبانهم المنتصبة ؟ ربما ، إذا ً، ما قالته إيفا جايكوفسكايا صحيح ، على الأقل بصراحتها النادرة ،

ووعيها المتميز ، وموهبتها الموسيقية الواضحة ، هي تجسد فيها المقدس والمدنس في آن واحد!!.
كان آدم التائه مشغولا ً مع أسئلته ، حينما وجد نفسه أمام فندقه ، فدخل مسرعا ً، وما أن وصل الطابق الثاني حتى عاودته ذكرى الأشباح الدخانية التي شاهدها في الممر لحظة خروجه ، فأحس بشيء من التردد والإرتياب ، لكنه حينما دخل الممر لم يجد شيئا ، فسار مسرعا ً لكي لا يظهر له أحدهم ، وقبل أن ينعطف إلى جهة اليسار ، في نهاية الممر ، حيث غرفته ، أحس بأن باب الممر الداخلي قد فُتح . التفت سريعا ً، رأى شبحا ً دخانيا ً يطبق باب الممر ، ويتجه نحو الجهة الأخرى من الممر ، يقف عند باب يدفعه بسرعه ويدخل . أحس آدم التائه وكأنه قد شُل ، إذ لم يكن باستطاعته أن يرفع قدمه ليخطو بها . أمسك بالجدار ، واستجمع كل ما لديه من قوة يدعهما الرعب ، إلى القفز سريعا ً، فوجد نفسه عند باب غرفته . طرق الباب بقلق . لم يفتح أحد ، فمد يده إلى جيبه وأخرج البطاقة الألكترونية التي هي بمثابة مفتاح ، وضعها في شق الباب . فُتح . دخل مرعوبا ً.
انتبه آدم التائه إلى نفسه ، أنه يقف عند باب الغرفة من الداخل في الظلمة . بقي لثوان يحاول أن يستوعب أين هو؟ ضغط على زر الإضاءة فأنار الغرفة . حين ألقى نظرة على السرير وجده فارغا ً، والتفت مباشرة إلى جهة الحمام ، فوجد الباب مفتوحا ً، ومطفأ الضوء . التفت إلى الجهة الأخرى من السرير حيث كانت إيفا جايكوفسكايا قد وضعت آلتها الموسقية فلم يكن لها من أثر ، بل لا أثر لإيفا جايكوفسكايا.
جلس على حافة السرير منهارا ً، خائبا ، حاسا ً وكأنه صار لعبة بيد الأشباح ، أشباحه الداخلية ، وأشباح العالم الخارجي . وبلا مبالاة ، مد يده ، وهو في جلسته إلى زر الإضاءة عند الباب ، فلم تستطع ذراعه الممدودة من الوصول إلى الظل ، فدفع بنفسه قليلا ً إلى الأمام ، واطفأ الضوء . تمدد بكامل قامته على السرير ، دون أن ينزع معطفه أو حذاءه ، محاولا ً استرجاع كل ما جرى له تلك الليلة.

* * *

حين وصلت حواء الزاهد إلى هذا الموضع من المخطوطة ، تركتها قليلا ً، انتبهت إلى العتمة التي ظللت الغرفة . نظرت إلى الهاتف النقال ، عسى أن ترى ثمة رسالة قد وصلتها ، بالرغم من أنها تعرف أنه لا رسالة قد وصلت ، فالجهاز يطلق صوتا ً عند وصول أية رسالة . التفت إلى رضيعها ،

فوجدته غارقاً في نومه العميق . نهضت عن السرير وذهبت إلى الصالة فوجدت أن ابنها منكب على أوراقه بالرغم من العتمة التي أخذت تكتم أنفاس الغرفة ، انتبهت لهدير المولد في المنطقة ، فأضاءت الغرفة . سألت ابنها إن كان جائعاً فأجابها بالنفي ، لكنه يريد الشكولاته . عادت إلى المطبخ ، ومن أحد أدراجه العليا أخرجت قطعة من الشكولاته ، وعادت إلى غرفة الضيوف . ألقت بقطعة الشكولاته لابنها . انتبهت إلى أن الوقت قد تجاوز السادسة بعشرين دقيقة . عادت إلى غرفة نومها . تمددت على السرير . أخذت الهاتف ، وطلبت رقم الأستاذ قابيل الفهد ، فاستغربت أن هاتفه مغلق . لم تفكر طويلاً ، إذ طلبت حواء الكرخي ، فرن التلفون ، لكن حواء لم تجبها . أحست حواء الزاهد بشيء من الندم لأنها اتصلت بحواء الكرخي ، فربما هي مشغولة بعملها ، وهي تزعجها بالاتصال ، لأنها لو لم تكن مشغولة لما ترددت من الإجابة عليها . أضاءت غرفة نومها ، فأحست أن سطوع الضوء في الغرفة ترك تحسسا على جفني طفلها الرضيع ، الذي أطلق ، صوتاً باكياً لثوان ، ثم هدأ ، وعاد إلى نومه .

تمددت هي على السرير . فكرت قليلا مع نفسها ، بالأستاذ قابيل الفهد ، وحواء الكرخي ، وصديقهما الذي لم تره ، آدم الشبيبي ، الذين اعتقدت أنهم يجتمعون الآن في بيت آدم الشبيبي ، ومن المؤكد انهم يذكرونها . ابتسمت مع نفسها قليلاً ، ثم تناولت المخطوطة وواصلت القراءة .

موت على الرصيف

استيقظ آدم التائه من نومه . نظر إلى ساعته اليدوية فرأى أن الوقت يشير إلى التاسعة . قفز من سريره مستنفراً ، إذاً فقد نام الليل بطوله وهو في ثيابه ومعطفه . دخل الحمام مباشرة . كان وهو يقوم بغسل وجهه ، وتنظيف أسنانه ، يفكر بأن عليه مغادرة الفندق ، والتوجه إلى المطار مباشرة لمعرفة موعد الطيران.

حين صار في الطابق الأول سمع ضجيجاً قادماً من جهة المطعم ، إلا أنه لم يشأ أن يفطر في ذلك المطعم الغامض ، فواصل هبوطه للسلّم . وعندما صار في الشارع ، واستنشق الهواء البارد ، أحس بإنتعاش ، ودفق من النشاط يجتاح روحه.

في بهو المحطة الرئيسية أحس بالحياة وجريانها الدفاق . ضجيج المحطة كان يملؤه بالحيوية وبإحساس بالوجود . توجه إلى محل بيع القهوة والفطائر ، فدخله وطلب قهوة حارة ، مع قطعة من الفطائر المحلاة . بعد أن انتهى من فطوره ، توجه إلى إحدى ماكنات بيع التذاكر الأوتوماتيكية ، فابتاع

لنفسه تذكرة ليوم كامل.
الطريق إلى المطار استغرق في حدود الأربعين دقيقة . حين وصل كان الإزدحام على أشد ّه في أروقة المطار . عند الباب الدوار ، وعند فتحة الدخول ، صادف عجوزا ً تدفع بصعوبة عربة فيها حقيبة ، ولا تستطيع السيطرة على حركة الباب الدوار ، فسألها إن ْ كانت تحتاج لمساعدة . ذعرت المرأة العجوز أول الأمر ، لكنها سرعان ما ابتسمت له ، وقالت له بأن سيكون ذلك لطفا ً منه ، فأخذ العربة ودخل بها إلى فسحة الباب بسهولة ودخلت هي معه أيضا . خرجا من الجهة الثانية من الباب ، وسألها إلى أين تريد السفر ، فقالت له إلى روما ، فمشى معها قليلا ً، ووقفا أمام شاشة تظهر جدول الرحلات المغادرة ، فعرف رقم مكتب تسليم الحقائب الخاص بالسفر إلى روما ، التفت إليها وقال لها بضرورة الذهاب إلى المكتب المرقم 33 ، ومشى معها . كانت المرأة العجوز تنظر إليه بلطف وتشكره على ما قام به ، وحين وصل إلى المكتب 33 وقف في الصف الأخير ، وقال للعجوز بأن عليه الذهاب ، فشكرته مجددا ً.
توجه إلى مكتب الإستعلامات . كانت هناك ثلاث موظفات يتحدثن في ما بينهن . واحدة منهن فقط كانت مشغولة مع فتاة سائحة . تقدم من إحدى الموظفات وسألها عن مكتب الخطوط الجوية التي عليه التوجه إليها ، فأرشدته واحدة من الموظفات إلى مكتب خطوط الطيران الذي يفترض أنه حجز تذكرته من خلاله . أمام مكتب الخطوط كان ثمة إزحام ، وطابور طويل ، انتبه إلى أن القاطع المخصص لذوي الدرجة الأولى ورجال الأعمال ما زال فارغا ً، وليس هناك من مسافر يقف هناك ، فتوجه إليه مباشرة . كانت هناك امرأة ألمانية تجلس خلف المكتب ، حياها بالألمانية ، وشرح لها وضعه ، فأشارت عليه بأن يذهب إلى مكتب آخر تابع للخطوط نفسها ، ليس ببعيد عن موقعهم الحالي ، في الجهة المقابلة ، حيث يمكنه أن يستفسر هناك بهدوء.
توجه آدم التائه إلى مكتب الخطوط الجوية الرسمي ، كانت هناك موظفة ألمانية ، فتية ذات شعر أحمر ووجه يزينه نمش محبب ، تقوم بالإجابة على طلبات رجل يحاول تأجيل سفرته الحالية لهذا اليوم إلى وقت آخر ، وخلفها تجلس موظفة يبدو من ملامحها أنها عربية . نظرت إليه لكنها لم تأبه له ، ولم تحاول أن تقوم لمساعدته ، إذ تركت هذه المهمة للموظفة الألمانية . فكر هو مع نفسه ، ربما هي لم تقم بخدمته لأنه شرقي الملامح مثلها ، وليس أوربيا ً، لكنه سرعان ما طرد هذه الفكرة من رأسه ، معللا

ً الأمر ، بأنه ربما ليس من مهمتها أن تقوم بخدمة المسافرين.
حين انتهت الموظفة الألمانية ذات الشعر الأحمر من انجاز طلب الرجل الذي كان قبله ، توجهت إليه بوجه باسم ودود ، مبدية استعدادها لمساعدته . شرح وضعه مجددا ً، وسألهم عن موعد الطيران ليوم غد ، وهل يمكنه أن يحجز على الطائرة نفسها . الموظفة الألمانية الشابة أخبرته بإمكانية ذلك ، وطلبت منه تذكرة الحجز.
أحس آدم التائه بالراحة حينما أبدت الموظفة استعدادها لإستكمال الحجز ، فأسرع لتقديم تذكرته ، لكنه ما أن مد يده في جيب معطفه حتى توترت كفه . فتش آدم التائه في معطفه عن التذكرة فلم يجدها . قلب جيوب معطفة ، لكن دون جدوى ، فلم يكن في جيوبه أية تذكرة ، كان جواز السفر المغلف بمحفظة جلدية بنية اللون موجودا ً، بينما التذكرة غير موجودة ، على الرغم من أنه وضع التذكرة والجواز معا ً في جيبه . تعاطفت موظفة المكتب معه ، حينما وجدت ارتباكه وإحباطه وقلقه لفقدانه تذكرته ، فطلبت اسمه الكامل كي تستطيع أن تستحصل له تذكرة جديدة ، فأخبرها باسمه الكامل ، وتاريخ ميلاده.
بينما كانت الموظفة الألمانية تدون المعلومات التي قالها في جهاز الحاسوب ، أقبل رجل أوروبي ، أشقر الشعر ، يضع قرطا في أذنه ، ويلبس قميصا ً شبابيا ً، مرسوما ً عليه رمزا ً لفرقة موسيقية شهيرة ، فنهضت الموظفة العربية متوجهة إليه وعلى وجهها ابتسامة عريضة ، مبدية استعدادها لمساعدته وتقديم أية خدمة يحتاجها.
دونت الموظفة الألمانية المعلومات في جهاز الحاسوب ، وضغطت طالبة قائمة الحجوزات كلها ، وبدا من ملامح وجهها أنها تدقق في الأسماء ، فلم تعثر على اسمه . رفعت رأسها مستغربة من ذلك . أخبرها بما جرى له في مطار دوسلدورف ، وكيف أن إحدى موظفات المكتب هناك وجدت البرقية التي وجهها مكتب الفردوس للسياحة إليهم ، فأدخلت الموظفة هذه المعلومات الجديدة ، لكن النتجة كانت سلبية ومخيبة لآماله ، فليس اسمه لم يكن موجودا فحسب ، وإنما ليس هناك ذكر لحجز من قبل مكتب الفردوس للسياحة . اعتذرت الموظفة الألمانية له بأنها لا تستطيع مساعدته ، لأن اسمه غير موجود ، وكذلك ليست هناك أية جهة قد حجزت له.
بينما كانت موظفة مكتب الخطوط الجوية توضح له عدم وجود حجز باسمه ، كان هو يفكر في إيفا بيرغمان وكل ما جرى له هناك ، في مدينته الصغيرة ، كما أحس بقطرات العرق تتجمع على صدغه ، وثمة هواء

حار يصعد من سطح بطنه إلى صدره . فجأة ، فكر في إيفا جايكوفسكايا ، أتكون هي قد سرقت التذكرة؟ لا .. هذا مستحيل ، فالتذكرة كانت في جيب معطفه مع الجواز.
كان مصدوما ً، وخائفا ً، ومشوشا ً. ابتعد عن المكتب دونما أي تعليق . نظرت موظفة المكتب إليه مستغربة ردة فعله اللامبالية . سار في رواق المطار بهدوء ، وكأنما هو معزول عن كل الضجيج والحركة اللتين تحيطانه . أحس بثمة هواء ينفخ صدغيه ويضغط عليهما ، مما يثقل عليه بصره . أسرع بالجلوس على أحد كراسي القاعة التي تصطف على الجانب . أخذ رأسه بين يديه ، وأغمض عينيه ، محاول أن يجد تفسيرا ً لما حدث ، ومفكرا ً بالأماكن التي يحتمل أنه أضاع التذكرة فيها ، فالتذكرة وحدها تؤكد له بأن كل ما جرى كان حقيقة ، فأين هي؟ هل سقطت منه في القطار ، حينما نزع معطفه؟ هل سقطت منه في جناح إيفا ليسنج حينما كان عندها؟ هل سقطت منه في الفندق؟ أيمكن لإيفا جايكوفسكايا قد أخذتها؟ لا .. هذا مستحيل .. ماذا ستفعل بها؟ أيمكن أنه لم تكن هناك أية تذكرة أصلا ً؟ لا .. لا .. لقد أخرجها في دوسلدورف وقدمها لمكتب الخطوط هناك .. إذا ً.. أين هي؟
فجأة ، سمع صوتا ً رجاليا ً يسأله إن كان يحتاج لمساعدة ما .. إلتفت إلى جهة الصوت فرأى وجه رجل أسود الشعر ، لكنه أوربي الملامح .. ربما هو إيطالي أو اسباني أو ربما فرنسي .. فرد عليه بكلمة الشكر ، ثم نهض عن كرسيه ، ومضى نحو باب الخروج.
كان يسير في أروقة المطار كجثة تتنفس ، دون أيما شعور أو رغبة محددة . كان ينظر إلى أجساد النساء اللاتي يواجههن . يتأمل صدور القادمات ، ومناطقهن السفلى ، أو عجيزات وسيقان اللاتي يمضين أمامه . يقرأ لافتات مكاتب الخطوط الجوية ، أو يقرأ مواعيد المغادرة والوصول ، المثبتة على شاشات ألكترونية.
كان يسير بإتجاه باب الخروج دون أن يقصد ذلك . فجأة ، وجد نفسه أمام فتحة كبيرة ، تشير بالهبوط إلى محطة قطار الأنفاق التي يجب عليه أن ينطلق منها راجعا إلى قلب المدينة . فهبط السلم نازلا ً إلى نفق يقود إلى المحطة.
كانت قاعة المحطة شبه مزحمة . وقف يتأمل القادمين إلى المطار . فجأة ، راودته فكرة أن كل ما كان هو وهم ، بل ربما حتى الجواز هو وهم . مد يده إلى جيب معطفه من الداخل ليتأكد من حقيقة جواز سفره .

أخرجه ، بل ، نزع المحفظة عن الجواز ليتأكد اكثر . أحس بشلل يده وارتجافها ، إذ أن الجواز كان هو الجواز الأزرق ، والمزين بخطين أسودين عند حافته ، وهو الجواز الذي يمنح للاجئين ، وليس الجواز الرصاصي اللون الذي استحصله للسفر بمساعدة إيفا بيرغمان ، فهو بهذا الجواز الأزرق ، لا يستطيع السفر إلا إلى البلدان الأوربية . استذكر كل التفاصيل التي جرت له مع إيفا بيرغمان ، إذ كانت معه عندما قدم طلباً إلى دائرة الجانب في مدينته لتغيير الجواز ، والحصول على الجواز الآخر الذي يمنح للمقيمين في ألمانيا ، وقد تدخلت إيفا بيرغمان في الأمر ، ووقعت تعهداً بذلك ، فكيف عاد جوازه القديم إليه ثانية؟.
كان آدم التائه وكأنه في عالم آخر ، وأن كل ما جرى له هو وهم في وهم ، لكنه سأل نفسه : لو كان كل شيء وهماً فكيف هو الآن في مدينة ميونخ؟ وكيف كان في دوسلدورف؟ وكيف استلمت الموظفة هناك في دوسلدورف برقية من مكتب الفردوس السياحي؟ . ولم يستطع أن يجد جواباً.
كان يحس بأن ثمة حاجزاً غير مرئي يفصله عما يحيط به . هو مع الناس ، لكنه ، في الوقت نفسه ليس معهم ، ومنعزل عنهم . كان يحس بأنه مفرغ من أية مشاعر خاصة أو عامة . ظل باهتٌ يمشي على الأرض . شبحٌ مرئي ، بعيد ، وناء عن الناس ، لكنه محاط بهم حد الاختناق . أحس بأنه إنسان أجوف ، خال من أية أفكار .
حين دخل إلى عربة قطار الأنفاق ، كانت شبه فارغة . مقاعد كثيرة فارغة ، إلا أنه اختار الوقوف قرب الباب ، متكئاً على جانب الكرسي الأول .
كان ينظر إلى وجوه الجالسين نظرات فارغة من أي أفكار أو مشاعر ، لكنها تبدو للناظر إليه وكأنه يستقرئ الوجوه باحثاً عن شيء ما فيها .
أحس أنه لا ينتمي إلى هذا العالم المحيط به ، بل هو لا يعرف أي عالم آخر يحس بانتمائه إليه .
حين تحرك القطار لم يكن في عربته التي يقف فيها سوى عشرة أشخاص ، لكن مع كل محطة يقف فيها القطار يصعد الناس ليحتلوا المقاعد الفارغة ، وبالرغم من الزحام المتنامي كان في غياب تام عن الجميع.
حين وصل قطار الأنفاق إلى محطة القطارات الرئيسية في ميونخ ، خرج من عربته . كان الزحام على أشده بين الخارجين من العربة والركاب الداخلين إليها ، بحيث كان من الصعب على الخارج من العربة والداخل إليها أن يمر بحرية.

بينما كان آدم التائه يشق طريقا ًلنفسه في الزحام ، لمح من بعيد إيفا جايكوفسكايا وهي على السلم الكهربائي الهابط ، تحمل صندوق آلتها الموسيقية فوق الرؤوس ، وحين صارت في القاعة هرولت راكضة بإتجاه القطار الواقف . أراد أن يناديها ، فتح فمه مناديا ً، لكن لم يخرج من فمه أي صوت . أخذ يشير إليها بذراعه ، لكنها لم تنتبه له . كانت إيفا جايكوفسكايا تركض وهي تحمل صندوق آلتها الموسيقية لتدخل عربة القطار قبل أن يغلق أبوابه ، وفي اللحظة التي استطاع أن يناديها بصوت مسموع ، كان القطار قد أوصد أبوابه منطلقا إلى المحطة التالية.

كانت رؤية إيفا جايكوفسكايا ، قد أخرجته من حالته السكونية ، وألقت به إلى خارج الشرنقة التي وجد نفسه فيها منذ أن أخبرته موظفة مكتب الطيران بعدم وجود اسمه في قوائم الحجز.

ظل واقفا ينظر إلى القطار وهو يتحرك ، وحين مرت العربة التي دخلتها إيفا جايكوفسكايا من أمامه ، أحس وكأنها انتبهت لوجوده أيضا ، ولوحت له بيدها . هل لوحت له بيدها فعلا ً؟ لم يكن هو متأكدا ً من ذلك لكن شبه له.

مع زحمة الخارجين من عربة القطار توجه إلى السل ّم الكهربائي الصاعد إلى قاعة المحطة الكبرى . كان بعض الشباب يصعدون السل ّم نط ّا ً، بالرغم من أن السل ّم يصعد آليا أيضا . إنهم يسابقون الزمن ، يسابقون العدم ، هكذا فكر آدم التائه مع نفسه . كان ينظر إلى الواقفين على السل ّم المقابل وهم يهبطون إلى محطة قطار الأنفاق . وبالقابل رأى بعض الشبان ، بل والرجال الناضجين ، يسرعون بالهبوط مشيا ً، بالرغم من حركة السل ّم الهابطة ، فكر مع نفسه ثانية : إنهم يسابقون الزمن ، يسابقون العدم ، أيضا ً.

بينما كان هو في منتصف الطريق على السلم المتحرك تناهى إلى سمعه أنغام موسيقية تصدر عن آلة كمان . أحس أنه يعرف هذا العزف ، لقد سمعه أمس حينما كانت إيفا جايكوفسكايا تعزفه في مثل هذا الوقت تقريبا في المحطة . نظر إلى ساعته ، فرأى أنها تشير إلى الثانية عشرة . إستغرب من تصادف الأمور ، لكنه رأى قبل قليل إيفا جايكوفسكايا تصعد القطار ، فمن تراه يعزف هذه المقطوعة الموسيقية الآن؟

حين صار في وسط القاعة ، رأى جمعا ً من الناس يحيط بعازف تلك القطعة الموسيقية ، وفي المنطقة نفسها التي كانت أمس تعزف عندها إيفا جايكوفسكايا ، فتقدم إليهم مندفعا ً، مليئا ً برغبة مشبوبة في أن يعرف

العازف ، ناسيا حالته النفسية ، وكل ما جرى له في المطار ، فتداخل بين الواقفين ليطل على مشهد زاده تشويشا ً، إذ رأى إيفا جايكوفسكايا منسجمة مع عزفها ، متماهية بإنسجام مع آلتها التي تطلق تلك الأنغام الشجية .

ظل واقفا ً، ينظر إليها بذهول ، بينما ألقت هي عليه نظرة ، أثناء حركتها مع الآلة التي تحتضنها ، لكنها بدت وكأنها لا تعرفه ، إذ كانت نظراتها خارجة عن حدود المكان ، فقد كانت تنظر في البعيد ، بالرغم من أن نظرتها في تلك اللحظة قد ركزت عليه.

ظلت إيفا جايكوفسكايا مستمرة في عزفها ، إل ّا أنه انسحب إلى الوراء . جلس على المقعد نفسه الذي كان يجلس عليه بالأمس ، حينما تعر ّف عليها للمرة الأولى . ومن خلال معرفته بهذه القطعة الموسيقية فأنه تأكد بأن أمامها بضع دقائق كي تنتهي منها ، لذا توجه إلى محل بيع القهوة والفطائر ، ابتاع لنفسه ولها كوبين من القهوة ورجع جالسا ً على المقعد ذاته.

حين انتهت من موسيقاها ، وصفق الناس ، وتبرعوا لها بقطعهم النقدية ، وتفرقوا ، صارت هي في قبالته بالضبط . ابتسمت له ، وتقدمت إليه وعلى وجهها ابتسامة ممزوجة بارتباك وخجل ، وقالت له:

- نهارك سعيد.. ممكن أن أجلس إلى جانبك؟

نظر إليها وعلى وجهه ابتسامة ميتة ، وقلق وارتباك ، وقال بتساؤل وعتاب:

- طبعا ممكن..؟

لم يشأ أن يفكر بأنه رآها قبل قليل تصعد القطار ، إذ فكر مع نفسه بأنه ربما كان مشتبها ً. سمعها تقول له :

- أنا أعتذر عن تصرفي الأحمق ليلة أمس. أردت أن أكتب لك شيئا، اعتذارا، توضيحاً، لكنني لم أستطع.. لذا غادرت الغرفة دونما أي توضيح..

- لقد حيرتني فعلاً، لماذا غادرت؟ وإلى أين ذهبت؟ وأين بت ليلتك؟

نظرت إلى كوب القهوة الآخر الي بيده ، وسألته قبل أن تجيب على أسئلته:

- هل هذه القهوة لي..؟

- طبعاً لك..

نظرت إليه بمودة ، وقالت:

- لم أشأ أن أضايقك..لقد سمعتك تتحدث ليلة أمس بالهاتف، وعرفت من خلال ما سمعت بأن من تتحدث معه هي امرأة، وفكرت مع نفسي، بأنك

ربما تريدها أن تأتي معك إلى الغرفة. فغادرت.

- لكني قلت لك بأني ربما لن أبيت ليلتي في الغرفة..!
- وقلت أيضا ربما تعود..
- صحيح أني عدت، لكني كنت وحدي..
- وحدك..!؟
- نعم.. وحدي..

انتبه إلى ان ملامح الخيبة الخفية ارتسمت على وجهها ، إلا أنه كرر سؤاله:

- أين بتِ ليلتك؟

صمتت لحظة ، لكي تتجاوز فيها انفعالاتها الدفينة ، كونها استعجلت في قرارها بمغادرة الغرفة ، ثم قالت:

- ليتني ما ذهبت..
- لماذا؟
- لقد فكرت بصديقة لي، كانت زميلة لي في الثانوية بموسكو، لكنها درست الآداب في جامعة موسكو، وأنا دخلت معهد الكونسرفاتور، كانت قد تزوجت قبل ستة أشهر تقريباً، من شاب، كازاخي الأب، مسلم، وأم روسية من أصل ألماني، يعيش مع والديه هنا في ميونخ. كنت قبل شهر قد اتصلت بها، حينما كنت في برلين، فأعطتني عنوانها، وأخبرتني بأن أزورها مباشرة، ودونما أي تردد، وفي أي وقت، حينما أكون في ميونخ. لذلك، بعد أن خرجت أنت، اتصلت بها فألحت عليّ بالمجيء إليها لأنها تحتاجني جداً.. أخذت آلتي وذهبت إليها.. وياليتني لم أذهب..
- لماذا؟
- لم يكن الوقت مناسباً أبداً..
- ربما لأن الوقت كان متأخرا للزيارات المفاجئة؟
- ليس الأمر كذلك..فهذه الأشياء مقبولة عند الروس أحياناً، لاسيما حينما نكون في بلاد الغربة..
- إذن، أين المشكلة؟
- المشكلة أن زوجها قد مات ميتة مأساوية قبل أيام..

أحس آدم التائه بإنقباض في صدره عند سماع ذلك ، فسألها:

- كيف؟
- ذات مساء قريب، نفدت سجائره، فخرج إلى محطة البانزين القريبة من بنايتهم، ليشتري من المحل التابع لها ما يحتاجه، وعند عودته، صادفه

بعض الشباب الألمان الأشقياء، ممن ينتمون إلى تنظيمات اليمين المتطرف، فقاموا بطعنه بسكاكينهم، وهربوا. سقط على الأرض نازفاً دمه، لكن لا أحد كان ينجده. أحد المارة رأى ذلك من بعيد، فتوجه لصاحب محطة البانزين الذي اتصل بالشرطة، وبسيارة الأسعاف.. نقلوه إلى المستشفى، لكنه مات بعد ساعة تقريبا. لا أحد يعرف السبب الذي دفعهم لطعنه، ربما لشكله الأسيوي، ولسواد شعره؟. لا أحد يعرف..فلحد الآن لم تمسك الشرطة أياً منهم.

كان آدم التائه مصدوما مما سمع ، فقال بنبرة حزينة مشوبة بالخوف :

- هكذا ببساطة يُقتل الإنسان، بهذه الطريقة المروعة والقاسية، دون أي سبب أو ذنب اقترفه..؟

نظرت إيفا جايكوفسكايا إليه ، واحست بصدق تأثره ، وحزنه ، وقالت :

- نعم.. هكذا.. ببساطة، ودونما سبب، وبشكل عبثي ولا معقول.. وما يفطر القلب في كل هذا هو أن المسكينة زوجته، صديقتي، تأكدت من حملها قبل أسبوع من مقتل زوجها.. أي أنها الآن في شهرها الثاني تقريباً.. لذا بقيت الليل كله أبكي معها..أبكي حظنا العاثر.. بكيت كثيراً، وكأني كنت أبحث عن حجة للبكاء.. لم ننم.. كانت هي في وضع سيىء.. حالة والديه أشد مأساوية، فهما كبيران في السن، وهو ابنهما الوحيد. أمه أشبه بالمجنونة.. وهما متعلقان بصديقتي الآن جداً، لا سيما وأن أهلها في موسكو يطلبان منها الرجوع بعد هذه الحادثة المأساوية.. لقد دمرني وضع صديقتي.. ووضع والديّ زوجها القتيل.. لم أنم بتاتاً.. خرجت صباحاً.. جئت إلى المحطة.. أردت أن أمر عليك في الفندق، لكن الوقت كان مبكراً..ففضلت أن أمكث هنا. بالرغم من أن صديقتي ألحت علي بأن أعيش معها، بل إن أهل زوجها رحبوا بالفكرة.. فقد وجدوا فيّ عوناً لأساعد كنتهم على الخروج من أزمتها النفسية، لاسيما وهي في الأشهر الأخيرة من حملها..

نظر آدم التائه إليها ، وكأنه يبحث في كل ما قالته عن الحقيقة ، ثم فجأة سألها:

- ألم تعثري صدفة على تذكرة سفري؟

- ماذا؟

نظرت إليه مستغربة ، وكأنها فهمت أنه أضاع تذكرة السفر ، لكنها خمنت أنه يفكر بأنها ربما أخذتها ، فقالت مستفسرة مستفزة:

- هل فقدت تذكرة السفر؟ وهل.. وهل تعتقد أني أخذتها؟

نظر إليها متأملا ً، ثم أجاب بهدوء وكأنه يعتذر عن هذه الفكرة التي

مرقت في ذهنه:

- لا أبداً.. لا أعتقد ذلك، لأن التذكرة كانت في جيب معطفي، لكني فقدتها..وظننت ربما رأيتها أنت صدفة..

- وماذا ستفعل الآن؟

- لا أدري.. على أية حال.. أنا سأذهب إلى الفندق.. يمكنك أن تأتي في أي وقت.. لن أخرج اليوم من الفندق..

- لكن يجب أن تجد حلاً..

- ليس هناك من حلول يا إيفا.. يبدو أني ضائع في متاهة مظلمة..

نظرت إليه بإشفاق ، وقالت:

- طيب.. علي أن أعمل قليلاً.. سنتلقي هنا إن شئت..

- إذاً.. إلى اللقاء..

قال ذلك ونهض . صافحها ، ومضى . أحست هي بحنان دافق نحوه . ارتشفت ما تبقى من قهوة في كوبها ، ورمته في برميل النفايات القريب ، ثم وقفت في موضعها الأول وبدأت بالعزف ، فأخذ الناس يقتربون منها.

توجه آدم التائه نحو باب الخروج ، لكن فجأة واجهه رجل يركب دراجة هوائية ، معلقا ًأعلاما ًألمانية صغيرة على دراجته ، وماسكا بمكبر للصوت ، وهو يصرخ : أريد أن أنتخب .. أريد أن أنتخب . كان الناس ينظرون إليه مبتسمين . وقف هو أيضا ، لكنه لم يبتسم لأنه فوجىء به ، إلا أن أحد الشباب الواقفين تبرع بالتفسير له وللآخرين الذين وقف بعضهم مستفسرا ً، بأن هذا الرجل مجنون ، وهو تركي يعيش في ألمانيا منذ عشرين عاما ً، لكنه لم يُمنح الجنسية الألمانية ، وهو منذ أكثر من عشر سنوات يدور على دراجته مدينة ميونخ مناديا ًبمكبر الصوت بأنه يريد أن ينتخب . إنه أحد معالم المدينة.

تجاوز آدم التائه الواقفين ، وحين وصل إلى باب المحطة الرئيسي ، تناهى إلى سمعه أنغام افتتاحية القصيدة السيمفونية الشهيرة ، شهرزاد ، لريمسكي كورساكوف . كان عزفها حزينا ، ورقيقا ًجدا ً.

آدم التائـه .. الأبلـه

حين خرج آدم التائه من المحطة كانت السماء مكفهرة بغيوم سود ، وثمة هواء بارد يمس الوجوه ، فيبعث في النفس حنينا ً إلى الدفء . فجأة ، وبدون أية ممقدمات ، بدأت السماء تمطر بشدة . بعض المارة الذين فوجئوا بالمطر أخذوا يتراكضون ، باحثين عن أي مكان يقيهم البلل ، والكثير منهم توجه إلى المحطة . بقي آدم التائه واقفا ً، منتظرا ً توقف وابل

المطر المفاجئ.
بعض الذين أرادوا الخروج من المحطة ، أخرجوا مظلاتهم ، وفتحوها ، ثم ساروا في طريقهم برغم المطر ، أما الذين لم يحملوا مظلاتهم معهم ، فقد بقوا ينتظرون .
بعد دقائق قليلة توقف المطر فجأة ، مثلما هطل فجأة ، وتدافعت الغيوم هاربة من وجه السماء ، وأشرقت شمس شاحبة من خلل السحاب . وأخذ الثلج المتراكم في الشارع العام يذوب بسرعة ملحوظة ، ويتحول إلى مجرى مائي يسيل على حافة الرصيف نحو بالوعات قد أعدت له ، ولم يبق منه سوى بقايا ثلج ذائب عكر اللون ، تحول إلى ما يشبه الوحل بعد مرور عدد من السيارات عليه.
قبل أن يخطو آدم التائه من مكانه متجها إلى فندقه ، لمح على الطرف الآخر من الشارع رجلا ً قد تجاوز الخمسين من العمر ، ذا لحية تميل إلى الحمرة ، ومعه شاب أشقر الشعر ، طويل القامة . كلاهما كان في ملابس قديمة الموضة . أحس أنه يعرف هذين الشخصين ، لكنه لا يستطيع تذكرهما . حاول تركيز تفكيره ، ضاغطا ً على ذاكرته ، لكنه لم يستطع أن يجد شيئا يسعفه لتذكرهما . كان ثمة ما يشبه قوة سحرية خفية تجذبه إليهما ، فعبر الشارع مسرعا ً نحوهما ، غير مبال ٍ بتجاوزه تعليمات المرور ، فمنطقة السماح بالعبور بعيدة ، إلا أن الرجلين كانا قد انطلقا سائرين بسرعة . حاول أن يلحق بهما ، لكنهما برغم سرعته في المشي ، كانا قد تجاوزاه بخمسين متر تقريبا ً.
كان آدم التائه يحث الخطى مسرعا ليختصر المسافة بينهما ، لكنهما كانا يسيران بسرعة واضحة ، ربما أقل قليلا ً من سرعته . شعر آدم التائه براحة خفية ، لأن الرجل الخمسيني ذا اللحية الحمراء ، وصديقه الفتى الأشقر كانا يسيران في ذات الإتجاه الذي يقع فندقه فيه.
بعد أقل من عشرين مترا ً من المشي ، وجد آدم التائه نفسه يمر من أمام واجهة مكتبة لبيع الكتب القديمة . تمهل قليلا ً في مشيته ، حيث ألقى نظرة سريعة على الكتب المرصوفة في الواجهة . فجأة ، وكإنما ستارة ثقيلة سوداء قد أ ُزيحت عن ذاكرته ، تأكد من أن الرجل ذا اللحية الحمراء وصديقه ، ليسا إلا الكاتب الروسي فيودور دوستويفسكي وبطله الأبله الأمير ميشكين.
حين التفت إلى الأمام ، كانت المسافة بينهما قد اتسعت ، لتوقفه لحظات عند واجهة المكتبة ، فأسرع الخطى ، حتى صار يمشي كالهرولة ، إلا أن ما

دفعه للذهول هو دخول الكاتب الروسي وصديقه الأمير الأبله إلى فندقه.
حينما وصل آدم التائه إلى الفندق ، كان قلبه يخفق بشدة ، فمن غير المعقول أن يكون هذا الرجل هو الكاتب دوستويفسكي ، وأن الأمير ميشكين ليس إلا بطلا ً روائيا ، وليس شخصية حقيقية ، فكيف هما الآن في ميونخ ، بعد أكثر من مائة عام؟ هل هذه من أوهامه أيضا؟ . هل هذا الفندق هو فندق الأشباح الغامضة؟ . كان يسأل نفسه ، وهو يصعد درجات السلم متجها ً إلى مكتب الإستعلامات ليستفسر عن اسميهما ، ويتأكد من شخصيتيهما.
بالرغم من أن آدم التائه كان يطرح أسئلة منطقية تسفه من إمكانية وجود فيودر دوستويفسكي والأمير ميشكين بطل رواية الأبله في هذا الوقت بمدينة ميونخ ، إلا أنه قرر مع نفسه أن يسألهما عن الفاتنة ناستاسيا فيلوبوفنا ، التي قال دوستويفسكي عن جمالها ، بلسان الأمير ميشكين ، بأن مثل هذا الجمال يمكنه أن يقلب العالم.
وصل إلى مكتب الإستعلامات في الطابق الأول لاهثا ً. توقف للحظات كي يأخذ أنفاسه . لم تكن هناك موظفة الإستعلامات الألمانية ، التي تميل إلى الامتلاء ، والتي قابلها أول مرة هناك ، وإنما موظف خدمة الغرف ، الذي جاءه بالعشاء في وقت متأخر من أول ليلة له في الفندق . ولم يكن هناك من أثر لمجيء ضيوف جدد إلى الفندق ، فالمسافة التي بينه وبين شبيه دستويفسكي والأمير ميشكين ، لم تكن من الناحية الزمنية طويلة بحيث يمكن أن يكونا قد أنجزا ً مسألة حجزهما ، واستلما بطاقتي غرفتيهما ، بهذه السرعة ، لكن أليس من الممكن أن يكونا قد جاءا قبل هذا الوقت ، بحيث هما الآن في غرفتيهما؟ . هكذا فكر آدم التائه لحظتها.
ظل واقفا أمام مكتب الإستعلامات ، حائرا ً، غارقا ً في تفكيره مع نفسه ، فانتبه موظف خدمة الغرف إليه . نظر إليه مستفسرا ً، وسأل:
- هل يمكنني أن أساعدك؟
- لا.. شكراً.. لكني أسأل، هل جاء قبل قليل نزلاء جدد إلى الفندق، أقصد بالتحديد رجلين، أحدهما في الخمسين ذو لحية حمراء، والآخر شاب أشقر؟.
نظر موظف خدمة الغرف إليه مستغربا ً، ثم قال له:
- لا..
- لكني رأيتهما قد دخلا قبلي إلى الفندق..
- غريب.. شخصياً أنا لم أقابل أي شخص هذا اليوم سواك الآن..

- طيب.. أمن الممكن أنهما قد نزلا الفندق أمس، أو خلال الأيام الماضية؟.. رجل ذو لحية حمراء في حدود الخمسين من عمره، وشاب أشقر في العشرينات من عمره..

نظر الموظف إليه بغموض ، وكأنه يدرس ما يدور في رأس آدم التائه ، وقال:

- منذ أيام لم يأت أي نزيل جديد للفندق سواك..

لم يشأ آدم التائه يود أن يفقد الأمل ، فقال:

- ربما هما نزيلان قديمان..

فقال موظف خدمة الغرف بحزم ، وبنبرة جافة ، وكأنه يريد أن يحسم النقاش:

- لا يوجد لدينا نزلاء بهذه المواصفات التي ذكرتها..

فقال آدم التائه بإحباط ممزوج بنبرة استغراب:

- غريب..

- الغريب هو ما تقوله.. بل أنت نفسك إنسان غريب.. فمرة تحدثني عن امرأة جاءتك بصينية للفواكه، ومرة تدعي أنك تعشيت في المطعم عند التاسعة مساءً، بينما المطعم كان مغلقاً في مثل ذلك الوقت..

نظر آدم التائه إليه صامتا ً، في أعماقه كان غضب مكتوم ، لأنه رأى الرجلين وهما يدخلان الفندق بعينيه ، بينما ينكر هذا الموظف ذلك ، كما استاء من تعليقه الأخير عن أوهامه برؤية أشياء غير موجودة.

لم يقل شيئا ، استدار ذاهبا ، صاعدا ً السلم إلى الطابق الثاني ، وما أن فتح الباب الداخلي للممر حتى سمع أبوابا ً ت ُغلق ، فلم يستطع أن يتأكد أي باب كان قد أ ُغلق .

جلس على السرير . أخذ يتلفت في أرجاء الغرفة ، مفتشا ً بطريقة لا إرادية عن تذكرته المفقودة . كان يدرك أنها ليست موجودة ، لكنه كان يبحث ، بالرغم من ذلك عنها ، وكأنه يحاول أن يهرب من أسئلته الغامضة ، ومن رؤاه التي شوشته كثيرا ً.

ظل جالسا ً للحظات لا يعرف ماذا يفعل . فجأة ، تذكر بأنه لم يحمل معه طعاما ً، وأحس برغبة في أن يأكل شيئا ، وسأل نفسه : لماذا لم يأكل في المحطة حيث المطاعم المتنوعة؟ . لا إراديا نهض خارجا ً، صافقا ً الباب خلفه بقوة . خلال مروره بالممر فكر أن يلقي نظرة على المطعم في الطابق الأول ، لكنه حين صار أمام المصعد ألغى تلك الفكرة ، وقرر الذهاب إلى المحطة مرة أخرى ليأكل هناك ، فضغط على زر المصعد .

وقف منتظرا ً للحظات ، وهو يسمع صعود المصعد . فجأة سمع ضجيج توقف المصعد.
حين فُتح باب المصعد أصيب آدم التائه بالذهول . شحب وجهه ، وارتعش بكل ّ جسده . كانت أمامه تقف امرأة هائلة الجمال ، ذات وجه حزين ، يتألق بألم كبير وعذاب عظيم . إنها ناستاسيا فيليبوفنا نفسها ، بطلة رواية الأبله . كانت واقفة أمامه . عرفها من خلال جمالها الملغز . ظل واقفا ً، سادا ً الطريق أمامها ، فلم يكن بإمكانها أن تخرج من المصعد . ومضت عينا السيدة ضيقا من جموده أمامها ، وقالت له:
- هل يمكنك أن تفسح لي الطريق أيها السيد؟
ظل هو جامدا ً لا يتحرك ، مذهولا ً من حضورها ، وهي بملابس القرن التاسع عشر ، إلى فندقه . تضايقت السيدة ، وقالت له:
- ما لك تبحلق بي هكذا؟ هل أنت أبله؟
ومرت من أمامه بعد أن تزحزح قليلا ً إلى الجانب . فتحت باب الممر ، ودخلت مباشرة دونما حاجة إلى البطاقة الألكترونية اللازمة لفتح الباب . دلفت إلى الجهة المقابلة لإتجاه غرفته . كان هو جامدا ً في مكانه . انتبه إلى أنها كررت بالضبط وصفها للأمير ميشكين في رواية الأبله حينما فتح لها الباب ورآها لأول مرة ، حيث نعتته بالأبله ! هل هو أبله حقا ً؟.
أحس برغبة في أن يتبعها ، وحينما أراد أن يفتح الباب وجده مقفلا ً، فأستخدم بطاقته الألكترونية لفتحه ، وحينما نظر نحو الجهة التي توجهت إليها ، لم يجد أي أثر في الممر . أحس نفسه وكأنه يعيش في حلم خانق ، ليس كابوسا ً، لأنه يحب دستويفسكي ، والأمير ميشكين ويعشق ناستاسيا فيليبوفنا ، لكنه يحس بالإختناق ، فهو لا يعرف أين هي حدود الوهم وأين حدود اللاوهم؟ كيف دخلت هذه السيدة هائلة الجمال ، بهذه الملابس التي تعود إلى القرن التاسع عشر؟ أكانت تسير فيها وهي في الشارع؟ ولماذا الجميع يتجه إلى الجهة المقابلة لغرفته؟ ماذا هناك؟ لقد رأى الأشباح التي تشبه الدخان تتوجه إلى هناك ، وكذا كانت العراقية حواء المظلوم تنظر إليه ، حينما كان في الشارع ، من غرفة تقع في الإتجاه نفسه؟ . فجأة ، أحس بحضور هذه السيدة العراقية إلى ذهنه ، فقرر أن يتأكد من وجودها ، فنزل إلى المطعم في الطابق الأول.
كان باب المطعم مطبقا ً، وقف أمام الباب لحظة ، لم تكن اللافتة عن ترميم المطعم موجودة . سمع ضجيجا ً وصخبا ً، فتأكد من أن المطعم يزدحم بالنزلاء الآن . دفع الباب داخلا ً، لكنه فوجئ بأن المطعم فارغ ،

ولا أحد فيه . الطاولات جاهزة لإستقبال النزلاء ، المناديل والملاعق والسكاكين والكؤوس الزجاجية ، منتظمة على الطاولات . لكن لا أحد في القاعة . نظر نحو جهة المطبخ فلم ير أحداً. بقي واقفاً للحظات منتظراً أن يظهر أحد ما ، لكن دون جدوى ، فقرر مغادرة القاعة ، لكنه ما أن صار خارج القاعة حتى سمع الضجيج واللغط من جديد ، فعاد ثانية ليتأكد من ذلك . فتح الباب ، فوجد أن القاعة فارغة ثانية . أغلق الباب خلفه ، وأخذ ينط هابطا السلم ، مذهولاً.

حين صار في الشارع أحس بشيء من الراحة ، لكنه فكر بأن عليه أن يذهب إلى المحطة ويرى إيفا جايكوفسكايا ، وربما سيدعوها إلى وجبة الغذاء معه . فكر مع نفسه بأن عليه أن يقضي الوقت خارج الفندق ولا يعود إليه إلا في الثامنة والنصف ، أو قبل التاسعة بقليل ، ليستقبل تليفون إيفا ليسنج.

خطا بإتجاه المحطة ، لكنه أحس بجوع مفاجئ ، لذا توقف عند مطعم تركي في منتصف الطريق . فكر بأن يطلب طعاماً ويعود إلى غرفته ، أفضل من أن يتسكع بلا هدف .

عاد آدم التائه إلى غرفته . جلس على الكرسي . أخرج طعامه من كيس النايلون . بدأ يلتهم الطعام وكأنه لم يأكل منذ أيام.

حين انتهى من طعامه ، فتح الثلاجة وأخرج علبة مشروبات غازية . فتحها وأخذ يعب منها . وضع العلبة على الطاولة قرب التلفزيون . قام من مكانه ، وانحنى على حقيبته . مد يده في جيبها الجانبي وأخرج مسرحية ريتشارد الثالث لشكسبير . ألقى بها إلى السرير . فكر أنه سيقضي في قراءتها وقتا ، إلى التاسعة ربما.

البقرة والمسلخ

ما أن بدأ آدم التائه بقراءة مسرحية (ريتشارد الثالث) لشكسبير حتى توقف عند نهاية المشهد الثاني من الفصل الأول ، عندما يتم اللقاء بين دوق جولستر الذي سيُسمى بعد تتويجه بريتشارد الثالث ، والليدي آن ، أرملة أدورد أمير ويلز ، الذي قتله ريتشارد الثالث ، كما قتل ابنها أيضا ، حيث صبت عليه حمم الجحيم من شتائم وإهانات ، إلا أنه كان وقحاً إلى الدرجة التي خاطبها بأنه يحبها ، وأنه قتل زوجها لأنه يحبها ، ويريد أن يكون في فراشها وينام معها ، وأعطاها السيف لكي تقتله إذا رفضت أن تكون معه وتتزوجه ، فمسكت السيف ، لكنها لا تنتقم لزوجها وابنها ، وإنما خاطبته ، بعد أن تغزل بها بوقاحة ، قائلة : وددتُ لو عرفت قلبك

. فيجيبها : إن صورته على لساني ، فتقول له بحيرة : أخشى أن يكون كلاهما زائفاً! ثم يعطيها خاتماً فتضعه في إصبعها ، لكنها تعلق قائلة : إن الأخذ لا يعني العطاء . لكنها ، ومن خلال سياق الأحداث لاحقاً، تتزوجه . ما الذي كان يراودها في تلك اللحظات؟

فكر آدم التائه بشكسبير ، متعجباً من عمق توغله في خفايا النفس البشرية ، كيف أنه ربط الجنس بالسلطة . فهذه المرأة الأرملة الثكلى ، ليست من الغباء بأن تصدقه ، لأن شتائمها وإهانتها له تكشف عن معرفتها الدقيقة بشخصيته ، إلا أن وقاحته ، واندفاعه ، ومكاشفته الجنسية لها ، أثار رغبتها الجنسية الخفية ، لاسيما وانه كان واضحاً جداً في كلامه بأنه يريد أن يضاجعها ، أي أنها محت كل المشاهد المأساوية لمقتل زوجها وابنها ، وعطلّتْ رغبة الإنتقام في أعماقها ، تحت تأثير إغواء المتعة الجنسية ، ولم يبق في ذهنها ومشاعرها سوى مشهد المخدع وما سيحمل إليها من متعة جنسية!!.

بينما كان آدم التائه منشغلاً مع نفسه في تأملاته للنص الشكسبيري ، رن جرس الهاتف . نظر إلى ساعته ، كانت تشير إلى الثانية بعد الظهر . إستغرب من ذلك إذ أن موعد إتصال إيفا ليسنج هو التاسعة مساءً. رفع السماعة فجاء صوت إيفا جايكوفسكايا . اعتذرت منه لإزعاجه ، لكنها أخبرته بأنها اتصلت بصديقتها الأرملة ، فكلفتها أن تذهب معها إلى المسلخ ، خارج المدينة ، حيث تريد أن تشتري ذبيحة تقدم قرباناً على روح زوجها ، بناءً على رغبة والد زوجها المسلم ، لكنها لم تشأ أن تزعج صديقتها الحامل ، لذا تكفلت بأن تقوم هي بذلك ، وقد ذهبت إليها ، وأخذت منها مبلغاً معقولاً لشراء الذبيحة ، وسألته إن كان يريد المجيء معها إلى المسلخ ، فهي مترددة أن تذهب وحدها.

فكر آدم التائه للحظة ، وقرر الذهاب معها ، لأنه بذلك سينفق الكثير من الوقت الفائض الذي لا يعرف كيف سيتصرف به ، بالرغم من أنه بدأ يعيد قراءة نص إشكالي مثير لشكسبير . ترك الكتاب جانباً، وقال لها ، بأنه لا يمانع من المجيء معها . واتفقا أن تنتظره في المحطة ، حيث سيذهبان لمحطة بعيدة تقريبا ، تقع في نهاية أحد خطوط مترو الأنفاق.

حينما التقيا في المحطة وجدها أكثر ثباتاً في شخصيتها التي كانت بدت له سابقاً قلقة ومرتبكة . فكر بأن وجود صديقتها ربما له علاقة في ذلك ، لاسيما أن تلك ستؤمن لها المسكن والفراش الدافىء والرفقة الطيبة . كانت إيفا جايكوفسكايا تتصرف معه بتلقائية ، وصداقة عميقة ، وكأنها

صديقته الشخصية أو عشيقته ، وكان هو يحس بالراحة لمثل هذا التصرف العفوي الذي يخلصه من التعامل برسمية وحذر معها.
حينما خرجا من المحطة الأخيرة ، سألا شخصا ً عابرا ً عن المسلخ ، فأرشدهما إلى المكان الذي لم يكن بالقريب ، فهو يقع في نهاية درب ينتهي بأراض ٍ زراعية يغطيها الثلج . أوقفا سيارة تاكسي ، وذهبا إلى هناك ، وطلبا من سائق التاكسي بأن ينتظرهما.
* * *
المسلخ بناء كبير من الآجر الأحمر . بوابته عريضة جدا ً، وفي داخله قاعات لذبح الأبقار والأغنام ، وحظائر في نهاية المبنى ، ومن هنا يجري تزويد المدينة باللحم ، لاسيما المطاعم والمحلات والمتاجر التركية والعربية التي تعتمد على طريقة الذبح الإسلامي.
حين وصلا إلى المسلخ ، قابلا شخصا ًكان يمشي في وسط الباحة ، بدا أنه المسؤول عن المسلخ . حين رآهما وقف منتظرا ً أن يعرف ما يريدان بالضبط ، فسألاه عما يريدان ، واتفقا معه على السعر ، فنادى الرجل بدوره على أحدهم ، فأقبل شخص يلبس مئزرا ًمن النايلون الأبيض وبيده سكينا ً، فأخبره الرجل الأول بما يريدان .
انتبه آدم التائه ، بحكم فضوله الأدبي إلى المكان وتفاصيله ، ثم لمح ثلاثة رجال يضربون بعصا غليظة ، وبقضيب حديدي رأس بقرة ضخمة . كان رأس البقرة في النير ، وأقدامها الأمامية مكبلة بسلسلة ، تعيق حركتها إذا حاولت الهرب . كان الرجال الثلاثة يحاولون جرها إلى قاعة الذبح ، إلا أن غريزة الحياة قد استيقظت في داخلها ، فكانت البقرة ترفض بكل قوتها أن تدخل إلى القاعة ، غير عابئة بالضرب القوي على رأسها ، وكانت تطلق خوارا ًأشبه بالنواح.
اقترب آدم التائه منهم ، فتبعته إيفا جايكوفسكايا . وقف بالقرب منهم ، وقد تفجرت في أعماقه ينابيع الشفقة على هذه البقرة المسكينة التي تحس أنهم يريدون ذبحها . كانت البقرة تستقبل ضربات العصا الغليظة والقضيب الحديدي المبرح لها مطلقة خوارا ًيائسا ً.
انتبه إلى أن البقرة تنظر إليه . أحس بقشعريرة في جسده ، حتى بعد أن استطاع الرجال الثلاثة زحزحتها عن مكانها ودفعها للقاعة . انتبه مرة أخرى إلى أن البقرة نظرت إليه قبل أن ت ُدخل عنوة إلى القاعة . إلتفت إلى إيفا جايكوفسكايا وسألها إن كانت قد انتبهت إلى أن البقرة كانت تنظر إليه ، فأجابت بأنها انتبهت إلى ذلك فعلا ً، حتى أنها استغربت ذلك.

لم يطق هو صبراً، فدخل خلف الرجال إلى قاعة الذبح ، فرأى أن القاعة مجهزة بآلات حديثة ، حيث أدخلت البقرة في نطاق حديدي ضيق ، أشبه بالقفص المفتوح ، يمنعها من الحركة ، ثم رفعت بواسطة الآلات الكهربائية من ساقيها الخلفيتين إلى الأعلى ، فارتطم رأسها ، بالحافات الحديدية الصلدة للنطاق الحديدي . فتدلت البقرة بكامل جسدها إلى الأسفل . كانت البقرة بالرغم من الوضع الذي هي فيه تنظر إليه بعينين جميلتين مليئتين باليأس والإنكسار ، وكأنها تطلب النجدة.

كان الجزّارون الثلاثة منشغلين بشحذ سكاكينهم على حجر أسود يدار كهربائياً، بينما كان هو يقف عند المدخل . لم تكن المسافة بين البقرة المعلقة وبينه سوى متر ونصف ، وبالقرب منه وقفت إيفا جايكوفسكايا التي شحب لونها مما ترى.

كانت البقرة المعدة للذبح تنظر إلى آدم التائه ، وكأنها تستنجد به . ظلت البقرة تخور ، وتحاول أن تحرك جسدها ، إلا أن ثقل جسدها ، ووضعيته بالمقلوب ، كان قد شل حركتها تقريباً، ولم يكن أمامها سوى الخوار اليائس ، والإستسلام المرير.

فجأة ، اقترب احدهم وبيده سكين كبيرة . وقف قرب رأس البقرة ، ومد بنصله إلى عنقها ناحراً إياها . كانت البقرة تحرك رأسها بيأس وألم ، وتحاول أن تعب الهواء ، قبل أن تغادرها الحياة . ابتعد الجزار عنها وترك الدم يتدفق من عنقها بغزارة.

كان آدم التائه ينظر إلى المشهد بعينين مفتوحتين ، شاحب اللون ، بينما غطت إيفا جايكوفسكايا وجهها بيديها لحظة الذبح . كانت البقرة تنظر إليه نظرة حزينة ، مؤنبة ، وكأنها تحمّله جريرة ذبحها . ظل هو يحدق إلى عينيها الحزينتين ، إلى أن انطفأ بريق الحياة فيهما . اقترب القصاب الفتي ، بعد أن تسرب كل دم البقرة من عنقها ، ليفصل الرأس عن الجسد.

غادر آدم التائه القاعة مرعوباً، يغمره إحساس بأنه ساهم في جريمة قتل ، شاعراً بعلاقة غريبة بينه وبين البقرة الذبيحة ، مستغرباً إحساسها بالموت ، ودفاعها المستميت عن نفسها ، بينما كانت إيفا جايكوفسكايا ترتعش من مشهد الذبح ومن الدماء الغزيرة التي تدفقت من البقرة الذبيحة.

بينما هما يستردان أنفاسهما في باحة المسلخ ، جاء جزّار فتي ، ودعاهما إلى أن يريا الخروف الذي سيذبحه لهما . فذهبا يتبعانه إلى قاعة أخرى .

تكرر المشهد ، إلا أن الخروف لم يكن من القوة لكي يقاوم ، وإنما حاول أن يهرب من هنا وهناك ، بيد أن الرجل أمسك به من رقبته بقوة فشل ّ حركته ، وبالطريقة نفسها ، علقه بخط ّاف ٍ، ونحره بالسكين . فصل رأسه عن جسده . ثم بدأ بسلخه.

بعد أقل من عشرين دقيقة ، كانت الذبيحة مقطعة إلى أشلاء ، وجاهزة للحمل ، وهي ملفوفة بكيس من النايلون . حملها أحد العاملين في المسلخ إلى صندوق سيارة التاكسي ، ولأنه من الصعب عليهما حمل الذبحية داخل مترو الأنفاق ، فقد طلبت إيفا جايكوفسكايا من السائق أن يوصلهما إلى البيت ، وأخبرت السائق بالعنوان ، إلا أن آدم التائه طلب من السائق أن يوصله إلى المحطة الرئيسة للقطار أولا ً.

كان آدم التائه وإيفا جايكوفسكايا ، صامتين وكأنهما في مأتم حقيقي . كلاهما كان شاحبا ً، مستغرقا ً في مشهد ذبح هذه الكائنات العاجزة ، إلا إنهما ، وبدون قصد ، أمسك أحدهما بكف الآخر ، وضغط عليها.

حين وصل آدم التائه إلى المحطة ، وقبل أن ينزل ، التفت إيفا جايكوفسكايا بوجهها الحزين إليه وطبعت قبلة صغيرة وبريئة على خده ، وقالت إنها ستمر عليه بعد ساعة أو أكثر في الغرفة . وما أن نزل هو من سيارة التاكسي حتى أخذ يسرع إلى حيث المرافق الصحية . ولحسن حظه كانت المرافق غيرمشغولة ، فدخل أحدها مباشرة ، وهناك جلس مقرفصا ً، وبدأ يتقيأ.

ظل آدم التائه مقرفصا ً في موضعه ، حتى بعد أن تقيأ كل ما في جوفه . كان يستعيد وجه البقرة ، ونظراتها المستنجدة به ، وبينما هو في تلك الحال قررمع نفسه ألا يمس اللحم بعد اليوم.

* * *

حين انتهى هذا الفصل نظرت حواء الزاهد إلى الساعة فعرفت أنها تجاوزت الثامنة ، ولم تتصل بها حواء الكرخي . أخذت الهاتف واتصلت بالأستاذ قابيل الفهد ، فكان هاتفه مقفلا ً، ثم اتصلت بحواء الكرخي . رن الهاتف إلا أن حواء الكرخي لم تجبها . أحست بالقلق يداهمها . وضعت المخطوطة جانبا ً.

أحست حواء الزاهد بانقباض ٍ في قلبها ، وكآبة سوداء تهبط على روحها . نهضت بقلق ، ومضت إلى غرفة الضيوف . كان ابنها ما زال يلعب بأقلامه وأوراقه . رجعت إلى المطبخ لتعد له العشاء . بينما كان طفلها الرضيع غارقا في النوم.

مسلخ على أطراف بغداد

كان الظلام قد غطى تلك الفيافي النائية من أطراف مدينة بغداد ، حيث اندغمت البيوت والشقق المهدمة والمهجورة ، التي اتُخذ إحداها معتقلاً للمختطفين ، مع عتمة النخيل في البساتين القريبة.

في تلك الغرفة النائية التي أعتقل فيها قابيل الفهد وآدم ذوالنورين كانت العتمة كثيفة وثقيلة . كانا يتألمان مما جرى لهما ، فرأس قابيل الفهد قد تشبع بالدم المتخثر الذي نزف منه ، كما خُلعت كتفه عن موضعه ، نتيجة سقوطه وهو مشدود إلى كرسيه ، أما أنف وفم آدم ذوالنورين فقد تورما قليلاً نتيجة ضربه وتدحرجة مع كرسيه وارتطامه بالحائط ، لكن آلامهما النفسية كانت أشد عليهما من آلامهما الجسدية ، فقد كانا يسمعان صرخات ألم واستغاثة لشخص آخر يُعذب ، تأتي من الغرف المجاورة ، وأصوات استخدام آلات تعذيب غريبة.

كانا مرميين على الأرض ، مشدودين إلى كرسييهما . حاولا ، أثناء مغادرة الرجل الذي ضربهما الغرفة ، تعديل وضعهما ، لكنهما لم يستطيعا أن ينتصبا مع كرسييهما بشكل صحيح . لم يعرفا كم هو الوقت ، فقد كان آدم ذوالنورين ينتظر تسليمه لأمه بعد أن تدفع المبلغ المطلوب منها كفدية ، بينما كان قابيل الفهد ينتظر التحقيق معه مساءً، كما قرر الحاج هابيل.

في ذلك المكان النائي ، المنعزل عن حركة المدينة وضجيجها ، سمعا أصوات محرك سيارة تتقدم صوب المكان ، إلى أن توقفت قرب المكان الذي هم فيه ، فعرفا بأن الحاج هابيل وزمرته قد وصلوا . ولم تمض إلا دقائق حتى سمعا هدير مولد كهربائي يملأ المكان ضجيجاً، فخمن قابيل الفهد بأنهم شغلوا المولد الكهربائي الخاص بهم ، ثم سمع وقع أقدام لأكثر من شخص في المكان ، ودخول عدد من الرجال إلى غرفتهم.

ضغط أحدهم زر المصباح الكهربائي فأضاء المكان بنور شاحب . كانوا أربعة . الحاج هابيل وثلاثة آخرين . أشار الحاج هابيل إلى آدم ذوالنورين ، فحملوه مع كرسيه ، وأجلسوه بشكل صحيح في وسط الغرفة . نظر الحاج هابيل إلى وجهه ، فلم يعجبه ما رأى ، فصاح بالآخرين:

- من فعل به ذلك؟

صمت الجميع ، إلا أن الرجل الذي ضربه لم يستطع الصمت ، فأجاب قائلاً بنبرة فيها ارتباك:

- أنا ضربته لأنه شتمني..
- ألم تجد مكانا تضربه فيه سوى وجهه؟ كيف سنسلمه لأمه العاهرة..؟
كان آدم ذوالنورين يسمع حوارهما ، والشتيمة التي وجهت لأمه ، لكنه كظم غضبه المتأجج في داخله . كان ينتظر مصيره المجهول حين سمع الحاج هابيل قائلا ً:
- جئتم بالمال؟
- نعم..
- وهل أجريتم الذي اتفقنا عليه؟
ضحك أثنان منهما وعلقا قائلين:
- يبدو أنها تحب ابنها كثيراً، ومستعدة أن تفعل من أجله كل شيء، لكننا ضمنّا صمتها بعد أن نطلق سراح هذا الجربوع..
- هل وافقت بسهولة؟ (بنبرة مليئة بالرغبة) أخبرني بالتفصيل الممل..
- لا طبعاً.. مانعت.. لكننا هددناها بأنّا لن نستلم المال منها، وسنذبح ابنها، إذا لم تتعرَ، وأوضحنا لها بأن هذه هي وسيلتنا لضمان صمتها، وعدم الذهاب إلى القضاء للإخبار عنا.. وقد بكتْ، وأقسمت بأنها لن تقوم بذلك، لكنّا رفضنا، وكدنا نخرج، ومثلنا دورنا بالخروج، وعند الباب، صاحت بنا أن نتوقف. نزعتْ عنها سترتها وقميصها ووقفت، لكنا طلبنا منها المزيد، فاستدارت ونزعتْ عنها تنورتها، وبقيت بسروالها الداخلي وحمالة الصدر، فتقدمت منها، ونزعت عنها حمالة الصدر، فجفلت وغطت صدرها بيديها. الملعونة، كانت مثيرة حقاً، فلم أتمالك نفسي. دفعتها إلى الطاولة في وضع إنحناء كامل، وسحبت سروالها. نزعت كالمجنون بنطالي وسروالي، وأدخلته فيها. كانت تصرخ رافضة، بينما أخذ الحاج آدم الأسير، يصور المشهد. كانت تصرخ وتشتم، لكنها بعد لحظات، أخذت تشهق وتقول لي بأن أنتهي بسرعة، وفي لحظة ما صمتت بالكامل، ولم أسمع منها سوى لهاثها واستمتاعها الذي كانت تحاول أن تكتمه. فجأة، مدت ذراعيها إلى الخلف لتمسك بي، ولتضغطني عليها بقوة. كنت أحس ارتجافات مهبلها على قضيبي، كانت متهيجة، ومستمتعة جداً. وأعتقد أني زرعت في رحمها جنيناً.
جاء صوت الحاج هابيل قائلا ً، بنبرة أشبه بالفحيح:
- ماذا فعل الحاج آدم الأسير؟
- لاشيء..ظل يصورها بالكاميرا..
- وماذا فعلت هي؟
- غطت وجهها بيديها...

- وماذا فعلتم بعد ذلك؟
- أخذنا حقيبة المال.. تركناها عارية في الشقة كي تلملم نفسها وترتدي ملابسها وتخرج.. وأخبرناها بأننا صورنا العملية كلها، فإذا فكرت أن تبلغ عنا أي جهة ما، فسننشر هذا الفيلم في كل العراق، وعلى الانترنيت.. وأخبرناها بأن ابنها سينام الليلة في بيتها..
- وكيف سترسلونه وهو بهذا الوجه المتورم...
- غير مهم.. إنها ستفرح بخروجه مهما كان..سيتعافى خلال أيام..
كانت الدموع قد احتقنت في عيني آدم ذوالنورين وهو يسمع قصة اغتصاب أمه ، وتصويرهم لذلك . أحس بالدموع تحرق جفنيه ، لم يستطع أن يصرخ ، شفتاه المتورمتان لم تطاوعاه على أن يفتح فمه ، لكنه أخذ يهز نفسه مع الكرسي في صراخ مكتوم . نظر الحاج هابيل إليه ، فعرف أنه يصرخ دونما صوت . التفت لأصحابه وقال لأحدهم:
- خذه.. وأطلقه قبل بيتهم بشارعين.. وهو سيذهب من هناك لبيته..
أخذ إثنان آدم ذوالنورين من ذراعيه بعدما فكا وثاقه ، وأخرجاه من الغرفة . بقي الحاج هابيل ، وآدم الأسير في الغرفة ، بينما كان قابيل الفهد ، وهو مشدود لكرسيه ، مرميا ًعلى الأرض.
سمع قابيل الفهد الحوار الذي دار قبل قليل عن استلام المبلغ من أم آدم ذوالنورين ، واغتصابها وتصوير كل هذا الفعل بكاميرا فيديو ، لإبتزازها إذا ما حاولت الإبلاغ عنهم ، وفكر لحظتها ، بأن أتباع السلطة الجديدة لا يختلفون كثيرا ً عن سلفهم ، فالجميع يغتصب ويصور الإغتصاب لإبتزاز الضحايا إذا ما حاولوا الإقدام على أي شيء ضدهم . كما انتبه لورود اسم آدم الأسير ، المحاسب ، وسط الحديث ، بالرغم من أنه لم يكن موجودا ً لحظة اختطافه.
دفع آدم الأسير الكرسي الفارغ الذي كان آدم ذوالنورين مشدودا ًإليه عن مكانه في وسط الغرفة ، وسحب قابيل الفهد مع كرسيه إلى وسط الغرفة . في هذه الأثناء سُمع هدير محرك السيارة ، التي انطلقت لتقل الفتى آدم ذوالنورين ، بينما دخل الغرفة أحد الرجلين اللذين أخذاه خارجا ً.
كان قابيل الفهد على كرسيه وسط الغرفة . وقف الحاج هابيل أمامه ، بينما وقف الآخران على يمين الكرسي وشماله محيطين به . نظر الحاج هابيل إليه ، وسأله بنبرة مليئة بالحقد:
- من أنت يا قابيل؟ أريد أن أعرف من أنت بالضبط؟
لم يتوقع قابيل الفهد مثل هذا السؤال ، بل ولم يفهم المقصود منه ،

فتمتم بصعوبة:

- لم أفهم..؟ ماذا تقصد؟

نظر الحاج هابيل إلى الرجلين وكأنه يتجنب أن يكشف أمامهما ما يريد من سؤاله ، لكنه كان مضطرا ًلتوضيح سؤاله ، فقال:

- أقصد من أنت؟ كيف، وأنت العلماني الكافر، أن يتوسط لك، بل ويسأل عنك عدد من الشخصيات السياسية والدينية، باحثين عنك؟ من أنت؟

- أنا..يسألون عني؟ أنا.. أنا لا أحد؟

نظر الحاج هابيل إليه بسخرية مفاجئة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة حقودة صفراء ، ثم قال لصاحبيه:

- هل تعرفون من سأل عن هذا الفاسق الذي أمامنا؟

نظرا الرجلان إليه بتساؤل ، وتوجس ، وخوف دفين في أنهما تورطا مع شخص لديه علاقات مع أصحاب النفوذ ، ولم ينطقا بشيء ، متوجسين خطرا ما ، فبادر الحاج هابيل إلى شرح الأمر قائلا ً:

- لقد اتصلت الحاجة حواء آل حجر بي شخصياً، وأخبرتني بأن هناك أشخاصاً مهمين جداً في مكتب (الحجي) الكبير يبحثون عنه، ويسألون عن مختطفيه، وقد اتصلوا بجماعتنا، فأنكروا ذلك، بل وتوتر الجو بينهم، لأنهما رفضوا رفضا قاطعا أن يُسألوا عن عمليات اختطاف، فهم أنزه من أن يقوموا بمثل هذه الأعمال..لكنهم في الوقت نفسه وعدوا بأنهم سيبذلون جهدهم..ههههههه.. طبعاً هم لا يعرفون أننا قمنا بذلك.. علينا التخلص منه قبل أن يعرف أحد أنه بين أيدينا.. لكن ما علينا بكل هذا اللغو..علينا التخلص منه.. وهذه مهمتكم..المهم نفهم منه علاقته بالعاهرة حواء الزاهد..

أحس الآخران بالخوف ، وسأل كل منهما نفسه عن وسيلة للخلاص من هذه الورطة التي جرهم إليها الحاج هابيل إنتقاما ً لنزوته الطائشة ، ورغبته الجنسية المفضوحة بزوجة أخيه ، لكنهما لم يكشفا ذلك أمام الحاج هابيل ، القاتل المحترف.

كان قابيل الفهد يستمع لهذه التفاصيل مذهولا ً، وكأنه يسمع حديثا ًعن شخص آخر ، وليس عنه شخصيا ً، فهو لا يعرف أي شخص في مكتب (الحجي) الكبير ، ولا في التنظيمات الإسلامية الأخرى ، فهو إنسان ليبرالي ، علماني ، يميل لليسار ويحلم بمجتمع مدني تصان فيه كرامة الإنسان ، وليس لديه علاقة قوية وحميمة سوى مع صديقه الصحفي آدم الشبيبي ، وصداقة عادية مع بعض أصدقاء صديقه ، وبالتالي ، لم يفهم سر هذا

الاهتمام به .. فجأة ، برقت في ذهنه فكرة وكأنها حلت اللغز ، فربما صديقه آدم الشبيبي قد عرف بإختطافه ، فتدخل عبر علاقاته ليفرج عنه ، لاسيما وهو يعرف بخبر المطاردة له قبل يوم من إختطافه.
التفت الحاج هابيل إليه قائلا ً، وكأنه تذكر أنه قد سأله وينتظر جوابا ً:
- لم تجبني من أنت؟ ولماذا الكل يسأل عنك؟
- لا أعرف..
لم ينته قابيل الفهد من نطق آخر حرف من جوابه المقتضب حتى بادره الحاج آدم الأسير بصفعة قوية على رقبته من الخلف ، كاد ينقلب على إثرها ، مع كرسيه إلى الأمام ، بينما حاول الرجل الثاني أن يمسكه كي لا يندفع ساقطا إلى الأمام فجذب الكرسي من الخلف بقوة ، ففقد قابيل الفهد توازنه فانقلب مع كرسيه جانبا ً، على جهة كتفه المخلوعة ، فندت عنه صرخة قوية ، وأخذ يتبول دون إرادة منه ، بحيث انتشرت رائحة البول في المكان بسرعة . نظر الرجال إلى بعضهم ، وكأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون به . فجأة ، بصق الحاج هابيل على قابيل الفهد وهو يقول:
- تف عليك يا حقير.. يا نجس.. يا جبان..
خرج وتبعه الآخران.
كان قابيل الفهد يشعر بألم في كتفه المخلوعة ، وبالذل والمهانة . أحس بنفور من جسده الذي لم ولن يطاوعه ، وكأنه لا ينتمي إليه ، وكيف أذله هذا الجسد أمام هؤلاء الأوغاد.
لم يعرف كم مضى من الوقت عليه وهو ملقى على الأرض ، أحس بالخدر في كل جسمه ، وبذراعه وكأنها لم تعد ملتصقة بجسده . فكر مع نفسه ، بمصيره الغامض ، وسأل نفسه ، بالرغم من حالته المزرية تلك : ما الذي يفعلون معه؟ هل سيستجيبون لرغبات هؤلاء المجهولين ، الذين لا يعرفهم لكنهم بالرغم من ذلك يحاولون إنقاذه؟ فجأة ، ومن أعماقه الحزينة والقلقة ، انبثق وجه حواء الزاهد في ذهنه بشكل غامض ، أحس بارتعاشة مست روحه . لم يستمر الحال سوى لحظات ، لكنها كانت كافية لتشعره بأن الحياة هناك في مكان بعيد ، وليس في هذا المكان المظلم ، الذي يتم امتهان كرامة الإنسان فيه !. سأل نفسه : ما الذي فعلوه بها بعد اختطافه؟ وكيف سينتقم منها هذا الحاج هابيل؟ هابيل المدعوم بالدين والملائكة والسماء ، هابيل القاتل ، الذي ذبح إنسانا ً بريئا ً لأنه كان يشك بعلاقته بزوجة أخيه؟ وهو يريد أن يقضي عليه هو أيضا لشكه بأن له علاقة معها؟ هابيل الذي تشتعل في أعماقه رغبات سود نحو جسد زوجة

أخيه من حقه هو ، لأنه يعتبرها إرثاً تركه له أخوه المتوفي ، وليس هناك من هو أحق بجسدها منه ! هابيل الذي سيذبح قابيل من أجل رغبات جنسية مفضوحة ، يذبحه قربانا لشهوته الجنسية العمياء . يا لسخرية السماء .. الأديان تتحدث عن جريمة قابيل بقتله هابيل ، بينما هنا في وادي الظلمات هذا ، سيذبح الحاج هابيل أبو الكباب غريمه الأستاذ قابيل الفهد ، ولماذا؟ ألأنه يشك بأن لديه علاقة بزوجة أخيه؟ يا لمصيبتك السوداء يا قابيل الفهد .. هكذا كان قابيل الفهد يناجي نفسه ، بصمت وفي أعماق ذهنه المشوش . ولم يستطع أن يستمر بالتفكير طويلاً، إذ دخل عليه الحاج آدم الأسير . وقف بالقرب منه ، قائلاً بصوت حاول أن يلعب بنبرته كي لا يُعرف من هو :

- إسمع أيها الحقير..الحاج هابيل أمر بالتخلص منك..

قال ذلك بسرعة وكأنه يبلغه سراً، وخرج.

في إحدى الغرف الأخرى كان الحاج هابيل قد أخبر زميليه ، بأنه سيكتفي بسبعين ألف دولار ، وسيعطي لكل منهم عشرة آلاف دولار ، لأنه نتيجة القبض عليه ودفعه للرشاوى من أجل أن يخرج من السجن ، ولبيع المطعم والأملاك الأخرى العائدة للأخوة ، قد خسر كثيرا ، أضعاف هذا المبلغ الذي يأخذه من صفقة اختطاف آدم ذوالنورين .

إنزعج الرجلان لكنهما لم يعترضا صراحة ، لأنهما يعرفان أنه مقرب جداً من قائد منظمتهم . الحاج آدم الأسير كان الأكثر انزعاجاً، لأنه هو الذي خطط لكل شيء ، لذا ، ولأنه يتعامل سراً مع التنظيمين الإسلاميين ، حيث يدعي الولاء لكل منهما ، فقد أخفى خطة أخرى في ذهنه ، ولم يكشف عنها لإحد ، لاسيما وأن الحاج هابيل قد قرر القضاء على قابيل الفهد ، قبل أن يتدخل الآخرون أكثر ، وأن ترمى جثته قرب المدرسة.

كان الحاج هابيل ينتظر عودة الرجل الذي أخذ الفتى آدم ذوالنورين ، ليبدأ التحقيق النهائي مع قابيل الفهد ، وينتهي منه . طلب من الرجلين الآخرين القضاء على الأسير الآخر الذي كان في غرفة أخرى ، وكان قد نزف كثيراً من جراء التعذيب ، حيث تم ثقب فخذيه بمثقاب كهربائي ، وهو ينازع الموت الآن في غرفة أخرى غير الغرفة التي فيها قابيل الفهد . خرج الرجلان متجهين إلى حيث طلب منهما ، وبقي هو وحده.

كان الرجل الآخر ، المختطف ، قد تجاوز منتصف الخمسينات من العمر ، وهو أستاذ جامعي معروف ، من كبار العلماء في علم النفس . كتبه الأكاديمية تُدرس في بعض الجامعات العربية . السبب في اختطافه ، أنه

كان يلعن تجار الطوائف في محاضراته ، لذلك تعرض له الطلبة المنتمون للأحزاب الدينية ، الذين أخذوا يهيمنون على كليات الجامعة ، متهمين إياه بالفسق والزندقة ، فردهم دون خوف أو تردد بأنهم بيادق في لعبة لا يدركونها ، فاستاءوا منه أكثر ، وهددوه ، فلم يأبه لهم ، وحينما تجاوزوا ، ذات يوم ، على فتاة جامعية غير محجبة ، عندما حاصروها ، وأخذوا يسيئون إليها ويحطون من كرامتها بكلام داعر ، كان هو حينها يدخل الكلية ، فانبرى للدفاع عنها ، وواجه هؤلاء الطلبة الملتحين ، صارخا ً بهم بأنهم بلا أخلاق بالرغم من أنهم نصبوا أنفسهم حراسا ً للنوايا ، ودعاة للأخلاق ، فهددوه علانية ، وقرروا الإنتقام منه ، ثم أوصلوا الأمر لبعض قادتهم ، وكان الحاج هابيل موجودا ً في ذلك اللقاء ، حينما اشتكى الطلبة الملتحون من هذا الأستاذ ، فألقى الشيخ المعمم ، راعي ذلك اللقاء ، نظرة خاصة عليه ، فهم هو من خلالها ضرورة وضع حد لتطاول هذا الأستاذ ، لذا اختطفوه قبل ثلاثة أيام ، وعذبوه بوحشية ، حيث ثقبوا كفه وأطرافه بمثقاب كهربائي ، وقطعوا لسانه ، وهو الآن على وشك أن يلفظ أنفاسه ، فقد نزف كثيرا ً.

حينما دخل الرجلان إلى تلك الغرفة التي تقع في أقصى هذا البيت المتهدم ، وجدوه الأستاذ المختطف يجلس متكئا ً إلى الحائط ، مادا ً قدميه المهشمتين إلى الأمام ، وحوله بقعة كبيرة من الدم المتخثر . ولم يبق من قميصه الأبيض وبدلته الرصاصية مكان لم يلوثه الدم النازف من فمه المقطوع اللسان ، وأنفه المهشم ، لكنه كان متيبسا ً، إذ أنه قد فارق الحياة . حركوه ، وقلبوه بأرجلهم ، فلم يبد أية حركة . تركوا المكان الذي كان مكتظا ًبظلال الموت ، ومضوا لإخبار الحاج هابيل.

عندما أخبروه بموت الأستاذ الجامعي لم يأبه للخبر ، وقال بلا مبالاة:

- ثم ماذا..؟ كلب أجرب يموت. لقد تخلصت البلاد من عقل نجس، شرير، علماني.. ألم تتذكروا المحاضرات التي كانت تلقى علينا حينما كنا في معسكرات التدريب.. ألم تتذكروا ما قاله الشيخ في اللقاء، بأننا يجب أن نخلص البلاد من العلمانيين الكفرة.. فلماذا أنتم قلقون..؟

الحاج آدم الأسير كان متضايقا ً، فقال في نبرة مليئة بالمرارة:

- لقد قتلناه لوجه الله، ألم يكن بالإمكان طلب فدية من أهله؟ هو أستاذ جامعي معروف، وأكيد كان أهله سيفدونه بمبلغ كبير...
- لم يكن هدفنا هو الحصول على المال وأنت تعرف ذلك.
- كان بإمكاننا الحصول على المال، ثم نقتله..

نظر الحاج هابيل إليه متفحصا ً، وكأنه نبهه إلى شيء فات عن باله ، فقال مواسيا ً له ولنفسه:

- على كل حال..سنحصل على مبلغ صغير كمكافأة.. من الجماعة طبعاً، فرأس كل أستاذ جامعي أو مدير عام علماني، أو ضابط عسكري كبير شارك في الحرب العراقية الايرانية، أو طبيب متخصص، سيتم الدفع بالدولار، إذا ما تمت تصفيته، وأنتم تعرفون ذلك كما أعرفه.

- وماذا سنفعل بالجثة..؟ سأل آدم الأسير

- لا أعرف.. السيارة غير موجودة حالياً، لكنا أخذناه وألقيناه في النهر، أو حفرنا له حفرة في البستان القريب..

بينما هم يتحاورون حول الأمر سمعوا اقتراب صوت هدير محرك لسيارة قادمة ، فعرفوا أن صاحبهم قد عاد . توقف هدير محرك السيارة ، وبعد لحظات دخل عليهم الرجل الذي أقل الفتى آدم ذوالنورين . كانت علامات التساؤل والغرابة بادية على وجهه . ما أن ألقى التحية حتى بادره الحاج هابيل بالسؤال ، وكأنه قرأ شيئا ما في وجهه:

- ماذا هناك؟

أجاب الرجل في نبرة صوته استغراب واضح:

- لا أدري ماذا أقول.. لقد أوصلته إلى المكان المتفق عليه بعيداً عن منزلهم بفرعين، وفتحت له الباب وأخرجته بنفسي، لكني وجدته غير فرح بحريته. تبعته وهو يمضي، لكنه لم يذهب لبيتهم.. وإنما أخذ يمشي متجاوزاً الفرع الذي فيه بيتهم..وفي الفرع الذي يليه وقف عند أحد الأبواب..ضغط على الجرس، ثم بيده طرق الباب.. فخرج شاب في عمره تقريبا.. احتضنه وأدخله إلى البيت..الغريب إنه طوال الطريق كان يبكي بمرارة..

تبادل الرجال النظرات في ما بينهم . علق الحاج هابيل وكأنه ينهي الموضوع:

- ما علينا..لقد وعدناها بإطلاق سراحه، وقمنا بذلك.. كيف سيتصرف هو مسألة لا تخصنا..

فقال الرجل نفسه:

- ربما ستتصل أمه..؟

- لتتصل..أخبرها بأنك أوصلته قرب البيت..لكنه شاء أن يذهب لبيت آخر..ربما صديقه.. وذكرّها بالفيديو المسجل لها، إذا تغابت وأرادت أن تتصرف بحماقة.. وذكرّها بأننا نعرف كل شيء عنها..وعن علاقتها بالفتى صاحب مخزن الملابس أيضا..كي تعرف أننا موجودون حولها..وفي كل مكان..

- هذا إذا اتصلت.....! قال آدم الأسير معلقاً، ثم تابع:
- علينا التخلص من جثة الأستاذ قبل أن تتعفن..
نظر الرجال في ما بينهم ، بينما علق الحاج هابيل:
- أحملوه سريعا في كيس من الخيش..كي لا يتلوث صندوق السيارة بدمه النجس..
تبادل الرجال الثلاثة النظرات وخرجوا . بقي الحاج هابيل وحده في الغرفة . كانت نظراته تنم عن توتر عصبي كبير ، وكان مستفزا ً، لا يستقر بنظرته على شيء محدد ، وأخذ يدور في الغرفة مثل ضبع في قفص . بعد لحظات سمع ضجيجهم وهم يسحبون جثة الأستاذ خارجا ً، ثم سمع هدير حركة السيارة وهي تبتعد فعرف أنهم ذهبوا . فجأة ، أحس برغبة في أن يستجوب قابيل الفهد ، فخرج من غرفته وتوجه إلى حيث قابيل الفهد.
كان قابيل الفهد غارقا ً في أفكاره السوداء ، مفكرا ً بمصيره المظلم ، حينما أحس بدخول أحدهم . فكر لحظتها بأن نهايته قد حلت . إلا أنه فجأة أحس بقبضة قوية ترفعه مع كرسيه وتضعه بشكل منتصب مع كرسيه في وسط الغرفة . سمع وقع خطوات في الغرفة ، فأحس بأن الشخص موجود لكنه يذرع الغرفة ، ولم يفهم لماذا لا يتكلم . فجأة ، سمع ذلك الشخص يتكلم ينبرة حقودة ، لكنها مليئة بشبق خفي ، فعرف أنه الحاج هابيل ، ويسأله:
- قل لي بصراحة شديدة. هل لديك علاقة بالعاهرة حواء الزاهد..؟
- لا..
فصرخ الحاج هابيل:
- تكذب.. أنا أعرف أن لديك علاقة بها.. وأعرف أنها عاهرة لا تستطيع الصبر عن النيك.. هل نكتها..؟ ها..قل..هل نكتها..؟صدقني إذا أخبرتني سأعفو عنك.. وإذا كذبت علي سأدعهم يذبحونك كعنزة، قل هل نكتها؟
فقال قابيل الفهد بتوسل :
- لا.. لماذا لا تصدقني.. لا أكن لها سوى الاحترام.. أنا مدير مدرسة ابنها..لا أكثر.
كان قابيل الفهد يحاول جاهدا ً أن يجد التبرير لوضعه ، وكأنه بذلك يقدم مرافعته الأخيرة ، إلا أن الحاج هابيل كان تحت تأثير شبقه الجنسي الطاغي ، لذا لم يكن يستطيع التحرر من ذلك الضغط الشبقي الغريزي ، كي يتقبل ما يقوله له قابيل الفهد ، فصرخ به مرة اخرى قائلا ً:
- كذاب.. لا أصدق.. قل لي كيف هو كسها..هل هو صغير أم كبير..مشعر

أم ناعم حليق..؟ قل لي.. وأنا سوف أعفو عنك.. قل لي فقط..
كان الحاج هابيل يتحدث وكأنه يستمني . كان لا يستطيع التخلص من صورة جسد حواء الزاهد عارية في ذهنه .. كان يتخيلها متمددة على السرير وقد فتحت فخذيها ، فقد كان في تلك اللحظات ، متهيجا ً جنسيا ً، وحينما كرر له قابيل الفهد كلامه موضحا ً بأن لا علاقة له بحواء الزاهد ، كتلك التي يتصورها إزداد غضب الحاج هابيل ، فصرخ مهتاجا ً كالممسوس:
- حقير.. أنت تكذب عليّ.. كلكم تكذبون عليّ.. العاهرة حواء الزاهد تكذب عليّ.. زوجتي تكذب عليّ..ابني يكذب عليّ.. ابنتي تكذب عليّ.. أخي يكذب عليّ..المحامي يكذب عليّ.. مدير السجن يكذب عليّ.. مرجعي الذي أتبع طريقته الشرعية يكذب عليّ.. مسؤولي في التنظيم يكذب عليّ..المسؤولون يكذبون عليّ.. وحتى أنت، أنت الذي تواجه الموت تكذب عليّ أيضا.. كلكم كذابون..لا أحد في هذا العالم يقول الصدق..لا أحد يقول الحقيقة.. (ثم توجه إلى قابيل الفهد صارخاً بحقد، وتعابير وجهه تكشف عن حالة هستيرية)..أنت يا حقير.. ما ضرَكَ لو قلتَ لي كيف نكتها..؟ وشرحتَ لي تفاصيل ذلك..لماذا تعذبني بهذا الكذب، وتقول لي بأن لا علاقة لديك معها..؟ تتحدث عن هذه العاهرة بهذا الإحترام المزيف..أنا أعرف أنها عاهرة.. وقد كان لديها عشيق. القواد والدها كان قد جاء به إلى البيت.. وحبلتْ منه.. وولدتْ نغلاً.. لكني ذبحت عشيقها بنفسي.. الحقيرة هي التي اعترفت ضدي.. كان يفترض أن أتزوجها أنا..أنا أحق بها من غيري بعدما استشهد أخي تحت التعذيب في سجن بوكا.. لكنك جئت لتأخذها مني.. يا حقير.. وتقول لي لا علاقة لك معها! ما دمت لم تعترف لي بالحقيقة بأنك كنت تنيكها، فسأذبحك أنا بنفسي.. لا.. لن أنجس يدي بدمك القذر.. سأتركهم يذبحونك..
فجأة ، رن جرس الهاتف النقال الذي كان يحمله في جيبه . ارتبك . أخذ الجهاز ، وجاء صوته مخاطبا ً شخصا ً آخر بتذلل ، وبنبرة هادئة ، فيها خنوع ، وإيمان زائف:
- نعم مولانا.. بخدمتك.. إن شاء الله أكون عند حسن الظن وأقوم بالواجب.. ماذا قلت مولانا..؟..مَن..؟ ما هو أسمه..؟ قابيل الفهد..؟ مدير مدرسة؟ أبداً والله.. من قال لكم يا مولانا؟ أبداً.. لو كان عندنا لقلت لجنابكم يا مولانا.. أنا خادمكم المطيع.. أما بصدد ذاك الأستاذ الزنديق.. فقد انتهينا منه.. تخلص الوطن من أستاذ كافر، علماني، زنديق.. وإن شاء

الله سنقطع رؤوسهم العفنة..ما دمت أنت على رأسنا يا مولانا.. وعليكم السلام.. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته..
كان قابيل الفهد يستمع له ، وكان خلال ذلك يفكر بنفسه ، فلو كذب عليه وقال له بأنه على علاقة بزوجة أخيه الأرملة ، فأنه كان سيهيج وسيقتله فورا ً، حتى وأن وعده بالعفو .. وبالرغم من إنه كان منشغلا ً مع نفسه ، إلا أن طريقه حديث الحاج هابيل مع الشخص الذي اتصل قبل لحظة شوشت عليه تفكيره ، إذ كيف انقلب هذا الرجل الجامح ، إلى شخص هادئ ، ناعم ، متدين ، مؤمن .. ؟ فجأة ، سمع كل ّ منهما صوت هدير السيارة القادمة ، فعرفا بأن الرجال قد عادوا.
في تلك اللحظة شعر قابيل الفهد بأن نهايته قد اقتربت ، فهم سيقضون عليه هذه الليلة ، لذا أحس بإنقباض في صدره ، وهبوط في ضغطه ، وإحساس بالحاجة لإفراغ ما في جوفه .. كانت حاجته ملحة . أما الحاج هابيل فقد غادر الغرفة مباشرة.
* * *
دخل الرجال الثلاثة الغرفة الأخرى ، حيث كان الحاج هابيل ينتظرهم . كانت نظراتهم قلقة ، وعلى وجوههم الشاحبة ترتسم أفكار مظلمة . وعلى الرغم من أنهم كانوا معا َ، ودخلوا معا ً، إلا إن كلا ً منهم كان في عالمه الخاص به.
كان الحاج آدم الأسير منزعجا ً من هيمنة الحاج هابيل على مبلغ الفدية التي تم استلامه من أم آدم ذو النورين ، وكان يفكر مع نفسه ، بأن قابيل الفهد رأس ثمين ، بينما الحاج هابيل ينوي القضاء عليه لمجرد حقده لأنه على علاقة مع زوجة أخيه الأرملة حواء الزاهد ، نعم ، إنه على علاقة بها ، إنه متيقن من ذلك ، وقابيل الفهد يكذب حينما ينكر ذلك ، على الرغم من أنه على حافة الموت ، لكن لا بد من دفع الحاج هابيل للقضاء عليه الليلة ، وسيبادر هو بنفسه للقيام بهذه المهمة ، أو ربيما سيبيعه لحصل على فدية مقابل رأسه ، لكن عليه نقله إلى مكان آخر والإدعاء بأنه قضى عليه ، هو يعرف مكانا ً جيدا ً يمكن الإحتفاظ به هناك .. سيحاول التأكد من خلو المكان الآخر وجاهزيته . عليه أن يذهب إلى تفحص المكان بعدما يخرجون ، فهو ليس بعيدا ً من هنا ، هكذا كان الحاج آدم الأسير ، يحادث نفسه.
الرجل الذي قام بإغتصاب أم آدم ذوالنورين ، وكان اسمه الحاج آدم الملا ، كان قلقا ً، ومن لحظة رؤيته لأم آدم ذوالنورين عارية أمامه ، وصورتها

لا تفارق مخيلته . كان يتذكر كل لحظة في ذلك المشهد الغريب ، يتذكر وجهها لحظة طلب منها أن تتعرى ، يتذكر ذلك الذعر الأنثوي المليء بالرقة ، ولحظة توجههم إلى الباب رافضين تسلم المبلغ مهددين بذبح ابنها ، حيث التفت إليها ، ناظرا ً إلى وجهها الذي كان مليئا بإصرار عدمي مهول ، يتذكر لحظة بدأت بالتعري ، كيف نظرت إليه بغضب مكتوم ، واستدارت لتنزع قميصها ، يتذكر ارتعاشة جسدها حينما اقترب منها وفتح حلقة حمالة النهدين ، حيث لمح في عينيها نظرة ذعر مليئة بالإغراء ، مما دفعه لإغتصابها .. لا إنه لم يغتصبها ، فقد كانت مهيئة لذلك ، وكأنها تدرك بأن الأمر سيكون هكذا ، وربما فكرت هي في ذلك أيضا ، فقد كانت مثارة ، وبالرغم من اعتراضها الشفوي ، إلا أنها كانت مسترخية تحتي ، ملتذة ، لقد أحسست بارتعاش جسدها مرات عدة . لقد كانت سهلة ، ومطواعة ، وكأنها كانت تريد ذلك .. نعم ، لأنها حينما انتهيت منها ، وأردت ً، مع الحاج آدم الأسير المغادرة ، لمحت ، وأنا الخبير بالنساء ، أنها كانت مرتوية ، ومسترخية في أعماقها ، وبالرغم من توتر الموقف ، فأنها لم تسب وتشتم ، وإنما كان ثمة خجل ، وحائرة ، بل وكانت أشبه باللامبالية ، وثمة إرتياح ٌ خفي ّ جدا ً مما جرى ، وكانت تصطنع القلق والإنزعاج الظاهري الذي يتطلبه وضعها ، لكني أستغرب من تصرف ابنها ، لماذا لم يذهب إلى البيت مباشرة؟ . ربما أراد أن يروي لصديقه ما حدث قبل أن يذهب إلى البيت ! لكن لماذا يذهب إلى صديقه وليس إلى أمه ، التي فدته بكل ما تملك من مال وجسد؟ لربما ذهب إليها في ما بعد؟ أنا لا أعرف ، لم يكن بإمكاني البقاء أكثر ، فهذه هي منطقتهم ، ووجودي أطول من ذلك ربما كان سيثير الشبه ، عموما ً، إذا لم يكن قد ذهب إلى بيتهم وعاد إلى أمه ، فستتصل بي أكيد ، فرقمي هو الوحيد الموجود لديها ، ويا ليته لم يعد ، .. لكن لماذا لا أتصل بها ، بحجة التأكد من وصوله إليها سالما ً، نعم .. نعم .. لكن لا أستطيع الآن ، هذا الحاج هابيل ، الجشع ، لا أستطيع التعامل معه أكثر ، فهو جاهل ، متخلف ، لا يهمه سوى كس زوجة أخيه ، ولا يفكر سوى بمضاجعتها ، مهما كلفه ذلك من جثث ، وذبح ، وقتل .. ثم من هو حتى أرتهن أنا لأوامره؟ لا . لا . يجب الإنسحاب من هذه المجموعة بهدوء ، لأنهم سيذبحونني أيضا ً، فهم لا يعرفون الرحمة أبدا ً.. وهم بلا أي ضمير ، ولا أي دين .. بالرغم من أن اسم الله وكأنه ملصوق بالصمغ على شفاههم .. علي الانتظار .. حينما أعود إلى غرفتي سأتصل بها .. نعم .. علي ّ الإدعاء بأني مريض ، وأن معدتي

ليست على ما يرام ، وأني أريد الذهاب إلى البيت ، لكن كيف .. لا سيارة لدي سوى سيارة الحاج هابيل ، هذا يعني علي ّ الانتظار .. هكذا كان المدعو آدم الملا يناجي نفسه ويناقشها.
الرجل الثالث كان كأنه ظل للحاج هابيل . رجل هائل الحجم ، ضخم الجثة ، مفتول العضلات ، بل آلة من العضلات البشرية . رجل لا يتكلم ، ولا يشارك بأي حديث ، ولا يبدي رأيا ، ولا يهتم لأي شيء ، كل همه في هذه الدنيا تلبية ما يريده الحاج هابيل ، حتى أن الآخرين يهابونه ويخافون التحدث عن أي شيء يمس الحاج هابيل أمامه ، لأنهم يعرفون بأنه سينقل كل شيء إليه ، وأنه لن يسمح بأي شيء يسيء إليه ، وربما يكون عنيفا ً مع الآخرين على إثر ذلك . إنه أشبه بآلة عنف مبرمجة على الولاء للحاج هابيل فقط ، وليس أي شخص آخر في هذا العالم ، إنه رهن إشارة الحاج هابيل . وكان يقف بين الرجال الثلاثة بمواجهة الحاج هابيل ، بجسمه الهائل كحيوان خرافي ، صامتا ً، ينظر بعينين جامدتين ، إلى الحاج هابيل .
الحاج هابيل كان في حيرة من أمره . لم يحصل على أي جواب من قابيل الفهد يؤكد شكوكه ، ويبرر عملية اختطافه ، التي أحس أنه لم يحسب لها بدقة ، فقد اتضح بأن لديه علاقات مهمة ، ربما ستؤذيه لو انكشف أمره ! لكن أزوجة أخيه هي حقا ًكذلك كما يصفها هذا الحقير؟ ما الذي يدفع به ، وهو الذي حياته متعلقة بهذا الإعتراف ، أن ينكر بأنه على علاقة بها؟ ثم ، ما معنى هذه الضجة في البحث عنه؟ ولماذا سأل الشيخ عنه؟ هل يشك ّون فيه بأنه هو من اختطفه؟ من أخبرهم؟ هل هذاالحاج آدم الملا الذي لا يتواجد دائما ً معهم؟ أم الحاج آدم الأسير؟ لا .. لا .. يمكن ، فالحاج آدم الأسير هو الذي رتب كل شيء لاختطافه ، وهو الذي قادهم إليه ، بل وهو الذي أخبرهم عن علاقته بحواء الزاهد ، فلا يمكن أن يكون هو الذي أوصل المعلومات باختطافهم له ، لكن من ناحية أخرى الحاج آدم الأسير متشعب العلاقات ، غامض ، وأحيانا يحس أنه ليس عراقيا ، إنما إيراني يتكلم العربية ، لذا عليه أن يكون حذرا ً معه ، بل عليه أن يتخلص بسرعة من مدير المدرسة هذا ، ويدعى الحاج آدم الأسير هو الذي يقوم بقتله بنفسه ، حتى إذا انكشف الأمر ذات يوم ، فيكون هو في منأى عن اقتراف جريمة القتل .. نعم .. بدأت الشكوك تتكاثر حوله .. عليه التخلص من هذا المكان حاليا ً، والتوقف فترة عن الاختطاف والقتل ، ربما القيام بعملية الإغتيال ستكون أسهل ، صحيح أن ما يحصل عليه سيكون

أقل بكثير من الفدية ، لكن الإغتيال أسهل .. ثم عليه التفرغ لتلك العاهرة التي يتحرق لمضاجعتها . كان الحاج هابيل يقلب الأفكار مع نفسه . نظر إلى الرجال الثلاثة ، وقال وكأنه يصدر قرارا ً نهائيا ً:

- علينا الآن التخلص من هذا المدير الحقير..لأن كل ساعة تمر على وجوده هنا تعرضنا للخطر..

نظر الحاج آدم الأسير بحرارة إلى الحاج هابيل ، وكأن الفرصة أتته من حيث لا يتوقع ، فقال مشجعا ً:

- نعم.. هذا صحيح.. علينا التخلص منه.. وبأسرع وقت..

نظر الحاج هابيل إليه ، وفكر في نفسه أيضا ، بأن الفرصة قد جاءته للتخلص من مدير المدرسة بسهولة ، وسيورط الحاج آدم الأسير بقتله ، فقال له:

- هذه مهمتك الليلة يا حاج.. توكل على الله واذبح هذا الحقير الفاسق لأن وجوده سيكون الأخطر عليك أنت، باعتبار أنك تعمل محاسباً في مدرسته.. هل ستقوم بالمهمة.. أو نكلف شخصاً آخر..

فكر آدم الأسير بسرعة مذهلة لما قاله له الحاج هابيل ، فقد أنذره بأن حياة المدير ستشكل خطرا ً على حياته ، لكنه في أعماقه سخر من هذا الإنذار ، إلا أنه أبدى علامات الخوف والقلق ، وقال بحرارة ، وبنبرة قلقة:

- سأقوم بالمهمة..وحدي.. الليلة.. إذهبوا أنتم.. وسأقوم بالمهمة..لكني ربما سأتأخر..لأني لا أستطيع ذبحه، وإنما سأعدمه..سآخذه إلى أعماق البستان، وهناك سأعدمه..وسأذهب إلى منطقة الحسينية لأنام عند أحد أقربائي.. وأعتقد أنه من الأفضل ألا نلتقي لبضعة أيام.. نتواصل عن طريق الموبايل..

أحس الحاج هابيل بفرح داخلي غامر . لم يساوره أي شك بأن الحاج آدم الأسير سيقوم بالمهمة على أحسن وجه ، فهو حاقد على مدير مدرسته جدا ً. أما الحاج آدم الملا ، فكان ينتظر انتهاء هذه المهمة ، كي يذهب إلى البيت ويتصل بأم آدم ذوالنورين ، وكان مرتاحا ً لأنه لم يضطر لتقديم أي عذر للمغادرة . .

نظر الحاج هابيل إلى الرجال الثلاثة الذين يقفون أمامه ، وقال وكأنه ينهي الموقف:

- على بركة الله..

خرج وتبعه الرجل الظل ، بينما كان آدم الملا محرجا ً بالخروج بهذه الطريقة ، فسأل:

- هل تحتاج إلى المساعدة؟ يمكنني أن أبقى معك إذا كنت تريد ذلك..

- لا.. أذهب.. سأقوم بهذا الأمر وحدي..إنه سهل جداً. سأكمم فمه من جديد وأقوده إلى أعماق البستان، وأن هي إلا طلقة واحدة في الجبين وينتهي كل شيء.. لقد أعددت مسدسي الكاتم اليوم، نظفته، وزيتته.لا تهتم..أذهب أنت أنهم ينتظرونك في السيارة..

خرج الحاج آدم الملا ، وبقيّ آدم الأسير وحده في الغرفة . كان يحس وكأنه حصل على ثروة كبيرة . برقت عيناه بفرح غامض ، وتألق وجهه حينما سمع هدير محرك السيارة ، وانطلاق السيارة ذاهبة . بقيّ هو وحده .. تلفت حوله وكأنه ينظر لأشباح مجهولة ، وغادر الغرفة متجهاً إلى الغرفة الأخرى حيث قابيل الفهد .

الحداد يليـق بالرجال

حين رن هاتف حواء الكرخي كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساء ً. حينها كانت في شقة آدم الشبيبي ، وكان كل منهما ينتظر أي خبر عن اختطاف قابيل الفهد . رفعت السماعة فجاء صوت أخيها آدم الكرخي ، القيادي في الحزب الحاكم ، وعضو مجلس نواب البلاد . حواء الكرخي كانت تنتظر هذا الاتصال منذ ساعات . كانت قلقة جدا ً، وكانت قد وعدت حواء الزاهد بالمبيت عندها هذه الليلة ، وأنها ستعود إليها بعد أن تلتقي آدم الشبيبي وصديقه قابيل الفهد ، إلا أن الأمور أخذت مجرى ً آخر ، لذا فهي لم تجب على اتصالات حواء الزاهد المتكررة . ما أن رأت الرقم على شاشة الهاتف حتى نهضت قافزة من مكانها ، وهي تجيب:

- ألو..نعم..

عرف آدم الشبيبي أن المتصل هو أخوها.

- هل من جديد؟

قالت ذلك ، ومضت ، وبيدها الهاتف إلى المطبخ ، لم تتحدث ، وإنما كانت تسمع ما يرويه أخوها على الطرف الثاني من خط الاتصال . خرجت من المطبخ متجهة إلى غرفة النوم . خرجت ثانية متجهة إلى المطبخ ، ومن المطبخ خرجت إلى الصالون ، ثم عادت إلى المطبخ . كل هذا الوقت وأخوها يروي لها تفاصيل ما توصل إليه من خلال اتصالاته . كان وجهها متوترا ًوهي تتحرك قلقة مثل نمر في قفص .

كان آدم الشبيبي صامتا ً ينظر إلى وجهها حينما تخرج من المطبخ أو غرفة النوم ليعرف طبيعة الأخبار على وجهها ، لكنه لم يكن يتوصل إلى شيء ، فهي قلقة دائما ً، ولا تتكلم كي يفهم من كلامها ما يجري . كانت هي تستمع فقط . في المرة الأخيرة التي دخلت فيها إلى المطبخ تأخرت ، ولم تخرج . تأخرت لدقائق .. سمع صوت الثلاجة يفتح ، وضجيج خفيف لقنينة ماء تسحب من داخل الثلاجة . وبرغم ذلك لم تخرج من المطبخ ، فأحس بشيء غير طبيعي ، فنهض مسرعا ً نحو المطبخ . وجدها صامتة ، تنظر إلى إلأرض ، وحينما أحست بوجوده ، رفعت رأسها إليه . نظر إلى وجهها ، قائلا ً بخوف:

- ماذا هناك؟

خرجت من المطبخ متجاوزة إياه ، متوجهة إلى الصالون ، فتبعها . كانت صامتة . أحس بكارثة قد حدثت . لم يجرؤ أن يسألها ، إذ كان ينتظر أن

تتحدث هي من تلقاء نفسها . نظرت إليه بحزن ممزوج بخوف وقالت بهدوء:

- لم يعثروا عليه، ويعتقد أنه تمت تصفيته. لقد اتصل بكل الأطراف، والجميع نفى علمه بإختطافه. البعض حاول أن يتهم الآخرين، بيد أن عملية الإختطاف تمت في شارع فلسطين، أي في منطقة تتقاسمها جميع الأحزاب تقريباً.. لكنهم سألوا أصحابهم..وأكد الجميع بأنه ليس لديهم.. ويعتقدون ربما الأمر يكمن في تصفيات شخصية.. مستغلين الفوضى الأمنية في البلاد..وهذا يعني أن حظه بالبقاء قليل جداً، إذا لم يكن قد تمت تصفيته أصلاً.. وهناك أمل وحيد هو أن يتصلوا طالبين مالاً مقابل إطلاق سراحه..

كان حديثها الحزين والهادىء قد شل تفكيره للحظات ، فقال بيأس شديد:

- سيتصلون بمن؟ أهله في الكوت..وهو ليس ثرياً أبداً كي يدفع لهم..

صدمت حواء الكرخي من جواب آدم الشبيبي ، وانتبهت إلى أنها لم تفكر بذلك ، فهي لم تسأل أخاها هذا السؤال : سيتصلون بمن؟ . كيف فاتها هذا الأمر؟ فجأة ، أخذت هاتفها وضغطت على أرقام محددة ، موجودة أصلا ً، وبعد لحظات ، سألت مباشرة:

- هذه أنا مرة أخرى، وددتُ أن أسأل عن إمكانية الاتصال من أجل إطلاق سراح الأخ قابيل مقابل المال، هؤلاء المجرمون سيتصلون بمن؟ فالرجل يعيش وحيداً في بغداد، وأهله يعيشون في محافظة أخرى، وهو ليس بغني أبداً.....

صمتت حواء الكرخي ، إذ بدا أنها تسمع جواب أخيها . أغلقت الهاتف ، ونظرة إلى آدم الشبيبي موضحة:

- ربما سيتصلون بك.. أو بي، أو بحواء الزاهد.. أي لكل من له علاقة به..من المؤكد أن لديهم هاتفه النقال الذي كان معه، ومن المؤكد أن خاطفيه يعرفون تحركاته، لاسيما وأنه طورد من قبلهم قبل ذلك بيوم، أي أنهم يعرفون تحركاته..ومن المؤكد سيتصلون بك..أو بحواء الزاهد..لاسيما وأن الشكوك تدور إلى كون الموضوع هو شخصي أكثر مما هو طائفي، مستغلين هذه الفوضى التي تعيشها البلاد.

نظر آدم الشبيبي إليها مرعوبا ً، وقال بخوف:

- يتصلون بي؟
- ربما..
- ولماذا يتصلون بي؟

- لأنك صديقه..
- هذا يعني أنهم يعرفون أين أعيش..؟

نظرت حواء الكرخي إليه باستغراب ، فلأول مرة تراه مهزوزا ً، ومرعوبا ً، وخائفا ً على نفسه إلى هذه الدرجة بحيث يرعبه إتصال قد ينقذ حياة صديقه !!.

في تلك اللحظة أحست أنها بعيدة عنه ، وأنه ليس من كانت تظنه ، لكنها بعد لحظات شعرت مع نفسها أنها ربما تظلمه ، فالخوف غريزة طبيعية في مثل هذه الحال ، كما أن هؤلاء المجرمين مرعبون حقا ً، لكنها في الوقت نفسه ، أحست أنها تحاول أن تداري خيبتها فيه ، أكثر مما تجد له عذرا .

فجأة ، انبثق وجه حواء الزاهد في ذهنها ، وأحست كم هي شجاعة تلك المرأة في مواجهة هؤلاء القتلة ، فقد اعترفت ْ على القتلة حينما ذبحوا حبيبها آدم المحروم ، علما ً أنها تعرف نتيجة اعترافها ضدهم ، بل إنها بالرغم من كونها امرأة أرملة مع طفلين ، إلا أنها تواجه ضغوطا يومية ، وتهديدات مباشرة ، لكنها لا تزال صامدة ، برغم الخوف أيضا ، بينما هذا الصديق الحميم لقابيل الفهد يخاف استقبال اتصال هاتفي ربما سينقذ صاحبه . في تلك اللحظة أحست بأنه من الضروري إخبار حواء الزاهد بما جرى مع قابيل الفهد ، واحتمال الإتصال بها أيضا ، لكنا فضلت عدم إخبارها الآن ، وإنما يمكن تأجيل ذلك إلى الغد . ظلت للحظة تفكر مع نفسها ، وحسمت أمرها بمغادرة الشقة ، والتوجه لشقتها.

حين نهضت من مكانها أحست ْ بنظرات الخوف التي ارتسمت على وجه آدم الشبيبي ، الذي بادر بسؤالها خائفا:

- إلى أين؟
- إلى البيت
- أي بيت؟

نظرت ْ إليه مستفسرة عن معنى سؤاله ، ثم قالت:

- ماذا بك؟ إلى بيتي طبعاً.. لقد وعدت حواء الزاهد بأن أبيت الليلة عندها، لكني لا أستطيع رؤيتها الليلة..غداً سأذهب إليها وأخبرها بكل شيء..
- وأنا؟
- أنت؟ ماذا يعني: وأنا؟

ارتبك آدم الشبيبي ، وقال :

- أقصد هل ستتركيني وحدي؟ أليس من الممكن أن يتصلوا بي؟ ألا

يفترض بك أن تكوني معي؟

نظرت إليه وكأنما تحاول أن تقرأ ما يدور في ذهنه ، فقالت له:

- أنا لم أتصل بقابيل الفهد سوى مرة واحدة، وبالتالي، من المحتمل أن يتصلوا بكل الأرقام المحفوظة في هاتفه، لكنهم بالتأكيد سيرون أني لم أتصل سوى مرة واحدة، وهم لا يغامرون بالاتصال بأصحاب كل الأرقام المحفوظة في هاتفه، فمن المؤكد هناك آباء وأمهات للطلبة أرقامهم موجودة لديه، لكنهم سيرون أكثر الناس اتصالاً به، أو من هو على تواصل دائم معه، وأعتقد أنكما كنتما تتحدثان مرات عدة يومياً.. يعني أنك أكثر الناس احتمالا كي يتصلوا بك، ومن ثم حواء الزاهد.. لكنك صديقه الحميم..

فقال لها بنبرة فيها توسل :

- لذلك أنا أسالك، كيف ستتركينني وحدي معهم؟

- أنا لا أتركك وحدك معهم؟ فهم أساساً غير موجودين، أنهم كالأشباح، وهم يريدون المال، أي أنهم سيتصلون بالهاتف فقط.. ويقولون كلمات مقتضبة جداً.. ويطلبون المبلغ..

- لكني لا أملك مالاً..؟

- لماذا أنت خائف هكذا؟ ليتصلوا أولاً.. صلّ من أجل أن يتصلوا، لأن ذلك يعني أنه حي

- أنا لا أصلي أصلاً.. كنت أصلي في صغري..وتركت الصلاة..

- ما بك يا آدم..؟ أن أقول صلّ بمعنى تمن من أجل أن يتصلوا.. ولا أقصد أن تصلي وتركع وتسجد..

فقال بنبرة رجاء واضحة :

- أرجوك أبقي معي

- لكن كيف يا آدم؟ كيف أبقى معك؟

- أنا أنام هنا..وأنت في غرفة النوم.. اتفقنا..؟

- لكن..

- أرجوك..

نظرت إليه فأحسته مثل طفل صغير مذعور ، فرق قلبها ، وارتسمت على وجهها ابتسامة حزينة ، وقالت بغير حماس:

- حسناً..

نظرت إليه للحظة ، وقالت:

- هذا ليس من أجلك، وإنما من أجل قابيل الفهد الذي يعرف الله وحده الحالة التي هو فيها الآن..

- لا ضير.. أنا أيضا أقول لك أبقي من أجله هو..

توجهت حواء الكرخي إلى غرفة النوم ، بالرغم من أن الوقت ما زال مبكرا ً على النوم ، إلا أنها قررت أن تنفرد مع نفسها ، وتفكر في خيبتها بهذا الشخص الذي كانت تأمل أن تعيش معه قصة رومانسية ، لما كان يبديه من إهتمام بها ، ورحابة صدر ، واستعداد للمساعدة ، ولأفكاره التقدمية ، وتحرره الإجتماعي والفكري ، إلا أن موقفه من صديقه قابيل الفهد صدمها ، إذن ، عليها مراجعة موقفها ، قبل أن تنزلق لعلاقة غير موفقة مسبقا ً.

في الوقت نفسه ، استغرب آدم الشبيبي ذهابها إلى النوم في مثل هذا الوقت ، فعلق متبرما ً:

- هل هذا هو وقت للنوم..؟

نظرت إليه متفحصة وقالت بنبرة فيها بعض المشاكسة والتحدي:

- لا... ليس وقتاً للنوم.. وإنما وقت للتفكير...

- وهل يمنعك أحد من التفكير هنا..؟

- لا... أريد أن أكون وحدي..

نظر إليها محاولا ً أن يفهم ما يدور في ذهنها ونفسها ، وقال بحزن:

- مثلما تشائين..

نظرت إليه بتحد ٍ وقالت:

- طبعاً مثلما أشاء..

ومضت إلى غرفة النوم ، وأغلقت الباب خلفها . بينما جلس هو حزينا ً، وقد هيمن عليه إحساس طاغ بأنه فقدها.

حيتان وفيلة تصعد إلى السماء

كانت حواء الزاهد قد أعدت وجبة العشاء لابنها آدم الملاك . وكان الصغير مزاجيا ً في عادات أكله ، فأحيانا يتقبل أصناف الطعام العراقية كالرز مع مرق الفاصوليا أو الباذنجان ، وأحيانا يرفض أكل هذه الأصناف ويصر على سندويشة الخبز المطلي بالشكولاتة الطرية ، أو يشتهي البيض المسلوق بالماء المغلي ، فيلتهم بيضتين أو ثلاثا ً دونما خبز أو أي شيء آخر ، بالرغم من أن الطبيب حذرها ذات مرة من الإكثار من البيض لعدة مرات أسبوعيا ً.

كانت حواء الزاهد صبورة على مزاجه الطفولي ، فلا تغضب إذا ما أعدت له صنفا ً تظن أنه سيتقبله وإذا به يرفضه.

في تلك الليلة كانت قد أعدت الرز ومرق الفاصوليا والسلطة ، وكانت قد إستعدت لمجيء حواء الكرخي إلا أن تلك تأخرت ، ولم تأت لحد الآن ، بالرغم من أن الساعة قد تجاوزت الثامنة ، لذا لم يكن أمامها سوى أن تقدم وجبة العشاء لابنها الذي لم يعترض على الطعام.

تركت حواء الزاهد ابنها في غرفة الضيوف يتناول وجبته ، وتوجهت هي إلى غرفة النوم ، فرأت أن ابنها هابيل مستيقظ فاتح عينيه السوداوين ، ناظرا ً إلى سقف الغرفة . ابتسمت مع نفسها ، وتوجهت إليه ، أخذته بحضنها وهي تقبله وتشمه ، ثم وضعته على السرير ، وأخذت تفك ملابسه المشدودة ، فوجدت أنه قد تبرز ، فنظفته ، ثم توجهت إلى المطبخ لتغلي ماء ً كي تحممه.

مضت ساعة تقريبا على ذلك . كانت قد حممت رضيعها ، وأرضعته ، وأرقدته في مهده فنام ، وأرقدت ابنها آدم الملاك إلى جانبها على السرير ، ولأنها كانت على شبه يقين بأن حواء الكرخي لن تأتي في مثل هذا الوقت ، فقد تناولت قليلا ً من الطعام . ولكي تتأكد بشكل كامل من إحتمال مجيء حواء الكرخي من عدمه ، فقد اتصلت بها مجددا ، لكنها كالعادة لم تجب على الاتصال . فكرت مع نفسها بأن هناك شيئا ما يمنعها من الرد ، لكنها لم تذهب بعيدا ً في تصوراتها بحدوث كارثة بحجم اختطاف الأستاذ قابيل الفهد.

فكرت مع نفسها أنه من الأفضل لها أن تقضي الوقت بمواصلة قراءة مخطوطة الكاتب آدم البغدادي ، ومتابعة رحلة آدم التائه الغامضة . أخذت المخطوطة وقلبت صفحاتها متوقفة عند الفصل الذي يتحدث عن التحولات الغامضة التي طرأت على نفسية آدم التائه بعد عودته من المسلخ ، لكنها

، وبدافع غامض ، وقبل أن تواصل القراءة اتصلت مرة أخرى بحواء الكرخي ، فلم ترد ، وراودها هاجس بأن تتصل بالأستاذ قابيل الفهد لتسأل عنها ، فاتصلت إلا أن الهاتف كان مغلقا ً. ربطت جهاز الهاتف بقابس الشحن ووضعته قرب رأسها ، ومدت يدها للمخطوطة ، وبدأت بالقراءة.

أشباح دوستويفسكي

بعد أن خرج من المحطة أحس بأنه ضعيف جدا ً. شعر بوهن في جسده ، وبكآبة تقبض على روحه . وبرغم قرب الفندق عن المحطة فقد أحس بأنه ربما لا يستطيع المشي إلى فندقه القريب من المحطة ، إلا أن الشارع كان خاليا ً من أي سيارة تاكسي . أخذ يمشي بإتجاه الفندق ، وحينما قطع نصف المسافة تقريبا ً، ترك فكرة تأجير سيارة.

حينما وضع بطاقته الألكترونية في موضعها كي يفتح الباب الذي يفضي إلى الممر الذي تقع غرفته فيه ، سمع حديثا يدور بالألمانية ، وحينما صار في الممر ، نظر إلى جهة الصوت فرأى المرأة العراقية التي أد ّعت بأن اسمها هو حواء المظلوم تتحدث مع دستويفسكي ، أو كما خ ُيل إليه بأنه دستويفسكي ، المرأة ألقت عليه نظرة عابرة ، وابتسمت بشكل غامض ، وأحنت رأسها قليلا ً كتحية له ، إلا أن الرجل الذي معها ، لم ينتبه لذلك ، وحينما هم هو بالتوجه إلى تحيته لم يتمكن من ذلك ، لأنهما دخلا تلك الغرفة في أقصى الممر .

سأل آدم التائه نفسه عن هذه الغرفة التي يدخلها الجميع ، فقد دخلتها الأشباح قبل ذلك ، ثم الأمير ميشكين الأبله ، ثم ناستاسيا فيليبوبفنا ، حواء المظلوم ... ما سر هذه الغرفة؟ ولماذا يدخلها الجميع؟ وقف لحظة مفكرا ً مع نفسه ، لا بد له من معرفة سر هذه الغرفة؟ نعم .. لكنه الآن مرهق ، وهو أحوج ما يكون إلى الراحة ، لذا سيؤجل ذلك ، فتوجه إلى غرفته.

ألقى بنفسه على السرير بكامل ملابسه . كانت عيناه مفتوحتين ، وكان يرصد حالة غوصه في النوم ، أحس وكأنه وحده يجلس في قطار مضيء . القطار يدخل نفقا ً مظلما ً، أضواء القطار تشحب شيئا فشيئا إلى أن تنطفئ ، القطار المظلم يمضي في النفق المظلم .. ولم يعد هنا.

* * *

كانت ثمة طرقات على الباب . طرقات على أبواب الظلام . طرقات في الفراغ .. لكن هناك ثمة صوت .. صوت طرقات على باب .. أين الباب؟ من الطارق؟

فز آدم التائه . فتح عينيه . كان الظلام يغمر الغرفة . أحس بجسده أكثر خفة مما كان . فكر بأن النوم قد أفاده كثيرا ً، نهض ببطء . ضغط على زر الكهرباء فأضاء الغرفة نور باهر . لكنه انتبه إلى أنه فز على إثر طرقات على الباب . من كان يطرق على الباب ، إذن؟ .

فتح الباب . لم يكن هناك أحد ، لكنه سمع وقع أقدام في الممر . خرج مسرعا ًمن غرفته ، وحين صار في الممر الرئيسي ، انتبه إلى حواء المظلوم وهي تدخل الغرفة في أقصى الممر ، في الجهة المقابلة له ، أكانت هي التي تطرق الباب؟ من ت ُرى غيرها؟ لكن ماذا كانت تريد؟.

عاد إلى غرفته . نظر إلى ساعته ، لم يبق إلا ثلاث دقائق إلى التاسعة . أحس بالقلق . نزع معطفه ووضعه جانبا ً على السرير . أحس بعطش غريب . فتح الثلاجة وأخرج قنينة ماء وأخذ يعب منها بلهفة ، حتى أنه لم يبق فيها إلا القليل حينما أبعدها عن فمه ، لكنه أحس بالإرتواء ، وبينما هو يضع القنينة شبه الفارغة على الطاولة قرب التلفزيون ، رن جرس الهاتف في الغرفة.

- آلو..

- أهلا آدم.. هذه أنا إيفا.. كيف حالك..؟

كان صوتها منخفضا ً، وثمة نبرة من الإعتذار الخفي يغلف صوتها ، وكأنها كانت غير واثقة من طريقة استقباله لمكالمتها.

- شكرا جزيلا..وأنت كيف حالك؟ ما الذي جرى؟

سألها آدم التائه وكأنه نسي ما جرى ، إذ كان ثمة تلهف واضح في صوته ، لكنه حاول أن يمنحه شيئا من الرزانة . شعرت هي بدفء صوته الرجولي ، وانتبهت لمسحة الحنين والطيبة التي تكشف عن مشاعره الغامضة تجاهها.

- إنه شيء مرعب يا آدم.. كما كتبت لك في رسالتي..صديقتي العربية حواء صحراوي أقدمت على الانتحار.. لكن الأطباء حاولوا إنقاذها، بالرغم من أنها فقدت دماً كثيراً..أنا آسفة لما حصل.. أخبرني أنت متى تسافر؟

- أنا..لن.. أسافر..

أجاب آدم التائه بنبرة حزينة مفاجئة ، حتى أنها أحست لثوان برجفة اجتاحتها.

- ماذا.. أ سمعتك جيداً أم لا؟

أجابها ببطء شديد :

- نعم..سمعتني جيداً.. أنا لن أسافر..

- كيف؟ ولماذا؟
أجاب بنبرة فيها شيء من السخرية المرة:
- لأن اسمي غير موجود على قائمة الحجز.. واتضح أن جواز سفري غير صالح إلا للسفر في الدول الأوربية..
صمتت إيفا ليسنج للحظات ثم سألت:
- أنا لا أفهم شيئا من كل هذا الأمر.. ألم تعلم بكل هذا قبل ذلك؟
- لا.... الأمور كلها جرت بطريقة غامضة لا يبررها أي منطق..
- ماذا ستفعل الآن؟
- لا أعرف بالضبط.. ربما سأرجع لمدينتي.. وربما سأبقى بعض الوقت هنا..ثم أقرر إلى أين سأذهب.. فأنا مشوش بعض الشيء..أحس أنني أريد أن أكتب شيئا..ربما رواية..لا أدري.. لقد جرت معي أشياء غامضة..وأود أن أعيد صياغتها إبداعياً.. أنا لا أفهم الكثير مما يجري حولي.. ربما الكتابة ستشفيني..
صمتت إيفا ليسنج لحظة وكأنها تفكر بشيء ، ثم قالت:
- رائع.. لكن لماذ لا تفكر بالمجيء إلى لندن؟
- لا أعرف يا إيفا.. لندن مدينة صاخبة.. و..و..غالية جداً.. وأنا حالياً، برغم وضعي الذي ليس بالسيىء، لكني لا أستطيع أن أتحمل تكاليفها لفترة طويلة..
فقالت على عجل ، وكأنها تريد إلغاء هذه العقبة التي وضعها أمام نفسه ، ولم تشأ أن تحرج كبرياءه الرجولي ، الشرقي ، فلم تقل له بأنها ستتكفل ذلك ، إلا أنها خففت من الأمر ، وقالت:
- سأقف إلى جانبك من هذه الناحية..
صمت هو للحظات ، ولم يشأ أن يعلق على كلامها مباشرة ، فقال لها وكأنه يريد أن يغير مسار الحديث:
- على أية حال، هذا موضوع يحتاج إلى تفكير..
فهمت إيفا ليسنج أنه محرج من مناقشة الأمر حاليا ، وعلى التلفون ، لكنها ضمنت موافقة غير مباشرة ، لذا لم تتوسع في الأمر ، وتركت الأمر إلى حين اللقاء ، فسألته:
- كم ستبقى في ميونخ؟
- لا أعرف..
- أنا سأرجع بعد يومين لتوقيع العقد مع الشركة الألمانية المنتجة..
- هل قرأت السيناريو؟

- نعم.. أخذته معي.. وقرأت معظمه في الطائرة، ثم أكملته اليوم..أعجبني طريقة تفسير الأحداث.. إنها وجهة نظر جديدة لتفسير رواية مرتفعات وذرينغ..
- لكنك أعترضت حينها، بأن المخرج يريد تصوير مشاهد..ماذا أقول... مشاهد جنسية..
- نعم.. هم قالوا بالتعبير الألماني.. سيكون هناك الكثير من اللحم.. أي من الجسد العاري.. لكن السيناريو لم يكن بهذا المعنى..في الرواية ثمة مشاهد كُتبت بدون تفاصيل.. وكاتب السيناريو يحاول استثمارها لتقديم تفسيره.. وطبعاً في تفسيره ثمة مفاهيم فرويدية.. لذا فهو يفصل هذه المشاهد العامة..
- التفسير الفرويدي شيق دائما، إلا حينما يبالغ فيه، أو تلغى العوامل الأخرى.... المهم السيناريو أعجبك.. وأنت موافقة..
- نعم.. نعم.. لذا سأعود بعد يومين لتوقيع العقد معهم، لكن هل يمكنك البقاء إلى حين أصل أنا إلى ميونخ..؟
- سأحاول..
فقالت له بنبرة فيها رجاء:
- أرجو أن أراك يا آدم.. (ثم قالت بمرح) لقد سألتني صديقتي عنك..
- من؟
- صديقتي العربية حواء صحراوي
- وهل هي في حال يسمح لها أن تسأل عني؟
ضحكت للحظات وقالت:
- تصور.. لكن هذا مفهوم..فأنا قد حدثتها عنك..لقد أخبرتك بذلك..لذا حينما زرتها في المستشفى.. تحدثنا مطولاً عن أسباب انتحارها..ثم أخذنا الحديث فسألتني عن صديقي الكاتب العراقي..
- لا أعرف ماذا أقول..
- لا تقل شيئا.. إنما أنا التي بودها أن تقول شيئاً..وأعذرني على ذلك.. إنني سعيدة أنك لم تسافر..
- على أية حال.. قصة سفري قصة طويلة.. سأرويها لك حينما نلتقي..
- سأكون في الفندق نفسه.. بالمناسبة..لماذا لا تنتقل إلى فندقي..؟
فوجىء آدم التائه من اقتراحها ، وبالرغم من أنه ليس مرتاحا ً في هذا الفندق الغامض ، إلا أنه أ َحس بجاذبية غامضة سوداء تشده إلى هذا الفندق المريب ، إلى جانب أن ليلة واحدة في فندقها تعادل أجور مبيت

أسبوع في هذا الفندق الذي هو فيه ، فقال لها بطريقة دوبلوماسية:

- أنا مرتاح في فندقي

أحست إيفا ليسنج بأنها تسرعت بإقتراحها عليه بالإنتقال إلى فندقها ، فقبل لحظات شكا لها من غلاء لندن ، أي أن وضعه المادي ليس على ما يرام كما يدعي ، لذا حاولت أن تغير الموضوع ، فقالت له ، وهي تشعر بأنها مشدودة إليه فعلاً:

- أنا مشتاقة لك يا آدم.. لذا فأنا متلهفة لرؤيتك..
- وأنا أيضا...

صمتت للحظات ، فهذه هي المرة الأولى يتحدثان بهذه الطريقة الحميمة ، كرجل وامرأة ، كإنسانين جمعهما الجوهر الإنساني وحده ، بعيداً عن كل الفوارق الشخصية والحضارية والطبقية والجغرافية . أحست بتدفق في مشاعرها نحوه ، ولم تشأ أن تتعجل بكشفها ، دونما مراجعة ، لذا أرادت أن تنهي الحوار ، لتعيش مع هذه المشاعر الجديدة التي أخذت تغمرها ، وتتزايد كحركة المد البحري ، فقالت له:

- سأكون بعد يومين في ميونخ.. إلى اللقاء
- وسأكون بانتظارك.. إلى اللقاء
- آدم
- نعم
- اعتن بنفسك..
- وأنت أيضا انتبهي لنفسك..

إنقطع الإتصال من طرفها . ظل هو ممسكاً بسماعة الهاتف ، وهو يشعر بفرح خفي أخذ يزيح بعض العتمة التي تغلغلت إلى أعماق روحه بعد زيارته للمسلخ . لم ينتبه لنفسه حينما مد يده ليضع السماعة في موضعها على الجهاز.

ظل للحظات جالساً دونما أي تفكير وكأن رأسه مفرغ من أي شيء . هذه الحالة كثيراً ما تمر به ، إذ يجد نفسه وكأنه قنينة فارغة ، لا إحساس ، لا أفكار ، لا فرح ، لا حزن ، لا آمال ولا خيبات ، تتساوى لديه الأشياء كلها ، ولا يهمه أي شيء ، وكأنه هو غير موجود ، عينان تحدقان إلى الأشياء دونما أي إحساس خاص ، بالرغم من أن جسده ينبض بالحياة .. ؟ حاول إيجاد تفسير لهذه الحالة التي يمر بها أحيانا ، ولم يجد من تفسير سوى أن زحمة الأفكار والإرهاق الذهني هي السبب .

انتبه لنفسه فجأة ، وكأنه كان خارج الزمن ، أو كان راقداً في سبات

عميق وصحا ، وكأنه يقفز من اللاحضور إلى اليقظة ، من الغياب إلى الحضور.
فكر مع نفسه محاولا ً أن يقتنص تقلباته النفسية ، وسأل نفسه : أين كان قبل لحظات ، بعد انقطاع الحديث مع إيفا ليسنج؟ إنها لحظات ، ربما استمرت لدقيقة أو دقيقتين لا أكثر ، لكنه لم يكن موجودا ً وحاضرا ً في الزمان والمكان كما هو الآن !.. لا أنه كان حاضرا في المكان ، لأنه لم يغادر الغرفة ، وكذلك كان حاضرا في الزمان لأن وقتا ً، مهما كان قليلا ً، قد مر أيضا ، إذا ً، أين كان؟ لم يكن نائما ً، فكيف كان وأين؟
فجأة ، تذكر عيني البقرة الذبيحة وهي تنظر إليه ، ارتبك ، حاول أن يشغل نفسه بأي شيء . أخذ الريموت كونترول وضغط على الزر فأضيئت الشاشة وانطلقت الأصوات والصور .
كانت نشرة الأخبار تبث من إحدى المحطات ، ولم تنته بعد . وكان ثمة تقرير في نهاية النشرة عن صيد الفيلة في أفريقيا ، والحيتان في البحار ، مع معلومات المنظمات العالمية حول الموضوع . أعجبه أن يتابع التقرير ، وفعلا استطاع أن يتجاهل عيني البقرة الذبيحة .
كانت المشاهد المؤلمة التي تجسد الطريقة البشعة التي يقوم بها الإنسان لقتل الفيلة والحيتان مقززة ، تؤكد بأن الإنسان هو أكثر المخلوقات وحشية ، ورعبا ً، وقساوة ، وجشعا ُ، على هذا الكوكب . شعر بالرعب ، والتقزز ، والصدمة ، عند سماعه الأرقام التي وردت في التقرير ، بأن الإنسان يقتل ، سنويا ، مائة مليون حوت بحري ، ما بين كوسج وحوت لبون ودلفين . كرر ، هامسا ً، بصوت مسموع مع نفسه : مائة مليون مخلوق بحري ! هذا الرقم يتحدث عن الحيتان ، ياللهول ، أي أنهم خلال عقد من الزمان يقتلون مليار حوت !! كان يسأل نفسه ويحاورها مرعوبا ً رعبا ً اخلاقيا ، ثم استمر في متابعة أفكاره ومحاورتها ، مفكرا ً بالفيل ، ذاك الحيوان الذي يحبه ، فهو حيوان وجودي ، يعيش مشكلته مع الموت ، إذ ينفرد تاركا ً القطيع والعائلة ، ويذهب بعيدا ً إلى مقبرة الفيلة ، ليموت هناك وحيدا ً، الفيل هذا الحيوان المسالم ، الآله لدى الهنود والصينيين وشعوب شرق آسيا ، ي ُقتل بشكل بشع ، فقد ذكر التقرير بأنه ي ُقتل سنويا ً أكثر من ثمانية وثلاثين ألف فيل في افريقيا وحدها ، و إثني عشر ألفا ً في آسيا.
انتهت نشرة الأخبار ، وبدأت فترة الإعلانات التلفزيونية . أطفأ التلفزيون ، وأخذ يفكر مع نفسه حول لغز الحياة ، وسير حركة الأشياء ، وذلك المنطق الغريب ، القاسي ، الحكيم ، للمخلوقات على الأرض ، فمن أجل استمرارها ،

أدخلت ً الإنسان ضمن هذه الدائرة الدموية القاسية . إنها دورة مهولة للعنف ، وللقتل والاغتصاب ، واستعراض أهوج للقوة ، لأن هذه المخلوقات لو لم تقتل بعضها بعضا ً، لما كانت هناك إمكانية لإستمرار الحياة على الأرض ، فماذا لو لم تأكل الزرافات والفيلة والحيوانات الأخرى أوراق الغابات وأغصانها ، أما كانت الغابات ستغطي الأرض ، ولا يبقى موطئ قدم فيها؟ سأل نفسه ، ثم عاد مفكرا ً في الفيل ، هذا الحيوان المقدس ، الإله ، وحده يأكل يوميا ً مائتي كيلو من الأعشاب والأغصان وأوراق الأشجار ، ثم أجرى مع نفسه عملية حسابية حسب المعلومات التي يعرفها عن الفيل ، الذي يعتبره طوطمه الشخصي ، فقال لنفسه بأن هناك حاليا ً نصف مليون فيل ما زال حيا في أفريقيا وشرق آسيا تقريبا ، أي أن الفيلة وحدها تأكل يوميا ً مائة مليون كيلو من أغصان الأشجار وأوراقها ومن أعشاب المراعي !! هذا يعني في السنة الواحدة ثلاثة مليارات وستمائة مليون كيلو من الأغصان !! فماذ سيبقى من الغابات لو استمرت هذه الفيلة بالتكاثر؟ فكر بحكمة الطبيعة التي جعلت دورة الحمل عند الفيلة تمتد ما بين عشرين إلى إثنين وعشرين شهرا ً، وليست كالأرانب أو القطط؟ لكن هل هذا يبرر قتلها بهذه الطريقة الوحشية؟ بحيث تم قتل أكثر من ثمانمائة ألف فيل خلال عشرين عاما وفي أفريقيا وحدها؟ لا .. لا .. هذا منطق غبي .. وإلا لبررنا المذابح والحروب بهذا المنطق نفسه!!

وجد نفسه يفكر في الفيل ، ولغزه .. حيوان عجيب ، دماغه يزن من أربعة إلى خمسة كيلوغرامات ، أي أربعة أضعاف دماغ الإنسان ، وقلبه يزن ما بين إثني عشر إلى واحد وعشرين كيلوغراما ً، وهذا القلب الضخم يدق ثلاثين مرة في الدقيقة الواحدة ، بل أن هذا الحيوان الهائل ، يشرب ما بين سبعين إلى مائة وخمسين لترا ً يوميا ، أي أن هذا العدد من الفيلة تبتلع الأنهار والبحيرات لو تكاثرت بشكل مطرد دونما انقراض قسري.

ظل آدم التائه يفكر بهذه الطريقة لفترة ليست بالقصيرة ، ووجد متعة في الإستغراق بتفاصيل حيوان واحد كالفيل ، واستنتج مع نفسه بأن كل شيء في الطبيعة ، أو على الأقل على هذه الأرض مبرمج بشكل عبقري . لكن كيف؟ سأل نفسه ، هل هذا من فعل الخالق الذي ي ُسمى الله؟ ولماذا خلق الأمور بهذه الطريقة بحيث يقضي القوي على الضعيف؟ لماذا القتل والذبح هو الوسيلة الوحيدة لحفظ التوازن الطبيعي؟ وبما أن الكون المرئي والمحسوس متماسك بهذا الكمال ، فلماذا لم تخلق الحيوانات بطريقة يمكنها البقاء ، بل وحتى الإنقراض ، لحفظ التوازن في الطبيعة ، بطريقة أخرى

أكثر رحمة من قضاء القوي على الضعيف من خلال النهش والقتل؟ هل هذا هو العدل الآلهي؟ لا .. لا .. أنا لا أجدف كما كان إيفان كارمازوف في رواية دستويفسكي يتحدث عن الله ، وعن إمكانية وجوده ، أنا أؤمن بوجود قوة ما ، غير مادية وغير محسوسة ولا تُرى ، وإنما كل هذه التجليات الكونية هي إحدى تجليات جوهرها ، ربما هي ما يُسمى الله ، لا ، لا ، لستُ إيفان كارمازوف ، فذاك كان يلحد نافيا وجود خالق لهذا الكون ، مدللاً على ذلك بكل هذا الكم من الألم والشقاء الإنساني ، واللاعدالة والظلم ، تحكم الوضع البشري على الأرض ، وعن التمايز في توزيع الثروات والصحة والعافية على الناس ، لا ، لا ، أنا لا أفكر في هذا ، وإنما أفكر في دورة الحياة العنيفة على الأرض . أفكر في هذه الأرض التي تتغذى هي أيضا بإلتهام آلآف الأجساد البشرية يومياً، وآلاف الأطنان من البراز والبول ، وآلاف الأشجار ، وكل ما هو ميت على سطحها . غريبة هذه الأرض ، إنها تعيد بناء نفسها ، وتعود للحياة من خلال الموت ! من خلال العفونة والنتانة ، إنها تعيد ولادة الأشياء من خلال الأجساد الميتة .. أترى تكمن الحياة في رحم الموت؟ ليس لدي اليقين ، لكنني بالرغم من ذلك مؤمن.

أخرجته من تأملاته في عالم الطبيعة والحيوان طرقات خفيفة على الباب . فز واقفا وكأنه كان في حلم جميل وتم إيقاظه.

حين فتح الباب قابله وجه إيفا جايكوفسكايا . كانت تقف أمام الباب مرهقة ، وعلى وجهها علامات حزن وإنكسار . فسح المجال لها فمرت داخلة دون أن تقول كلمة واحدة ، ودون أن تلقي تحية المساء . وقف هو قرب الباب بينما جلست هي على السرير خافضة رأسها إلى الأرض . ظل صامتاً ينظر إليها منتظراً أن تقول شيئا ، فقد أحس بأن شيئاً ما قد حدث.

نظرت إليه وفي عينيها كلام مكثف غير مفهوم ، فقال لها:

- ما الذي حدث؟ لماذا تصمتين؟

رفعت رأسها إليه قائلة:

- صحيح هو القول الشائع بأن المصائب إذا جاءت فأنها تجيء دفعة واحدة!

- ماذا حدث؟

- أم الشاب القتيل، أم زوج صديقتي، أصيبت بجلطة دماغية، ونقلت إلى المستشفى.

- متى؟

- بداية هذا المساء.. فبعد أن ذهبت إليهم بالذبيحة عصراً، قام الأب بتقطيعها إلى قطع صغيرة، وأخذ يضعها كميات صغيرة في أكياس النايلون، كي ينقلها في ما بعد إلى المسجد، حيث يتم هناك توزيعها على المصلين المسلمين. خلال هذا الوقت كانت الأم المسكينة تذرف الدمع بصمت، وبالكاد كانت صديقتي تتحرك، محاولة أن تساعد الأب في وضع قطع اللحم في الأكياس، بالمناسبة هي اسمها إيفا أيضا، إيفا إسكندروفنا، وكنت أقوم بمساعدتهما. كانت الأم مزرقة من الألم المكتوم. بعد قليل، وبينما نحن منهمكون بالعمل، أختفت الأم من أمام أعيننا. لم يثر فينا غيابها أي شيء، فهي في بيتها، وربما ذهبت إلى المرافق الصحية، أو إلى غرفة النوم التي تقع في نهاية الممر لترتاح قليلاً. فجأة، اهتزت الشقة، وسمعنا إرتطاماً قوياً جاء من غرفة نوم الوالدين، فتحرك الأب بسرعة إلى جهة، ثم جاء صوته عالياً طالباً النجدة...ركضتُ أنا إليه أولاً، لأن صديقتي لم تكن تستطيع الحركة بسهولة. وحينما صرت في الغرفة وجدت الأب يحتضن جسد زوجته، ماسكاً بيدها، ويده الأخرى تحيط بوجهها الذي كان مزرقاً بالكامل. كانت أحدى كفيها منقبضة بشكل مريب. طلبنا سيارة الأسعاف التي جاءت بعد ربع ساعة. ذهبنا جميعنا إلى المستشفى، وبعد ساعة ونصف من الفحوصات الأولية، اتضح أنها أصيبت بجلطة في الدماغ، وأرقدوها في العناية المركزة..... قبل نصف ساعة تقريبا رجعنا إلى البيت. وعدت صديقتي بأني سأرجع لها، وعندما اتصلت بك، قال لي رجل الاستعلامات بأنك موجود في الغرفة، لكن رقمك مشغول.

- مسكينة هذه الأم..حزنها على ابنها القتيل سبب لها هذه الجلطة..

- غداً سنذهب صباحاً إلى المستشفى..

- مسكينة هذه العائلة التي تحطمت بلا سبب، ومسكينة صديقتك الحامل..

- لقد جاءوا إلى هنا حالمين بالأمان والحياة الهانئة.. لكن حياتهم تحولت إلى كابوس..

- لا أحد يعرف ماذا ينتظره.. ولدينا في القرآن آية تقول بما معناه.. لا تعرف النفس بأي أرض تموت..!

- هذا صحيح.. لكن قل لي هل أنت بخير..؟

نظر إليها وكأنه يفكر في ما يريد قوله ، ثم قال بهدوء:

- لقد شعرت بالغثيان من مشهد الذبح في المسلخ.. وفي المحطة شعرت

بإنهاك جسدي بالكاد وصلت إلى الفندق.. لكني لم أخرج من غرفتي حقا..نمت.. وصحوت..وشاهدت تقريراً مرعباً عن قتل الفيلة في الغابات والحيتان في البحار..

تأملته للحظات وقالت بنبرة مليئة بالتعاطف :

- أنت تفكر كثيرا.. ولو فكر الإنسان بكل شيء سيتعب، بل ربما لم يستطع أن يفعل شيئا، لأن التفكير يقود إلى الشك.. ولا يوجد ما يمكن أن يزيل الشك في الأشياء..
- الحقيقة يمكنها أن تزيل الشك..
- ولا حتى الحقيقة..لأن الشخص الذي يشك لا يمكنه رؤية الحقيقة، لأنه حتى لو رآها فأنه سيشك بها أيضاً..

فقال هو بحزن :

- لا أدري.. أنا مسكون بأسئلة غامضة يا إيفا.. بأفكار أتمنى أن أعبر عنها من خلال اللغة.. أن أتكلم عنها بصوت مسموع..
- الكلام وسيلة لإخفاء أفكار الإنسان وليس للتعبير عنها.. الموسيقى هي اللغة الحقيقية للمشاعر.. بل وحتى الموسيقى هي لغة مجازية، استعارة جمالية مباشرة عن مشاعر الإنسان.. فهي تشير إلى ما يجول في أعماق الإنسان، لذلك لا توجد سوى لغة واحدة للموسيقى لجميع البشر، منذ بدء الخليقة وإلى آخر يوم لها على هذا الكوكب، بينما توجد مئات اللغات التي يتحدث بها البشر..
- إنك فيلسوفة أيضا يا إيفا..

ابتسمت بحزن ، ومدت يدها إليه فأعطاها كفه ، فسحبته إليها ، فصار أمامها بينما هي جالسة على السرير . وبهدوء رفعت وجهها إليه وفي عينيها دعوة صريحة ، ليست دعوة شبقية ، وإنما محاولة للخلاص ، للخروج من كل هذا التوتر والإرهاق الذي هما فيه . سحبت سحّاب البنطال إلى الأسفل ، وقبل أن تمد يدها هناك ، سحب نفسه إلى الوراء ، إذ شعر ، فجأة ، بعدم الرغبة ، ليس لأنه لا يريد أن يضاجعها ، وإنما لأنه لم يشأ أن يخضع لإختبارها حول حجم عضوه ، وهل سيعجبها أم لا ؟

فوجئت هي من ردة فعله . نظرت إليه متسائلة . ظلت للحظات تنظر إليه ، ثم قالت بارتباك:

- أنا آسفة.. ظننت أن ذلك سيعجبك، ويريحك.. فأنت متوتر للغاية..
- أنا آسف أيضا..
- ألا ترغب في ذلك؟

- بلى..
- ألا أعجبك..
- بلى
- إذاً..ما السبب؟
- أحس وكأني داخل إلى إمتحان وليس إلى نيل متعة..
- إمتحان؟
- نعم.. أقصد. هوسك بالقضبان الكبيرة.. وتقويمك للرجال من خلال حجومها..

فجأة ، ابتسمت ، ثم حاولت ان تضحك ، إلا أن ابتسامة عريضة وضحكة مخنوقة صدرت منها ، وقالت:

- أما زلت تتذكر حديثي عن هوسي بالقضبان..؟
- نعم..

ابتسمت وقالت له وهي تسحبه إليها ثانية:

- لا تخف.. أنا اعرف أن لديك قضيباً متوسط الحجم، عضلي، يبدو صغيرا، لكنه عند الإثارة يتحول إلى عملاق، متين، وقوي.. لقد قرأت في علم التشريح حول طبيعة الأجسام، وطبيعة الأعضاء الجنسية لكل منها.. بالمناسبة، أنا أكره القضبان الكبيرة، لأنها تؤلمني أحيانا، لاسيما حينما يكون الرجل عنيفاً، ولا يعرف التعامل مع جسد المرأة.

كلامها شجعه قليلا ً، فلم يتراجع حينما سحبته إليها ومدت يدها هناك . كان عضوه راقدا ً، لكن ما أن مسته حتى انتعظ ، وبعد أقل من دقيقة كان بإمكانها أن تأخذه بكفها . وبينما هما يدخلان إلى غابات اللذة شديدة الخضرة ، سمعا طرقات خفيفة على الباب ، ارتبك كلاهما وكأنهما يفعلان شيئا ً مخالفا ً للقانون . ذهبت هي مباشرة إلى غرفة الحمام وأغلقت الباب خلفها ، بينما رتب هو نفسه ، وتوجه ليفتح الباب.

حين فتح الباب فوجىء بحواء المظلوم أمامه . كانت متبرجة بهدوء . تشد على رقبتها شالها الأحمر . تحمل بيدها صينية من الفواكه . قرأت هي الدهشة التي ارتسمت على وجهه . بقي هو لثوان لا يقول شيئا ، منتظرا ً منها ان تبدأ ، فقالت هي بالعربية:

- مساء الخير.. آسفة على الإزعاج.. لكني سمعت من الإستعلامات بأن لديك ضيفاً، فأحببتْ أن آتيك ببعض الفواكه..

أخذت تبحلق بنظراتها في الغرفة من خلال أعلى كتفيه ، وقالت:

- لكني لا أرى أحداً..؟

- على أية حال شكراً جزيلاً..
- هل تسمح أن أضع الصينية على الطاولة..؟
- أوه.. عفواً.. نعم.. تفضلي..

دخلت حواء المظلوم إلى الغرفة ، وكان فضولها واضحا في أن تستكشف الغرفة بنظراتها البانورامية ، ثم ألقت ْ نظرة إلى غرفة الحمام . أطالت النظر لثوان بإتجاه الحم ّام . وانتبهت بأنه لا يريد أن يستبقيها . ابتسمت له ، وقالت:

- يسرني أن أخدمك.. أي شيء تحتاجه يمكنك أن تطلبني.. الليلة هي خفارتي في الخدمة.. أنت تعرف أين أسكن.. الغرفة التي في نهاية الممر، في الجهة المقابلة لك..
- أوه تلك الغرفة..

فجأة أثارت فضوله عندما ذكرت الغرفة التي في نهاية الممر من الجهة المقابلة ، فقال لها مجاملا ً:

- يبدو أن لديك ضيوفاً بشكل دائم..؟
- نعم.. أحياناً... أو لأقل، في أكثر الأوقات
- لقد رأيت رجلاً قد تجاوز الخمسين ومعه شاب أشقر، ثم جاءت امرأة باهرة الجمال في منتصف الثلاثين، بملابس غريبة من القرن الماضي، ورأيتهم يدخلون إلى تلك الغرفة التي تحدثت عنها..
- إلى غرفتي..؟
- نعم..لقد رأيت ذلك؟
- هذا غير ممكن..
- لماذا؟
- لأنه لا ضيوف عندي حالياً..

بدا له أن موقفها قد انقلب ، فمن رغبتها بالبقاء ، وفضولها لمعرفة هوية الضيف ، إلى محاولة التهرب من الحديث ، وإنهاء الحوار ، ومغادرة المكان بسرعة . ابتسمت له ، وقالت بلطف زائف:

- يسرني أن أخدمك.. ربما سنتحدث لاحقاً بشكل أوسع.. الآن عليّ أن أنجز بعض الطلبات.. اعذرني.. إذا كان لا يزعجك الأمر، سأمر في وقت متأخر..
- أبداً... على الرحب والسعة في أي وقت..

ابتسمت له ابتسامة مثيرة مليئة بالوعود ، وغادرت.

كانت إيفا جايكوفسكايا في الحمام تتنصت للحوار لكنها لم تفهم شيئا مما

كان يُقال ، وبما أنها اطمأنت إلى ذهابها بعد أن سمعت صوت إغلاق الباب فقد خرجت بشكل طبيعي من غرفة الحمام ، لكنها كانت قد قررت الذهاب . كان هو قلقاً من الحوار القصير الذي ساقه مع حواء المظلوم . لمحت هي ذلك ، فسألته:

- ماذا هناك؟ من هي هذه المرأة؟
- إنها امرأة عراقية تعمل في خدمة الغرف والمطعم هنا في هذا الفندق..
- وما الذي قالته حتى أنك قلقت بهذا الشكل..؟
- لا شيء مهم.. لقد سألتها عن ضيوف في الفندق ظننتهم ضيوفها..
- وماذا في ذلك..؟
- لقد ارتبكت..وانكرت أن لديها ضيوفاً.. بينما أنا شخصياً رأيتهم يدخلون إلى غرفتها....
- لا تعقد الأمور.. ربما ببساطة هي لا تريد أن تتحدث عن ذلك..
- أنا آسف
- على أي شيء تأسف..؟

إلتفت إلى السرير قائلاً:

- على أننا لم نواصل..

ابتسمت ، وقالت:

- أنا غير محظوظة.. المرة القادمة لن أفز كالمراهقة كما فعلت قبل قليل..

ابتسم لها بطيبة ، وبعد ثوان قالت له:

- لماذا لا تأتي معي؟
- إلى أين؟
- إلى العائلة.. كي تتعرف عليها.. إنك كاتب ويجب أن تعرف معاناة الناس..خاصة في مثل هذه الظروف الإستثنائية التي يمر بها البعض..
- لكن كيف أدخل على عائلة ما دون مقدمات..؟ هل آلامهم رخيصة إلى هذا الحد بحيث تتنحول إلى مشهد يمكن ان يتأمله من يشاء..؟
- عفواً.. أنا لم أدعك كأي عابر سبيل.. وإنما كصديق.. وبالتأكيد أنا حريصة على صديقتي ووضعها، وعلى كرامة هذه العائلة..لكنني وجدت، ربما، سيكون من المفيد وجودك كصديق أيضا..فالناس في مثل هذه المواقف تحتاج للتعاطف الإنساني، للتضامن الأخوي، وهم سوف يقدرون هذا الأمر، ويحترمونه.. لا أعرف عاداتكم أنتم أيها الشرقيون..لكننا الروس نحتفي بالتعاطف، والرحمة، والتضامن الإنساني.. وهذه أمور يتصف بها الضمير

الحي..ويبدو لي أنك، على الأقل تعرف ذلك، من خلال مؤلفات دستويفسكي، وتشيخوف، وتولستوي، وبوشكين..وتورغينف..

- أعرف.. أعرف.. أعذريني..ربما لم أكن موفقاً في التعبير عما كنت أقصده.. بكل بساطة أنا خجول بطبعي.. ولا أعرف كيف أبرر دخولي إلى تلك العائلة وهم في هذه الظروف؟

- أنا سأقوم بهذه المهمة.. المهم أن تكون لديك الرغبة في المجيء معي..

- لا مشكلة لدي..لنمض..

إرتدى معطفه الذي كان ملقى على السرير . أطفأ الضوء ، وخرجا.

آدم البغـــدادي: ما الذي يجري معك يا آدم البغـدادي ؟ إلى أين أتجه بهذه الحكاية، ما معنى الإلحاح على آدم التائه بالذهاب إلى لندن ؟ ما هي دوافعي الشخصية في ذلك ؟ وما هذه الفنتازيا التي تدفعني لإحضار دستويفسكي والأمير ميشكين – الأبله، وناستاسيا فيليبوفنا إلى ميونخ وزجهم جميعاً في هذه الغرفة في الفندق الغامض ؟

ومن هي يا ترُى حواء الغامض هذه ؟ ولماذا اخترتُ ممثلة إنكليزية لتكون بطلة هذه الرواية ؟ شخصيا لا أخطط ، حينما أنوي كتابة رواية ، للشخصيات والأحداث .. ليس لدي سوى مخطط عام للأحداث ، وفكرة غامضة ، ضبابية عن جوهر الحكاية ، لكن هذه الفكرة كثيرا ً ما تكون زئبقية ، لا تمسك ، كلما زاد الإقتراب منها ، قفزت أبعد .

شخصيا لا اعرف كيف ستنتهي الحكاية ، فكثيرا ما أتوجه للفصل مفكرا ً بأحداث معينة لكني حينما أجلس للكتابة أجد أن الأمور تأخذ طرقا ً ومسالك ً لم تخطر على البال قط .

لقد قرأت كثيرا ً عن عادات الكتابة لدى مختلف الروائيين ، فمنهم من يكتب صباحا ً، ومنهم من يخطط بالكامل للرواية قبل البدء فيها ، ومنهم من يتعرى عند الكتابة ، ومنهم من يحلق ويلبس طاقم ملابسه وكأنه ذاهب إلى العمل .. عادات مختلفة .. لكني لا أعرف أيا من هذه العادات .. أنا كما قلت لا أخطط لكل التفاصيل ، بل أحيانا ً أعرف عنوان الرواية قبل البدء بها أو حتى وجود أي تصور عن موضوعها وحكايتها .. أكتب في الليل .. لكن يحدث أن أكتب نهارا ً أو عصرا ً. أكتب تحت ضغط الحاجة الإبداعية الملحة للكتابة .. لكن ما علاقة كل هذا بنص الرواية .. ؟ لا أدري . ربما لأوضح بأني لا أتدخل في مجرى الأحداث ، وربما هناك من لا يصدق ذلك ، لكن هذه هي الحقيقة.

* * *

حينما انتهت حواء الزاهد من قراءة الفصل ، وقرأت ملاحظة الكاتب القتيل آدم البغدادي أحست بغصة تخنقها . ما هذه البلاد التي تقتل مبدعيها ومفكريها ومثقفيها وتذبحهم كالنعاج أو تخرق أدمغتهم المضيئة بطلقات الظلام .. ؟

استغربت أن الكاتب آدم البغدادي لم يعلق على الفصول السابقة ، بينما علق على هذا الفصل ، لماذا ؟ لم تجد جوابا ً. فكرت مع نفسها ، ربما لأن آدم التائه يقوم بهذه المهمة حينما يدخل في حوارات داخلية مع نفسه ، كما استغربت توظيفه لكل المعلومات العلمية التي تخص ما يجري على سطح الأرض بهذه الطريقة الغريبة والمبسطة . يبدو أن اهتماماته أبعد من أن تنحصر في مشاكل السياسة والجنس والدين ..

توقفت عند حديثه عن الخالق وعن دورة الحياة الغريبة وعلاقتها بالموت ، فكرت مع نفسها : م َن يا ت ُرى يعيش على هضم الآخر ، الحياة أم الموت ، هل الحياة تنبثق من الموت ، أم أن الموت هو جزء من الحياة؟ ماذا .. هل بدأت أهذي . كيف يكون الموت جزءا ًمن الحياة؟

طوت المخطوطة . ووضعتها جانبا ً. فجأة ، رأت شاشة الهاتف تضيء ، كان الهاتف قد برمجته على الصامت ، حين رقد ابنها آدم الملاك . قرأت اسم حواء الكرخي الذي قد خزنته ، فقامت من السرير وذهبت إلى الصالة ، كي لا توقظ الصغار . جلست هناك في الظلمة وفتحت الخط .

جاء صوت حواء الكرخي حزينا ، متعبا ً، متكلفا ً أن يبدو طبيعيا ً، حيث اعتذرت منها لعدم استطاعتها الرد ، ولإنشغالها بأمور مختلفة ، لذا لم تستطع أن تقابل أحدا ً، لا آدم الشبيبي ولا قابيل الفهد ، وأنها اضطرت أن تذهب إلى شقتها ، وسألت إن كان أحد ما قد اتصل بها بعد أن غادرته ، فأجابت بالنفي . تمنت لها ليلة طيبة ووعدتها بأنها ستمر عليها بأول فرصة تسنح لها غدا ً.

حينما انتهى الإتصال بينهما أحست أن شيئا ما ليس على ما يرام في صوتها ، وراودها هاجس بأنها تمر بمشكلة ما ، لكنها لم تتعرف عليها سوى اليوم ، وبالتالي لا تسمح لنفسها أن تسألها .

عادت إلى غرفة النوم ، واستلقت على السرير . أخذت الرواية لتواصل القراءة ..

المرآة المكسورة

حينما وصلت إيفا جايكوفسكايا وبصحبتها آدم التائه إلى المبنى الذي تسكن فيه صديقتها ضغطت ، عند باب الخروج الرئيسي للمبنى ، على جرس

االشقة التي تحمل اسم آدم إسكندروف . بعد لحظات فُتح الباب . دخلا . كان آدم التائه مرتبكا ً، يحس بخجل يكاد يعيق حيويته وحضوره الشخصي ، ولام نفسه لأنه وافق على المجيء معها بدافع فضوله الروائي ، بينما هي كانت بحيوية ، بالرغم من أنها طوال الطريق كانت قد أوضحت له بأنه لا داعي َللإرتباك والخجل ، إذ أن هذه العائلة تمر بظرف صعب وتحتاج لمن يقف إلى جانبها ، فالأب الذي على مشارف الستين ، ومنذ مقتل ابنه على يد المتطرفين ، يعيش ما بين الحضور والغياب . فهو موجود وغير موجود ، وفي الأيام الماضية كان يكابر في الكشف عن حزنه وضعفه الإنساني كأب لمقتل ابنه ، مراعاة لزوجته المحطمة منذ سماع الخبر ، ومراعاة لزوجة ابنه الحامل إيفا إسكندروفنا ، لكنه منذ تعرض زوجته للجلطة الدماغية ، لم يعد يتكلم مع أحد ، وصار غيابه شبه كامل ، وكأنه أصيب هو أيضا ، فقد إنهار مثل سور قديم فجأة.

كانت الشقة في الطابق الخامس الأخير . حينما خرجا من المصعد ، كان الباب شبه مفتوح . فتحت إيفا جايكوفسكايا الباب ، لكنها قبل أن تدخل أقبلت إيفا إسكندروفنا لتستقبلهما . ظل آدم التائه واقفا ً عند الباب منتظرا ً من يدعوه للدخول . تحادثت إيفا جايكوفسكايا مع صديقتها بالروسية ، ثم مضت مباشرة إلى غرفة نوم الأب ، وبقيت إيفا إسكندروفنا في الممر القصير . انتبهت لوجود آدم التائه عند الباب فتوجهت إلى الباب مرحبة به ، بهدوء وأدب ، وبنبرة حزينة ، داعية إياه إلى الدخول.

ما أن أقبلت عليه حتى أحس آدم التائه برعشة تجتاح جسده ، وإنكماشا ً يلف جلدة رأسه ، وبدأ قلبه يخفق بسرعة . أصيب بالذهول ، وظل يبلحق مبهوتا ً بوجه إيفا إسكندروفنا ، التي انتبهت لذهوله عند رؤيتها . لقد كانت نسخة مطابقة من زوجته حواء المؤمن.

دعته مرة أخرى ، بالألمانية ، إلى الدخول ، لكنه ظل صامتا ً، ينظر إليها ، نظرات يشع منها حزن دفين ، وشوق ولهفة مليئة الحب والرغبة ، فهو يعرف أن هذه المرأة التي تقف أمامه ليست زوجته السابقة حواء المؤمن التي حطمته ، وخلخلت كل منظومته القيمية ، وإن هذه المرأة أرملة منكوبة ، قتل زوجها وهي حامل في شهرها الثاني . ودون إرادة منه تقدم منها وقدم كفه مصافحا ً. فوجئت هي ، لكنها مدت كفها مصافحة أيضا ، مرحبة به داعية إياه إلى الدخول ، فدخل خلفها ، فقادته إلى غرفة الإستقبال.

لم يستطع آدم التائه وهو يمشي خلفها في الممر القصيرأن يمنع نفسه من

تأمل جسدها الجميل ، الذي برغم الحمل فقد ظل محتفظا ً برشاقته وجماله وعدم ترهله ، ولم يكن باديا ًعليها بأنها حامل ، لكنه انتبه أيضا إلى أن الحزن الذي يجللها يليق بها بشكل ساحر ، ويضفي على شخصيتها مهابة ، وسموا ً، ورومانسية عذبة.
رحبت إيفا إسكندروفنا به مرة أخرى ، بلغة ألمانية بسيطة ، وبنبرة فيها هدوء ممزوج بحزن مهيب ، وسألته أن كان يحب أن يشرب الشاي أو القهوة ، فأعتذر شاكرا ً لها بأنه لا يريد أن يزعجها ، فأصرت أن يشرب شيئا ً، فقوافق أن يشرب الشاي ، فذكرت له بأن الشاي هو شرابهم المفضل أيضا ، لذا فهو ي ُعد بشكل مستمر.
دخلت إيفا جايكوفسكايا عليهما الغرفة ، وتوجهت إلى آدم التائه معتذرة على سهوها في تقديمهما لبعضهما ، وأشارت إليهما متوجهة لكليهما ، معرفة باسم كل منهما للآخر . أحست إيفا إسكندروفنا برجفة تجتاح جسدها حينما سمعت بإسم آدم . ومضت مباشرة إلى المطبخ ، لكي تخفي ما أحست به ، فقد انتبهت لنفسها ، بأنها ، برغم الحالة التي هي فيها ، فما زالت جذوة الحياة والأنوثة تتقد في اعماقها ، لأن وجدت راحة بحضور هذا الرجل ، وخافت من نفسها في أن تدنس مشاعرها التي تكنها لزوجها .
جلست إيفا جايكوفسكايا قبالته ، وأخذت تحدثه عن حالة الأب الفاجعة ، فهو ما زال يعيش هول الصدمة في مقتل ابنه وجلطة زوجته المفاجئة ، وأنها حاولت أن تكلمه ، لكن دون جدوى ، فهو حاضر غائب ، بل لا يكاد يعرف أحد ، فهو ينظر إلى نقطة بعيدة مجهولة خارج المكان ، إلا أن آدم التائه لم يكن يسمعها . كانت الكلمات تدخل أذنيه ، يفهمها ، لكن عقله لا يشغل نفسه بها ، إذ أن رؤية إيفا إسكندروفنا ، أسقطت كل أقنعته التي كانت يلبسها ، وكل محاولاته التي قام بها من أجل أن ينسي زوجته حواء المؤمن ، فقد أعادت هذه المرأة إليه حياته السابقة في دقائق.
اتنبه آدم التائه لنفسه ، في أنه ما زال يحقد عليها ، إذ أنها أساءت إليه بطريقة جارحة ومدمرة ، وأنه لن يغفر لها ذلك ابدا ً. لكن هذه المرأة مختلفة ، إنها جميلة ومثيرة ، مثل حواء المؤمن ، لكنها أكثر رومانسية ، فهذا الحزن الشفيف أضفى عليها روعة خاصة.
انتبهت إيفا جايكوفسكايا إلى أنه كان يلتفت دون إرادة منه إلى جهة المطبخ حيث ذهبت إيفا إسكندروفنا ، لكنها لم تعلق شيئا . كان المطبخ

مواجها لغرفة الاستقبال ، لذلك كانا يريانها وهي تصب الشاي في الأكواب .
فجأة ، قالت له بالإنكليزية:
- إنها رائعة أليس كذلك..؟
تمتم هو قائلا ًوكأنه يهمس لنفسه:
- نعم.. إنها رائعة..
- هل تعجبك؟
انتبه هو إلى السؤال المراوغ ، فخاف أن يكشف نفسه ، فالتفت إليها قائلا ً:
- إنها نسخة طبق الأصل من زوجتي السابقة..
- أوه.. لم أعرف أنك كنت متزوجاً، فأنت لم تحدثني عن نفسك كثيراً..
- لم تكن هناك فرصة مؤاتية..
- ولماذا قلت السابقة..؟
- لأننا افترقنا.. طلقتها؟
- إذا كنت معجباً بها، كما أرى الان من إعجابك بصديقتي، فلماذا طلقتها؟
- لأنها خانتني..
- خانتك؟ لماذا..؟
فجأة انتبه آدم التائه لنفسه في أنه فتح بابا ًمغلقا ًلم يتحدث به سابقا ًمعها ، وأن إيفا جايكوفسكايا فضولية بطبعها ، وجريئة ، بل وداعرة في جرأتها ، لذا ستقوده إلى نظريتها في أحجام القضبان ، والتي ستستنتج بأنها خانته لأنها وجدت قضيبا ًأكبر حجما ً، وأكثر نشاطا ً، إلى جانب أنه أحس بثقل هذه الطريقة من الإستجواب ، فقال لها بعصبية دفينة:
- أذهبي واسأليها لماذا؟ أنا أكره التحدث عنها، بل أحاول أن أنساها، وأمحوها من ذاكرتي..لكن صديقتك أذهلتني في الشبه الكبير بينهما، لحد التطابق..
انتبهت إيفا جايكوفسكايا إلى أنها تلح في موضوع مؤلم بالنسبة له ، لذلك تجنبت أن تواصل الحديث والأسئلة عن زوجته ، ساعدها في ذلك دخول صديقتها وهي تحمل صينية فيها أربعة أكواب من الشاي وصحن فيه مربى الكرز الأحمر . قامت إيفا جايكوفسكايا وأخذت الصينية منها ، بينما أخذت إيفا إسكندروفنا كوبا ًومضت به إلى الأب في الغرفة الثانية.
بعد لحظات عادت وهي تقول:
- إنه يحب الشاي جداً، وقد وضعت الكوب عنده، فربما ينتبه ويشرب

شيئا منه.
ظل آدم التائه صامتا ً فهو أمام إنسانة هائلة القوة والجمال ، فبرغم كل ما تعرضت له ، فهي ما زالت تتصرف بشكل طبيعي ، وتغدق بكرم ٍ عواطف َ ورحمة على المحيطين بها ، ولم تتشرنق ملتفة بحزنها ، فهي حزينة ، لكن ليس ذلك الحزن الأناني الناتج عن الفقدان ، وإنما الحزن الذي يصقل الروح ويجعلها أشد تواضعا ً وأكثر رحمة.
جلست إيفا إسكندروفنا إلى جانب إيفا جايكوفسكايا في الجهة المقابله له .
نظر هو إليها دون إرادة منه ، قائلا ً بالألمانية:
- لا أدري ماذا أقول وأنت تتلقين كل هذه المصائب.. إنك إنسانة قوية فلا تفقدي ثقتك بنفسك..
نظرت إليه بارتباك وقالت:
- شكراً لك.. شكرا لمجيئك في هذا الوقت لكي تقف معنا وتقول هذا الكلام الطيب..
نظرت إيفا جايكوفسكايا إلى آدم التائه الذي انتبه لنظراتها وكأنها كانت تؤكد له ما قالته له بأن الروس يختلفون في تقييم المواقف الإنسانية ، وإنهم سيقدرون مجيئه لهم في مثل هذا الظرف . بينما استمرت صديقتها قائلة:
- لا أدري إن كنت قوية أو لا.. وإذا ما كنت قوية الآن، فإلى متى سأبقى بهذه القوة ولا أضعف، أو أنهار..
قطعت كلامها ، والتفتت إلى صديقتها إيفا جايكوفسكايا ، وحدثتها بالروسية ، ثم أخذت تتحدث بالروسية مع آدم التائه ، وأخذت إيفا جايكوفسكايا تترجم له بالإنكليزية:
- أعتذر إلى حديثي بالروسية، فأنا اتحدث بالألمانية كلاما عاماً، بسيطاً، يومياً، ولا أستطيع أن أعبر عن نفسي، عن ذاتي أنا، بحرية إلا بلغتي الروسية..
فقال هو بهدوء ، بالألمانية ، وهو يحرك رأسه:
- أنا أتفهم ذلك.. ولا مشكلة ما دامت إيفا تترجم..
- سمعت من صديقتي أنك كاتب.. نحن الروس نحترم الشعراء الكتاب والفنانين جداً.. ننظر إليهم باعتبارهم شخصيات إستثنائية، أحيانا يحق لها أن تفعل وتتصرف ما لا يحق للآخرين. وقد حدثتني صديقتي إيفا عنك، وبأنك كاتب مغرم بالأدب الروسي، وبدوستويفسكي، ومولع بجايكوفسكي أيضا، فأحببت أن أتعرف عليك، برغم ظروفي التي كما تراها... حلمي كان أن

أتعرف على فنان، أو شاعر، أو كاتب، فقد كنت أحاول أن أكون كاتبة.. كانت لدي محاولات بسيطة كنت أنشرها في صحيفة الجامعة.. لكني في النهاية تعرفت على عامل، يتقن مهن عديدة، ولا يتقن شيئاً..وغادرت بلادي بحثاً عن السعادة..المهم... الحياة دائما تملي علينا أدوارنا التي يجب أن نؤديها على مسرحها.. وكما تراني.. كنت أحلم بأشياء لكن الحياة تدفعني إلى دروب غريبة ومظلمة..هل قرأت رواية (النفوس الميتة) لغوغل؟

ترجمت إيفا جايكوفسكايا ما قالته ، فهز هو رأسه بالإيجاب على سؤالها الأخير ، فواصلت حديثها :

- هل تذكر المشهد الأخير من الرواية حيث تنحدر العربة مسرعة نحو المجهول.. النقاد الروس فسروا ذلك بأن نيقولاي غوغل كان يشير بالعربة إلى روسيا وهي تنزلق نحو المجهول.. أما في حياتي الشخصية فعربة القدر هي التي انزلقت مسرعة لتدوس أحلامي بغير رحمة وتدفع بي إلى المجهول..

نظر آدم التائه إليها متفحصا ً، ثم التفت إلى إيفا جايكوفسكايا ، قائلا ً، ولتترجم لها :

- ليس مهما أن نعيش بسعادة، فالسعادة حلمنا جميعاً، لكن المهم أن نعيش بشرف.. بفضيلة..

كان يتأملها وهي ملتفتة نحو صديقتها لتسمع منها ترجمة ما قاله ، أحس بالإنبهار لهذا الجمال الفاتن ، وهذا الحزن الجليل الذي يضفي عليها مهابة خاصة .. أحس برغبة في أن يقوم ليضمها إلى صدره ، إلى أن يقبلها من عينيها ، وجبينها ، وشفتيها ، ويضع رأسها المليء بالأفكار الحزينة على صدره .. أحس نحوها بإنجذاب كبير .. لكنها صدمته بجوابها الذي لم يكن يتوقعه ، إذ ترجمت جايكوفسكايا ما ردت به عليه :

- ما هو الشرف..؟ ما هي الفضيلة؟ ألا تعتقد أن الفضيلة تقودنا، أحيانا كثيرة، إلى الكذب على النفس، إلى الكبت والحرمان... إلى الأمراض النفسية. إن التهذيب والتحفظ، من وجهة نظر علم النفس التحليلي، يعني العصاب المتحضر.. أصحيح أن أعيش حياتي، بينما أنا أكذب على نفسي ومشاعري ورغباتي وأشواق روحي بإسم الفضيلة..؟ ألا ترى أن القدر قد حطمني؟ ما مصير هذا الجنين الذي في بطني؟ سوف يأتي إلى هذا العالم القاسي، ولا يجد أباً يحضنه، ويقبله، ويداعبه، ويمسك بيده الناعمة وهو يخطو خطواته الأولى.. هل الفضيلة ستكون بمقام الأب إليه؟ وما معنى الفضيلة بالنسبة لي؟ هل هي تعني أن لا أنام مع رجل آخر فقط؟ أترى الفضيلة تنحصر

في الجنس؟ أنا لا أكذب، بل ليست لدي علاقات وأحاديث مع الناس لأكذب، كما لا أسرق لأني لست مضطرة لذلك، ولا أقتل لأني لست بقاتلة.. كل الوصايا العشر أطبقها.. لكن هل يحقق لي تطبيقها السعادة، بل دعك عني.. هل الفضيلة، المتجسدة في الوصايا العشر، ستحقق السعادة لطفلي القادم؟ أنا أبحث عن السعادة لإبني القادم.. الذي أشفق عليه من الان.. وقبل أن يولد..

أحس آدم التائه بإحراج داخلي ، فقد كان أمام امرأة لا تقبل كلمات المواساة المجانية ، بل هي منتبهة لوضعها جدا ً، ولديها منطقها الخاص بها ، وقد كان في أعمق أعماقه يتفق مع جل ّما قالته .. لكنه أراد أن يوضح موقفه ، فقال بنبرة هادئه ، مليئة بالتعاطف:

- ليست الفضيلة بالضرورة هي تطبيق الوصايا العشر.. فهذه قضية تخص الأديان السماوية..أنا أقصد ربما الفضيلة تكمن في الصمت.. تكمن في إلغاء الرغبات وإخماد لهيبها، في تحرير الذات من الرغبات الجسدية، والحياتية..

نظرت إليه بصمت ، وسألت:

- هل أنت بوذي؟

في ثوان قليلة ، وقبل أن يجيبها ، فكر مع نفسه بأنه أمام بطلة روائية بإمتياز ، فهذه امرأة ذات جمال فاتن ، وثقافة عالية ، وأحلام سامية ، كانت تفكر أن تصبح كاتبة ، أو ترتبط بكاتب أو فنان ، وإذا بها تتزوج عاملا ً، وتترك بلادها لتتبعه ، وهنا تحدث لها هذه المأساة .. ما الذي يات ُرى فكرت ْبه حينما ارتبط بهذا الفتى العامل؟ هل أحبته فعلا ً أم أرادت الهرب من بلادها متتبعة أحلامها الرومانسية بالسعادة؟ .. لكنه انتبه لسؤالها الذكي ، فقال بهدوء ، ناظرا ً إلى الأرض:

- لم أصل إلى المرتبة العليا من الإرادة والشجاعة، كي أتبع بوذا حقاً، بالرغم من أني أشد المناصرين له..

- لكن ألا تجد أن في ذلك تصعيد للكبت والحرمان..؟

- للبوذية طرقها للوصول إلى ذلك.. إنها فلسفة الحس السليم..

- ألست مسلماً؟

- ولدت في عائلة مسلمة.. أنا مسلم بالضرورة.. لكن هل أنا مسلم؟ لا أعتقد ذلك...شخصيا لا أؤمن بالأديان.. الأديان السماوية، بعد موت مؤسسيها تحولت إلى مؤسسات إقتصادية، وسلطات للقمع الفكري والجسدي..

- وبماذا تؤمن؟

صمتت للحظات وكأنه يفتش عن جواب ، ثم قال:

- أؤمن بالطيبة وبالرحمة الإنسانية.. أؤمن بإرادة الخير عند الإنسان.. أؤمن بالعلم.. والعقل الكوني..
- ألا تؤمن بالله..؟ هل أنت ملحد..؟
- لا.. أبداً.. أنا مؤمن.. وعميق الإيمان.. لكنني لا أؤمن بالله الذي ينتقم من مخلوقاته فيهيء للضعفاء منهم الجحيم.. ويمنح الأغنياء الجنة.. لا أؤمن بالله الذي يختار شعبا معيناً من الشعوب التي خلقها.. لا أؤمن بالله الذي يمنح أنبياءه حقوقاً خاصة بالزواج والإرث وتوزيع الغنائم.. أنا أؤمن بالمطلق.. اللاشيء المطلق، الذي يُعد الوجود، أو الكون المرئي إحدى تجلياته.. الله الذي أؤمن به ليس له علاقة بكل هذه الأديان الموجودة على الأرض..
انتهت إيفا جايكوفسكايا من ترجمة ما قاله آدم التائه ، وما أن همّت إيفا إسكندروفنا أن تواصل أسئلتها حتى سُمعت ضجة قادمة من الغرفة الأخرى حيث يرقد الأب ، أشبه بسقوط صحن ما . هبت المرأتان واقفتين ومسرعتين إلى حيث الضجة . بعد ثوان سمع صراخا بصوت عال ، وبالروسية صادر من المرأتين .. فقام هو وتوجه إلى الغرفة الثانية ، إذ أحس بحدوث شيء.
حينما دخل هو الغرفة رأى الأب لأول مرة ، رجل شرقي الملامح جميل المحيا برغم سنه الكبيرة نسبياً، وهو ممدد على سريره بكامل ملابسه ، متكئاً، بنصف جسمه الأعلى على الوسادة ، جامد النظرات . ظلت المرأتان تحاولان تحريكه ، والحديث معه ، لكنه كان قد فارق الحياة . التفت المرأتان إليه وهما تبكيان .. وبدون إرادة منه ، امتلأت عيناه بالدموع . تقدم منهما ، وأخذهما من ذراعيهما خارجا بهما من الغرفة .. كانتا مستسلمتين له ، وقد انتبهتا إلى أنه يريد أن يفعل شيئاً.
أوصلهما إلى غرفة الإستقبال ، وعاد مسرعاً إلى حيث جثة الأب . سحبه الجثة ببطء ليرقد كي تستلقي بكاملها على السرير ، ثم سحب البطانية ليغطيه بالكامل . عاد إلى حيث المرأتين . كانتا تبكيان بحرقة ، إلا أن إيفا إسكندروفنا لم تتحمل أن تترك الأب ، لذا غادرت الغرفة متجهة إلى حيث الجثة ، وجاء صوت بكاؤها المؤلم التي تحاول كتمانه ليضفي على الشقة جواً جنائزياً. التفت آدم إلى إيفا جايكوفسكايا وقال لها:
- إيفا.. الآن ليس وقت البكاء.. علينا التصرف.. علينا الاتصال بالطواريء.. و..
قاطعته ، متوقفة عن البكاء لحظة ، إلا أن عينيها كانتا مليئتين بالدموع ، ووجها محتقن:

- لقد اتصلنا قبل لحظات، وهم في الطريق..
لم يكن آدم التائه يعرف ماذا عليه أن يفعل ، فالأحداث هنا تجري بشكل دراماتيكي سريع وكأنها فيلم هندي رخيص . خرج من الغرفة . لم يكن يعرف ما يفعل وكيف يتصرف . وجد نفسه يتجول في الشقة ، فهنا غرفة الإستقبال ، ومقابلها المطبخ ، وجنبها غرفة الأب والأم ، ومقابلها الحمام ، لكن بينهما ، في عمق الشقة ، ثمة غرفة أخرى .. تقدم لا إراديا ً، وهو يخمن بأنها غرفة إيفا إسكندروفنا ، كان الباب مفتوحا ً بشكل موارب . حين مر من أمام غرفة الأب التفتت إيفا إسكندروفنا إليه لا إراديا ً. انتبه إلى أنها كانت قد توقفت عن البكاء ، وهي تجلس الآن على حافة السرير ، صامتة ، لا تبكي ، وإنما تنظر إلى وجه الأب الذي كشفته ، بعد أن غطاه آدم التائه بالبطانية.
أطل هو بنصف جسده متجولا ً بنظره سريعا ً في غرفة إيفا إسكندروفنا ، فرأى سريرها مغطى بشرشف عريض ، وعلى الجانب الآخر من الغرفة ، خزانة للملابس ، وطاولة للزينة ، إلا أن مرآتها الكبيرة كانت مكسورة ، تشوه وجه النظر إليها ، ومغطاة بقطعة سوداء من القماش الشفاف جدا ً، وعلى مقربة منها رأى صندوق الآلة الموسيقية العائد لإيفا جايكوفسكايا إلى جانب المرآة المكسورة . أطبق الباب بهدوء ، وعاد بخفة إلى غرفة الإستقبال.
بعد دقائق قليلة ضجت الشقة برجال الأسعاف الذين أسرعوا بنقل الجثة . حينما خرجوا من الشقة ، حاملين الجثة ، كان بعض الجيران ، الأجانب أيضا ً، قد تجمعوا في باحة الطابق ، وكانت علامات الإشفاق والتعاطف واضحة على وجوههم ، متحدثين في ما بينهم عن هذه العائلة التي تحطمت ، وتلاشت ، خلال أيام معدودة.
صعدت إيفا جايكوفسكايا وإيفا إسكندروفنا إلى الجزء الخلفي من سيارة الأسعاف ، وكان إثنان من المعاونين الطبيين في أعماق السيارة . قبل أن تنطلق السيارة ، إقترب هو منهما . سألته إيفا جايكوفسكايا ، إن كان بإمكانه أن يلتحق بهما إلى مستشفى الطواريء . نظر ، لا إراديا ً، إلى إيفا إسكندروفنا ، التي كانت صامتة ، تنظر إلى الجثة التي أمامها بصمت مخيف ، وبعينين مليئتين بالدموع ، لكنها لم تكن تبكي . أغلق السائق الألماني باب السيارة ، ثم صعد بسرعة مع الطبيب المرافق ، إلى مقدمة السيارة ، التي انطلقت مسرعة.
وقف آدم التائه مع بعض الجيران الذين هبطوا إلى أسفل البناية ، كما

تجمع آخرون جاءوا من بوابات البناية الأخرى . تذكر كلمات إيفا إسكندروفنا حينما ذكر ّته بعربة الكاتب نيقولاي غوغل في روايته الأنفس الميتة ، قائلة بأن عربة القدر انزلقت مسرعة لتدوس أحلامها بغير رحمة وتدفع بها إلى المجهول .. أحس وكأن هذه المرأة تكاد تكون كإحدى عرافات المعابد القديمة ، ربما مثل أنخدوانا في المعابد السومرية ، أو مثل بطلات التراجيديات الإغريقية .. ربما هي أشبه بإنتيغونا ابنة أوديب ، أو أندروماك زوجة هكتور القتيل ، أو حتى ميديا الغيورة ، التي واجهت العزلة في البلاد الغريبة .

تفرق الجيران وهم يطلقون جمل المواساة ، ويلعنون هذه الحياة التي أجبرتهم على ترك بلدانهم ، وأخذوا يشتمون النازيين الجدد الذي كانوا وراء مأساة هذه العائلة الصغيرة ، وأبدوا تعاطفهم مع زوجة الابن القتيل.

وجد آدم التائه نفسه مقحما ً في وضع مأساوي ، معقد ، ومثير . لكن غموض ما يحيط به من أحداث غريبة ، ولقاءات إستثنائية ، مع نساء مميزات ، وعودة حواء المؤمن إلى الواجهة من خلال هذا الحضور الفاتن ، والمأساوي لإيفا إسكندروفنا ، أربكه ، ودفعه للإحساس بالتشتت ، وكأنه في حلم غريب ، بالرغم من أنه يعرف أن كل ما يحدث معه هو واقعي .

فكر مع نفسه بأنه ، الآن ، في مدينة ميونخ ، وقد جاء إليها من دوسلدورف ، ليسافر إلى دولة الإمارات العربية المتحدة لإجراء مقابلة للعمل في إحدى جامعاتها كاستاذ محاضر ، وأنه إلتقى الممثلة السينمائية الشهيرة إيفا ليسنج في القطار ، ونشأت بينهما علاقة عميقة ، ثم التقى إيفا جايكوفسكايا ، والآن إلتقى إيفا إسكندروفنا ، وكلهن نساء متميزات ، وكأن كل هذا يجري في رواية من روايات محطات القطار ، لكن كيف اختفت بطاقة سفره؟ وكيف تحول جواز سفره من اللون الرصاصي الذي يمنح للأجانب المقيمين بشكل رسمي ، إلى اللون الأزرق ، الموسوم بخيطين أسودين على الحافة ، والذي ي ُمنح للاجئين السياسيين؟ وكيف أختفى اسمه من سجل المسافرين على شاشة الكمبيوتر؟ وكيف شاهد دوستويفسكي والأمير ميشكين وناستاسيا فيليبوفنا في الفندق الذي يسكنه؟ ألم يمت دوستويفسكي في نهاية القرن التاسع عشر؟ إذن ، هل هو يحلم .. هل ما يجري معه هو حقيقة أو خيال؟ ربما هو نفسه غير حقيقي ، وأنه هو نفسه بطل لرواية غامضة؟ .. لا .. لا بد لي أن أبتعد قليلا ً عن كل هذه الأجواء الغامضة ، لا بد لي أن أغادر ميونخ .. لا . لا . سأجن إذا استمر وضعي هكذا .. حاول أن يغير من مسار تفكيره . انتبه إلى أنه وصل الشارع العام

، وأنه قطع مسافة من الطريق ، لكنه لم يكن يعرف الإتجاه نحو مركز المدينة . ظل يمشي إلى أن وصل إلى إحدى محطات قطار الأنفاق ، فدخله هابطا ًالدرج الذي يقود إليها.
لم ينتبه آدم التائه لاسم المحطة ، ولا إلى أي الإتجاهات تقود ، فهو يعرف أن خرائط لمحطات قطار الأنفاق موجودة في داخل المحطة ، ويمكنه من هناك أن يتوجه إلى المحطة الرئيسية للقطارات في المدينة حيث فندقه بالقرب منها . بعد أن هبط الدرجات الأسمنتية وجد نفسه أمام سلم كهربائي متحرك ، يهبط للأسفل ، إلا أنه طويل جدا ًبشكل مريب ، وكأنه يهبط إلى قاع المدينة ، أو إلى مغارة عميقة.
كان وحده على السلم الهابط ، ولم يكن ثمة أحد على السلم الموازي الصاعد . وحينما صار في وسط المسافة ، لمح قامات بشرية جامدة تصعد على السلم . وكلما اقتربوا صعودا ، واقترب هبوطا ً، تبينت ملامحهم له أكثر . لم يكونوا أحياء ، بل كانوا وكأنهم الموت الماشي ، الجثث الماشية ، السومبي ، الذي يراه في أفلام الرعب ، إلا أن ملابسهم كانت أنيقة ، وعالية الجودة . أحدهم كان جامدا ً، يضع نظارات على عينيه ، وبيده كتابا ً ضخما ً مفتوح على منتصفه ، وهو يقرأ جامدا ً. وخلفه على انخفاض ثلاثة سلالم تقف امرأة أنيقة ، جامدة الملامح ، وردية البشرة ، بدت وكأنها تمثال عاجي ، مونيكان ، و زُين بملابس على آخر صيحات الموضة . بدأت جموعهم تتكاثر . يتشابهون في أنهم لا يتحركون ، لكنهم كانوا مختلفين في ملابسهم ، وأعمارهم ، وجنسهم ، وأصولهم ، إذ كان بينهم رجل زنجي الملامح ، ضخم الجثة ، يلبس ملابس بألوان صارخة ومتباينة في تضادها.
حين وصل إلى آخر السلم ، ودخل المحطة انتبه إلى انها فارغة من البشر ، وليس هناك قطارات ماضية او مقبلة كي يخرج منها كل هذا العدد من البشر . إلتفت إلى السلك الصاعد ، فهاله ما يرى ، إذ كانت هذه القامات البشرية الجامدة ، تخرج مع كل درجة سلم صاعد فجأة ، فمع حركة السلم ، يظهر شخص على السلم ، وبعد ثلاث أو أربع درجات صاعدة تظهر من العدم قامة بشرية صاعدة . لم يصدق عينيه ، لكنه كان أمام أمر واقع ، فالمحطة فارغة ، بينما السلم الصاعد يزدحم بالقامات الجامدة . أحس بالرعب ، لكنه كان يأمل وصول أي قطار من أي جهة ليدخل فيه هربا ًمن هذا المكان المرعب .
فتش في أماكن عرض الإعلانات فوجدها خالية من أي إعلان . نظر إلى

جدران الواجهتين الجانبيتين اللتين تمر القطارات مفتشاً عن اسم المحطة التي هو فيها فلم يجد أي شيء يشير إلى ذلك . نظر إلى الساعة الموجودة ، فوجدها لا تعمل ، وهي متجمدة على الدقيقة صفر .
قرر الهرب من هذه المحطة ، لكن كيف سيصعد وهذه القامات الجامدة تملأ درجات السلّم . فكر في الأمر لحظات ، ثم قرر أن يقفز بين فراغات السلم بين قامة وأخرى . اقترب بحذر من بداية السلم الصاعد ، وما أن ظهرت قامة على السلم الأول ، وقبل أن تظهر القامة الثانية قفز إلى السلم . أحس بالراحة وهو يرى نفسه يصعد مع حركة السلم الكهربائي . فجأة ، واتته رغبة في أن يرى الذي خلفه ، فالتفت بحذر ، لكنه أحس بالرعب أكثر ، فقد كانت القامة البشرية التي خلفه هي قامة الأب الذي مات قبل قليل ، والذي يفترض أن يكون في مستشفى الطواريء أو في المشرحة . شله الخوف ، وأحس بنبضه يتصاعد ، وتنفسه يكاد يتوقف ، وعرق بارد خفيف يبلل جبينه .
حين وصل إلى أعلى السلم ، وجد أن تلك القامات ، لا تخرج إلى الشارع صاعدة درجات الدرج الإسمنية القليلة ، وإنما تسير إلى نفق آخر ، لا يعرف إلى أي مكان يقود ، فلم تكن هناك أية علامات إرشاد أو توضيح.
حين صار في الشارع تنفس بعمق ، ومسح العرق البارد عن جبينه . أحس بالأمان حينما لمح ملامح الحياة في الشارع . اقترب من حافة الرصيف ، وقرر أن يستأجر سيارة تاكسي لتقله إلى الفندق . مد يده حين لمح من بعيد سيارة تاكسي قادمة ، فوقفت السيارة قربه . دخل إلى المقعد الخلفي ، وأخبر السائق عن جهته فانطلقت به.
كانت سيارة التاكسي ما تزال في الشارع الذي كان هو فيه بعد ، حينما سأل هو السائق عن اسم المحطة التي كان هو بالقرب منها حينما صعد التاكسي . لم يلتفت السائق إليه ، وإنما قال له ، بنبرة حاسمة ، بأنه ليس هناك أية محطة لقطار الأنفاق في المكان الذي صعد منه ، فأخبره بأنه كان هناك ، وهبط السلم ، ثم خرج ، لكن المحطة كانت فارغة من كل شيء ، فجاءه صوت السائق ، مؤكدا بأنه واهم ، فلا محطة هناك ، فأكد له هو بدوره بأنه هبط الدرج الإسمنتي ، وهناك هبط السلم الكهربائي إلى الأسفل ، فجاء صوت السائق بان الدرج الإسمنتي يقود إلى نفق ، والنفق يقود إلى المشرحة التابعة إلى مستشفى المدينة.
بعد دقائق قليلة وصل التاكسي إلى باب الفندق . نظر آدم التائه إلى لوح الكتروني أعلى الواجهة من الداخل ، فعرف مبلغ الإجرة ثم أضاف عليه

قليلا ً. مد َ إليه بالمبلغ فالتفت السائق إليه لأول مرة . قفز آدم التائه مذعورا ، خارجا ً من السيارة ، وهو يلقي بالقطعة النقدية الورقية في السيارة ، فقد كان وجه السائق جامدا ً جدا ً، عيناه حمراوان ، ووجهه أبيض ، وكأنه تم طلاؤه بالأبيض . انطلقت قهقهة من السائق وهو ينطلق بسيارته بسرعة عالية جدا ً، بينما ظل هو واقفا ً أمام باب الفندق حائرا ً، مرعوبا ً، مذهولا ً. وبلا إرادة منه رفع رأسه إلى أعلى واجهة الفندق ، فرأى المرأة التي تشبه نستاسيا فيلوبوفنا تقف خلف ستارة صفراء ، يضيئها من الخلف ضوء قوي ، لكنها بدت وكأنها ظل لها . بقي ّ للحظات ينظر إليها ، لكنها فجأة تركت النافذة . دخل الفندق ، وهو يحس بأنه مشوش إلى اقصى الحدود ، فلم يعد يعرف الحدود بين الواقع والوهم . أحس برغبة قوية في أن ينام .

ناستاسيا فيليبوفنا

حين اختفت ناستاسيا فيليبوفنا من أمام النافذة ، أدرك آدم التائه أنها ليست وحدها في الغرفة ، فقد كانت أثناء وقوفها أمام النافذة ، تميل برأسها قليلا ً إلى الجانب وكأنها تستمع لما يقال خلفها . وحين غادرت مكانها متوجهة إلى أعماق الغرفة ، أدرك بأن حواء المظلوم قد كذبت ، حين سألها إن كان لديها ضيوف ، إلا أنها نفت ذلك ، وها هي امرأة تطل من نافذتها إلى الشارع في هذا الوقت المتأخر من الليل .

سأل آدم التائه نفسه وهو يدخل الفندق : لماذا أنكرت حواء المظلوم بأن عندها ضيوفا ً، ولماذا يذهب الضيوف إليها؟ علما ً أنه رأى أشباحا ً كالدخان تدخل الغرفة أيضا ً!! ومن هي حواء المظلوم هذه؟ وما علاقتها بدوستويفسكي؟ ولماذا بعض أبطال رواية الأبله ، الأمير ميشكين وناستاسيا فيليبوفنا ، فقط وليس بقية الشخصيات المهمة في الرواية مثل روغوجين ، وأغلايا إيفانوفنا ، وهيبوليت؟ بل ولماذا أبطال رواية الأبله ، وليس راسكولنيكوف وسونيا من رواية الجريمة والعقاب؟ أو سترافوجين من رواية الشياطين؟ لا بد من وجود سر في هذه الغرفة.

كان يريد النوم ، لكنه ما أن فتح باب ممر الطابق الثاني حتى سمع أصوات جدال حام ٍ يأتي من غرفة حواء المظلوم . تملكه فضول أن يقترب من الباب ويتنصت . كانوا يتحدثون بالروسية ، لكن بدا أن ناستاسيا فيلوبوفنا محتدة وهي تخاطب شخصا ما ، ربما دوستويفسكي ، لأنه سمع صوتا ً آخر يردد بتوسل : ناستاسيا فيليبوفنا ... ناستاسيا فيليبوفنا .. بينما هي ردت على الشخص الذي ناداها متوسلا ً: كنياز ميشكين .. وأردفتها

بكلمة لم يسمعها جيدا ً.. لكنها واصلت حديثها الحاد مع شخص آخر ، ربما هو دوستويفسكي .. كانت تتحدث معه بعصبية .. ثم تعالى صوتها باكيا ً. فجأة ، ف ُتح الباب ، وانطلقت هي خارجة ، توقفت لحظة مستغربة وجوده قرب الباب ، ففهمت أنه كان يتنصت عليهم ، نظرت إليه شزرا ً وقالت له تلك الكلمة التي فهمها : إديوت .. والتي يعرف أنها تعني الأبله .. وانطلقت مغادرة الممر .. استغرب هو ، فهذه المرة الثانية التي تطلق عليه هذه الصفة .. بعد لحظات انطلق الأمير ميشكين راكضا ً خلفها .. خرجا معا ً من الممر .. أحس هو بحرج كبير ، وعاد إلى الجهة الأخرى حيث تقع غرفته ، إلا أنه ما أن وصل المنعطف إلى غرفته في نهاية الممر ، سمع ضجة ، فالتفت . كان دوستويفسكي يمضي بهدوء مهموما ، تائه النظرات . توقف آدم التائه مندهشا ً. كان دوستويفسكي يتلمس جبينه ، وصل إلى حيث باب الممر ، لكنه قفل راجعا ً إلى الغرفة . دخل وأغلق الباب خلفه ، وبعد أقل من ثانية سمع صوت صرخة المصروع .. وسقوط جسد على الأرض .. لم يجرؤ على الحركة ، وبعد دقائق قليلة جدا ً، توقف كل شيء .. عرف أن دوستويفسكي تعرض لحالة صرع . دخل غرفته ، مهموما ً. خائفا مما يجري معه من أحداث.

أضاء الغرفة . ألقى بنفسه مباشرة على السرير ، إلا أن صرخات دوستويفسكي في لحظة نوبة الصرع أطارت النعاس من جفنيه . بقي لدقائق قليلة مستلقيا ً، ثم تحرك نازعا ً المعطف ، ملقيا ً به على أطراف السرير . كان يعرف أنه بحاجة إلى النوم ، وكان متهيئا ً لذلك ، لولا ما سمعه من صرخة .

ظل يتقلب في السرير . إستدار على ظهره وظل يحدق إلى سقف الغرفة ، متأملا ً ما جرى معه خلال هذه الأمسية بعد خروجه من الغرفة وحتى لحظته تلك . فجأة ، أخذ يتمتم مع نفسه بالإنكليزية أبياتا ً شعرية كان قد حفظها من الرباعيات للشاعر ت . إس . إليوت ، الذي يحبه جدا ً، بدأ صوته متقطعا ً، هادئا ً، ثم أخذ ينساب . كان صوته مسموعا ً لكنه واطئ وكأنه يحدث نفسه.

حينما إنتهى من قراءة هذا المقطع ، ردد مع نفسه بالعربية البيت الأول الذي قرأه من هذا المقطع الشعري:

ظـلام ظـلام ظـلام جميعهم يمضون في الظلام..

أطلق زفيرا عميقا ً من صدره . ظل للحظات صامتا ً، ساكنا ً وكأنه غير موجود . انتبه لنفسه متذكرا ً بأنه لم يأكل شيئا . فكر مع نفسه ليطلب

الطعام ، عسى أن تأتي به حواء المظلوم وليس الرجل الآخر ، فيعرف منها ما يجري . تحرك ببطء . أخذ سماعة الهاتف وطلب الإستعلامات:

- هنا الغرفة 223.. هل يمكنني طلب عشاء؟

جاء صوت امرأة من الطرف الآخر:

- بالتأكيد.. ماذا تفضلون؟
- أي شيء..
- لا يوجد لدينا أي شيء.. توجد خلف التلفزيون في كل غرفة قائمة بالطعام والمشروبات وأسعار كل منها..يمكنك أن تنظر فيها وتطلب..
- طيب.. هل لديكم بيض وجبن ماتسرويلا..؟
- يوجد..
- بيضتان مخلوطتان، مقليتان بدهن قليل جداً، وقطعة من جبنة ماتسرويلا.. وكأس عصير البرتقال..
- ستكون لديك ما بين ربع ساعة إلى نصف ساعة..
- شكراً

وضع سماعة الهاتف . نظر إلى ساعة الجدار التي كانت تشير إلى الواحدة صباحا ً. فكر مع نفسه بأنه أخطأ بطلب الطعام ، فالوقت متأخر جدا ً، لكنه أحس بالجوع ، إلى جانب أنه كان يأمل بأن تكون حواء المظلوم من يحمل الطعام.

ظل مستلقيا ً على السرير . فكر بصرخة دوستويفسكي الرهيبة ، حينما جاءته نوبة الصرع ، فكر كيف أنه جعل أحب أبطاله إليه ، يحمل هذا الداء ، فالأمير ميشكين مصاب بالصرع ، وتأتيه حالات الصرع حينما ينفعل بشدة . ما الذي حدث إذا ً بين دستويفسكي وناستاسيا فيليبوفنا بحيث جاءته نوبة الصرع بعد مغادرتها الفندق مع الأمير ميشكين ؟

فجأة ، رن الهاتف . أخذ السماعة ، فجاء صوت فتاة الإستعلامات يسأله:

- سيد التائه.. هل ستغادر غداً، أو تريد تمديد إقامتك لدينا؟
- لا. لا. سأمدد لثلاثة أيام أخرى.. شكراً لك لأنك نبهتني..
- طيب هل بالإمكان دفع الليالي التي مضت، لكي نحجز لك ثانية؟
- لا مشكلة.. حينما أنزل صباحاً سأدفع..
- شكراً جزيلا.. طعامك سيصلك خلال دقائق..
- شكراً..
- ليلة هادئة
- ليلة هادئة

حينما وضع سماعة الهاتف فكر مع نفسه بأن عليه أن يحسم مسألة وجوده في ميونخ ، فمن غير المعقول أنه سيبقى في هذا الفندق ، الذي أجرته خلال أسبوع تعادل إيجار شقة صغيرة في مدينته على الأقل ، بل عليه أن يقرر إن كان سيبقى هنا ، أم يرحل إلى برلين ، أو كولن ، أو دوسلدورف .. يجب أن يختار مدينة كبيرة فيها فعاليات ونشاطات ثقافية وفنية ، فيها تدب الحياة بإندفاع ، لكن في كل الأحوال يجب أن يرجع لمدينته ليتأكد إن كان قد سل ّم الشقة لدائرة الأجانب أم لا ، وفي كل الأحوال يجب عليه أن يحصل على سكن في أية مدينة يريد الإنتقال للعيش فيها كي يضمن موافقة بلدية المدينة على الإنتقال إليها . كم يكره هذه الإجراءات الإدارية .. ثم أنه لا يعرف أحدا ً في هذه المدن الكبيرة ، فأصدقاؤه معظمهم يعيشون في مدن صغيرة ، وحتى لو كانوا يعيشون في مدن كبيرة نسبيا ً مثل إيسن أو فوبرتال ، فأنه لا يريد أن يعرف أحد بوضعه العائلي ، وفضيحة حواء المؤمن ، لأنه يتذكر أن جارهم آدم اللبناني ، الذي وجده يضاجع زوجته حواء المؤمن ، لديه أقرباء ومعارف كثيرون في مدينة إيسن . كان آدم التائه يحاور نفسه بصمت .

فجأة ، سأل نفسه ، لماذا لا يبقى في ميونخ ، لاسيما سيكون قريبا ً من إيفا أسكندروفنا ، وإيفا جايكوفسكايا ، لا . لا . إنه يريد أن يبقى قريبا ً من إيفا إسكندروفنا ، ويمكنها مع صديقتها إيفا جايكوفسكايا أن يجدا له شقة رخيصة ، في بنايتهم ، أو البنايات المجاورة أو حتى القريبة . تذكر أنه لم يذهب خلفهما إلى مستشفى الطوارىء . أحس بتأنيب الضمير ، وبخجل من تصرفه ، كيف تسنى له أن يترك هاتين المرأتين وحدهما في مثل هذا الموقف العصيب .. ؟ ماذا ستفكران عنه؟ ألا يؤثر ذلك على نظرة إيفا إسكندروفنا إليه؟ لقد كانت تجله وتقدره ككاتب قبل أن تراه ، ثم بعد اللقاء والنقاش الذي جرى بينهما ، أحس ، بالرغم من الوضع المأساوي والمرتبك ، للعائلة بأنها تقبلته بشكل طيب . من المؤكد أن الجثة ستبقى حتى الصباح هناك ، إذن ، عليه الذهاب إلى هناك صباحا ً، مبكرا ً، ليكون إلى جانبهما . بعد ذلك يمكنه أن يفاتحهما بالبحث عن شقة ، لكنه لم يحسم أمره بعد ، ثم أن إيفا ليسنج ستصل بعد يومين.

ما أن مرت إيفا ليسنج على ذاكرته حتى أحس بالإرتباك ، فقد أذهلته شخصية إيفا اسكندروفنا بحزنها الهائل ، وروحها القلقة ، لكن راوده شعور غامض وكأنه يسيء إلى إيفا ليسنج بهذا التعلق والإنبهار بشخصية إيفا إسكندروفنا.

سمع طرقات خفيفة على الباب فنهض مستعدا ًلرؤية حواء المظلوم ، لأنه كان على ثقة بأنها موجودة ، فقد حدث ما حدث في غرفتها حينما دخل الممر ، وسمع صرخة دوستويفسكي الرهيبة.

حين فتح الباب رأى فتى ً في مقتبل العمر يحمل صينية فيها ما طلبه من طعام ، إبتسم الفتى وقال له:

- هل تسمح..؟

دخل الفتى بسرعة محترف ، وضع الصينية على الطاولة ، فسأله آدم التائه بتوجس ، محاولا ًالحصول على معلومات منه ، بطريقة ملتوية:

- إلى أي ساعة يظل المطعم مفتوحاً..؟
- إلى الساعة التاسعة.. لكنه الآن مغلق لعدة أيام لغرض الصيانة..
- إلى الثامنة أم إلى التاسعة..؟
- إلى التاسعة..
- هذا صحيح.. فقد قالت لي ذلك عاملة المطعم..

إلتفت الفتى إليه متعجبا ً، وكأنه لم يفهم ماذا يقصد . انتبه آدم التائه لذلك ، فأراد أن يستمد أكبر قدر من المعلومات من الفتى ، بطريقة غير مباشرة ، فقال بنبرة محايدة:

- لكنها قالت إن الأمر سيطول ليوم واحد لا أكثر..

نظر الفتى إلى آدم التائه مستغربا ، وقال بدهشة وتساؤل:

- لكن لا توجد لدينا عاملة في المطعم..! أنا والسيد آدم شتاينر نعمل فيه فقط..
- كيف؟ أنا قابلتها.. وقد قالت لي ذلك..
- هذا مستحيل.. هذا لا يمكن أن يكون..
- لكنها تسكن هنا.. في هذا الممر.. في الغرفة التي تقع في نهاية الممر من الجهة المقابلة لجهة غرفتي..
- ماذا تقول..؟ الغرفة التي تتحدث عنها مقفلة منذ سنتين.. تحولت إلى مخزن لحفظ الأسرة والأفرشة منذ وقوع الحادث..
- أي حادث؟

أحس الفتى أنه تفوه بشيء لا تريد إدارة الفندق أن يعرف به أي نزيل . انتبه آدم التائه لإرتباك الفتى ، فأراد أن يبعد الخوف عنه ، ويجره إلى الحديث عن أسرار تلك الغرفة الغامضة ، فقال له بهدوء:

- أنا رأيت بعض أشخاص يدخلون إلى تلك الغرفة، وهناك امرأة شابة في الثلاثين من عمرها، تلبس عادة ملابس سوداء، وتضع شالاً أحمر على

عنقها، تخرج منها، أو تنظر من النافذة المطلة على الشارع..
كان الفتى ينظر إليه مذهولا ًوقد انجذب لكلامه ، فسأل بخوف واضح:
- وهل رأيتها بعينيك؟
- نعم..
- إنها هي.. هي.. تلك المرأة التي قُتلت في تلك الغرفة..
- قُتلت؟
- نعم.. قُتلت.. فقد كانت هنا، كما روي لي أول ما عملت هنا منذ سنة ونصف، بأن جريمة حدثت في هذه الغرفة.. حيث كانت فتاة شرقية، لا أعرف أعراقية كانت أم من أي بلد آخر، تعمل في مطعم الفندق، ويبدو أنها هربت من زوجها الذي كان يؤذيها مع ابنها، تطلقت منه، وجاءت، مع ابنها إلى هنا لتعمل، إلا أن زوجها تابعها أشهراً، إلى أن عرف مكان عملها في الفندق، فدخل الفندق بصفة نزيل، ولم يواجهها مباشرة إلى أن عرف مكان غرفتها، فطرق الباب عليها، واغتصبها، ثم ذبحها. بعد ذلك حولت إدارة الفندق تلك الغرفة إلى غرفة للنزلاء، إلا أن النزلاء كانوا يهربون من الفندق بسبب رؤيتهم لها، وانتشرت شائعة بأن الفندق فيه أشباح، وكادت إدارة الفندق أن تفلس، لذا قامت بإغلاق الغرفة وتحويلها إلى مخزن. لكن منذ ذلك الحين لا أحد أشار إلى رؤيته لها.. أو رؤية أي شيء من هذا القبيل، لذلك ستندهش إدارة الفندق إذا ما سمعت قصتك...
- لا..لا... ربما أنا مشتبه.. أو التبس عليّ الأمر..
نظر الفتى إليه للحظات ، ثم قال موافقا ً
- أنا أيضا تعجبت من كلامك.. فلا أحد رآها منذ أن تم إغلاق الغرفة قبل سنتين..أي بعد الحادث مباشرة..
- هذا صحيح.. ربما ترآى ذلك لي في الحلم..أو ربما بتأثير أفلام الرعب التي تبث من التلفزيون.. فقد عُرض ليلة أمس فيلم عن فندق مليء بالقتلى.. أنا شاهدته.. وتخيل لي أن ما كان في الفيلم هو في هذا الفندق..
- لا تتحدث عن هذا الموضوع لإن الإدارة ستغضب.. فهم بالكاد محوا تلك الشائعات عن وجود أشباح في الفندق..
- إذن لا تقل شيئا..
- أكيد.. وإلا سيطردونني أنا أيضا..
- عموما.. شكراً لك..
- شهية طيبة.. وليلة سعيدة
قال الفتى ذلك وخرج غالقا ًالباب خلفه.

جلس آدم التائه على السرير ، إذ كان طوال الوقت يقف بمواجهة الفتى وهما يتحدثان . أحس بأنه يمر منذ فترة ، منذ كان بمدينته ، وتعرض للأزمة القلبية ، بتجربة ماورائية ، روحانية استثنائية ، واستحضر كل ما يعرفه من علم الأرواح ، وأحس بأن ما يراه هو حقيقة إذن ، وأن حواء المظلوم هي روح بلا شك ، وربما ظهرت له لأنه من نفس بلدها ، وأن لديها رسالة تريد إيصالها من خلاله .. لكنه تذكر بأنها جاءت حينما كانت إيفا جايكوفسكايا هنا في الغرفة ، فكيف تظهر له بحضورها؟ أترى إيفا جايكوفسكايا روح أيضا؟

أحس برجفة تسري في جسده ، لكنه ، برغم هاجس الخوف الذي أعتراه ، شعر برغبة قوية في أن يصل بهذه التجربة إلى أقصى مداها ، ما دامت هذه المرأة تظهر له فقط . نظر إلى الطعام . أحس بشهية قوية ، وكأن دفقا ًمن الحياة أخذ يسري في روحه من لحظة قراره أن يواصل التجربة.

لم يكن آدم التائه قد انتهى من طعامه بعد ، حتى سمع ضجة في الممر . فتح الباب وخرج بهدوء إلى الممر ، فرأى ناستاسيا فيلوبوفنا وخلفها يمشي الأمير ميشكين وهما يدخلان إلى الغرفة الغامضة . رجع مسرعا ًإلى غرفته ، وأغلق الباب . جلس على الكرسي الوحيد في الغرفة ، وأخذ يفكر في علاقة دستويفسكي وأبطال روايته الأبله بامرأة شرقية قتيلة . قام إلى زر النور فضغط عليه ، فغرقت الغرفة في الظلام . أحب أن يجلس في الظلام ، فأحيانا يمنحه الظلام شعورا ً بالتلاشي ، بعدم الوجود . بات آدم التائه وحيدا ً، وهو يفكر في هذه الروح الزائرة.

آدم البغــدادي : لماذا أصرّ آدم التائه أن يقرأ المقطع الشعري لإليوت بالإنكليزية ، بينما أردته أن يقرأه بالعربية ، فهناك ترجمة رائعة له قام بها توفيق صايغ ، ضمن ترجمته لرباعيات ت . إس . إليوت ؟

هل آدم التائه بطل مضاد ، لماذا حينما بدأ يقرأ لإليوت تمرد عليّ؟ هل يصدقني أحد ما إذا ما قلت بأنه تمرد علي ، ولم يخضع لرؤيتي الذاتية ، أنا متأكد أن الكثرين سيعتقدون أن ما أقوله هو من باب اللعب الروائي ، ومحاولة إضفاء الغرابة على روايتي ، لكنها الحقيقة ، إن آدم التائه هو روائي أيضا ، وهو يتصرف وفق قناعاته الشخصية ، وفضوله الروائي.

ثم ما الذي دفع نستاسيا فيليبوفنا إلى مشاجرة دوستويفسكي الذي جاء بها من العدم ليجعلها واحدة من أعظم الشخصيات الروائية في تاريخ الأدب العالمي ؟ ولماذا عادت ثانية ؟

وهل هناك أرواح تظهر من العدم فعلا ً؟ هل هي أوهام آدم التائه أو

أوهامي ؟

* * *

حين انتهت حواء الزاهد من قراءة الفصل أحست بالخوف . طوت المخطوطة . فكرت بحقيقة وجود الأرواح؟ لا سيما القتيلة منها .. وهل تُرى ستظهر لها روح حبيبها آدم المحروم ، أحست برغبة في رؤيته ، وهل ستظهر لها روح أبيها وأخيها .. وزوجها .. ما أن ورد زوجها على ذاكرتها حتى أحست بالرعب ، فأطفأت المصباح وسحبت البطانية لتغطي رأسها أيضا.

الحداد يليق بالنساء

حين دخل الحاج آدم الملا إلى غرفة الإستقبال في المشتمل الذي قد استأجره لمدة ستة أشهر في منطقة العرصات ، أسرع بإضاءة الغرفة ، وبالضغط ، لا إراديا ً، على الريموت كونترول لمتابعة التلفزيون ، وفي الوقت نفسه جلس على إحدى الكنبات الثلاث المتوزعة بشكل غير متناسق . مد يده إلى جيبه وأخرج جهاز الهاتف النقال ، ضغط على زر فأضاء الشاشة ، وبحث عن رقم السيدة والدة آدم ذوالنورين ، وتوقف عنده . كانت ملامحه متوترة ، قلقة ، وعيناه تبرقان بالشهوة . ظل للحظات يفكر قبل أن يضغط على الزر ليطلبها . فكر مع نفسه : ماذا لو أن ابنها الآن في البيت؟ ماذا لو أنها لا تجيبه ، فهي تعرف رقمه ، وأخيرا ً قرر الاتصال . ضغط الزر ، وبعد ثوان ، قفز من مكانه واقفا ً وهو يجيب برقة وهدوء وتهذيب :

- السلام عليكم.. أنا آدم.. الملا.. تعرفينني طبعاً.. فرقمي موجود عندك

يبدو أن الاتصال كان مفاجئا ً بالنسبة لها ، لأنها ظلت صامتة ً للحظات ، ويبدو أنها لم تستقبل اتصاله بود ، إذ جاء صوتها مرعوبا ً، مستفزا ً، هجوميا ً

- أين ابني آدم؟ ماذا تريدون مني أيضا؟

ارتبك آدم الملا من لهجتها الهجومية ، فلم يتوقع أن تكون هجومية هكذا ، إذ تصورها امرأة منكسرة وضعيفة ، فأخذ يبرر لها سبب اتصاله ، فقال بارتباك:

- أنا لم أتصل لإبتزازك..لا والله العظيم. أنا فقط أردت أن أطمئن لوصول الأخ آدم إلى البيت

فوجئت لنبرة صوته المحملة بالتبرير والرجاء والضعف ، أليس هذا هو الذي كان يهددها ، ويسبها بأبشع الكلمات ، فما الذي جرى لكي يتصل ليطمئن على ابنها؟ أليس ابنها عندهم ويفترض أن يكون الآن في البيت؟ هل هناك لعبة جديدة منهم؟ كان عقلها يسأل كما ً من الأسئلة دون أن تفكر بالإجابة عليها ، فسيل الأسئلة عنيف . لم تصدق ما كانت تسمعه من خلال نبرة صوته ، ولكي تكسب بعض الوقت ، وتتأكد مما سمعت ، استمرت بالهجوم ، قائلة:

- أين ابني؟ أما قلتم الليلة سيكون في البيت؟ أين هو؟ لقد التزمت بما طلبتم مني، ماذا تريدون أكثر؟

كان الحاج آدم الملا يريد أن يسيطر على سير الحوار ، وأن يوجهه إلى أهدافه هو ، فقال بنبرة تذلل ، وتوسل:

- ابنك قريب منك.. لقد تم إطلاق سراحه، والله العظيم أنا معك.. أنت أم شجاعة.. أم عظيمة.. ولكن أقسم لك بكل المقدسات، أنا شخصيا ليست لي علاقة بكل هذه القصة.. لقد وجدت نفسي متورطاً فيها..صدقيني..

- متورط.. تخطفون الناس، وتذبحونهم، وتيتمون الأطفال...ثم تأتي لتقول لي إنك بريء وليست لك علاقة بكل هذه الجرائم..

لم يتوقع الحاج آدم الملا هذاالهجوم الشرس من قبلها ، وبدأ اليأس يدب في نفسه ، لكن رغبته بامتلاكها كانت أقوى من كبريائه الرجولية ، فقال بتذلل ، وفي صوته نبرة استسلام وندم واضح:

- أنت محقة في كل ما تقولين..أنت أم مفجوعة..وربما لا تصدقينني..وهذا من حقك..فقد اختلطت الأمور في هذا الوقت العصيب الذي نمر به..بحيث صار من الصعب أن نفرق بين الأشياء.. أنت على حق..اشتميني.. قولي ما تشائين.. لكني لم أتصل بك من طرف أحد، وإنما أتصل بشكل شخصي..لكن صدقيني لمرة واحدة فقط.... أقول لك مخلصاً، أنا كنت مضطراً لكي أساهم في الأمر، فقد كان ابن اختي مختطفاً لديهم.. وأجبروني على أن أقوم بدور المفاوض..لأنهم لا يريدون أن يُكشَفوا، وألا يعرفهم أحد.. أنا لستُ مضطراً أن أتصل الآن لأسال عن وصول آدم إلى البيت... سوى أني أردت أن أطمئن.. فلقد أوصلته بنفسي إلى منطقتكم..

نبرة التذلل والندم في صوته ، والضعف والإعتراف بالذنب ، خلخلت حواجزها النفسية قليلا ً. فكرت مع نفسها ، أليس من الممكن أن يكون مضطرا ً فعلا ً، كما يقول؟ لو لم يكن صادقا ً لما تحدث بهذه اللهجة المنكسرة والمتذللة ، والمليئة بالندم؟ هو ليس مضطرا ً إلى ذلك؟ لكني لن أغفر ولهم جميعا ً ما فعلوه بي وبابني .. وما دفعته لهم .. المهم أن أعرف مصير ابني منه .. كانت تفكر بصوت عال مع نفسها.

كان الحاج آدم الملا على الطرف الآخر من الخط يخاتل كالذئب الذي يطارد غزالا ً، يتتبع كل خطوة ، ويضع خطته خطوة خطوة بحذر وانتباه شديدين . أحس بالنشوة الشخصية لسرعة بديهته ، ولحضوره الذهني ، وقوة ارتجاله ، وخياله الواسع ، إذ هو لم يفكر أبدا ً بشكل هذه المحادثة الحالية ، كان في ذهنه مسار حوار آخر نسيه الان ولم يعد يتذكره . ابتسم مع نفسه للنجاح الذي يحققه في تحطيم سدودها النفسية ، والاقتراب منها أكثر ، لذلك لم يترك لها فرصة للهجوم ، فواصل قائلا ً:

- صدقيني.. أنا مثلك تماماً... فمثلما أنتِ كنتِ مضطرة لبيع أملاكك حتى أنك تقبلت الإهانة.، (صمتَ لثوانٍ ليعبر بذلك عن تسليمها جسدها) لكي تنقذي ابنك، أنا أيضا كنتُ مضطراً لأقوم بهذا الدور النذل والخسيس لإنقاذ ابن أختي.. صدقيني.. بل وحتى الذي قمت به معك..كنت مجبراً عليه.. لأنهم هددوني إن لم أفعل ذلك فسيذبحونه..
فجأة أحست وكأن صفعة قوية لطمتها على خدها ، إذن هو من ضاجعها . لقد تذكرته . صحيح أن الاتصالات كانت تأتيها من هذا الرقم ، وكانت تتحادث مع من يكون على الطرف الآخر ، ذات مرة كانا إثنين تحدثا معها معا ً، لاسيما أن أحدهما أخذ يشتمها بأقذر الكلمات ، كاشفا ً لها معرفتهم بكل وضعها العائلي وتحركاتها ، لا سيما علاقتها الجنسية بالشاب صاحب محل آدم وحواء للملابس . لكنها حينما التقت بهما لم تعرف مع من كانت تتحدث . كانت تذكر وجه الرجل الذي اغتصبها ، أو أجبرها على أن تمنح نفسها .. وبدون أي قصد ، ولا إراديا ً سألته بنبرة فيها استغراب وغضب مكتوم:
- أنت الذي...
صمت للحظات ، كان خلالها يفكر بالإجابة على سؤالها ، الذي لم يكن سؤالا ً بقدر ما كان اكتشافا ً بالنسبة لها ، وكان يفسر ويحلل طبيعة نبرتها ، بسرعة ضوئية خارقة ، وسره أن نبرتها لم تكن معادية ، وأحس وهو يتحدث معها ، بالإنتعاظ .، فقال ، محاولا ً السيطرة على شبقه الذي بدأ ت أمواجه تعلو فجأة:
- نعم أنا هو...(صمت للحظات ليتأكد من رد فعلها..لكنها كانت صامتة.. فواصل).. أنا آسف جداً جداً... ولا أعرف أين أذهب بوجهي خجلاً منك؟ بل لقد ترددت كثيراً قبل أن أتصل بك.. لكن قلبي لم يطاوعني.. لأني أنا الذي أوصلت ابنك إلى منطقتكم.. لكني تتبعته، فوجدته يدخل إلى بيت في الشارع الذي خلفكم.. وقد استقبله شاب بعمره أو أكبر منه بسنوات قليلة تقريبا. لذلك أردت أن أطمئن إن كان قد جاء إلى البيت..
لم تجب مباشرة ، صمتت للحظات .. كانت تسترجع ذلك الموقف الرهيب الذي عاشته ، لقد كانت مستعدة أن تفعل أي شيء من أجل أن تنقذ ابنها من الموت .. تتذكر هول ذلك الموقف .. لكنها ، كانت في أعماق نفسها ، حينما ذهبت إلى الشقة تتوقع أن يحدث مثل هذا الأمر ، فهي تعرف أنها امرأة جميلة ، ومثيرة ، مشتهاة ، وهؤلاء الأوباش لا يفكرون إلا بفروج النساء ، لذا فأن معظم جهادهم الديني من أجل الحصول على

الحوريات في الجنة .. أي أن ديانتهم ، وجهادهم المقدس ، هو من أجل فروج الحوريات .. لكنها استغربت من نفسها ، في أنها كانت مثارة على غير رغبتها ، وقد وصلت الذروة مرات عدة متتالية ، حينما ولجها هذا الذي يكلمها الآن ، وهذا ما لم تعرفه حتى مع الشاب صاحب المخزن الذي كان يبتلع حبة فياغرا من أجل مضاجعتها .. كم خجلت من نفسها حينما أحست أنها مثارة ، وأنها كانت تكتم فحيح شهوتها في تلك اللحظات .. والآن ها هو مغتصبها يحدثها .. لكنه اتضح أنه ضحية مثلها .. لكن هل هو صادق في ما يقول؟ لو لم يكن كذلك فلماذا يتصل؟ .. أحست بثمة خيط سري غير منظور صار يربطها به ، فقالت بنبرة منكسرة ، متجاوزة موضعه كمغتصب لها:

- لا... لم يأت لحد الآن.. لكنك تقول إنه ذهب إلى شارع خلفنا...وإنه دخل بيتاً هناك.. أي بيت؟ ولماذا لم يأت مباشرة إلى البيت..؟

فرح هو لأنها تجاوزت موضوع الاغتصاب ، وأنها أخذت ْتحدثه بنبرة فيها شيء من المشاركة الخفية ، فاصطنع القلق في نبرة صوته ، وقال:

- كيف..؟ ألم يأت لحد الآن..؟ أنا بنفسي نقلته إلى منطقتكم.. وكما أخبرتك ذهب إلى بيت آخر.. لأني أعرف بيتكم..(صمت) نعم.. أقصد هم يعرفونه.. ومرة جاءوا بي إلى المنطقة ودلوني على البيت..(صمت).. نعم.. أنا شخصياً أوصلته، فقد كانوا يخافون أن يدخلوا منطقتكم التي تسيطر عليها مجموعات معادية لهم.. وقد أنزلته أنا قرب وزارة الأشغال والإسكان.. عند التقاطع.. مقابل بائع العصائر.. وتتبعته وهو يمضي إلى البيت.. لكنه تجاوز فرعكم، ومضى إلى الفرع الذي خلفه.. ودخل إلى البيت الرابع.. بيت بوابته حديدية عريضة.. زرقاء اللون...

فصرخت هي مباشرة ، متجاوبة ، وكأنها تحادث شخصا قريبا ًتعرفه:

- هذا بيت صديق قديم له.. أعرفه..

- الحمد لله.. يعني أنه ذهب إلى بيت صديقه.. لقد شاهدت صديقه الذي خرج مستقبلاً له.. وأخذه بالأحضان..إذن أنت تعرفين البيت والعائلة.. الحمد لله.. الآن أطمئن قلبي..

صمتت لحظة . كانت الانفعالات تصطخب في أعماقها .. لقد اطمأنت لهذه المعلومات ، فهي تعرف أن الذي يسكن في البيت الرابع في الفرع الذي خلفهم هو بيت صديقه قابيل العباسي ، لكنه ابتعد عنه ، بعد أن شكل الثاني ، مع شباب المنطقة والمناطق المجاورة ، مجموعة للخطف والقتل والتفجيرات ، وأن ابنها الذي كان ابنا ً لقاض تربى على مفاهيم العدالة

والقانون ، ولم تكن العائلة يوما ً تفكر بطريقة دينية مبالغ فيها .. لذا استغربت ذهابه الآن مباشرة إليه ، لكن بالرغم من كل شيء .. فهو الآن حي ، وطليق .. وأحست بجيشان عواطفها التي شملت أمواجها الحاج آدم الملا أيضا ، فقالت له والدمع يترقرق في عينيها ، وبنبرة فيها تسامح وغفران غامض:

- أنا أشكرك سيد..

أرادت أن تستذكر الاسم فلم تسعفها ذاكرتها مباشرة .. فسارع هو قائلا ً:

- خادمك المطيع آدم..

فكررت جملتها شاكرة:

- أنا أشكرك سيد آدم...لقد طمأنت قلبي.. والآن...لو تسمح لي بإنهاء المكالمة.. أريد أن أتصل به لأطمئن أكثر..

فانتبه هو بأن الإلحاح أكثر بما سيهدم ما حققه من إنجاز في بناء العلاقة معها ، فقال بنبرة حارة:

- ليكن.. اتصلي بهم لتتأكدي.. وأنا يهمني جداً أن ترتاحي ويرتاح قلبك.. فأنا أعرف قلب الأم.. لكن لدي رجاء..

- رجاء..؟ ما هو؟

- أرجوك... ضميري يعذبني جداً مما فعلته بك.. أما في ما يخص ابنك آدم...فأقسم لك بكل المقدسات بأني لم أمسه بأصبعي..(صمت).. لذا.. رجائي أن تخبريني بسلامة وصوله، بعد أن تتأكدي من ذلك.. وسأكون شاكرا لك لو اتصلت بي لتخبريني..

- لا أجد داعياً لذلك... سيد.. آدم..

أحس ، فجأة ، وكأن كل شيء سينهار ، لذلك ، حاول أن يلقي بكل ما لديه من شباك حولها ، فقال بلهفة وحرارة ، وبنبرة مليئة بالعاطفة:

- أرجوك.. أنت لا تعرفين كم تعذبت وأنا أراه في ذلك الجب المظلم.. وكم تعذبت من لحظة خروجي من الشقة بعد أن فعلت ما فعلت بك.. وأريد أن أقول لك شيئا..ربما تجديه غريباً..

- ما هو؟

- أنا أحبك..

فقالت بصوت عال ٍوبنبرة مليئة بالاستنكار والتعجب:

- ماذا؟

- أحبك... نعم... أحبك.. ربما يبدو لك هذا الأمر جنوناً، لكني أقولها لك.. إنك أجمل امراة رأيتها في حياتي.. جمالك فاتن.. وشخصيتك ساحرة.. وأنك

أعظم أم رأيتها في حياتي.. وأنا أحبك.. بل أعشقك.. لأنك الأجمل بين كل نساء الأرض.. وأنك الأعظم بين الأمهات..

كان لهذه الكلمات مفعولها السحري المخدر .. أحست بالنشوة والغرور الأنثوي ، لكل هذا الثناء ، حتى ولو أتى من شخص تحتقره أو تكن له العداء .. فقد كان بالنسبة لها عدوا ً، مجرما ً .. حقيرا ً، قبل هذه المكالمة .. وقبل هذه الكلمات .. أما الآن فهو ليس كذلك .. أين هو موضعه .. ؟ هي نفسها لا تعلم .. لذلك قالت له ، بعد ، صمت:

- لا تبالغ في كلامك.. هناك الكثير من النساء أجمل مني..

انتبه الحاج آدم الملا إلى أنه ضرب على أعمق أوتار أنوثتها ، وكبريائها ، فقال لها:

- لا.. أنت أجمل امرأة في بغداد... بل في العراق.. بل في العالم كله..
- لا تبالغ..

قاطعته .. ثم واصلت دون أن تتطرق لما صرح به عن حبها ، وكأنها أج ّ لت الحديث في هذا الموضوع الذي دغدغ مشاعرها وغرورها:

- والآن... رجاء أريد الحديث مع ابني..
- لكن عديني بأنك ستتصلين بي لكي تخبريني عن سلامته.. أرجوك..

صمتت للحظات ، ثم قالت:

- حسناً.. سافعل.. حين تحين الفرصة..
- متى؟
- ماذا متى؟
- متى تتصلين بي..؟
- أولاً علي الإتصال به..
- سأكون بالإنتظار..

ما أن أغلقت هي الهاتف من طرفها ، حتى بدأ الحاج آدم الملا يرقص مع نفسه في باحة غرفة الاستقبال ، بل كاد يختنتق من الفرح ، وأخذ يردد مع نفسه بصوت مسموع:

- أنت عبقري يا حاج آدم الملا.. أنت مذهل.. أنت كارثة بشرفي..

أحس بالتعب من حركته الدائرية التي استمرت لدقائق ، فجلس على الكنبة ثانية ، ثم أخذ يفكر بكل الحديث الذي جرى بينهما ، وأخذ يسأل نفسه : كيف أتتك فكرة أنك كنت َ مضطرا ً لإغتصابها ، وللعب دور المفاوض ، والمهدد لها ، لأن ابن اختك مختطف؟ يا لعبقريتك الجهنمية .. وكيف لمحت لها بأنك أنت من اغتصبها اضطرارا ً. الآن علي ّ أن أضبط الخطة

جيدا ً.. السمكة ابتلعت الطعم ، وعلي ّ الآن أن أجيد مسألة شد الخيط وإرخائه .

ظل جالسا ً في مكانه لفترة ليست بالقصيرة ، مستغرقا ً في أحلامه الشبقية . وبعد عشرين دقيقة نهض متوجها ً إلى غرفة الحمام . بقي هناك لأكثر من عشر دقائق ، ثم خرج متوجها ً إلى المطبخ . أشعل الطباخ ، وأخذ يعد لنفسه العشاء.

في صالون بيتها الواسع حيث يتوزع أكثر من طقم من الآرائك المصنوعة من خشب الزان والمجندة بالقطيفة الخضراء ، كانت حواء ذوالنورين جالسة وحيدة . في ثوب بيتي . وكانت الصالة مضاءة بثريا ، تسحب طاقتها الكهربائية من مولد خاص في البيت.

كانت تعاني من تيارات جارفة من المشاعر المتطرفة جدا ً في تناقضها ً، فهذا الاتصال ، مع هذا الشخص الذي اسمه آدم الملا ، كان صادما ً لها ً. أول الأمر ارتعبت حينما رأت الرقم وعرفته ، إذ أول ما تبادر إلى ذهنها ، هو أنهم يريدون مالا ً مرة أخرى ، أو أنهم قتلوا ابنها ويبلغونها باستلام جثته ، إلا أن نبرة صوت المتصل منحتها شيئا من الأمل ، بأن لا شيء مما كانت تفكر فيه وراء الاتصال ، ثم كان الرجل مهذبا ً معها ، ويبدو أنه فعلا ً كان مضطرا ً، للقيام بدور المفاوض .

حاولت أن تسترجع ذكرياتها عن ذلك اليوم الحاسم في حياتها ، في تلك الشقة التي تقع في إحدى أزقة شارع فلسطين الخلفية ، وأخذت تبحث عن ملامح هذا الرجل الذي قام بإغتصابها .. نعم الآن تذكرته . ماذا كان اسمه؟ سألت نفسها ، ثم أجابت عليها : آدم الملا .... الغريب أنه كاشفني بحبه لي ، وتذلل لها ، وتوسل ، ولا يريد سوى أن يكفر عن خطيئته بحقي ، فلماذا أرفض ذلك؟ ماذا لو كان يكذب؟ لكن لماذا يكذب؟ لو أراد لهددني بالشريط الذي لديه ، وأخذ مني ما يريد ، لكن الرجل أبدى ندما ً حقيقيا ً، وأنه كان مضطرا ً بسبب اختطاف ابن أخته أيضا ... لكن لماذا لم يأت ابنها إليها وذهب إلى بيت صديقه قابيل العباسي؟ نعم .. البيت الرابع ذو الباب الزرقاء ، الذي يقع في الفرع الذي خلفهم ، هو بيت قابيل العباسي .. سأحاول الاتصال به . كانت حواء ذوالنورين تحدث نفسها بصوت داخلي مسموع.

أخذت سماعة الهاتف الأرضي كي تتصل ، فلم تكن هناك حرارة في الخطوط ، ففتشت في دفتر كان على الطاولة التي عليها جهاز الهاتف ، قلبته ، وأخذت تطلب الرقم من جهازها النقال . بعد لحظات ، سمعت

صوت صديق ابنها قابيل العباسي الذي أجاب بصوت خائف:
- ألو.. نعم..
- مساء الخير.. أستاذ قابيل.. أنا حواء ذوالنورين..
- أهلا مدام حواء.. كيف الحال.. من المؤكد أنك تسألين عن آدم..
- أكيد.. وإلا لما أزعجتك في مثل هذا الوقت.. قل لي رجاءً، هو عندكم؟ هل هو بخير؟..هل لي أن أتكلم معه؟..لماذا لم يأت إلى البيت؟
إمتد صمت بينهما لثوان ، فهو لم يتواصل معها مباشرة ، ويبدو أن ابنها كان قريبا منه ، لأنه بدا لها وكأنه يتحدث مع شخص ما ، ثم جاء صوت قابيل العباسي مترددا ً:
- مدام حواء... الأخ آدم في وضع نفسي تعبان.. ويحتاج إلى الراحة.. ولا أعرف لماذا.؟ لا يريد الان العودة إلى البيت.. يقول إنه لا يريد أن ترينه بالحال التي هو فيها..
فصرخت حواء ذوالنورين:
- ماذا به..؟ لماذا لا يريدني أن أراه..؟ هل عذبوه..؟ هل شوهوه..؟
- يبدو كذلك..مدام حواء... شفتاه متورمتان قليلاً، وثمة آثار كدمات على وجهه وجسده.. يبدو أنهم عذبوه.. لكن في كل الأحوال الحمد لله على السلامة... هي أيام وسيعود كما كان يفيض بالصحة والعافية والجمال..
فصرخت حواء ذوالنورين بلهفة:
- لماذا لا يأتي إلى البيت إذاً..؟ سأتصل بالأطباء ليعالجوه في البيت.. ليأتي حالاً..
امتدت فترة صمت بينهما ، لآن قابيل العباسي لم يجبها مباشرة ، ثم جاء صوته:
- مدام حواء... إنه في وضع نفسي صعب.. دعيه الليلة هنا.. وغداً سيأتيك إن شاء الله...المهم هو الآن حي يرزق كما يقال.. وهو عندي.. واعتبريه عندك.. أنا أعرف لهفتك لرؤيته.. وسمعت بالعذاب الذي تحملتيه، والعقار الذي بعته، وكل تلك المعاناة خلال كل هذه الأيام العصيبة الفائتة.. لكن ليس أمامنا سوى أن نقول الحمد لله على السلامة.. أما هؤلاء الخنازير.. الصفويون.. فلا بد أن يدفعوا الثمن غالياً..
كانت حواء ذوالنورين خائفة من حماسة قابيل العباسي ، وتلويحه بالإنتقام ، فهي كأم لا تريد الآن سوى سلامة ابنها الوحيد .. وكانت متعطشة لرؤيته ، ولسماع صوته ، فقالت:
- دعني أكلمه.. مشتاقة لسماع صوته..

امتد صمت بينهما أيضا ، ثم جاء صوت قابيل العباسي:

- هو في حالة نفسية صعبة...لا يستطيع الحديث.. صدقيني.. اتركيه هذه الليلة..وها أنت قد اطمأن قلبك عليه.. فلا تقلقي... غداً إن شاء الله سيأتيك..

- لكني مشتاقة له... هل يمكنني أن آتي الان لرؤيته على الأقل..؟

أمتد صمت بينهما أيضا ، ثم جاء جواب قابيل العباسي:

- اصبري إلى الصباح يا مدام.. الصباح رباح..كما يقال.. إنه لا يريد رؤية أحد..

- ولا حتى أمه؟

- لا أحد مدام..

- طيب.. ألا يحتاج لطبيب؟ كي أتصل بمعارفنا من الأطباء

- لقد، اتصلت قبلك بطبيب صديق لي، وجاء إلى هنا، وأعطاه بعض الحبوب والمراهم.. الأمور بسيطة جداً.. هي حالة نفسية أكثر مما هي جسدية.. صدقيني.. أنه في حالة نفسية صعبة جداً..

صمتت هي للحظات ، ثم أنهت الاتصال قائلة:

- شكرا جزيلا عزيزي قابيل.. غداً سأتصل بك بعد العاشرة..لأترككما تنامان لفترة أطول..وآسفة على الإزعاج.. تصبحون على خير..

- لا تقلقي..المهم.. لقد تأكدتِ الآن بأنه موجود عندي في البيت.. الحمد لله على سلامته.. وتصبحين على خير.

بعدما أنهت مكالمتها ، أخذت تفكر مع نفسها ، محاولة أن تفسر عدم عودة ابنها إلى البيت وذهابه إلى صديقه قابيل العباسي ، بالرغم من أنه أبدى أمامها ذات مرة انطباعا ًسلبيا ًعنه ، بأنه من المتعصبين الطائفيين ، فما الذي دعاه إلى أن يذهب إليه مباشرة ؟ ولماذا رفض أن يتحدث معها؟ ورفض أن تزوره لتراه؟ ما الذي جرى له خلال هذه الأيام الثلاثة؟ هل يا تُرى اغتصبوه مثلما فعلوا معها ، لذا فهو منكسر النفس ولا يستطيع رؤيتها؟ هل شوهوا وجهه الجميل ، لذلك لا يريد أن تراه؟ لكن لو كان الأمر كذلك فإلى متى سيخبىء حاله؟ فجأة ، برقت في ذهنها فكرة جمدت الدم في عروقها ، وشلت حركتها ، ماذا لو أنهم كانوا قد أروه الفيديو الذي صوروه لها؟؟ إنها ستكون كارثة حقيقية؟ فهما لا يستطيعان ، بعدها ، النظر إلى بعضهما البعض ، وربما هذا هو السبب الذي دفعه إلى عدم العودة إلى البيت ، نعم أكيد أنهم عرضوا عليه الفيديو الذي يصور اغتصابها . وبدون إرادة منها أخذت تبكي ، وتنوح ، وتندب قدرها البائس ،

وتشتم الأميركان الذين احتلوا البلاد ، وسلموا السلطة لأناس يملؤهم الحقد الأعمى.
استمرت تبكي إلى أن أحست بالتعب ، وبجفاف مآقيها من الدمع . كيف لها أن تتأكد من أنهم لم يعرضوا له الفيديو؟ إن ابنها ، حتى لو كان قد شاهده ، فأنه لن يقول لها ذلك ابدا ً، وليس أمامها إلا الإتصال بهذا الرجل الغامض ، العدو الصديق ، أن يخبرها ، فهو كان طوال الوقت معه ، وهو الذي نقله بعد أن أطلقوا سراحه .. أخذت الهاتف الذي كان قربها ، وضغطت على رقمه ، وانتظرت.
رن الهاتف . كان الحاج آدم الملا قد انتهى من تناول وجبة العشاء ، وكان قد أعد الشاي لنفسه ، لكنه لم يشربه بعد.
لم يصدق ما رأته عيناه . فهذا رقمها؟ وها هي تتصل به في هذا الوقت المتأخر من الليل .. ؟ إذن ، بدأت التفاحة تنضج يا آدم .. يا عبقري .. هكذا كان يدلل نفسه.
أراد أن يجيبها ، لكنه فجأة توقف . قال مع نفسه ، لأترك التفاحة تنضج ، لتتصل بي مرات عدة ، لا بد أنها تحتاجني ... إذا اتصلت مرة أخرى ، فهذا يعني أنها تريد التواصل معي ، وإذا لم تتصل ، فهذا يعني أنها غير مهتمة كثيرا ً.
لم يجبها على إتصالها بالرغم من أنه كان يتحرق للحديث معها . توقف الهاتف عن الرنين . أحس بالراحة لتوقف الرنين ، وإلا لكان يضعف أمام رنين هاتفها ، فيجيبها . ظل ينتظر على قلق وهياج واضح ، وبعد أقل من دقيقتين رن الهاتف ثانية . أخذ الهاتف وأراد أن يجيب لكنه أمتنع عن الرد ثانية . قال لنفسه ، لأجعلها تشتعل من أجل سماع صوتي والاتصال بي ، بغض النظر عن دوافع اتصالها ، فكلما ازدادت اتصالاتها غير المجابة ، كان يعني تعمقا ً في العلاقة.
توقف الهاتف عن الرنين . تفجرت فيه رغبة بأن يتصل بها ، لكنه قاوم رغبته ، ولكي لا يشعر بالضعف أمام رغبته ، أخذ الريموت كونترول ثم بدأ بالتنقل بين القنوات الفضائية ، وتوقف عند إحدى القنوات التي كانت تغطي مجلسا ً لأحد العلماء الدينيين . وبعد دقائق أخرى رن الهاتف ثالثة ، فلم يستطع المقاومة أكثر ، فأطفأ التلفزيون ، ليجيبها:
- ألو..
كان صوتها حزينا ، منكسرا ً.
- نعم.. أهلا.. السلام عليكم.. أرجوك أن تطمئني قلبي.. هل عاد آدم إلى

البيت؟
فجاء صوتها حزينا:
- لا.. لم يعد..
- لم يعد؟ لماذا؟
- لا أعرف.. يرفض المجيء إلى البيت بحجة أن وجهه متورم من التعذيب.. هل هذا صحيح؟
أحس الحاج آدم الملا بالإرتباك ، فقال:
- ربما.. فهولاء الكلاب لا يعرفون الرحمة.. ويمكنهم أن يفعلوا أي شيء..
فقالت بنبرة فيها رجاء وتوسل خفي:
- أريد أن أسألك سؤالاً محرجاً قليلاً.. وأرجو أن تجيبني عليه بصراحة شديدة؟
- أنا طوع يديك.. إسألي ما شئت..بل اطلبي ما تشائين.. فأنا أحس أنني مدين لك بكل عمري لما بدر مني بحقك.. رغماً عني..
- ليس هذا مجال حديثنا.. سؤالي هو: هل إعتدوا عليه؟
صمت هو للحظات ، فرحا ً، فقد كانت تتحدث عنهم ، ولم تشركه معهم ، لكنه أراد أن يكسب بعض الوقت ، فقال:
- ماذا تقصدين اعتدوا عليه..؟ نعم...لقد ضربوه بقوة، وآذوه..
- لا أقصد ذلك... أقصد هل أعتدوا على شرفه؟
- لا.. لا... لا أعتقد ذلك...لا...لا.. أنا متأكد أن ذلك لم يحدث
- الحمد لله.. ولدي سؤال آخر..
كان هو فرحا ً للتجاوب الذي بدا منها معه ، وشعر بأنه أقنعها بكذبته ، بأنه ضحية مثلها ، وأراد أن يستفيد من حاجتها للمعلومات عن ابنها للتقرب منها أكثر ، فقال لها بحرارة تكشف عن عاطفته تجاهها:
- إسألي ما تشائين.. أتمنى الآن أن أكون عندك لأشرح لك كل ما جرى، وأجيب عن كل اسئلتك... إسألي..
صمتت لحظة ، فقد انتبهت لجملته بأن يكون عندها ليجيب على كل أسئلتها ، لكنها كان تريد أن تسأل السؤال المعذب لها ، فقالت:
- قل لي بصراحة..هل عرضوا الفيديو الذي صورتموني فيه، على ابني؟
فجأة ، وكأن هذا السؤال كان هو الإجابة السحرية على سؤاله عن عدم ذهاب ابنها إلى البيت مباشرة ، فقد سمع هو كل شيء عم ّا جرى لأمه ، حينما روى ، هو ، ما حدث بالتفصيل الممل للحاج هابيل ، لكن كيف سيجيب هذه المرأة الشهية ، الذي لا يفكر الآن سوى بها ، وبصورتها وهي

منحنية على الطاولة عارية أمامه ، فقال لها:

- لا أعتقد ذلك.. بل متأكد من ذلك..لكن ربما شتموك أمامه.. أو أي شيء من هذا القبيل..أما عرض الفيديو فلا أعتقد، لأن الذي صوره حفظه مع الكاميرا في مكان بعيد من المكان الذي كان فيه ابنك..

- الحمد لله...لقد أرحتني.. لقد كنت خائفة جداً من حدوث ذلك..

- اسمعيني جيدا.. أنا يمكنني أن أخاطر بحياتي لمساعدتك..

- مساعدتي...؟ أية مساعدة؟

- يمكنني أن أحصل على الشريط الفيديو المسجل لك، فأنا اعرف هو عند مَن.

صمتت للحظات ، ثم قالت بطريقة غامضة:

- تعرف أين هو؟

- نعم

- وكيف ستأتي به؟

- لا أعرف حالياً... لكن دعينا نتقابل.. وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل..

- نتقابل؟

- نعم.. نتقابل..ماذا في الأمر؟ أنا أريد أن أكفر عن خطيئتي بحقك.. لذلك أريد مساعدتك، ألا تريدين الشريط؟

صمتت للحظات ، ثم قالت ببطء ، واحتراس:

- وأين تريد أن نتقابل؟

انتبه لتبرة صوتها الحذرة ، ولكي يجعلها تطمئن له أكثر ، أجابها:

- في أي مكان تحددينه أنت..

- أحدده أنا؟

- نعم أنت..لكي تطمئني أكثر من أن الأمر لا يثير الريبة.. فأنا أحس أننا قريبان من بعضنا، أنت ضحيت بمالك وعرضك من أجل أن تنقذي ابنك... وأنا قبلت بأن أقوم بدور مفاوض ووسيط لعصابة من القتلة، وذلك من أجل إنقاذ ابن أختي.. لكني أحس أنني مذنب أمامك.. وأريد أن أخدمك طوال حياتي..

- على أية حال.. سنتكلم في ذلك لاحقا..

- ولماذا لاحقاً... علينا أن نطرق الحديد وهو حام..كما يقول المثل

- ماذا تقصد..؟

- أقصد أننا يجب أن نتحرك الآن.. ولا نتأخر.. لأن أي تأخير ربما سيعقد الأمور.. فربما سيغير هؤلاء السفلة من أماكنهم، وعندها ستتعقد مسألة

الوصول إلى الشريط..

- وماذا تقترح؟
- دعينا نلتقي غداً..في المكان الذي تقررينه أنت؟
- لنتكلم في هذا الأمر غداً..
- ولماذا ليس الآن؟
- لا..لا... غداً.. أنا لست مستعدة الآن..لا أستطيع أن أفكر بشكل سليم الآن..
- ليكن..غداً.. أتتصلين بي أم أتصل بك..؟
- أنا سأتصل بك..
- تصبحين على خير
- شكراً.. تصبح على خير

وأغلقت الهاتف . كانت تحس بمشاعر متناقضة تحاصر عقلها وروحها ، من هو هذا الرجل؟ ماذا يريد بالضبط؟ كيف يمكنها إستخدامه من أجل الحصول على شريط الفيديو .. ؟ أخذت تشعر بأن شريط الفيديو صار الآن أكبر تهديد في حياتها بعد أن تحرر ابنها من قبضتهم ، وعليها الآن أن تستغل مشاعر هذا الرجل الأحمق ، مغتصبها ، الذي صارحها بحبه بالتليفون ، كي تحصل على الشريط ، ولا ضير ان تستمر معه بلعبة الحب هذه ، لكن عليها أن تنبه ، عليها أن لا تخرج معه إلى أي مكان ، بل يكون اللقاء في منطقتها هي ، وليس في مناطقهم ، فإذا جاء إلى منطقتهم فهذا يعني أنه صادق في ما قاله بأنه ليس منهم ، ولكن ماذا لو رآني أحد من معارفنا في المنطقة؟ هل أدعوه إلى البيت؟ وماذا عن ابني؟ لا .. لا .. هذه فكرة مجنونة .. لكن لماذا أنا أفكرالآن به وبلقائه؟ علي أن أرى ابني الآن .. لا .. علي التفكير جديا ًبالحصول على شريط الفيديو ، فماذا لو هددوني بإرسال نسخة منه إلى ابني؟ سأموت من الخجل ، فهو لا يفهم أنني وافقت على ذلك من أجله هو ..

كان الليل كثيف الظلمة على منطقة المنصور ، وكان هدير المولدات هو المهيمن على تلك الليلة الحالكة السواد . وكانت حواء ذوالنورين مثل ملكة مهجورة في قصرها البعيد في وادي الظلمات ..

لم يصدق الحاج آدم الملا ما حصل بينه وبينها ، أخذ يحدث نفسه ، هل يا ترُى النساء كلهن هكذا؟ فكر مع نفسه كيف أنها سهلة لهذه الدرجة ، فبرغم أنها مثقفة ، خريجة كلية الآداب بجامعة بغداد ، إلا أنها كأية مراهقة ، دخلت الشبكة من خلال كلمات الحب ، وتملقها بالحديث

عن جمالها ، لكنها من جانب آخر امراة طيبة . إنه يشعر بالإنجذاب إليها بقوة ، وهو يتمنى أن تكون له ، وتصير عشيقته ، أو يعيش معها بزواج المتعة ، فهو متزوج ، ولديه عائلة في إيران . استرسل الحاج آدم الملا في أفكاره بأن عليه أن يبتعد عن مجموعته هذه ، وأن يبقي الأمر سرا ً، وإلا فأنه سيواجه مشاكل لا أول لها ولا آخر .. ثم عليه أن يحصل فعلا ً على شريط الفيديو .. فهو ليس تهديدا ً لها فقط ، وإنما تهديد له أيضا ، لكن الشريط هو الآن عند الحاج آدم الأسير ، والكاميرا أيضا عنده ، وهذا شخص غامض ، وحقود ، ومتعصب ، ويمكنه أن يستخدم الشريط ضده ، لذا عليه أن يذهب إلى المكان غدا ً، أو يتصل به بطريقة مراوغة لمعرفة مكان الشريط ، وسرقته بطريقة ما ، أو يحاول أن يقنع الحاج هابيل بأخذ الشريط ، وإقناعه بأن الحاج آدم الأسير قد يستخدم الشريط ضده ، فمن المستحيل أن تقوم المرأة بالإخبار عنهم لأن الأمر سيكون بالنسبة لها فضيحة ، لكن الحاج آدم الأسير يمكن أن يستخدمه لأغراضه الشخصية ، وإذا ما حصلت ُ على الشريط فيمكنني أن أطلب منها مالا ً مقابلا ً له ، وإقناعها بإمكانية شراء الشريط ، ومن المؤكد ستوافق .. لكني سأستنسخه قبل تسليمه لها . وأخيرا ً، ابتسم لنفسه ابتسامة شيطانية لمخططه . ومد يده فرحا ً إلى الريموت كونترول ، وضغط الزر ، فظهر على الشاشة ، شيخ آخر ، يفسر التاريخ على هواه ، ظل يتابعه بمتعة .

قتـل عـادي .. عادي جـدا ً

حينما بقي الحاج آدم الأسير وحده في تلك الخرائب المهجورة ، وفي ذلك الوقت من تلك الليلة المظلمة التي غاب فيها القمر ، أحس بفرح شيطاني ، فقد صار مديره الأستاذ قابيل الفهد في سجلات العدم ، ومصيره الآن بين يديه ، هو الذي يقرره ، فهو بالنسبة للحاج هابيل والبقية قد حكم عليه بالإعدام ، وحينما غادر الجميع هذا المكان ، كانوا على يقين بأنه سيقتل بعد قليل وترمى جثته في حفرة ما خلف الخرائب وعلى أطراف البساتين.

أحس الحاج آدم الأسير بأنه سيد المكان ، وأنه اللاعب الأمهر بين كل هؤلاء . صحيح إنه شارك الحاج هابيل في ذبح الصحفي آدم المحروم ، لكن ذاك كان متلبسا ً بالجرم ، فقد كان يعيش في بيت الحاج آدم الزاهد ، وراقبوه ، وتأكدوا من بقائه وحيدا ً مع أرملة أخي الحاج هابيل وحدهما في البيت ، وهذا بحد ذاته جرم يكفي لإدانته ، لكن تلك الزانية لم تخجل من فسوقها وزناها ، فقد اعترفت للمحققين عن علاقتها به ، وقدمت الأدلة على قيامهم بذلك الفعل الشرعي ، وهو ذبح عشيقها الفاجر آدم المحروم ، ولولا هروبي وإختفائي ، لكنت الآن في السجن مثل البقية ، وهذا الحاج هابيل اشترى نجاته وهروبه من السجن بعشرات الآلاف من الدولارات ، الحقير استولى على سبعين ألف دولار من فدية ذلك الخنزير ابن الخنزيرة العاهرة .. لقد كنت أراقب وجهها حينما كان آدم الملا ينكحها ، لقد كانت منتشية ، ولولا وجودي لكانت تتوسل به وتصرخ شبقا ً كأية خنزيرة .. أما هذا .. قابيل الفهد .. فقد رتبت كل شيء.

كان الحاج آدم الأسير يفكر في أعماق نفسه بصوت عال ، غاضب ، مكتوم ، الحاج هابيل .. بعد أن سرق سبعين الفا من الدولارات ، يريدني أن أقضي على قابيل الفهد ببساطة .. لقد خططت لكل شيء مع الحاجة حواء آل حجر .. لقد أرسلوا لي شهادة بكلوريوس جاهزة .. مصدقة من كل الجوانب ، والجماعة في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي لم يقصروا . فقد صدقوها ، واعترفوا بها ، وأمتلأت بالأختام ، بل لقد أدخلوها الكمبيوتر .. كما جهزت لهم الماجستير أيضا .. لكنهم يترددون قليلا ً، فبعض أعضاء اللجنة تم نقلهم ، وعلي الانتظار .. هذا يعني أنه يمكنني أن أترشح لأكون مديرا ً للمدرسة بدلا ً عن هذا العلماني الفاسق قابيل .. هه . هه .. من خريج ابتدائية لم يكمل المتوسطة إلى ماجستير في الآداب ... بل سأطلب منصب مدير المدرسة ... وصاحبنا الوزير سيصدر أمرا ً بذلك .. هو نفسه

مثلي .. شهاداته كلها مزورة .. بل وذلك معروف للإعلام .. ويتحدث عنها الناس جميعا ً.. وبرغم ذلك صار وزيرا ً.. هذا زمانك يا حاج آدم الأسير .. لا تضيّع الفرصة ، فهي تأتي لمرة واحدة في العمر ... إذهب والريح خلفك .. سأحاول الإتصال بمجموعتنا في الكرخ ... لكن هل أنا مخطئ بحق قابيل الفهد؟ لماذا يسأل عنه أناس فاضلون ، شيوخ ، ومسؤولون في أحزابنا .. صحيح إنه من مذهبنا ، لكنه علماني لا يؤمن بنا ، بل ويسفه ما نعتقد به .. إنه أخطر من الأعداء المعروفين .. فكيف يسألون عنه؟ بل .. أعتقد أن هذا يعني بأنه يمكنني أن أطلب فدية جيدة عنه ، ما دامت لديه كل هذه العلاقات .. هه .. هه .. هذا الحاج هابيل غبي .. لا يفكر إلا بفرج زوجة أخيه .. لقد نسي الكاميرا وشريط تلك القحبة ، هنا ..(توقف فجأة عن الإسترسال في حواره مع نفسه ، إذ برقت في ذهنه فكرة ..) يا للهول .. كم أنا غبي .. وكنت أعتقد نفسي الأذكى بين الجميع .. كيف فاتني أن أستخدم الشريط لابتزاز هذه العاهرة التي تتربع على مئات الآلوف من الدولارات .. (بهتت حماسته إذ تذكر شيئا ً).. لكني لا أعرف رقم هاتفها .. إن الحاج آدم الملا هو الذي كان يتصل بها ، أو تتصل به .. علي إذا ً أن أتقرب من الحاج آدم الملا .. لأحصل على تليفونها المخزون تحت اسم : آدم بن حواء .. نعم .. سأحصل من خلال ذلك على مبالغ أكثر بكثير من المخاطرة بالتنقل مع هذا الأستاذ .. ثم .. لقد غاب عن ذهني أنه لو بقي حيا ً فلن أصير مديرا ً.. لأنه لو تم إطلاق سراحه لعاد إلى وظيفته ، بل ربما هو انتبه لصوتي أيضا .. يعني لا فائدة من خطتي لإطلاق سراحه مقابل مبلغ من المال .. لا .. لا .. أمره خطير ، لأن من يسأل عنه هم من جماعتنا ، وهذا يعني بأنهم سوف يعرفون أين كان ، ومن اختطفه ، لاسيما وهو قد عرف الحاج هابيل أخي زوج الفاسقة حواء الزاهد ، بشكل لا يقبل الشك ، حينما أخذ يكلمه بشكل صريح عنها .. لا .. لا .. يجب القضاء عليه ، ثم أنتقل لخطتي الأخرى بالحصول على المال من تلك الخنزيرة مقابل شريط الفيديو .. المهم .. يجب أن أجاري الحاج آدم الملا ، قبل كل شيء ، من أجل الحصول على رقمها ، حتى لو وصل الأمر بي إلى سرقة جهازه النقال..

كان الحاج آدم الأسير يتنفس بصعوبة ، ويشعر بنبضات قلبه تتصاعد ، وكان يمشي في تلك الغرفة بشكل دائري ، مثل ضبع محصور في قفص ، وهو يفكر بالطريقة التي عليه قتل قابيل الفهد.

في الغرفة الأخرى كان قابيل الفهد مشدودا ً إلى الكرسي في وسط الغرفة

المعتمة . كان خائفا ً، بل مرعوبا ً، من المصير الذي ينتظره . كان ينتظر الموت . منذ مغادرة الحاج هابيل الغرفة ، ومجيء ذلك الرجل الذي أخبره بأنهم سينتهون منه الليلة ، وهو ينتظر مرعوبا ً لحظة قتله.
لم يستطع أن يركز على شيء محدد ، إذ كان عقله وروحه يتنقلان بشكل سريع وخاطف على كل شيء . حياته مرت أمام عين ذهنه سريعا ً جدا ً، وممنتجة بشكل سيىء . لقطات من الطفولة مع لقطات من حياته الجامعية .. مشهد أماسي الصيف على سطح الدار في مدينته البعيدة .. مشهد شجار نساء الجيران في شارعهم وسبابهن المليء بالعبارات الجنسية .. مشهد بائع البطيخ الأحمر وهو يصرخ في وسط سوق المدينة ، شارطا ً حزا ً من البطيخ الأحمر بالسكين ، ليخرج قطعة من اللب الأحمر ، وهو يرفعه عاليا ً مناديا ً الناس لشراء البطيخ الأحمر القادم من سامراء .. مشهد بائعات الحليب وهن يتوسطن ساحة السوق ، وأمام كل منهن صينية فيها طاسات اللبن الرائب .. مشهد يوم الثامن من شباط والانقلاب على عبد الكريم قاسم .. سيارات الحرس القومي وهم يحملون رشاشات بورسعيد .. مشهد حواء الزاهد وهي تدفع عربة طفلها الرضيع ، لتوصل ابنها آدم إلى المدرسة صباحا ... ومرة أخرى .. مشهد شاطئ دجلة في الصيف ، وهو مع بقية أبناء محلتهم يسبحون .. مشهد آدم الشبيبي الذي تعرف عليه في مكتبة بشارع السعدون ، حيث كانا يستعرضان الكتب الموجودة ، وكل منهما مد يده على كتاب (التعذيب في الإسلام) لهادي العلوي ، فابتسم كل منهما للآخر .. مشهد السيارة التي طاردته ، والوجوه التي رآها .. صوت الحاج هابيل وهو يفح عند شتمه حواء الزاهد .. ومرة أخرى مشاهد من الطفولة .. مشهد وهو صبي ينبه لمصلي الجماعة في مسجد المدينة عن حركات الشيخ الذي يؤم المصلين..
استغرقت هذه المشاهد وقتا ً أطول من غيرها .. فكر في ذلك الصبي الذي كانه .. إنه هجر إيمانه القديم ، وشكك في كل الروايات المليئة بالمبالغات ، التي وصلت ، وكشف عن تفاهات الكثير من جانب العقيدة التي كان يؤمن بها .. وبالرغم من أنه توجه لعقائد أخرى ، لكنه لم يصل إلى يقين جديد .. هل يقبل بالإيمان دونما قناعة ويقين ، أو يبحث عن الحقيقة .. عن اليقين؟ .. لقد نبذ الإيمان ولكنه لم يصل إلى الحقيقة .. ومرة أخرى ظهر من وراء الضباب وجه حواء الزاهد وهي في مكتبه .. مشهد خروجها .. مشهد الحاج آدم الأسير وهو يشتمها في مكتبه .. مشهد حارس المدرسة وساعي بريدها وهو ينبهه إلى ما يحاك ضده من مؤامرة يقوم بها آدم

الأسير والموظفة المحجبة حواء آل حجر .. صرخات الرجل المختطف في الغرفة المجاورة .. آدم ذو النورين ... بكاء آدم ذو النورين لما أصاب أمه من إهانات .. مشاهد عن احتمالات طريقة موته .. مشهد وهو على كرسيه الجالس الان عليه .. وأحدهم يقبض على شعره ويمرر نصل السكين الحاد على عنقه .. أحس بالرعب .. فهو يكره لحظة اختراق النصل للحم .. جرب حينما كان يحلق وجهه بالشفرت العادية ، ويحدث أن يجرح إصبعه أحيانا بالشفرة حين ينزعها .. شعور مؤلم .. فكيف إذن سيشعر حين يمر نصل السكين الكبيرة على عنقه .. ؟ فكر بأمه وأبيه ... شعر بالشفقة عليهما حينما سيسمعان بخبر مقتله .. تصورهما وهما يسمعان ذلك الخبر .. أحس بدموع حارة تملأ جفنيه بالرغم من قطعة القماش السوداء التي تشد عينيه .. شعر بالشفقة على نفسه .. فهو ما زال شابا ً، ولم يستمتع بالحياة كما ينبغي .. لم يكن يتصور أنه سيموت بهذه الطريقة البشعة قط ً.. لقد كان مليئا ً بأحلام نظيفة ، سواء نحو حواء الزاهد أم نحو بلاده .. سيموت .. لا أحد سيهتم لذلك .. سيسقط في النسيان ، حاله حال آلاف العراقيين الذين لقوا حتفهم في هذه الحرب الطائفية التي اشتعل أوارها .. وستحرق كل شيء .. سيقتلونه ويردمونه في حفرة منسية..

أحس جسده يرتعش .. توقف عن تداعياته حينما سمع صوت السيارة الهادر وهي تبتعد عن المكان . ماذا يعني هذا؟ هل أجلوا أمر القضاء عليه؟ هل سيستجيبون لضغوطات هؤلاء الذين يبحثون عنه من جماعاتهم ، الذين لا يعرفهم؟ هل تأكدوا أنه بريء؟ ماذا يعني هذا؟ وما هو الوقت الآن .. ليل أم نهار؟ ... إنه يحس بضغط لقضاء حاجته .. لكنهم رحلوا .. فجأة .. سمع حركة ، وانتبه لدخول أحدهم إلى الغرفة . شله الرعب . توقف عن التفكير في أي شيء سوى بهذا الداخل عليه ليقبض روحه ... تمنى لحظتها لو يُصاب بالسكتة القلبية ويموت حالا ً دون أن يتعرض لذلك الشعور الساحق ، ولو لثوان ، بمرور النصل على لحمه الحي ، وعلى رقبته..

دخل الحاج آدم الأسير إلى الغرفة وقد تحزم بمسدس ، وسكين كبيرة .. ضغط على زر الكهرباء فأضاء الغرفة نور شاحب من مصباح معلق في وسطها . كان في حالة نفسية متهيجة ، لكن وجهه كان يوحي وكأنه مريض .. نظر إلى قابيل الفهد المشدود إلى الكرسي ، والمعصوب العينين .. كانت تنتابه أفكار شيطانية متباينة .. لقد أسقط خطته بأن يأخذه إلى مكان آخر .. إذ قرر قتله ، لكن كيف .. ؟ هل يرحمه بإطلاق النار عليه

أو يذبحه بالسكين ، ذلك هو السؤال؟ ثم هل يذبحه بالسكين ليموت بعد دقائق مباشرة ، أم يقطعه شيئا فشيئا ً؟ لا .. لا ... وقت لديه لذلك .. عليه أن يذهب قبل دخول بغداد في وقت حظر التجوال الليلي .. ثم أنه ليس ذاهبا لبيته وإنما عند قريب له في منطقة الحسينية المجاورة ، لذا يجب أن لا تتلوث ملابسه بالدم .. إذن عليه أن يعدمه رميا ً بالرصاص.
تقدم من قابيل الفهد ، استدار خلفه ، وأخذ يفك وثاقه عن الكرسي ، لكنه ، فجأة ، توقف ، بل أعاد شد الوثاق . تراجع إلى الوراء وقد اجتاحته فكرة انتقامية مليئة بالحقد والنشوة في إذلال الآخر .. سحب مسدسه ، وجهزه للرمي .. تقدم وبيده المسدس من قابيل الفهد . سحب العصابة السوداء من عينيه .. كان قابيل الفهد يحاول ان يتأقلم مع النور بعد كل هذا الوقت من الظلام ، لذا فلم يسعفه الوقت كي يتبين الأشياء بوضوح ، حينما جاء صوت الحاج آدم الأسير الطبيعي ، العصبي ، والمليء بالحقد ، سائلا ً:

- هل تعرفني..؟

حالة قابيل الفهد النفسية لم تسمح له أن يسمع بوضوح ، فلم يجب ، فصرخ الحاج آدم الأسير به ثانية:

- هل تعرفني يا أستاذ قابيل..؟

بعد ثوان ، تمتم قابيل الفهد ، بإستسلام تام:

- أستاذ آدم الأسير..!

أجاب الحاج آدم الأسير بعصبية:

- نعم..الحاج آدم الأسير.. وليس الأستاذ آدم الأسير.. الأستاذية تركناها لكم أيها العلمانيون الكفرة..

صمت قابيل الفهد . لم يرد وهو ما بين الحياة والموت أن يجادله ، لكنه أراد أن يثير جوانب الطيبة فيه ، فقال له بلهجة أقرب إلى الرجاء ، وبصوت متعب جدا ً، بالكاد ي ُسمع:

- ولكن لماذا تفعلون بي كل هذا؟ أنت تعرف بأنه لا علاقة لي بالسيدة حواء الزاهد..

فصرخ الحاج آدم الأسير بصوت أقرب للنباح:

- ما زلت تنكر؟ ألم أراكم معاً في المكتب؟ ألا تعرف بأنها ولدت طفلاً نغلاً من عشيقها السابق؟

- أنا ليست لي علاقة بكل هذا.. وقد جاءت لتأخذ ابنها من المدرسة لأن لديها موعداً عند الطبيب.

صمت الحاج آدم الأسير لثوان ، فكر مع نفسه أنه ربما كان الأمر كذلك ، إلا أن حقده كان أكبر من أن يمنحه فرصة لمراجعة نفسه ، فقال:

- لكنك كنت تنوي أن تقيم علاقة معها، أليس كذلك؟
- هذا غير صحيح
- أتكذبني..؟ أنا نفسي راقبتك أكثر من مرة وأنت تنظر إليها بعيون مليئة بالشهوة، نظراتك كانت نجسة..
- هذا غير صحيح.. أنا أستقبل الجميع بنفس الطريقة... واجبي أن أرحب بالجميع..
- كفى أعذار.. أنتم العلمانيون فاسقون.. يجب القضاء عليكم.. مشكلتنا ليست مع أبناء الجماعة.. مشكلتنا معكم أنتم.. أنتم البلاء.. أنتم السرطان الذي سيدمر الإسلام.. لدينا أوامر بالقضاء عليكم جميعاً.. أنتم الذين تسخرون منا، سنريكم من نحن.. (وسنريهم آياتنا في الأرض..)

كان الحاج آدم الأسير في حالة هستيرية وهو يصرخ بأعلى صوته الذي يتسم ببحة ، فيخرج صوته وكأنه نباح كلب ، وفي حمى حماسه العقائدي أطلق النار على قابيل الفهد .. طلقات عدة تناثرت على الصدر والكتفين والبطن ..

مرت لحظات ثقيلة من الصمت . لم يكن هناك سوى روائح كريهة وشيئا ً خفيفا ً من رائحة البارود .. نظر الحاج آدم الأسير أمامه فوجد أن قابيل الفهد قد إنقلب مع كرسيه إلى الخلف ، وبقعة الدم بدأت تتسع تحت الكرسي .. فقد مات قابيل الفهد فورا ً.. أحس بالرعب ، فقد قتل مديره في العمل .. ماذا يفعل الآن؟ عليه التخلص من الجثة ، لكن أين سيدفنها؟ لماذا لم يأخذه إلى البستان القريب؟ أنه هو السبب ، فقد أراد أن يزيد من عذابه ، ويكشف له نفسه في اللحظات الأخيرة قبل أن يقتله .. أما كان بإمكانه أن يفعل ذلك في البستان؟ تف عليك يا حاج آدم .. كنت تعتقد نفسك ذكيا ً، وتلعب بكل الخيوط ، وها أنت تواجه جثة مديرك ، الذي يبحث عنه مسؤولون كبار .. ماذا ستفعل؟ عليك التخلص من الجثة .. كان يحادث نفسه بصوت عال .. فجأة ، برقت في ذهنه فكرة ، أن يسحل الجثة من قدمها إلى البستان القريب .. لم يفكر طويلا ً. وضع مسدسه في حزامه من جديد .. فك وثاق الجثة المشدودة إلى الكرسي .. ودفع الكرسي جانبا ً فانهدت الجثة على الأرض .. خرج من الغرفة باحثا ً عن حبل ليربطها به .. ذهب إلى الغرفة الأولى التي يجتمعون فيها ، نظر إلى الطاولة التي عليها كاميرة الفيديو وموبايل قابيل الفهد ... خرج منها ،

وذهب إلى الغرفة الثالثة .. لم يجد شيئا سوى المثقاب الكهربائي ، والسكاكين الطويلة كالسيوف .. ومفكات البراغي بأحجام مختلفة ، ومناشير حديدية مختلفة الأحجام..

دخل الغرفة الثانية . فكر مع نفسه بأن المكان إلى البستان ، صحيح أنه مجاور للخرائب ، إلا أن الحفرة التي دفنوا فيها الأستاذ الجامعي ، تحتاج لوقت مع جثة تسحل أرضا ً.. ثم أن الجثة ستترك أثرها على الأرض ، وهذا يعني أن تتبع الأثر سيقود إلى المكان .. ماذا يفعل الآن .. ؟

رفع قدمي الجثة .. وهم بسحبها ، إلا أنه ترك الجثة .. انبثقت في ذهنه فكرة جديدة .. عليه الإتصال بقريبه الذي يسكن في منطقة الحسينية المجاورة ، إذ أن لديه سيارة ، ويمكنه أن يساعده في النقل .. مد يده في جيبه ، وأخرج جهاز هاتفه النقّال وطلب رقما ً.. بدأ عصبيا ، ومستعجلا ً، إلا أن الطرف الآخر لا يجيب .. حاول مرات عديدة .. لكن دون جدوى .. قرر أن يذهب إليه بنفسه .. صحيح أن الوقت سيتأخر .. لكن عليه التخلص من الجثة الآن .. نعم .. عليه الآن الذهاب سريعا ً إلى قريبه.

أخذ المصباح ، ثم أطفأ المولدة الصغيرة ، وغادر المكان قلقا ً.

حديقة اللذة القاتلة

إستيقظت حواء ذوالنورين مبكرة على غير عادتها ، فالساعة الآن تشير إلى السابعة ، فقد تعودت منذ أن تزوجت أن تستيقظ ، يوميا ً، ما بين التاسعة والعاشرة صباحا ً، وحتى حينما قُتل زوجها واختطف ابنها ، فأنها كانت تسهر الليل كله في التفكير لكنها كانت تستيقظ منتصف النهار . هذه المرة مختلفة . فبالرغم من سهرها إلا أنها استيقظت مبكرة . وبنشاط غير عادي.

أعدت لنفسها القهوة . جلست في الشرفة المطلة على حديقة المنزل الخلفية . لم تكن قد نامت إلا قليلا ً. قضت ليلها العاصف تمخر عباب أفكارها المتلاطمة . كانت لا تخاف إلا شيئا واحدا ً، هو أن يقع شريط الفيديو بين يدي ابنها ، عندها تفضل الإنتحار على أن تنظر في وجهه ، لذا وضعت خطة مغامرة من أجل الحصول على الشريط ، خطة يمكن أن تضيعها مرة أخرى ، أو أن تنقذها بشكل نهائي.

بعد ساعة من ذلك أخذت حماما ً دافئا ً، ثم تزينت ، وارتدت ثيابا ً أنيقة متهيئة للخروج . أعدت لنفسها القهوة ثانية ، ثم عادت ، مع صينية القهوة لتجلس مرة أخرى في الشرفة . أخذت تنظر إلى أشجار الحديقة المغبرة ، وإلى الحشيش المهمل ، الذي يحتاج إلى تشذيب . كانت الحديقة محاطة بسور عال تقريبا يفصل بينها وبين بيوت الجيران من الجوانب الثلاثة . صبت لنفسها قهوتها في الفنجان ، لكنها قبل أن ترتشف منها أي شيء نهضت ماشية نحو زاوية الحديقة حيث حنفية الماء المرتبطة بخرطوم طويل ومن الجهة الأخرى مرتبط موزع للمياه . فتحت صنبور الماء ، وبعد لحظات بدأ الماء يتناثر منتشرا ً بإتجاهات دائرية على العشب.

جلست ثانية على الكرسي وأخذت ترتشف قهوتها ، بمتعة ممزوجة بقلق غامض وإرادة مرتبكة . ماذا لو لم تتم الخطة كما تريد لها؟ حينها ستضيع كليا ً. لكن لو نجحت ستكون أسعد امرأة . انبثقت في ذهنها فكرة غريبة لم تخطر على بالها سابقا ً، لماذا لا تزوج ابنها آدم؟ فربما سيساعده الزواج بالخروج من محنته النفسية ، وأيضا يدخل امرأة أخرى في حياته ، فقد كانت سعيدة في أن تكون هي مركز حياته والمرأة الوحيدة فيها ، لكنها الآن تتمنى أن ينسى ذلك قليلا . ابتسمت مع نفسها بارتباك ، معلقة على هذه الفكرة ، بأنه لن يجد امرأة أجمل من أمه.

ظلت جالسة في الشرفة لفترة طويلة وهي تفكر في نقطة الإنطلاق بتنفيذ

فكرتها . أخيرا ً قررت التنفيذ . نظرت إلى ساعتها اليدوية فرأت أنها تشير إلى الساعة الثامنة وخمس دقائق . نهضت حاملة الصينية ، داخلة إلى الصالة.

جلست على الأريكة الفخمة في الصالة . فتحت حقيبتها الجلدية وأخرجت جهازها النقال . طلبت رقما ، وبقيت للحظات تنتظر.

* * *

لم يكن الحاج آدم الملا صاحيا ً بالكامل ، حينما سمع رنين هاتفه الذي ربطه بالقابس في غرفة الإستقبال . كان للتو قد فتح عينيه ، حيث بقي ساهرا ً إلى وقت متأخر جدا ً قضاها مفكرا ً بالطريقة التي عليه أن يحصل فيها على الشريط تارة ، وتارة أخرى يعيش أحلام اليقظة مع حواء ذوالنورين ، إلى أن جاء صوت المؤذن من المسجد القريب ، فقام مؤديا ً صلاة الفجر ثم آوى للفراش.

فكر بإحتمال أن يكون الحاج هابيل يتصل به لأمر ما ، أو وهذا إحتمال ضعيف ، أن يكون الحاج آدم الأسير . لم يخطر بباله أن تكون حواء ذو النورين تتصل به في مثل هذا الوقت ، فكل الإحتمالات التي وضعها والخطط وأحلام اليقظة لن تصل به إلى أن يتوقع إتصالها به في صباح اليوم التالي مباشرة ، وفي مثل هذا الوقت.

نهض بتكاسل . توقف رنين الهاتف . لم يستعجل ، إذ قرر أن يتصل في ما بعد ويعتذر أنه كان في الحمام ، أو أنه كان نائما وقد وضع الهاتف على الوضع الصامت . تمطى ليذهب عنه النعاس . ومضى ليعد لنفسه الفطور.

* * *

أرادت حواء ذوالنورين أن تتصل مرة أخرى ، لأن الطرف الآخر لم يجب على إتصالها ، لكنها ترددت ، فربما يكون جالسا ً وسط عائلته يتناول فطوره ، أو هو نائم لحد الآن ، ثم عليها ألا تلح بالإتصال كي لا يشك بنواياها ، فمن غير المعقول أن تركض المغتصبة وراء مغتصبها ، بالرغم من أنه كان مضطرا ً على فعل ذلك. .. ؟

نهضت إلى المطبخ حاملة دلة القهوة الفارغة . أعدت لنفسها شيئا ً من القهوة مرة أخرى . رجعت إلى مكانها وبيدها الدلة الصغيرة . صبت لنفسها شيئا من القهوة في فنجانها . جلست في مكانها نفسه . أخذت الهاتف واتصلت ، وبعد لحظات ، قالت بنبرة ترحيب وأسف:

- صباح الخير أستاذ قابيل.. أرجو أن لا أكون قد أيقظتك من النوم؟

فجاء صوت قابيل العباسي نشيطا ومرحبا ً:

- لا أبداً.. مدام حواء.. أنت على الرحب والسعة في أي وقت..
- شكراً جزيلاً أستاذ قابيل.. أردت أن اسأل عن وضع ابني آدم.. كيف هو الآن؟
- حالياً هو نائم.. لكن وضعه صعب مدام.. يبدو هؤلاء الحقراء قد آذوه كثيراً.. إنه محطم نفسياً..أعتقد أنه رآى هناك عند هؤلاء الروافض أشياء مرعبة..
فقالت بلهفة أم معذبة:
- هل يحتاج إلى طبيب.. إلى علاج.. إلى أدوية..؟
- لا أعتقد مدام.. لقد أخبرتك أن صديقي الطبيب مر عليه ليلة أمس.. وأعطاه بعض الأدوية..لكن أعتقد أنه ما زال تحت تأثير الصدمة.. لا أحد يعرف ما الذي فعلوه به هؤلاء الخنازير القادمة من وراء الحدود..؟
- لينتقم الله من كل ظالم..
- لينتقم الله منهم في الآخرة.. لكن لا بد أن ينالوا العقاب في الدنيا أيضا.. وهذه ليست مهمة الله.. وإنما مهمتنا. بالمناسبة مدام.. عندي سؤال.. أرجو أن لا يحرجك..
أحست حواء ذوالنورين ببعض التوجس ، فأجابت ببعض التردد:
- تفضل أستاذ قابيل إسأل..
- كما أعرف قد سلمت لهم فدية مائة الف دولار كي يطلقوا سراح آدم..صحيح؟
- صحيح..
- سؤالي.. هل قابلتهم..؟ أقصد هل رأيتهم..؟ كيف هم..؟ هل هم بشر مثلنا..؟
- هم بشر مثلنا.. مثلي ومثلك.. تماماً..
صمت قابيل العباس لحظات ثم جاء سؤاله مباغتا ً:
- وأين قابلتهم..؟
أحست أن عليها ألا تتمادى كثيرا في الحديث معه ، فقالت بطريقة ماكرة ، وحاسمة:
- أستاذ قابيل.. أنا متعبة من هذه القصة أساساً، ولا أريد أن أتذكر أي من تفاصيلها.. لقد كنت أريد أن أنقذ ابني من الموت..وصدقني..ربما في مرة قادمة يمكن أن أتحدث في هذا الموضوع.. والآن.. أعذرني.. عليّ أن أخرج.. لقد أردت أن أطمئن على وضع ابني آدم.. متى ستأتون اليوم.. هل أوصي من مطعم صمد على الطعام..؟

- لا تتعبي نفسك مدام.. حينما يقرر الأخ آدم الرجوع إلى البيت فسنكون عندك.. بعدها يمكننا أن نوصي على الطعام.. إنني أتفهم وضعك جيداً..
- شكراً جزيلا أستاذ قابيل لتفهمك.. مع السلامة
- في أمان الله
أغلقت الهاتف . أحست أنها فتحت جبهة أخرى من خلال حديثها مع قابيل العباسي ، وأخذت تسأل نفسها عن هذا المهندس المعماري ، الوسيم ، الذي كان ابنها يسميه أحيانا دون جوان المنصور ، لعلاقاته المتعددة مع النساء ، قد صار فجأة متدينا ً، محافظا ً، وتحول من شخص معروف عنه تحرره الأخلاقي والديني لحد الإستهتار ، إلى شخص حقود ، طائفي ، حو ّل مكتبه إلى وكر مريب ، بل سمعت صاحب السوبرماركت يمتدحه بأنه صار رئيسا ً لمجموعة تحاول أن تحافظ على المنطقة من دخول الغرباء ، الروافض ، وتطهرها منهم ، فقد أخذ يهدد ساكني المنطقة ممن ينتمون لهم ، بالرحيل عن المنطقة ، وألا سيكون مصيرهم الموت ، كما صار هو المسؤول عن المنطقة أمنيا ً. وقد سمعت أنهم إغتالوا مدرسا ً رفض أن يرحل عن داره ، في منطقة حي دراغ ، إذ إغتالوه صباحا ً أمام باب داره حينما كان يريد أن يوصل إبنته الصغيرة إلى مدرستها . الكل يعرف أنه هو ومجموعته ، لكن لا أحد يشير إليه علانية ، بل انتبهت إلى أن عددا ً من الجيران ، الذين تواجدوا في السوبرماركت حينها ، أيدوه في ذلك ، وأخذوا يمتدحونه كبطل ويدعون له ولجماعته بالخير والنصر . وصارهو ينظر إلى نفسه وكأنه المسؤول عن المنطقة ، بالرغم من أنه سابقا ً كان مسؤولا ً حزبيا ً أيضا ً، في الجيش الشعبي المنحل ، الذي كان أحد أيادي السلطة المقبورة . فما الذي جرى له كي يتحول هكذا؟ بل ما الذي يجري في هذه البلاد؟
لم تكن حواء ذوالنورين متدينة ، لكنها تربت على إحترام التقاليد الدينية ، سواء الإسلامية أم المسيحية ، فقد كان لديهم بعض الجيران من المسيحيين أيضا ، لكنها لم تفكر بتاتا ً، لا هي ولا زوجها ، بإختلاف المذاهب والأديان والقوميات ، وقد تربى ابنها آدم على ذلك أيضا ، بل إنه رفض التواصل مع صديقه قابيل العباسي ، لتعصبه المذهبي ، وهذا ما حيرها الآن هو أن ابنها لم يأت إليها وإنما توجه إليه بعد إطلاق سراحه.
قررت مع نفسها بأن تخلص ابنها من ورطته الجديدة ، فقد خلصته بكل الوسائل من الموت البشع ، ولا تريد أن تدعه يسير في دروب الموت

بإرادته ، ولم تكن تعلم أن ابنها في ليلة واحدة كان قد قطع شوطا ً في دروب الموت الأخرى ، بل إنه من لحظة سماعه حديثهم عنها ، قرر إذا ما تحرر منهم ، بأنه سيلتحق بقابيل العباسي . كل ما تريده الآن أن يرجع ابنها إليها ، لكن عليها قبل ذلك أن تسترجع الشريط ، فوجوده في البيت سيولد عنده الشك بتحركاتها ، وإتصالاتها الهاتفية التي هي تعرف جيدا ً أنها ستتكرر . كانت غافلة عن كل ما جرى له في تلك الخرائب على أطراف بغداد.

فكرت مع نفسها بأن عليها أن تسرع في خطواتها ، وألا فسوف ينهار كل شيء . كان الهاتف بيدها حينما أخذ يرن . ابتسمت ابتسامة شيطانية حينما رأت الرقم على الشاشة.

* * *

حين انتهى الحاج آدم الملا من فطوره ، جلس على الكنبة التي في غرفة الإستقبال ، ومد يده إلى الهاتف ليرى المتصل الذي ظنه أنه الحاج هابيل ، وما أن لمح اسمها حتى قفز من مكانه مندهشا ً، لاعنا ً الشيطان الذي وسوس له بأن المتصل هو الحاج هابيل . وضغط على زر الإتصال . بعد لحظات ، تدفق بالكلام ، وبنبرة مرحة:

- أهلا وسهلا... صباح الخير والأنوار على أجمل صوت.. أنا آسف جداً لأني كنت أتحمم.. ولم انتبه للهاتف..

لم تكن هي قد قالت شيئا بعد ، بينما تدفق هو بالكلام ، مرحا ً:

- لم أنم البارحة..

فجاء صوتها سائلا ، بنبرة دلال خفي:

- لماذا؟ خيراً إن شاء الله..؟

- تسألين لماذا؟ كنتُ أفكر فيك؟

- كيف؟ ماذا تقصد..؟

ارتبك قليلا ُ، وكبح جماح مشاعره ، فقال:

- كنت أفكر كيف يمكنني أن أساعدك.. كيف لي أن أعوضك عن الإساءة التي اقترفتها بحقك..

صمتت للحظات ، وفكرت أن تخوض التجربة ، فقالت بنبرة مهادنة:

- يمكنك أن تقوم بكل ذلك حينما تأتيني بشريط الفيديو..

- سيكون عندك..أقسم لك سيكون عندك قريباً..

- متى؟

أحس أنها وضعته في الزاوية الحرجة ، لذلك أخذ يفكر بسرعة ، متجنبا ً

أن يعطي وقتا ًمحددا ً، كي يستطيع أن يطور علاقته بها بهدوء ، فربما حينما تحصل على الشريط ستهمله وتقطع أية علاقة به ، إلى جانب أنه لم يحصل على الشريط بعد .. لذلك أخذ يراوغ في الإجابة ، قائلا ً:

- تعرفين أن الشريط ليس لديّ، وإنما عند الآخرين.. بل هو عند شخص محدد، وهذا الشخص لا يمكن التفاهم معه بسهولة، لذلك عليّ أن أبذل جهداً.. يمكنني حينما نتقابل أن أشرح لك خطتي..

- نتقابل؟

- نعم.. نتقابل.. لأني لا أستطيع أن أتحدث بالتفاصيل عبر الهاتف..

- هذا الأمر صعب حاليا..لكن..أين..؟

أحس بالنشوة تغمره ، وفكر مع نفسه أنها صارت بين يديه ، فقال بلهجة غير المهتم بالمكان الذي يمكن أن يكون ليبعث الطمأنينة والثقة في نفسها ، فقال:

- كما قلت لك سابقاً.. يمكنك أن تحددي المكان الذي تختارينه أنت... مكان يمكننا الحديث فيه بهدوء..

- لا أعرف أين يمكننا الجلوس بهدوء..لم تعد بغداد كالسابق.. معظم الأماكن قد أغلقت..

أحس أن الوقت قد حان ليضرب ضربته ، فقال:

- ما رأيك أن نلتقي في مكان آمن لكلينا.. أما عندك.. أو عندي..

- ماذا تقصد..؟

- أقصد عندك في البيت أو عندي هنا في البيت.. وإذا لم يعجبك هذا الإقتراح.. فيمكننا أن نفكر بأماكن اخرى..

أخذت هي بجرأته ، وفكرت في ثوان مع نفسها ، بأنه بريء حقا ً وألا كيف يمكن أن يعرض نفسه للخطر إذا كان منهم .. لكنها لم تشأ أن تنساق إلى ما يريد ، وإنما هي تفكر في تطبيق خطتها ، فقالت:

- لم نصل بعد إلى هذه المرحلة... أترك هذه الأماكن إلى وقت آخر..

- ما رأيك بحديقة الوزراء..؟ هي كبيرة.. وشاسعة.. ويمكننا أن نتحدث بهدوء..

فكرت لحظة ، ثم أجابت:

- جيد.. لكن لا أستطيع البقاء طويلا.. ليس أكثر من نصف ساعة، وأقصى حد ساعة.. لأني أنتظر عودة ابني.. ربما سيعود اليوم إلى البيت.. بالرغم من أن صديقه يقول بأن وضعه سيء.. ما الذي فعلتموه له هناك..؟

- أنتِ تعرفين... أنا لم أكن أتواجد كثيراً، إلا حسب ما يطلبونه مني.. ولا

أعرف ماذا فعلوا به..أكيد أنهم عذبوه..
- لا أعرف.. علي أن أسمع منه هو..
- متى سيأتي؟
- ربما اليوم.. لا أعرف.. فأنا لحد الآن لم أتحدث معه شخصياً..لذلك عليّ ألا أتأخر..
- سأكون في الساعة العاشرة عند البوابة الرئيسة المقابلة لمعهد الفنون الجميلة..
- لا.. لا.. ليكن في التاسعة والنصف..
- الآن التاسعة إلا ربعاً.. إذاً سنتلتقي بعد خمس وأربعين دقيقة..
- طيب.. إلى اللقاء
وقطع الإتصال بينهما.
لم يكن الحاج آدم الملا قد تحمم صباحا ً، إنما كذب عليها ، لذا توجه مباشرة للحمام ، كي يرتب زينته ، ويتحمم ، إستعدادا ًلهذا اللقاء المنتظر.
حين إنقطع الإتصال الهاتفي بينهما ، أحست بالخوف ، فبالرغم من أنها لم تنم الليل كله مفكرة بهذه الخطة في إستدراجه ، ولف خيوطها حوله كالعنكبوت ، لا لتلتهمه ، وإنما لتدفعه إلى أن يعمل المستحيل من أجل ان يأتيها بشريط الفيديو .. إلا أنها الآن تشعر بالخوف والتوجس .. كيف ستلتقي به في مكان مكشوف كحديقة الزوراء التي يرتادها المئات يوميا ً.. ؟ هل عليها أن تذهب أو تترك الأمر كله وتلغي خطتها؟ ولكن كيف ستسترجع الشريط؟ وماذا لو أنها وقعت هي في المصيدة وليست هو؟ ماذا لو أنها أحبته؟ ماذا لو كان كل ما يقوله كذبا ً؟ ماذا لو رآها أحد ما من منطقتهم معه؟ لا .. لا .. في الزوراء زوايا كثيرة يمكن أن يجلسوا فيها .. كانت تسأل نفسها وتجيب في الوقت نفسه عليها . وأخيرا قررت أن تذهب ، وليحدث ما يحدث . فكرت أن حديقة الزوراء قريبة من منطقتها ، فلا تحتاج للذهاب إليها بسيارتها الخاصة ، بل من الأفضل لها أن تأخذ سيارة تاكسي.
تحمم الحاج آدم الملا على عجل ، وارتدى بنطالا ً أسود وسترة صفراء مخططة بقطع مربعة سوداء عند الكوعين . رش على نفسه عطرا ً كان قد اشتراه في سفرته الأخيرة من مطار طهران .. نزع الخاتمين من إصبعيه كي لا تنتبه لتمسكه الديني . نظر إلى نفسه في المرآة فأعجبته هيئته . نظر إلى الساعة كانت تشير إلى التاسعة ، لم يبق أمامه سوى نصف ساعة ، سيصل قبل الوقت لو كانت الشوارع غير مزدحمة .. كان الحاج آدم الملا

يحس بالإنتعاش وطعم الحياة ، فهو ذاهب الآن إلى أجمل لقاء له في حياته.

* * *

لم يكن آدم ذوالنورين يستطيع أن يتخلص من دوامة الحقد والشك التي وجد نفسه فيها مذ أن سمع ما قيل له عن أمه ، أو ما تحدثوا به في ما بينهم عن تصويرهم لها . لم يكن قادرا ً عن التخلص من تجسيد صورتها وهي منحية على الطاولة وهناك من يضاجعها من الخلف . لم يكن يصدق أن الفتى صاحب مخزن الملابس الذي عرفته عليه هو عشيقها ، بل وهو الذي أعطاهم كل المعلومات التي يحتاجونها عنها . كان يحس بالإنكسار الداخلي العميق .

كان يحس نحو أمه بكراهية شديدة ، لكنه لم يتخلص بعد من حبه لها ، فقد باعت البيت من أجله ، وأعطت الخاطفين مائة ألف دولار ، بل إنهم حينما طلبوا منها التصوير رفضت ، إلا أنهم رفضوا إستلام المبلغ ، وهذا يعني بالنسبة لها قتله ، لذلك وافقت على أن يصوروها عارية ، يعني أنها وافقت من أجله هو .. لكن ذلك الحقير اغتصبها ، لإطفاء شهوته .. ما ذنبها إذا ً؟ لا .. لا .. إنها مذنبة .. لماذا استمتعت بإغتصابها؟ إنه لا يصدق ذلك ، لكن الذي قام بإغتصابها روى كيف أنها كانت مستمتعة بذلك ، بل وجاءتها الذروة عدة مرات .. لم يكونوا يقولون هذا لأغاظته .. هم كانوا يتحدثون في ما بينهم عن ذلك . إنه يتعذب ، بينما هي لا تعرف ما الذي يعانيه .. عليه أن ينتقم لها ولنفسه ، ولا أحد يستطيع أن يساعده في ذلك سوى قابيل العباسي .. لكنه لا يستطيع أن يقول كل شيء له ، ولا ما سمعه عن أمه . كان آدم ذو النورين يدور في دوامته.

حينما خرج من السيارة ، بعد أن فك الرجل سراحه ، عند منعطف الشارع القريب منهم ، لمح بشكل جانبي وجه السائق الذي حرك سيارته بعيدا ً عنه مستديرا ً. لكنه لم يستطع أن يذهب إلى بيتهم .. كيف سيواجه أمه؟ إنه لا يستطيع أن ينظر في عينيها ، لأنه ربما لن يستطيع أن يكبت الحقد والكراهية التي بدأت تتكاثف كالغيوم في أعماقه تجاهها ، ولم يكن أمامه سوى قابيل العباسي .. بل ما أن سمع كلامهم عنها ، وعن إغتصابهم لأمه حتى قرر الإلتحاق بمجموعة قابيل العباسي .. وقد اتفق معه ليلة أمس على الانتقام ، بل إن صورة الذي أقله بالسيارة مطبوعة في ذهنه ، وكذلك الرجال الذين اختطفوه ، وكان السائق منهم .. لقد أخبر قابيل العباسي ، بأن الفتى صاحب مخزن الملابس هو أحد عيون الروافض في

المنطقة ، ولم يخبره بالحقيقة ، وبكل التفاصيل التي يعرفها ، فقد قال له بأنه سمعهم يقولون بأن صاحب مخزن الملابس الفلاني في شارع الأميرات قال كذا وكذا .. لكن عليه أن يرجع إلى البيت ، فقد اتفق مع العباسي بأن يستدرج أمه لتحدثه عن مكان الشقة التي سلمت لهم الفدية فيها .. هذا ما يحتاجونه الآن .. لذا قرر العودة إلى البيت حسب خطة جماعته التي يرأسها قابيل العباسي..

* * *

حين وصلت حواء ذوالنورين إلى مدخل حديقة الزوراء وجدت بعض رجال الحرس الوطني الذي يقومون بحراسة أبوابها وينظرون في وجوه الداخلين الذين كانوا أنفارا ً.. إحدى النساء المحجبات أشارت إليها أن تفتش حقيبتها الصغيرة ، فسلمتها لها . فتحت المرأة المحجبة الحقيبة اليدوية الصغيرة وأخذت تنقب فيها ، فأخرجت جهاز الموبايل منها وأخذت تقلبها . كانت حواء ذوالنورين تتميز غضبا مكتوما ً، فقد كانت المرأة المحجبة تتعمد التدقيق في الحقيبة الصغيرة التي تكاد تكون بحجم كف اليد ، ثم أخذت تقلب الحقيبة وتدفع بها إلى الأسفل وكأن هناك أشياء مخفية فيها لا تبدو للعيان. كانت بقية أعضاء الحرس الوطني تنظر إليها نظرات مليئة بالشبق الواضح ، وكان أحدهم يعلق متضاحكا مع زميل له مشيرا إلى الطيور الجميلة التي لا تستقر في أعشاشها في مثل هذا الوقت ، وإنما تحلق باحثة عن الحب.

أرجعت المرأة المحجبة الحقيبة إلى حواء ذوالنورين وفي عينيها حقد دفين وإحتقار واضح . وعلقت قائلة لها نبرة فيها توجيه إتهام مبطن:

- متى يهديك الله وتتحجبين..؟ أليس من المعيب امرأة بهذا العمر ولا تتحجب، بل تتنزه في الحدائق في مثل هذا الوقت؟

لم تستطع حواء ذوالنورين أن ترد عليها كما تود وتشتهي أن ترد ، وإنما كظمت غيظها ، وقالت بصوت لا مبال ، فيه نبرة تعال:

- الهداية من رب العالمين..إن الله يهدي من يشاء..

نظرت المرأة المحجبة إليها بوقاحة ، وم ُلء عينيها تحد عدواني ، ثم قالت:

- إن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالتستر، إذ يقول: وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى..

أحست حواء ذوالنورين بشيء من التردد في أن تحاجج هذه المرأة التي تتجاوز صلاحيات مهمتها الأمنية في أن تفتش في حقائب النساء ، وأن ترد الإهانة بالإهانة ، والحجة بالحجة ، لكنها كانت في أعماقها تشعر بخوف

من أبناء هذه السلطة الجديدة ، المعبئين بالحقد الطبقي والديني على كل ما هو جميل في هذه الحياة ، وكأن على البشرية كلها أن تلبس السواد وتكتئب مثلهم . كانت حواء بالكاد تمسك أعصابها . لم تقل شيئا ، كانت تحس بالذل ، وكان صمتها قد بعث النشوة في كيان المرأة المحجبة التي رأت الإنكسار في نظرات حواء ذوالنورين.

دخلت إلى الحديقة وأخذت تمشي دونما هدى . كانت تفتش عن هذا الرجل الذي تعرضت بسببه لهذا الموقف القاسي . أحست بمشاعر متناقضة . راودها شعور بأن تترك المكان وترجع إلى البيت . نظرت إلى ساعتها اليدوية التي كانت تشير إلى التاسعة والنصف لكن لا أثر له ، أما بعض زوار الحديقة ، ومعظمهم من الشباب والفتيات ، فقد توجهوا إلى أعماقها . مشت هي خلفهم ، وشعرت أن عليها الإبتعاد عن البوابة . رأت مقعدا ً جانبيا تحت ظل شجرة فجلست عليه منتظرة وعينها على البوابة التي تستطيع أن تراقب الداخل والخارج منها دون أن ينتبه احد لها.

مرت خمس دقائق على الوقت المحدد ، حينما لاح لها رجل دخل الحديقة وهو يتلفت ، ثم ينظر إلى ساعته . أخذت تتأمله . رجل منتصب القامة . متناسق الجسد ، وسيم الملامح ، بعض القسوة المحببة . لم تكن متأكدة كليا ً من أنه هو . نظر هو بإتجاهها ، ثم أسرع خطواته نحوها . إذن إنه هو.

أقبل الحاج آدم الملا عليها وهو يبتسم ، وحينما صار على بعد مترين منها ، قال لها معتذرا ً:

- أنا آسف على التأخير.. لقد خرجت قبل أكثر من نصف الساعة كي أضمن وصولي قبلك، كي أستقبلك، لكن مع الأسف، قطع الطريق علينا أحد المسؤولين بسياراته المدرعة، فتأخرت.. أنا آسف جداً..

ومد يده مصافحا ً، فمدت يدها.

إستغربت حواء ذوالنورين من نفسها ومن أحاسيسها ، إذ شعرت بشيء من الأمان بوجود هذا الرجل الغريب ، وأخذ مزاجها يتحول شيئا فشيئا ، وتزول كآبتها ، لاسيما أن الرجل أخذ يواصل كلامه دونما إنقطاع:

- هؤلاء المسؤولون الجدد الذين لم يصدقوا أن يمتلكوا سيارة قديمة من السكراب، صاروا اليوم يركبون السيارات المدرعة.. ويقطعون الطرقات..

لم يجلس الحاج آدم الملا ، وإنما دعاها إلى السير في أعماق الحديقة . نهضت دونما أي اعتراض ، ومشت إلى جانبه . كانت تزدحم في أعماقها مشاعر غريبة . أحست بالإرتياح وهي تمشي إلى جانبه ، ومن جانب آخر ،

كانت تفكر بخطورة ما تقوم به ، فماذا لو رآها أحد من معارفها الآن؟ وكانت تجيب نفسها ، بأنه لا أحد من معارفها يمكن أن يأتي إلى الزوراء في مثل هذه الساعة ، ناهيك أن لديهم جميعهم حدائق بيتية.

كان الحاج آدم الملا منبهراً بجمالها المثير ، وفكر مع نفسه بأنها أجمل بكثير مما قد رآها آنذاك في الشقة ، وتصاعدت إلى تلافيف دماغه شهوة عارمة في أن يضاجعها في زاوية ممكنة في هذه الحديقة المترامية الأطراف ، لكن كيف سيقنعها؟

أخذ يحدثها عن حبه لها ، وعن شوقه إليها ، وحلمه بأن يجعلها سعيدة ، وأخذ يتحدث عن جمالها الساحر . كانت هي تستمع إليه ومشاعرها الداخلية التي أخذت تتجاوب دون إرادة منها مع كلماته ، لكنها كانت تحد من إندفاعها بتذكير نفسها بمهمتها التي من أجلها قابلته هنا ، فقالت له:

- إذا كنت فعلاً تريد أن تجعلني سعيدة.. فساعدني في الحصول على الشريط..

فقال آدم الملا موافقا ، ومتحمساً:

- هذا سيكون.. هذا سيكون.. ثقي بي..

- أنا أثق بك.. ولولا ثقتي بك لما قابلتك هنا في مثل هذا الوقت، ولما تعرضت للإهانات من أجلك..

فسأل الحاج آدم الملا مستغرباً:

- تعرضت للإهانات بسببي؟ من تجرأ على ذلك..؟

- تلك المرأة المحجبة التي مهمتها تفتيش النساء عند البوابة.. التي أخذت أولاً تطيل التفتيش في حقيبتي اليدوية الصغيرة أكثر من اللازم..ثم أخذت تلقي عليّ محاضرة على ضرورة التحجب، والجلوس في البيت وعدم التسكع في المنتزهات في مثل هذا الوقت..

أحس الحاج آدم الملا بغضب حقيقي ، وقال وهو محتقن الوجه:

- سأذهب إليها، وسألعن أهلها وعشيرتها وألعن كل هؤلاء القوادين الذين وضعوها في ذلك المكان.. هذه المحجبة تريها يمكن أن تكون عاهرة سابقة.. أو بعثية سابقة من الماجدات، تحاول أن تتستر على نفسها بالمبالغة في التدين والإحتشام والمزايدة في الولاء للحكومة.. أو واحدة معقدة..هي نفسها لا تستطيع أن تخلع الحجاب، ربما بسبب ظروفها العائلية، أو لقبحها، فتسقط عليك عقدها النفسية..

وأراد الرجوع إلى البوابة فعلاً، ليجرب سلطته أمام نفسه وأمام الآخرين

وليس أمامها فقط ، لكنها دون إرادة منها مسكت ذراعه لتمنعه من ذلك . أحس هو بمتعة لحركتها العفوية ، بينما غمرتها سعادة مفاجئة ، إذ وجدت فيه شيئا من الحماية التي تفتقدها . وقالت له:

- لا داعي للمشاكل.. أنا لا أريد فضائح رجاءً.. لنتجاوز الموضوع.. لا تتعصب.. رجاءً

نظر إليها بمحبة ، برغم علامات الغيظ الواضحة التي ما زالت مرتسمة على وجهه ، وقال:

- من أجلك فقط لا أذهب إليها لأمسح بها الأرض.. فأنا بإتصال هاتفي واحد أستطيع أن أسرحّها من وظيفتها..

أحس الحاج آدم الملا أنه قال شيئا ما كان يجب أن يقوله ، فأسرع في مدارات وضعه ، كي لا تشك به ، فقال:

- ابن عمي هو رئيس المهندس التابعين لأمانة العاصمة، وأحد المسؤولين عن الحديقة..ويمكنني أن أخبره فيشكوها لمسؤوليها..

- لا داعي لذلك.. خذها على قدر عقلها.. لكن في كل الأحوال يجب أن يحترموا الآخرين.. صلاتها، وتحجبها، وتدينها، هو لرب العالمين، وليس تفضلاً يمنحها حق إهانة الآخرين..

- كلامك ذهب.. لكن أين من يسمع هذا؟

كان الحاج آدم الملا يتملقها بكل الوسائل ، لأنه ، مع دقيقة يمضيها معها ، يحس بأنها امرأة متميزة ، ولديها عقل متميز ورؤية . وأخيرا فاجأته بسؤال كان يتجنبه ، إذ سألته بنبرة حاسمة:

- أريد أن أعرف منك بالضبط، متى يمكن أن أحصل على الشريط؟

نظر إليها وكأنه يدرس الإجابة التي يجب أن ينطق بها ، فابتسم لها بعد لحظات قليلة ، وقال وهو ينظر في عينيها مباشرة ، ليرى تاثير ما سيقوله لها ، ونطق بهدوء وكانه يساومها على شيء:

- إذا أنتِ حصلت على الشريط.. فماذا سأحصل أنا؟

انتبهت لطريقته المراوغة ، وقالت وهي تلقي بآخر أسلحتها في وجهه ، وبنبرة حنونة ، مستسلمة ، مليئة بالإغراء:

- ستحصل عليّ.. سأكون لك..

- وعد..؟

- وعــد.. هل تراني أخلفت في وعد لحد الآن؟

- لا..

- إذاً.. متى سأحصل على الشريط..؟

كانا قد وصلا إلى زاوية معزولة بين الأشجار ، بعيدة عن أعين السابلة ، فأخذها على حين غرة وأطبقها على جذع شجرة كثيرة وارفة الأغصان ، وضغط بجسده عليها ، فاتحا ساقيها قليلا ً ليمد إحدى ساقيه بينهما . فوجئت بحركته السريعة ، لكنها أحست بثقل جسده المريح عليها ، وخدر أسفل بطنها نتيجة احتكاك ساقه لما بين فخذيها .. حاول أن يقبلها من شفتيها فلم تمنحها إليه ، فأخذ يقبل خديها ، وعنقها ، وأخذ يتلمس شحمتي أذنيها بشفتيه . تصاعدت أمواج الرغبة حينما مد يده إلى نهدها وأخذ يعصره . أحست أنها لا تستطيع الإفلات عن جاذبية اللذة القاتلة ، فاستدارت برأسها إليه ، فتلقف شفتيها بقبلة حارة ، طويلة . أحست أنها ستنهار بين يديه ، لاسيما حينما سحب نفسه عنها ، ومد يده تحت ثوبها ليمسك ما بين فخذيها ، فلم تستطع أن تقاومه ، لكن فجأة ، لمحت من بعيد امرأة ترتدي عباءة ومعها شاب يقبلان ، فدفعته بكل ما تملك من قوة ، وهي تقول:

- ثمة أناس يقبلون..

كانا يلهثان . رتبت هي وضعها . نظرت إليه معاتبة ، وقالت:

- لم نتفق على هذا..

أحس هو بالارتباك والخجل ، وقال مستسلما ً:

- أعرف.. لكني لا أستطيع مقاومة جمالك.. أنت امرأة مثيرة جداً..

نظرت إليه ، وفي أعماقها الرغبة ما تزال متأججة ، لكنها وكأنها تقول لنفسها:

- يجب أن تقاوم.. لاسيما في الأماكن العامة.. فلسنا وحدنا..

سره ما قالت ، فسأل بلهفة:

- ومتى سنكون وحدنا؟

نظرت إليه ، وكأنها تضع شرطا ً:

- حينما تأتيني بالشريط.. قلت لك.. سأكون لك لو أتيتني بالشريط..
- سيكون لديك.. خلال اليومين القادمين..
- لا.. هذا كثير..

أخذها إلى مصطبة خشبية قريبة ، فجلسا هناك ليواصلا حديثهما . أثناء سيرهما القصير جدا ً للوصول إلى المصطبة الخشبية كان كل منهما يفكر في المضي لتحقيق خطته نحو الآخر .. ما إن جلسا حتى أخذ ينظر إليها بتساؤل ، ثم قال بحزن مصطنع:

- هناك مشكلة صغيرة.. فالرجل الذي لديه الشريط، رجل حقود.. هو

نفسه الذي قام بالتصوير.. وهو رجل متعصب، ومتدين جداً جداً.. لكن بالرغم من ذلك يمكن شراؤه بسهولة.. حالياً ليست لديّ سيولة نقدية كي أعطيه عشرة إلى خمسة عشر ألف دولار كي يعطيني الشريط، وإلا سأحتاج لبعض الوقت كي أسرقه منه، أو أجد أية طريقة للحصول عليه.

- ماذا تقصد..؟

- أقصد يمكننا شراء الشريط منه..ويمكن أن يحصل هذا الأمر الآن.. فأنا أعرف أين يعيش.. وسأذهب إليه مباشرة..

نظرت إليه وكأنها تزن الأمور في ذهنها ، ثم قالت بنبرة مستسلمة:

- أنا سأعطيك المبلغ..

اصطنع الحاج آدم الملا الرفض ، قائلا بنبرة محتجة:

- كيف.. أنت تدفعين ثانية..لا..لا.لا يمكن ذلك.. أصبري عليّ بعض الوقت وسأدبر المبلغ..

- لا.. أريده بأٌقرب فرصة..اليوم إذا أمكن.. هل يمكن ذلك..؟

- سأحاول.. لكن لو تصبرين قليلاً

- لا وقت لدي للصبر.. أريده قبل أن يرجع ابني إلى البيت.. يعني اليوم.. إبذل كل جهودك وسأمنح كل شيء ترغب به..

نظر إليها بشبق .. وقال مازحا ً:

- ألا يوجد عربون لي..؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد بما إنك ستمنحيني كل شيء إذا جئتك بالشريط، وبما أن الشريط سيكون بين يديك..فمن الممكن أن تعطيني عربون محبة..

نظرت إليه لحظة ، أرادت أن تتجاوب مع دعوته الصريحة للملامسة والتقبيل ، لكنها تدارك نفسها ، وقالت له:

- لا وقت لدي..عليّ أن أكون في البيت.. ولكن كيف سأوصل لك المبلغ؟

- لا مشكلة.. سنأخذ سيارة تاكسي.. أوصلك إلى البيت.. تصعدين إلى البيت.. أما أن أدخل معك إلى البيت، أو أبقى منتظراً في السيارة.. تضعين المبلغ في ظرف.. تخرجين.. تسلميني إياه.. وأنا أذهب مباشرة للشخص..

ترددت هي أول الأمر ، لكن جاءتها فكرة مفاجئة ، فقالت له:

- لا.. حينما نخرج من الحديقة يذهب كل منا بسيارة.. أنت تنتظرني عند مخزن لأحد معارفنا في شارع الأميرات.. اسمه مخزن آدم وحواء.. مخزن صغير.. اعمل نفسك تشتري منه شيئا.. أنا أذهب إلى البيت.. وسأطلب من صاحب التاكسي أن ينتظر بحيث أرجع إليك... سنلتقي داخل المحل.. سأعمل

نفسي وكأني اشتري شيئا.. بل سأشتري فعلاً شيئا كي لا نثير شبهة صاحب المحل..إنه يعرفني جيداً.. سأخبره بأني أريد شراء بدلة لابني آدم.. وأنت ستكون هناك تقلب البدلات أيضا..سأضع المغلف الذي فيه المبلغ بجيب إحدى البدلات الرجالية، وأنت تأخذه بطريقتك بحيث لا ينتبه إليه صاحب المحل.. اتفقنا..

انتبه الحاج آدم الملا إلى أنها تشير إلى صاحب المحل ، عشيقها ، الذي يعرفه هو جيدا ً، أحس بالغيرة منه ، لكن شهوة المال غلبت غيرته ، وقال لنفسه بأنه يعرف صاحب المخزن ، سيرتعب ، لكنه سيطمئنه ، وسيخبره بأن يصمت وكأنه لا يعرفه . نظر إليها ثم واصل لعب دوره ، فقال بنبرة فيها عتاب:

- لماذا لا تريدين أن آتي معك وأنتظر في السيارة.. ألا تثقين بي..؟

- كيف لا أثق بك.. وانا الآن معك.. وسأسلمك خمسة عشر ألف دولار دون أن أعرف مصيرها.. وأنت تسألني عن الثقة..؟ كل ما في الأمر.. أني أتجنب أقاويل الجيران.. ثم.. من أول لقاء تريد أن تدخل بيتي..؟ انتظر.. هات الشريط وسأدخلك البيت.. بل أدخلك إلى غرفتي..

كانت تعرف أية أوتار في نفسه يجب أن تضرب عليها ، لذا استسلم لكلامها . توجها للخروج ، لكنها طلبت منه الخروج من الباب الآخر المقابل لمنطقة الحارثية ، كي لا تمر من أمام الحرس وتلك المرأة المحجبة . توجها معا ً إلى تلك الجهة.

* * *

توجه قابيل العباسي في سيارته ومعه آدم ذوالنورين إلى شارع الأميرات ، حيث مخزن الفتى الذي اتهمه آدم ذوالنورين بأنه شخص جاسوس ينقل الأخبار إلى الروافض . تبعتهما سيارة فيها ثلاثة أشخاص . وقفت السيارة بالقرب من باب المخزن تقريبا ً. قبل أن ينزلا ، التفت قابيل العباسي إلى آدم ذوالنورين وقال له:

- هذا هو يوم انتقامك.. ألم تقل إنه أوصل للخنازير كل المعلومات عن والدك وعائلتك.. بحيث تمكنوا من إغتياله.. إذاً خذ بثأر أبيك منه.. سأكون معك.. لكني أريد أن تبدأ أنت بإطلاق الرصاصة الأولى وسأساعدك أنا..علينا أن نتأكد من أن المخزن خال من الزبائن أولاً.. اتفقنا..؟

- إتفقنا..

كان آدم ذوالنورين مرعوبا ً وهو يمسك المسدس الكاتم بين يديه . كان جسده يهتز ، وبدأت أسنانه تصطك . انتبه قابيل العباسي لحالته ، لكنه لم

يسخر منه ، وأخذ يشجعه ، ويؤجج مشاعر الإنتقام في نفسه ، فقال له:

- لا عليك..المرة الأولى صعبة دائما.. لكن في ما بعد سيصبح القتل شيئا عادياً جداً.. سأكون معك.. لا تخف.. والجماعة خلفنا سيحرسوننا حينما ندخل.. ثم أن هذه هي منطقتنا، ففي كل محل أو زاوية لدينا عيون ترصد وتحمينا.. فلا تخف.. المهم أن تقوم بالخطوة الأولى..

فقال آدم ذوالنورين بتوتر وكأنه يبرر الحالة التي هو فيها:

- هذه هي المرة الأولى.. أنا لم أحمل مسدساً في حياتي.. بينما عليّ الآن أن أستخدمه.. أن أقتل به إنساناً..

- عجيب أمرك يا آدم..؟ ألم تقل إنه جاسوس..وإنه سبب خراب عائلتك..؟ وهو الذي أوصلك إلى هذه الحالة التي أنت فيها..؟بحيث باعت أمك البيت بأرخص الأثمان..

بينما كان قابيل العباسي يتحدث ، كان هو يستذكر حديث أحد الخاطفين له وهو يشتم أمه ، بأن صاحب مخزن آدم وحواء هو عشيقها . أحس بالغليان . هم بالخروج من السيارة لكنه وجد جسده كله يرتعش .. فقد توقفت سيارة تاكسي خرج منها الحاج آدم الملا ، الذي توجه إلى المحل .. فجأة صاح آدم ذوالنورين بدهشة عالية وهو يمسك بذراع قابيل العباسي:

- هذا هو.. هذا هو.. هذا أحد الذين اختطفوني..

نظر قابيل العباسي إلى الحاج آدم الملا بدهشة وكأنه عثر على صيد ثمين ، واستغربا كلاهما حينما شاهداه وهو يدخل المخزن . فقال آدم ذوالنورين منفعلا ًوكأنه يقدم الحجة البليغة على إتهامه لصاحب المخزن:

- ألم أقل لك.. ألم أقل لك إنه جاسوس.. وهذا الحقير هو أحد الذين اختطفوني.. وهو الذي نقلني من مكانهم السري إلى المنصور مساء أمس..

- هل أنت متأكد..؟

- هل تعتقد أنني أنسى وجوه الذين اختطفوني؟

- لا طبعاً..

- وبالذات هذا الرجل، فقد رأيته حينما رفع العصابة عن عيني ودفعني من السيارة بعدما أطلقوا سراحي مساء أمس.. لا أنسى وجهه..

فقال قابيل العباسي لآدم ذوالنورين ، وهو يخرج من السيارة:

- انتظر لحظة.. سنتدبر الأمر.. هذه سمكة كبيرة.. علينا أن نختطفه.. فربما سيعطينا معلومات ممتازة.. وبذلك لا نحتاج لأمك كي تخبرنا بأي شيء..

قال ذلك واتجه نحو السيارة الأخرى التي فيها جماعته ، ودخل السيارة ، أخذ يحدثهم.

بقي آدم ذوالنورين في السيارة وهو يرتعد من الخوف ، والحقد . مسك المسدس الكاتم للصوت بكفيه الإثنتين فأحس بأن عضلات ذراعه قد تخشبت . فجأة ، انتبه إلى شخص يعرفه ينزل من سيارة التاكسي . إنها أمه تدخل المحل أيضا .. شلته الدهشة بالكامل ، تمنى لو يخرج من السيارة ليصيح بها ألا تدخل ، لكن فات الأوان ، فقد دخلت المحل ، وكان مرعوبا ً من إحتمال أن الآخرين قد شاهدوها وهي تدخل أيضا ً.
أخذ آدم ذوالنورين يسأل نفسه عن علاقة أمه بكل هذا؟ أصحيح إذن ما قالوه عن علاقتها بهذا الشاب صاحب المخزن؟ وهل تعرف يا ت ُرى الرجل الآخر الذي اختطفه؟ من الممكن أنه هو الذي اغتصبها ، وصورها والآن يهددها بالشريط؟ سيقضي عليه ، لكنه لا يريد الآن أية فضيحة ، فأمه الآن داخل المخزن .. وبينما كان هو في خضم هذه الأفكار والتساؤلات خرجت أمه من المخزن ، وذهبت في نفس الإتجاه الذي جاءت منه.
أحس آدم ذو النورين بأجساد تطوق سيارته . نظر مرعوبا ً فرأى الرجال الثلاثة ومعهم قابيل العباسي يقفون عند السيارة . دخل قابيل العباسي إلى السيارة ، والتفت إليه ، وهو يقول بحقد دفين:
- قررنا إختطاف الرجل الآخر.. سنعذبه إلى أن نحصل منه على المعلومات، فربما لديهم أناس وعيون وخلايا نائمة في المنطقة أو في الداودي والرابع عشر من رمضان، والحارثية والأربعة شوارع.. لا أحد يعرف كيف يعمل هؤلاء..؟.. المهم تأكدنا أنه لا أحد في المخزن غيرهما.. لقد جاء وقت التنفيذ..
- لدي طلب وحيد.. أن أقوم أنا بتعذيبه.. مثلما عذبني.. هو واحد من أربعة عذبوني..
نظر قابيل العباسي إليه نظرة فاحصة وكأنه يحاول أن يقرأ فيها حقيقة إصراره وقابليته على أن يقوم بذلك . ثم ابتسم وقال ، دون أن يتفوه بكلمة عن رؤيته لأمه وهي تدخل وتخرج من المحل ... فمن خلال خبرته ، أدرك بأن دخولها لم يكن بريئا ً. نظر إلى آدم ذوالنورين وقال له:
- هيا.. جاء دورك لتنتقم..
خرج آدم ذوالنورين من السيارة وبيده المسدس ، مشى وإلى جانبه قابيل العباسي ، والرجال الثلاثة يحيطون بهما . دخل أربعة منهم إلى المحل وبقي واحد ً يحرس الباب . س ُمع صوت طلقة صادرة من كاتم للصوت ، ثم تلتها ثلاث طلقات أخرى ، وصوت رجل وهو يحاول أن يصيح ، إذ جاءت جملته متقطعة

- ألحقـــ.....ووووووووووو..ني.. القحبة.. ف..عل..ت...ه..ا..

بعد دقائق كان الحاج آدم الملا معصوب العينين وملصق الفم بشريط عريض ، ومشدود اليدين . أحاط رجال ثلاثة بالباب ، وخرج قابيل العباسي وآدم ذوالنورين وهما يدفعان الحاج آدم الملا دفعا ً إلى داخل إحدى السيارتين .. دخلوا جميعا ً سياراتهم .. وانطلقوا بسرعة في دروب يعرفونها جيدا ً.

حين وصل الحاج آدم الأسير إلى الشارع الذي يسكن فيه قريبه ، بعد أن أعدم قابيل الفهد ، وجد سيارته عند الباب . كان الشارع مظلما ً، إلا من بعض أشعة الضوء التي تأتي من هذا البيت ، لكن كان يمكنه أن يرى جدران البيوت التي زينتها اللافتات الدينية ، أو لافتات النعي للشباب المغدورين من قبل الإرهابيين . تأكد من وجود قريبه . طرق الباب .
ف ُتح الباب ، لكن لم يكن قريبه ، وإنما زوجته ، التي هي ابنة خالته ، فسألها عن زوجها فقالت إنه ذهب إلى الحسينية القريبة ، لحضور فاتحة أحد الشبان الذي وجدت جثته مرمية في الشارع بعد إختطافه لثلاثة أيام . سألها إن كان سيرجع قريبا ً، فأكدت أنه سيتأخر ، لأنه قد خرج قبل مجيئة بعشر دقائق ، وعادة يتأخر في مثل هذه المناسبات ، فطلب منها مفاتيح السيارة لأنه يحتاجها في أمر مهم جدا ً، فقالت سترى إن كان قد تركها في البيت ، لكنها ألحت عليه بالدخول وتناول العشاء أو شرب الشاي ، إلا أنه أكد لها بأنه على عجلة من أمره لأمر ضروري ، فدخلت ، وبعد دقائق عادت وبيدها مفتاح وحيد ، وقالت إن زوجها قد أخذ كل المفاتيح معه ، وقد جاءت له بالمفتاح الثاني الإحتياطي ، الذي يحفظه عاة في البيت . أخذ المفتاح . سألها إن كانت لديهم جرائد أو بطانية قديمة ، فأكدت له بأنهم لا يقرأون الصحف ، لكن ستأتيه ببطانية قديمة لا يحتاجونها . دخلت ثانية ، وبعد لحظات خرجت وبيدها بطانية رثة ، فأخذها ووضعها في صندوق السيارة الخلفي . قفز إلى السيارة داخلا ً. مد رأسه من السيارة وقال لها بأن تخبره ، بأنه سيرجع السيارة بعد ساعة أو ساعتين . حرك السيارة واتجه إلى الخرائب.
حين وصل إلى تلك الخرائب الرهيبة ، في تلك الظلمة الحالكة . أحس بالرهبة . كان يريد أن يتخلص من هذه الورطة التي وجد نفسه فيها . لام نفسه ثانية على عصبيته التي تعميه أحيانا ًعن إتخاذ الموقف الصحيح ، فماذا لو كان قد أخذه إلى أطراف البستان ، وأطلق عليه النار ، أو حتى لو قام بذبحه ، وألقى جثته هناك ، بينما في لحظة عصبيته أطلق عليه النار وأرداه قتيلا ً، وعليه الآن أن يتخلص من الجثة ، ويحملها . أوقف السيارة . أخرج البطانية من صندوق السيارة الخلفي.
قبل أن يذهب إلى الغرفة حيث الجثة ، شغل ّالمولدة ، فأخذت تهدر في ذلك الليل الحالك ، والخرائب المسكونة بالموت والأسرار.

أضاء المصباح في الغرفة . كانت جثة قابيل الفهد قد تيبست . وتجمد الدم تحته ، وحوله . دار حول الجثة ، التي كانت مشدودة إلى الكرسي . حاول بكل قوته أن يرفع الجثة والكرسي ، لتكون في وضع منتصب ، إلا أن الجثة كانت ثقيلة جداً ، وملوثة بالدماء من الخلف ، ولأنه كان يتجنب أن يتلوث بالدماء ، فقد كان يمسك بالكرسي وأطراف الجثة بطريقة غير متوازنة ، فانقلبت الجثة والكرسي جانبا ، وارتطم رأس الجثة بالأرض بقوة ، لكنها صارت بعيدة عن بقع الدم المتجمد .

غادر الغرفة ، ثم عاد بعد قليل وفي يده سكين . تقدم من الجثة ، وبدأ يقطع الحبل الذي يشد الذراعين بجانبي الكرسي ، فتحررت الجثة . سحب الكرسي جانباً. سحب الجثة بصعوبة من الكتفين . ولأن ظهر الجثة كان ملطخا بالدماء ، فقد ألقى الجثة على الأرض ، ثم بدأ بسحبها من قدميها ، ماسحاً ظهر الجثة المدمى بالأرض المتربة . غادر الغرفة الثانية وعاد ومعه البطانية الرثة . فرش البطانية على الأرض . سحب الجثة إلى حيث البطانية ، وبدأ يدحرجها ، حتى صارت في منتصفها ، فأخذ يطوي البطانية على الجثة . غادر الغرفة ثانية ، ثم عاد وبيده لفة كبيرة من الحبال . أخذ يلف الجثة المغطاة بالبطانية . أراد أن يرفعها فلم يستطع ، فشدها بالحبل من قدميها ، وأخذ يسحلها ، خارجاً بها من الغرفة.

أوقف السيارة قرب الفتحة التي هي بمثابة مدخل إلى المكان . أحس بالتعب ، وبباطن كفيه تحرقانه من أثر الحبل ، لكنه استطاع أن يوصل الجثة إلى صندوق السيارة الخلفي . ترك الجثة على الأرض ، ورجع ، ليطفئ المولدة . عاد بعد قليل ليرفع الجثة ويضعها في الصندوق الخلفي . كانت ثقيلة جداً ، والمكان لا يسع بسهولة . كانت الأطراف متيبسة . فكر لحظة . رجع إلى الغرفة دون أن يدير محرك المولدة . عاد بعد قليل بمطرقة ثقيلة . مد الجثة على الأرض وهوى بكل قوته على منطقة الركبة ، أخذ يضرب الركبتين ، حتى انخلعتا عن مكانهما . طوى الساقين المهشمتين حتى الركبتين تحت الجثة وأدخلها إلى الصندوق الخلفي ، وأطبقه.

سار بالسيارة إلى منطقة أبعد من تلك التي دفنوا فيها الأستاذ الجامعي . وهناك كانت بركة موحلة تنبعث منها روائح كريهة . أوقف السيارة . فتح الصندوق الخلفي . سحب الجثة إلى حافة البركة ، ثم بدأ يدفعها ، فسقطت فيها . وشيئا فشيئا أخذت تغطس . حينما أختفت الجثة كليا من سطح البركة . صعد سيارته . انطلق إلى منزل قريبه ليعيد السيارة.

لم يكن قريبه قد عاد بعد . أعاد المفتاح لبنت خالته . وشكرها ، وقال

لها بأنه سيمر عليهم في الأيام القادمة . مشى إلى الشارع العام . تذكر أنه قد نسي الكاميرا وفيها الشريط في الغرفة . لكن ليس بإستطاعته العودة الآن . قرر مع نفسه العودة غداً بعد أن يذهب إلى المدرسة أولاً ليؤكد حضوره . أوقف سيارة تاكسي ودخل فيها ، حين سأله السائق عن الجهة ، قال له : أريد أن أتعشى كباباً. إذهب بي إلى كرادة مريم ، عند مطعم سالار.

* * *

أفاق الحاج آدم الأسير صباحاً، على رنين هاتفه النقال . أخذ الهاتف الذي بالقرب منه . قرأ اسم حواء آل حجر . استفاق وجلس متكئا على طرف السرير . جاء صوت حواء آل حجر:

- السلام عليكم..
- وعليك السلام..
- أين كنت يا حاج آدم..؟ لقد اتصلت بك أمس مرات عدة ولم ترد عليّ.. فقلقت عليك..
- شكراً جزيلا يا حاجة.. شكراً.. هذه نعمة من الله أن يكون هناك قلب يقلق علي في هذه الدنيا..

فجاء صوتها ضاحكاً:

- أنت ماكر.. تعرف كيف تدغدغني بهذا الكلام الشاعري الجميل.. أنت تعرف أنا إنسانة عاطفية جداً.. صحيح أنا صارمة في المسائل الدينية والأخلاقية، لكن قلبي مثل العصفور.. يرفرف عند سماع الكلمة الحلوة.
- من هو الذي يقول الكلام الشاعري.. أنا أم أنت؟ يا حاجة حواء أنت الشعر كله.. والرقة كلها..
- أخجلتني يا حاج آدم..
- كلامك مثل العسل..
- إذا كان الأمر هكذا.. فتعال بسرعة.. لأني جلبت معي وجبتين، واحدة للفطور وأخرى للغذاء.. فكرت بك.. وقلت مع نفسي إنك وحيد..ففكرت أن أطبخ لك..
- من المؤكد أن والديّ رحلا عن هذه الدنيا وهما راضيان عني.. لأن الله أنعم عليّ بقلب حنون مثل قلبك..
- تغمدهما الله برحمته الواسعة.. ثم إذا كان الأمر كذلك فتعال..

فكر أن يهيئها لما يطمح إليه ، فقال لها:

- بالمناسبة.. أريد ان أتحدث معك بأمر مهم..

- خيراً إن شاء الله؟
- ليس الآن.. حينما نتقابل..
- حيرتني.. إخبرني الآن.. أنا لا أستطيع الصبر لحين مجيئك..
- طيب.. أنا أقول.. بما أن المدير غائب عن الدوام.. فيمكنك أن تتحدثي مع الجماعة في الوزارة كي يصدروا أمراً بتعييني مديراً بالوكالة..
- لكن هذا الأمر ما زال مبكراً.. فالرجل اختفى أمس فقط..؟
- وما المشكلة..؟ ربما لن يعود أبداً..
- ماذا تقصد.؟
- أقصد أنه مختطف.. وليس هناك إلا الموت أو أن يخرج مقعداً، مشوهاً، مرعوباً يعتزل العالم..
- ولكن هناك المعاون.. وبقية المدرسين؟
- إذا جاء الكتاب من الوزارة فالجميع سخضع للأمر الواقع..
- طيب.. الفكرة جيدة.. أنا أريد أن أراك في هذا المنصب.. تعال الآن.. افطرْ هنا.. وسنذهب معاً إلى الوزارة..
- اليوم..؟
- نعم.. خير البر عاجله..
- لكن لدي بعض الأشغال..
- تلحق لإنجاز تلك الأشغال.. إنها ليست مهمة مثل هذا الأمر..
- طيب.. علي إذاً أن أنجزها عصراً، أنا قادم..

نهض من السرير عجلا ً. لبس ملابسه بسرعة . دخل الحمام . غسل وجهه . وغادر المنزل.

* * *

حين استيقظ الحاج هابيل كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة . لم يكن قد عاد إلى بيته العائلي بعد هروبه المتفق عليه مع المسؤولين في السجن ، فقد كان يخاف أن ي ُكتشف ، لذلك إستأجر بيتا ً في منطقة المسبح ، بالقرب من مركز إحدى القنوات الفضائية وهيئة الإعلام والإتصالات . كان الرجل الثالث ، الصامت دوما ً، الآلة العضلية ، هو حارسه الشخصي وخادمه المطيع . هو الذي يذهب إلى بيته العائلي ويتسقط الأخبار ، وهو الذي أبلغ زوجته بالأمر ، وأوصلها إليه سرا ً، بحيث لا تعرف زوجة الأخ الأخرى بالأمر ، لأن الأخ الآخر لم يخرج بعد ، وهو يتدبر الأمر لإخراجه . وكانت زوجته تأتيه كل يوم جمعة عصرا ً، تبقى لديه ساعات ، يضاجعها ، ثم تذهب . كان الرجل الصامت يسكن في غرفة في الطابق الأسفل ،

بينما هو يسكن في الطابق الأعلى.
كان الحاج هابيل يقضي وقته بتتبع أخبار حواء الزاهد ، وحركتها ، لكنه فوجئ ببيعها للبيت وإنتقالها إلى مكان مجهول ، بل إنها بعد مدة من تلقيها الرسائل غيرت رقم هاتفها أيضا ، ولولا أن لديه معارف من الضباط الذين كانوا يرتادون مطعمه ، الذين ساعدوه للذهاب إلى موقع شركة الإتصال ، ومعهم كتاب مزور ، طالبين معرفة رقم المدعوة حواء الزاهد ، أو تزويدهم بقائمة الأرقام التي يتصل بها السيد قابيل الفهد ، فلم يجدوا لها رقما ً غير الرقم القديم ، بينما جاءوه بقائمة الأرقام التي يتصل بها قابيل الفهد ، حتى رسائله المرسلة ، ومن خلال الرسائل عرف رقمها الجديد . فأخذ يهددها من جديد.
لم يخبر زوجته عن إشتعاله شبقا ً بحواء الزاهد ، ونيته على إجبارها للزواج منه ، فربما غيرتها تدفعها إلى الإخبار عنه ، والقبض عليه بإعتباره هاربا ً من السجن . همه الآن أن ينتقم من حواء الزاهد ، والتخلص من ابنها غير الشرعي.
نزل السلّم بتكاسل . كانت كرشه يتدلى خارجا عن حدود الفانيلة التي يلبسها . حينما صار في غرفة الإستقبال وجد أن الرجل الثالث قد هيأ الفطور ، في صينية كبيرة ، مليئة بصحن القيمر ، وعلبة العسل ، صحن الخيار ، والخبز الطازج ، والتي وضعها على الطاولة أمام الكنبة التي يجلس عليها عادة لمشاهدة التلفزيون . كانت رائحة الشاي تعبق في المكان.
لم يغتسل ، وإنما جلس مباشرة على الكنبة وبدأ الأكل . كان الرجل الصامت يقف واضعا ً يدا ً على يد ينظر إليه منتظرا ً إية إشارة تصدر منه . أكل لقيمات عديدة ، ثم نظر إلى الرجل الآلة العضلية ، سائلا ً:
- هل أفطرت..؟
قال الرجل الثالث ، الآلة العضلية ، بإرتباك :
- كيف آكل قبلك يا حاج؟ كل هنيئا.. وسآكل بعدك..
- بارك الله فيك..
واستمر يأكل . بعد لحظات رفع رأسه عن الصينية ، وقال للرجل:
- أتدري ما هي خطوتنا التالية؟
- كل الذي تقوله وتأمر به سينفذ يا حاج..
فقال الحاج هابيل ، مكررا ً سؤاله بعصبية خفية:
- أعرف ذلك.. لكني سألتك: هل تعرف ما هي خطوتنا التالية؟
- لا.. يا حاج.. لكن أنت تأمر فقط.. وسينفذ؟

- علينا التخلص من هذا الطفل النغل.. أو اختطاف ابن أخي.. أو حتى اختطاف أمه..

- أمرك يا حاج.. قل متى..؟ وسينفذ..

صمت الحاج هابيل لحظات ، وهو يضع لقمة كبيرة من الخبز المحشو بالقيمر والعسل .. نظر إلى الرجل الثالث ، وهو يلوك الطعام في فمه ، قائلا ً:

- هذا الأمر سنقوم به وحدنا.. لا أريد إشراك الحاج آدم الأسير، فأنا لا أرتاح له.. وأشك فيه وفي نواياه، وكذلك الحاج آدم الملا.. فهو يمكن أن يبيعنا من أجل فرج امرأة..

- هل تريد أن أقضي عليهم..؟

مد الحاج هابيل يده إلى كوب الشاي . نظر إليه وكأنه أكتشف في هذه الآلة العضلية شيئا مفاجئا ً. ابتسم له وعلى وجهه علامات تفكير واضح ، وقال بهدوء:

- لم أعتقد بأنك تستطيع أن تفكر أيضاً؟.. ممتاز.. أحسنت.. لكن ليس الآن.. الآن علينا أن نأخذ عشرين ألف دولار.. ونسلمها لمولانا الشيخ..فهو حامينا.. ونحن نعيش من بركاته.. ثم هو يعرف قصتي بالكامل..لذلك فأنا محبوس بين يديه.. أما هذان.. الحاجان.. فقصتهما قصة.. لا أدري.. لدي إحساس بأن الحاج آدم الأسير كذب بصدد وجود علاقة بين مدير المدرسة وتلك العاهرة زوجة أخي.. ربما لغاية في نفسه..

- لقد عذبناه.. ولو كان لديه أية علاقة لأعترف.. على الأقل لألقى الذنب عليها بأنها هي التي تحرشت به.. لكنه لم يعترف..

إرتشف الحاج هابيل ما بقي في الكوب من الشاي ، ثم نظر إليه متعجبا ً، وقال بنبرة مليئة بالدهشة:

- ما هذا..؟ اليوم أنت تنطق بالحكم.. لم أعتقد يوماً أن في رأسك الصغير هذا ولو ذرة عقل.. وإنما أنت عضلات فقط.. لكنك تدهشني اليوم بهذه الآراء العاقلة..

- نتعلم من جنابك أيها الحاج.. أنت سيد العقلاء..

- ما تقوله صحيح.. يؤكد الذي أفكر فيه.. لكن السؤال هو لماذا كذب علينا الحاج آدم الأسير؟ ما هي الغاية وراء كل ذلك؟

تقدم الرجل الآخر ، الالة العضلية ، آخذا دورق الشاي . صب في الكوب الذي أمام الحاج هابيل . كان الحاج هابيل يتفرس في هذا الرأس الصغير ، وهذا الجسد العضلي الضخم ، الآلة العضلية . شعر بمودة تجاه هذا

الإنسان المخلص له كالكلب . فجأة ، تذكر أنه ترك شريط الكاميرا لديه ، فشحب لونه ، وقال مرتابا ً:
- لكنا تركنا الكاميرا والشريط لديه؟
- وماذا في ذلك يا حاج؟
- إنه دليل ضدنا يا بهيمة..
رجع الرجل المفتول العضلات إلى مكانه الأول ، وشابك يديه الممدوتين إلى الأسفل . ابتسم بطيبة ، وقال:
- مقبولة منك يا حاج.. لكنك غير موجود في الصورة..ولا أنا.. لقد كانا هو والحاج آدم الملا فقط.. وهو دليل ضدهما، وليس ضدك..بل كما فهمت أنه هو الذي صور المرأة العارية.. يعني أن الوحيد في الصورة هو الحاج آدم الملا.. فلماذا تفكر هكذا بالأمر..؟
نظر الحاج هابيل إليه للحظات ، وكأنه يحلل ما قاله له ، ثم سأل بشك:
- هل تعتقد ذلك؟
- أكيد يا حاج.. أكيد.. وزيادة للإطمئنان.. سآخذ الكاميرا والشريط منه.. هل يريحك ذلك؟
- يريحني. ولكن ما لا يريحني أني لا أعرف نوايا هذا الحاج الأسير، أريد أن أعرف لماذا اختلق قصة وجود علاقة بين المدير وبين العاهرة زوجة أخي...(صمت للحظات مفكراً، مطأطئاً رأسه، ثم واصل).. سنفهم منه مساءً.. سنذهب إلى هناك، فربما ترك الكاميرا هناك..
- ألا توجد عمليات جديدة، يا حاج..؟
- سنرى.. لكن الذي أخبرتك به هو مهمتنا الأولى.. مفهوم؟
- مفهوم.. يا حاج.. قل متى.. ولا يكون إلا الذي تشاء..
- خلال هذين اليومين.. أنا أنتظر أحد المحامين الذي أخبرته بأني أريد أن أمنح حصة لابن أخي الشهيد.. وأريد أن أعرف عنوان أرملته..فأخبرني بأنه يعرف قاضياً آخر.. سيمكنه من إستحصال كتاب يطلب من كل دوائر العقار تزويده بالمعلومات عن ملكيتها لأي عقار.. وبالتالي سنعرف إن كانت قد اشترت عقاراً..
نظر الرجل الضخم ، الآلة العضلية إليه ، وقال بصوت متردد:
- يا حاج.. لدي فكرة..
نظر إليه الحاج مبتسما ً، وقال بطيبة:
- قل..اليوم تتألق بالأفكار.. هات ما عندك..؟
- لماذا لا نسأل الحاج آدم الأسير عن عنوان سكنها، فأكيد أن إدارة

المدرسة تعرف ذلك..
ضرب الحاج هابيل على رأسه ، وقال له بإنفعال:
- تعال.. تعال.. تعال لأقبل رأسك الصغير.. الذهبي هذا..
تردد الرجل الضخم أول الأمر ، إلا أن ملامح الحاج هابيل المنتظرة شجعته على التقدم ، فأحنى رأسه للحاج هابيل ، الذي أخذ الرأس بيديه وقبله ، وهو يقول:
- أنت الآن أكدت لي بأن الرجل بريء..أتعرف لماذا؟
- لماذا..؟
- لأن الحاج آدم الأسير كان بإمكانه أن يحصل على عنوانها من الملف الخاص بابن أخي الموجودة في المدرسة.. بينما هو لم يفعل أي شيء من هذا، استغفلنا.. ونحن قتلنا الرجل البريء.. أكيد أن لديه هدفاً من وراء كل هذا.. ثم فاتنا أن نسأل المدير نفسه عن عنوانها.
- لكن الحاج آدم الأسير يستطيع أن يأتينا بتأييد مختار المنطقة، والذي يجب أن تقدمه العائلة بإعتبارها من سكنة المنطقة..
- إذاً لقد حلت المشكلة.. سنصل إليها قريباً.. أريدها..هل تفهم ذلك يا بهيمة..؟
ابتسم الرجل الضخم ، ثم قال بطيبة:
- أفهم ذلك يا حاج.. أفهم ذلك.. أنت تعشقها.. وتريد أن تتزوجها لتربي ابن أخيك تربية صالحة.. أفهم..
- عظيم.. إذاً علينا بالعمل.. أولاً لنسلم حصة مولانا الشيخ..ثم نتحرك وفق الخطة..
- أمرك يا حاج..
- سأتحمم.. وأحلق.. بعد ذلك نذهب..
- أمرك.. يا حاج..
نهض الحاج هابيل من مكانه ، واتجه إلى أعماق البيت ، بينما رفع الرجل الضخم الصينية متجها ًإلى المطبخ.

استيقظت حواء الزاهد على مداعبات ابنها آدم الملاك لها ، إذ كان بالقرب منها على السرير ، يداعب أنفها ويسحب يده ، ويلقي بنفسه وكأنه يغط في النوم . انتبهت هي لحركته ، وتركته مرة أخرى يقوم بذلك بعد أن استيقظت ، وما أن مد يده حتى قبضت على كفه الصغيرة الناعمة . أخذته بين أحضانها وأغرقته بالق ُبل . كان الصغير آدم الملاك يكركر فرحا ً، وكانت تشعر وكأنها طفلة صغيرة ، مستعيدة معه طفولتها الضائعة.
التفتت إلى ابنها الرضيع ، الذي أخذ يعطس ، بخفوت ، حتى أنهما ، هي وابنها آدم الملاك ، أخذا يضحكان من عطساته الخفيفة المضحكة . فتح الطفل عينيه ، وظل يحدق في سقف الغرفة . استمرت لدقائق تلعب مع ابنها ، ثم نهضت من السرير ، وأخذت طفلها الرضيع من المهد ، وضعته على السرير ، فاقترب ابنها الآخر منه ، لينظر ما ستفعله أمه.
حل ّت حواء الزاهد قماط رضيعها ، وأخذت تنظف برازه . تركته على السرير ، طالبة من ابنها الأكبر أن ينتبه لأخيه ، وغادرت الغرفة إلى المطبخ ، كي تسخن ماء لإستحمام الرضيع . بعد لحظات عادت ، فرأت ابنها الأكبر قد وضع سبابته بكف هابيل الرضيع الذي أمسك بها محاولا ً أن يضعها في فمه .
جلست على السرير قربهما ، وأعطت الرضيع سبابتها أيضا ، فأمسك الرضيع بها ، وصار لا يعرف أي الإصبعين يدفع بها إلى فمه ، فأخذت مع ابنها آدم يضحكان من حركات الرضيع هابيل . بعد دقائق قليلة ، غادرت الغرفة ثانية موصية إياه أن لا يدع هابيل يضع إصبعه في فمه.
أعدت حواء الزاهد عدة الغسيل من طست وقدر ماء دافئ ، وشامبو للأطفال . وأخذت تنزع عن الصغير ملابسه . كان آدم الملاك يتابع هذا الطقس اليومي بفضول ، محاولا ً، المشاركة فيه ، فقالت له أمه : تعال معي ، وخذ طاسة الماء ، وحينما أطلب أن تسكب منها عليه ، تفعل ذلك . فنط الصبي فرحا ً. وبدأت تحمم الرضيع هابيل . كان الصبي آدم الملاك سعيدا ً وهو يسكب الماء حينما تطلب منه أمه ذلك . كانت عيناه تبرقان من الفرح والإنفعال الطفولي.
بعد ساعة من ذلك كانت حواء الزاهد قد انتهت من إطعام طفليها ونفسها . لم تكن تعرف ماذا تفعل . منذ يومين وهي لا ترسل ابنها إلى المدرسة ، لكن الأستاذ قابيل الفهد لا يجيبها ، بل إن تليفونه النقال مقفل

، كما أن حواء الكرخي لا تجيبها ، بالرغم من محاولات إتصالها المتكررة.
وبينما هي في مهب أفكارها ، هز ّ المنطقة ، انفجار هائل ، وبعدها بلحظات تعالى رمي الرصاص . أحست بإنقباض في قلبها . قفز الصغير آدم الملاك لائذا ً إليها ، من هول الإنفجار الذي تردد صداه في غرفة الإستقبال . ضم ّت صغيرها إليها ، وقالت له بحنان أمومي فياض:
- لا تخف يا حبيبي.. هذا صوت انفجار سيارة ملغومة، لكن الانفجار بعيد.
فسألها الصبي ببراءة:
- ما معنى سيارة ملغومة؟
لم تعرف كيف تجيبه ، فهي نفسها لا تعرف كيفية تلغيم السيارات بالضبط ، لكنها شرحت ببساطة :
- هي سيارة يضعون فيها مواد متفجرة، فتنفجر.
فواصل الصبي أسئلته :
- هل أستطيع أن أجعل سياراتي الصغيرة سيارات ملغومة أيضاً؟
ضمته إلى صدرها بقوة ، قائلة بحنان :
- أنت ياحبيبي ملاك، أنت اسم على مسمى، اسمك آدم الملاك، وهؤلاء الذين يفعلون ذلك هم شياطين.
فسألها الصبي قائلا ً:
- ما معنى الشياطين؟
إحتارت كيف تجيبه إجابة توازي عقله الطفولي وفهمه البريء ، فقالت له شارحة:
- الشياطين، يا حبيبي، هم مخلوقات غضب الله عليها فطردها من الجنة.
فسألها بحيرة :
- من هو الله؟
أحست أنها في ورطة أمام فضول ابنها ، الذي أعجبها بفضوله لمعرفة كل شيء ، لكنها لا تعرف كيف تشرح له ، من هو الله ، لأنها نفسها ودت لو تعرف الإجابة على هذا السؤال بشكل يقيني ، فقالت له:
- الله، يا حبيبي، هو الذي خلقنا..
- ما معنى خلقنا..؟
- يعني، أننا لم نكن موجودين، وهو الذي أوجدنا، وهو الذي خلق كل شيء..كل شيء..
- يعني، انه خلق الشياطين أيضاً؟

- نعم.. خلق الشياطين أيضاً..

كانت مستغربة لأسئلته ، لكنه سرها أن يكون ابنها ذكيا وهو في هذا العمر ، إلا أنه فاجأها سائلا ً:

- إذا هو خلق الشياطين، فلماذا طردها؟

- لأنها عصت كلامه.. يا حبيبي.. زعل عليها.. فطردها من الجنة..

صمت الصبي للحظات وهو يفكر في إجابتها ، ثم سأل:

- يعني إذا زعلتِ مني تطردينني من الجنة؟

ضمته إلى صدرها ، وأخذت تغمره بالقبل ، إلا أنه أفلت من بين ذراعيها منتظرا ًالإجابة ، فانتبهت إلى أنه ينتظر ردها ، ففكرت لثوان ، ثم قالت:

- حبيبي.. أولاً أنا لا أزعل منك..، وثانياً، أنت لن تعصي كلامي، وثالثا، نحن هنا على الأرض، ولسنا في الجنة..

صمت الصبي للحظات . ظنت أنها أجابته بما يقنعه ، أو أن عقله الصغير لن يستطيع التقدم بالأسئلة إلى الأمام ، إلا أنه فاجأها بسؤال جديد:

- لماذا عصت الشياطين.. ما الذي فعلته، هل فجرت سيارة في الجنة؟

ابتسمت له ، لخياله الطفولي ، لكنها وجدت من واجبها أن تصبر على أسئلته ، فقالت له شارحة بهدوء:

- الله رب العالمين.. طلب من إبليس ومن الملائكة، أن يسجدوا لآدم. الملائكة سجدت أما ابليس فعصى، فطرده الله من الجنة.

- أنا كنت في الجنة..؟

ضحكت حواء الزاهد من كل قلبها ، وهي تضمه إلى صدرها ، إلا أنه كان يريد أن يعرف الإجابة ، فحرر نفسه منها ، فقالت له:

- لا يا حبيبي.. لست أنت، آدم.. وإنما أبونا آدم..

- جدي آدم..

فجأة أحست بغصة في نفسها ، فقد ذكرها بأبيها الحبيب إلى نفسها ، امتلأت عيناها بالدموع بالرغم منها ، لكنها لم تبك . أرادت أن تقول له نعم ، إلا أنها أحست بأن إجاباتها ستنطبع في ذهنه ، فعليها ، إذن ، أن تشرح له ما تعرفه دينيا ًبهدوء ، فقالت:

- لا يا حبيبي، إنما هو آدم آخر.. الذي اسمك عليه..

- من هي أم الشياطين؟ أبوهم ابليس..وأمهم..من هي أمهم؟ هل هي مطرودة أيضا؟

أحست أن هذا الصبي الصغير بأسئلته البريئة ، أخذ يهز كل قناعاتها الدينية ، ويبين لها سفاهة الحكايات المليئة بالتناقض ، فهي لا تعرف كيف

تناسلت الشياطين ، فالبشر تناسلوا من آدم وحواء ، لكن إبليس لم تعرف له زوجا ً، ولم يخلق الله له زوجا ً، فكيف تناسلت الشياطين منه؟ هل هو قادر على الخلق بحيث يخلق إبليسة ، مثلا ً؟ ولكن كيف يخلقها؟ من أي شيء يخلقها؟ من نار؟ هل هو خالق أو مخلوق؟ لآ .. لا .. عليها أن توقف هذا الحوار بأي شكل ، فالتفت إلى ابنها وقالت له:

- حبيبي آدم.. حينما تكبر ستعرف كل شيء.. أنت ما زلت صغيراً.. وهذه الأسئلة لا تفهم إجابتها إلا حينما تكبر..

- ومتى اكبر..؟

ابتسمت له ، وقالت:

- أن تأكل جيداً.. وتنام جيداً.. وتسمع كلام أمك التي تحبك أكثر من كل شيء في هذه الدنيا..

- أكثر من هابيل..؟

فاجأها السؤال ، فقالت بحذر شديد:

- لا يا حبيبي.. انتما مثل عيني هاتين..

وأشارت إلى عينيها ، ثم واصلت:

- أنت هذه العين، وهو هذه العين..

فقال لها:

- أنا أكبر منه.. صحيح؟

- صحيح..

- إذاً، لماذا لا تكون إحدى عينيك أكبر من الأخرى..

ضمته بقوة إلى صدرها ، وفرحت من أعماق قلبها لنباهته . قطع هذه الحوار رنين هاتفها النقال ، نظرت إلى شاشة الهاتف ، فقرأت اسم حواء الكرخي ، فأجابت بسرعة:

- نعم.. من..؟ حواء..؟ أهلا وسهلا..

فجاء صوت حواء الكرخي ، محايدا ًبالرغم من القلق الكامن فيه:

- كيف حالك يا حواء..؟ أنا آسفة لعدم استطاعتي الرد..هل اتصل بك أحد؟

- لا.. لم يتصل أحد.. لكن تقصدين مَن؟

- فجاء صوت حواء الكرخي مرتبكا قليلاً:

- أي كان.. أقصد هؤلاء الذين يهددونك.. أو أستاذ قابيل..

- لا.. حاولت الاتصال بالأستاذ قابيل، لكن هاتفه النقال مغلق..

- هل أنت في البيت أو ستخرجين إلى مكان ما..؟

- لا أنا في البيت.. أنت تعرفين أنا لا أخرج إلى أي مكان..
- سأكون عندك ظهراً.. ونتغدى معاً.. هل آتي معي بأي شيء تحتاجينه؟
أحست حواء الزاهد بدفق من الفرح يجتاحها ، ودفء إنساني يغمرها ، فقالت لها ، وكأنها صديقتها منذ زمان ، وقد ر ُفعت الكلفة بينهما:
- إذا ممكن.. أن تحملي معك كيلواً من الخيار.. وشيئاً من الخضروات.. أقصد الكرفس والريحان والنعناع.. لنعمل سلطة.. وأنا سأجهز الغداء..
- والطماطم..
- لدي طماطم..
- طيب... سأمر على سوق الخضروات لآتي بما طلبت.. إلى اللقاء..
- مع السلامة..
كان ابنها ينتظر مواصلة الأسئلة .. لكن حينما سمعها بأنها ستجهز الغداء .. عرف بأن أمه ستكون مشغولة عنه .. وفقد رغبته بمواصلة الأسئلة .. فذهب إلى غرفة النوم ، وأتى بكامل أوراقه وأقلامه الملونة ، وانبطح على الأرض وأخذ يرسم ، بينما ذهبت هي إلى المطبخ لتعد الطعام ، الذي لا يستغرق منها عادة أكثر من ساعة .. بينما أمامها من الوقت ما لا يقل عن ثلاث ساعات حتى منتصف النهار.
حينما صارت في المطبخ ، وأخذت تنظف الرز ، وجدت نفسها تستعيد المكالمة التي جرت بينهما قبل قليل . أحست أن صوت حواء الكرخي لم يكن تلقائيا كعادتها ، وإنما كانت تحاول أن يكون صوتها طبيعيا ً، كما أن سؤالها عن المتصلين غريب نوعا ً ما ، بل انتبهت إلى أنها حينما أخبرتها بأنها اتصلت بالأستاذ قابيل الفهد ، وأن هاتفه النقال كان مقفلا ً، لم تعلق بأية كلمة .. وإنما انتقلت لسؤالها إن كانت ستبقى في البيت أم تخرج ، علما ً انها تعرف ، جيدا ً جدا ً، بأنها لا تخرج من البيت بتاتا ً، وإنها قد أعد ّت نفسها لفترات طويلة لا تحتاج لشيء . هل يا ت ُ رى حدث شيء ما ولم تخبرني؟ كما أنها تأسفت لعدم الرد دون أن توضح شيئا ً.. عموما ً حينما ستأتي سأعرف كل شيء .. يا إلهي .. متى يأتي الظهر .. لقد مللت من وحدتي .. ومن نفسي .. خاصة في الليل .. الليل .. آخ من الليل .. كم هو مخيف؟ لولا مخطوطات الكاتب آدم البغدادي ، لما عرفت ماذا أصنع بنفسي ليلا ً؟ فحتى النهارصار ثقيلا ً.. سابقا ً كنت أخرج من البيت لأوصل آدم إلى المدرسة ، وأرجعه ظهرا ً، وكنت ألتقي بالأستاذ قابيل الفهد ، بينما الآن لا أتحرك إلى أي مكان .. ماذا لو لم يكونا ولدي َ معي ، ربما لجننت؟ لكن إلى متى سأبقى هكذا؟ كيف

سأتدبر الحياة وحدي مع هذين الطفلين؟ وفي هذا البلاد التي تعتم ، ويدلهم مستقبلها يوما ً بعد يوم؟ تفجيرات ، وقتل ، وإغتيالات يومية .. وهي ليس لديها سوى أن تندب وأن تلطم .. رحمة لروحيكما يا أبي ويا حبيبي آدم .. كانت بهجتي حين كنت أراكما تتناقشان ، وتختلفان في النقاش أحيانا ً... كنت أسعد إنسانة في الوجود حينها .. لكن لماذا الأيام السعيدة لا تشكل سوى لحظات ، بل يمكن عدها بالثواني في هذه الحياة البائسة .. ؟ كانت حواء الزاهد تحدث نفسها بصمت .

كان الماء يغلي في القدر ، حينما انتبهت أخيرا ً له ، فأنهت غسل الرز ، ووضعته في قدر الماء المغلي.

* * *

حين استيقظت حواء الكرخي ذلك الصباح كانت قد حسمت أمرها بصدد مستقبل علاقتها بآدم الشبيبي ، فقد قررت ألا تتجاوز الصداقة ، فهي لا تستطيع أن تعتمد على شخص مثله ، لكنها قررت أيضا أن تنسحب شيئا ً فشيئا ً، دون أن تجرح مشاعره ، فهو في النهاية إنسان طيب القلب ، ومتنور في تفكيره ، وصحفي شجاع ، لا يخاف أن ينتقد الفساد الذي تمارسه النخبة السياسية الجديدة ، كما أنها لن تنسى مواقفه الجيدة معها ، ومحاولته أن يقدمها للوسط الإعلامي والثقافي بعد أن عادت للبلاد.

حين خرجت من غرفة النوم التي تنازل آدم الشبيبي عنها لها ، وجدته متمددا ً على الصوفا ، وغارقا ً في النوم مثل طفل بريء . راودها إحساس أمومي مفاجئ . توجهت إلى المطبخ لإعداد الفطور دون أن تثير أي ضجة.

حين انتهت من إعداد الفطور كان هو ما زال نائما ً، فتوجهت لغرفة الحمام لتمشط شعرها وترتيب نفسها . وحين عادت إلى الصالة وجدته جالسا ً على الصوفا وبيده سيجارة . كان وجهه متعبا ً، وحزينا ً. توجهت إليه بكل مرح ، وكأنه لم يكن بينهما توتر ليلة أمس ، وقالت:

- ماذا يا باشا.. أتنام يومياً إلى هذا الوقت المتأخر..؟

نظر إليها وعلى وجهه ابتسامة حزينة ، لكنه في أعماقه كان سعيدا ً لأن نبرتها لم تكن عدائية ، وقال:

- لا.. عادة استيقظ قبل هذا الوقت.. لكني كنت متعباً.. ثم اتصل بي صديق شاعر بعدما ذهبت إلى النوم.. إنه معجب بك.. أقصد معجب بشعرك، وبقصيدتك الأخيرة التي نشرت في الأسبوع الماضي.. ويريد أن يكتب دراسة مطولة عنها..

فابتسمت بمرح وقالت بسخرية:

- دراسة مطولة عن قصيدة من ثمانية أسطر..؟؟ ياه.. أنا شاعرة عبقرية دون أن أعرف..
نظر إليها مبتسما بإرتباك ، وقال:
- هكذا قال لي.. وبالمناسبة.. يحب أن يتعرف عليك أكثر.. ويريد أن يعرف طريقة فهمك للشعر، وعن مصادرك الإبداعية، وتجريتك في الكتابة بشكل عام..
فقالت معلقة بسخرية فجة ، لكن بمرح:
- وماذا بعد..؟ ألم يسألك عن ذوقي في الطعام، وأية أغاني أسمع.. وأي لون أحمر شفاه أفضّل، وأي فستان ألبسه قبل النوم..؟
ابتسم آدم الشبيبي لأول مرة من كل قلبه ، وقال:
- لا.. لم يسأل بعد مثل هذه الأسئلة.. لكن ربما سيسألك هذه الأسئلة، قبل أسئلته عن الشعر والتجربة الإبداعية..
فقالت بطريقة استفزازية ساخرة:
- هزُلتْ.. ورب الكعبة.. ربما سيفكر أن ينام معي بعد كتابة دراسته المطولة..؟
- لا تستغربي ذلك..
- يا للإنحطاط.. سابقاً كان الشعراء يصدرون مجاميع شعرية، وينتظرون أن يلتفت إليهم ناقد أدبي يتناول مجموعتهم بالعرض والنقد.. اليوم يلهث النقاد وراء تنورات الشاعرات..
- لماذا هذه الأحكام المسبقة..؟ فربما هو فعلا يريد أن يكتب شيئاٌ نقدياً عنك..
- ها..ها..ها.. على أية حال.. ليكتب أولاً.. وسنرى ذلك في ما بعد.. لكن قم الآن واغتسل لنفطر..
- لننزل ونفطر خارجاً..
- لقد أعددت الفطور أيها السيد المحترم..
- لماذا شغلت نفسك بهذا الأمر..
- لم أفعل شيئا استثنائياً.. لقد أعددت الفطور لأني استيقظت قبلك.. ولو كنت قد اسيقظت قبلي فأنا متأكدة أنك كنت أعددته.. صحيح..؟
- صحيح..
- إذن.. قم لتغسل وجهك.. ولنفطر.. ورائي عمل كثير..
نهض متجها ًإلى الحمام ، وفي طريقه توقف قائلا ً:
- اليوم ثمة أصبوحة في إتحاد الأدباء.. ألن تحضري..؟

- لمن ستكون هذا اليوم..؟
- لروائي لم ينشر روايته بعد.. لكنه يكتب مقالات كثيرة، وينظّر فيها لفن الرواية..حتى صار البعض ينظر إليه بإعتباره روائياً كبيراً.. بل ويهابونه..والبعض يتملقه..
- ما هذه المهزلة.. ربما سيقيمون أصبوحة لشاعر لم يكتب قصيدته بعد..؟
دخل آدم الشبيبي الحمام ، وجاء صوته من هناك:
- ربما سيقيمون لك أصبوحة أيضاً..
- ماذا..؟
خرج آدم الشبيبي من الحمام وعلى كتفه منشفة زرقاء . كانت هي قد وضعت صينية الفطور على طاولة صغيرة بينهما وسحبت كرسيا ً حتى صارت مقابله ، فاستمر هو مواصلا ً حديثه:
- لأن الصديق الناقد، الذي اتصل، نوه إلى ذلك بطريقة غير مباشرة.. وأنه سيقرأ دراسته معك هناك..
نظرت إليه وكأن الأمر تحول إلى واقع يجب التعامل معه ، وقالت بتساؤل:
- هل أنت جاد في كل ما تقوله..؟
- نعم.. هل لديك شك في ما أقوله؟
- لا.. لكني أعرف أن الروائيات العربيات والشاعرات العربيات هن اللواتي يركضن وراء النقاد..لاسيما المعروفون منهم.. إلا العراقيون، فأنا أجد أن من يكتب في النقد منهم يركض وراء الكاتبات والشاعرات مثل أي مراهق في الخامسة عشرة..
فبدأ هو بالأكل وهو يبتسم ويقول:
- أليس هذا بأمر جيد..؟ إنهم يوفرون عليكم مشقة الركض وراءهم..
انتبهت لنبرة التهكم في كلامه ، وقالت بمزاح:
- كل.. كل.. ودعنا من كل هذا.. أنا أريد اليوم أن أذهب إلى حواء الزاهد.. سأخبرها بكل شيء، كي تعرف المسكينة، وتكون على إستعداد نفسي.. فربما سيتصلون بها أيضا..
- هذا صحيح.. ربما سيتصلون..
نظر إليها بخجل ، ثم قال بإرتباك:
- حواء.. أنا آسف لما حصل ليلة أمس... أقصد ترددي وخوفي من إتصال الخاطفين.. السبب هو الليل..
إنبسطت أساريرها حينما بدأ بالإعتذار ، لكنها فوجئت بما قاله عن الليل ، فسألت:

- الليل..؟
- نعم.. الليل..
- وما علاقة هذا الأمر بالوقت، سواء كان ليلاً أم نهاراً..؟
- الليل.. آخ من الليل.. أنا أخاف الليل.. الليل في بغداد مرعب.. الظلام يعم كل شيء.. لا يتجول في ليل بغداد المرعب إلا الذين يحملون الموت معهم.. إلا الذين يزرعون العبوات، ويتركون السيارت الملغومة كي تنفجر صباحاً.. ليل بغداد كابوس طويل حتى الصباح.. لقد صارت حياتنا مسلسلاً مرعباً.. لقد اختفت البهجة عن حياتنا يا حواء.. أنا أخاف الليل..أنه يذكرني بحياتنا البائسة..
- والصباح..؟
- الصباح البغدادي مواجهة حقيقية مع الموت.. لكننا نواجهه في النور وليس في الظلام.. حتى صار بيت السياب في قصيدته إنشودة المطر حلماً.. أتذكرين حين يقول: ما مر عام والعراق ليس فيه جوع.. الآن ما مر يوم والعراق ليس فيه موت..وقتل.. وذبح.. وتفجيرات..
- تتحدث معي وكأني سائحة..؟
- لا.. عفواً.. وإنما أردت أن أقول إني أخاف الليل..
- لا عليك.. كلنا يخاف الليل.. والظلام..
- كلي أنت أيضا، فقد ألهيتك بالكلام..
- أنا أحب الشاي.. سأشرب الشاي أولا..
- لكنك لم تخبريني إن كنت ستأتين إلى الإصبوحة في إتحاد الأدباء..؟
- لا أعرف بعد.. عليّ أن أتصل بحواء الزاهد... أولا..

كانت حواء الكرخي قد استرخت ، وشعرت مع نفسها أنها ربما بالغت في موقفها من آدم الشبيبي ليلة أمس .. فها هو يعتذر ويكشف ما وراء موقفه .. ووجدت له العذر في ذلك.

18

مسلخ بين حديقتين في المنصور

إنطلق قابيل العباسي يقود السيارة بسرعة كبيرة ، وتبعته السيارة الثانية بالسرعة نفسها . دخلت السيارتان شوارع جانبية ، واستدارتا مرات عدة ، إلى أن دخلتا إلى شارع ٍ جانبي تغطيه الأشجار من الجانبين ، ومن هناك استدارتا مرة أخرى إلى شارع فرعي . وقفت السيارتان أمام بيت كبير ، تهدر منه أصوات مولدة ضخمة . كان البيت أشبه بالقصر ، ذا بوابة عريضة ، يقف عندها حارسان مسلحان ، مفتولا العضلات . وكانت على

جانب البوابة ثمة لافتة صغيرة من النحاس الأصفر ، مكتوب عليها ، شركة قابيل العباسي وأخوته للإعلان والإنتاج الفني.
سارع الرجلان المسلحان لفتح البوابة على آخرها . دخلت السيارتان واصطفتا هناك . نزل قابيل العباسي من السيارة فسارع الحارسان بتأدية التحية العسكرية له . استغرب آدم ذوالنورين لحركتهما ، وللمكان الذي هو فيه . عادا فأغلقا البوابة ، ووقفا في الشارع لمواصلة حراستهما . نزل آدم ذوالنورين من السيارة ، فانتبه لوجود كلبين أسودين ، ضخمين ، يلهثان في الحديقة الأمامية من القصر ، ويسيل اللعاب من شدقيهما ، وأمام كل منهما جمجمة بشرية ، لم ي ُبق ِ الكلبان شيئا من اللحم أو الجلد عليهما ، سوى بقايا من فروة الرأس . حين شاهدهما أحس آدم ذوالنورين برجفة تسري في روحه وجسده . فهو يخاف الكلاب الشرسة.
من السيارة الثانية ترجل إثنان من الرجال ، وسحبا الحاج آدم الملا ، وسحلاه إلى داخل البيت ، بينما أخذ الرجلان الآخران ، يركلانه.
كان البيت حديث الطراز ، من طابقين ، فيه حديقة أمامية واسعة ، تحتل المولدة الكهربائية الكبيرة ، مع خزان وقودها ، وحنفيات تبريدها ، الجانب المطل على الشارع كله تقريبا ً، كما تتوسطها إرجوحة جديدة من النوع الفاخر ، وكرسي كبير من الخوص مطوق بمظلة دائرية تحمي الجالس من الشمس وتخفيه عن النظر . يحتوي البيت على أكثر من ثماني غرف ، وقاعة واسعة للطعام ، وطابق أسفل ، مقسم لقاعتين كبيرتين جدا ً، بمساحة البيت كله . ومن الجانب الخلفي ثمة حديقة واسعة ، أكبر مساحة من الحديقة الأمامية بثلاث مرات ، يحيطها سور عال جدا ً بمستوى الأشجار تقريبا ، وأعلى من قامة الإنسان بمرة ونصف ، بحيث لن يتمكن الجيران من رؤية ما يوجد في الحديقة أو ما يدور في المنزل بشكل عام ، بالرغم من أن المنازل المجاورة تتجاور مع البيت بحدائقها أيضا.
كانت الحديقة الخلفية مشوهة ، وكأنما تم قلب تربتها الوسطية ، وبعض جوانبها بالمسحاة ، وليس فيها من العشب إلا القليل الذي يغطي الجوانب ، وبدا الإهمال واضحا ً عليها . كما تتوزع فيها قطع حجرية ملونة ، تنبت بشكل هندس في التربة.
حين دخل الجميع إلى أعماق البيت ، أخذ الرجال الأربعة الحاج آدم الملا سحلا ً وركلا ً إلى الطابق الأسفل . بقي قابيل العباسي وآدم ذوالنورين وحدهما في غرفة الإستقبال التي كانت مؤثثة بطقم من الكنبات الذهبية ، العالية الجودة . وعلى الجدران لوحات فنية لمناظر طبيعية ، ومناظر خيول

في أوضاع وحركات مختلفة ، لكن الأرضية كانت تتناقض مع الذوق الواضح في الأثاث ، حيث غطت الأرضية بسجادة مصنوعة باليد ، لكنها لا تعبر عن ذائقة فنية ، فكانت تتنافر مع ما يحيطها.

كان آدم ذوالنورين مستفزا ً، قلقا ُ، متوجسا ً، منبهرا ً، خائفا ً، لا يعرف ماذا ينتظره هنا ، ولم يكن يتعرف على نفسه ، وكأنه هو وليس هو . انتبه قابيل العباسي إليه ، قال له ، وكأنه ليثبت له ، أنه يخمن ما يدور في ذهنه:

- سنحقق معه مباشرة.. لنعرف أسرار المكان الذي كنتَ أنت فيه.. وفي النهاية سندعك أنت تقوم بذبحه.

لم يكن هذا ما كان يفكر فيه آدم ذوالنورين في تلك اللحظة ، وإنما كان تائها ً، فقد صار قاتلا ً، لكن الذي حي ّره أنه لم يكن نادما ً، بل إنه يعرف بأنه قتل إنسانا ً، بغض النظر عن كونه مذنبا ً أم بريئا ً، لكن نظرة الرعب التي كانت في عيني الفتى صاحب المخزن ، الذي عرفه حينما دخل هو ، ما زالتا أمامه . انتبه لما قاله له قابيل العباسي ، فرد بتردد :

- ذبح..؟ لا.. أنا أستطيع أن أطلق الرصاص عليه.. لقد رأيت كيف أطلقت الرصاص على صاحب المخزن..

- لقد رأيت ذلك.. عظيم.. ربما ستقود إحدى المجموعات قريباً..

هذه الجملة ضاعفت من تشتت وضع آدم ذوالنورين الذهني . إستحضار نظرة الفتى القتيل بعثت في نفسه شيئا ً من تأنيب الضمير الذي يحاول أن يكتمه ، لكن حقده المتأجج ضد الرجل المختطف ، الحاج آدم الملا ، وخجله من الشتيمة التي أطلقها ضد أمه وسمعها الجميع ، وكرهه لأمه التي شاهدها الجميع وهي تدخل إلى المخزن ثم تخرج بعد قليل ، وبين المديح الذي سمعه للتو من قابيل العباسي ، والذي أرضى غروره بقوته ورجولته التي سيتحدث عنها قابيل العباسي أمام شيوخه وأصدقائه من الجماعات المسلحة ، منحه شعورا ً بضرورة متابعة الخطو في دربه الجديد.

نظر آدم ذوالنورين إلى قابيل العباسي وفي عينيه تساؤل وإنتظار ، وقال بنبرة رجاء:

- لدي طلب صغير..

- طلب صغير..؟ أنت تأمر يا آدم..

- أريد أن نكون معاً، أنا وأنت، وحدنا عند التحقيق معه..لا أحد غيرنا..

نظر قابيل العباسي إليه نظرة متفحصة ، ثم قال موافقا ً:

- لك ذلك.. لكني أفضل أن أقوم أنا، أولاً، بالتحقيق معه، لأعرف منه أماكن الإختطاف ومعلومات أخرى لا تعرفها أنت، وحينما أنتهي منه، سأتركك أنت لتواصل التحقيق معه، عندها سأكون معك..لا أحد غيرنا.. لقد سمع الجميع أنه شتم أمك.. السيدة حواء.. وهناك كما يبدو أمور لا أعرفها أنا، بل أنت وحدك تعرفها، لأنك كنت مختطفاً لديهم.. أنا سأكتفي بالتحقيق عن أماكنهم، وتمويلهم.. وإلى أية أحزاب ينتمون.. ولا أسأله اي سؤال يخص السيدة والدتك..
فقال آدم ذوالنورين متوترا ً:
- هذا جيد.. فهناك أمور لا أود أن يسمعها الآخرون تسيء لأمي، أولاً، وثانيا أريد أن أعرف من هم هؤلاء الذين كانوا معه؟ ومن الذي إغتال أبي؟
- لا عليك..سنقتص من هؤلاء الخنازير.. لكن تعال أولاً لتكوّن نظرة عن مكاننا هذا..
ودخلا إلى أعماق البيت ، ثم هبطا إلى أعماق البيت ، إلى الطابق الأسفل.
ما أن خطا آدم ذوالنورين أولى درجات السلم ، هابطا ً إلى الطابق الأسفل ، حتى واجهته روائح عطنة ، كريهة ، تختلط فيها رائحة الدم ، بروائح البول والغائط ، وعفونة اللحم الجائف . بالكاد مسك نفسه عن التقيؤ ، فلو فعلها لظن قابيل العباسي أنه ضعيف الشخصية ، ولا يصلح أن يكون قائدا ً لمجموعة ، فمنذ أن نطق العباسي بتلك الجملة ، حتى أخذ ذلك الطموح ينمو كالفطر في داخله.
حينما صارا في القاعة السفلى ، أحس آدم ذوالنورين بأنه في متاهة ، بل في مسلخ حقيقي ، فقد امتدت مصطبتان حجريتان في وسط القاعة الكبرى ، ومن على الجانبين امتدت سكة حديدية ، علقت عليها الخطاطيف الحديدية المتحركة ، بمختلف الأحجام ، وعلى جانب آخر رأى منشارا ً كهربائيا ً كبير الحجم ، مرتبط بسلك كهربائي يمتد لأمتار عدة ، بحيث يمكن لحامله أن يتجول بحرية في القاعة.
التفت قابيل العباسي إليه موضحا ً:
- هنا نقطع جثث هؤلاء الخنازير الرافضة، وكذلك الخونة من أبناء جماعتنا الذين يتعاونون مع الحكومة، ومع الإحتلال..
سأل آدم ذوالنورين محاولا ًأن يكتم ظلال الخوف في نبرته:
- تقطعونهم..؟ وماذا تفعلون بعد ذلك..؟
ابتسم قابيل العباسي وكأنه سيروي نكتة طريفة:

- نوزع لحومهم على الكلاب التي رأيتها في الحديقة، وأحياناً نختطف شخصيات معروفة، فنذبحهم، ثم ندفنهم في الحديقة الخلفية. ونضع حجراً على مكان دفنه لنعرف صنف القتيل هل هو عسكري، أو مدني، محامي، أو أستاذ جامعي، إنسان عادي، رجل أو امرأة.. كل صنف له لون من الحجر...تعال.. سأريك أشياء أخرى..

توغلا في مسلخ الطابق السفلي ، فرأى أن القاعة الأخرى أوسع من الأولى ، وأنها قسمت على هيئة مكاتب ، وزنزانات ، وقاعة للإستجواب على غرار ما يجري في الأفلام الميركية ، حيث الغرفة من أحد جوانبها تطل من خلال ساتر زجاجي على غرفة أخرى يجلس فيها من يشاء ليسمع مجريات التحقيق.

أخرج قابيل العباسي من جيبه مجموعة من المفاتيح وأخذ يفتح الزنانين واحدة بعد الأخرى . كان آدم ذو النورين يشعر بالقشعريرة كلما ف ُ تحت زنزانة ، ففي الزنزانة الأولى كانت امرأة شابة ، جميلة الملامح ، ذات قوام جميل ، ترتدي قميصا مفتوح الأزرار يمتد لوسطها فقط ، ولا يغطي منطقتها السفلى ، ويبدو أن بنطالها وسروالها الداخلي قد نزعا عنها . وكانت بعض آثار خيط دم جاف على أحد فخذيها ، وشيئا منه على جانبي أعلى فخذيها ، تحت عانتها الخفيفة . فأحس بأنها قد أغتصبت وإزيلت بكارتها . نظر قابيل العباسي لحظتها إلى آدم ذوالنورين قائلا ً

- إنها اختطفت للمتعة فقط.. فالشباب يتعبون أحياناً، سوى من دفن الجثث في الحديقة الخلفية أو من تقطيعها، ويحتاجون للراحة، وهذه وغيرها اختطفناهن للمتعة.. هل تعجبك؟ يمكنك أن تنيكها الآن لو أردت.. هي صارت لا تمانع لديها.. المهم أن تبقى حية..

لم يقل آدم ذوالنورين شيئا ً، وإنما انسحب إشارة لتجاوزه الأمر ، فابتسم قابيل العباسي له ، وقال له:

- يبدو أنك خجول.. عليك أن تنسى خجلك، وأخلاقك، مع هؤلاء.. هؤلاء ليسوا بشراً.. مباح لك ما تفعل بهم..ألم تسمع فتاوى شيوخنا عن هذا الأمر..؟

حينما صارا إلى الزنزانة التالية ، كانت هناك امرأة محجبة تجلس القرفصاء ، وكانت مذعورة منهما . أخذ قابيل العباسي يشرح لآدم ذوالنورين ، وكأنه مرشد في متحف فني أو متحف تاريخي:

- وهذه زوجة مسؤول حزبي كبير في الحزب العميل الحاكم.. اختطفناها مع ابنها البالغ التاسعة من العمر.. هذه أنا شخصيا أنيك فيها.. أريد أن

أرسلها إلى زوجها حاملاً مني.. وسأطلق سراحها حينما تكون في الشهر التاسع من الحمل، بحيث يتعذر عليهم أن يجروا لها عملية إجهاض أو حتى إجهاض قسري.. أريده أن يرى ابنه النغل.. طبعاً صورتها شخصيا وأنا أدخله فيها..

- كيف صورتها..؟

- ها.. هذه بسيطة ركبت الكاميرا على موضع محدد جداً، بعد أن جربت أن لا يظهر سواها ونصف جسدي وأنا أدخله فيها. كم صورتها بأوضاع مختلفة، ومن كل الجهات..

- وهي.. هل كانت تقاوم..؟

حين سأل آدم ذوالنورين هذا السؤال كانت صورة أمه ، حسب رواية الحاج آدم الملا ، تستمتع بالمضاجعة ، فجاء جواب قابيل العباسي مخيبا ً له ، بل زاده غضبا وكرها لأمه ، إذ قال:

- نعم.. إنها كانت تقاوم في البداية.. في المرة الأولى والثانية، وكانت تقرأ آيات من مصحفهم المزيف..

- ماذا تقصد..؟

- الرافضة لديهم مصحف خاص بهم.. المهم.. في البداية كانت تتمتم بآيات.. ثم في المرات التالية يبدو أنها استعذبت النيك..لأنني ما أن آتي بها وألقيها على الطاولة حتى تستسلم، بل أحسست ذات مرة بارتجاف رحمها على قضيبي.. بل إنها ذات مرة أمسكت بي من ذراعي، وهي ترتجف من اللذة.. ثم أخذت تشتمني.. وتعوذ بالله.. (وأخذ يقهقه)

في الزنزانة الثالثة ، رأى عسكريا ً برتبة عالية ، متورم الوجه ، مزرق العينين من أثر الضرب ، الدماء تملأ حدقتي عينيه ، وهو مقيد إلى الحائط . وانتبه آدم ذوالنورين إلى كفيه مقطوعتي الأصابع . قال قابيل العباسي:

- وهذا.. ألا تعرفه..هذا القائد الذي يظهر عادة في التلفزيون متحدثاً عن الإرهاب والإرهابيين، وكيف دحرهم، هذا الذي قتل الكثير من شبابنا..هذا الخائن الذي وقف أمام القائد الشهيد، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، مبايعاً له بالدم والروح، باع نفسه للأميركان ولإيران، نكناه أيضا، وصورنا ذلك أيضا.. لكننا لم نقتله، لأننا نحاول أن نقايضه بمليون دولار..

نظر آدم ذوالنورين إليه وكأنه يحاول أن يعيد ترتيب هذا الوجه المشوه من التعذيب ، وأن يستذكر هذا الوجه الذي قال عنه قابيل العباسي إنه معروف ، ويظهر على شاشات التلفزيون ، لكنه لم يستطع أن يلملم هذا الوجه المشوه في ذاكرته.

انتبه آدم ذوالنورين إلى أنه بدأ يألف رائحة المكان ، وأخذ يتحرك بحرية أكبر ، بل صار يتقبل ما يرى لا إراديا ً، إذ شعر أن هناك حربا ً أكبر منه تجري في هذه البلاد ، حربا ً لا يعرف من أشعلها ، ولا إلى أين ستقود ، وبماذا ستنتهي ، بالرغم من كل الصراخ والنعيق الكاذب عن وحدة الشعب . كان يحس بأن قناعات جديدة بدأت تتشكل لديه خلال وقت قصير ، ربما أقل من ساعة واحدة.

توجه قابيل العباسي به إلى زاوية تنبعث منها رائحة جيفة قاتلة ، وكلما كانا يقتربان منها ، عاودته رغبته في التقيؤ . دفع بابها ، إذ كانت الزنزانة غير مقفلة ، فهاله أن يرى كم اّ ً كبيرا ً من الجماجم البشرية ، لنساء ورجال ، وأطفال بمختلف الأعمار . لم يستطع آدم ذو النورين التماسك ، فهرول هاربا ً إلى الأعلى ، داخلا ً إلى غرفة الحمام ، التي لمحها بالقرب من الدرج قبل أن ينزلا ، وأخذ يتقيأ بقوة.

غسل آدم ذوالنورين وجهه . إستعاد أنفاسه . أحس برعب حقيقي ، وأخذ يخاف من قابيل العباسي ، بل أحس أنه صار لا يستطيع الفكاك منه ، فأي حركة خطأ تبدر منه ، ستكون نهايته فيها ، بل وستكون نهاية بشعة ، فهذا ليس إنسانا ً، بل هو وحش آدمي لا اكثر . أحس بأنه يحتاج للتفكير بكل ما رأى . مضى إلى غرفة الإستقبال ، ففوجئ بوجود الرجال الأربعة هناك . قالوا له بأن الأمير العميد قابيل العباسي ، سيقوم بالتحقيق مع المختطف الجديد ، ولا يريد أحد أن يكون معه . فوجئ آدم ذوالنورين ، بما سمع من ألقاب أضفيت على صديقه قابيل العباسي . جلس على الصوفة ساكنا ً. كان الأربعة يتحاورون في ما بينهم ، عن الموديل الجديد من الموبايلات التي نزلت قبل أيام في الأسواق.

في الطابق الأسفل ، وفي غرفة التحقيق ، كان الحاج آدم الملا ، مشدودا ً إلى الكرسي ، معصوب العينين ، مدمي الوجه ، متورم الشفتين . ما أن دخل قابيل العباسي إلى الغرفة حتى توجه إليه وحل ّ قطعة القماش التي تعصب عينيه . أخذ الحاج آدم الملا يحرك رموشه وحاجبيه ، ليرى أين هو .

حين رفع رأسه وجد قابيل العباسي يقف أمامه ، وبيده سكين مطبخ كبيرة ، ومبرد حديدي ، وكان يحرك نصل السكين على المبرد مثلما يفعل القصابون قبل نحر الذبيحة . نظر قابيل العباسي إلى الحاج آدم الملا ، قائلا ً بهدوء:

- إسمعني جيداً.. ولا تتذاك أو تستغفلني.. أجبني على ما اسألك بكل

صراحة.. فإذا وجدت أن كلامك صادق فربما في ذلك نجاتك.. وإلا سأنحرك مثل أي خنزير نجس..هل فهمت..؟
هز الحاج آدم الملا رأسه بالإيجاب ، وهمس بصوت بالكاد يُسمع:
- إسأل..
- ما علاقتك بالسيدة حواء ذوالنورين..؟
- ليست لديّ أية علاقة بها.. أردت مساعدتها فقط..
- مساعدتها..؟
- نعم..مساعدتها..أردت أن أفعل الخير لها..
صمت قابيل العباسي للحظات ، ثم قال:
- وبماذا تساعدها..؟
- أن آتي لها بشريط الفيديو.. والله العظيم أنا أقول الحق.. بدليل أنها أعطتني خمسة عشر ألف دولار لذلك..؟
فقال قابيل العباسي منفعلاً، وبصوت عال:
- خمسة عشر ألف دولار..؟ عن أي شريط أنت تتحدث..؟ والله إذا لم تخبرني بكل التفاصيل سأذبحك.. إذا اكتشفت أنك تكذب أو تخفي بعض الأمور سأقطعك وأنت حي.. أفهمت..؟
هز الحاج آدم الملا رأسه ، وأخذ يبكي . انتظر قابيل العباسي لحظات ، لكنه صرخ به:
- لا وقت لدي.. أخبرني بسرعة.. من الألف إلى الياء.. ما قصة الشريط..؟ وأين أجده الآن..؟ من أنتم..؟ لمن تنتمون من الأحزاب والمليشيات العميلة..؟ أين مكانكم الذي تخفون فيه ضحاياكم..؟ وكيف يمكن الوصول إلى البقية..؟
وضع قابيل العباسي المبرد على الطاولة القريبة ، وتقدم نحو الحاج آدم الملا ، صار وراء الكرسي ، ثم امسك بفروة رأسه ، وجرها إلى الخلف ، ثم وضع نصل السكين على عنقه ، قائلاً:
- الآن تكلم.. وإذا ما شعرت بشيء من الكذب أو التمويه في كلامك سأجز عنقك..فهمت..؟
* * *
مرت أربعون دقيقة من الوقت ، روى الحاج آدم الملا خلالها كل التفاصيل ، بصدق ، كاشفا عن أسماء الذين معه ، وأماكنهم ، وتاريخ كل منهم ، وما جرى مع حواء ذوالنورين ، ومع قابيل الفهد ، والأستاذ الجامعي العلماني ، وآخرين ، وأرشده إلى كيفية الوصول إلى المكان.
فوجئ الجميع بصعود قابيل العباسي ، غاضباً، وبيده رزمة من النقود

التي كانت مع الحاج آدم الملا . نظر إلى الجميع بوجه مكفهر ، التفت إلى آدم ذوالنورين ، وقال له:
- إنه لك.. أنت تعرف القصة وما فيها.. إفعل فيه ما تشاء.. فهو لك.. ويمكنك أن تعرف منه كيف تم إغتيال والدك..؟
التفت نحو الرجال الثلاثة وقال لهم آمرا ً:
- أنتم تعالوا معي.. لدي مشوار قصير عليّ أن أنهيه..
ثم التفت إلى سائق السيارة الثانية وقال له آمرا ً:
- وأنت.. أبق مع الأستاذ آدم.. ربما يحتاج لمساعدة.. سأرجع بعد قليل..
بعد ذلك التفت إلى آدم ذوالنورين ثانية قائلا ً، بلهجة آمرة:
- ستحقق معه وحدك.. لا أحد معك.. لا تخف.. إنه مقيد بقوة، ولا يستطيع الفرار أو الهجوم عليك.. إبق لأني أريد التحدث معك بأمر مهم.. بعدما أرجع..مفهوم..
وجد آدم ذوالنورين نفسه ، يجيب بنبرة مستسلمة:
- مفهوم..
نظر قابيل العباسي إليه مبتسما ً، بالرغم من ملامح الغضب المرتسمة على وجهه الأنيق . قام الرجال الثلاثة وتبعوه خارجين . هبط آدم ذوالنورين إلى قاع البيت الرهيب.
* * *

حينما خرجوا ، كانت سيارة مصفحة سوداء جديدة ، بدون سائق ، تقف عند الباب . أدى الحارسان التحية عندما خرج قابيل العباسي من البوابة ، وكان وجود السيارة المصفحة السوداء ، مسالة روتينية ، عند خروجه ، من هذا البيت . صعد أحد الرجال الثلاثة ليجلس خلف المقود ، وإلى جانبه صعد أحد الرجال ، أما قابيل العباسي ، فقد صعد إلى الخلف ، وإلى جانبه صعد رجل آخر . كانت السيارة مزودة بالأسلحة الرشاشة الأوتوماتيكية ، وكانت هذه إشارة إلى أنهم سيقومون بمهمة خاطفة ، ذات خطورة ، أو أنهم سيجتازون مناطق غير مناطقهم.
قال قابيل العباسي للرجل الذي جلس إلى جانبه:
- إتصل بالجماعة في الأعظمية والوزيرية لكي يجهزوا سيارتين مصفحتين أيضا.. وأنت (موجها كلامه للسائق).. توجه إلى بيت الأستاذ آدم ذوالنورين..
- صار سيدي.. أجاب السائق.
حين وقفت السيارة المصفحة السوداء أمام البيت نزل منها قابيل العباسي ، طالبا ً من الرجال الإنتظار ، وحراسة الفرع من دخول أي شخص مريب ،

فاستدارت السيارة بحيث صارت بمواجهة مدخل الفرع.
فتحت ْ حواء ذوالنورين الباب الداخلي ، لم تصدق عينيها حينما لمحت قابيل العباسي عند الباب الرئيسي . أحست بقلبها يخفق بسرعة هائلة ، فقد ظنت أن ابنها قد جاء معه . كانت مشاعرها مضطربة ، فهي حائرة بين لهفة لقاء ابنها وبين رغبتها في أن يتأخر ولو ليوم واحد عن مجيئه ، إلى أن تحصل على شريط الفيديو.
فتحت الباب الرئيسي ، كانت سيارتها تحتل المنطقة ما بين البوابة والباب الداخلي . رأت قابيل العباسي وحده ، وخلفه تقف السيارة المصفحة السوداء . أحست بشيء من الأمل في أن ابنها لا يريد العودة حاليا ً، وأن صديقه جاء ليخبرها بذلك ، فكرت أيضا ً بأن ابنها ربما جالس في السيارة ولا يريد الخروج لرؤيتها ، إلا أنها جفلت حينما رأت الظرف الذي كانت قبل ساعات قد سلمته إلى الحاج آدم الملا . شحب لونها ، وارتجفت شفتاها للحظة . لم تقل شيئا ، وإنما فتحت الباب له ، بصمت ، ليمر داخلا ً.
فكر قابيل العباسي وهو يمر مجتازا ً المسافة بين الباب الخارجي والداخلي بأنها أدركت بأنه عرف كل شيء ، لذلك ارتبكت ، ولم تبادره بالسلام ، لكن ما يشغله الآن هو مضاجعتها بأي شكل ، بل وتحقيق ما أراده وما فكر به خلال الطريق بين الشركة وهذا المكان. لقد شعر بتدفق الدماء إلى صدغيه ، والإنتعاظ في قضيبه ، فقد كان يشتهيها ، منذ أن كان مراهقا ً وصديقا ً لابنها أيام المراهقة ، حينما كانت تتبختر مع زوجها القاضي في الأورزدي باك ، بل وكثيرا ً ما مارس العادة السرية متخيلا ً نفسه معها ، لكنه أحس الآن بأنها صارت أجمل ، وأنضج ، من السابق ، بيد أنه ، بعد أن سمع من الحاج آدم الملا علاقتها بصاحب المخزن ، ومن ثم محاولتها معه ، أحس بها مبتذلة نوعا ً ما ، لكنه كان يحب ذلك النوع من النساء اللواتي فيهن شيئا من الإبتذال ، مشت أمامه صامتة . دخلا الدار.
في المسافة نفسها ما بين الباب الرئيسي والباب الداخلي فكرت حواء ذوالنورين بالظرف الذي بيده ، وأخذت تسأل نفسها : من أين له هذا الظرف؟ كيف حصل عليه؟ أيكون ذلك الرجل متواطئا ً معهم بالأساس؟ وأنهم هم من اختطفوا ابنها؟ لا .. لا .. هذا غير معقول . أحست بأنها تمضي إلى هاويتها ، لكنها لحد الآن غير متأكدة من شيء واحد ، هل هي تتجه إلى الهاوية ، أو أنها قد تجاوزتها؟
حينما صارا في الصالة وقفا بمواجهة بعضهما دونما كلام . لم تدعه للجلوس .

ظلا واقفين ، صامتين ، ينظر أحدهما للآخر ، وكأنه يدرس ما يدور في ذهنه . كانت المواجهة بينهما واضحة ، لا تحتاج إلى أقنعة اللياقة الإجتماعية والتمثيل اللفظي ، فدليل سقوط قناعها يمسكه بيده.

كان قابيل العباسي متوترا ً، تتأجج الشهوة في خلايا جسده بما لا يمكنه السيطرة عليها ، لكنه بالرغم من ذلك كان يهاب جمال هذه المرأة الأربعينية ، حيث اختلطت في أعماقه شهوته لمضاجعتها ، مع حاجته إلى مشاعر حنانها الأمومي الهائل . قال لها ، بهدوء ، مستفسرا ً، وهو يشير إلى الظرف الذي في يده:

- تعرفين هذا الظرف وما فيه..؟

ظلت صامتة ، ثم قالت بخوف وتردد ، محاولة أن تكسب بعض الوقت لترتب أفكارها التي تشوشت بالكامل ، إذ لم تعد تفهم شيئا:

- من أين لي أن أعرف..؟

مد قابيل العباسي يده داخل الظرف وأخرج المبلغ الذي فيه ، قائلا ً:

- خمسة عشر ألف دولار.. ألا تعرفين لمن هذه النقود..؟

صمتت . أحست أنه يعرف كل شيء ، لكن كيف . تقدم نحوها قليلا ً. أحست ببريق الشهوة في عينيه ، وفي أنفاسه المتقطعة . أدركت أنه يشتهيها بقوة ظلت تنتظر ما سيقوم به ، لكنه ظل واقفا ً في مكانه ، قائلا ً لها:

- هذا المبلغ حصلتُ عليه من الخنزير الذي يُسمى آدم الملا.. في محل آدم وحواء.. الذي تعرفينه وتعرفين صاحبه جيداً..

أحست برجفة تسري في أعماقها ، بل وتجلت واضحة في رجفة ذراعيها . انتبه هو لذلك ، ثم قال لها:

- هل هناك مكان يمكننا أن نتحدث فيه بهدوء..؟

أشارت صامتة إلى الصالون ، فابتسم ابتسامة صفراء ، قائلا ً

- هذا ليس مكاناً مناسباً.. لنذهب إلى غرفة النوم.. غرفة نومك..

فتحت عينيها متفاجئة . لكنها أرختهما مستسلمة ، وسارت أمامه صاعدة السلم إلى الطابق الأعلى . كانت تمشي أمامه ، وهو ينظر إلى مؤخرتها المثيرة ، وإلى ربلتي ساقيها المتناسقتين . كانت وهي تصعد تعرف ماذا ينتظرها . حينما صارا في الغرفة ، وقفت ْأمامه وظهرها إلى السرير . كان يقف أمامها متهيجا ً. قال لها بصوت مبحوح ، لكن هادئ ، وهو يحدق في عينيها:

- لقد اعترف لي الخنزير بكل شيء.. بكل شيء..

لم تستطع أن تجيبه بشيء ، فقد انكشف السر ، وأحست أنها تهوي إلى

بئر بلا قرار ، لكنها أرادت أن تعرف شيئا ، قبل أن تضيع في أعماق الظلمة بشكل كامل ، فسألت بهدوء وثبات:

- هل يعرف ابني آدم بذلك كله..؟
- لا.. إنه لحد الآن لا يعرف شيئاً.. لكنه يشك..
- هل تستطيع أن تمنع وصول كل هذه المعلومات إليه..؟
- إذا أردتِ ذلك..
- أريد ذلك..

وبدأت تنزع عنها ثيابها . فتحت أزرار قميصها ، فبرز صدرها الناهد برغم السوتيان الذي يحصره ، ثم انحنت لتنزع سروالها الداخلي ، وتفك سحاب تنورتها ، لكنه لم يصبر ، فدفعها إلى الخلف ، رفع تنورتها فانكشفت له بالكامل ، فتح ساقيها ، ورفعهما ، ونزع بنطاله بيد واحدة ، ثم أولجه فيها . كانت حارة ، ورطبة . أخذ يدخل فيها بقوة وعنف ، ثم صعد معها إلى السرير وهي تحته ، وأخذ نهديها بفمه ، فبدأت تتجاوب معه بالرغم من عدم رغبتها في أن تكون كذلك . كانت تحس وهو يولجه ويخرجه ، ثم يولجه بقوة أكبر بأن ابنها هو الذي يضاجعها ، إذ اختلط وجه قابيل العباسي ووجه ابنها آدم ، ولم تستطع أن تصد كل أمواج اللذة التي بدأت تغرقها غمرتها ، فأخذت تتأوه بالرغم منها . حاول أن يقبلها من فمها ، فمانعت ، لكنه قبض على وجهها بيده القوية ، وأخذ شفتيها بفمه ، مستغرقا ً بقبلة طويلة ، داعرة . أحس أنها بدأت تتراخى ، ومنحته شفتيها ولسانها ، وأخذت تمص شفتيه بلا وعي منها . إذن فقد استجابت له ، هكذا كان يفكر لحظتها ، وهو يقذف فيها ماءه ، بينما احتضنته هي بقوة ، وهي ترتجف عدة مرات بكامل جسدها.

أزاح نفسه عنها . مسح عضوه بأطراف الشرشف . نظر إليها ، كانت ، مستسلمة ، ذليلة ، ومفتوحة الساقين أمامه . ظل ينظر إليها للحظات ، ثم قائلا بحزم:

- هذه الفضيحة يجب أن تطمر إلى النهاية. سأذهب لكي آتيك بالشريط. وابنك لن يعرف بذلك.. لكن استعدي لكي تكوني زوجتي من هذا المساء.. سآتي بشاهدين هذا المساء، ومعي الشريط.. ستكونين زوجتي.. وإذا رفضت سأعرض الشريط على ابنك.. مفهوم..؟

وغادر الغرفة.

كانت حواء ذوالنورين مستلقية على السرير ، مستباحة الجسد ، منهارة . أخذت الدموع تسيل من عينيها ، نزلت من طرفي جفنيها . ظلت متمددة

على السرير تغمرها مشاعر متناقضة . تفكر مع نفسها ، هل تتجه هي
نحو الهاوية أو أنها قد اجتازتها . كانت تشعر بالضياع الكامل.

حواء و حواء
كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة والنصف حينما رن الهاتف النقال . رفعت حواء الزاهد السماعة بعد أن لمحت اسم حواء الكرخي على شاشة الجهاز ، فقالت بنبرة فيها ترحيب:
- أين أنت يا حواء..؟ نحن ننتظرك..
فجاء صوت حواء الكرخي ، اعتياديا ً:
- أنا الآن قريبة من البيت.. في منطقتكم.. اشتريت الأشياء التي طلبتها. هل تحتاجين شيئا آخر..؟
- لا..لا.. تعالي فقط..
- دقائق وأكون عندك..
كان الطعام جاهزا ً، وكانت الوجبة تقليدية للغذاء في البيوت العراقية ، وهو الرز مع مرق الفاصوليا البيضاء . فرشت قطعة النايلون على الأرض ، لكنها فكرت مع نفسها ، ربما ليس من عادة حواء الكرخي أن تجلس على الأرض لتأكل ، فسنوات حياتها الطويلة في الغربة ربما عودتها على ممارسة طقوس جديدة في الأكل .. ستسألها إذا جاءت.
لم يمر قت طويل حتى سمعت طرقا ً على الباب ، فنظرت من شباك غرفة الضيوف إلى الباب الخارجي ، فلمحت ظلالها ، وآثار الحذاء النسائي من تحت فتحة الباب السفلى ، فخرجت إليها.
رحبت بها ، واحتضنتها ، وكأنها أختها التي افتقدتها ، ولم تقابلها منذ فترة طويلة . تأثرت حواء الكرخي بحرارة الإستقبال ، والسعادة التي شعت من وجه حواء الزاهد الجميل ، والفرح الطفولي الذي رافق حركات الصبي آدم الملاك ، فقررت ألا تخبرها أي شيء عن مصير قابيل الفهد ، فهي لا تريد أن تحطم الفرح الذي تدفق على هذه الأسرة المسكينة ، وستترك الأمر للظروف المناسبة للإخبار.
لم تتوقع حواء الزاهد أن تكون صديقتها الصحفية حواء الكرخي بهذه البساطة والتواضع ، فما أن دخلت البيت حتى ملأته مرحا ً وحبورا ً بتعليقاتها المرحة ، وحيويتها ، وألفتها السريعة مع المحيطين بها ، حيث احتضنت آدم الملاك بمحبة وأخذت تغرقه بالقبل ، وهو بدوره فرح فرحا ً طفوليا ً واضحا ً لوجودها في البيت ، كما لم تتوان من الذهاب إلى غرفة النوم لتقبيل الرضيع هابيل وهو نائم ، حيث أحنت جسدها اللدن على المهد ومسته بشفتيها . كل هذه اللمسات الإنسانية عمقت محبتها في قلب

حواء الزاهد وملأتها سعادة لم تعرفها منذ أشهر طوال . وحينما سألتها إن كانت تفضل الأكل على الطاولة أو الجلوس على الأرض ، فأخذت تسخر بمرح من نفسها ، وبنفسها أخذت قطعة النايلون وفرشتها وسط غرفة الضيوف ، ثم أخذتا تعدان السلطة معا ً، فواحدة تغسل الخضروات ، وأخرى تقطع الخيار والطماطم ، وبينهما يقفز آدم الملاك متنقلا ً، غير قادر أن يخفي تهيجه العاطفي المرح لوجود حواء الكرخي بينهم.

لكن في غمرة المرح والحركة في المطبخ ، كانت حواء الكرخي تقتنص اللحظات بين فترة وأخرى لتلقي نظرة على وجه حواء الزاهد ، محاولة أن تقرأ شيئا ما على هذا الوجه الجميل ، وكانت ، برغم قرارها منذ لحظة دخولها إلى البيت بألا تتحدث عن اختطاف الأستاذ قابيل الفهد ، إلا أن قلبها كان ينقبض حينما تفكر بأن لهذه المرأة رائعة الجمال ربما قصة حب ، وأحلام جميلة مع هذا الرجل الذي لا يُعرف مصيره لحد الآن ، إذا ً، أو ليس من الأفضل أن تخبرها كي لا تنجر وراء أوهامها؟ ولكن لو أخبرتها فربما ستحطمها ، وتحطم هذا الجو السعيد في هذا البيت الكئيب ، فلماذا لا تنتظر لفترة أخرى ، فربما ستتضح الأمور.

انتبهت حواء الزاهد إلى نظرات ضيفتها ، فسألتها بتلقائية:

- هل هناك شيء تودين أن تخبريني به وتترددين..؟
- لا..ابداً..
- لكنك تنظرين إليّ بتأمل.. وكأنما تفكرين في شيء ما..
- أنظر إليك لأتأمل جمالك.. فأنت جميلة جداً.. جمالك ليس عادياً.. ربما رأيت مثل وجهك في لوحات الفنانين في عصر النهضة.. أو حتى في العصور اللاحقة..

ابتسمت حواء الزاهد لها ، وقالت بخجل:

- أنت تبالغين..أنا طبيعية.. مقبولة كما يُقال..
- لا.. أنت جميلة جداً..

نظرت حواء الزاهد إليها نظرة غامضة وقالت:

- لكن هل هذا هو حقاً ما كنت تفكرين به حينما كنت تنظرين إليّ تلك النظرات الجانبية المتأملة..

فوجئت حواء الكرخي من نباهتها ، فقالت بسرعة ، وبنبرة حاسمة:

- طبعاً.. وماذا هناك لأخفيه..؟
- لا أدري.. أنا أسأل فقط..
- بالمناسبة.. أردت أن أخبرك بأني قد اتفقت مع الأستاذ آدم الشبيبي، أن

ألتحق به إلى إتحاد الأدباء في ساحة الأندلس لحضور أصبوحة أدبية..
- اليوم..؟
- نعم.. اليوم.. يعني سأذهب بعد الغذاء.. لكني سأرجع إليك مساءً..
فجأة نظرت حواء الكرخي إليها وقالت لها بشكل مباغت:
- لماذا لا تأتين معي..؟
- إلى أين..؟
- إلى إتحاد الأدباء..
- أنا لم أذهب في عمري إلى أي مكان فيه محاضرات أو ندوات..
- جربي أن تذهبي..؟
- والأطفال..
- نأخذهما معنا..
فكرت مع نفسها للحظة ثم قالت وهي تهز رأسها:
- لا.. لا.. لا أستطيع..
- لماذا..؟
- أحس بنفسي غير مستعدة لمثل هذه الأمور حالياً..
نظرت حواء الكرخي إليها ، وتفهمت موقفها ، لكنها أدركت بأن هذه المرأة رائعة الجمال ، لديها شخصية جميلة ، وعقل يتسم بالرزانة.
ما أن انتهتا من إعداد السلطة حتى سُمع صوت بكاء الرضيع هابيل ، فقالت لها حواء الكرخي بمودة:
- إذهبي إليه.. وأنا سأعد المائدة..
غادرت حواء الكرخي المطبخ متجهة لغرفة النوم ، بينما أخذت حواء الكرخي تصب الطعام في الصحون ، وتنقلها إلى غرفة الضيوف.
بعد أن انتهوا من الطعام ، جاءت حواء الزاهد بالشاي المهيل . صبت لهما ، وجلستا على الكنبة تتحدثان ، بينما كان آدم الملاك مستلقياً على الكنبة المقابلة وهو يلعب بإحدى لعب الأطفال الآلية . نظرت حواء الزاهد إلى صديقتها ، وسألتها:
- لا تسخري مني يا حواء، لكني فعلاً أود أن أسألك عن الكثير من الأمور.. فأنا كما ترين لا أتابع الصحف، ولا أشاهد التلفزيون إلا نادراً.. لذا أريد أن أعرف بعض الأشياء الغامضة بالنسبة لي..
أحست حواء الكرخي بأنها أمام إنسانة نادرة في تواضعها وفي رغبتها بالمعرفة ، فقالت لها ، بلطف:
- إسألي يا حواء.. لا ترددي من أن تسألي أي سؤال.. فأنا صديقتك..

وبمقام أختك..

- أشكرك جداً.. أنا أريد أن أعرف فعلاً ماذا يحدث في هذه البلاد..؟

- ماذا تقصدين..؟

- أقصد أننا كنا نعاني من نظام قاسي، عنيف، ودموي.. قتل مئات الآلاف، وزج بالسجون بمئات الآلاف.. لكن..سقط ذلك النظام.. جاء الأميركان وأسقطوه.. صحيح أم لا..؟

- صحيح..

- لكن الأميركان سلموا الحكم للإسلاميين الذين هم مع إيران.. وأميركا ضد إيران.. أريد أن أفهم.. كيف جاء الأميركان من أقصى العالم ليسقطوا النظام السابق، الذي الكل يعرف أن الأميركان كانوا يدعمونه في حربه ضد إيران.. بينما يسلمون الحكم لأحزاب لا تخفي ولاءها لإيران..؟

نظرت حواء الكرخي إليها مستغربة ، ثم ابتسمت وقالت بمرح:

- تقولين إنك لا تفهمين شيئا..؟ وتريدين أن تفهمي..؟

- نعم..

- والله يا حواء أنت داهية في السياسة..؟

ابتسمت حواء الزاهد لها بلطف ، قوالت:

- تعلمت من حبيبي المرحوم أبي، ومن حبيبي آدم أبي هابيل..لقد كانا يتناقشان دائماً.. وكان أبو هابيل يعارض والدي، الذي كان من المنتمين القدماء لحزب الدعوة.. لكنه لم يكافأ على نضاله، وعلى سنوات شبابه التي قضاها في السجن، لأنه كشف لبعض قادة الحزب عن وجود عناصر انهارت في السجون وأعترفت على أعضاء آخرين، بل وتعاونت مع جهاز الأمن، من أجل انقاذ نفسها، فسببت بذلك إعدام العشرات، وتشريد عشرات العوائل، بينما هم الآن من القادة البارزين والمتنفذين في الحزب.. ويتبجحون بنضالهم.. إلا أن هؤلاء انتفضوا ضد أبي، ولولا حماية بعض القادة الآخرين من القياديين القدماء في الحزب، الذين يعرفون إخلاص والدي لألقوا به في السجن ثانية.. من أبي ومن أبي هابيل تعلمت بعض التفكير السياسي، لكني ما زلت أجهل الكثير، وما أتيحت لي الفرصة كي أفهم الأمور كما يجب، فأنا كما ترين منقطعة عن العالم.. وأنت جئت بمثابة النور الذي أضاء حياتي التي كانت مظلمة وكئيبة..

- يبدو أسئلتك تعلمتها من أبي هابيل وليس من أبيك..؟

- صحيح.. فقد كان ينتقد الوضع دائماً.. ويقول إن البلاد لم تمر على مدى عقود من الزمان بمرحلة إنحطاط سياسي وإجتماعي واقتصادي مثلما

تمر بها الآن.. بالرغم من أن الحصار قد رفع عن البلاد، وتدفق النفط من جديد..

- عليه الرحمة..لقد زرع في روحك بذرة الأسئلة..

سرحت حواء الزاهد قليلا ً في ذكرياتها ، لكنها انتبهت إلى أنها ليست وحدها ، لذلك التفت إلى صديقتها ، منتظرة الإجابة ، بينما ظنت حواء الكرخي أنها نسيت ْسؤالها ، فأسرعت بالإجابة:

- أنا أعتقد أن أميركا، لأهداف غامضة جداً، وربما واضحة جداً، تريد لهذه البلاد أن تغرق في الظلام، وأن تدخلها في أنفاق مظلمة لا نهاية لها.. تدخلها في متاهة لا دروب مفتوحة فيها.. وقد نجحت في ذلك.. فليس أفضل من هؤلاء الذين يحكمون اليوم يحققون هذا الهدف لها..

فقالت حواء الزاهد ، بإنفعال:

- هذا ما كان يقوله أبو هابيل، حبيبي آدم المحروم.. لكن إلى أين نحن..؟

- في المتاهـة..

- ما قصة المتاهـة..؟ الكل يتجه إلى المتاهة.. قرأت رواية متاهة آدم أو المرأة المجهولة،ثم متاهة حواء، للكاتب القتيل آدم البغدادي، والآن أقرأ له رواية أخرى تتحدث عن متاهة قابيل أيضا..

- سمعت من الأستاذ آدم الشبيبي عن وجود مخطوطات للكاتب آدم البغدادي لديك... كم بودي أن أقرأها..

- سأعيرك إياها بالتأكيد.. يمكنك أن تقرئي مخطوطتي متاهة آدم أو متاهة حواء التي انتهيت من قراءتهما، لأني أقرأ الآن في مخطوطة أخرى تتحدث عن متاهة جديدة هي متاهة قابيل..

- نعم.. يا صديقتي حواء.. نحن شعب ضاع في متاهة التاريخ منذ آلاف السنين.. نحن شعب محكوم عليه باللعنة.. شعب تعيس.. شعب شقي.. تعاستنا مثيرة للشفقة.. بلاد لم تهدأ لحظة عن أن تكون مسرحاً للحروب.. كل جيوش العالم تأتي لتستعرض قواها هنا..على هذه الأرض.. نحن مقبرة تاريخية.. وحتى في وقتنا هذا.. انتبهي لكل هذا الصخب الذي ترينه حولك.. المسيرات، التظاهرات، ما هي إلا شكل من أشكال هروب الإنسان من الوحدة، والقلق، والإكتئاب.. حياتنا كئيبة.. منحطة.. متخلفة.. نحن نعيش بشكل بدائي..

- لكن الكل يسعى إلى السعادة..أو على الأقل أكثر الناس حديثا عن سعادة الشعب هم الحاكمون بمصائر البلاد والعباد..

ارتسمت علامات الغضب المكتوم على وجه حواء الكرخي ، وقالت بنبرة فيها شيء من العصبية:

- السعادة..السعادة.. ما هي السعادة..؟ هل لك أن تعطيني مفهوماً للسعادة..

فوجئت حواء الزاهد بالسؤال .. لم تفكر بالأمر أبدا ً، فقالت بتلقائية ، ونبرة فيها عدم يقين واضح:

- لا أعرف أن أقدم تعريفاً للسعادة.. أنا لم أعرف السعادة إلا لحظات قليلة في عمري.. وربما يمكن أن أقول لك بأني الآن..في هذه اللحظة سعيدة..بوجودك معي، ووجود أبنائي حولي..وهما في صحة جيدة..

- إذاً السعادة في الرضا..؟ في المتعة..؟ في اللذة..مهما كان شكلها..؟ بينما حياتنا مليئة بالألم.. ومعاناة الروح.. أنت الآن محصنة بقلعتك الصغيرة هذه.. ببيتك الصغير الهادئ.. بإكتفائك المادي النسبي.. لكنك شبه منعزلة عن الناس..عن المجتمع.. لا تعرفين ما يجري.. مخلب واحد برز إليك..رسالة بسيطة تهددك..وجدت حياتك تنقلب إلى جحيم على إثرها..فكيف حينما لا تملكين بيتاً، ولا عملاً.. وليست لديك النقود.. وتعيشين في ظل هذا البؤس الإجتماعي والحصار النفسي من قبل حراس النوايا ومفتشي الضمائر.. خاصة إذا كنت امرأة..؟

- والحل..؟

- لا حل أمامنا.. أنا يائسة.. لأني لا أتوقع خيراً من هؤلاء الذين يحكمون البلاد..

- لكن ما هو دوركم أنتم.. أنتم المثقفون.. أنت وأمثالك.. وأمثال الأستاذ آدم الشبيبي، والأستاذ قابيل الفهد..؟

ص ُدمت حواء الكرخي حينما سمعت باسم قابيل الفهد ، لكنها تماسكت ولم تدع مضيفتها تنتبه لردة فعلها السريعة ، فقالت:

- نحن.. نحن.. لا حول لنا ولا قوة.. تتم تصفيتنا بكاتمات الصوت.. ألم يقتلوا آدم البغدادي.. وعشرات الأطباء، والقضاة، ورجال القانون.. وكبار المهندسين.. وأحلوا مكانهم شرذمة من مزوري الشهادات ليحتلوا المواقع في البلاد؟ هناك قرار غامض، من جهات غامضة اتفقت أن تدمرنا.. تقوم بتصفية اي عقل نقدي جريء في هذه البلاد، وكتم أي صوت جريء، ألا ترينهم يطاردون الشرفاء كما كانت الكنيسة تطارد السحرة في القرون الوسطى، موجهين إليهم شتى الإتهامات، لتلويث سمعتهم وإسقاطهم سياسياً..؟ لكن ربما تكمن بذرة النور في رحم المستقبل.. لا نعرف.. الكثير

من أصحاب الصوت العالي بين المثقفين اليوم، هم كانوا بالأمس يرقصون ويدبجون الخطب والقصائد في مديح الطاغية.. ومديح الحرب..اليوم يمدحون الحكام الجدد، بل صاروا هم مستشاريهم وأبواقهم الإعلامية.. وهناك مجموعة ضعيفة.انتهازية.لا تريد أن تغامر بالمكاسب التي حصلت عليها..

نظرت حواء الزاهد إليها ، وهي تستمع لنبرة الغضب الجريء في صوتها ، وتقرأ ملامح اليأس والعزيمة المتصارعين على صفحة وجهها ، فأحست بدفق من مشاعر الشفقة والحنان الأنثوي نحوها ، فقالت لها بنبرة مواساة:

- وأنتِ..؟ هل ستستقرين هنا أو ستغادرين البلاد ثانية؟ أليس هناك مشروع زواج أو أي شيء من هذا القبيل يغير مسارات حياتك؟

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه حواء الكرخي ، وقالت :

- زواج..لا.. أنا أكره أن أكرر أخطائي.. أنا صرت لا أثق بالرجال.. هؤلاء.. أقصد الرجال، ليسوا سوى أطفال كبار ساخطين.. خاصة الرجال الشرقيون، إنهم لا يفكرن بعقولهم.. وإنما بقضبانهم.. حتى وإن عمل عقلهم، فليس أبعد من أن يتفنن هذا العقل في تلبية أوامر القضيب..

شعرت حواء الزاهد بالإحراج والخجل من إشارات صديقتها الفاضحة ، فهي لم تتحاور مع شخص آخر في الجنس غير حبيبها آدم المحروم ، لكنها ضحكت من هذه التعابير التي أطلقتها حواء الكرخي .. فجأة لملمت حواء الكرخي حقيبتها ، واستعدت للذهاب ، وهي تقول:

- الأستاذ آدم الشبيبي ينتظرني في الإتحاد.. علي أن أسرع وإلا سأتأخر عليه وعلى الندوة.. لكن عديني أن تذهبي معي ذات مرة.. شيء مهم أن تخرجي من شرنقتك هذه.. عليك أن تتحرري من أسرك هذا.. أنت إنسانة شابة، وعقلك متوقد.. من الضروري أن تشاركي في الفعاليات الإجتماعية والإنسانية..

نظرت حواء الزاهد بإرتباك وقالت:

- لا أعرف يا حواء.. أعتقد أنني لست بالمستوى الثقافي الذي يؤهلني للمشاركة في الندوات وحضور النشاطات الإجتماعية..

- مستوى.. عن أي مستوى تتحدثين..؟ ليس للأمر علاقة بالمستويات، وإنما بك أنتِ.. أنت التي يجب أن تتحرري من أسر الماضي والذكريات.. أن تعيشي حياتك.. أنت لا تمارسين الحياة يا حواء..

ضحكت حواء الزاهد ببراءة ، وقالت سائلة بمشاكسة:

- كيف لا أعيش..؟ وماذا أفعل الآن.. ألا أتنفس وآكل وأشرب وأربي ولديّ..؟ أليست هذه هي الحياة..؟

فردت حواء الكرخي بحزم:
- لا.. ليست هذه هي الحياة فقط.. أن تأكلي وتشربي لا يعني أنك تمارسي الحياة.. وأسمحي لي بالقول.. وعذراً عن التشبيه.. الحيوانات أيضاً تأكل وتشرب.. لكن أنت إنسانة..امرأة.. يجب أن تعي ذاتك..تعي وجودك..
ارتسمت علامات حزن شفيف على وجه حواء الكرخي ، وقالت بصوت خافت:
- أحس كلامك بشكل غامض.. تذكريني بحبيبي آدم المحروم.. أفكر أحياناً في معنى وجودي، وأفق حياتي.. فأرتعب.. أخاف.. التفكير شيء مرعب..يجلب الأحزان والكآبة..
نظرت حواء الكرخي إليها بمودة ، ثم قالت وكأنها تستسلم أمام حزنها المفاجئ:
- هذا صحيح.. كثرة التفكير تجلب كثرة الغم.. لكن أليس ذلك أفضل من إلغاء العقل وتعطيله عن التفكير.. ألا يسمو هذا الشقاء الفكري بالإنسان إلى ذرى سامقة، ويوحده بكل هذا الوجود..
فردت حواء الزاهد بنبرة مليئة بالمرارة قائلة:
- لا أدري.. كلما أتوغل في التفكير أجد نفسي أخف.. أتعالى عن واقعي المرير هذا.. لكني حينما استرجع حياة أبي.. وأخي.. وزوجي.. وآدم المحروم، وأفكر في مصير آدم البغدادي.. أجد أننا ندور في دوامة لا تنتهي.. فكل هؤلاء الشهداء.. وعمل المفكرين والفلاسفة.. لم يأت بثماره..يكاد يكون كله عبث..فقد كانت النتيجة هذه الحثالة من السياسيين.. وكأننا كنا نحرث في البحر..
فقالت حواء الكرخي بمرح ، وهي تنهض إستعدادا ًللخروج:
- بدأنا نتحدث شعراً.. لم أكن أعرف أنك تتحدثين بهذه اللغة السليمة.. لكن لا تيأسي يا حبيبتي.. فكما يقول محمود درويش: آخر الليل نهار..
- أي نهار سينفع حينما تكون الروح مظلمة يا حواء..؟
نظرت حواء الكرخي إليها بدهشة ، وقالت:
- لا..لا.. يبدو أنني لم انتبه إليك جيداً.. ها أنت تتحدثين عن ظلام الروح.. والحراثة في البحر..يبدو أني أمام امرأة أديبة..ولم انتبه لذلك..
ضحكتا من قلبيهما . نظرت حواء الكرخي إلى الصبي آدم الملاك ، فوجدته ما زال منهمكا بلعبته ، فانحنت عليه وقبلته ، فتعلق هو برقبتها وقبلها أيضا قبلة طفولية قوية . ضحكوا جميعا ، وأوصلتها عند الباب ، على وعد أن تمر مساء ً.

حين دخل قابيل العباسي يتبعه الرجال الثلاثة إلى البيت الكبير ، كان يحمل كاميرا فيديو في بيده . كانت غرفة الإستقبال خالية ، ورأى السائق الذي تركه مع آدم ذوالنورين يقف على باب أحد الغرف في أعماق البيت.
لم يسأل شيئا ً بالرغم من أن السائق تقدم ليخبره بما حدث ، إلا أنه رفع كفه مشيرا ً بأن ينتظر ، فصمت السائق ، بينما هبط هو إلى الطابق الأسفل . وحين وصل إلى القاعة التي فيها يجري التحقيق مع المخطوفين وجد الحاج آدم الملا غارقا في دمائه ، لكنه غير مذبوح ، وفمه مليء بالدم . انتبه جيدا ً، فوجد انه قد ر ُمي بالرصاص ، إلا أنه وجد بنطاله منزوعا ً إلى القدمين ، والدماء تملأ منطقته الوسطى ، وحينما أقترب مدققا ً، عرف أن آدم ذوالنورين قطع قضيبه بالسكين ، ثم رماه بالرصاص . صعد سريعا ً إلى الطابق الأعلى.
دخل قابيل العباسي الغرفة التي يجلس فيها آدم ذوالنورين ، وأغلق الباب خلفه . وجده جالسا ً على الصوفة ، يداه ملطختان بالدم الجاف ، نظراته تائهة ، لكن ثمة بريقا ً نزقا ً يشع من عينيه . نظر آدم ذوالنورين إليه للحظات نظرات غامضة ، وكأنه لم يعرفه للوهلة الأولى . فجأة ، نهض وقال له بنبرة عصبية:
- لقد قتلته..لقد قتلته.. أريد أن أقتلهم جميعاً..
نظر قابيل العباسي إليه بهدوء ، مدركا ً أنه في حالة نفسية متهيجة ، وغير مستقرة ، وقال بهدوء ، بنبرة متعاطفة:
- عرفت أنك قتلته.. لقد شاهدت ما فعلته به..
- نعم..قطعت قضيبه ووضعته في فمه..القضيب الذي اغتصب أمي به..
وانهار باكيا ً ملقيا ً رأسه على كتف قابيل العباسي ، الذي احتضنه ، وأجلسه على الصوفا ثانية ، وأخذ يقول وهو يبكي :
- لم أستطع أن أتصور أن هذا الخنزير قد مس شرف أمي، بل إن الحقير أخذ يشتمني، ويشتمها بأوسخ الألفاظ.. إنه كان يعتقد بأنها قد نصبت له فخاً، وهي التي دلتنا عليه..
- أعرف ذلك..
نظر آدم ذوالنورين إليه مستفسرا ً، دون أن يسأله ، فأجاب قابيل العباسي على نظرته ، قائلا ً بهدوء:
- لقد كان يعتقد ذلك.. عندما حققت معه.. لكنني لم أسأله عما جرى

مع والدتك السيدة حواء.. وإنما كان هدفي أن أعرف أماكن تواجدهم، وأوكارهم التي يحتفظون فيها بالمخطوفين.. وقد أخبرني بكل ما يعرف.. على ما أعتقد.. إنه وكر على أطراف منطقة الحسينية في الرصافة..حيث هناك خرائب قريبة من بستان هناك.. وقد ذهبنا إلى هناك، معززين بمجموعة من جماعتنا في الأعظمية والوزيرية لتسهيل مرورنا من تلك المناطق.. لكننا لم نجد أحداً.. سنكررالغارة لاحقا.. لكن عرفنا أين يسكنون.. وسنصفيهم واحداً واحداً.. وفي أماكن سكنهم..

كان آدم ذوالنورين يستمع إليه ، ولكنه كان واضحا ً أنه يعيش صراعا ً داخليا ً، بينما استمر قابيل العباسي متحدثا ً:

- أما في ما يخص الوالدة المحترمة.. فأرجو أن لا تتحدث فيها مع أحد.. هل كان أحد معك عند التحقيق..؟

- لا..

- جيد جداً.. أنا سأتحدث مع الوالدة المحترمة كي تعمل معنا.. أي نستفيد منها في تزويدنا بالمعلومات.. أو أن تجلب لنا المعلومات..

فقال آدم ذوالنورين منفعلا ً:

- لكني لا أستطيع أن أراها، لا أستطيع أن أنظر في وجهها..

- ليس هذا بمشكلة.. ابق بعيداً حالياً.. أنا سأرتب معها.. سأفهمها وضعك..سندخلك دورة لمدة أيام.. سترحل إلى الحبانية لثلاثة أيام وإلى بنت جبيل لأربعة أيام.. هناك شيوخنا وأمراؤنا.. ستتعلم كيفية تفخيخ السيارات، وزرع الألغام..وأشياء استخبارية أخرى.. أما في ما يخص الوالدة المحترمة، فاترك الأمر لي.. أنا سأهتم به، وسأحله بالطريقة المناسبة.. قم اغسل يدك.. وستذهب حالاً..

قال ذلك وخرج . نهض آدم ذوالنورين كالممسوس ، وتبعه ، لكنه دخل إلى الحمام ، ليغسل يده . طال مكوثه في الحمام . بحيث أثار استغراب البقية ، فأمر قابيل العباسي ، أن يتأكدوا مما يجري معه ، فقام أحدهم طارقا ً باب الحمام.

كان آدم ذوالنورين في حالة نفسية مزرية . تنقل بين الحضور والغياب ، يصحو على نفسه ومحيطه لدقائق ، ويغيب عما حوله لدقائق أخرى ، وحينما يعود لنفسه ، لا يتذكر أي شيء عن فترة الغياب . وحينما طُرق باب الحمام ، كان في حالة الصحو ، ففتح الباب وخرج دونما أية كلمة.

كان قابيل العباسي ، يريد بكل الأشكال إبعاد آدم ذوالنورين إلى خارج بغداد ، كي ينفرد بأمه حواء ، لذلك طلب من الرجال الذين معه ، تعجيل

أمر ترحيله ، لذا فأثناء تواجده في الحمام ، قاموا بإتصالاتهم ، وبعد قليل ، رن هاتف الرجل الذي إتصل ، فأخبروه بتواجدهم عند الباب.
حينما دخل آدم ذوالنورين إلى الصالة لم يجد قابيل العباسي ، فجلس على الصوفا بهدوء ، بينما جلس الرجال الأربعة ، صامتين أيضا . كان يحس بالغربة بينهم ، فهو لا يعرف أيا ًمنهم سوى قابيل العباسي ، الذي برغم فارق السن بينهما ، إذ أن الآخر يكبره بخمس سنوات ، إلا أنه كان صديقا ًله ، ومرشدا ًمنذ أيام المراهقة.
كان الرجال الأربعة يجلسون وكأنهم موكلون بمراقبته ، إذ كانوا لا يرفعون نظرهم عنه ، إلا لماما . فجأة ، سأل عن قابيل العباسي ، فاستغربوا أن ينطق بإسمه عاريا ًمن دونما ألقاب كالعميد ، أو الأمير ، لكنهم يعرفون أيضا أنهما أصدقاء ، ويبدو بأن لديهم تعليمات بالإهتمام الخاص به ، لذا أجابه أحدهم بأن سيادة اللواء قابيل في مكتبه يشاهد شريط فيديو . أحس آدم ذوالنورين بوخزة في قلبه عندما سمع كلمة شريط فيديو .. وأخذ يسأل نفسه : أيمكن أن يكون هو نفس شريط الفيديو الذي تم تسجيله لأمه؟ لماذا ، إذا ً، ادعى بأنه لم يسأله سوى عن أوكارهم .. بلى .. بلى .. لقد قال بأنهم شنوا غارة على الوكر الذي كان هو مختطف فيه ، لكنه لم يقل كلمة واحدة عن الشريط .. ربما الشريط قد أخذوه معهم ، فليس من المعقول أنهم تركوه في الوكر ، وذهبوا..
فجأة رن أحد الهواتف الموجودة على الطاولة التي أمام الرجال الأربعة ، فأخذ السائق الهاتف ، وأجاب الشخص على الطرف الاخر ، ولم ي ُسمع منه سوى كلمة : حاضر .. حاضر سيدي .. ثم التفت إلى آدم ذو النورين ، وإلى بقية الرجال ، قائلا ً:

- وصلت سيارة.. هل أنتم جاهزون يا رجال..؟

نهض الرجال الثلاثة الآخرون ، بينما ظل هو جالسا ً، لم يفهم ما يدور ، فالتفت السائق إليه ، قائلا ً:

- أستاذ آدم.. السيارة جاهزة.. لنذهب..

قام آدم ذوالنورين . كانت نظراته تائهة ، شاردة ، وكأنه لم يفهم ما قيل له ، فقال له أحد الرجال حاسما ًالموقف:

- أستاذ آدم.. يجب أن نذهب.. وراءنا طريق طويل.. ومن الأفضل أن ننطلق الآن..

وقف الرجال منتظرين منه أن يتحرك لكنه لم يفهم بالضبط ما يجري ، فقد كان بينهم وغائبا ً عنهم . أشار إليه أحدهم بذراعه مشيرا ً إليه

بالتقدم عليهم في السير ، فمشى كالسائر في النوم . وخرجوا.
* * *
في مكتبه الفخم كان قابيل العباسي ، قد أوقف الشريط على لقطة جنسية فاضحة لحواء ذوالنورين وآدم الملا . ظل هو ينظر إليها طويلا ً، ثم أخذ هاتفه النقال ، وطلب رقمها ، وقبل أن تنطق بأية كلمة ، قال لها بفرح غامر:
- لدي إليك بشارة جميلة..
فجاء صوتها هادئا ، رزينا ً، مستسلما ً:
- هل حصلت على الشريط..؟
- كما وعدتك.. وهو أمامي الآن.. لقد شاهدته..
- هل أنت وحدك من شاهده..؟
- وهل أسمح لأحد آخر أن يرى هذه الفضيحة..؟
- هل ستعطيني إياه..؟
- مساءً..
- أريده الآن..
- إنتظري للمساء..
- لا.. أريده الآن..
- إذاً سأكون عندك بعد دقائق.. هل لديك شيء يؤكل..؟ أم آتي معي بالغذاء..؟
- لا أعرف ماذا تحب أن تأكل..؟ أنا لم أطبخ..
- إذاً سأطلب من الشباب أن يأتوا لنا بالطعام..
وأغلق الهاتف . سمع طرقا ً على الباب . أطفأ جهاز الفيديو والشاشة ، وسحب الشريط من الجهاز ، كما وضع نسخة أخرى منه ، في جارور الطاولة التي عليها الأجهزة.
حين فتح الباب واجهه أحد الرجال الثلاثة الذي أدى له التحية ، قائلا ً:
- سيدي.. لقد جاءت السيارة، وأخذت الأستاذ آدم إلى الحبانية.. هل تأمر بأي شيء آخر؟
- جيد.. أذهب إلى أحد مطاعم الجيدة..أحمل لنا كيلواً من المشاوي..وكذلك صينية من الرز البرياني.. وأحملوه إلى بيت السيدة أم آدم.. سأكون هناك..بانتظارك.. وجهز صينية أخرى للشباب أيضا..
- أمرك سيدي..
حين غادر قابيل العباسي غرفة نوم حواء ذوالنورين كانت هي في حالة

نفسية مشوشة . لم تكن تعرف أين هي؟ وماذا جرى بالضبط .. ؟ لم يخبرها هو إلا عن كونه صار يعرف كل شيء عنها؟ هل هذا يعني أنه يعرف عن علاقتها بصاحب المخزن أيضا .. ؟ . هل تجاوزت الخطر ، واحتمالات الإبتزاز فعلا ً، حينما وعدها بأنه سيأتيها بالشريط .. ؟ . وماذا كان يقصد عندما قال لها بأنه سيتزوجها .. ؟ إنها تكبره بعشرة أعوام تقريبا ً.. ؟ صحيح أنه وسيم ، وقوي .. نعم قوي .. كانت تشعر بقضيبه يدق جدران رحمها .. لكنها كانت تنظر إليه كصديق لابنها ، كإبن لها ، بالرغم من أنه يكبر ابنها بخمس سنوات .. لكن هل ستقبل بأن تكون زوجته .. ؟ وماذا لو رفضت .. ؟ هل سيؤذيها ويؤذي ابنها عند ذلك .. ؟ وماذا سيكون موقف ابنها آدم إذا تزوجته .. ؟ لماذا لم يأت ابنها إليها .. ؟ لماذا لا يريد رؤيتها .. ؟ لا بد أن هناك سرا ً في هذا الرفض العنيد .. ؟ إلا أن هاجسا ً في أعمق أعماقها كان يهمس لها بأنها قد ضاعت إلى الأبد .. فإذا كان سرها مع مجموعة ، وطرف واحد ، فهو الآن صار مكشوفا ً لطرف آخر كانت تتجنب أن يعرف شيئا عما جرى لها؟ ومن يضمن لها بأن قابيل العباسي لن يبتزها بالشريط .. ؟ إن أول شيء فعله ، حينما سمع بالقصة ، هو مضاجعتها على سريرها الزوجي ، في غرفة نومها !! صحيح أنها سل ّمت ْ نفسها له ، وهي التي بدأت تنزع عنها ثيابها وسروالها الداخلي ، لكن الأمر كان واضحا ً من طلبه بأن يكون الحديث في غرفة نومها .. ؟ نعم .. سيبتزها .. لكن ربما هو يفي بوعده بأن يأتيها بالشريط .. حينها ستمنحه نفسها برضاها الكامل .. عليها أن تنتظر إلى المساء.

فوجئت حواء ذوالنورين حينما رن هاتفها ، ورأت اسم قابيل العباسي على شاشته . لم تكن تعرف بأي أسلوب أو نبرة يجب أن تتحدث معه ، إذ لم تتوقع أن يتصل في هذا الوقت ، فلم يمض عليه أكثر من ساعتين على خروجه منها ، إلا أنه أنقذها من إحراج الموقف ، بل وقلب مزاجها كليا ً، حينما أخبرها بأن شريط الفيديو صارعنده.

لم تكن تعي مشاعرها في تلك اللحظة ، هل هي حزينة أو فرحة .. ؟ هل هي صارت تحبه ، أو ما تزال تخافه .. ؟ هل عليها أن تتزوجه ، أو تكتفي بأن تصير عشيقته .. ؟ أليس أفضل لها أن تصير عشيقته ، يأتيها عند ما يشاء ، أو عندما تشاء هي ، على أن تصير زوجته وهو مثل ابنها .. ؟ ستكون فضيحة بلا شك .. ثم ماذا لو عرف ابنها ، التي تحس أنها فقدته .. ؟ لا .. عليها أن تسيطر على قابيل العباسي كي تضمن الحماية

والسلامة لابنها أيضا . أحست بإسترخاء داخلي .. يكفيها أن ابنها معافى ، ويتنفس الهواء ، وليس بيد هؤلاء الخنازير القتلة.
شعرت بنبرة الفرح والغرور في صوته ، لكن أسعدها حقاً أنه تجشم المخاطر من أجل أن يحصل على شريط الفيديو ، وبهذه السرعة ، إذ ظنت أنه سيماطل معها ، وربما سيطالبها بمال مقابل ذلك .. فهي لا تعرف كيف يفكر أعضاء هذه العصابات . إنه عصر مجنون .. إنها نهاية العالم بالنسبة لهذا البلد الفسيفساء ، هذا البلد الذي تكشف عن أنه خديعة كبرى .. كشف عن تاريخ مزيف ، بلد مثل بيت متداع ، متماسك مثل بيت العنكبوت . أين كانت كل هذه الأحقاد بين الناس دفينة .. ؟ هل هم مجتمع متوحش كان يضفي على نفسه هالة من القداسة بأنه أصل الحضارات .. ؟ ثم أية حضارات هذه .. ؟ كل شعوب العالم لديها حضارة واحدة مستمرة ، وتتجدد عبر العصور ، إلا هذه البلاد التي مرت بها خمس حضارات ، كل واحدة منها تلغي الأخرى ، بل تحطمها وتمحي معالمها ..!! إنه تاريخ من العنف والدم تفتخر به هذه البلاد؟ ثم أين كل شعارات الوطن الواحد ، والشعب الواحد ، والدين الواحد .. ؟ أي شعب مجنون هذا الذي يقترف كل هذه المذابح ثأراً لقضية مضى عليها ألف وأربعمائة عام .. ؟
كانت تفكر مع نفسها ، منساقة مع معرفتها وثقافتها ، لكنها بالرغم من هذا الإرتباك الذي هي فيه ، كان ثمة وضوح ، وصفاء أنثوي راسخ في أعماقها ، إذ كانت تعي بأنها جميلة ، ومثيرة ، وأنها مرغوبة من الرجال ، وأن قابيل العباسي متيم بها ، بل يعشقها ، نعم يعشقها .. لقد كان ذلك واضحاً في عينيه دون أن يقوله ، وواضحاً كان من إندفاعه المثير وهو يخترقها ، وأن عليها الآن أن تنتبه لوضعها ، وأن تستقرعلى حال واحد ، وتكف عن مغامراتها الطائشة لإشباع شهوتها المتأججة دائماً ، عليها أن تستقر مع قابيل العباسي ، فهو شاب وسيم ، بل سيحسدنها نساء المنطقة حينما يعرفن بأنه يزورها ، فهو مهيوب ومطاع في المنطقة .. أكيد سيخمّ
ن ما يدور بينهما ، فهو معروف في المنطقة ، بعلاقاته النسائية وغرامياته ، منذ سنوات ، وليكن .. سيحسدنها ، لكنهن سيمتن من الغيرة أيضاً ، فكلهن يرغبن أن يكن مع هذا الشاب الوسيم ، البطل في نظرهن .. نعم .. هي ربما اجتازت الهاوية .. عليها أن تستمتع معه ، وتسيطر عليه .. فجأة .. أحست بتقلصات في رحمها ، وارتعاشات تشبه الأمواج الخفيفة ، أو مثل تيار ماء دافئ يجتاح باطن رحمها ، ورطوبة في فرجها.

بدأت تتدفق على عين أعماقها الداخلية مشاهد متنوعة ، لكنها جميعا ً تتركز حول قابيل العباسي ، فهي تراه هنا عليها ، في داخلها ، وجهه الوسيم وهو يقبلها ، ويمص شفتيها ولسانها ، وشحمة اذنها .. ويعصر نهديها ، ويمص حلمتيها .. هنا تداخلت صورة وجهه مرة أخرى مع صورة ابنها وهو فوقها .. ارتجفت .. التفتت حولها ، فرأت زوجها ، ينظر إليها من خلال صورته الكبيرة التي تتوسط الصالون . راودها شعور خفيف بالذنب ، إلا أنها بالرغم من ذلك ، أحست بإندفاع غريزي لكي تذهب إلى الحمام ، وتتزين للقاء قابيل العباسي ، فهي تريد أن تعجبه أكثر .. ابتسمت مستغربة من نفسها ، وهي تفكر مع ذاتها : هل بدأت تحب قابيل العباسي .. ؟

أحس آدم ذوالنورين بالخوف وهو يصعد السيارة التي ستقله إلى الحبانية ، لكنه كان أشبه بالسائر إلى غرفة الإعدام .. لم يكن يدرك الوضع الذي هو فيه بالتمام .. أحس بالحضور في الزمان والمكان حينما رآى عند الباب رجلا ً ضخم الجثة ، بلحية مدببة ، مشوهة في إنتشارها على وجه المتورد ، وعلى رأسه غطاء أبيض ، ويرتدي دشداشة قصيرة ، ونعالا ً من الإسفنج تبرز منه أصابع قدميه ذات الأظافر غير المشذبة . ابتسم الرجل له ، وهو يفتح له الباب ، قائلا ً بترحيب:

- حيا الله النشامى.. يا أهلا بالأستاذ آدم.. تبارك الله كم أنت وسيم وكأنك من الغلمان المخلدين الذين إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا.. ما شاء الله.. ما شاء الله..

لم يقل آدم ذوالنورين شيئا ً، وإنما دخل السيارة صامتا ً، وفي الداخل رأى رجلا ً آخر يرتدي نفس ملابس الرجل الأول ، لكنه ضئيل الجسم ، شاحب الوجه ، بعينين صغيرتين جدا ُ، وفم مشوه يكشف عن أسنان صفر وسود . صعد الرجل الأول إلى جانبه . كان السائق يرتدي الثياب المدنية ، جالسا ً خلف المقود ومستعدا ً للإنطلاق . فجأة ، س ُمع صوت سيارة قادمة ، توقفت خلف السيارة التي دخل آدم ذوالنورين إليها . نزل من السيارة الأخرى رجل ضخم الجثة ، بشع الملامح ، بشارب كث ، مخيف المنظر ، يرتدي ملابس مدنية أوربية . توجه نحو السيارة التي أمامه . فتح بابها الأمامي ، وجلس ، بعد أن ألقى السلام ، فرحب الجميع بسيادة اللواء . أشار اللواء بسبابته إلى السائق بأن ينطلق . فانطلقت السيارة.

أحس آدم ذوالنورين بفخذ الرجل الضخم الجثة الذي يجلس إلى جانبه تلتصق بفخذه ، وبدأ الرجل بحركة إحتكاك مقصودة ، بينما وجه نظره عبر

النافذة ، ثم التفت إلى آدم محاولاً أن يستقرئ ردود فعله ، فسحب آدم فخذه بحركة واضحة تعبر عن عدم قبوله ذلك ، إلا أن الرجل الضخم ظل يواصل إلصاق فخذه بفخذ آدم ذوالنورين ، ثم التفت إليه ، وابتسامة مرحة على وجهه ، وهو يقول:

- لا تؤاخذني أستاذ آدم.. أنا ضخم.. والسيارة ضيقة بالنسبة لي، فأرجو المعذرة إذا ما ضايقتك قليلاً..

نظر اللواء البشع الوجه ، الذي يجلس في الأمام ، نظرة لا مبالية إلى الخلف ، وكأنه سمع شيئاً تافهاً ، أما الرجل الآخر الذي على الجانب الآخر ، فنظر إلى إلتصاق الفخذين ، وارتسمت على وجهه الشاحب ابتسامة خبيثة . لم يكن أمام آدم ذوالنورين إلا أن يستسلم للوضع الذي هو فيه ، وغاب عن الزمان والمكان في متاهة أعماقه المظلمة والغامضة.

* * *

رشت حواء ذوالنورين العطر على جانبي وجهها ، وعنقها ، وصدرها ، وخرجت إلى الصالة بإنتظار قابيل العباسي . كانت تفكر مع نفسها ، أنها ، خلال هذا اللقاء المقبل ، ستعرف بشكل مؤكد ، إن كانت قد تجاوزت الهاوية ، وتم إنقاذها ، وأنها ستعيش بسلام ومتعة ، مع عشيق ، أو حتى زوج ، يصغرها بعشرة أعوام ، أم أنها قد ضاعت بالكامل ، وعليها أن تواجه سقوطها وجهاً لوجه ، وأن تتحول إلى محظية ، لا أكثر.

سمعت طرقات على الباب . توجهت لتفتح ، لكنها قبل أن تخرج ، وقفت أمام المرآة الطويلة التي عند باب الصالة ، نظرت إلى نفسها ، ثم استدارت قليلاً ناظرة إلى مؤخرتها وظهرها . امتلأت رضاً عن نفسها ، وخرجت.

كان قابيل العباسي ، يقف عند الباب وعلى وجهه علامات الانتصار والزهو والشوق . وخلفه السيارة المصفحة السوداء . حين رآها وهي تقبل عليه لفتح الباب إنبهر بجمالها الأربعيني المهيب ، فأحس بالدماء تتدفق في جسده ، متجهة نحو مناطقه السفلى.

ما أن دخل قابيل العباسي البيت ، حتى استدارت السيارة المصفحة السوداء ، وصارت بمواجهة الشارع ، ووقفت مقابل الدار من الجهة الأخرى . تحركت السيارة قليلاً ، للإمام حينما واجهت سيارة عادية مقبلة . توقفت السيارتان بموازاة بعضهما . فتح السائقان النوافذ القريبة من كل منهما ، فأخبر صاحب السيارة العادية بأنه يحمل الغذاء للواء ، حسب طلبه ، فرجعت السيارة المصفحة للوراء ، وصارت السيارتان مقابل الباب . نزل السائق ورجل آخر من السيارة العادية ، حيث حملا صينية الطعام ،

وأكياس نايلون أخرى مليئة بالطعام . طرق أحدهما الباب ، فخرج قابيل العباسي إليهما . فتح الباب ، وقال لهما بأن يضعا الطعام عند الباب الداخلي . قاما بما أشار ، وخرجا وهما يؤديان التحية . أغلق الباب خلفهما ، لكنه ، عاد فأشار إلى من في السيارة المصفحة ، فنزل ثلاثة رجال مسلحون ، وأدوا التحية ، فطلب منهم أن يجهزوا البيت بمولدتين كهربائيتين كبيرتين ، مع كاتم للصوت ، بحيث تزودان البيت بالكهرباء طوال اليوم ، وأن يتم ذلك حالا ً، فقالا له بأن الأمر ربما يحتاج إلى بعض الوقت للتنفيذ ، فقال لهما بأن عليهما التصرف حالا ً، وأن يتصلا لنقل المولدتين الآن ، وأن يأتوا بالكهربائي ليشد الأسلاك ، وبالميكانيكي لينصب حنفيات التبريد .. كما أمر بوضع نقطتي حراسة دائمة ، واحدة برأس الفرع ، وأخرى عند الباب ، فأدوا التحية ، وهم يؤكدون بأن الأمر صار قيد التنفيذ . فجأة ، نزل السائق وبيده الهاتف عجلا ً، وهو يقول :

- سيدي.. المهمة نجحت.. تم تفجير السيارات في الكرادة، والحرية وساحة الخلاني.. في وقت واحد تقريبا..

صمت قابيل العباسي لحظة ، ثم سأل :

- وعملية عرصات الهندية..؟
- لا أخبار لحد الآن سيدي..
- طيب.. أنا في الداخل.. لا أريد أحداً يزعجني الآن..
- والجثة.. سيدي..؟
- أية جثة..؟
- الموجودة في المقر.. التي أعدمها الأستاذ آدم..
- أأ.. ذاك الرجل... خذوا الجثة مساءً وأرموها قرب البيت الذي تراقبونه في العرصات.
- أمرك سيدي..
- نفذوا الذي قلته.. مساءً أريد أن أرى المولدات هنا.. مفهوم..؟
- أمرك سيدي.. سينفذ حالاً..
- أنا في الداخل.. لا أريد انتباهاً كاملاً.. ولا تزعجوني.. لا أتأخر كثيرا..كونوا جاهزين..

قال ذلك وهو يدخل البيت ، دون أن يلتفت إلى الرجال الذين أدوا التحية مرة أخرى . عند الباب حمل الصينية ودخل ، ثم عاد وأخذ أكياس النايلون المليئة بالطعام أيضا ً.

بالرغم من أن حواء ذوالنورين قد هيأت نفسها لإستقباله ، إلا أنها أحست

بعدم الإرتياح حينما لاحظت المسدس على حزامه ، لكنه مخفي تحت البلوزة الطويلة ، إذ لم تنتبه لذلك في المرة الأولى ، لكنه الآن وضعه على الطاولة . قامت هي بإعداد طاولة الطعام ، حيث وضعت الصحون والملاعق لهما ، بينما أخذ هو يحمل الطعام ويضعه على الطاولة الكبيرة.

كان يتصرف معها بتلقائية أدهشتها ، وكأنها عشيقته منذ فترة طويلة ، أو كأنما هي زوجته ، أو أمه . تصرفه هذا دفعها للإسترخاء قليلا ً، فقد كانت محتارة في طبيعة علاقتهما.

ما أن جلس على المائدة حتى طلب منها أن تجلس بالقرب منه . جلس هو على رأس المائدة وأجلسها على الكرسي الجانبي القريب منه . كان المسدس من جهتها . ارتبكت وهي تنظر إلى المسدس . انتبه هو فضحك ، وأخذ المسدس من الجهة القريبة منها ووضعه في الجهة الأخرى ، وهو يقول:

- لا بد أن تتعلمي على السلاح، والرمي..

نظرت إليه مستغربة وقالت:

- لماذا..؟
- لتدافعي به عن نفسك..
- ضد من..؟
- ضد الأعداء..
- أي أعداء..؟
- أي من يكون.. كل إنسان ممكن أن يتحول إلى عدو في لحظة ما..

نظرت إليه مستغربة ، بينما كان هو يوزع اللحم والرز في صحنيهما ، وقالت بهدوء:

- الإنسان عدو نفسه.
- أوه.. هذه حكمة جليلة.. لكني أقول لك بجد..يجب أن تتعلمي الرمي بالمسدس.. لأني سأهديك مسدساً صغيراً لتحمليه معك..
- أحمل مسدساً..؟ لماذا..؟
- قلت لك.. لتدافعي عن نفسك..
- لا أحتاج لمسدس..
- يا حبيبتي.. هذا زمان لا أمان فيه.. يجب أن تكوني مهيأة للدفاع عن نفسك في كل لحظة..
- لا أحتاج..
- المهم..سأهديك مسدساً.. وسأعلمك كيفية إستخدامه.. وأنت حرة أن

تحمليه معك أو لا.. والآن.. دعينا نأكل..
نظرت إليه وكأنها تريد أن تقول شيئا ، انتبه لها ، وكان قد التقم شيئا من الطعام في فمه ، أراد أن يقول شيئا ً، فلم يستطع ، فأزدرد الطعام ثم سأل:
- ماذا هناك.. لماذا لا تأكلين..؟
- أين الشريط..؟
نظر إليها نظرة متفحصة وقال بمرح:
- يبدو أنكِ لا تنسين شيئاً.. إنه معي..في جيبي..
- أعطني إياه..كما وعدتني..
توقف عن الطعام ، ومد يده في جيبه . أخرج الشريط ووضعه إلى جانب المسدس ، وقال وكأنه يعاتبها:
- ألم تصدقي..؟ هذا هو الشريط.. ألديك كاميرا فيديو في البيت..؟
- لديّ..
- يمكنك أن تتأكدي منه إذا أحببت.. لكن سوف تخجلين مما تشاهدينه..
قفزت لتأخذه منحنية ألا أنه كان أسرع منها ، إذ أبعده ، فلم تتمكن من أخذه ، التفت إليها وقال بحزم:
- لم نتفق على هذا.. لقد قلت لك سأتزوجك مساءً.. وسيكون لك.. إنه مهرك..
- ولماذا نتزوج..؟ ألا نستطيع أن نعيش هكذا..؟ أكون لك في أي وقت تشاء..لك وحدك..
نظر إليها بتساؤل وعلى وجهه علامات إحباط واضحة:
- ألا تريدين أن تتزوجيني..؟ ظننت أن ذلك يسعدك.. أم أنت معتادة على أن تأخذي حريتك في إختيار الصبيان؟!
أحست بالخجل لأنها فهمت أنه يشير إلى الفتى صاحب المخزن ، فارتبكت ، وقالت:
- أبداً.. ليس الأمر كذلك..سأكون مطيعة لك.. سأكون لك وحدك.. لكني مرتبكة من وضع آدم..كيف سيتقبل الأمر..؟
- لا عليك بآدم.. آدم الآن صار رجلاً حقيقياً.. لقد أخذ بثأره لك من هذا الخنزير الصفوي.. الذي كان... (وتحرج قليلاً في نطق العبارة.. لكنه واصل).. الذي في شريط الفيديو.. تفهمين قصدي.. لقد قطع له قضيبه ووضعه في فمه.. ثم رماه بخمس رصاصات.. لم أكن أتوقع هذه الجسارة منه.. لكنه أخذ بثأره..

كانت حواء ذوالنورين مرعوبة وهي تستقبل أخبار ابنها الذي تحول إلى قاتل محترف .. لكن الذي أرعبها في هذه الأخبار أن ابنها عرف بعلاقة الحاج آدم الملا بها ، فسألت مرعوبة:

- لماذا قطع...ذاك الشيء.. أعرف شيئاً..؟

نظر قابيل العباسي إليها ، وكان قد أنهى صحنه ، بينما هي لم تمس شيئا من الطعام ، وإنما كانت قد أخذت بعض اللقيمات مجاملة له ، فقال بطريقة مراوغة:

- لا أعرف بالضبط.. لقد كنت أنا في طريقي لوكر هؤلاء الخنازير النتنة.. وتركته ليقتص منه، خاصة أنه أراد أن يعرف منه الذين اغتالوا والده.. فجئتُ ورأيتُ ما رأيت..

قالت وكأنها تحدث نفسها:

- لو كان قد رماه فقط لما شككت في شيء، لكن أن يقطع له ذاك الشيء.. فهذا مريب.. لكن آدم.. آدم الملاك.. الهادئ.. الرومانسي.. الذي يعشق الموسيقى.. الموسيقى الرومانسية الهادئة.. وديميس روسيس.. وماري ماتيو.. وعبد الحليم حافظ.. يقتل..بل ويقوم بهذه الأعمال الوحشية..؟ لا أصدق..

- يجب أن تصدقي..ابنك تغير كثيرا يا مدام.. ثم عن أي وحشية تتكلمين..؟ وكأنك تحنين لما فعله بك..؟

أحست بالإهانة .. فقد كان وجهه يفيض بالكراهية والحقد .. تأكدت من أنها قد ضاعت كليا ً.. وعليها أن تحاول إنقاذ ابنها من الضياع .. لكنها لم تود أن تستسلم للضياع الكامل .. عليها أن تقاوم .. فردت على إهانته ، قائلة بعتاب:

- أنت تعرف أنني كنت مضطرة على قبول ذلك.. لقد خفت على ابني..رفضوا أخذْ الفدية اذا لم أتعر ليصوروني كضمان يهددوني فيه إذا ما حاولت أن أخبر عنهم.. وقد دفعت له لأسترجعه..

- نعم..لكنك كنت تستمتعين بما يفعله بك..

- هذا غير صحيح.. لكنها ردود فعل لا إرادية..

- ها..ها..ها.. يعني أنك قبلتني ومسكت بي متلهفة لا لأنك تريدين ذلك.. وإنما رد فعل لا إرادي..؟

انتبهت إلى أن عليها أن تغويه ، وتسيطر عليه ، كي تستطيع أن تنقذ ابنها ، فقالت بنبرة فيها غنج مفاجئ:

- لا..معك شيء مختلف.. صحيح أنني كنت محرجة منك..لأنك صديق ابني آدم.. لكني أحببت ما فعلته.. أنت وسيم جداً... ودون جوان حقيقي مع

النساء..تعرف كيف تثيرهن.. (كانت وهي تتكلم، تحس بالدم يتدفق في أوردتها، ويتجه نحو رحمها.. فلم يعد الأمر محاولة أغواء، وكأنما قد أثيرت بشكل لم تتوقعه..فواصلت حديثها بينما الإثارة تتصاعد في مسامات جسدها..)
أنت هائل.. تقبل بشكل مثير..
وبدون إرادة منها مدت يدها إليه . كان هو مأخوذاً بكلامها .. أحس بالإنتعاظ .. وبشبق هائل .. برغبة عارمة في أن يضاجعها على المائدة .. وكلما كان يستمع لصوتها الذي بدأ يفح بالشهوة ، تصاعدت لديه مشاعر سادية ، في أن يضاجعها بعنف .. في أن يضربها لأن غيره ضاجعها .. فجأة ، قام عن المائدة ، ويدها بيده .. سحبها إليه .. مدت يدها إلى عضوه ، مسكته بيدها وهي ترتجف وتلهث من الرغبة الجامحة .. لكنه فجأة أوقفها أمامه وصفعها بقوة على خدها .. فوجئت بذلك .. لكنها حينما رأت شرر الرغبة في عينيه .. إشتعلت أكثر ، فجثت على ركبتيها امامه ، وهي تلهث ، وتقول:
- أنا بين يديك.. أفعل بي ما تشاء.. اضربني.. اركلني.. سأكون خادمتك المطيعة..عبدتك.. أريدك... أريدك أن تخترقني بقوة وعنف.. سأكون لك.. لك وحدك.. أنا أعبدك.. أعبد هذا الذي يقف منتعظاً وشامخا..
وسحبت بنطاله ومدت يدها إليه .. مسكته .. لكنه ركلها بقوة .. وأخذ يركلها في جميع نواح جسدها .. وهي تلهث وتقول:
- أركلني. اضربني.. أموت في ضربك.. موتني.. أنا أستحق ذلك.. إفعل بي ما تشاء.. لكن أدخله فيّ.. أرحني.. أتوسل إليك.. اضربني..اضربني.. اضربني أكثر.. أكثر.. أنا استحق ذلك.. أبوس يدك.. أريد منك أن تنيكني.. أن تدخله كله فيّ.. ثم سأقوم بكل الذي تريده مني..
رفعها عن الأرض ، ودفعها إلى المائدة .. حانياً نصفها الأعلى على الطاولة ، رافعاً ثوبها ، نازعاً عنها سروالها إلذي سهلت له نزعه ، داعبها بكفه فوجدها رطبة جدا وملتهبة .. ضغط على يديها اللتين طواهما إلى الخلف ، ومسك بهما ، وبيده الأخرى نزع بنطاله .. واخترقها .. كانت هي تلهث .. وكان هو يندفع فيها بعنف .. فجأة .. وهو يواصل فيها .. قال لها وهو يلهث:
- أريدك أن تعملي معي..
لم تجبه ، كانت غارقة في أمواج اللذة الجامحة ، فقال وهو يلهث ، مندفعاً فيها:
- أريدك أن تقوم معي ببعض العمليات.. سأكافئك على ذلك..

- سأفعل ما تشاء.. فقط خلصني.. مزقني..
فجأة ، وهي تحته ، انتبهت إلى ما يحدث معها .. أدركت أنها وصلت إلى قاع الحضيض .. لكنها لا تستطيع الفكاك من قطعة اللحم التي تخترقها وتقلب لها كيانها .. ستقبل بالجحيم .. لكن على شرط أن تخترقها قطعة اللحم هذه . فجأة مسكها من شعرها وأخذ يسحبه بقوة .. أحست بالألم .. الممتزج باللذة .. التي أحست أنها تغرق فيها .. ستفعل كل شيء ما دام هذا ما يريده .. ستكون له .. لم تشعر سابقا ًبلذة العنف عند الجماع .. لقد أعجبها أنه يضربها ، أحست أنها صارت مرتبطة به .. لا .. لا .. إنها تكرهه .. لقد حول ابنها إلى قاتل .. عليها أن ترى ابنها .. عليها أن تهرب معه .. عليها ان تسافر معه إلى عمان .. أو بيروت .. أو أربيل..
كان هو قد انتهى فيها ، وظل منحنيا ًعليها ، مسترخيا ًمن كثافة هذه اللذة الهائلة . انسحب عنها ببطء . جلس على الأرض .. فسحبت هي نفسها ، وانهارت جالسة إلى جنبه . فانحنى واضعا ً رأسه في حضنها .. أخذت تداعب شعره .. وقالت ببطء:
- حبيبي.. أريد أن أرى آدم.. أريد أن أطمئن عليه..فقط أراه لا أكثر..
نظر إليها متوجسا ً، وقال لها:
- سترينه..سترينه بلا شك..لكنه الآن ليس هنا..
صدمها جوابه ، فقالت بخوف:
- أين هو.. إذاً؟
- في الحبانية.. دخل دورة فنية..ما أن ينتهي منها حتى يصبح قائداً لمجموعة من المقاومين..
ارتعبت مما تسمعه ، فقالت بغضب مكتوم:
- لكني لا أريده أن يتورط في مثل هذه الأمور..
نظر إليها نظرة متفحصة وكأنه يدرس ما يدور في رأسها ، وقال:
- لكنه تورط بالفعل.. لقد قتل الشاب صاحب المخزن.. كما قتل الخنزير الصفوي الآخر.. ثم.. أنك أيضا قد تورطت.. أنت الآن معي..أليس كذلك..؟
أحست بهوة مظلمة تتسع في أعماقها فجأة .. هوة سوداء .. سوداء . بلا قرار .. نظرت إليه نظرة عميقة ، وقالت دون إرادة منها:
- نعم..أنا تورطت أيضا.. أنا تورطت معك.. تورطت في حبك..
فقال ضاحكا ً:
- لكنها ورطة جميلة.. أليس كذلك..؟
- جميلة..؟ لا أعرف لحد الآن..

فقال بنبرة استهجان ، وهو يرفع رأسه عن حجرها ، ويجلس إلى جانبها:
- لا تعرفين..؟ قبل لحظات كنت تصرخين بأنك عبدتي.. ولي الحق بأن أفعل معك ما أشاء.. وستنفذين ما أريد..
- صحيح.. ولكن في تلك اللحظات..
فقاطعها بغضب:
- في تلك اللحظات ماذا..؟ في تلك اللحظات تفكرين بفرجك أم ماذا..؟ لقد قلت لك، يجب أن تتعاوني معي..لدي عملية بسيطة.. ستقومين بها لأنك امرأة ولا تثيرين الشبهة.. سأخبرك عنها لاحقاُ.. اليوم مساءً.. بعد أن يجري عقد الزواج.. سيأتي رجل من المحكمة أيضا.. لقد رتبنا كل شيء..
راودتها رغبة وحشية في أن تقوم لتأخذ المسدس وتطلق النار عليه ، لكنها لا تعرف استخدامه .. ستوافق على تعليمها الرماية وحمل السلاح .. عليها أن تستعد لكل شيء .. لكن الآن عليها أن ترى ابنها .. عليها إنقاذه . ولتغرق هي .. لكن هو .. لا.

نـداء الغـربة

لم يكن أمام حواء الزاهد أن تفعل شيئا ً بعد أن غادرتها حواء الكرخي . ولم يكن هذا بغريب عليها ، فحياتها روتين لا يخرج عن دائرة إعداد الفطور لآدم الملاك ، وتوصيله إلى المدرسة ، بعد أن ترضع الصغير ، وتغير حفاظاته ، ثم ترجع إلى البيت لتفطر هي بهدوء ، ثم تنهض لإعداد وجبة الغداء قبل أن يعود من المدرسة ، ثم تذهب إلى المدرسة لتأخذ ابنها وتعود إلى البيت ، وهكذا إلى اليوم التالي ، وقد تقلصت هذه المهمة ، بعد أن قررت عدم إرسال ابنها إلى المدرسة خوفا ً من التهديدات التي وصلتها ، فصار يومها مقتصرا ً على الاستيقاظ وإعداد الفطور ، وإطعام الأطفال ، وأحيانا قضاء الوقت بإيجاد أعمال جانبية ، كغسل البطانيات ، أو تنظيف حوض الحمام ، أو إعداد حمام ساخن للطفلين ، والليل يمر بكل رعبه في القراءة ، بل أحيانا ً، تقرأ نهارا ً، حينما لا تجد ما تشغل نفسها به.

كانت قد غسلت أطباق الطعام ، ورتبت المطبخ . لكنها لم تكن مستقرة نفسيا ً. كان ابنها مستلقيا على الكنبة مشغولا ً بلعبته الآلية الصغيرة . نهضت بتثاقل متجهة إلى غرفة النوم . أحست بالدماء تتدفق في جسدها ، وكأنها كانت تسمع تدفقها . كان الطفل الرضيع نائما بهدوء عميق ، حتى أنها خافت أن كان قد حدث له شيء ما ، أحنت جسدها وأخذت تتنصت لتنفسه ، فأحست بتنفسه العميق الهادئ . شعرت بالراحة حينما تأكدت بأنه حي ويتنفس .

جلست على حافة السرير . فكرت مع نفسها بطفلها هابيل ، يا له من طفل غريب ، فهو نادرا ً ما يبكي ، وبكاؤه مضحك ، فهو يطلق أصواتا ً أشبه بمواء قطة ، وينام النهار والليل كله ، لم يزعجها ليلا ً بتاتا ً على غرار بقية الأطفال ، أو على غرار ابنها آدم الذي تتذكر جيدا ً أنها تعذبت في السنتين الأولي ّتين من عمره ، فهذا الطفل ، يرضع حليبها والحليب الآخر الذي تعده له ، وينام هانئا ً إلى اليوم التالي ، حيث تستيقظ لتراه قد فتح عينيه بهدوء ناظرا ً إلى السقف . ما الذي ينتظره يا ت ُرى؟ كيف لها وحدها أن ترعاه .. ؟ ماذا لو حدث لها شيء ما؟ ماذا لو ماتت فجأة .. أو ق ُتلت .. ؟ من سيبقى لهذين الطفلين .. ؟ هي وحيدة ، غصن وحيد مقطوع من شجرة وحيدة في صحراء ، لا قريب ، ولا زوج ، ولا صديق .. هل لها أن ترتبط بقابيل الفهد .. ؟ ربما هو لا يفكر بذلك .. ؟

لكن هل هي تريد الإرتباط به حقا ً؟ أمن أجل الأطفال تفكر هي هكذا أم هي تريد أن تكون معه .. ؟ وهذه صديقتها حواء الكرخي .. هل ستبقى صديقة لها أو أنها تؤدي واجبا ً إكراما ً للأستاذ قابيل الفهد .. ؟ هل ستبقى في العراق أو ستغادره كما غادره سابقا ً مئات الألوف ، ويغادرونه في هذا العهد الجديد مئات الألوف .. ؟ كيف يستطيعون أن يعيشوا في بلاد غريبة .. ؟ ماذا تعرف هي عن هذه البلاد التي هي بلادها .. ؟ إنها تشعر بالرعب فيه .. وتشعر أنها غريبة عنها .. ما الذي يشدها إلى هذه البلاد .. ؟ لا أهل .. ولا أقرباء .. ولا زوج .. ولا حبيب .. فلماذا هي تستغرب هجرة الآخرين منها .. نحن ، كما قالت حواء الكرخي : شعب تعيس .. شعب شقي .. تعاستنا مثيرة للشفقة .. بلاد لم تهدأ لحظة عن أن تكون مسرحا ً للحروب .. كل جيوش العالم تأتي لتستعرض قواها هنا .. على هذه الأرض .. نحن مقبرة تاريخية . نعم .. لكن هل أستطيع أنا أن أعيش في بلاد الغربة .. أنا لا أستطيع أن أتخطى رأس الشارع ، فحدودي هي المدرسة ، والدكاكين القريبة من ساحة الصخرة في شارع فلسطين ، وسوق الخضرة ، وعيادة طبيب الأطفال هناك ، فكيف أستطيع مع هذين الطفلين أن أهاجر .. ؟ وإلى أين .. ؟ ما الذي يجري لي .. ؟

انتبهت حواء الزاهد لنفسها ، فهي لأول مرة في حياتها تفكر بمغادرة البلاد ، هل هذا بتأثير حواء الكرخي؟ ربما .. هكذا سألت نفسها وأجابت عليها . أمامها وقت طويل إلى أن تعود حواء الكرخي .. تمددت على السرير ، وأخذت المخطوطة ، وهي تفكر مع نفسها ، لولا الكتب لصارت الحياة جحيما ً.. فتحت المخطوطة عند الصفحات التي توقفت عندها ، وراحت تقرأ.

ليس لدى الموت أصدقاء

إستيقظ آدم التائه ، من أعماق الظلمة ، على ما يشبه الخرمشات على باب الغرفة . لم يكن ثمة طرقات على الباب ، وإنما أصوات مخالب تتشبث بالباب ، وكأنها مخالب قطة . مد يده إلى زر الكهرباء القريب منه فأضاء المصباح الجانبي . فكر مع نفسه ربما هي القطة السوداء التي رآها في المرة الأولى في الغرفة . توقفت الخرمشات قليلا ً، إلا أنها تحولت إلى طرقات خفيفة على الباب ، طرقات ناعمة . نظر إلى الساعة فرأى أنها الثالثة فجرا ً. صحيح أنه نام في حدود الساعتين ، لكنه يحس بأنه قد نام نوما ً عميقا ً. نهض بهدوء وفتح الباب . إرتد للوراء قليلا ً من أثر

المفاجأة.

كانت حواء المظلوم ، القتيلة ، تقف عند الباب ، بثوب نوم أسود طويل ، يبرز مفاتنها ، وقد لفت على عنقها شالها الأحمر . كانت ترتجف ، نظرت إليه منتبهة لدهشته أن يراها عند الباب ، فقالت له بلهجة أشبه بالتوسل ، وبالعربية:

- هل يمكنني أن أدخل..؟ أنا خائفة.. خائفة جداً..

كان هو منذهلا ً. لا إراديا ً فتح الباب لها ، فمرت داخلة ، وجلست على حافة السرير ، صامتة ، وهي تنظر إليه نظرة مليئة بالرجاء والإعتذار . مرت لحظات وهو ينظر صامتا ً إليها ، منتظرا ً منها تفسيرا لمجيئها في مثل هذا الوقت إلى غرفته ، وفي ثوب النوم . أدركت هي أنه ينتظر منها توضيحا ً، فقالت له:

- أنا وحدي..أخاف أن أكون وحدي..لا سيما بعد أن رحل هؤلاء..
- من هم الهؤلاء..؟
- هذا الكاتب الروسي وأبطاله..

انتابه فضول مفاجئ أنساه استغرابه من مجيئها ، فجلس على الكرسي القريب من السرير ، وسألها:

- تقصدين دوستويفسكي.. وناستاسيا فيليبوفنا..والأمير ميشكين..
- الأمير ميشكين..؟ هل هذا أمير..؟
- إنه لقب روسي قديم..لكن ما بهم..؟
- إنهم يتشاجرون دوماً..؟
- لماذا يتشاجرون..؟
- لا أعرف.. إنهم يتحدثون بالروسية، لكن هذا الكاتب بعد أن جاءته نوبة الصرع.. كنت أنا موجودة.. وساعدته حينها، حيث وضعت وسادة تحت رأسه، حدثني في ما بعد..بعد أن صحا من نوبته.. هو يتحدث الألمانية.. أخبرني بأن النوبات تأتيه حينما ينفعل كثيراً، وسألته عن شجارهم الذي لم أفهم منه شيئاً فقال لي، بأن هذه المرأة التي ذكرت أنت اسمها..

فكرر آدم التائه اسمها:

- ناستاسيا فيليبوفنا
- نعم..نعم.. ناستاسيا.. هذه النستاسيا هي بطلة من بطلات رواية كتبها..وهذا الشاب الذي تقول أنت عنه أمير.. لكني لا أجد فيه أي شيء من الأمراء..
- وهل رأيت أنت أمراء في حياتك..؟

- لا..
- إذاً، كيف عرفت أنه لا شيء فيه يشبه الأمراء..؟
- من الأفلام..
- آها.. من الأفلام.. طيب.. وماذا قال لك..؟
- إنه مسكين.. قال لي بأنه في نهاية روايته دفعها إلى أن تتزوج شخصاً غيوراً.. مريضاً في غيرته.. مثل زوجي.. وزوجها هذا..
- راغوجين..
- لا أعرفه..لكني سمعت هذه الكلمة تتكرر على لسانها ولسانه، فلم أعرف أنها اسم الزوج.. نعم..

كان هو متلهفا ً لسماع ما دار بينهم من حوار ، بينما هذه تستطرد في حديثها ، فطلب منها أن تروي ما قاله لها الكاتب ، نظرت إليه مستغربة تلهفه لسماع ما دار من حوار ، لكنها واصلت:

- يبدو أن هذا الزوج الغيور ذبحها، مثل زوجي.. وهي تتشاجر معه رافضة هذه النهاية للقصة..
- ماذا..؟
- نعم.. لقد قال لي، بأنها ترفض هذه النهاية.. ولقد سألته أنا عن سبب رفضها، فأجابني بأن هذه النستاسيا.. تذكره بما قال الأمير ميشكين.. عن جمالها بأنه يمكن أن ينقذ العالم، فقط لو أنها كانت طيبة.. وأنها قالت له بأنها إنسانة طيبة، فلماذا لم يتركها أن تنقذ العالم بجمالها..؟
- ماذا..؟
- هذا ما فهمته منه.. لأنه كان يتحدث لي، ثم يغرق في أفكاره، ليعود مرة أخرى معتذرا..ويواصل كلامه..
- وماذا بعد..؟
- لا أعرف.. أذكر أنها غادرت الغرفة أول مرة وهي عصبية جداً.. وحينما سألته لماذا خرجت مهتاجة، وعصبية، فقال لي أنا أردتها أن تكون عصبية، بشكل مرضي أحياناً، لذلك هي تعصبت بشدة، لأنها رفضت هذه النهاية للرواية، وهي تعتقد أنه ظلمها كثيرا، بل ظلم نفسه، لأنه لو تركها حية، لأنقذت العالم..
- والأمير..؟
- أي أمير..؟ آه.. تقصد هذا الأبله..لا.. لم يتحدث كثيراً.. كان يتوسل بهذه المرأة أن لا تتعصب كثيراً.. وكان محتاراً بين الكاتب وبينها.. وحينما سألته عنه، قال إنه إنسان صالح جداً.. وهو يحبها جداً جداً.. لكنه هوائي في

حبه.. إنه يوزع المحبة على الجميع.. وهو يلومني لأني دفعت زوجها لقتلها.. وهو يعتقد، أنه كان بالإمكان أن أجعلها تمرض وتموت..أو أن أحولها إلى راهبة تذهب إلى الدير..على أن أنهي حياتها بهذه الطريقة البشعة..

- آها..

- لكنها عادت مرة أخرى.. جثت أمامه، وقبلت يديه، وغسلتهما بدموعها..وقالت إنها تقبل مصيرها الذي رسمه لها..

- ولماذا جاءوا إلى هنا..؟

- لا أعرف.. جاءوا لزيارة الأمير..الذي يبدو أنه كان مريضاً.. ولأنه كما قال قد تركه في سويسرا للعلاج.. وأنهما زاراه.. وقد مرا بميونخ لزيارة كنيسة قديمة هنا في المدينة.. أعتقد اسمها كنيسة الآلام.. وقد جاءوا إليّ.. لأنه قال لهم إنني مررت بنفس تجربة هذه النستاسيا.. زوج غيور.. ومتاهة الأرواح الهائمة..

- ماذا تقصدين..؟

نظرت إليه للحظات وكأنها تريد أن تخبره شيئا ً، إلا أنها نهضت متجهة إلى الباب . ابتسمت له ، ومدت يدها فأزاحت الشال عن عنقها ، فبدا هناك حز سكين واضح على عنقها المذبوح . ومضت غالقة الباب خلفها.

أحس آدم التائه بقشعريرة تسري في جسده ، وراعه الجرح الغائر في عنقها . نهض مسرعا ً خلفها .. لم يجد لها أثرا ً. خرج إلى الممر الرئيسي فلم يلمح أثرا لها ، سوى انطباق باب الغرفة التي في أقصى الممر من الجهة المقابلة.

عاد إلى غرفته خائفا ً، أغلق على نفسه بالمفتاح . استلقى على سريره ، مفكرا بما رأى وما سمع . سأل نفسه إن كان كل ما سمعه ليس إلا إستحضاراته الفكرية وأوهامه النفسية ، لأنه يحب دوستويفسكي ، ولأنه فعلا ًسأل نفسه ، عن السبب الذي دفع بالكاتب دوستويفسكي أن ينهي حياة بطلته الرائعة ناستاسيا فيليبوفنا بهذه الطريقة المفاجئة والبشعة .. أليحقق نبوءة الأمير ميشكين الذي قال عنها في مقدمة الرواية بأن راغوجين إذا ما تزوج ناستاسيا فيليبوفنا فأنه سيذبحها بعد أسبوع .. ؟ هل أن كل ما رآه وسمعه من حواء المظلوم هو حقيقة .. وليس من أوهام خياله الروائي ، وكبته الفكري والنفسي .. ؟ ثم كيف سمع خرمشات على الباب وكأن مخالب قطة ، وإذا بها هذه المرأة العراقية الذبيحة تقف أمامه .. ؟ ولكن كيف روت له كل هذا وعنقها مقطوعة .. ؟ هل يا ت ُرى كان روح المرأة القتيلة .. ؟ كيف هذا وهو حاول أحتضانها أول يوم جاءته إلى غرفته

.. ؟ هل عليه أن يعرض نفسه على طبيب نفساني ، ليشخص له ما به ، أو عليه أن يدون كل رؤاه ، وكل ما يجري معه ، في نص سردي روائي جديد .. ؟

أطفأ المصباح . غرقت الغرفة في الظلمة ثانية . ظل يحدق إلى السقف برغم الظلام ، محاولا ًأن يتبين شيئا . لم ينتبه كيف هبط إلى عالم النوم.

* * *

في ذلك الوقت المبكر من الفجر ، حيث لم ينكشف الخيط الأبيض من الخيط الأسود بعد ، كانت ميونخ غارقة في الضباب الداكن ، البارد . المباني ، الشوارع ، الفنادق ، الكنائس ، المحطة الرئيسية للقطارات ، مقبرة المدينة ، كنيسة الآلام ، والسماء ، كلها غارقة في الضاب الداكن . كانت الأرواح الشبيهة بالدخان وحدها تجوب الشوارع ، حيث يتداخل لونها الدخاني الأبيض مع بياض الضاب الحليبي الداكن ، وكأنها أرواح حارسة لهذه المدينة العريقة.

كانت واجهة الفندق غارقة في الضباب أيضا ً، وكان لون النيون الأصفر ، الذي يحمل اسم الفندق ، لا يشي بأي اسم أو هوية للمكان ، سوى إشعاعه لونا ًأصفر شاحبا ً. من إحدى نوافذ الفندق ، التي تشرف على الشارع من الطابق الثاني ، وقفت امرأة شابة بثوبها الأسود وشالها الأحمر الملفوف على عنقها ، تنظر في الضباب نظرات جامدة . كان الضباب يحجبها ويكشفها ثانية ، ثم يحجبها ويكشفها مرة أخرى ، ليؤكد مرور الزمن ، وحقيقة الوجود.

في غرفته كان آدم التائه يهبط أعماق الظلمة ، وهو مستلق في سريره ، يتنفس بقلق ، ويتقلب في نومه قلقا ً، وبينما غطى العرق وجهه ، وبلل وسادته قليلا ً.

فجأة ، فز آدم التائه من رقاده القلق . كان وجهه ، رقبته ، شعر رأسه ، كلها مبتل بالعرق البارد ، وكأن جردل ماء بارد قد صب ّعلى رأسه . تلمس الوسادة عند موضع رأسه ، فكانت مبتلة أيضا . نظر إلى الساعة ، فرأى أنها تشير إلى السادسة إلا ربعا ًصباحا ً. نهض بهدوء . وكان قراره واضحا ًبأن يذهب إلى مستشفى الطوارئ مباشرة ، ليكون إلى جانب إيفا إسكندروفنا ، وإيفا جايكوفسكايا . متى قرر ذلك .. ؟ سأل نفسه ، لكن لم يجد جوابا ًلسؤاله ، فطوال الليل لم يطرأ شيء من هذا القبيل على ذهنه ، بينما صحا الآن من نومه ، وهو يعتزم الذهاب إلى هناك ، وكأنما قد ناقش هذا الأمر مع نفسه ، وقرره مسبقا ً، وعليه الآن التنفيذ .. ؟

كيف .. ؟ ولماذا .. ؟ لم يجد جوابا ً، ولم يلح على نفسه بالبحث على إجابة ، فكل ما يريده الآن هو رؤية إيفا إسكندروفنا .. ليس أكثر من ذلك.

بينما هو تحت دش الماء الدافئ تذكر شيئا ً مفاجئا ً. خرج من الحمام قلقا ً. لف جسده بالمنشفة الكبيرة ، وحين صار في الغرفة ، ذهب إلى الزاوية ، وسحب حقيبته الكبيرة ، ووضعها على السرير ، وفتحها ، قلب الملابس ، وفتح الجيب الآخر في داخل الحقيبة ، وسحب ظرفا ً كبيرا ً. ارتسمت علامات الإرتياح على وجهه المبتل ، فقد طرأت في ذهنه بأنه قد نسي مخطوطة روايته : متاهة آدم – المرأة المجهولة ، في مدينته الأولى ، بالرغم من أنه كان واثقا ً من أنه وضعها مع نسخة من روايته الأولى المنشورة بعنوان : كوابيس القنفذ . أعاد إغلاق الحقيبة ، ووضعها في مكانها ثانية ، ثم رجع إلى الحمام ، لكنه لم يواصل الإستحمام ، وإنما أخذ يلحق ذقنه ، إستعدادا ً للذهاب إلى المستشفى.

حين وصل إلى مستشفى الطوارئ ، كانت الساعة قد تجاوزت السابعة بثلاث دقائق . بالرغم من هذا الوقت المبكر ، إلا أن الحركة نابضة في أروقة المستشفى . في الإستعلامات سأل الموظف الذي بدا عصبيا في الصباح المبكر ، عن رجل تعرض لنوبة قلبية ليلة أمس ، فقال موظف الإستعلامات بعصبية مكتومة ، بأن العشرات يتعرضون للأزمات القلبية يوميا ، وليليا ً أيضا ، فهو لا يعرف من يقصد منهم ، لكن إذا كان من يسأل عنه حيا فأنه سيكون في العناية المركزة ، وإذا فارق الحياة ، فأنه سيكون في جناح الجثث والتشريح ، الذي هو في طابق أسفل منه ، ويمكنه الذهاب إلى ذلك الجناح ، وأشار إلى الجناح الذي يفترض أن يتوجه إليه.

توجه آدم التائه إلى جناح العناية المركزة ، فوجده يختلف قليلا ً عن الجناح الذي رقد هو فيه في مدينته ، فهنا لا توجد حواجز زجاجية عريضة ، تكشف من يرقد في الغرفة ، وإنما عليه فتح الباب ليعرف ذلك . لم يجد أحدا ً ليسأله ، فأخذ يفتح الأبواب ويطل برأسه ناظرا ً لمن يرقد . ولم يتجاوز الباب الثالث ، حينما سمع صوتا ً خلفه ، يسأله عمن يبحث ، فالتفت ، فوجد ممرضة في الخمسين من العمر . أجابها . فقالت له تعال معي . أخذته إلى زاوية تشكل مكتبا ً صغيرا ً للجناح ، وقلبت بعض الأوراق التي أمامها . رفعت رأسها وقالت له بأسى ، بأن الشخص الذي يبحث عنه ، كان قد مات قبل وصوله إلى المستشفى ، وأنه الآن في الطابق الأرضي . شكرها ، فقد كان يعرف بأنه قد مات ، لكن كان لديه

أمل ضئيل جداً بأن الأمر ليس كذلك.
حين وصل الطابق الأسفل ، وجد نفسه في ممر فارغ طويل . على جانبيه بعض حمالات الجثث الملوثة بالدم.
كانت هناك ثمة قاعة متوسطة الحجم ، وعليها جثث ممدة على مصطبات حجرية . حدق إليها مفتشاً عن جثة الأب ، فوجدها في آخر مصطبة حجرية ، بالقرب من النافذة المطلة على أرضية حديقة المستشفى من الجانب الآخر.
لم يكن هناك ثمة أحد قط . جلس على مصطبة في الممر . لم يكن يعرف ماذا يفعل . فجأة سمع وقع خطوات تهبط السلم.
أحس بدفق الحياة يرجع إليه بالرغم من أنه وسط الموت المؤكد ، والصريح ، والقاسي . كانت إيفا إسكندروفنا وإيفا جايكوفسكايا أمامه ، وهما في ثياب سود . إستغربتا من وجوده . سلم عليهما ، ونبرة الحزن في صوته ، وعزاهما بموت الأب . سألته إيفا جايكوفسكايا عن وقت قدومه ، وسبب عدم إلتحاقه ليلة أمس ، فأجابها على ذلك .
كانت إيفا إسكندروفنا صامتة ، وقد جللها حزن عميق . سأل إنْ كان عليه أن يفعل شيئاً ما لهما ، فقالت إيفا جايكوفسكايا بأنهما أعدتا كل شيء ، فقد إتصلتا بمؤسسة إسلامية للدفن التي ستقوم بكل شيء ، حيث سيقومون بالإتصال بمسجد المسلمين القريب من المقبرة ، وسيؤدون مراسيمهم الإسلامية لدفنه إلى جانب ابنه في مقبرة المسلمين ، وسيرتبون الأمر مع دائرة الأجانب لتحمل النفقات ، أو الجزء الأكبر منها.
إندهش آدم التائه من كل هذه الإستعدادات ، وسأل نفسه : متى استطاعتا ترتيب كل هذه الأمور ، في هذا الوقت المبكر ، وبهذه السرعة .. ؟
كان هو يتحدث مع إيفا جايكوفسكايا لكن نظراته كانت تتلفت ، أحيانا ، نحو إيفا إسكندروفنا ، التي ابتعدت عنهما ، وراحت تنظر إلى قاعة الجثث صامتة . أخذا ينظران إليها . علقت إيفا جايكوفسكايا ، بأنهما لم تناما الليل كله ، وأن إيفا إسكندروفنا ، راودتها فكرة مجنونة ، بإسقاط الجنين . صُدم هو عند سماع ذلك ، لكنها أكملت بأنها تنتظر وضع الأم الموجودة في العناية المركزة ، فإذا عوفيت ، واستمرت في الحياة ، فربما تفكر في الإستمرار بالحمل ، إحتراماً لها ، ومواساة لها على مأساتها ، وإذا رحلت الأم ، فربما ستنفذ فكرتها بإسقاط الجنين ، فقال هو لها بأن هذه مغامرة . راح كلاهما ينظر إليها بصمت ، وبنظرات فيها نوع من التعاطف

والتبجيل.
انتبه الجميع لصوت الطبيب ومساعديه ، الذي أخذ يصرخ بالمساعدين الذين معه ، بأنه لا يريد أن يرى أي إنسان في هذا الطابق ، وعلى أهالي الموتى أن ينتظروا في قاعة التوابيت في الطابق الأعلى من الجهة الأخرى . فتقدم أحد المساعدين طالباً منهم مغادرة الطابق والإنتظار في غرفة التوابيت حتى إستلام الجثة داخل التابوت ، هناك.
لم ترغب إيفا إسكندروفنا الجلوس في غرفة التوابيت وإنما أرادت المشي في الحديقة الصغيرة الخلفية ، لكنهم حينما ذهبوا لم تكن الحديقة تستحق المشي فيها ، فهي قطعة مربعة صغيرة بين مباني المستشفى المتداخلة مع بعضها ، لذلك جلسوا على مصطبة خشبية هناك . جلسوا صامتين . كل يدور في مدار نفسه غير قادر على الإنفلات منها.
نهض الجميع حينما جاءت ممرضة لتخبرهم بأن كل شيء جاهز في غرفة التوابيت وبإمكانهم أن يلقوا نظرة أخيرة على الجثة.
عند المسجد القريب من المقبرة ، أنزل العاملون التابوت من السيارة ، بينما ترجل آدم التائه معهم ، فانتبه لخروج أربعة رجال من المسجد ، أقبلوا مسرعين ، وحملوا التابوت على أكتافهم ، وهم يرددون ، لا إله إلا الله .. ودخلوا بالتابوت إلى المسجد ، فدخل معه.
كان حارس المقبرة ، وحفار القبور ، والقائمون على الدفن ، وإمام المسجد ، والرجال الأربعة الذين شيعوا التابوت ، وهو مع المرأتين ، مجتمعين يستمعون للإمام الذي كان يقرأ سورة يسين . لم تفهم إيفا إسكندروفنا شيئا مما يُقال ، لكنها أحست بخشوع ورهبة أثارها هذا التنغيم الرخيم لصوت المقرئ ، كما أثارها عدم دفن الميت وهو في التابوت ، فقد أحست برعب الموت حينما رأت الجثة وهي مشدودة ، بالكفن على الطريقة الإسلامية ، ملقاة في أعماق القبر المفتوح.
كان الضباب ما زال يغطي الكثير من جوانب المقبرة ، والعشب الندي يحتضر تحت الأقدام الثقيلة للبشر . وبعد لحظات من انتهاء الإمام لقراءته ، هيمن صمت على الجميع ، ولم يُسمع حينها سوى صوت ارتطام التراب بالجثة المكفنة ، ثم اختفى الصوت ، ولم يبق سوى صوت انهمار التراب على التراب.
كان آدم التائه مأخوذا بالمشهد الذي رأى فيه إختصاراً لكل مقولات الحياة ومعناها ، والوجود وضرورته ، وكل تفاهات الأساطير البطولية ، وصراع الأديان ، والمذاهب ، والسياسة بكل تبريراتها ، والتعصب بكل أشكاله ،

ووجد نفسه ، وحيدا ً، وغريبا ً، فكل يذهب إلى موته وحيدا ً. لا أحد يذهب مع الإنسان عند موته ، لا زوجتة ولا أولاده أو بناته ، لا أمه ولا أبيه ، كل ٌ يذهب وحده ، لكن إلى أين .. ؟ هل تعود الروح إلى روح الرب ، هل تعود إلى السكون المطلق ، أو النيرفانا كما يقول بوذا . هل هناك عقاب وثواب حقا؟ هل هناك بعث ونشور؟ كيف يتم البعث والنشور ، بينما تختلط أجساد البشر مع بعضها في القبر الواحد .. ؟ وكيف يتم بعث ونشور الهنود بينما ذرات رمادهم تختلط بنهر الكنج المقدس .. ؟ أو الذين ي ُذر ْ رمادهم في الريح .. ؟ لكن إذا لم يكن ثمة ثواب وعقاب ، فلماذا خ ُلق الإنسان .. ؟ هل هو لعبة حضارات كونية قريبة منا ، زرعت البشر كحقل تجارب لها .. ؟ لقد قرأت شيئا من هذا القبيل ، لكن من خلق مخلوقات تلك الحضارات .. ؟ وهل هؤلاء يؤمنون بالله .. ؟ أو هو لديه اسم آخر .. ؟ لو لم يكن ثمة خالق ، فهل سيكون كل شيء مباحا ً.. ؟ كانت الأفكار الحزينة ، والغامضة ، تتكسر على ساحل ذهنه مثل أمواج ناعمة تأتي من العدم ثم تتلاشى.

فجأة ، انتبه إلى إيفا جايكوفسكايا تقف إلى جانبه وتهمس له :

- أتأتي معنا..؟ نحن نتوجه الآن إلى المستشفى لرؤية الأم..

نظر إليها نظرة غامضة ، وكأنه مأخوذ بشيء ما ، ثم قال بعد ثوان:

- نعم..نعم.. بالتأكيد سآتي معكم..

كانتا قد وصلتا إلى خارج المقبرة . تبعهما ، تاركا حارس المقبرة ، وحف ّار القبور يسويان تربة القبر ، بينما أخذ إمام المسجد والرجال الأربعة يدورون بين القبور الباقية ، أما مؤسسة الدفن فقد أعدت إستمارة الحساب ، ولاحظ هو من بعيد أن أحدهم سلمها لإيفا إسكندروفنا ، وسمعه يشرح لها بأن عليها أن تذهب بها إلى دائرة الأجانب الذين سيرتبون قائمة الحساب ، ومن المؤكد أنهم سيدفعون ، وأحيانا يدفعون خمسة وسبعين في المائة من المبلغ ، والباقي عليها أن تدفعه بنفسها . لم تقل إيفا إسكندروفنا شيئا.

حينما صار هو في الشارع أيضا ، أوقف سيارة تاكسي ، وصعدوا جميعا ً، متجهين إلى المستشفى حيث ترقد الأم.

حين وصلوا إلى المستشفى ، ووصلوا إلى الجناح الذي ن ُقلت الأم إليه ، ودخلوا غرفتها ، وجدوها في غيبوبة . دخلت ممرضة إلى الغرفة ، وأخذت تشرح لهم ، دون أن يسألها أحد ، بأنها منذ أن تعرضت للجلطة ، وهي في غيبوبة ، وانها لا تستجيب لأي علاج ، أو محاولات لإخراجها من حالتها

، وهي عمليا ً تتنفس فقط ، وسيستمرون في علاجها ومراقبتها لأيام أخرى ، فأن ظلت على هذه الحالة ، فهذا يعني بالنسبة لهم موتا ً سريريا ً.
حينما خرجت ، شرح آدم التائه ما قالت لإيفا جايكوفسكايا ، التي فتحت عينيها رعبا ً.
ما أثار آدم التائه هو شخصية إيفا إسكندروفنا المليئة بالألغاز ، فهي لم تذرف دمعة واحدة منذ أن رآها هذا الصباح ، مرورا ً بعملية الدفن ، والآن حينما رأت عمتها في هذه الحالة ، وسمعت ما قالته الممرضة عنها ، وبرغم ذلك كله ، فأنها ، ما زالت ، تنظر بعينين حزينتين ، محايدتين ، وكأنها منفصلة عن كل ما يحيطها . كانت في عالمها الخاص ، بل وحتى حينما كانت صديقتها تحدثها بالروسية ، فأنها لا تقول شيئا وإنما تستمع لها فقط . تذكّر َ حديثها معه ، ليلة البارحة ، قبل الحدث المشؤوم ، وتمنى لو يعرف كيف تفكر ، وبماذا تفكر ، وما الذي أوحت لها كل هذه الأحداث المأساوية المتراكمة ، والمتتابعة بشكل عجيب.
خرجت إيفا جايكوفسكايا إلى الممر ، فلحق آدم التائه بها . كانت تريد أن تذهب إلى الحمام . التفتت فرأته . وقفت . اقترب منها قائلا ً:
- اسمعيني يا إيفا.. ربما ليس من اللائق الحديث الآن حول هذا الموضوع، فالوقت غير مناسب ابداً.. لكن لديّ طلباً.. وربما لا أجد الوقت اللازم لقوله ثانية، لكني أود قوله لك أنت.. وأنت بدورك تقولينه لإيفا إسكندروفنا، في ما بعد..
- نظرت إليه مستغربة، وقالت بتساؤل:
- ماذا هناك..؟
فقال بنبرة مترددة قليلا ً:
- لقد قررت البقاء في ميونخ.. وأسأل ربما تساعديني أنت وإيفا إسكندروفنا على إيجاد سكن بسيط وصغير لي..في منطقتهم، أو في أية منطقة قريبة أخرى..
نظرت إليه وكأنها تدرس ما وراء هذا القرار ، وقالت وعلى وجهها ابتسامة حزينة:
- هل قرارك هذا بسبب إيفا إسكندروفنا..كي تكون قريبا منها..؟
- لا أبداً.. لا أدري.. ربما.. ربما نعم.. وربما لا.. لا أعرف.. الذي أعرفه، بما أني لن أسافر، فمن الأفضل أن أبقى في هذه المدينة، بالرغم من أني ضجر هنا..
- لا مشكلة.. سوف أتحدث معها لاحقاً. وسأخبرك..

ومضت في إتجاه الحمام الذي كانت ثمة علامة تقود إليه . بقي َ هو وحيدا ً. أحس بالحرج في أن يدخل الغرفة ، ويكون وحيدا ًمعها ، لكنه استجمع جرأته ، ودخل . كانت هي جالسة على كرسي قرب سريرالأم ، تنظر في اللامكان . أراد أن يتتبع اتجاه نظرتها ، فوجدها تتركز على كف ّ الأم ، تقدم بهدوء وصار بالقرب منها ، وأخذ يركز على الكف ، فلم يجد شيئا مميزا في الأمر ، سوى إبرة المغذي المزروعة فيها . أدرك أنها تنظر بعيدا ً، في أعماق نفسها.

فجأة ، وعلى غير توقع منه ، سمعها تقوله له بالألمانية ، وبهدوء وكأنها تهمس له:

- آسفة لأننا أزعجناك بمصائبنا..
- لا.. أبداً..رجاء لا تفكري هكذا..أن يؤسفني أنني تعرفت عليكم في هذا الظرف..لكنني عاجز أن أجد الكلمات التي تستطيع أن تعبر عن مواساتي، وتعازيَ لك بهذه المصائب المتوالية..
- أقدر مشاعرك..شكراً لك.. لكن كما تعرف..الكلمات لا ترجع ميتا..
- صحيح..
- أرجوك أن تتحرر من أي إلتزام معنا..ربما لديك أشغال خاصة بك..
- حاليا لا شيء خاص عندي.. لكنني أرجوك أن تهتمي بنفسك..وبالجنين الذي في رحمك..

رفعت رأسها إليه ، ولأول مرة منذ الصباح الباكر ، ولحد الآن رآها وهي تنظر بعينين حيويتين ، حاضرتين في الزمان والمكان ، وقالت له:

- لا أريد هذا الطفل..
- كيف..؟ كيف تفكرين هكذا..؟ ربما هذه الأفكار السوداوية وليدة اللحظة..؟
- لا.. أنا فكرت بالموضوع.. لمن يأتي..؟ سيكون بلا أب أو عائلة طبيعية، بل، لِمَ يأتي إلى هذا العالم الحقير اصلاً..؟ قل لي..هل لك أن تقول لي لماذا يجب أن يأتي..؟
- لكنك فقدت زوجك، وتقريباً عائلتك التي هنا، وسيكون هذا الطفل عزاءك في حياتك القادمة..
- لكن هذا يعني..سأعيش عمري له فقط.. لا أريد ذلك..
- كما أن الألمان يهتمون جداً بالأطفال.. وإذا ما ولدت هذا الطفل فأنهم سوف يمنحونك الكثير من الإمتيازات..
- لا أدري.. ربما كلامك صحيح.. لكنني أفكر بأني ما دمتُ في الشهرين

الأولين من الحمل فيمكنني أن أسقطه، فهو لم يتشكل بعد...أفكر بالعودة إلى موسكو..لكني لا أستطيع ترك الأم وحدها هنا..وهي بهذه الحالة.. أنظر لها.. إنها ميتة أيضاً.. يا لهذه الحياة من كابوس طويل..

لم يشأ أن يستمر بالنقاش معها ، إذ أن فكرتها بالقضاء على الجنين صدمته ، كما أن حالتها لا تسمح بنقاش طويل ومحاججة . أنقذه من النقاش دخول إيفا جايكوفسكايا ، وفوجئت حينما انتبهت بأنهما كانا يتحاوران بالألمانية . توجهت إليها ، وأخذتا تتحدثان بالروسية . نهضت إيفا إسكندروفنا عن كرسيها ، انحنت على الأم وقبلتها من جبينها . وغادروا الغرفة متجهين إلى البيت.

حين صاروا في البيت توجهت إيفا إسكندروفنا إلى غرفة نومها مباشرة وأغلقت الباب خلفها . بقيت إيفا جايكوفسكايا وآدم التائه في غرفة الإستقبال لدقائق منتظرين خروجها بإعتبارها ربة البيت . كانت إيفا جايكوفسكايا محرجة ، ومستغربة من تصرف صديقتها ، ولم تفهم لماذا تصرفت هكذا !! وأحس آدم التائه بالحرج بإعتباره ضيفا ً ثقيلا ً، فأراد مغادرة المنزل . انتبهت إيفا جايكوفسكايا لما يدور في ذهنه ، فأرادت أن تخفف من وطأة الموقف ، فقالت له بنبرة رجاء:

- يجب أن تعذرها..هي في حالة نفسية صعبة..

رد آدم التائه وكأنه يحاول أن يوآسي نفسه:

- أنا أتفهم ذلك.. من حقها أن تتصرف بالطريقة التي تخفف عنها..ما كان عليّ أن أجيء معكم..

- لا.لا. أبداً.. لا تفكر هكذا..فهي تحترمك جداً.. ومعجبة بك.. لكن هذه المصائب المتتالية تخرج المرء عن طوره.. سأعمل لك شاياً..

- لا حاجة.. سأذهب..

لكنها قامت متوجهة إلى المطبخ . فتحت الثلاجة ، فوجدت اللحم الذي كان يفترض أن يوزعه الأب ثوابا ً لروح ابنه ما زال في الأكياس ، راودها شعور حزين عن غرابة هذه الحياة ، فالأب ليلة أمس أراد أن يوزع اللحم لروح ابنه بينما هو الآن تحت التراب ..! رجعت مباشرة إلى غرفة الإستقبال ، وقالت :

- اللحم الذي أتينا به ليوزع على روح الابن ما زال موجوداً. أنا لا أعرف التقاليد الإسلامية، لكن هل يمكن حمله للمسجد القريب..؟

- يمكن ذلك.. سأحمله أنا الآن إلى المسجد..

أحس آدم التائه بالراحة لأنه وجد سببا ً معقولا ً ليغادر المنزل.

* * *

سلّم آدم التائه أكياس اللحم التي حملها في كيسين كبيرين من النايلون إلى حارس المسجد ، التركي ، الذي سأله عن اسمي المتوفيين ، واسم أم كل منهما ، فاحتار في الإجابة لكنه تذكر بأنه قرأ على باب الشقة اسم آدم إسكندروف ، أما اسم ابنه فلم يعرفه ، فذكر اسم الأب ، أما اسم الابن فاتفقا أن تُقرأ الفاتحة على اسم آدم وابنه ، لكن الحارس سأل ، مرة أخرى ، عن اسم الأم ، فأخبره بأنه لا يعرفه ، فاتفقا أيضا أن يقرأ المترحمون الفاتحة على روح آدم بن حواء ، وابنه ابن حواء أيضا ، إلا أن حارس المسجد نظر بغضب مكتوم إلى آدم التائه معبرا عن استيائه لتشابه اسماء الأم ، وكأنما هما أخوان من أم واحدة . ابتسم آدم التائه لملاحظته المنطقية ، وقال : ألسنا جميعنا أبناء حواء .. ؟ فاعترض الحارس من خلال ملامح وجهه ، ولم يقل شيئاً ، لكنه لم يشأ أن يجادل ، فأخذ أكياس اللحم ودخل بها المسجد.

أوقف آدم التائه سيارة تاكسي ، وانطلق إلى محطة القطارات الرئيسية القريبة من الفندق ، فأمامه وقت طويل لكي يذهب إلى غرفته لينام.

* * *

كانت المحطة صاخبة ، خرج من أحد أبوابها الذي يقود إلى مركز المدينة . أخذ يسير دون هدف محدد ، لمجرد قضاء الوقت . أحس وكأن الزمن عبء ثقيل ، يجب التخفف منه ، لكن كيف .. ؟ سأل نفسه . جلس على مصطبة حجرية في أحد الجوانب الفرعية للشارع الرئيسي ، الذي كانت أكشاك خشبية تتوسطه ، حيث بائعو الحلوى ، والمسكرات ، وبائعو النقانق ، والبيرة السوداء الدافئة ، والقهوة السريعة ، وهدايا الأطفال.

جلس يراقب الناس في حركتهم السريعة ، أو المتراخية . انتبه إلى الناس الذين يمرون من أمامه ، كانوا تائهين ، مذعورين ، منغلقين على أنفسهم أو مع من معهم ، إلى أين أيها الناس تركضون .. ؟ سأل نفسه . انتبه إلى رجلين كانا يعبان البيرة بشراهة ، كل منهما قد وضع ثلاث كؤوس كبيرة أمامه ، وأخذا يعبان منها وكأنما يتسابقان . كان هو يراقبهما . انتهيا من كؤوسهما الست ، فانتقلا إلى كشك لا يبعد عنه سوى أمتار ، واشتريا ثلاث كؤوس أخرى لكل منهما ، وأخذا يعبان منها . لاحظ آدم التائه إلى أن الرجلين كانا نحيلين ، وسأل نفسه ، مبتسماً: إلى أين تذهب كل كؤوس البيرة هذه .. ؟ حين انتهيا من كؤوسهما الست رجعا إلى الكشك الأول وأخذ كل منهما ثلاث كؤوس أخرى.

فجأة وقفت امرأة كبيرة في السن أمامه ، أخذت تنظر إليه بتمعن ، نظرات غاضبة ، لم تنطق بأي كلمة ، وبعد لحظات مضت ، وكان خلفها رجل عجوز يتكئ على عكازه ، وقف أمامه أيضا ونظر إليه وإلى المرأة التي اختفت في الزحام ، وسأل بهدوء:

- ماذا أرادت منك هذه المرأة..؟

انتبه آدم التائه له ، وقال:

- لا شيء.. نظرت إليّ بغضب، ثم مضت دون أن تقول شيئاً..
- بعض الناس هنا متعصبون.. لا يرون أبعد من أنوفهم.. يظنون أنفسهم مركز الكون وأصل العالم.. لا عليك..نحن بلد ديموقراطي. إذا كانت قد أساءت إليك بأية كلمة فيمكنك أن تقاضيها..
- لا...لم تسئ إليّ.. نظرت بغضب فقط..
- هل تنتظر أحداً ما..؟
- لا..
- هل تحتاج إلى مساعدة..؟
- لا..شكراً جزيلاً..
- إذاً.. طاب نهارك..
- طاب نهارك..

مضى الرجل العجوز ببطء ، متكئا ً على عكازه . أحس آدم التائه نحوه بتعاطف وإحترام ، لروحه الإنسانية ، وفكر مع نفسه ، مقارنا ً هذين النموذجين من البشر ، اللذين هما في العمر نفسه تقريبا ً، لكن لكل منهما دربه في الحياة ، الذي شكل نظرته وموقفه من الآخر الغريب . فكر مع نفسه بأنه حينما سيبدأ بكتابة روايته الجديدة ، لابد أن يتوقف عند هذا المشهد . فجأة ، أحس في أعماقه ، وكأنما انبثق نور من خلل الغيوم ، سأل نفسه ، لماذا لا يبدأ بكتابة روايته عن كل ما جرى له في ميونخ ، منذ لحظة لقائه مع إيفا ليسنج ، ولحد الآن .. ؟ لماذا لا يتوغل في علاقتها مع صديقتها الخليجية حواء صحراوي ، ويعرف أسرارها .. ؟ لماذا لا يبدأ روايته الجديدة ، ليتحدث فيها عن أشباحه .. ؟ نعم .. نعم .. عليه أن يبدأ بالكتابة .. عليه أن يعود إلى الفندق ليفكر في بناء هذه الرواية ومسارها العام ، وأبطالها ... لكن ، إذا كتب عما رآه حقيقة ، فمن سيصدقه .. سيعتقدون أنه خيال روائي ، رؤى فنتازية لكاتب متأثر بفرانتس كافكا ، كما كتبوا عنه حينما أصدر روايته المنشورة الأولى : كوابيس القنفذ ، لكن عليه أن يفكر بنشر روايته الثانية ، متاهة آدم أو المرأة المجهولة .. المهم ،

الآن عليه أن يعود إلى الفندق ، فهو يحس بولادة الفكرة الروائية في أعماقه.
حين وصل آدم التائه إلى الفندق ، ودخل غرفته ، تخفف من ملابسه مباشرة . سحب حقيبته من الزاوية . أخرج منها رزمة من الورق . جلس على الكرسي . أخذ قلمه من جيب قميصه ، ليخط شيئا ، لكن فجأة ، أحس بأنه خاو ، فقد تلاشت الفكرة من ذهنه . لا يعرف عن أي شيء سيكتب . بل وكيف يبدأ .. البدايات هي مشكلته .. ينفق وقتا ًطويلا ً في البدايات .. لكن ما أن يضع خطواته الأولى حتى تصبح الأشياء أكثر سلاسة .. لكنه يعرف جيدا ًأن كتابة رواية ليست دائما حسب الطلب ، إذ أن أهم شيء أن يكون لديه ما يود قوله ، وإلا سيصبح كل ما يكتبه هزيلا ً، وهشا ً.. المهم يجب أن يكون لديه ما يقوله ، بغض النظر عن قبول الآخرين لما يقوله .. لكن ، لماذا يحس بالعجز عن أن يخط حرفا ًواحدا ً.
أمضى آدم التائه أكثر من ساعتين وهو يحاول أن يضع تصورا ً أوليا ً لروايته المقبلة ، لكن دون جدوى ، فهو لم يحسم أمره في كيفية إنطلاق الحدث الروائي ، لأن ذلك هو الذي سيحدد مسارات الأحداث اللاحقة.
فجأة ، رن الهاتف . أحس وكأن هذا الرنين إنذارا ً، ربما سيفجر لحظة الكتابة لديه . رفع السماعة ، فجاء صوت موظف الإستعلامات ليخبره بوجود مكالمة له من لندن ، وسأله إن كان يريد تحويلها له ، فوافق مباشرة . جاءه صوت إيفا ليسنج دافئا ً، متلهفا ً:

- أهلا آدم..
- أهلاً إيفا..متى تصلين..؟
- سوف أتأخر قليلاً.. لذلك إتصلت بك..
- لماذا..؟
- ابني.. إن زوجي السابق رفع دعوى ضدي، يريد حضانة ابني، مدعياً بأني على سفر دائم بسبب أعمالي الفنية، وأني لستُ جديرة بتربيته.. لأني.. لأني.. على علاقة غير سوية مع امرأة أخرى.. وأن تلك المرأة حاولت الانتحار لأني تركتها وسافرت إلى ألمانيا.. تصور يا آدم.. إلى أي حد تصل نذالة الرجل.. عفواً.. أنا لا أقصدك.. أنت تفهم قصدي..

صُدم آدم التائه بهذا الإتصال ، وبهذه الأخبار ، وتذكر ، بلمح البصر ، ما كتبه صديقها عن علاقتها بهذه المرأة الخليجية ، لكنها أكدت له زيف هذا الإدعاء . سمع صوتها يناديه:

- آدم.. هل أنت معي..؟ هل تسمعني..؟ أين أنت..؟

- نعم..نعم.. أنا معك.. لكني مصدوم من هذه الأخبار المفاجئة.. ماذا ستفعلين الآن..؟
- علي أن أتابع الموضوع.. لقد أوكلت محامياً معروفاً..لكن عليّ أن أتواجد هنا، وذلك لمتطلبات الإجراءات القانونية، ولرد دعوى المقامة ضدي..
- هل أستطيع أن أساعدك بشيء..؟
- لا أسمعك جيداً..؟
- هل أستطيع أن أساعدك..؟
- تساعدني..؟ نعم.. نعم تستطيع أن تساعدني..
- كيف لي أن أساعدك..؟ قولي لي وسأقوم به..
- تساعدني.. بالمجيء إلى لندن..
فوجئ آدم التائه بما سمع ، لم يكن يصدق ما يسمعه ، فقد قال جملته من باب المجاملة ، فقال لها مندهشا ً:
- لم أسمعك جيداً.. هل لك أن تعيدي ما قلته..؟
- تساعدني من خلال مجيئك إلى لندن..
- كيف..؟
- ببساطة.. تركب الطائرة وتأتي..
- لكني يا إيفا وضعي لا يسمح لي..
فقاطعته بمودة ، وبنبرة فيها الكثير من الحنان والصداقة:
- آدم.. برغم قصر علاقتنا التي لا تتعدى الأيام..لكني أشعر بأني أعرفك منذ سنوات.. وبالمناسبة.. هل ما زلت في الفندق نفسه..؟
- نعم..
- سيرسل مكتب الخطوط الجوية البريطانية هنا من لندن، برقية إلى مكتبهم في مطار فرانس شتراوس في ميونخ، وستذهب إلى المكتب لتحصل على بطاقة محجوزة باسمك. هناك رحلتان يوميتان إلى لندن، واحدة ظهراً، وأخرى في وقت متأخر من الليل.. غداً سأنتظرك في مطار هيثرو.. سأنتظرك على رحلة العصر..
- لكن يا إيفا..
- آدم.. هل أنت صديقي أو لا..؟
- طبعاً أنا صديقك..هل تشكين في ذلك..؟
- لا..لا.. لا أشك في ذلك..بل أنا متأكدة من ذلك بقوة..لذا أقول لك: أنا أحتاجك هنا في لندن.. سأشرح لك كل شيء حينما تصل.. أرجوك يا آدم..أنا أحتاجك..

- لكن يا إيفا.. أنا غير متهيء للسفر..هل يمكن تأجيل الموضوع قليلاً..؟
- هل لديك شيء في ميونخ..؟
- لا
- إذاً..لماذا أنت غير متهيء..؟
- لقد فاجأتني..

فقالت بصوت فيه حزن مفاجئ وانكسار مكتوم:

- وها أنت الآن عرفت.. وأقولها لك مرة أخرى: أحتاجك هنا في لندن..هل هذا مكان أن تقوم به من أجلي.. من أجل صديق..؟

صمت آدم التائه للحظات ، ثم قال:

- أوكي.. ممكن..

فقالت بصوت دافئ ، وحنون:

- لقد كنت واثقة من موقفك، واستعدادك للمساعدة.. لذلك اتصلت قبل ذلك بشركة الخطوط البريطانية.. هل ستأتي على رحلة العصر أم الليل..؟

فقال بتردد ، وهو غير مصدق ما يجري:

- سآتي على رحلة ما بعد الظهر..لأن علي مغادرة الفندق في هذه الحال قبل الحادية عشرة..
- آه يا آدم.. كم أنت رائع..سأكون سعيدة أن أراك في لندن غداً.. سأنتظرك في مطار هيثرو..
- حسناً.. سأكون سعيداً برؤيتك حقاً..
- الآن أحسست بأني صرتُ أقوى لمواجهة المشاكل.. شكراً لك آدم..
- أنا لم افعل شيئاً..
- بلى.. بمجيئك تكون قد فعلت شيئاً رائعاً..
- إذاً سنلتقي غداً..
- سنلتقي غداً.. ونتحدث كثيراً.. شكراً لك آدم.. وإلى الغد..
- إلى الغد..

إنقطع الإتصال . وضع السماعة بشكل عفوي في موضعها . أحس بمشاعر متناقضة ، تجتاح نفسه ، فهو سيراها ، سيحضنها ، سيكون معها في لندن ، لكنه أيضا غير مرتاح من غموض ضرورة تواجده في لندن .. لماذا تحتاجه .. ؟ وفي لندن بالذات .. ؟ هي لم تتحدث عن الحب ، بل عن الصداقة ، وقد حددت طبيعة علاقتها به بأنها صداقة ، ثم ما معنى هذا الإلحاح بالمجئ .. ؟ هل تريد أن تغطي بوجودي هناك على علاقتها بصديقتها الخليجية .. ؟ ربما .. وربما لا .. فهي ليست سحاقية أبدا ً.. لكنها شخص

أوربي مختلف .. غير عادي..
إستلقى على السرير ، ناسيا ًأنه كان يريد أن يبدأ كتابة رواية جديدة . ظل يدور مسترجعا ًكل تفاصيل ما دار بينهما من حوار ، محاولا ً أن يستكشف شيئا ً.. لكن لم يصل إلى شيء مقنع .. نهض من السرير ، وأخذ يعد حقيبته ، ورفع السماعة على الاستعلامات ، فجاءه صوت موظف الإستعلامات ، فطلب منه أن يعد حسابه ، لأنه سيغادر غدا ً. فوجئ الموظف ، لكنه فهم بأن قراره جاء بعد الإتصال الهاتفي الذي استلمه من لندن.
كان إتصال إيفا ليسنج قد بلبل أفكاره . أحس أنها غيرت مساراته بشكل معاكس وبالكامل . لقد تحدث مع إيفا جايكوفسكايا أن تحدث صديقتها في البحث عن شقة له في ميونخ ، وها هو ينوي السفر إلى لندن ، بل ولا يعرف كم سيبقى هناك .. فكر بأن عليه أن يبلغهما بقراره وما أستجد على وضعه.
حين صار في الشارع أخذ سيارة تاكسي إلى ذلك الحي الذي تسكنه عائلة آدم إسكندروف . وحين وصل ، وجد هناك من يدخل المبنى فدخل معه . حين صار أمام باب الشقة ، في ذلك الطابق المعتاد بالنسبة له ، لم يجد اسم العائلة مكتوبا قرب جرس الباب ، وإنما وجد اسما ً آخر . استغرب . تلف ّت حوله ليتأكد من رقم الطابق فوجد ما يؤكد له بأنه في الطابق الخامس . طرق الباب . فوجئ آدم التائه حين رأى رجلا ً شرقي الملامح يفتح له الباب . أعتذر منه ، وسأل إن كانت السيدة إيفا إسكندروفنا أو السيدة إيفا جايكوفسكايا موجودتين . استغرب الرجل الآخر ، وقال له بأنه لا يوجد هنا من ساكني الشقة من يحمل هذين الاسمين . اندهش آدم التائه ، وقال له للتأكيد ، أليس هذا هو المبنى الخامس ، الطابق الخامس ، البوابة الأولى ، فأكد له الرجل الآخر صحة المعلومات ، فقال له آدم التائه بأنه يعرف بأن عائلة آدم إسكندروف الذي توفي ليلة أمس كانت تسكن هنا ، وقد كان هو اليوم هنا أيضا عند أرملة ابنه ، فاستغرب الرجل الآخر كلامه ، ولولا أنه انتبه إلى شخصية آدم التائه وهندامه ، لظن أنه يتحدث مع مجنون ، فقد أكد له بأنه وعائلته يعيشون في هذه الشقة منذ ثمانية أعوام ، ولا يوجد في هذه البناية كلها من مات ليلة أمس ، بل ولا يوجد فيها من يحمل هذا الاسم الذي ذكره هو.
أحس آدم التائه بأن ثقته بنفسه قد بدأت تتزعزع أمام تأكيدات الرجل الآخر . أعتذر بشكل مؤدب منسحبا ً، مؤكدا بأنه ربما أخطأ في المبنى ،

فأكد له الرجل الآخر بأنه في المبنى الصحيح ، لكن لا تعيش هذه العائلة التي يتحدث عنها هنا.
حين صار آدم التائه في الخارج أخذ يفكر مع نفسه بما جرى له وما سمع من الرجل الآخر .. أيكون كل ما رآه .. إيفا جايكوفسكايا وإيفا إسكندروفنا غير حقيقيتين أيضا ً.. ؟ أيكون كل ما جرى من وحي ذهنه المتعب وروحه المكتظة بالأشباح .. ؟ لا .. لا .. لا بد من أن يتأكد من ذلك .. لكن كيف .. ؟ فكر بالذهاب مباشرة إلى المستشفى . أوقف سيارة تاكسي ، وطلب من سائقها التوجه إلى مستشفى الطوارئ.
حين صار في المستشفى ، سأل في الإستعلامات عن المتوفي آدم إسكندروف الذي ن ُقل إليهم ليلة أمس وتم تشريح جثمانه هذا اليوم ، وعن زوجته السيدة إسكندروفنا التي أ ُصيبت بجلطة دماغية ، وإمكانية زيارته لها .. ؟ فأوضح له موظف الإستعلامات ، بعد أن نظر في شاشة الكمبوتر الى قائمة المتوفين ذلك اليوم ، بأنه لا يوجد ميت بهذا الإسم ، وليلة أمس لم ي ُنقل أي ميت إلى المستشفى ، بل ولا توجد مريضة مصابة بجلطة دماغية تحمل اسما ً عائليا مثل إسكندروفنا.
أحس آدم التائه برجفة داخلية تهز كيانه ، لكن ثمة رغبة في مواجهة الذات منحته قوة في أن يواصل لمعرفة ما يجري معه ، فأوقف سيارة تاكسي ، وطلب التوجه إلى المقبرة التي يدفن فيها المسلمون ، وسمى له المنطقة . حين وصل المقبرة كان الظلام قد غمر المقبرة التي تحتلها شواهد القبور المكتوبة عليها بلغات وخطوط مختلفة . توجه آدم التائه لغرفة حارس المقبرة ، فوجده يشاهد التلفاز . نقر على الباب بهدوء . خرج إليه الحارس التركي . كان وجه الحارس مليئا بالتساؤلات ، ولم ينطق شيئا ، فبادره آدم التائه بالتحية والسؤال إن كان يذكر أنه نهار ذلك اليوم تم دفن جثة آدم إسكندروف ، في هذه المقبرة . بهت حارس المقبرة التركي ، وأحس بالإرتباك ، فهو لا يجيد الألمانية ، لكنه أجاب ، مستعينا ً بيديه وبحركة جسده ، جملة مركبة من كلمات ألمانية وتركية ، تؤكد نفي وجود حالة دفن في ذلك اليوم . وبالرغم من فهم آدم التائه لما قال فأنه توجه للمكان الذي اعتقد أنه كان موضعا للقبر ، فلم يجد قبرا جديدا ً، وإنما قبر قديم .
أحس آدم التائه بأن ثمة خطأ ما ، ماذا لو كتب كل هذه التفاصيل في نص روائي .. ؟ أيصدقه أحد؟ ألا يعتبرون ما يرويه ليس إلا محاولة لكتابة نص ينضوي تحت ما يسمى بالواقعية السحرية في الرواية .. ؟ ثم لماذا هو

يفكر الآن في الكتابة .. ؟ عليه أن يتأكد مما جرى معه وإلا فمن الأفضل مغادرة هذه المدينة المرعبة ..!!
لم يبق أمامه سوى الذهاب إلى المسجد ، فمشى إلى المسجد القريب الذي وزع فيه اللحم كثواب لأرواح الموتى ، الأب والابن .. كانت قاعة المسجد فارغة ، لكن ثمة غرفة مجاورة كانت أشبه بمكتب صغير ، فيها العديد من نسخ القرآن ، وأشياء أخرى لم يفهم سبب وجودها في مسجد . سرج حصان من الجلد ، وحصان خشبي للأطفال ، وحلوى ، وأكياس من حفاظات الأطفال ، أعشاب طبية .
نهض الرجل الذي كان يجلس وراء المكتب الصغير ، وسأله أن كان يستطيع أن يخدمه ، فسأله آدم التائه إن كان يذكره ، فنفى الرجل بأنه رآه قبل الآن ، فكرر عليه آدم التائه بأنه أتى اليوم بأكياس فيها لحم لتوزيعها ، لكن الرجل نفى أن يكون ثمة أحد في المسجد ، فهو لا يستقبل المصلين منذ ثلاثة أيام لغرض التصليح ، لانفجار مواسير المياه في المسجد ، وهذا ما لا يترك فرصة للوضوء ، لذا فأنهم سيواصلون الفروض بعد تصليح أنابيب الماء . أما توزيع اللحم ، فهذا أمر غريب ، ربما هو واهم ، وأنه كان في مسجد آخر .. ؟ لكن آدم التائه أكد له بأنه هو بنفسه حمل أكياس اللحم إلى المسجد .. فابتسم الرجل وقال له ، إذا َ ربما تراءى له الشيطان وأخذ اللحم ، كي لا يصل الثواب للموتى من المسلمين . شده آدم التائه لقوله ، وعلق متسائلا ً: الشيطان في المسجد .. ؟ ابتسم الرجل وقال له بأن الشيطان في كل مكان .. ألم يكن الشيطان في الجنة أيضا ً.. مع أبينا آدم وأمنا حواء .. ؟
حين عاد آدم التائه إلى غرفته في الفندق كان خائفا ، ليس من الأشباح والأرواح التي تتراءى له ، وإنما من نفسه . أمن المعقول أنه لم يقابل إيفا جايكوفسكايا في المحطة أصلا ً.. ؟ وليس هناك امرأة باهرة الجمال اسمها إيفا إسكندروفنا .. ؟ وأنه لم يكن عندها في البيت ، ولم يكن هناك من مات ودف ُن .. ؟ .. بل وهو لم يكن في المسلخ أيضا ً.. ؟
كان يحس وكأن قلبه يرتجف مثل قلب عصفور مذعور .. راودته رغبة قوية وحنين لرؤية زوجته حواء المؤمن ، لأن ينام في حضنها كالطفل ، يتكور بين ذراعيها ، ويتوغل بين فخذيها . أحس برغبة في أن يمنحها غفرانه ، ففيها يشم عطر أمه الشقية المسكينة التي ماتت غما ً. حواء المؤمن التي آمنت بها أمه ، وكانت واثقة بأنها ستسعده .. لكن هذا لم يحصل يا أمي .. لقد تركتني حواء في منتصف الطريق وحيدا ً.. هكذا كان آدم

التائه يهمس لنفسه ويحدثها ، وشيئا فشيئا تلاشى الحنين والرغبة في الغفران ، وتصاعدت أمواج الغضب والغيرة في نفسه ، فقرر مسح هذا المشاعر الرقيقة تجاهها ، ولم يجد خلاصا ً مما هو فيه سوى السفر إلى لندن ، فقد جاءت دعوة إيفا ليسنج في الوقت المناسب.

الليـدي شـاترلي والمشلول

كان الظلام قد حل حينما دخلت الطائرة إلى أجواء لندن ، وظلت تدور وهي تهبط شيئا فشيئا . لم يشعر آدم التائه أنه رأى منظرا ً اشد جمالا ً وإبهارا ً من لندن ليلا ً، منظورا ً إليها من الطائرة . كانت الطائرة تتمايل وهي تهبط ، وكانت معالم المدينة تتضح أكثر فأكثر ، وبدأت الحركة تدب في الأسفل ، حيث صار يرى السيارات وهي تسير على الطرقات ، وبدأت القصور والجسورالجميلة تبدو وكأنها من عالم الأساطير . كان عرس الأضواء والنور قد منحه البهجة التي لامست شغاف قلبه ، فأحس بأنه قد أحب هذه المدينة . وبرغم تلك المشاعر الرقيقة المتدفقة في أعماق نفسه ، وفي تلك اللحظات بالذات ، بدأت تغمره أحاسيس التوجس والإرتباك من رحلته هذه . لقد انبثقت فجأة أسئلة لم يفكر بها سابقا ً، فبالرغم من أنه سأل نفسه حينما كان في ميونخ كم ّا ً هائلا ً من الأسئلة ، وأجاب عن معظمها بنفسه وبقيت أخرى بدون إجابات ، إلا أنه لم يسأل نفسه هذه الأسئلة التي تلح عليه الآن : كيف سيقابل إيفا ليسنج .. ؟ هل سيصافحها باليد ، أو يأخذها بالأحضان .. ؟ هل يقبلها كما يفعل الأصدقاء حينما يحضنها أو حتى يصافحها أم يتعامل معها رسميا ً.. ؟ هل ستأتي وحدها أو مع آخرين .. ؟ أين سينام .. ؟ هل حجزت له في فندق أو ستأخذه معها إلى البيت؟ هل سيدخلونه إلى لندن بجوازه هذا أو سيرجعونه إلى ألمانيا؟ وماذا لو لم تأت إلى المطار ، أو تتأخر لسبب طارئ .. ؟ ما الذي تريده منه بالضبط .. ؟ كيف له وهو العراقي اللاجئ أن يكون مفيدا ً ومساعدا ً لنجمة عالمية ، غنية ، بريطانية ، مشهورة ، امرأة ذات جمال باهر ، بإمكانها أن تحرك جيشا من الإعلاميين والمحامين لمساعدتها .. ؟ لكن ماذا لو أن كل الأمر لم يكن إلا وهما ً.. ؟ فلا هي إتصلت به ولا هو مسافر على متن طائرة ، وربما هو في غرفته الآن يحلم ، وهو يعيش الحلم حاليا ً.. ؟ لا .. لا .. هذا جنون مطبق .. وبشكل لا إرادي مد يده إلى جيبه وأخرج البطاقة التي أعطته إياها إيفا ليسنج عند لقائهما ، فقرأ العنوان اسم المنطقة والشارع . Kensington (South) – W14 8 Ps - Abingdon Vills لكن هل سيذهب على هذا العنوان إذا ما تأخرت عن

المجيء .. ؟
أفاق من إنشغاله مع أسئلته على لحظة إرتطام عجلات الطائرة بالأرض . فكر بالطيارة التي كانت محلقة على إرتفاع عدد من الكيلوترات في السماء بكل هذا الثقل ، بينما هي تعود الآن إلى الأرض ، إلى العالم الواقعي ، الأرضي ، حيث الخير والشر في صراعهما الأبدي . إستذكر الطائرة ، حينما كانت محلقة على ارتفاع عال جداً، لم تكن العين ترى أية مدينة أو نهر أو حتى جبل ، وكأن الأرض كوكب مهجور ، ناهيك عن البشر الذين لا وجود لهم من تلك الأعالي ، بينما الإنسان على الأرض يعتقد أنه هو مركز الكون .. ؟.

توقفت الطائرة بشكل نهائي ، وفُتح بابها على خرطوم طويل يقود إلى ممر طويل . لم يكن يعرف إلى أين يذهب . أخذ يتبع المسافرين في اتجاههم ، وبدأ يقرأ العلامات المرشدة إلى مكاتب تفتيش الجوازات ، وأخذ الأمتعة.

عند شباك التفتيش أخذ موظف التفتيش يتأمل جوازه ، وينظر إلى وجهه ، وكتب أمامه على جهاز الكمبيوتر شيئا ، ثم دفع بالجواز إليه دون أن يختمه ، ومر من فتحة جانبية بين أكشاك موظفي تفتيش الجوازات .. بعدها صار عليه التوجه إلى قاعة أخذ الأمتعة . كانت هناك شرطية في الأربعين تقف بين منطقة التفتيش والخروج إلى قاعة استلام الحقائب والأمتعة ، رأت جوازه وقالت له بوجه بشوش : أهلا وسهلاً في لندن.

كانت القاعة كبيرة ، وهناك عدد كبير من الأحزمة الدوارة . انتبه لكثرة الأجانب العاملين ، لاسيما من الهنود . قرأ على لائحة إحدى الأحزمة الدوارة اسم ميونخ فوقف هناك مع المسافرين الذين كانوا معه على الرحلة نفسها ، إلى أن وصلت حقيبته ، فأخذها ، وخرج . وجد نفسه في قاعة أخرى ، وهناك لمحها ، ومعها رجل بدا أنه سائقها.

كانت هناك محلات باهرة وأناس من مختلف الأجناس . أقبلت عليه باسمة ، ومتلهفة . ارتبك هو ، لكنه حين رأى اللهفة والفرح في عينيها أحس بالإطمئنان ، وبشيء من الشجاعة ، فوقف . مدّ يده مصافحا ، إلا أنها فتحت ذراعيها واحتضنته بمودة مرحبة به . في تلك اللحظة ، رأى لمعان فلاشات كاميرات تصوير بعيدة . التفتت هي إلى الرجل الذي يرافقها ، قائلة:

- مستر آدمز.. ساعد السيد التائه في نقل الحقيبة إلى السيارة.. سنكون خارج الصالة..

- نعم سيدتي..

حيا الرجل ، الذي هو سائقها كما خمن ، آدم التائه برأسه وهو يقول:

- أهلا وسهلا أيها السيد..

أخذ الحقيبة ومضى . رحبت إيفا ليسنج بآدم التائه ثانية بقوة ، وحرارة ، أنسته كل ارتباكه ، وألغت بابتسامة من وجهها الجميل كل الأسئلة الفجة التي أقلقته في الطائرة . انتبه إلى أن بعض المسافرين ، وأصحاب المحلات ، كانوا يتهامسون حين يمران . فجأة انبثق من خلف أحد الأكشاك مصور وقف على بعد أمتار منهما ، وأخذ لهما صورة ، بينما كانت هي تحتضن ساعد آدم التائه بساعدها . أحس هو بالإرتباك .. من هم هؤلاء .. ؟ هل هي التي طلبت منهم ذلك لتثبت للمحكمة عدم مصداقية اتهام زوجها لها بعلاقتها السحاقية مع صديقتها الخليجية .. ؟ أو هم البباراتسي ، المصورون الذين يقتنصون المشاهير في لحظاتهم العفوية .. ؟ لكنه لم يتوقف كثيرا ًعند هذه الأسئلة ، لا سيما حينما لاحظ أنها لم تتأثر كثيرا ًبذلك ، ولم تعلق عليه ، إذ بدا له بأن هذا الأمر عادي بالنسبة لها كممثلة ، ونجمة عالمية ، ومشهورة ، لاسيما في مدينتها.

حينما خرجا إلى الشارع كانت ثمة سيارة زرقاء اللون ، حديثة الصنع ، من نوع جغوار ، تنتظرهما بالقرب من موقف سيارات التاكسي . حين دخلا إلى السيارة طلبت إيفا لسينج من السائق أن يذهب بهما إلى شقتها في منطقة ريتشموند . انتبه آدم إلى أن عنوانها على بطاقتها هو كينزينغتون وليس ريتشموند .

حدست هي ما يفكر فيه ، فأخذت تشرح له ، بأنه سيعيش في شقة تملكها في منطقة ريتشموند ، وهي منطقة جميلة يشقها نهر التايمز إلى نصفين ، ثم أوضحت له بأنها تسكن بشكل دائم في منطقة كينزينغتون ، كما هو العنوان في بطاقتها ، وأن أهلها ، أمها وأبوها ، بل أختها وصديقها ، يسكنان في نايتزبريج ، أما صديقتها حواء صحراوي فتعيش في تشلسي . كان هو يستمع لأسماء المناطق دون أن تكون لديه أية فكرة عنها ، فهي مجرد أسماء تطرق أذنه . أوضحت له بأن هذه الشقة اشترتها بعد انفصالها عن زوجها مباشرة ، حيث كان لديهما بيت في منطقة بيز ووتر ، وقد حولت هذه الشقة في ريتشموند إلى ما يشبه المكتب ، بعد أن اشترت بيتها في كينزينغتون ، لذا فأنها تلجأ إليها حينما تبدأ بقراءة سيناريوهات الأفلام أو المسلسلات التلفزيونية ، أو نصوص المسرحيات . كما أن لديها سيارة أخرى في كراج المبنى ، هنا في رينتشموند ، تقودها بنفسها

أحيانا ، حينما تريد أن تتفسح في شوارع لندن وحدها ، أو مع صديقتها حواء صحراوي.

حين سمع آدم التائه باسم حواء صحراوي ، وجد أنه من اللائق أن يسأل عن وضعها الصحي ، ولو من باب المجاملة ، فهو لم يتحدث طوال الطريق ، مما سبب له الحرج ، فسألها:

- بالمناسبة..كيف وضعها الصحي والنفسي الآن..؟

سر ّها جدا ً، أنه خرج عن سكوته ، وأنه سأل عن صديقتها ، فأخذت تشرح له بحماس:

- إنها في حالة صحية ونفسية جيدة، وقد خرجت أول أمس من المستشفى، وهي الآن في بيتها، الغريب أنها بعد محاولتها الانتحار، تغيرت نظرتها إلى الأمور وصارت تنظر إلى الحياة بشكل أكثر إسترخاء، وبلا مبالاة لكل ما كان وما سيكون، وكأن مواجهتها مع الموت كشفت لها القيمة الحقيقة للحياة. هل على الإنسان أن يواجه الموت كي يكتشف قيمة الحياة..؟ وبالمناسبة..لقد سرت حينما عرفت أنك ستأتي، وقد دعتك، مقدماً، في حال وصولك، إلى عشاء لديها في بيتها، في منطقة تشلسي، لذلك فهي تنتظر مني إتصالاً لتأكيد وصولك..

أحس هو بالحرج من كل هذه الحفاوة والإستقبال ، وانتبه إلى أن إيفا ليسنج ، تتحدث كثيرا ً، لمجرد أنها تحاول أن تذهب عنه ارتباكه وحرجه ، ولأنها أدركت أن لديه الكثير من الأسئلة ، أهمها هو سر إلحاحها على مجيئه إلى لندن.

لم يكن يتوقع أن تكون منطقة ريتشموند بهذا الجمال الطبيعي ، والهدوء ، الذي لا يكاد يتناسب مع مدينة صاخبة مثل لندن ، فالشقة تقع ضمن مبنى سكني صغير يضم بضع شقق فارهة ، نظيف ، يقع بالقرب من مساحات خضر واسعة.

كانت الشقة واسعة ، ونظيفة ، ومؤثثة برشاقة ، وذوق فني خاص ، وكانت الصالة كبيرة ، أشبه بمكتبة كبيرة ، حيث جداران منها مغطاة برفوف من الخشب القوي ، مرصوفة بالكتب ، وعلى طاولة قريبة من النافذة تتراكم بعض الكتب في أغلفتها النايلونية ، إشارة إلى أنها لم ت ُفتح بعد ، وكانت مؤثثة بطقم صوفا جميل ، أبيض اللون ، مع طاولات ذات زجاج أزرق ، يواجهها مطبخ مفتوح ، تفصله عن بقية الصالة قطعة طويلة من المرمر الفاخر الذي يعطي ظلا ً أزرق ، ومن جانب آخر ثمة ممر صغير يقع فيه حمام للضيوف ، كما يمتد ، في الجهة المقابلة للممر الصغير سلم

يقود إلى الطابق الثاني . قادته لكي تريه غرفة نومه ، وليتعرف على المنزل ، فصعدت معه إلى الطابق الأعلى ، حيث توجد غرفة واسعة للنوم ، يتوسطها سرير عريض ، ومؤثثة بشكل مريح وجيد ، وفيها رفوف كتب تحتل أحد جوانبها أيضا ً، وفيها شرفة واسعة تطل على نهر التايمز من بعيد ، وعلى حديقة المبنى مباشرة ، كما انتبه إلى أن على الجدار المقابل لرفوف الكتب ، لوحة كبيرة ، ربما هي تقليد ممتاز ، لتخطيط ماتيس الشهير لإمرأة بالأزرق . انتبه لعلاقة إيفا ليسنج باللون الأزرق ، وكذلك صور لها مأخوذة من أدوارها في المسرحيات والأفلام التي شاركت فيها . إلى جانب غرفة النوم ثمة غرفة أخرى أشبه بمكتب عمل ، حيث جهاز فاكس ، ومعدات مكتبية متنوعة ، وطاولة مكتبية فاخرة ، وخزانات مليئة بملفات مختلفة الأحجام ، وأيضا كانت الجدران مزينة بصور لها ، وهي تجسد أدوارا ً مختلفة في المسرحيات والأفلام . إلى جانب غرفة المكتب ثمة غرفة واسعة كحمام ، حيث الدش المنفصل بحاجز زجاجي ، إلى جانب المرافق الصحية . ابتسم مع نفسه معلقا في دخله ، بأن حمامها أوسع وأنظف من شقته في ألمانيا.

إذا ً سيعيش هو هنا ، ليس معها ، ولا في فندق .. ؟ هذا الأمر منحه شيئا من الراحة ، باعتبار أنه لن يكلفها ولا نفسه أية نفقات.

صعد السائق آدمز بالحقيبة إلى غرفة النوم ، وسأل سيدته إن كان ثمة شيء يفعله ، فقالت له بأن يذهب ، فهي ستبقى ، وربما ستستخدم سيارتها الموجودة هنا ، إذا ما أرادت العودة إلى كينزينغتون.

بعدما نزلا إلى الصالة ، وجدا نفسيهما قد صارا وحدهما ، أحس كل منهما بالحرج ، كيف سيتصرفان الآن .. ؟ لكنها كانت أكثر جرأة منه ، وأكثر تلقائية في تصرفاتها ، فاقتربت منه واحتضنته ، فاحتنضنها . أحس بطراوة جسدها الملتصق به ، وإنسحاق نهديها على صدره ، وجهها الجميل ، الذي بدا له شاحبا ً نوعا ً ما ، يدعوه لتقبيلها ، فقبلها قبلة هادئة ، بدأت تتصاعد شيئا فشيئا ، حتى صارت قبلة نهمة . انتبهت هي ، فسحبت نفسها ، وهي تبتسم ، قائلة:

- ليس الآن.. أنا مريضة هذه الأيام.. لكن، دعنا من هذا الآن، وقل لي ماذا تتعشى.. هل تريد أن نخرج إلى المطعم، أو نعد هنا شيئا خفيفاً ما دام كل شيء متوفراً..؟

كان قلبه يخفق من أثر القبلة ، لكنه سيطر على نفسه ليكون طبيعيا ً، فبعد لحظات من قولها ذاك ، انتبه إلى أنها تقصد بأنها في مرحلة الطمث

، فقال:

- يفضل أن نتعشى هنا.. لنعد شيئا خفيفاً..

- طيب. ما رأيك بسلطة الخضار مع الجبن.. هذا ليس عشاءً بريطانياً.. وإنما عشاء الذين يحافظون على أوزانهم..

- جيد جداً..

- أنت أجلس هنا أمامي.. أريد أن تكون قريباً مني وأنا أعد العشاء..

قالت ذلك وذهبت إلى ما وراء المصطبة المرمرية التي تفصل الصالة عن المطبخ ، والتي تستخدم كطاولة طعام . جلس آدم التائه على كرسي عال أمامها ، متكئا ًبذراعيه على الطاولة المرمرية . امتدت بينهما لحظات صمت مشحون . كانت إيفا ليسنج تفكر مع نفسها ، وهي تفتح الثلاجة لتخرج الخضروات وتغسلها ، بأنها ملزمة بأن توضح له معنى ضرورة أن يكون في لندن ، لكنها كانت محتارة أن تبدأ الآن أو بعد العشاء ،.. ؟ كان هو ينظر إليها ، وإلى تقاسيم جسدها الجميل وهي تنحني أمامه ، وتتحرك كأية امرأة تعد عشاء لزوجها أو حبيبها ، أو حتى لابنها ، لكنه انتبه بأنها صامتة ، بل مستغرقة في التفكير ، وانتظر أن تبدأ بالكلام ، لكنها ظلت صامتة .

قام من مكانه ، وأخذ يتجول في الصالة مستعرضا ًرفوف الكتب ، فانتبه إلى كم هائل من الكتب السينمائية عن حياة الممثلين والمخرجين ، ومؤلفات كاملة لمعظم الكلاسيكيين الإنكليز ، منها أسماء سمع بها لكنه لم يقرأ لها شيئا ، سواء في الشعر أم الدراما والرواية أيضا ً. ومؤلفات دوستويقسكي ، وتولستوي ، وتشيخوف ، وبوشكين ، وستندال وبلزاك ، وفلوبير ، كافكا ، ومجموعة فرويد ويونغ ، ولهلم رايش ، وكتابه الشهير عن اللذة ، الذي قرأ عنه بالإنكليزية لكنه لم يقرأه ، وبعض كتب روسو ، ماركس وأنجلز ، وباكونين ، وستيوارت ميل ، هوبزباوم ، ومؤلفات البير كامو وسارتر ، ومارسيل بروست ، والمجموعة الكاملة لموباسان ، ومجموعات شعرية لشعوب أفريقية وأثنيات مختلفة ، ووجد بطاقة لتشي غيفارا على أحد الرفوف . إستغرب من أنها ، وهي النجمة العالمية ، تهتم بوجهات يسارية وفوضوية وثورية.

التفتت إليه فرأته مستغرقا ً في استعراض عناوين الكتب على الرفوف ، فقالت له:

- هذا جزء من مكتبتي، لكن في بيتي بكينزينغتون مكتبتي الحقيقية.

- لكني أرى كتباً، كنت أشك أنك تقتربين منها، أو لديك الرغبة في

قراءتها.
- ماذا تقصد..؟
قالت ذلك وأخذت تفتح قنينة نبيذ ، بعد أن رتبت الصحون على الطاولة المرمرية.
- أقصد كتب ماركس، وباكونين، وهوبزباوم، وصور جيفارا..
- آها... تقصد ذلك..
- نعم
- تعال أولاً لتأكل شيئاً، ثم أجيبك على سؤالك.
جلسا متقابلين على طرفي الطاولة المرمرية . سكبت شيئا ً من النبيذ في كأسيهما . رفعت كأسها فرفع كأسه ، وقالت له:
- في صحتك..وصحة وصولك..
- في صحتك..
استلطف آدم التائه طعم النبيذ الأحمر ونوعيته ، فسألها:
- هل هذا نبيذ إنكليزي؟
- لا... إنه بومارد.. واحد من أجود أنواع النبيذ الفرنسي.. إنكلترا ليست مشهورة بالنبيذ. الكروم لم تنبت في إنكلترا..من المحتمل أن الرومان جاءوا بأشجار الكروم وبالنبيذ إلى إلينا، بالرغم من أن بعض الأنثربولوجيين يؤكدون بأن النبيذ كان في جزيرة ريبن البريطانية قبل المسيح بحوالي 43 سنة،لكن الثابت إن انتشار الكروم، والنبيذ كان بعد زواج هنري الثاني للملكة الفرنسية ألينورا أغونتينين، حيث في حدود العام 1152 صارت فرنسا الحالية تحت سيطرته.
- يبدو أنك عالمة بالنبيذ..
- ها..ها.. لا أبداً.. لكني أحب النبيذ جداً، ومعلوماتي عنه مستمدة من والدي..
- والدك؟؟
- نعم.. وهو ما له علاقة بطبيعة قراءاتي أيضا..
كانا يأكلان ، ويواصلان الحديث ، ويرتشفان النبيذ ، فسألها:
- وما هي مهنة والدك..؟
- إنه أستاذ جامعي.. وهاوي تحف ولوحات فنية..
- آها.. وما هو تخصصه الأكاديمي..؟
- الحقوق.. والعلوم السياسية..
- ومن أين جاءت علاقته بالفن وبالتحف واللوحات..؟

- من أمي.. التي هي أستاذة لعلم الجمال..
- آها.. إذن أنت من عائلة مثقفة، أكاديمية..؟
كانا قد انتهيا من عشائهما البسيط . سكبت نبيذا في كأسيهما ، وأخذت كأسها متجهة إلى الصوفا في وسط الصالة ، مقابل رفوف الكتب ، فتبعها وكأسه بيده . ارتشفت هي من كأسها واسترسلت تتحدث عن نفسها ، قائلة:
- أبي كان رجلاً يساريا معروفاً في شبابه، وأمي كذلك.. لكنهما بعد مجيئنا إلى العالم، كرسا نفسيهما لنا، ولنفسيهما طبعاً، لقد نشأت في عائلة متحررة فكريا، يسارية التوجه، ليبرالية في علاقاتها، حيث كان بيتنا كما أذكر في طفولتي ومراهقتي حافلاً بالكثير من الأدباء والفنانين والسياسيين المعروفين في إنكلترا، عشنا أربع سنوات في باريس.. حيث كان أبي يحاضر.. وسنة في أميركا.. وسنة في إيطاليا.. كان بيتنا مكتظاً بالمثقفين، والزوار، والطلبة... أحيانا، هنا في لندن، كان يزورنا أشخاص أجانب من أوروبا، وأميركا، ومن الشرق أيضا. بل كادت كثرة علاقات والدي مع الأجانب تحطم حياته الزوجية، وتدمر عائلته، حينما تعلقت أمي، برجل شرقي بشكل جنوني، بحيث كانت مستعدة أن تتركنا من أجله، حينها كنا في بدايات فترة مراهقتنا أنا وأختي..رحلت معه إلى باريس وروما، وعاشت معه ثلاثة أسابيع، عادت بعدها إلى أبي..فلم تكن تستطيع أن تسبب له آلآما كثيرة، فهي تحبه حقاً، كما كانت غير قادرة على التضحية بنا.
نظر إليها مستغربا ً، وسأل:
- تحبه كثيرا..وتذهب مع رجل آخر تحبه أيضاً..؟
إرتشفت من كأسها ، ثم واصلت:
- نعم.. كانت تحب كلاً منهما بطريقة خاصة.. الشرقي تحبه جنسياً، غريزياً.. لقد أخبرتني بعد ذلك بسنوات، بعد أن كبرتْ، وصرتُ أنا ممثلة معروفة، بأنها عاشت مع الرجل الشرقي لحظات تعادل حياة بكاملها.. لقد مارست معه كل ما يمكن أن يخطر على بال، بشكل داعر وبشكل رومانسي مقدس..وهو ما لم يكن تستطيع أن تفعله مع أبي، ربما من باب الأخلاقية الإنكليزية، والخجل، لا أعرف، لكنها كانت تحب أبي، لأنه يحبها، وليس لأنها تحبه.. لكن ذلك ساعدنا أن ننشأ أنا وأختي في جو متحرر، غير عنصري، بل على العكس، نجد راحتنا أكثر مع الآخر، غير الإنكليزي.. لاسيما الشرقي.. أو غير الأوربي..
نظر إليها للحظات ، ثم ابتسم ، وقال بنبرة مشاكسة:

- ربما ربما لأن هذا الأمر يمنحنك إحساساً بالتفوق على الآخر..؟ وكأنك تتفضلين عليه في أن تقيمي معه علاقة..

نظرت إليه متسائلة ، وكأنها تخمن ما يشير إليه ، فسألت:

- ماذا تقصد..؟ هل تعني بأني في علاقتي معك أتعامل من باب التفوق العرقي أو الحضاري؟ لا.لا.. أنت تذهب بعيداً.. على الأقل ليس لواحدة في مثل وضعي يا آدم.. قد يصح هذا الأمر على إمرأة عاطلة عن العمل، قبيحة الشكل، وربما مدمنة على الكحول أو المخدرات..أو إمرأة وحيدة من الطبقات الفقيرة، فتقبل أن تقيم علاقة مع هندي أو أفريقي، أو عربي، من هذا المنطلق، فبرغم من أنها معزولة أو مهمشة إجتماعيا ضمن المجتمع الإنكليزي لكنها تحس بالتفضل والتفوق على الآخر الأجنبي إذا ما أقامت معه علاقة.. لكن ليس هذا ما أحس به.. أنا لستُ عنصرية.. بل وأمقت أية عنصرية عرقية أو جنسية.. أبي رجل حقوق...ربّانا على أن الناس كلهم متساوون في الحقوق.. ولائحة حقوق الإنسان كانت تطبق في بيتنا، وفي تفاصيل تربيتنا.. لذا أنا أتحدى المجتمع في علاقتي بالآخر.. أتعتقد أن علاقتي بصديقتي حواء صحراوي كانت سهلة.. خاصة وهي امرأة مسلمة..؟

نظر آدم التائه إليها بهدوء ، وأحس أنه جرحها في ما قاله ، لكن راوده إحساس بأنها قد وصلت إلى توضيح سر دعوتها له للمجيء إلى لندن ، فقال:

- أنا اعتذر إن كنت قد جرحت مشاعرك في ما قلت، لكني كنت أحاول أن أرصد طبيعة المشاعر العنصرية في المجتمعات الأوربية، وذلك من خلال تفاصيل الحياة اليومية.. لكن ماذا عن طبيعة علاقتك بصديقتك حواء صحراوي..؟ لماذا كل هذا الهجوم الإعلامي ضدك..؟

صبت ما تبقى في الزجاجة من نبيذ في الكأسين ، وقالت:

- الأوربيون، في أعمق أعماقهم، عنصريون..بالرغم من أنهم من أوجد وأقر لائحة حقوق الإنسان.. لكن لديهم رعباً من الملونين، من المسلمين، من الأتراك، والصينيين والهنود.. والأفارقة.. التخلص من هذا الإرث النفسي لا يتم بسهولة، إلا إذا كانت الطفولة مختلفة..أي بدءاً من رياض الأطفال والمدارس المختلطة.. حيث لا تنمو عقدة الخوف من الآخر ولونه وعقيدته.. أنا في تربيتي وحياتي العائلية، في طفولتي وصباي وشبابي، عشت كما عاشت الليدي شاترلي في رواية د.هـ لورنس.. أحيانا أقول ذلك لأبي، فيبتسم، ويسأل: هل هذا جيد أو سيىء..؟ أجيبه: جيد بالطبع..فقد كانت الليدي شاترلي امرأة ذات ميول يسارية، صادقة مع نفسها، لكني حتى في علاقتي

مع زوجي، والد ابني، هي مثل علاقة الليدي شاترلي مع زوجها المقعد..فذاك كان مشلولاً، كان رمزاً للإرستقراطية الحية لكن المشلولة، وهذا هو رمز للمثقف المشلول..المقعد..

فسأل مازحا ً:

- لكن هل زوجك مقعد أيضا..؟

ابتسمت ، وقالت:

- لا.. لكن ربما هو مقعد روحيا.. لكني أقصد المثقف المشلول.. الذي يعيش أفكاره الإنسانية داخل جمجمته فقط... وفي أحلامه.. يستطيع أن يتحدث ساعات عن العلاقة بالآخر، لكنه لا يستطيع أن يتبادل جملة مع الآخر..

نظر إليها ، مندهشا ً من تشبيهها لنفسها بالليدي شاترلي .. نعم ... هي محقة .. فالليدي شاترلي إنسانة هائلة .. وشجاعة .. وكانت تعرف ما تريد .. كرر سؤاله لها:

- ولماذا كل هذا الهجوم على علاقتك بصديقتك..؟

- لم أكن أعرف حقيقة زوجي، ونفسيته، وأعماقه، وعنصريته، إلا بعد تعرفي إلى السيدة حواء صحراوي. لقد رويت لك كيف أني تعرفت عليها حينما كانت تعد لإطروحتها.. ذات مساء دعوتها إلى البيت، لم يكن هو موجوداً في البيت، لكنه جاء فجأة.. لم يقل شيئا.. رحب بها بشكل مؤدب، لكنها حينما رحلت، أخذ يعلق تعليقات سخيفة، عن هؤلاء الذين بدأوا بتمزيق نسيج المجتمع الانكليزي، والثقافة الإنكليزية، واللغة الإنكليزية..لم أصدق ما سمعته منه.. لم أكن أعرف أن هذا الذي يتحدث ساعات عن شكسبير، وكريستوفر مارلو.. وبايرون.. يعلّق بهذه الطريقة الفجة.. ذكرّته بأن شكسبير خلّد في واحدة من أجمل مآسيه رجلاً مغربيا.. هو أوتيلو.. بل وسمى مسرحيته باسمه.. بل وحمل أوتيلو أجمل صفات الرجولة والشهامة، فحتى في جريمته بقتل ديزدمونة.. تركنا نتعاطف معه.. فهل كان شكسبير عنصرياً حينما جعل بطله أسود البشرة..؟ ثم ذكرته ببايرون الذي يحبه هو، ألم يذهب بايرون ليناصر الإغريق في انتفاضتهم من أجل الاستقلال..؟ أحسست بأن الرجل الذي نطق بتلك الجمل غير اللائقة لا يمكن أن يكون هو زوجي.. لا أعرف يا آدم...لا أدري كيف أصف لك شعوري حينها، فقد أحسست بأني أخطأت بزواجي منه، بالرغم من أن لي طفلاً منه..

نظر آدم التائه إليها متسائلا ً، قائلا ً:

- ألا تعتقدين بأنك ربما تبالغين في تضخيم كلامه، وإساءته للآخر..؟ فهذا

كلام عام يمكن أن يقال في كل مكان..
- ربما تعتقد أن ذلك مبالغة، وتضخيم لمقاصد كلامه، أو ربما هو قد أساء التعبير فقط، حينها حاولت أن أقنع نفسي بذلك أيضاً.. إلا أن الأمر تكرر في ما بعد مرة أخرى.. حينما كنا في مطار هيثرو لنسافر إلى فينيسيا، حيث كان عليَ إداء بعض المشاهد من دوري في فيلم (ليلة الذئب الأخيرة)، فصادفنا إضراب عمال المطار، ومعظمهم من الهنود والأفارقة.. تأخر تحميل الحقائب حيث ليس هناك حمّالون.. وعلينا أن نجرها بأنفسنا إلى مدرج الطائرة.. حينها غضب وأخذ يشتم هؤلاء القردة الذين لا يشكرون النعمة التي هم فيها، فيضربون عن العمل أيضاً..؟ تكرر الأمر في فينيسيا، حيث كان المشهد الذي عليّ تأديته فيه بعض الإثارة.. حيث على البطلة أن تغوي رجلاً أسود، وتقوده في جندول بقنوات فينيسيا، لتسلمه في إحدى المنعطفات لحبيبها الذي عليه أن يقدم قربانا، في معبد سري، وهذا القربان يجب أن يكون رجلاً أسود. المهم.. كان زوجي يود أن يقضي معي أياماً في فينيسيا، ثم روما، وفلورنسا، لنشاهد الكنائس والمتاحف.. وكان حاضراً في التصوير..بعد أن انتهى التصوير، وعدنا إلى الفندق، سألني معاتباً بمرارة، كيف وافقت المخرج على أن أسمح لهذا الممثل الأفريقي أن يقبلني، ويضمني، ويداعبني..؟ صُدمتْ حينها.. لكن ذلك أيضا دغدغ مشاعري، بأنه يغار عليّ من الآخرين، لكني لا أقبل أيضاً الغيرة حينما تكون تدخلاً في عملي، فسألته بمشاكسة، أكان يعترض لو كان الممثل أوروبياً وليس أسود..؟ فصدمني جوابه، حين قال على الفور: نعم.. لا يغيظني الأمر لو كان الممثل أوروبياً، فهذا عملك وأنا أتفهمه.. لكني لا أحتمل أن أرى رجلاً أسود يقوم بذلك.. برغم علمي أنه تمثيل..!.. ثم تصاعد الأمر..فكلما تتعمق علاقتي بمدام حواء صحراوي، أجده يبتعد أكثر فأكثر..إلى أن اكتشفت علاقاته الأخرى.. وحينما تواجهنا، قال لي إنه لا يطيق أن يرى أن أقرب صديقة لزوجته من العربيات المسلمات..؟ وفي المحكمة كان هذا أحد أعذاره بأننا نختلف في رؤيتنا للكثير من الأمور في الحياة.. فهو يرى أنه يمكن أن يقيم علاقة مع ملون بحكم العمل، أو أن يتقبل الطعام من نادل ملون، لكن أن يكون شخصاً ملوناً صديقاً مقرباً لعائلته، فهذا ما لا يقبله!.
نظر آدم التائه إليها مأخوذاً بإنفتاحها الإنساني العميق ، فسألها:
- لكنك يا إيفا تزوجتِه.. ألم تعرفي أفكاره ورؤيته للعالم قبل الزواج..؟
فقالت وفي عينها نظرة من يسترجع ذكريات معينة:
- ما تسأله مضبوط.. بل أزيدك علماً... أنه يساري.. ويخرج في المظاهرات

المضادة للحرب..بل كان ضمن المظاهرات الرافضة لضرب العراق حينما دخل الكويت..لكنه يفعل ذلك ليقنع نفسه بأنه يساري، أو ليبرالي..إنساني..لكن إذا صادف وجود أجنبي ملون معه ضمن تلك المظاهرة، فأنه لا يستطيع التواصل معه بكلمة واحدة....

نظر إليها وكأنه يستجوبها ، لكن برقة ، فسألها:

- إذا كان زوجك يغار أو يمقت علاقتك بالأجانب، فاتهمك بالعلاقة غير الطبيعية مع السيدة حواء صحراوي، فكيف تكرر الأمر مع صديقك.. الذي نشر في الصحافة اتهامه لك..؟

انتبهت إلى أنه يتابعها بدقة ، فقالت:

- زوجي لم يتهمني بذلك في حينها، وإنما الآن اتهمني حينما رفع الدعوى ضدي، معتمداً على اتهام صديقي السابق لي.. وحتى هذا الصديق، الذي تقرب مني خلال خلافي مع زوجي، ووضعي النفسي المتوتر، وكان يظهر لي أنه ينتقد كل عقليته العنصرية، لكن اتضح أنه أسوأ منه، فحينما عرف أن حواء صحراوي، هي غنية جداً جداً، وهي مطلقة، حاول أن يتقرب منها سراً، محاولاً أن يتواجد في أماكن تواجدها، في الأسواق التجارية، موحياً بأن تواجده في أماكن تواجدها يجري مصادفة وبشكل عفوي، ثم يدعوها إلى فنجان قهوة، إلا أنها كانت ترفض ذلك..وتخبرني بذلك حينما نلتقي..لكنه ما أخبرني ولا مرة عن هذه المصادفات الغريبة...إلا بعد أن سألته إن كان قد التقى السيدة حواء صحراي.. فأظهر وكأن الأمر ليس ذا أهمية، وقد جرى مصادفةً، لذلك لم يخبرني.. إلى أن حاول أن يصورني دون علم مني في لقطات شبه عارية، ونحن في البيت، أو وأنا أستحم.. بنية بيع الصور لإحدى المجلات.... حيث قطعت علاقتي به.. فأطلق سيلاً من الاتهامات ضدي..نشرتها صحيفة (ذي سن) المصورة، الواسعة الانتشار.. لكن بعد التقريرالمصور الذي نُشر مؤخراً في مجلة (إمباير) السينمائية، والذي قرأته أنت في ألمانيا.. وبعد إشارة صديقي السابق حول علاقتي الخاصة مع السيدة حواء صحراوي..استغل زوجي السابق الخبر ليرفع دعوى لحضانة الطفل.

صمتت هي للحظات .. كان تنتظر أن يسأل أو يعلق ، إلا أن آدم التائه كان صامتا ً، لكنه كان متوترا ً، لأنه قد وصل إلى النقطة التي سيسمع فيها سبب دعوته إلى لندن لمساعدتها ، انتظرت ْللحظات ، وحينما انتبهت إلى أنه لن يسأل شيئا ، وإنما ينتظر منها أن تستمر في سرد قصتها ، واصلت :

- أنت تنتظر مني أن أوضح لك لماذا دعوتك إلى لندن.. أليس كذلك..؟
- صحيح..
- أنت صديقي.. بل إنسان مقرب جداً إلى نفسي.. وربما تستغرب ذلك، لأننا لم نلتق كثيراً.. لكني أشعر إني أستطيع أن أجد معك لغة مشتركة أفتقدها كثيراً مع الذين يحيطون بي.. لذا اعتبرتك صديقي المقرب جداً.. فأنت وحواء صحراوي أقرب أصدقائي إليّ.. أنتما أقرب إليّ من أختي، التي هي مديرة أعمالي.. ولأني أمر بهذه الورطة التي أنا فيها، ولا أريد أن أعرض السيدة صحراوي في هذه القصص الفضائحية التي تنشرها الصحف، فأردت أن تكون أنت قريباً مني، وأن نتواجد معاً في الأماكن العامة، كي أسقط هذه الحجة التي يريد زوجي السابق من خلالها أخذ ابني مني.
صمت آدم التائه للحظات . كانت هي تنظر إليه محاولة أن تستقرئ ما يدور في ذهنه ، لكنها لم تكن تستطيع أن تصل إلى شيء محدد ، لاسيما حين استمر صمته ، فجأة قال بهدوء:
- لقد كنتُ أتوقع ذلك.. لاسيما حينما شاهدت المصورين في المطار.. ومن المؤكد ستنشر الصحف غداً الصور مع عناوين بارزة.. أهذه هي المساعدة التي طلبتها مني..؟
نظرت إليه ، دون أن تحدد موقفه بعد ، وقالت بتوجس:
- نعم.. أردت أن أُسقط حجة أني سحاقية.. بل أردت أن يعرف الناس بأن لدي صديقاً جديداً..
نظر إليها بعدم ارتياح ، قائلا ً:
- لماذا لم تخبريني في حينها..؟
- لأني..لأني لم أكن واثقة تماماً من أنك ستأتي إذا ما عرفت السبب..
- والآن..هل علي الرجوع إلى ألمانيا بعد أن تم تصويرنا..؟
نظرت إليه بحزن ، وارتباك ، وحنان ، فجأة ألقت نفسها عليه ، محتضنة إياه بقوة ، وقالت بصوت مرتجف:
- أرجوك.. أعذرني..أنا آسفة لأني ربما جرحتك بكلامي هذا.. لكني أردتك حقاً أن تكون قريبا مني في لندن.. تذكر ذلك.. قبل حصول هذه المشكلة أصلاً.. تذكر ذلك..أليس كذلك..؟ أنا أحس بالأمان معك..أحس بفرح داخلي بوجودك..لذا أردت أن آتي بك إلى لندن بأي شكل..
أحس بصدق مشاعرها ، فضمها إليه ، قائلا ً:
- أيعني أن موضوع اتهام زوجك لك غير صحيح..؟
- طبعاً غير صحيح.. لذا وكلت محامياً بارزاً في القضية..لكني أيضا وجدت

نفسي في وضع سيىء، لذا أردتك أن تكون معي..
دفعها قليلا ًلينظر إلى وجهها ، سائلا ً:
- لكنك أردتني، حينذاك، أن آتي لأكتب قصة صديقتك، وأشاركك في كتابة نص مسرحي..
- هذا صحيح.. أريدك أن تتعرف على السيدة حواء صحراوي..
- لا أفهمك..أنت تريدينني أن أكون معك أم مع حواء صحراوي..؟
نظرت إليه بطريقة متسائلة ، وكأنها تنتظر رد فعله على ما ستجيب ، فقالت:
- أريدك أن تكون معي طبعاً.. لكني أريدك أن تكون معها أيضا.. كيف أشرح لك هذا الأمر..
- انا لا أفهمك..؟
- أنا أريد أن أكون معك. وسأكون معك.. لكني في الوقت نفسه، أحب أن تكون صديقتي حواء صحراوي، مع رجل مثلك.. هي إنسانة رقيقة جداً.. باهرة الجمال.. مثقفة جداً، مثقفة بشكل عميق..لكنها أيضا منغلقة..لا تستطيع أن تحطم قيودها الداخلية.. تفتقد لصداقة رجل حقيقي.. دفء رجل يقدرها، ويقدر عقلها.. أهلها يريدون تزويجها لأي كان وكأنها عار عليهم كونها مطلقة.. هي تعي ذلك.. وهذا يعذبها..أن تحتاج إلى رجل يقف معها وليس إمرأة مثلي..
نظر إليها مستغربا ً، وقال:
- إنك تحيرينني.. لم ألتق بامرأة تطلب مثل هذا الطلب من رجل تريد أن تكون معه..
- لقد إلتقيت بمثل هذه المرأة... إنها أنا..
صمت هو للحظات محاولا ًإستيعاب الموقف ، ثم قال:
- وإذا لم أعجبها.. مثلاً..؟
- ستعجبها..أنا متأكدة من ذلك.. لأنها تحب في الرجل عقله، وأصالة تفكيره.. وبالمناسبة هي تعرف الكثير من حواراتنا الثقافية والفكرية..وأنا قدمتك لها بطريقة شيقة.. ذكرت لها وجهة نظرك الشيقة في ستندال، وفي روايته الأحمر والأسود.. لكنها تختلف عنك، إذ أنها تحب شخصية ماتيلدة دي لا مول أكثر من مدام دي رينال..
- إذن هي رومانسية..
- فيها الكثير من الرومانسية.. لكنها، في الوقت نفسه، امراة واقعية جداً....
فجأة قفزت من بين حضنه ، وقالت:

- كان عليّ أن أتصل بها..

مضت إلى المدخل ، حيث كان هناك جهاز تليفون ، فحملته وجاءت به ، إلى حيث يجلسان ، وأخذت تطلب رقما ً، ثم أخذت تتكلم:

- هاي حواء.. مساء الخير..

فجاء صوت حواء صحراوي دافئا ً، احتفاليا ً:

- هاي إيفا..مساء الخير.. ها..اخبريني..هل وصل..؟

فنظرت إيفا إلى آدم التائه ، وهي تجيب :

- نعم لقد وصل.. وكنا نتحدث..ففاتني أن أتصل بك مباشرة.. لكن حينما بدأنا نتحدث عنك تذكرت..

- وماذا تحدثتما عني...؟ ماذا قلت عني..؟

- ها هو إلى جانبي.. يمكنك أن تسأليه كيف تحدثت عنك..

ثم أعطت سماعة الهاتف إلى آدم التائه ، الذي أخذ السماعة مرتبكا ً، قائلا ً بالعربية:

- ألو.. مساء الخير..

فجاء صوتها رقيقا ً، ذا رنة عذبة ، وحزينة:

- مساء النور.. أستاذ آدم.. حمداً لله على سلامة وصولك..

- شكراً جزيلاً..

- إن شاء الله كانت رحلتك سهلة بدون متاعب..

- لا ابداً... المسافة ليست طويلة..لذا لم أشعر بشيء..

- نورت لندن بوصولك..

- منورة بك.. وبأهلها

- شكراً جزيلاً.. (ثم بصوت رقيق..مرح)..لكني أردت أن أعرف ماذا روت إيفا عني..؟

كانت إيفا ليسنج تراقبه ملامحه وهو يتكلم معها ، برقة ، وعذوبة ، وقد استرخت ملامح وجهه ، فقال لها:

- لم ترو لي إلا الخير عنك.. إنها تحبك بشكل عجيب..لم أجد صديقة تحب صديقتها بهذا العمق والقوة..

- وأنا أحبها جداً جداً. بالمناسبة.. أنت مدعو عندي مساء الغد.. أو إذا شئت فترة الغداء.. ليستطيع المرء أن يأكل ما يشاء.. ماذا تقول..؟

- لا أعرف.. يمكنك أن تقرري ذلك مع إيفا..

- إذن أعطني إياها لو سمحت..

مد السماعة إلى إيفا ليسنج التي أسعدها هذا التواصل بينهما ، وأخذت

الهاتف ثم قامت بعيداً، إلى حيث المطبخ ، وجلست هناك عند الطاولة المرمرية ، وأخذت تتحدث معها ، عن دعوة الغد وأشياء أخرى .. بينما قام آدم التائه ليستعرض بعض الروايات الإنكليزية التي كان سابقاً يبحث عنها ، لكنه أحس بمشاعر رقيقة تجاه حواء صحراوي ، فصوتها الرقيق ، الدافئ ، الحزين ، وأدبها ، ولطفها ، تركا إنطباعاً جميلاً لديه.

بعد دقائق ، التفتتْ إيفا ليسنج نحوه ، وقالت:

- إنها تخصك بالسلام.. وقد تغير موعد الدعوة إلى الغداء.. ظهراً.. والآن عليَ الذهاب..أتركك تستريح.. سأعود إليك غداً صباحاً.. خذ حريتك.. المفاتيح عند المدخل على الطاولة، وأنا لديّ نسخة أخرى منها..
- ألا تبقين أكثر..؟
- هذه الليلة لا أستطيع.. عليّ أن أمر على أهلي
- وكيف ستذهبين..؟
- سأتصل بالتاكسي.. لا أستطيع أن أقود سيارتي فقد شربت ما يكفي من النبيذ.. هل ستقرأ أو تريد أن تنام..؟
- سأقرأ.. وجدت روايات لم أقرأها.. سمعت بها فقط..
- مثلاً..؟
- بعض روايات توماس هاردي.. وميريديث
- تيس.. لهاردي.. وماذا لميريديث..؟
- نعم.. تيس.. لتوماس هادري.. والأناني وديانا المنعطفات لجورج ميريديث..
- إنها روايات دافعت عن شخصية المرأة بحرارة..

أخذت الهاتف وطلبت سيارة تاكسي ، وأعطتهم العنوان ، فقيل لها ستكون بعد دقائق.

كان ثمة بريق سعادة يشع من عينيها ومن كيانها . أحس آدم التائه بسعادة لا يحسها منذ زمن بعيد .. وضعت القهوة في الفلتر الورقي ، وأخذت تنتظر أن تترشح القهوة عبره في الدورق . مضت إلى زاوية قرب طاولة المكتب ، فوضعت قرصا موسيقياً مدمجاً في الجهاز ، فتعالت موسيقى السيمفونية الأربعين لموتسارت . بينما كان آدم التائه يقلب رواية تيس لتوماس هاردي.

آدم البغــدادي : ما الذي يجري معي .. ؟ ثمة تحول في مسار السرد .. ما الذي أحاول تجسيده من خلال شخصية إيفا ليسنج الغريبة .. أتوجد مثل هذه الشخصية ، في الواقع ، حقاً، بحيث تقبل أن يكون الرجل الذي هي مغرمة به ، على علاقة مع صديقتها أيضاً.. ؟ إنها نمط خاص من

النساء .. ألم نعرف في مجتمعاتنا نساءً، هن بأنفسهن ، كن يقمن بتزويج أزواجهن لنساء أخريات ، بل وهن اللاتي يقمن بإختيارهن له .. ؟ لكن هذه امرأة أوربية .. ؟ ألا يمكن أن تكون هي فعلاً سحاقية ، أو أكتشفت مشاعر جنسية خاصة نحو صديقتها ، لكنها تحاول قمعها ، من خلال الإنغماس بهذه اللعبة الثلاثية ، كما لعبة الرجل الثلاثية ، حيث الزوج والزوجة والعشيق .. ؟ لكن ليست ثمة زوجة هنا ، ولا عشيق ، وإنما رجل وعشيقتان .. كيف ستجري الأمور معه .. ؟ إلى أين سينتهي كل هذا .. ؟ لحد الآن لا أعرف ذلك .. وحينما أقول لا أعرف ، فأنا أعني ما أقول .. لا أعرف إلى أين ستمضي هذه الرواية .. ؟ وكيف ستمضي الأحداث .. ؟ ربما هناك أشياء لم تكشفها لآدم التائه لحد الآن .. أية متاهة جديدة دخل التائه إليها هذه المرة .. ؟

* * *

أحست حواء الزاهد بمتعة وهي تقرأ هذا الفصل ، فلأول مرة لا تشعر بالخوف من الكوابيس والأشباح ، وإنما تعيش أجواء رومانسية ، ومعلومات جديدة عن شخصية إيفا ليسنج .. لقد أعجبها كيف تحدثت عن زوجها ، وكيف حللت شخصيته ، وسألت نفسها ، كيف جاءت الجرأة لإيفا ليسنج بحيث تتحدث عن علاقة أمها بهذا الرجل الشرقي .. ؟

إنها تؤيد الكاتب آدم البغدادي في تساؤلاته عن غرابة شخصية إيفا ليسنج ، لكن أحقا هو لا يعرف إلى أين ستمضي الأحداث .. ؟ أليس هو مؤلف الرواية .. ؟

لقد كانت متلهفة لمعرفة كيفية اللقاء الذي سيكون بين آدم التائه وحواء صحراوي .. لأن إيفا ليسنج أخبرته بأن الموعد تحول من العشاء إلى الغداء .. ألا يعني هذا أن حواء صحراوي صارت هي أيضا متلهفة على اللقاء بحيث قربت وقته.

نظرت حواء الزاهد إلى الساعة ، ففكرت بأن حواء الكرخي الآن في المحاضرة ، وأكيد ستتأخر ، لذا ستقرأ فصلاً آخر ..

المـأدبـة

أفاق آدم التائه على أصوات غسيل صحون ، وحركة خفيفة في الطابق الأسفل . كان يحس بصداع خفيف ، فكر لحظتها بأنه ربما بسبب النبيذ . نظر إلى الساعة فرأى أنها الحادية عشرة . لقد تأخر مساء الأمس في الطابق الأسفل وهو يستعرض الكتب المصفوفة على الرفوف إلى وقت متأخر جداً، لكنه حين صعد إلى غرفة النوم ، إنهمك ، مرة أخرى ، بإستعراض

الكتب المصفوفة على الرفوف ، وبقي حتى الساعة الرابعة فجرا ً، وهو يقلب الكتب ، ألبومات الفن التشكيلي ، والألبومات السينمائية.
أحس بشيء من الدوار . كما انتبه إلى أنه قد تعرق كثيرا ً، بالرغم من أن جو الغرفة ليس حارا ً. كان قد نام عاريا ً، إلا من سرواله ، لذلك حينما أفاق ، ونهض من السرير ، لبس بنطاله وقميصه ، وخرج إلى ممر الطابق الثاني ، ليرى من أين يأتي الضجيج ، فرأى إيفا ليسنج ، في أبهى صورة يراها فيها ، وهي تعد الشاي . فنادى عليها محييا ً

- صباح الخير..

رفعت رأسها الجميل إليه ، ونظرت إليه بعينين تتألقان فرحا ً وقالت:

- صباح النور.. لم أشأ أن أوقظك.. خمنت أنك سهرت إلى وقت متأخر..أليس كذلك..؟
- نعم..صحيح.. لقد بقيت مستيقظاً إلى الرابعة فجراً..
- واو..
- سآخذ حماماً سريعاً..وأنزل
- لقد وضعت لك برنساً ومناشف في الحمام.. خاصة بك..يمكنك استخدامها دائما..
- شكرا لك.. سأنتهي بسرعة..
- طيب.. أنا بإنتظارك..

لم يكن مع آدم التائه الكثير من الملابس ، سوى بنطلونين وبدلة واحدة ، وثلاثة قمصان . وعدد من الفانيلات البيض ، السراويل الداخلية ، والجوارب ، وقنينة عطر ، وقنينة أخرى لمطّهر ما بعد الحلاقة . أخذ عدة الحلاقة ، مع ما يلزمه من قطع ملابس داخلية ، ودخل الحمام.

حين خرجت إيفا ليسنج ، ليلة البارحة ، لم تذهب إلى بيتها مباشرة ، وإنما طلبت من سائق التاكسي أن يتجه بها إلى كريست جيرج ستريت في منطقة تشلسي ، حيث تسكن صديقتها حواء صحراوي ، وبقيت عندها حتى منتصف الليل . تحدثتا كثيرا عن شؤونهما ، وعن آدم التائه الذي كان موضوع الحديث الأهم ، وكانت إيفا ليسنج تحاول أن توحي لحواء صحراوي بأن آدم التائه معجب بها ، ومتعاطف معها ، لأنها حدثته عنها كثيرا ً، وأنه بعد سماع صوتها إزداد إعجابا ً بها .

كان لهذا الكلام وقع مريح على نفس حواء صحراوي ، بالرغم من أنها لم تره بعد ، وهي لا تثق بالرجال ، ولا بكلام المديح ، لكن حينما يأتي من صديقتها الحميمة إيفا ليسنج ، فأن فيه مصداقية ، بل يكاد يكون حقيقة

لا تقبل الجدل.
ما الذي يجري في عقل وروح ، ولا وعي إيفا ليسنج يبقى لغزاً لا يعرفه أحد ، وربما هي نفسها لا تدرك دوافعه الغامضة .. لكنها كانت سعيدة جداً بأن تشكل ثلاثياً مع آدم التائه وحواء صحراوي.
بقيت عند صديقتها إلى ما بعد منتصف الليل بقليل . ألحت حواء صحراوي على أن تقوم بتوصيلها بنفسها إلى البيت ، لاسيما وأن منطقتيهما متجاورتان ، إلا أن إيفا ليسنج رفضت ذلك ، وطلبت تاكسياً عبر الهاتف ، أوصلها إلى بيتها ، فذهبت إلى السرير مباشرة ، ونامت نوماً عميقاً ، هادئاً ، مريحاً ، لأول مرة منذ فترة طويلة جداً .
إستيقظت صباحاً على رنين الهاتف . كانت الساعة التاسعة صباحاً . وجاء صوت أختها تسأل عنها ، وتخبرها بالعناوين الصارخة في جريدة (ذى سن) و (الديلي ميرر)، حيث نشرت الصحيفة الأولى صورتها وهي تحتضن بذراعها ذراع صديقها الشرقي الجديد ، مع عنوان صارخ : النجمة ليسنج لا تزال تحن إلى الشرقيين .. وفي عنوان فرعي آخر : رداً على إشاعات صديقها وزوجها السابقين .. إيفا ليسنج تؤكد بأن الإشاعات ضدها مصدرها الغيرة لا أكثر .. أما الصحيفة الثانية فقد رصدتها في لحظة إستقبالها لآدم التائه ، وإحتضانها له ، فكتبت عنوانا في صفحتها الفنية : إيفا ليسنج ترد على إتهاماتها بالشذوذ .. وتستقبل صديقها الجديد . وأخذت أختها تستفسر منها عن سر كل هذه الأخبار ، وتريد أن تعرف منها التفاصيل ، فأكدت لها إيفا بأن الصحف تكتب ما تشاء .. لكن كل هذا يصب في مصلحتها من أجل رد دعوى زوجها . فأحبطت أختها ، إذ قالت لها ، بأنها ظنت أنها فعلاً قد بدأت علاقة جديدة ، مع رجل شرقي وسيم .. وذكرتها مازحة ، بأنهن ورثن ذلك عن أمهن .. ضحكتا ، ولم تعرف أختها منها الكثير . وما أن أخذت حماماً صباحياً دافئاً ، وخرجت ، حتى رن الهاتف مرة أخرى ، وكانت حواء صحراوي ، التي أكدت على موعد الغداء ، واتفقتا على أن يكون ما بين الثانية عشرة والواحدة بعد الظهر.
حين نزل آدم التائه السلم ، كان عطره قد سبقه منتشراً في الهواء . انتبهت إيفا ليسنج لأناقته . فقد كان لباسه بسيطاً لكنه يعبر عن ذوق جميل . ابتسمت له وهو ينزل ، وسألته إن كان قد ارتاح في سريره الجديد ، فأكد لها ذلك ، وجلسا على طرفي المائدة المرمرية.
كانت هي سعيدة جداً. ثمة بريق إنتصار خفي يشع من نظراتها . صبت له الشاي ، وقدمت صحنا فيه خبز محمّص مع صحن فيه زبد وعلبة

عسل ، وأخبرته بأنها لم تعد فطورا ً دسما ً لأنهما سيتناولا الغداء في الساعة الواحدة ، بالرغم من أن صديقتها أكدت أن يكون ما بين الثانية عشرة والواحدة ، لكنهما سيخرجان في الساعة الثانية عشرة ، ليكونا هناك في وقت مناسب ، ثم أخبرته بأن أختها ربما أيضا ستمر بعد الظهر إلى هنا ، لتأخذ بعد الأضابير الضرورية لتيسير العمل ، ولم تذكر له شيئا عن الصحف الشعبية التي نشرت أخبارهما وصورهما ، ولم تخبره بأنها ذهبت إلى صديقتها ليلة أمس بعد خروجها من عنده.

حين انتهيا من الفطور ، كان أمامهما نصف ساعة تقريبا ً. سألها بشكل مفاجئ ، وهما لا يزالان جالسين حول الطاولة المرمرية:

- هل قرأت الصحف اليوم..؟
- لا.. لماذا..؟
- ظننت أن بعضها كتب عنك..؟
- ربما..سأرى ذلك في ما بعد.. فحينما خرجت لم أنظر في صندوق البريد..
- آها..

أحست بوخز ضمير لأنها كذبت . ماذا لو كانت قد قالت له الحقيقة بأن أختها أخبرتها بذلك ، وأنها رأت ذلك حينما حمل إليها السائق آدمز مجموعة من الصحف والمجلات الصادرة هذا اليوم .. ؟ أحست بأن هذه الكذبة غير المقصودة عكرت عليها مزاجها ، وأخمدت جذوة الشعور بالفرح والإنتصار التي كانت تعيشها طوال الصباح .. فقالت له:

- سأطلب من أختي أن تحمل الصحف معها حينما تأتي لأخذ الأضابير..
- جيد..

قامت من مكانها وتوجهت إلى حيث الهاتف . طلبت رقما ً ثم سمع صوتها تحدث أختها:

- هاي.. هذه أنا.. إسمعي..هل بالإمكان أن تحملي معك صحف اليوم إلى هنا..؟ ضعيها على الطاولة في الصالة. ألا تقومين بذلك..؟ طيب.. شكراً.. وداعاً.

حين عادت إليه ، رأته قد نهض من مكانه أيضا ، وأخذ يستعرض بنظراته المجموعة الكاملة للكاتب د . هـ . لورنس . وانتبه إلى وجود مجموعة كتب خاصة عن حياته ، ونسخ بطبعات مختلفة لروايته عشيق الليدي شاترلي . التفت إليها قائلا ً:

- كنت أظنك مولعة بشكسبير، ودستويفسكي وستندال..لكني أراك مولعة بالكاتب د.هـ لورنس..

ابتسمت برقة وقالت :

- ألم أقل لك إنني أشبه الليدي شاترلي.. وإنني أحبها جداً..؟
- لكن لم كل هذه الطبعات المختلفة من الرواية..؟
- أقتني كل نسخة جديدة من الرواية إذا ما وجدت دراسة جديدة تصاحبها.. هناك تفسيرات مختلفة لهذا العمل.. لكن ما يعجبني فيها هو أني أحس نفسي فيها..بل وحياتي العائلية تتطابق، برغم اختلاف البيئة والزمان، مع ما جاء في الرواية.. طبعا أحب دستويفسكي لذلك القلق الروحي العظيم التي يشع من شخصياته، وكذلك أحب ستندال، ونساءه بالتحديد..وشكسبير طبعاً..لكن لورنس تغلغل في أعماق المرأة، في هذه الرواية وفي رواية نساء عاشقات..

قاطع حديثها رنين الهاتف . فتوقفت عن مواصلة حديثها ، ورجعت إلى حيث التليفون كي تجيب ، فجاء صوت حواء صحراوي ، تسألها عن سبب تأخرهما ، إذ ظنتهما قد خرجا ، وهي تتصل لتتأكد من خروجهم ، فإذا هما لا يزالان في البيت ، فاعتذرت لها إيفا ليسنج بأنهما كانا يتناقشان عن الليدي شاترلي .. كما أنهما قد تناولا الفطور قبل قليل ، فقالت صديقتها بأن عليهما المجيء ومواصلة النقاش هنا ، ويمكن تأخير الغداء قليلا ً.

التفتت ْإيفا ليسنج إليه قائلة:

- علينا الذهاب الآن.. ويمكننا أن نواصل الحديث هناك.. وهذه فرصة لتتأكد كم هي مثقفة صديقتي حواء صحراوي، ورائعة، واستثنائية..

لم يجد ما يقوله ، بل صار على شوق لرؤية هذه المرأة التي تنظر إليها هذه النجمة العالمية نظرة أشبه بالتقديس . ردد موافقا ً:

- لنذهب..لكن كيف سنذهب..؟
- سائقي، السيد آدمز، ينتظر في الخارج..
- لنذهب إذاً..

لم يكن آدم التائه قد انتبه إلى جمال الطبيعة حينما جاء من المطار إلى البيت مباشرة ، إذا كان الظلام قد حل ، وكانت ملامح الطبيعة قد اختفت في العتمة ، لكنه الآن ، وفي ضوء النهار الباهر يرى كل هذا البهاء ، وكل هذا التنسيق في البيوت ، بالرغم من أن شعورا ً بالقدم والهرم يجلل الأشياء حوله.

كانت هي منتبهة لتأمله الأشياء فتركته يستمتع بالنظر ، ثم سألته فجأة:

- هل أعجبتك لندن..؟

ابتسم لها قائلا ً:
- أنا لم أرَ شيئاً لحد الآن.. فكيف لي أن أحكم..؟ لكني أحببتها حينما نظرت إليها من السماء.. أقصد حينما كنتُ في الطائرة وهي تهبط إلى المطار.. بدت لي مدينة رائعة.. لكني لم أتجول بعد في أنحائها كي أحكم..حكم السماء يختلف عن حكم الأرض..
ابتسمت قائلة:
- حكم السماء مختلف جداً دائماً عن حكم الأرض..
حين مرت السيارة من جانب أحدى الباركات ، قالت له:
- هذه هي منطقة السيدة حواء صحراوي..
انتبه آدم التائه للمنطقة التي بدت راقية جدا ً، ومنظمة ، وخالية تقريبا ً من أية زحمة ، فقال:
- يبدو أنها منطقة للأثرياء..؟
- نعم..هنا يسكن الأثرياء العرب، والأجانب عموماً، والإنكليز..هنا هي تعيش وحدها..وخلفها، على بعد شارعين يسكن أهلها أيضا..إنهم لا يريدون أن تخرج عن مدى رقابتهم..
- أي مثل هدهد في قفص..
- هدهد..تشبيه جميل.. الطائر الحكيم محبوساً في قفص..
- ومنغلقاً على أسراره..
- بالضبط.. وعلى سليمان الحكيم أن يستنطقه..يحرره ويستنطقه..
- ومن أين نأتي بسليمان الحكيم..؟
- أوكي.. لا نحتاج لسليمان الحكيم وإنما لآدم..
- وهل يستطيع آدم أن يستنطق نفسه وأسراره كي يستطيع أن يستنطق الآخرين..؟
- لماذا أنت متردد لهذا الحد..؟
- لا أدري..
كان السائق قد دخل شارعها ، ووقف أمام بيت لم يبد ُ مبهرا ً من الخارج . أمام البيت حديقة صغيرة ، مشذبة بشكل جيد ، يفصلها عن الشارع سياج واطئ ، يتوسطه مدخل يقود إلى باب البيت الداخلي.
حين نزل آدم التائه من السيارة أحس برجفة تسري في جسده ، وكأنه مهيء لتجربة غريبة ، ثمة إحساس يراوده بأنه سيواجه أسرارا ً جديدة . نظر إلى البيت ونوافذه المطلة على الحديقة ، لمح حركة ستارة ما عند إحدى النوافذ المطلة على الحديقة . أحس بأنها ربما كانت تنتظر قرب

النافذة.
ضغطت إيفا ليسنج على جرس الباب . وبعد لحظة فتحت الخادمة الباب ، وخلفها كانت ثمة امرأة مذهلة الجمال . امرأة لها أجمل ابتسامة رآها على وجه امرأة في حياته . امرأة محجبة بشكل مثير ، حيث جبينها الوضاء وشيئا من شعرها الأسود الكثيف . أنيقة ، وكأنها في حفل أرستقراطي ، ترتدي ثوبا ً عربيا جميلا ً. ليست بالطويلة ، لكنها تعد من النساء الطويلات في المقاسات الجمالية العامة . امرأة بنهدين عامرين ، يزينان صدرها الأخاذ عقود من أحجار كريمة . جسد يميل إلى البدانة قليلا ً. عينان سوداوان ، واسعتان . بشرة بيضاء ، على غير ما توقع من أن تكون امرأة خليجية . حين تحركت انتبه لساقيها الرصينتين ، الممتلئتين . خلال ثوان كان آدم التائه قد استوعب هذا الكيان الذي أمامه ، ومن اللحظة الأولى أحس بأنه عشق هذه المرأة التني أقبلت على صديقتها فحضنتها وقبلتها على الطريقة العربية حينما تتقابل النساء ، ثم التفتت إليه ومدت يدها الطرية مصافحة ، ومبتسمة ابتسامة صداقة جعلته سعيدا ً جدا ً، وهي تقول:

- أهلا وسهلاً أستاذ آدم..نورت الدار..

فقال بما يشبه الهمس:

- الدار منورة بأهلها..

وقادتهما إلى الصالة.

انتبه آدم التائه إلى أن الدار من الداخل لا تشبه خارجها أبدا ً، فقد واجهته باحة واسعة مفروشة بسجاد ثمين ، ومزينة بتحفيات مختلفة ، عربية ، وغيرعربية . ثمة لوحة استشراقية تجسد سوقا ً للنخاسة تعرض فيه الجواري العاريات . يتفرع من الباحة يسارا ً مطبخ ، وثمة باب عريضة في الوسط ، يقود إلى صالة الجلوس الرحبة والمؤثثة بشكل كلاسيكي ، حيث السجاد الثمين ، والطاولات والخزانات وطقم الكنبات المصنوعة وفق مواصفات فن الأرابيسك ، وعلى أحد الجدران سجادة حائطية هندية النقوش . الباحة تقود من جهة اليمين إلى قاعة الطعام ، التي من الداخل مفتوحة على صالون الضيوف أيضا ً.

حينما جلسوا ، انتبه آدم التائه إلى أن الصالة مفتوحة على شرفة شتوية ، مليئة بإصص الزهور ، ومسقفة بزجاج شفيف ، أزرق ، والشرفة يتوسطها باب يقود إلى حديقة ، مفتوحة ، واسعة ، أنيقة ، ومشذبة ، تحيطها أشجار باسقة ، وتتوسطها بركة ماء م ُد جسر خشبي على جانبيها.

كانت الصديقتان قد جلستا إلى جانب بعضهما على الكنبة الأربيسك الكبيرة ، بينما جلس هو على المقعد الجانبي ، وخلفه للباحة ، وبمواجهة الحديقة . كان مرتبكا ً، يجلس بجسده معهم ، لكنه كان يستعرض حياته في ثوان ، ويسأل نفسه : هل كان هو وأهله في العراق يعيشون حقا ً.. ؟ أيمكن أن تسمى تلك الحياة هناك حياة .. ؟ وأحس بشفقة مفاجئة تعصر قلبه على بلده الذي لا يعرف غير الآلام.

بعد لحظات التفتت إليه السيدة حواء صحراوي وعلى وجهها ابتسامة أشرقت روحه فرحا ًعن رؤيتها ، وقالت له مرحبة باللغة العربية:

- أهلا وسهلاً أستاذ آدم..أرجو أن تشعر وكأنك في بيتك..
- هذا من فيض لطفك..

التفتت إلى صديقتها التي كانت سعيدة بشكل طفولي ، وقالت لها برقة:

- إيفا.. اسمحي لنا أن نتحدث قليلاً بالعربية.. إذ أجد من غير الطبيعي أن أتحدث عن الأدب العربي مع كاتب يكتب بالعربية، بينما أحاوره بالإنكليزية..طبعاً يمكنني أن أترجم لك إذا شئت..

فقالت إيفا ليسنج وعلى وجهها ابتسامة دافئة ، وبمزاح:

- طبعاً أود أن أستمع لآرائكما.. يهمني ذلك.. لكن اليوم يُسمح لكما بذلك..

ضحكوا ، وشكرتها حواء صحراوي بمزاح على كرمها الإنكليزي . ثم التفتت إلى آدم التائه وسألته عن كتبه ، فأخبرها بأنه لم ينشر سوى رواية واحدة ، وأنه كتب واحدة أخرى ، لكنه لم ينشرها بعد ، وسألته أن كانتا معه ، فأجابها بنعم ، فطلبت منه أن يعيرهما لها ، فوافق ، ثم سألته عن مشروعه القادم ، فقال لها بأنه لم يقرر بعد ، لكن ثمة مخاضات داخله ، تلمح له بأنه سيبدأ بالكتابة قريبا ً، فسألته عن طبيعة روايته المقبلة ، فقال لها بأنه لا يعرف ذلك بعد ، ولم يحدده ، لكن ثمة أسئلة تتشكل وتتداخل في أعماقه ، عن المسافة بين الواقع ، واللا واقع ، فاستغربت التعبير ، وسألته إن كان يقصد الوهم والواقع ، فقال لا .. لا أقصد الوهم .. وإنما أقصد الرؤى التي نصادفها في حياتنا ، وكأنها أشياء محسوسة ومرئية ، لكن يتضح لاحقا ً أنها غير واقعية ، وغير مرئية ، لكنها ، على الرغم من ذلك ، كانت واقعية جدا ً، إذن أين هي المسافة بينها وبين الواقع الملموس والمرئي .. ؟

كان يتحدث ، لكنه بدا وكأنه يتحدث مع نفسه . أحس بأن حبات عرق تجمعت على صدغه ، فمد يده ليمسحها . كان جسده قد تعرق بالكامل ،

وكان باطن كفه اليمنى تؤلمه جدا ً، وثمة وخز في ظهره ، من الجهة اليسرى ، ناحية القلب .. أحس بأن الجو حار . أراد أن يخرج فجأة للحديقة ، لكنه لم يفعل . كان واضحا ً أنه يعاني من ذلك.
أحست حواء صحراوي أنه أوضح لها ما تعانيه هي ، دون أن ينتبه ، أو دون أن تستطيع هي أن تصوغ معاناتها بهذه الطريقة الواضحة . راودها إحساس بأن هذا الكائن قريب منها جدا ً. ولأول مرة استغربت برغبتها لو كانت تتحدث معه وحدها دون وجود صديقتها إيفا ليسنج..!
انتبهت إيفا ليسنج لها ، وإلى حالة الحزن الخفي الذي مرق على خاطرها للحظات ، أحست أن آدم التائه يقول شيئا ً مهما ً، فراودتها رغبة خفية في أن تعرف عن ماذا كانا يتحدثان ، فقالت:
- يبدو أنكما تتحدثان عن أشياء مهمة، وقد راودني الفضول في أن أعرف ذلك..
التفتت حواء صحراوي إليها ، مبتسمة ، وقالت:
- أنت على حق.. السيد آدم قال أشياء مهمة عن مشروعه الروائي القادم..لكن بما أنك تريدين أن تشاركينا الحديث، فلنتحدث بالإنكليزية..
التفتت إلى آدم التائه ، وسألت برقة:
- هل ممكن أن نتحدث بالإنكليزية..؟ وأرجوك أن تواصل عرض أفكارك..
فجأة رفعت رأسها نحو الباحة ، لمحت الخادمة تحمل صينية مذهبة وفيها دلة القهوة العربية وفناجينها . أشارت لها بأن تدخل . أقبلت الخادمة ووضعت الصينية على الطاولة التي تتوسط طقم كنبات الأربيسك ، وانصرفت . بادرت السيدة حواء صحراوي بإعتبارها المضيفة إلى صب القهوة في الفناجين ، فانتشرت في فضاء الصالة رائحة الهيل الطيبة ، وأخذوا يرتشفون منها . علق آدم التائه بـأنه لم يشرب القهوة العربية الخليجية ، الخفيفة ، فقد تعود على شرب القهوة العربية الكثيفة ، أو القهوة التركية . بعد أن ارتشف فنجانين من القهوة ، ابتسمت السيدة حواء صحراوي له ، وقالت:
- نحن بالإنتظار سيد آدم.. نحن نستمع..
أحس آدم التائه بالحرج في أن يكون مركز اهتمام سيدتين بهذا الجمال المبهر ، لكنه حينما نظر إلى أعماقه ، نسي ارتباكه ، فأخذ يوضح قائلا ً:
- أحيانا أسأل نفسي..من نحن..؟ هل نحن تلك الكائنات الإجتماعية، التي تأكل وتشرب، وتتواصل مع الآخرين، أو نحن، تلك الكائنات التي تتآلف مع الأشباح التي في أعماقها، ومع الأفكار، التي تياراتها لا تكف أن تجري

في أذهاننا في كل ثانية، أو نحن كل تلك المشاعر الغامضة، والرؤى، والرغبات الدفينة التي نعيشها في دواخلنا دون أن نفصح عنها..؟ أي منا هو جوهرنا الحقيقي..؟ أهو ما تراه أعيننا مرئيا، أم ما تراه عيننا الداخلية..؟ أنا أعتقد أن الإنسان هو مجموعة من الأشباح، والأصوات الصارخة بصمت في الأعماق، ومن الرؤى الغامضة، والجامحة، الشبقية بشكل لا تستطيع أخلاقنا الإجتماعية أن تتقبله أو تدفعنا للكشف عنه.. وربما يمكن هنا دور الإبداع في كشف تلك المناطق المظلمة، في أعماق غابة النفس، حيث تلتف الأفاعي، وتكمن النمور والفهود، وربما الخنازير، منتظرة الفريسة..لكن ما هي تلك الفريسة..؟ أعتقد أنها لحظات الجموح، والتجاوز، والتحرر من ظلام الغابة، التي نعيشها في لحظات تجلي الوعي.. عندها تمسك بنا كل تلك الوحوش لتعيدنا إلى الغابة، إلتي تحكمها قوانين الأخلاق الإجتماعية، والدين.. الدين بحرامه وحلاله.. بجحيمة وجنته، بتجارته العلنية في الثواب والعقاب.. لكن هناك من يتمكن من الإفلات.. ينقذ روحه، برغم اللعنات التي تتعالى ضده من أعماق الغابة.. وربما يعيش هذا الكائن منبوذا.. منعزلاً..خائفاً.. فالبشر الذين يحيطون به جلهم من سكان الغابة..ولا يريدون أن يغادروها... لقد بدأ سوفكليس بالتمرد على الغابة.. حينما كتب عن أوديب.. وانتيغونا.. لقد كان الأقرب إلى كشف خفايا النفس البشرية المظلمة.. وشق طريقه في الغابة..

كانت إيفا ليسنج وحواء صحراوي تتبادلان النظرات ، فجأة التفتت إليه إيفا ليسنج قائلة:

- ألا تعتقد بأن د. ه. لورنس، واحد من هؤلاء الذين تمردوا على الغابة..؟

- نعم... في روايته المذهلة عشيق الليدي شاترلي.. وروايته الجريئة الأخرى نساء عاشقات..

ابتسمت إيفا ليسنج ، وكأنها تذكره بما قالت عن نفسها وعن الليدي شاترلي .. نظر إليها وكأنه يكتشف حقيقة ما قالته عن نفسها فعلا ً.

كانت حواء صحراوي تنظر إليه بحزن ، قالت وكأنها تحاول أن تعيد ترتيب أفكارها:

- ألا تجد بين الكتاب العرب من استطاع أن يكتب شيئا مهما معتبراً مثل الكتاب الأجانب..؟

نظر آدم التائه إليها ، كأنه صحا من حلم يقظة:

- بلى.. لكنهم قلة قليلة.. ربما لم ينتبه إليهم أحد.. بحكم هيمنة

الآيديولوجيا على التفكير والنقد والبحث الأدبي.. لذا فقد صار الإهتمام بكتّاب معينين..أما هؤلاء الذين اخترقوا التابو الإجتماعي..اخترقوا المحرمات، وهنا أقصد الجنس والدين، وتوغلوا في الغابة، فقد تجنبهم النقد والبحث الأدبي، من خلال الصمت عنهم..

- مثلاً..؟

- هناك أسماء عديدة.. لكن، هنا سأذكر روايات..لأن بعض الكتاب ربما ينجح، بهذا الصدد، في رواية واحدة له من بين جميع أعماله، وفي هذه اللحظة أستذكر على سبيل المثال.. رواية خضراء كالدُمن لهاني الراهب.. بيت من لحم ليوسف أدريس.. وليمة لأعشاب البحر لحيدر حيدر.. روايتي اللاز، للطاهر وطار..المسرات والأوجاع لفؤاد التكرلي.. ثلاثية الكاتب الجزائري محمد ديب، وإن كُتبت بالفرنسية..

- ونجيب محفوظ..؟

- نجيب محفوظ كاتب كبير..كبير جداً، لكنه كاتب أخلاقي جداً أيضا.. أحس كأنه يفكر بأن رواياته ستقرأها ابنتاه في ما بعد، لذلك لا يكشف الثياب عن الجسد..إنه يوحي لما تحت الثياب.. وربما شطح عن هذا في روايته السراب

- لديك آراءغريبة.. لو يسمعها البعض لأعترض عليك بشدة..

- أعرف.. لكنها آرائي.. أنا حر في تفكيري..لا تعنيني تقويمات النقاد وتصنيفاتهم الآيديولوجية..

أحست إيفا ليسنج بأنها لا تعرف شيئا عن تلك الأسماء التي ذكرها ، فتوجهت إلى صديقتها ، وسألت:

- هل هذه الروايات مترجمة للإنكليزية يا حواء..؟

- بعضها.. نجيب موجود بالإنكليزية..ولا أعرف أن كانت بقية الروايات مترجمة..ربما الطاهر وطار..أما البقية فأنا لم أقرأ لهم.. لكني سمعت عن أسماء الكّتاب...

- سأحاول أن أسأل عنها في المكتبات.. أكتبي لي أسماءها في ما بعد..

- جيد..

كانت روائح الأطعمة الشرقية قد انتشرت في المنزل . أحس آدم التائه بها ، وشعر بحنين إلى زمن بعيد .. حاول أن لا يتوغل فيه ، خاصة في هذه اللحظات التي هو فيها . أطل ّت الخادمة ثانية ، ووقفت عند مدخل صالة الضيوف ، ووجهت كلامها للسيدة حواء صحراوي:

- كل شيء جاهز سيدتي..

- أوكي..شكرا..

توجهت حواء صحراوي إليهما ، داعية إياهما إلى المائدة ، فاتجها إليها من الجانب المفتوح في الصالة . حينما قادتهما ، كان هو يتأمل جسدها من الخلف ، ولم تفارق عيناه مؤخرتها الجميلة المتناسقة ، إلا حين استدارت للجلوس على المائدة.

كانت طاولة الطعام كبيرة وطويلة ، يلتف حولها إثنا عشر كرسيا ً، جلست هي على رأس المائدة ، بينما توزع آدم التائه وإيفا ليسنج على جانبيها . كانت الخادمة ، واقفة لتقديم خدماتها ، إلا أنها صرفتها ، وقامت هي بدور المضيف ، فأبدت إهتماما ً خاصا ً بآدم التائه ، إذ ملأت له صحنه بالطعام ، لكنها حينما مدت يدها لتصب له ، انتبه لما فوق كفها المشدود بقطعة شاش وعليها لاصق ، فعرف أنه من أثر عملية الانتحار ، لكن سرعان ما سحبت يدها . كانت إيفا ليسنج مسرورة بهذا الجو الحميم المهيمن على علاقة صديقتها بآدم التائه.

آدم التائه كان مرتبكا ً من هذه الحفاوة . لم يعرف كيف يتصرف . أحس وكأنه يحلم ، وعاوده إحساس بأن ثمة شيئا ً غير طبيعي يجري ، وفكر ، للحظات ، مع نفسه ، إن كان كل ما يجري ليس إلا رغبات دفينة في أعماقه ، وأنه ، ربما الآن ، نائم في سريره بالفندق في ميونخ .. ؟ ثم ابتسم في أعماقه ، معلقا ً على نفسه ، إذا ً عليك يا آدم أن تستمتع بالوقت وبالأشياء هنا ، ما دام كل ما يجري ربما ليس إلا وهما ً..!

كانت حواء صحراوي تتحدث مع إيفا ليسنج عن أشياء ، لكنه لم يكن يسمع شيئا ، وإنما كان يرى أنهما تتحدثان مع بعضهما ، وتنظران إليه نظرات عابرة بين لحظة وأخرى ، وكأنما أدركتا ارتباكه ، فتركتاه كي يأكل.

كان يأكل صامتا ً، خافضا ً رأسه في صحنه . انتبه إلى صوت السيدة حواء صحراوي وهي تسأله إن كان الطعام قد أعجبه ، فشكرها بارتباك قائلا ً أن هذا كرم فائض من جنابها ، فالمائدة وكأنها لعشرين شخصا وليس لثلاثة ، فقالت له بأن مقامه كبير لديها.

انتبه أن المرأتين لم تأكلا شيئا تقريبا ً، فقد صبتا لنفسيهما ، لكنهما حينما قامتا كان صحنهما ما زال مليئا ً. أحس بالحرج حينما كان واضحا ً بأنه أكل أكثر منهما.

كان طقس الطعام قد بين له شيئا من شخصية حواء صحراوي ، فقد انتبه إلى أنها ليست تلك المرأة ضعيفة الشخصية ، التي لا تستطيع المواجهة ، والتي تلجأ إلى الانتحار هربا من عدم القدرة على مواجهة الواقع ، وليست

تلك المرأة اليائسة من الحياة ، على العكس ، فقد وجدها امرأة مقبلة على الحياة بقلب مفتوح ، وأنها شخصية واعية لذاتها ، ومثقفة بشكل استثنائي قياسا ً إلى الكثير من النساء ، ليس العربيات فحسب وإنما حتى بالنسبة للأوربيات ، لكنه أدرك أيضا ً، بأن ثمة أسرارا ً كثيرة تختبئ خلف هذه النظرات الناعمة والواعية ، وخلف هذه الابتسامات الساحرة ، التي ما أن تغادر وجهها ، حتى تطل الوحشة من عينيها ، بالرغم من أن لحظات الوحشة تلك لا تدوم سوى لحظات . إذا ً هو أمام امرأة مليئة بالأسرار ، وعليه أن يتعرف عليها أكثر ، ويتحدث معها بدون وجود إيفا ليسنج ، لكن كيف .. ؟

انتهوا من تناول الطعام ، وجلسوا ثانية في الصالة . جاءت الخادمة بعربة عليها دلة القهوة وأبريق للشاي ، وفناجين وأكواب ، وصينية مليئة بأنواع الحلويات العربية والتركية ، وعصائر فواكه مختلفة ، وغادرت المكان . وبالرغم من أن إيفا ليسنج تنتبه جدا ً لقوامها بإعتبارها ممثلة سينمائية ، لكن قالت بأنها تخرج عن القاعدة حينما تأتي عند السيدة حواء صحراوي ، أما حواء نفسها فقد أخذت صحنا ، ونوعت فيه بعض الحلويات المختلفة . انتبه آدم التائه لها ، فابتسمت ، وقالت معلقة ، بأنها ليست ممثلة سينمائية حتى تنتبه ، فقال لها آدم التائه ، بالعربية ، بأنها أجمل من كل الممثلات السينمائيات ، فارتبكت . لاحظت إيفا ليسنج ذلك ، فسألتها عن الذي قاله لها آدم التائه بالعربية ، فأجابتها بأنه يقول لها بأنها بدينة نوعا ما بسبب الحلويات ، فنظرت إيفا ليسنج إلى آدم مستغربة وكأنها تخاطب طفلا ً صغيرا ً، وقالت له ، مؤنبة ، كيف يسمح له أن يخاطب امرأة رائعة مثل حواء هكذا .. ؟ .

ارتبك آدم التائه ، وفي أعماقه تفجر ينبوع فرح عنيف ، لأن حواء صحراوي كذبت على صديقتها ، ولم تقل لها ما قاله لها بالضبط ، وهذا يعني أنها لا تريد أن تعرف صديقتها كل ما يدور بينهما ، أولا ً، كما يعني هذا بأنها على إستعداد للتواطؤ معه سرا ً، ثانيا ً، ويعني أيضا أنها تقبلت مديحه لها . كان وكأن ثمة اتفاقا ً ضمنيا ً جرى بينهما ، وبأن ثمة شيئا ً خاصا ً صار ملكا ً لهما ، وأنها على إستعداد لسماع كلام آخر ، لأنها صارت تتجنب أن تلتقي نظراتهما مباشرة ، وإذا ما حدث ذلك فأنه لا يتعدى ثواني َ معدودة.

استمرت جلستهم لساعات ، تكرر فيها شرب القهوة ، والشاي ، والفواكه على أنواعها ، بعدها ذهبوا إلى المكتبة ، في الطابق الأعلى ، التي هي صالة

كبيرة ، جدرانها مغطاة بورق فضي ، فيه نقوش زهرية يتفاوت درجة بياضها ولمعانها ، ليس فيها الكثير من الأثاث ، سوى خزانات الكتب المزججة ، يتوسطها طقم زهري اللون ، من الصوفا الجلدية الفاخرة ، على أرضية تغطيها سجادة كبيرة جدا ً ذات ألوان صينية باهتة جدا ً، مليئة بنقوش لمنظر طبيعي تطغي عليه ألوان الزهري الفاتح ، والأرجواني القاتم ، والأصفر الحليبي . بالقرب من أحد الجدران الذي يتوسط جانبي الصالة ثمة طاولة كبيرة من خشب الزان مطلية باللون الأبيض ، عليها كتب وقواميس وأوراق ، وفي الجهة المقابلة تطل مدفأة جميلة ، تتوسط حائطا ً عاريا بعيدا ً عن خزانات الكتب . كانت الخادمة قد هيأت كل شيء ، الحلوى ، الفواكه ، دلة القهوة ، وأبريق الشاي.

لا إراديا توجه آدم التائه إلى خزانات الكتب ، وأخذ يستعرض الكتب من خلف زجاج الخزانات ، فقالت له بأن يفتح أية خزانة يشاء . انتبه هو إلى أن الكتب العربية تحتل خمس خزانات من ثمان ٍ، أما الخزانات الثلاث الباقية فكانت مخصصة للكتب الإنكليزية . كانت كتب الشعر والرواية وعلم النفس والتاريخ هي المهيمنة على طبيعة الكتب العربية ، أما الكتب الإنكليزية ، فكانت خزانة منها مخصصة للشكسبيريات والدراما الإنكليزية والعالمية ، أما الخزانتان الباقيتان فكانتا تضمان روايات لبعض الكتاب الذين يعرفهم أمثال : د . هـ . لورنس ، هنري ميللر ، ستندال ، روايتي الأبله ومذلون مهانون لدوستويفسكي ، المجموعة الكاملة لإنطوان تشيخوف ، الكسندر كوبرين ، مائة عام من العزلة لماركيز ، دون كيخوتة لثرفانتس ، ومجموعة من روايات كولن ويلسون ، وكانت هناك روايات أخرى لكتاب لم يسمع بهم من قبل ، كما انتبه لوجود مجموعة من الكتب المتعلقة بالثيوصوفية والماورائيات ، والقوى الخفية لدى الإنسان ، وتناسخ الأرواح.

حينما التفت إليهما كانتا قد جلستا متقابلتين على الصوفا ، منهمكتين بترتيب صحون الحلوى والفواكه وفناجين القهوة ، وأكواب الشاي . وجه كلامه للسيدة حواء صحراوي ، بالعربية ، قائلا ً:

- يبدو أنك تهتمين بقضايا الماورائيات، وقوى الإنسان الخفية، وتناسخ الأرواح، والقدريات.. أليس كذلك؟

فقالت ، وهي منهمكة بترتيب الصحون ، دون أن ترفع رأسها إليه كي لا تنظر في عينيه:

- نعم..

فتجرأ ، وكأنه يختبر جرأته الشخصية ، وفي الوقت نفسه كأنه ينهي صراعا ً داخليا ً في أعماقه ، ليتأكد من موقفها منه ، فقال بهدوء:
- أتعتقدين أن لقاءنا هذا هو لقاء خاص ومقدر لكلينا..؟
فارتبكت ، وأسقطت السكين الذي كانت قد وضعته في الصحن لتقشير الفاكهة ، وقالت بهدوء ، محاولة السيطرة على ارتباكها ، مستغربة جرأته ، مع إحساس وكأنها تخوض مغامرة جميلة:
- نعم..
رفعت رأسها إلى إيفا ليسنج ، وكأنها تداري الموقف ، كي لا تنتبه للحوار الذي دار بينها وبين هذا الرجل الغريب الجريء ، وقالت لها ، بالإنكليزية ، مع ابتسامة حزينة:
- إنه ينتقد قراءتي لكتب الماورائيات والثيوصوفية..
رفعت إيفا ليسنج رأسها الجميل إلى آدم التائه ، وكأنها مسؤولة عن حسن تصرفه مع صديقتها ، وقالت له بنبرة من يوبخ طفلا ً:
- آدم.. ماذا بك..؟
ابتسم هو ، فرحا ً مثل طفل مشاكس ، لأنها كذبت على صديقتها ثانية ، وأكدت على خصوصية وقدرية علاقتهما ، وقال مثل طفل مذنب:
- أنا لم أقل شيئاً.. وإنما سألت عن سر إهتمامها بمثل هذه الكتب..
ابتسمت حواء صحراوي ، وكأنها استمتعت بهذا التأنيب له ، بينما واصلت إيفا ليسنج:
- أنا أيضاً أهتم بمثل هذه الأشياء..ألا تهتم أنت بها أيضا..؟
- نعم..أهتم.. لا سيما بقضية توارد الخواطر، أو التصورات الغامضة بالأشياء والتي تُسمى ديجافو..
- إذاً..؟
- إذاً.. أنا سألت فقط..
قال ذلك وانضم إليهما جالسا ً على الصوفة ، موجها سؤاله لحواء صحراوي وكأنه يريد أن يشاكسها:
- هل تؤمنين بعالم الأرواح..؟ أقصد ببقاء الروح بعد الموت..؟
- ألا تؤمن بها أنت..؟
- أتجيبين على سؤالي بسؤال..؟
- أنا أؤمن بها..أعتقد أن ما يميز الإنسان عن بقية المخلوقات هو روحه الإنسانية الواعية..
- ألا تعتقدين أن لبقية الأشياء روحاً أيضاً..؟ أقصد الحيوانات..

والنباتات..بل وحتى الجمادات..؟
انتبهت حواء صحراوي إلى أن إيفا ليسنج كانت منتبهة لها ولأجوبتها ، وكأنها تنتظر منها أن تتفوق عليه في الإجابة ، فقالت له:
- أعتقد أن الروح الكلية موجودة في كل الأشياء..روح الحيوانات هي روح حيوانية.. والنباتات روح نباتية..بل حتى الجماد ينبض بالروح..الكون كله ينبض بروح الخالق..
نظر إليها بإعجاب ، وقال:
- إنك تذكريني بالفيلسوف سبينوزا..
فرددت إيفا ليسنج اسمه بإعجاب شديد:
- سبينوزا..
نظرت حواء صحراوي إليه وفي عينيها ألق خاص ، وسألت:
- وأنت..أتؤمن بوجود الروح..؟
صمت للحظات ، ثم خفض رأسه ناظرا ً إلى السجادة تحت قدميه ، وقال:
- نعم..أؤمن..لكن الروح شيء غامض.. جوهر لا مرئي.. محير..لغز..أحيانا أسأل نفسي أين مكان الروح في الجسد..؟ نحن نعرف مكان القلب..والدماغ.. وحينما نرى ونفكر ونتألم ونستمتع، فنحن نعرف أن مركز كل ذلك يكون في الرأس.. لكن ما هو جوهر التفكير..؟ ما هي طبيعته..؟هل للفكر طبيعة مادية..؟هل هو شحنات كهربائية تحمل معلومات محددة..؟ أو هو شيء لا مرئي..؟ كيف تجري عملية التفكير..؟ وما علاقة ذلك بالروح..؟ أسأل نفسي أحياناً، أين يكون وجودنا الحقيقي حين ننام..؟ النوم لغز..؟ بل..حينما نجري عملية جراحية، فببعض القطرات من سائل محدد، يتعطل كل شيء في الذهن والإحساس..ويتم تقطيع جسدنا..وفتح بطوننا، وجماجمنا، وقلوبنا، وتُقطع أطرافنا..ويتم إدخال الحديد، واللولب في أجسادنا، وتُثقب عظامنا، ثم يُعاد كل شيء إلى موضعه، دون أن نحس أو نشعر بأي ألم..؟ إذاً هل يتم تعطيل الروح..؟ لا يمكن أن نتحدث عن تعطيل الجسد، فهو يقوم بكل وظائفه أثناء العملية، وإنما منطقة الشعور، والإحساس بالألم، ووعي الوجود، تكون معطلة وملغاة فقط..هل الروح، إذاً، تكمن في مناطق الإحساس بالألم..؟ هل المشاعر، والأحاسيس، والألم، والوعي، من مكونات الروح..؟ لكن لا..فالحيوانات تُخدر أيضاً، تضرب بأبر تُسقطها أرضاً، فأين تكمن روح الحيوان..؟ نحن لا نعرف إن كانت للنباتات روح، وغريزة، لكننا نراها تتناسل، وتتكاثر، وتنشر بذورها، وتتغير ألوانها، وتسقط أوراقها، ثم تزهر وتتجدد ثانية، فهل لديها روح..؟ وماذا عن البكتريا المجهرية..؟ هل

لديها روح..؟ لا.لا..أحيانا أخاف من تفكيري أن يوصلني إلى مناطق بعيدة حيث لا يمكنني العودة بعدها..

رفع رأسه ونظر إليهما فأحس بأنهما تنظران إليه بانتباه . ارتبك . أحس بأنه يعري نفسه أمامهما ، فاللغة كشف وعري للإنسان . لكنه فوجئ بإيفا ليسنج تسأله:

- تخاف أن لا يمكنك العودة..لكن من أين..؟ والعودة إلى أين..؟

نظر إليها وفي عينيه ألم كبير ، وكأنه ينظر في المجهول ، أحس بحبات العرق البارد تشكل طبقة خفيفة غير منظورة على جبينه ، مد يده فمسح جبينه ، وهو يقول:

- أرجو المعذرة.. يبدو أني قلت أشياء غير مفهومة.. أنا كنت أقصد أن بعض الناس يمضون بعيداً بعيداً في تفكيرهم، بحيث يبتعدون عن الواقع المرئي..إلى الحد الذي يخرجون عن مداره، ويتيهون في اللاواقع.. أو بكلمة أخرى، الواقع اللامرئي.. بحيث لا يمكنهم العودة إلى الواقع المعاش، أي يتحولون في نظر الناس إلى مجانين.. لكن المجنون يعيش واقعاً آخر.. واقعاً بكل تفاصيله، لكنه غير مرئي.. غير متجسد في الزمان والمكان، وقد يتقاطع ويتداخل ويتماهى مع الواقع المرئي، لكن لا أحد ينتبه لهذا الواقع اللامرئي إلا المجنون..

ظلت حواء صحراوي تنظر إليه وكأنها تدرسه ، بينما قالت إيفا ليسنج ، محاولة أن تفهم أكثر:

- واقع لا مرئي..؟

- نعم..واقع لا مرئي.. حتى العلم يتحدث عن العوالم غير المرئية.. وعن المادة المضادة..

فجأة سألته حواء صحراوي بنبرة هادئة:

- أتؤمن بالله..وبالأرواح..؟

- أنا لا أؤمن بالرب الذي تتحدث عنه الكتب المقدسة..الرب الذي يخلق البشر، ويزرع فيهم الشهوات والرغبات العنيفة، ثم يريد معاقبتهم إذا ما حاولوا أن يؤمنوا ارتواء هذه الرغبات.. وإنما أن أؤمن بالجوهر اللامتناهي، الذي هذا الوجود إحدى تجليات صفاته، لكن ليس التجلي الوحيد له..ذلك الجوهر الذي يتحدث عنه سبينوزا، الذي يوجد في ذاته، ويُتصور بذاته، ولا يحتاج في تكوين تصور له إلى تصور أي شيء آخر..هذا الجوهر الأزلي، وكل هذا الوجود ينتمي إلى طبيعة ذلك الجوهر.. سبينوزا يتحدث عن نوع من المعرفة تُستمد من التجربة الغامضة التي يمر بها العقل مختبراً، والتي تُقبل

لمجرد عدم وجود ما يناقضها في العقل.. تلك المعرفة الحدسية، التي هي أقرب إلى شطحات الصوفين وإشراقاتهم..
فقالت حواء صحراوي ، مبتسمة بهدوء:
- لكنك لم تجب على سؤالي..؟
نظر آدم إليها مستغربا ، وقال بهدوء:
- أبعد كل الذي قلته.. تقولين إني لم أجب على سؤالك..؟
نظرت إليه حواء صحراوي للحظات ، ثم نظرت إلى إيفا ليسنج ، تبادلتا النظرات ، ابتسمتا بهدوء ، وكأنهما اتفقتا على أن لا يواصلان هذا الحوار الفكري ، الذي يرهقه ، كما بدا لهما ، ولكي تدير دفة الحوار نحواتجاه آخر سألته حواء صحراوي:
- أتتناول مثل هذه الأمور والأفكار في رواياتك..؟
- أحياناً.. ليس دائماً..
- وهل سيكون ذلك في روايتك المقبلة أيضا...؟
- أنا لا أحدد أي شيء تقوله الشخصيات في الرواية..وإنما أتقمصها لحظة الكتابة.. وأدون ما تنطق به.. قد لا تصدقين ذلك، لكن هذا هو الواقع.. وبالرغم من أني لم أفكر متى أبدأ بكتابة روايتي الجديدة، لكني أحس بأني أعيش حالات المخاض..وأحس أني سأبدأ الكتابة..ربما الليلة..
نظرت إليه إيفا ليسنج فرحة ، متعجبة ، وقالت:
- صحيح..؟ هذا شيء رائع..
سألت حواء صحراوي ، بطريقة غامضة:
- وهل فكرت عن ماذا تكتب..؟
- لا.. لكن في ميونخ تحاورنا، أنا وإيفا، عن أبينا آدم، وعن ابنه قابيل، وأنا في رأيي أن الإنسان الأول، هو قابيل وليس أبانا آدم أو أمنا حواء.. قابيل، فهو الذي ولد من صلب رجل، ونشأ داخل رحم امرأة.. وهو الذي تحمل وزر خطيئة آدم وحواء، إن كانت هناك خطيئة أصلاً، وبالتالي، فنحن أبناء قابيل..ولسنا بني آدم.. وفكرت أن أتحدث عن أحداث، ربما ستقع في رحم المستقبل. ليلة أمس انبثقت الحبكة بشكل غامض في رأسي، لكن اليوم، وأثناء الحديث برزت بشكل أوضح في ذهني..
نظرت إليه إيفا ليسنج بإعجاب ، وسألته بنبرة فيها رجاء مبطن:
- هل يمكنك أن تحدثنا ولو قليلاً عنها..؟
- أفكر بالكتابة عن كاتب روائي عراقي اسمه آدم البغدادي، يكتب رواية عن كاتب آخر..ربما عني..أي عن كاتب اسمه آدم التائه..

سألته حواء صحراوي مستغربة:
- أنت تكتب رواية بطلها كاتب يكتب رواية أنت بطلها..؟
- نعم..
- إذا من يكتب عن من؟ أأنت تكتب عنه أم هو يكتب عنك؟
- كل منا يكتب عن الآخر..
- وهل هذا يعني أنه سيكتب قصة حياتك، أو أنت تكتب قصة حياته..؟
- كلّ منا يكتب قصة الآخر..
فسألته إيفا ليسنج بنبرة مزاح:
- وهل سيكون لنا موقع في أحداثها..؟
نظر إليهما ، وقال بطريقة غامضة:
- ربما..
نظرت إيفا ليسنج إليه وقالت:
- ظننت أنك ستكتب رواية أو أي عمل أدبي عن حياة السيدة حواء صحراوي..؟
- ربما..لا أدري..أنا لم أبدأ بكتابة أي سطر..لكني أحس الرواية تتشكل بسرعة جنونية في ذهني..
فسألته حواء صحراوي:
- ومتى ستبدأ بها..؟
- ربما الليلة..
صمتت حواء صحراوي للحظة ، وكان ذهنها يكشف عن تفكير داخلي ، لكنها نظرت إليهما وقالت:
- ربما يمكننا التجول في الحديقة..في الهواءالطلق..ويمكننا أن نتحدث أيضاً..
نهضوا جميعا ً، وقادتهم السيدة حواء صحراوي نحو باب الصالة خارجين.
آدم البغــدادي: ما الذي يجري.. ؟ لماذا تمرد آدم التائه عليّ بهذه الطريقة.. ؟ إنه يريد أن يكتب قصتي.. ؟ أن يكتب رواية عني.. ؟ كيف ذلك وهو يعيش نهاية التسعينات، بينما أنا أعيش النصف الثاني من العقد الأول من القرن الدموي الجديد.. ؟ هو يعيش في زمن ما زال النظام الدكتاتوري مهيمنا على قدر البلاد، بينما أنا اعيش العصر الأميركي – الشيعي في البلاد.. ؟ كيف يكتب عن المؤلف الذي شكل كل كيانه كبطل في رواية.. ؟ أنا الذي صنعته..بينما هو يريد الآن أن يقدمني.. ؟ أعتقد أنه ثمة مسرحيّة للكاتب الإيطالي بيرندللو عنوانها (ست شخصيات تبحث عن مؤلف) ومضمونها أن ست شخصيات من عائلة واحدة تأتي إلى أحد المسارح ،

وتطلب من المؤلف بيرندللو، نفسه الذي يتواجد في النص المسرحي، أن يكتب شخصياتهم في نص تخلى أحد المؤلفين الذي أوجدهم عنهم ورفض أن يكمل مسرحيته، وبما أنهم يحملون مأساة في نفوسهم، لذا فأنهم يريدون منه أن يكمل قصتهم.. لكن هذا الأمر بعيد عن بطلي آدم التائه..صحيح أنه كاتب، لكني أنا الذي أردت له أن يكون كاتباً، فكيف يتمرد علي ليكتب قصتي.. ؟ من سيكتبها له.. ؟ ألا يعني ذلك أني أنا سأكتبها له، لكن أ أكتب عن نفسي.. ؟ لا..لا..

لكن لربما هي رغبة دفينة لأكتب عن نفسي.. ؟ كيف ذلك... ألا يمكنني ، لو شئت لكتبت مذكرات أو يوميات، وتكون أكثر واقعية ووثائقية من الرواية التي هي عصارة لحيوات مختلفة.. ؟ أهي لعبة روائية مني دون أن أعي ذلك.. ؟ لا.لا. لأني بذلك سأنسف كل ما جرى في رواياتي.. ؟ من تراه يروي قصته الآن.. ألستُ أنا.. ؟ إذن، كيف سيروي قصتي، أهذا سيعني أني سأكتب عن نفسي.. ؟ وكيف يريد أن يكتب عني دون أن يعرف تفاصيل حياتي.. ؟ وأنى له ذلك.. ؟ سأتركه يكتب ما يشاء عني..وسأرى كيف يتنبأ بمصيري.. ؟ بل ومن أين عرف اسمي أصلاً بحيث يسمي بطله باسم آدم البغدادي.. ؟

* * *

حين وصلت حواء الزاهد إلى نهاية هذا الفصل أحست بالمتعة لهذه المغامرة الجديدة التي يخوضها البطل آدم التائه مع إيفا ليسنج وحواء صحراوي .. وأحست بقربها النفسي من حواء صحراوي .. وسألت نفسها لماذا أحبت هذه السيدة الخليجية التي تعيش في لندن ، ألأنها تعيش مثلها في حصار نفسي وجنسي .. ؟ .. لكنها استغربت من فكرة آدم التائه في أن يكتب رواية عن آدم البغدادي ، وبدأت تسأل نفسها : كيف عرف اسمه؟ بل وكيف يريد أن يكتب رواية عن الكاتب آدم البغدادي الذي يكتب رواية عنه هو ، عن آدم التائه ، وكأنه يعرف أن آدم البغدادي كتب ، أو يكتب رواية عنه .. وكأنه يعرف أن وجوده هو ضمن عالم روائي كتبه آدم البغدادي .. ؟ وهل يا تُرى عرف بأن آدم البغدادي قد تم اغتياله .. ؟ وهل سيتنبأ هو بذلك إذا ما كتب روايته .. ؟ هل سيتنبأ بإحتلال العراق ومجيء لصوص إلى السلطة لم يعرف تاريخ العراق لهم مثيلا ً.. ؟

ثم كيف يتمرد بطل روائي على مؤلفه .. ؟ أنا لا أفهم .. من يكتب رواية عن من .. ؟ لقد قال بأنه سيبدأ بها الليلة .. كما بدأ علاقة خفية بينه وبين السيدة حواء صحراوي .. كيف ستنتهي .. ؟ وهذه النجمة العالمية التي

استغلت آدم التائه ، كيف تستطيع أن تشاركه مع صديقتها .. ؟ وهل هي قادرة على ذلك حقا ً.. ؟ لقد تركتهم يتناقشون ، لأرى ماذا سيحدث .. لكنها قبل أن تواصل القراءة نهضت عن السرير . اقتربت من مهد هابيل . انحنت . رسمت قبلة على جبينه الصغير ، فسمعت تنهيدة وكأنها تنطلق من إنسان بالغ أخذ التعب منه مأخذه .. ابتسمت مع نفسها . مضت إلى غرفة الإستقبال فرأت ابنها مستمرا ً في لعبته .. مستغرقا ً فيها ، حتى أنه لم ينتبه لوجودها . رجعت إلى غرفة النوم ، وأخذت المخطوطة لتواصل القراءة ، متلهفة.

حـواء صحـراوي

حين أوصلته إيفا ليسنج في العاشرة والنصف ليلا ً إلى المنزل ، مضت بعدها مباشرة إلى بيتها ، فقد قضت اليوم كله معه تقريبا ً، إذ أنها بعد أن خرجا معا ً، من عند السيدة حواء صحراوي ، في حدود الخامسة عصرا ً، أخذته في جولة لمشاهدة أهم معالم لندن . كان هو مذهولا ً بالسيدة حواء صحراوي ، وكان متلهفا ًلرؤيتها ثانية ، لكنه كان مترددا ً في أن يذكر هذا الأمر أمام إيفا ليسنج ، منتظرا ًمنها أن تبادر هي بذلك.

لم يكن من المناسب أن يطلب من حواء صحراوي رقم هاتفها ليتصل بها بعد أول لقاء بينهما ، فهو يريد أن تتوطد علاقتهما أكثر ، بحيث يصبح ثمة ما يلزم للإتصال بينهما . وكانت إيفا ليسنج سعيدة جدا ً، وكانت طوال المساء تتحدث عنها ، وعن إرتياحها له ، ثم أخذته إلى مطعم ذي طابع كلاسيكي ، تعشيا هناك ، وشربا قنينة من النبيذ الأسباني .

حينما رجعا لم تدخل معه إلى البيت ، وإنما أكدت له بأن عليها أن تلتقي بأختها ، لمتابعة بعض شؤون العمل ، كذلك في ما يخص المسلسل التلفزيوني الألماني ، عليها أن تجهز كل شيء ، بحيث لا يبقى أمامها سوى التوقيع ، فتذهب ليوم واحد ، تصل صباحا ًلترجع عصرا ًأو مساء ً.

حين صار آدم التائه وحده في البيت ، أعد لنفسه شايا ً، ثم توجه بعدها إلى طاولة الكتابة في أقصى الصالة . جلس حولها ، أخذ رزمة من الأوراق البيض وقلما ًوبدأ يخط أولى أسطر روايته الجديدة:

(فز الكاتب آدم التائه من نومه مرعوبا ًعلى دوى انفجار هائل اهتزت البناية ، وارتجت له جدران الشقة . أحس نفسه متعبا ً. شعر بصداع شديد يضغط على جمجمته ، وحموضة تصعد من معدته وتصل حتى بلعومه . رفع رأسه قليلا ًليجد نفسه على الصوفا الجلدية في الصالة . لقد غرق في النوم بعد أن وضع بعض اللمسات على مشاهد وفصول روايته

الجديدة التي أنجزها عن بطله الكاتب آدم البغدادي ، الذي كتب أكثر من مخطوطة روائية ، عن بطل ، مهوس به ، اسمه آدم التائه.
نهض آدم التائه قلقا ً، ليطل من النافذة المشرفة على مشهد مفتوح من بغداد ، فرأى دخانا ً كثيفا ً يتعالى من جهة الحارثية ، وسمع صوت إطلاق كثيف للرصاص ، وهدير سيارات الإسعاف ، الذي يؤكد بأن كارثة قد وقعت.) .
توقف آدم التائه عن الكتابة . قام متجها ً إلى المطبخ . أعد لنفسه كأسا ً من الشاي ، وحمله معه عائدا ً إلى مكانه . فكر مع نفسه ، بأن روايته المقبلة ستكون عن حياة هذا الكاتب الذي سيطلق عليه اسم آدم البغدادي ، وسيتوغل معه في طريقة تفكيره ، ومشاريعه الروائية ، ويتابع معه روايته عن آدم التائه الذي كر ّس له ثلاث روايات هي : متاهة آدم ، متاهة حواء ، ومتاهة قابيل.
لكن آدم التائه ظل حائرا ً، وأخذ يسأل نفسه : أمن الصحيح أن أكتب رواية تجري أحداثها في أعماق المستقبل .. ؟ لماذا أريد أن يكون بطلي كاتبا ً أيضا .. ؟ ولماذا اسميه آدم أيضا .. ؟ ولماذا أمنحه لقب البغدادي .. ؟ هل لأبرز عراقيته .. ؟ هل سأكتب رواية سياسية .. أو رواية اجتماعية .. أو نفسية .. ؟ هل سأدخل الشخصيات التي قابلتها في حياتي ضمن رواية هذا الكاتب البغدادي ، أقصد ما جرى لي في بغداد ، وما جرى لي في ألمانيا .. خيانة زوجتي حواء المؤمن .. لقائي مع إيفا بيرغمان ، وإيفا ليسنج ، إيفا جايكوفسكايا ، إيفا إسكندروفنا ، وحواء صحراوي .. ؟
كان آدم التائه يفكر في رسم الخطوط العامة لروايته حينما رن الهاتف . نهض من مكانه . أحذ السماعة ، فجاء صوت إيفا ليسنج دافئا ً لتسأله عن وضعه ، وهل كل شيء على ما يرام ؟ وأخبرته بأنها بعد توصيلها له مرت على حواء صحراوي ثانية ، وتحدثتا عن ما جرى من حديث في النهار ، وأن السيدة حواء صحراوي معجبة به وبأفكاره ، وأنها تدعوهما غدا ً على العشاء أيضا ً.
أحس آدم التائه بالفرح حينما سمع ذلك ، فهو سيرى حواء صحراوي ثانية . شكر إيفا على سؤالها ، وأخبرها بأنه خط السطور الأولى من روايته الجديدة ، ففرحت كثيرا ً.
حين عاد إلى الطاولة ، رن الهاتف ثانية ، فظن أنها إيفا ربما تود أن تخبره شيئا ً آخر ، لكن المفاجأة التي أرتعش لها كيانه ، وارتبك لها تنفسه ، هو سماعه لصوت حواء صحراوي ، التي بدأت بالإعتذار على الإتصال في

مثل هذا الوقت المتأخر ، فطمأنها بأنه لم ينم بعد ، وانه بدأ بكتابة السطور الأولى من روايته . ففرحت كثيرا ً. شكرها مرة أخرى على دعوتها في ذلك اليوم ، فأخبرته بدعوته مع إيفا ليسنج على العشاء في اليوم التالي . واستمر الحديث بينهما ، وزال الارتباك ، وصار الحديث أكثر حميمية ، فسألها:

- بودي أن أعرفك أكثر.. لقد تحدثت لي إيفا عنك كثيراً، لكن بشكل عام، غير أني أستغرب مسألة إنتحارك.. لقد رأيتك اليوم، وتأملتك، وأدركت أنه ليس من السهل أن تقدمي على الإنتحار إلا إذا كانت هناك أسباب فوق طاقة البشر.. أليس كذلك..؟

صمتت حواء صحراوي للحظات ، ثم قالت:

- هذا صحيح.. إذا أحببت سأروي لك قصتي التي لا يعرفها أحد غيري..حتى إيفا لا تعرفها..

- سأكون صاغياً بقلبي وعقلي..

صمتت للحظات ثانية ، ثم جاء صوتها ، وكأنها تدلي بإعتراف في محراب كنيسة:

- ربما أنت تعرف من خلال إيفا ليسنج قصتي الظاهرة، بأني ولدتُ في لندن، أبي كان خبيرا وأستاذا جامعياً، وتنقلت بين الدول في مختلف أرجاء العالم، حيث كانت العائلة تتنقل معه، ثم درست الآداب الإنكليزية، ثم أنهيت الدكتوراه حول شكسبير، وأني زُوجت لشاب من بلادي، اسمه قابيل الموسى، من العوائل القريبة والصديقة لعائلتي، وأن هذا الشاب من المتعلمين، والمولودين في أميركا، وأنه كان رائعا في فترة الخطوبة، ككل الرجال، لكنه تحول إلى رجل محافظ جداً بعد الزواج.. وأني كنت غير محجبة، لكني تحجبت بعد الزواج، وكنت أتجنب الإنجاب منه، فانتبه لذلك، فضربني، وطردني، وأخيرا تم التفريق بالطلاق بيننا.

انتبه آدم التائه إلى أنها اختصرت كل ما سمعه عنها فعلا ً، وقال لها بفضول:

- هذا صحيح..؟ هذا ما سمعته.. لكني أخمن وجود أسباب أخرى للانتحار..؟

- نعم..أنت محق.. إذاً، اسمعني جيداً.. كنت أثناء دراستي الجامعية، قد تعرفت على شاب عراقي اسمه هابيل الياسري، وكنا نلتقي في كافتريا الجامعة، وكان لاجئاً سياسياً، هاربا من جحيم النظام السياسي، شيوعياً كان، وحينما حصل على اللجوء بدأ دراسة القانون الدولي. تعمقت علاقتي به.

فقد وجدت معه لغة مشتركة.. أخذت أتحجج، أمام أهلي، بوجود المحاضرات الجامعية، لأخرج معه إلى أحد الباركات التي تكتظ بها لندن. معه عرفت القبلة الأولى، ومعه عرفت يد الرجل وهي تتلمّس صدري، ومعه عرفت معنى أن يحتضن رجل امرأةً، إلا أني كنتُ واثقة بأن هذه قصة حب محكوم عليها بالفشل، لأني من عائلة ثرية جداً، وأبي بالرغم من أنه خبير وأستاذ جامعي، لكنه يخضع لقانون العشيرة، والأهل، فقد كان عقله في أوربا لكن قلبه هناك، في الخليج، وبالتالي فلا أمل أن أرتبط بشاب عراقي، لاجئ سياسي، شيوعي، فقير، بل شبه معدم.... وربما هذا الإحساس قد خفف عليّ معاناة البعد والفراق، لأني هيأت نفسي لمثل هذا الفشل.... بعد الزواج انقطعت علاقتي به، لكني وجدت نفسي، بالرغم من ذلك،أفكر فيه، لأني أحببته حقاً، وكان هو بالنسبة لي حريتي الخفية.. طبعاً لم أستطع أن أراه قط. لكني سمعت بأنه ترك الدوام في الجامعة لأشهر عديدة بعد زواجي... وبعد تطور مشاكلي مع زوجي قابيل، التي انتهت بالطلاق، قابلت هابيل الياسري مصادفةً.. وبدأت علاقتنا من جديد. قررت أن أعيش معه سراً، ولكي نلتقي بعيداً عن عيون الناس، أجّر شقة باسمه لمدة سنة، دفعت أنا إيجارها طبعاً... أخذنا نلتقي فيها. عشت ساعات جميلة من عمري في تلك الشقة، إلا أن غيرة طليقي، كانت أكبر من أن يتحمل أن أعيش حياتي بهدوء، فقد عاد يلاحقني، بل كان يتجسس عليّ، ويدفع لمكاتب المخبرين الشخصيين لمعرفة كل تحركاتي، وبما أني لم أكن أعرف بذلك، فقد تمكن المخبرون أن يعرفوا الكثير عن حركتي، وعن علاقتي به، وعن عنوان الشقة... وذات يوم أسود، كنت متجهة إلى الشقة، وحيما دخلت الشارع وجدت سيارة أسعاف، وسيارة للشرطة، وموظفين حكوميين، ربما كانوا من المحققين، جميعهم يقفون أمام المبنى الذي فيه الشقة... كنت أنا في التاكسي، فطلبت من السائق أن يقترب أكثر، ومن هناك سألت أحد الواقفين عما جرى، فأخبرني بأن ثمة شاباً عراقياً، لاجئاً سياسياً، طالباً جامعياً.. وجد مقتولاً عند مدخل المبنى... لم أستطع أن أتمالك نفسي، فانسابت الدموع من عيني..انتبه السائق لي وسألني إن كنت أعرفه، فأنكرت ذلك وقلت إني أبكي هذا الشاب الذي يقُتل في بلاد الغربة بعيداً عن أهله.. فتفهم الموقف.. بعد يوم من الحادث، حملت الخادمة لي رسالة كانت في صندوق البريد. رسالة تتألف من جملة واحدة، مشكلة على طريقة أفلام الجريمة، من حروف ملصقة بالصمغ، الجملة تقول: أنا لك بالمرصاد..سأجعل حياتك جحيماً... شخصياً عرفت أن طليقي قد اقترف تلك

الجريمة، بنفسه، أو دفع مبالغاً لقتلة محترفين للقيام بذلك.. لأنه بعث لي برسالة أخرى، وعلى نفس طريقة الحروف الطباعية الملصقة، أكد بأن هناك مخبرين سريين يتابعون كل تحركاتي.. وسيكون مصير كل من أقيم معه علاقة مصير العراقي نفسه.. فتأكدت أنه القاتل.. هذا الأمر دمرني جداً، لاسيما وأن الحقير، طليقي، أرسل رسائل مشابهة تطعن بسلوكي، إلى أهلي، مما وتر علاقتي بأهلي، فصاروا يضايقونني، بل أرسلوا الخدم لي كي يتجسسوا على كل حركاتي.. ثم بدأوا يضغطون علي لتزويجي.. ولم أستطع التحمل..فأقدمت على الإنتحار رداً على مسألة تزويجي ثانية، ويبدو أن هذا الأمر قد نجح معهم..إذ وافقوا على إلغاء فكرة تزويجي ثانية..وأعتبروني مريضة نفسياً، ومعقدة، وأنا شخصيا أعجبني ذلك.. بل أحيانا أثبت لهم فعلاً أني مرضة نفسياً، ببعض التصرفات الغريبة.. حينما أرفض الذهاب إليهم..أو لا أشارك ضيوفهم الإستقبال أو الدعوات..وأرفض إقامة أية علاقة مع قريباتي.. لذا أحس الآن بأني أكثر حرية..لكني أعتقد بأن ثمة شبحاً يكمن في كل زاوية..شبحاً يراقبني في رواحي ومجيئي.. شبحاً يتبعني كالظل..وربما هدأت الأمور قليلاً بعد تطور علاقتي مع إيفا ليسنج.. فهي على أية حال امرأة..

بينما كانت هي تروي له هذه الحكاية ، بهذه السرعة ، تذكر هو علاقته بحواء الغريب ، زوجة الضابط ، التي قُتلت في الشقة التي أجرتها لكي تكون مكاناً آمناً للقاءاتهما .. فجأة سألها:

- وكيف تعيشين الآن..؟ أقصد ما هي آفاقك بأن تعيشي حياتك، كما تشائين..؟

- لا أفق أمامي.. أهلي يهمهم كلام الناس هنا..وهناك في بلادنا.. يقبلون بأن أخدعهم.. المهم أن لا يعرف أحد بما أفعله.. علي أن أضع قناعي على وجهي دائماً.. هذه الخادمة التي تقود بقية الخدم في البيت، هي جاسوسة أرسلها أهلي.. وأنا متأكدة بأنهم عرفوا بأن رجلاً كان اليوم في بيتي..لكن ما يشفع لي في الأمر أنك جئت مع إيفا ليسنج..وهم يظنون أنك عشيقها الجديد..فقد قرأت اليوم ما كُتب عن ذلك في صحيفتين بريطانيتين..

فسألها بهدوء:

- وأنت..ألا تظنين ذلك..؟

- لا.. لأني أعرف إيفا ليسنج جيداً.. هي لا تعشق أحداً.. وإنما تعشق المثال..أو التصور عن الرجل الذي في ذهنها.. أكثر مما تعشق الرجل بالفعل.. ثم أنا أعرف أنها استخدمتك للخروج من أزمتها.. ومن الإشاعات

التي تحيطها..
استغرب صراحتها ، ومعرفتها بكل التفاصيل ، فسألها:
- أنت تعرفين عن الإشاعات التي تثار ضدها، حول علاقتكما..؟
- نعم.. لكن لحد الآن لا أحد ذكرني بالإسم.. وأنا أعرف أن هذا الأمر غير صحيح.. ربما لديها ميول، لتجريب كل شيء..لكن لم يبدر منها أي تصرف عملي.. لقد شككت بذلك أول الأمر، حينما دعتني للسباحة في مسبحها البيتي، ثم دخلنا الساونا، الحمّام البخاري، ووجدتها تتأمل جسدي بإعجاب شديد، وأحسست برغبتها في أن تلمسني..إلا أن توتري لحظتها نبهها لموقفها.. ولم تتجاوز النظرات..لكني أحيانا أحس بها حينما نخرج إلى العشاء، إذ أجدها تمسك بكفي وتضغط عليها بمناسبة أو غير مناسبة..لكني لا أفسر ذلك، سوى برغبات دفينة غير واعية..
- وأنت..؟
- ماذا أنا..؟
- ألم تشعري نحوها بشيء..؟
صمتت للحظات ، ثم قالت بهدوء:
- أول الأمر نفرت من ذلك..لكني في ما بعد استلطفت الأمر.. لم أجد فيه ضرراً أو إساءة..
- ألم تتجاوزا ضغط الأكف..؟
- لا.. لكني انتبهت..إنها أحيانا..حينما نتقابل، ونقبل بعضنا بعضنا كترحاب وصداقة، كما نفعل نحن العربيات.. أجدها تقبلني بمنطقة قريبة من فمي، على أطراف فمي.. يعني قبلة مسروقة..خاطفة.. وتسعى إلى أن تضمني بحيث يضغط صدرها على صدري ويلتصق جسدانا..
- وكيف كانت ردة فعلك..؟
- أتصدق إذا ما قلت لك بأني كدتُ أتقيأ أول الأمر.. لكني بدأت أرتاح لذلك في ما بعد.. بل وأشعر بشيء من الإثارة..
- آها..
- دعنا الآن من هذا..وحدثني أنت عن علاقتك بها.. فهي امرأة شهوانية جداً..أنا أعرفها.. هل أقمتما علاقة خاصة..؟
صمت هو للحظات . فكر بالإجابة .. هل ينكر ذلك ، وبهذا يطفئ غيرتها ، ويمنحها بعض الأمل .. أو على العكس يثير غيرتها ، ورغبتها الدفينة ، وكبتها الجنسي ، بالحديث عن ذلك .. وقرر أن يثيرها .. وهو بذلك لا يكذب ، فربما قد أخبرتها إيفا بكل شيء .. لذا قال بهدوء:

- نعم.. في ميونخ..في جناحها..كانت بيننا لحظة خاصة جداً..
صمتت هي .. كان ينتظر أن يسمع منها رد فعل مباشر ، لكنها صمتت ، ثم جاء صوتها ، مبحوحا ًقليلا ً، وهي تسأله:
- وكيف كانت..؟
انتبه لنبرة صوتها ، وأراد أن يمضي معها إلى نهاية هذا الحديث الذي أخذ بعدا ً آخر ، فقال بهدوء ، محاولا ً أن يمنح صوته نبرة خاصة ، نبرة مشحونة بالإثارة:
- كانت هائلة.. كتلة من الشبق..كتلة من اللهب..
فسألت بنبرة شبقة بشكل واضح ، وانتبه إلى أنها مثارة وبالكاد تتنفس:
- وأنت..؟ أنت كيف كنت معها..؟
- أنا.. لا أدري..
كان يسمع لهاثا ًشبقيا ًخفيفا ً.. فواصل كلامه:
- لم أكن أدري كيف كنت..كل الذي أدركه أني كنت أدخل عنيفا كالمجنون..
في هذه اللحظة سمع صرخة شبق خفيفة بالتلفون .. عرف أنها تعيش أحلام اليقظة ، وربما تتصور نفسها في ذلك المشهد .. صمت .. لكنه سمعها تقول ، بتوسل شبق:
- أكمل.. أرجوك...
- لا أعرف كيف أكمل..
فجأة ، وعلى غير توقع منه ، سألته :
- أستكتب ذلك في روايتك الجديدة..؟
- لا أعرف ذلك بالضبط..
- أستكتب عني أيضاً..؟
- لا أعرف.. ربما..
- لكني لا أريد أن تكتب عني أشياء فاضحة..
- انتبه إلى إشارتها الغامضة، فقال بجرأة منحته إياها معرفته برغبتها الدفينة وشبقها المبكوت:
- نحن لم نفعل شيئا فاضحاً... لحد الآن..
صمتت للحظات ، ثم قالت وكأنها تردد كلامه:
- لحد الآن..
صمتت للحظات ، مرة أخرى ، بعدها واصلت:
- أعتقد أنك من الذكاء بأنك تعرف ما أحتاجه.. وجودك مع إيفا ليسنج

يريحني جداً..بل أفضل أن ينتشر خبر علاقتك بها.. فهذا آمن لي للتواصل معك.. أنا أحتقر كل هذا النفاق الإجتماعي.. لكني لا أجد مفراً من أن أتجنبه، بل وأخضع له... بل كلما كان خرقي سراً لكل العادات والتقاليد، أظهر بمظهر التقية الملتزمة بكل الأصول.. أنا يا آدم..إنسانة ضائعة.. بل معظم جيلنا الذي ولد في أوربا.. نحن أوربيون بكل شيء، بلغتنا، وطريقة تفكيرنا، لكننا، شرقيون في ما يخص الجنس.. لا نستطيع أن نكون كالأوربيات في أن نمارس حياتنا بحرية.. لكننا لا نبرح العيش في أوربا، ولسنا في بلداننا بحيث نكون بمعزل عن الإختلاط والإثارة.. لذا ينعكس ذلك على نفسياتنا..فلا نحن أوربيات، ولا نحن شرقيات.. ولا نجد سوى أن نعيش حياة سرية، غامضة، وربما ليست طبيعية.. بل نعيشها أحيانا بشكل متطرف.. لأننا حينما تتاح لنا تلك الفرصة السرية، نمارس كل شيء، وبشكل داعر أحياناً... خوفاً من ألا تتاح لنا فرصة أخرى.. عاداتنا وتقاليدنا، حول الجنس إلى مركز لعالمنا الداخلي..بالرغم من نفينا له في حياتنا، ومحاولة تهميشه، والنظر إليه كعيب، ووساخة، وشيء شيطاني.. صرنا نقمع ذواتنا المكبوتة تحت ذرائع مختلفة..

- لكن من المؤكد ليس الجميع هكذا.
- بلى، قل لم تتح للجميع الفرصة لفعل ذلك..
- لكن هناك من تتاح لهن مثل هذه الفرص لكنهن لا يمارسنها.
- ربما.. لأن مثل هاتيك النساء عقائديات بشكل صارم، أو لأنهن خائفات من مواجهة رغباتهن..أو أنهن لا يعينها..أو يقمعنها، بوعي، بشكل كامل، لذلك تجدهن عصابيات..
- لكن مثل هذه الأزمات النفسية والأخلاقية موجودة في بلداننا أيضا..
- هذا صحيح.. إنه موجود في كل زمان ومكان.. النفاق الإجتماعي كان، وما زال، وسيظل، في كل زمان ومكان..
- وإلى متى ستبقين هكذا..؟ أليس من الأفضل أن تتزوجي..؟على الأقل ترتاحين من الناحية الجنسية..
- أتعتقد ذلك..؟ ألم أكن متزوجة..؟ هل تعتقد أن مجرد وجود الرجل يعني تلبية للرغبات وإرواء لها..؟ الرجال أنانيون.. يفكرون بأنفسهم أولاً، ودائماً.. ويختارون من الأوضاع ما يعجبهم فقط...لا تُسأل المرأة عمّا يعجبها..

لم يعجبه حينما أخذ الحديث طابعا ً فكريا وتحليليا ً، لذا ما أن أنهت جملتها الأخيرة ، حتى عاد بالحديث عنها ، فسألها:

- لكنك كنت متزوجة من رجل متعلم..مولود في أوروباً..

- لكن معظم تجاربه الجنسية كانت مع خادمات منزلهم.. لم يعرف كيف يعاملني.. جسدياً..
- وما علاقة خادمات المنزل بذلك..؟ أليس هذا يعني خبرات في هذا المجال..؟
- أقصد السرعة.. وكأنه يسرق شيئا..وكأن هناك من سيُكشفه.. لا يُعامل جسدي بما يستحق..
صمت لثوان ، وفكر مع نفسه بأن يغامر مغامرته الأخيرة معها ، ويلقي بصخرته في البركة .. فسأل:
- وكيف يجب معاملة جسدك..؟
صمتت للحظات .. كانت ثقيلة عليه ، ولم تكن أمامه ليرى تأثير السؤال على وجهها ، لكن جاء صوتها ، دافئا ً، وهي تقول له بتحد:
- لا جواب عندي.. يفترض بك، وأنت العارف بخفايا النفس البشرية أن تعرف كيف..
أخذ قلبه يخفق . أحس بأنه حقق طفرة في علاقته بها ، فقرر أن يضرب ضربته القاضية الأخيرة ، فسأل بشبق:
- لكنك امرأة مليئة بالأسرار.. من الصعب أن يغور في أعماقك بسهولة.. وليس من أول لقاء..
جاءه صوتها مرحا ً، وفيه نبرة مزاح:
- لتتكرر اللقاءات إذاً.. سأمر عليك غداً.. لكن بعد أن أتأكد من إنشغال إيفا ولو لساعة..وعدم وجودها عندك..
- ستكون غداً مشغولة.. قالت لي ستمر على أختها لمتابعة سير عملها..
- بالرغم من ذلك..علي التأكد.. لكن لدي شرط..
- شرط..؟ ما هو..؟ إشرطي..
- أن لا تذكر أي تفصيل عن علاقتي بك في روايتك.. لا أريد لصورتي أن تهتز أمام نفسي..أو أن يخمن أي شخص ما عند قراءتها، بأن هذه الشخصية هي أنا.. أتراني إنسانة مزدوجة نفسياً..؟
- كلنا مزدوجون..
- والآن أتركك لروايتك..سأتصل بك صباحاً.. تصبح على خير..
- تصبحين على خير..
لم يكن آدم التائه يصدق ما جرى له من حديث مع حواء صحراوي . هذه المرأة التي لا يمكن أن يتصور أي شخص يراها ، بأنها جريئة إلى هذا في مواجهة موضوع الجنس ، والتي تصل إلى حدود الخلاعة .. لكن

ثمة إنقباض في قلبه ، فلم يكن مرتاحا ً جدا ً لقضية طليقها الذي يتابع تحركاتها .. ألا يمكنه ، لو تطورت علاقته بها ، أن يكتشف ذلك؟ .. لاسيما إذا ما تكرر مجيئها إليه وحدها في هذه الشقة .. ؟ وإلى متى يمكنه أن يخفي ذلك عن إيفا ليسنج .. ؟ ألا يمكن أن يفهم ذلك خيانة لها أيضا ً.. ؟ وكيف سيكون مع الأثنتين .. ؟ علما ً أنه لم يلمس إيفا ليسنج منذ وصوله بسبب دورتها الشهرية .. لكن كيف سيكون الحال في ما بعد .. ؟ ثم إلى متى سيبقى هنا في لندن .. ؟ إنه يريد البقاء هنا ، لكن عليه أن يجد فرصة عمل .. لكن هل هذا ممكن .. ؟

مضى إلى الطاولة .. أخذ يفكر بحديث حواء صحراوي عن علاقة الرجال بالنساء . فجأة ، انبثق وجه زوجته حواء المؤمن في ذهنه .. سأل نفسه : أيمكن أنه لم يكن يعرف كيف يتعامل مع جسد حواء المؤمن ، لذلك خانته مع جارهم آدم اللبناني .. ؟

ظل لفترة ليست بالقصيرة ، يسترجع ذكرياته مع زوجته حواء المؤمن .. إلى أن أحس بالإجهاد من استرجاع كل التفاصيل . أخذ القلم وبدأ يواصل الكتابة .. وكلما توغل في الكتابة ، أخذت حالته النفسية بالتوتر أكثر.

آدم البغـدادي : كيف بدأ آدم التائه يكتب روايته عني .. ؟ لكن كيف عرف فعلا ً، بأني استيقظت ذات يوم على التفجيرات التي هزت الصالحية ، التي غيرها هو إلى الحارثية ، حينما كنت أنقّح الرواية التي كتبتها عنه .. ؟ الآن هو يعيد النص الروائي نفسه ، لكن عني .. ؟ ماذا يعرف عني أيضا .. ؟

* * *

رن هاتف حواء الزاهد . نظرت إلى الشاشة الصغيرة ، فرأت اسم حواء الكرخي ، فأخذت الهاتف بسرعة ، فجاء صوت حواء الكرخي قبل أن تقول هي شيئا ً:

- أهلا حواء..هل أنت في البيت..؟
- نعم..
- طيب.. سأمر عليك.. وربما نفكر بالذهاب إلى مكان ما..
- إلى أين..؟
- لا أعرف.. سنتحدث في ذلك لاحقاً.. سأكون بعد نصف ساعة..
- أنا في البيت..سأكون بإنتظارك..

طوت المخطوطة . نهضت من السرير . وهي تفكر بحديث حواء صحراوي عن عدم معرفة الأزواج أحيانا بالتعامل مع أجساد زوجاتهم .. هي محقة ..

لا سيما حينما تقارن علاقتها بزوجها التي استمرت لسنوات ، وعلاقتها بحبيبها آدم المحروم التي دامت لأيام .

حيـاة سـاكنة

لأول مرة أحست حواء الزاهد برغبة في أن تتأخر صديقتها حواء الكرخي في المجيء كي تتم مخطوطة رواية الكاتب آدم البغدادي التي بين يديها ، فلم يبق منها الكثير ، كما أنها متلهفة لمتابعة ماذا سيجري بين آدم التائه وحواء صحراوي ، لكن صديقتها قالت لها بأنها ستكون عندها خلال نصف ساعة ، لذا عليها أن تستعد لذلك ، علما ًأن الوقت ما زال مبكرا ً على العشاء ، إذا ً، ستشربان الشاي فقط.

حين وصلت حواء الكرخي أخذت تحدثها عن الأصبوحة التي حضرتها ، وعن العدد القليل من الجمهور ، وعن حالة النفاق الثقافي السائدة ، حيث كانت تجلس مع صديقها آدم الشبيبي وصديق آخر ، وكان الصديق الآخر يهمس بين فترة وأخرى معلقا ً على تفاهة المحاضرة ولا أهمية المحاضر الذي لا يستحق أن تقام له ندوة ، وخطأ بعض المعلومات التي يقدمها المحاضر أو مقدمه ، إلا أنه بعد فتح باب الحوار رفع يده ، وحين س ُ مح له بالحديث أخذ يكيل المديح للمحاضر ولمقدمه ، ولدقة المعلومات وعمقها ، ولقيمة المحاضر الأدبية في المشهد الثقافي !

لم تكن حواء الزاهد تعرف عالم المثقفين هذا ، وأحست بالإشمئزاز منه . كان حبيبها آدم المحروم يدافع عن المثقفين ، وعن الأدباء والمفكرين ، لكنه لم يذكر لها شيئا عن وساخة الوسط الثقافي ونفاقه ، ربما لأنهما لم يتحدثا عنه بالتفصيل.

كانت حواء الكرخي على غير عادتها . بدت عصبية نوعا ًما . ظنت حواء الزاهد أنها عصبية من ذلك الشخص المنافق الذي قابلته في إتحاد الأدباء ، إلا أن حواء الكرخي كانت متوترة لأنها حين اتصلت بأخيها ، القائد في الحزب الإسلامي الحاكم ، تسأله عن أية أخبار جديدة حول اختطاف قابيل الفهد ، أجابها بأن الخاطفين عادة يتصلون بأهل المختطف إذا كان الأمر يدور حول المال ، وهذا الإتصال عادة يكون مباشرة ، أو بعد ساعات قليلة من الإختطاف ، لكن إذا لم يتصلوا بأحد ، فهناك إحتمال بقتل الشخص الذي يتم اختطافه.

لم يمر وقت طويل على وجود حواء الكرخي عند صديقتها حواء الزاهد ، حينما اتصل بها آدم الشبيبي قلقا ً، يطلب منها أن توافيه في الشقة فورا ، فهناك بعض الأخبار التي عليها أن تعرفها . حاولت حواء الكرخي ألا تبدو قلقة أمام صديقتها ، لكنها أكدت لها بضرورة ذهابها ، فآدم الشبيبي

يحتاجها جدا لأسباب لم يذكرها ، وستعود إليها مساء ً.
أحست حواء الزاهد بأن ثمة شيئا ً غير طبيعي يجري في الخفاء ، فإغلاق الأستاذ قابيل الفهد لهاتفه منذ يومين ، وعدم رده حتى على أصدقائه ، شيء محير ، كما انتبهت إلى أن صديقتها تتجنب ذكر اسم الأستاذ قابيل الفهد.
حينما غادرت حواء الكرخي المنزل ، لم تجد حواء الزاهد ما تفعله ، فليس أمامها يوميا سوى رضاعة الصغير وتنظيفه ، وإطعام ابنها آدم الملاك ، الذي لم تدعه يذهب إلى المدرسة بعد التهديدات التي وصلتها ، ولا يخرجها من هذه الدورة القاتلة سوى قراءة مخطوطة رواية الكاتب القتيل آدم البغدادي ... أحست بأن الزمن بالنسبة لها قد توقف ، فلا جديد في حياتها .. دورة مملة .. غامضة .. وأفق مدلهم .. فكرت مع نفسها بأنها لم تستطع أن تناقش فكرة السفر إلى خارج العراق مع حواء الكرخي .. ربما ستناقشها مساء ً. لكن ماذا عليها أن تفعل الآن .. ؟ كيف لها أن تتخلص من رتابة حياتها هذه .. ؟ ثم أليست حياتها أفضل بكثير من حياة آلاف النساء والعوائل الذين لا يجدون ما يسدون به رمقهم ، أو الذين تحصدهم السيارات الملغومة ، أو العوائل التي ابناؤها أو معيلوها في السجون ، أو قضوا بالمسدسات كاتمة الصوت ، أو الإختطاف ثم الذبح ، أو الإغتيال .. ؟ أليست حياتها تعد هادئة قياسا ً إلى هؤلاء الذين يحتارون بلقمة عيشهم .. ؟ لكن هل هذه الحياة الساكنة التي تعيشها هي حياة حقا ً، أو هي موت بطيء .. ؟ أليست الحياة أصلا ً موتا ً بطيئا ً.. ؟ فما دام الموت مصير الإنسان وقدره ، ألا يعني ذلك أن الإنسان منذ ولادته يموت في كل لحظة أو ثانية إلى أن يصل لحظته الأخيرة .. ؟ أليست الحياة سوى موت متحرك .. ؟ لكن أليس التفكير بالموت هكذا سوف سيجعل الحياة كلها بلا طعم ، وستكون موت في الحياة .. ؟ أليس من الأفضل ألا نفكر بالموت ونعيش حياتنا .. ؟
وحشة سوداء كانت تقبض على نفسها ، وثمة شعور بالضياع والتيه والحيرة الغامضة . أحست بخوف من الحياة ومن الإستمرار فيها .. نظرت لابنها الذي كان قد ترك لعبته الآلية وأخرج أوراقه وأقلامه الملونة ، وأخذ يرسم الآلة على الورق .. طلبت منه أن يلملم أوراقه وأقلامه وأن يتبعها إلى غرفة النوم ليرسم هناك ، ولكي يكون قريبا منها.
إحساس غامض لديها بأن شيئا ما سيحدث ، لكن ما هو .. ؟ هي لا تستطيع إدراك ذلك ، لكن هذا الإحساس الثقيل الذي يقبض على نفسها

ي ُنبئها بذلك ، لذا أحست بخوف غريزي على ولديها.
لم يكن أمامها سوى الهرب إلى مخطوطة رواية الكاتب آدم البغدادي لترى ما سيجري بين حواء صحراوي وآدم التائه ، فالحياة صارت تنبض في الرواية أكثر من نبض حياتها الساكنة ، شبه الميتة . أخذت المخطوطة وبدأت الحياة.
شبح كاترين لينتون ..
ظل آدم التائه يكتب كالمحموم طوال الليل وحتى الساعة السادسة صباحا . لم يكن يعرف بالضبط من أين جاءت كل سيول الكلمات تلك ، ومن أين انبثقت في ذهنه ونفسه كل تلك الأفكار والأحداث . لم يكن قد فكر بكل هذا المخطط الروائي ، بل إنه ابتعد كثيرا عن فكرته الأولى ، إذ كان كالمحموم ، مأخوذا بنبوءة مرعبة ستحدث لبلاده ، حيث سينتشر الموت والرعب ، وستسير في نفق مظلم . بطل روايته كاتب اسمه آدم البغدادي ، سيكتب عددا من الروايات التي تدور عنه ، وعن زوجته حواء المؤمن ، وحيث سيتنبأ له بكل التفاصيل التي واجهته أيضا وستواجهه ، سيتحدث عن إيفا بيرغمان ، إيفا ليسنج ، إيفا جايكوفسكايا ، وحواء المظلوم ، وإيفا إسكندروفنا ، وحواء صحراوي ، وقبل ذلك سيروى قصته مع حواء الغريب.
حين توقف آدم التائه عن الكتابة كانت أمامه رزمة كبيرة من الأوراق . سأل نفسه : أمن المعقول أنه خلال ثماني ساعات كتب كل هذه الفصول الغريبة .. ؟ أمن المعقول أن الأحداث مستقبلا ً ستكون كما تجسدت في رؤيته لها .. ؟ إلا أنه انتبه لأسئلة تخص فن كتابة الرواية ، إذ سأل نفسه : لماذا يبحث عن شخصية رئيسة تكون مهنتها الكتابة أيضا .. ؟ لماذا يريد للكاتب آدم البغدادي أن يكون قناعا ً له .. ؟ لماذا لا يستطيع أن يكتب عن نفسه ، وعن تجربته ، وعن حواء المؤمن ، مباشرة ، دون أن يلجأ لشخصية كآدم البغدادي ، ليكتب قصته .. ؟ ومن هو آدم البغدادي هذا .. ؟ أليس هو آدم التائه نفسه .. ؟
ترك طاولة الكتابة ، وصعد إلى غرفته في الطابق الأعلى . ألقى بنفسه على السرير وغاب في نوم عميق.
* * *
كان الهاتف يرن في الطابق الأرضي ، وظل يرن لمرات عدة ، لكن آدم التائه كان غارقا ً في النوم . حين أفاق في المرة الأخيرة على رنين الهاتف ، وحاول ، وهو في الممر ، ما بين النوم واليقظة ، أن يصل إلى الهاتف في الطابق الأرضي ، توقف الرنين . التفت إلى الساعة الموجودة على جانب من

جدران المطبخ ، فرأى أنها تجاوزت الثانية والنصف بعد الظهر ، ماذا .. ؟ أنام أكثر من ثماني ساعات .. ؟ سأل نفسه . مضى إلى النافذة المطلة على خارج المبنى فرأى أن المطر يهطل بشدة.
أعد فطوراً لنفسه . أحس وكأنه صحا ، ليس من نومه فقط ، وإنما من سباته الوجودي .. سأل نفسه عن سبب وجوده في لندن .. ؟ استرجع كل التفاصيل مع إيفا ليسنج ، وقضيتها مع زوجها ، وتفاصيل زيارته لحواء صحراوي ، ووعدها بزيارته اليوم ، لكنها لم تأت .. فكر ، ربما هي التي اتصلت به ، بينما كان هو نائماً.. لكن ثم ماذا .. ماذا سيفعل في لندن .. ؟ إلى متى سيبقى في شقة إيفا ليسنج .. ؟ أتبقى هي التي تتحمل مصاريف إقامته .. ؟ أليس من الأفضل أن يحاول عن طريقهما ، هي وحواء صحراوي ، أن يجد فرصة عمل ، كي يستطيع أن يستقل بنفسه ، ويؤجر لنفسه شقة صغيرة ، أو حتى غرفة في سكن ما .. ؟ لكن ماذا يعمل .. ؟ أية فرصة عمل يمكن أن يجدها هنا .. ؟ العراقيون والعرب عموماً، في لندن ، يتنافسون من أجل أن يجدوا من ينشر لهم مقالة في الصحف التي تصدر هنا .. ثم أنه لا يعرف أحداً هنا ، وكل هذا الوسط مبني على العلاقات الشخصية ، والولاءات الشخصية والسياسية .. هل عليه أن يرجع إلى ألمانيا .. ؟ وماذا سيفعل هناك .. ؟ لا .. هو هناك يحصل على المساعدات الإجتماعية .. بالرغم من أنه يملك مبلغا جيدا حمله معه من العراق .. ولم يخبر به دائرة الأجانب في ألمانيا .. ثم .. أليس من الأفضل أن يغادر لندن فجأة .. ؟ أن يحمل حقيبته الصغيرة وأوراقه ويذهب إلى المطار ، راجعاً إلى ميونخ .. ؟ لكن لماذا هو منقبض النفس من وضعه الحالي ، بينما لم يمض عليه إلا يومان في لندن .. ؟ ألم يبدأ هنا كتابة الفصول الأولى من روايته الجديدة .. ؟ ثم ألا يرى أن إيفا ليسنج تحاول من قلبها أن توفر له الراحة ، وهي سعيدة بوجوده معها .. ؟ لكن ماذا كانت تقصد حواء صحراوي حينما علقت بأن إيفا لا تحب سوى نفسها .. ؟ أيكون هو واهماً بطيبتها وعفوية تعاملها معه .. ؟ أتكون حواء صحراوي تعرفها أكثر ، وبالتالي قالت له ذلك .. ؟
لم يكن آدم التائه يعرف ماذا يفعل . لا إراديا اتجه إلى طاولة الكتابة ، وجلس على كرسيه ثم أخذ رزمة الورق التي خط عليها الفصول الأولى من روايته ، وأخذ يقرأ ما كتبه .. لم يستمر في القراءة طويلاً إذ رن الهاتف ، فقام ليرد . جاء صوت إيفا ليسنج دافئا وفيه نبرة قلق وهي تسأله عن سبب عدم رفعه لسماعة الهاتف ، فذكر لها بأنه بقيّ إلى

الساعات الأولى من الصباح يكتب في روايته الجديدة ، لذا تأخر في النوم ، ولم يسمع الرنين ، فأخبرته بأنها حاليا في البيت ومعها حواء صحراوي ، وستمر هي عليه بعد ساعة ، ليخرجا معا ً إلى إحدى المطاعم الجيدة التي ترتادها هي ، وربما ستأتي حواء صحراوي أيضا . ارتبك من تداخل سير الأحداث هذا ، فالإتفاق كان بأن تمر حواء صحراوي عليه في الشقة ، لم تفعل ، بل ذهبت إلى إيفا ليسنج .. ؟ أترى هناك إتفاق بينهما .. ؟

رجع إلى طاولة الكتابة ، وجلس حولها . أخذ يقرأ الفصول التي كتبها . انتبه إلى أنه قد كتب أربعين صفحة . وحين انتهى من القراءة ، أخذ قلمه وواصل الكتابة في فصول جديدة . كان يشعر وكأن نبع تفجر بقوة في أعماقه.

مضت أكثر من ساعة ونصف وهو مستغرق في الكتابة . لم يكن يعرف كيف يتشكل مسلسل الأحداث أمامه ، فلم تكن لديه خطة لسير الحكاية ، وإنما لديه تيارات عاصفة من الأفكار والتجارب الغامضة ، وحين يمسك بالقلم ينسى كل شيء وتنهمر الكلمات ، الحوارات ، وكأن مهمته هو تدوين ما ي ُملى عليه ، لكن ممن .. ؟

انتبه لصوت المطر الذي أخذ يضرب النافذة خلفه في أقصى الصالة . توقف عن الكتابة . أحس وكأن هاتفا ً يطلب منه النهوض والتوجه إلى النافذة . لم يفهم لماذا عليه التوجه إلى النافذة . نهض من مكانه ، كالممسوس ، وتوجه إليها . حين وصل إليها ألقى نظرة إلى حديقة المبنى الخاصة بسكانها . كان المطر ينهمر ، لكنه انتبه بأن هناك من يقف في الحديقة . أزاح الستارة قليلا ً ليرى . أحس بالذهول . لم يكن يصدق ما يرى . كانت إيفا بيرغمان تقف حاملة مظلة واقية من المطر ، ترتدي معطفا ً شتويا ً، تقف رافعة الرأس ، تنظر إليه باسمة .

إرتد للوراء خوفا ً، صار وراء الستارة . أعاد البصر كرة أخرى . كانت هي حقا ً، لم يشتبه له ولم يتوهم . فجأة ، ف ُتحت بوابة المبنى ، ودخلت سيارة ، عرف أنها سيارة إيفا ليسنج . إنسحبت إيفا بيرغمان ، صارت في ظلال إحدى الأشجار . طوت مظلتها المطرية . واختف خلف الشجرة.

كان هو واقفا ً أمام النافذة حينما سمع رنين جرس الباب ، وفي الوقت نفسه حركة الباب وهو ي ُفتح . دخلت إيفا ليسنج . نزعت معطفها المطري ، وعلقته عند الباب . أقبلت عليه بلهفة ، محاولة أن ترسم البشاشة على وجهها . احتضنته . أحس بجسدها يرتعش بين ذراعيه . سألها:

- ما بكِ.. أتشعرين بالبرد..؟

نظرت في عينيه وقالت:
- قليلاً.. هذا الجو الممطر يبعث الكآبة في النفس..
- هل رأيت شيئا ما في الحديقة، وأنت تدخلين إلى المبنى..؟
- لا.. ماذا تقصد..؟
- أقصد هل رأيت أي شخص في الحديقة..امرأة ما تحمل مظلة.. مثلاً..؟
- لا.. لم أرَ احداً.. لم يكن هناك أحد..
نظرت إليه متسائلة ، وقالت:
- هل هناك شيء ما..؟
- لا..لكن هُيئ لي أني رأيت شخصاً ما يقف في المطر..
نظرت إليه ، ثم قالت باسمة:
- لا تقل لي إن أشباحك قد تبعوك إلى لندن..؟
- لا أعرف بالضبط..
نظرت إليه متفحصة ، ثم جلست على الصوفا ، وهي تقول:
- هل تحب الأكل الشرقي أو الأوربي..؟
- أحب الأكل الشرقي..لكن لا فرق عندي..
- يمكننا الذهاب إلى مطعم هندي، أو صيني، أو إيطالي أو بريطاني..
- أنتِ أدرى بما تختارين..
- إذاً لنذهب هذه المرة إلى مطعم صيني..هل أنت جاهز..؟
- تقريبا..
- لم تحدثني عن روايتك الجديدة..
- سأحكي لك كل شيء..
قال ذلك واتجه إلى الطابق الأعلى . بينما كان هو على السلم قالت له:
- سأتصل بحواء أيضا كي تلتحق بنا إلى هناك..
دخل آدم التائه إلى غرفة الحمام ، بينما تناهى إلى سمعه صوت إيفا ليسنج وهي تتحدث مع حواء صحراوي ، لتخبرها عن عنوان المطعم: . China Tang at The Dorchester .. . أحس بفرح غامر يجتاحه ، لكنه ظل متوجسا ًً من زيارة حواء صحراوي لها بدلا ًً من المجيء إليه كما وعدته.
كانت السماء لا تزال تمطر حينما وصلا ذلك الفندق – المطعم الذي بدا من الظاهر ليس فخما ًً، لكنه من الداخل كان مذهلا ًً في أصالته . صالات متنوعة ، وأعمدة من الرخام البرتقالي ، وصوفات ومقاعد منجدة بأفخر أنواع الأقمشة الخضر ، والزرق والحمر ، حسب طبيعة القاعة وهدف

استخدامها . جلسا حول مائدة في زاوية مريحة ، يمكن للجالس هناك أن يرى معظم رواد المطعم . في ذلك الوقت كانت القاعة شبه فارغة . أخذ يحدثها عن روايته التي بدأها ، وعن سير أحداثها ، فسألته:

- ما هي فكرتك الأساسية التي تهيمن على عالم الرواية .. ؟

- ليست هناك فكرة واحدة .. والحقيقة أنا أفكر بشيء ما قبل الكتابة ، لكني حينما أبدأ الكتابة أنسى ما فكرت فيه وخططت له ، وأدخل في عالم الشخصيات وما تفكر فيه هي .. الذي أنا متأكد منه هو حالة الشك التي هي ما وراء القول في ما أكتبه .. أقصد أنا لا أعرف أين هي حدود الواقع .. وأين هي حدود اللاواقع .. ؟ لا أريد القول حدود الوهم .. لأني لا أعرف إن كان ما يمكن تسميته بالوهم هو الواقع الحقيقي .. ؟ وأن الذي نعيشه كواقع ، ونعده حقيقة وجودنا ، ليس سوى الوهم .. ؟

- هل تعتقد مثلا أنني التي معك حاليا .. لستُ سوى وهم .. ؟

- لا أقصد ذلك بهذا المعنى .. إنما أقصد ربما كل هذه الحياة التي نعيشها ليست سوى ما يشبه الفيلم السينمائي .. أقصد كل هذا العالم من بيوت وبحار وطبيعة وحركة ، وقتال ، وصراع ، وحب ، وكل الأحداث التي نراها ونتشارك معها حسيا وعاطفيا وفكريا ، ليست في النهاية سوى ضوء يتحرك على شاشة بيضاء .. أي أن حياتنا هي فيلم نراه ، ونحن ربما نيام الآن ، أو نحن في مكان آخر.. !

- لكن هذه فكرة غريبة ، ومجنونة .. أنت تذكرني بهؤلاء الفلاسفة الذين كانوا ينكرون وجود العالم المادي الموضوعي ، ويعتقدون أنه من خلق حواسنا ليس أكثر..

- أعرف هذا التيار الفلسفي .. الذي يُسمى بالمثالية الذاتية .. لديكم فيلسوف بريطاني شهير تبنى هذه الفلسفة .. أقصد بركلي..

- قرأت ذلك .. لكن هل تعتقد أنك حينما تتحدث معي الآن فأنك تتحدث مع نفسك .. وأنني غير موجودة .. وإنما أنا من صنع خيالك .. ؟

- لا .. لا .. لا أقصد ذلك .. كيف أشرح لك ذلك .. أنا إنسان وجودي ، بالمعنى المادي ، والفيزياوي ، لكن ثمة عوالم متداخلة مع عالمنا .. عوالم مجسدة ومصورة لكنها غير مادية ، مثل الصورة التي تتوالد في الذهن ، وداخل الجمجمة .. فهي غير موجودة ماديا لكنها موجودة ومحسوسة وكأنها مرئية .. أقصد..

- شخصيا أؤمن بوجود عوالم موازية.. لقد حدثتك عن ذلك في ميونخ..

- نعم..أذكر ذلك..

في هذه اللحظة بالذات كان نادل المطعم قد تقدم منهما وهو يحمل قوائم الطعام . انقطع الكلام . أخبرته إيفا ليسنج بأنهما ينتظران شخصا ً آخر . سألها النادل إن كانا يودان أن يشربا شيئا ، فطلبت قنينة نبيذ . وبينما هي تتحدث مع النادل ، دخلت حواء صحراوي القاعة . كانت في أبهى صورة.

عند دخولها أثارت انتباه الجالسين على الطاولات البعيدة إذ رأوا امرأة شرقية الملامح أنيقة الملبس ، تضع على رأسها حجابا ً، تدخل هذا المكان وحدها ، وانتبهوا حينما توجهت إلى حيث إيفا ليسنج التي عرفها بعضهم فأخذوا يتهامسون في ما بينهم.

بينما كانوا منهمكين بتناول الطعام ، ويتحدثون عن رواية آدم التائه التي بدأ بكتابتها ، ارتسمت ملامح المفاجأة غير السارة على وجه حواء صحراوي . انتبه آدم التائه وإيفا ليسنج لذلك ، فالتفت كل منهما نحو الجهة التي كانت حواء صحراوي قد نظرت إليها ، فانتبها إلى وجود رجلين شرقيين أنيقين ، أحدهما ضخم الجثة ، ذو كرش كبير ، أما الآخر فكان رجلا ً أسمر ، وسيما ً، قاسي الملامح ، عيناه واسعتان ، لكنهما تشعان غضبا وقسوة . همست حواء صحراوي لهما قائلة بإنزعاج واضح:

- هذا زوجي السابق وابن عمه..

نظرت إيفا ليسنج لهما بفضول وسألتها:

- من منهما هو زوجك السابق..؟ الوسيم أم الرجل ضخم البطن..
- الوسيم..
- إنه وسيم جداً.
- لكنه قاس جداً..

أحس آدم التائه بإرتباك حينما ركز الرجلان النظر إلى طاولتهم ، وعليه بالتحديد ، وأخذا يتهامسان . ثم فجأة نهض الرجل الوسيم متجها إلى خارج القاعة ، بينما ظل الرجل ضخم البطن جالسا . ولم تمض دقائق حتى عاد الرجل الوسيم . كان وجهه أكثر انبساطا ً، وأشار بيده إلى النادل الذي كان متجها نحوهما وبيده قائمتي الطعام.

توتر جو الجلسة ، وكانت حواء صحراوي تسعى جاهدة أن تخفي توترها ، إلا أنه كان واضحا للجميع بأن البقاء أطول لم يعد ممكنا َ. لم تستمر الجلسة طويلا ً، فما أن انتهوا من الطعام ، حتى انتقلوا إلى قاعة المشروبات ، وهناك طلبت المرأتان القهوة ، بينما طلب هو شايا ً. ولم يستمروا بالجلوس طويلا ً، إذ كانت حواء مرتبكة ، فقرروا مغادرة المطعم

، والتوجه إلى الشقة التي يعيش فيها آدم التائه في ريتشموند . نهض آدم التائه وحواء صحراوي ، بينما كانت إيفا منشغلة بتوقيع ورقة الحساب ، همست له بالعربية:

- اتصلت بك اليوم ولم تكن موجوداً.. ظننتك عند إيفا فذهبت إليها..
- كنت نائما..ولم أسمع رنين الهاتف..
- سأمر عليك غداً في الوقت نفسه.. لا..سأتصل بك ليلاً ونتفق..

ما أن وصلت إيفا إليهما حتى أخذا يتكلمان بالإنكليزية ، فقالت حواء وكأنها تبرر حديثهما بالعربية:

- يريد الأستاذ آدم معلومات عن زوجي السابق ليستفيد منها في روايته..لا أدري ماذا سيكتب عني حتى يريد أن يدخل زوجي السابق في نصه..؟

ابتسمت إيفا ليسنج ، وقالت:

- هذا ما سألته أيضا ولم يجبني..؟
- أنا لا أعرف لحد الآن ماذا سيأتي.. أنا ما زلت في الفصول الأولى.. ثم أني أحاول مواصلة بعض شخصيات روايتي السابقة المرأة المجهولة – متاهة آدم..
- الرواية التي لم تنشر بعد..؟
- نعم

كان سائق إيفا ليسنج ينتظرهما ، بينما كانت سيارة حواء صحراوي البنية اللون ، الحديثة جدا ًومن موديل بنتلي غير شائعة الإستخدام في ألمانيا ، بدون سائق . صعدا هما السيارة ، وتوجهت الأخرى لسيارتها . وأنطلقوا . لم تنتبه حواء صحراوي إلى أن هناك سيارة تتبعها ، فحينما انطلقت من موقف سيارات الفندق لم تتبعهما أية سيارة.

حينما وصلوا شقة ريتشموند ، أصرت حواء صحراوي أن تعد القهوة والشاي بنفسها . ربما كانت تبحث لنفسها عن فرصة لترتب الأفكار المضطربة التي أخذت تتلاطم في أعماقها . كان آدم التائه وإيفا ليسنج قد أخذا يتحدثان عن قرارها بصدد المسلسل الذي سينتجه التلفزيون الألماني ، فأبدت إيفا ليسنج موافقتها ، وقالت له:

- لقد قرأت السيناريو بشكل جيد.. إنه، بالرغم من كونه مسلسلاً وليس فيلما، بمعنى إمكانية السرد الدرامي الهادئ، والتوغل في التفاصيل، إلا أنه يختصر الكثير من تفاصيل الرواية، ويركز على علاقة كاترين وهيثكليف ومديرة المنزل نيلي، التي تروي القصة الحزينة..

قال آدم التائه بحرارة ، وإهتمام:
- أنا أحب هذه الرواية جداً.. وقد شاهدت معظم الأفلام المأخوذة عنها، بل وتوقفت عندها في روايتي المرأة المجهولة - متاهة آدم.. وأعتقد أن فيها الكثير من المواقف النفسية العميقة..لكني أعتقد أن التوقف عند شخصية نيلي، أو مسز دين كما جاء في الرواية، محاولة ذكية..لأن الرواية، بكل تفاصيلها، تُحكى من خلالها..أي من خلال رؤيتها وإسقاطاتها الشخصية، لاسيما وهي تعترف بأنها كانت تكره هثيكليف منذ أن رأته أول مرة، وأنها كانت تعذبه وتقسو في معاملته دون أن تتلقى تأنيباً أو تنبيها من سيدتها. أنا شخصيا أرى أنها رواية عظيمة تبين المآسي الناتجة عن سوء الفهم في الحياة..وما يقود إليه.. وأن معظم صراعاتنا في الحياة، والكثير من مواقفنا الفكرية والسياسية والإجتماعية، هي نتاج سوء فهمنا الكبير للأشياء.. وللغة.. ولنصف القول..

انتبهت حواء صحراوي للحديث بالرغم من إنشغالها مع نفسها ، وراقها الحديث ، فأخذت تتنصت له ، بل وانجذبت للمشاركة فيه ، فقد مسها مسألة سوء الفهم ، فحملت صينية عليها أكواب القهوة والشاي ، وأقبلت وهي تسأل:

- هذه رؤية ممتعة..لكن لم أفهم ما تقصده عن دور سوء الفهم في الرواية..؟

- أقصد..حينما طلب آدغار لينتون يد كاترين، وجاءت الأخيرة إلى المطبخ لتحدث المربية نيلي عن فرحتها بزواجها من آدغار لينتون، وحين سألتها عن سبب زواجها منه، قالت أنه شاب، وجميل وغني..أما زواجها من هيثكليف فأنه يحط من شأنها.... حينها كان هيثكليف يجلس خلف مقعد طويل عالي الظهر، بحيث لم يره أحد..وما أن سمع تلك الكلمات حتى غادر المكان.. بنى موقفه على تلك الجملة التي لم تكتمل، لأن كاترين واصلت حديثها بأنها تحب هيثكليف، وأنه ليست هناك قوة تفرقهما، وأنها تفضل أن يهلك آل لينتون جميعهم قبل أن ترضى بترك هيثكليف.. وأنها تقبل أن تتزوج آدغار لينتون لكي ترفع بعد ذلك من شأن هيثكليف وتخلصه من سلطة أخيها.. هيثكلف بنى موقفه الرهيب منها، وقسوته المرعبة في الإنتقام، على سوء الفهم لا أكثر.. وفي الحياة هناك الكثير من سوء الفهم الذي يجرنا إلى مواقف رهيبة..

صمتت حواء صحراوي مفكرة في ما قال ، وكأنها تحاول أن تطبق تلك الفكرة على بعض تجاربها . جلست إلى جانب وهي تضع الصينية على

الطاولة في الوسط . علقت إيفا ليسنج قائلة:
- في السيناريو المعد للمسلسل هناك تفسير نفسي للرواية، بأن كاترين، أو كاتي كما تُسمى في معظم تفاصيل الرواية، لم تكن تعي رغباتها الغامضة، وشهوتها الخفية للرجال، في تلك الأصقاع البعيدة، فلم يكن أمامها سوى هيثكليف وآدغار.. بحيث أنها لا تريد أن تفقد أي منهما..كان لا يروقها أي لقاء بينهما، لأنها كانت ستحتار عن أي منهما ستدافع إذا ما بدأ التنافس بينهما..بالرغم من أنها بعد عودة هيثكليف، وبعد أن تزوجت آدغار، كانت لا تستطيع أن تتنازل عن حبها الصريح لهيثكليف حتى أمام آدغار، الذي كان مظهره ناعما أمام الرجولة والحضور الجسدي لهيثكليف.. كانت تسوقها رغبة جنسية خفية في ذلك، لاسيما وأن تجاربها الجنسية الأولى كانت معه.. وهذا ما يريد المسلسل أن يركز عليه..
- ربما هذا الأمر صحيح لحد ما.. لكن أنت ما رأيك..؟ هل أنت موافقة على هذا التفسير؟
- أعتقد أنه تفسير ممتع أيضاً..
- لكني أعتقد أن جميع شخصيات الرواية معقدة، وتحتمل التأويل.. لاسيما شخصية هيثكليف.. ما هو مثير في الرواية هو شخصية كاترين، التي أرادت أن تحتفظ بالإثنين، بزوجها آدغار، التي تحبه، وقالت إنها تحب تراب الأرض التي يمشي عليها، والهواء الذي يتنفسه، وأيضا أن تحتفظ بهيثكليف الذي تعشقه بشكل صريح، ولا تستحي من زوجها أو أخته في أن تعلن ذلك.
نظر الثلاثة إلى بعضهم البعض ، بصمت ، وكأنه بذلك كان يشير لحالة كل منهم ، فإيفا ليسنج تريده وتريد حواء صحراوي ، وهو يريدهما معا ً، وحواء صحراوي تريده لها ، لكنها لا تريد أن تخسر إيفا ليسنج أيضا ً.
ابتسمت حواء صحراوي ، محاولة أن تخترق الصمت المهيمن ، فقالت:
- ربما هو الصراع بين العقل والقلب..قلبها يريد هيثكليف وعقلها يريد آدغار..؟
نظر آدم التائه إليهما ، ثم ارتد لأعماقه وقال ، وكأنه يحدث نفسه ، لكن بصوت مسموع جدا ً
- العقل والقلب..هذه ثنائية وهمية.. لا أعتقد بوجود صراع بين العقل والقلب أبداً.. فالعواطف، والمشاعر، والرغبات، والمتعة، والألم مصدرها العقل، وبدقة أكبر مصدرها الدماغ.. القلب ليس سوى عضلة هائلة تنبض وتضخ الدم في الجسم، وهي سر ديمومته، لكنه لا ينتج العواطف والمشاعر

أبداً..فهو ربما ينقبض، وينبسط، ويخفق أكثر، نتيجة تأثره بما يجري في الدماغ.. لكنه ليس مصدراً للألم والفرح والمشاعر، والحب، بدليل أننا حينما يتم تخديرنا أثناء العمليات الجراحية، يستمر القلب بالخفقان، ويقوم بدوره في قيادة الدورتين الدموية الكبرى والصغرى.. إلا أن مراكز الإحساس والألم وردود الأفعال في الدماغ تكون قد خُدرت.. هذا يعني أن الدماغ هو مركز الأحاسيس وليس القلب..بل وحتى عندما ننام يوميا..القلب يستمر في وظيفته، بيد أننا نكون قد فقدنا أي ارتباط بالعالم الخارجي..حتى لو كان الحبيب نائماً إلى جانبك...أليس كذلك؟ إذن.. هذه الثنائية العجيبة بأن القلب مركز العواطف والعقل مركز الفكر هي من الأوهام والأخطاء البشرية الشائعة التي تم بناء فلسفات الكون والأديان والأخلاق عليها..

فجأة سألته حواء صحراوي:

- وماذا عن الحب..هل الحب مركزه في الدماغ أيضا..؟

- نعم.. أليس صدمة الحب الأولى تبدأ من النظرة الأولى..؟ وهذا يعني بأن العصب البصري ينقل الصورة المحددة إلى الدماغ..الذي يستقبلها فتجري تياراته حسب حالة التقبل..فإذا كانت إيجابية فتسري تيارات الشعور عبر الجهاز العصبي إلى بقية أنحاء الجسد..بما فيها القلب الذي يبدأ بالخفقان أكثر.. أنا لا أريد أن أحيل كل شيء إلى كيمياء الجسد..لكني أقصد أن كل شيء له علاقة بالأحاسيس والمشاعر، يبدأ من بوابات الحواس التي تقود إلى الدماغ، الذي يبدأ بالتفاعل، ويطلق ردود أفعاله.. السلبية أو الإيجابية.. بالرغم من أني أعتقد بأن ثمة لغزاً في أننا نتقبل هذا الشخص ولا نرتاح لآخر.. ألم يحصل لديكما أن شعرتما بالراحة لرؤية شخص ما دون أن تعرفاه، وربما أحببتماه، علماً، ربما يكون ذاك الشخص في الواقع سيئا، والعكس صحيح، ربما تريان شخصاً لأول مرة لكن لا ترتاحان إليه، وربما تكرهانه، لمجرد إلقاء نظرة واحدة عليه، علماً أنكما لا تعرفانه ولم يؤذِكما ذاك الشخص بشيء، بل وربما يكون إنسانا خيراً وفي منتهى الطيبة.. أي أن لغز تقبلنا للجميل والقبيح والخير والشر، مسألة محيرة..وغامضة.. وأحياناً أحس بها ذات أبعاد قدرية..

كانت إيفا ليسنج مستمتعة بالحوار ، وكانت تنظر إليهما بعينين متفحصتين . أحست بأن آدم التائه كان يقصدها بقوله ، حينما تحدث عن كاترين بطلة رواية مرتفعات وذرنغ ، ووجدت أن هذا ربما سيساعدها في إيجاد مفتاح لفهم الشخصية والتمكن من آدائها بشكل مبدع .. فقالت له:

- وجهة نظرك عن كاترين لينتون، ربما ستساعدني في فهم شخصيتها

أكثر..لاسيما ملاحظتك عن لغز محاولتها أن تحتفظ بزوجها آدغار وكذلك بحبيبها هيثكليف، علما أنها تعرف أن كل منهما يكره الآخر.. وأنهما متناقضان.. فربما المطلوب هنا حل اللغز.. أليس كذلك..؟ ماذا تعتقد..؟ لماذا تريد أن تحتفظ بالإثنين..؟ ما هو سر هذا اللغز..؟

نظر آدم التائه في عينيها مباشرة ، وقال وعلى شفتيه ما يشبه الإبتسامة:

- إبحثي، إذن، في أعماق نفسك عن ذلك..؟

نظرت إليه قائلة برجاء:

- أتساعدني في ذلك..؟

- لا أدري..أتراني أستطيع مساعدة نفسي حتى أستطيع مساعدتك..؟ ربما علينا مساعدة بعضنا بعضاً..؟

- وأنا..؟

سألت حواء صحراوي بدلال . التفتا إليها ، وقال آدم التائه:

- وهل أنت ببعيدة عما نتحدث فيه..؟

- لا أدري..

- عليك أن تدري أولاً. أليس كذلك..؟

ابتسمت إيفا ليسنج ، وقالت:

- كثرة الفكر تجلب كثرة الهم..

ابتسم آدم التائه ، وقال:

- كل شيء باطل وقبض ريح..

فتدخلت حواء صحراوي بشكل مرح بينهما ، وقالت:

- إذا كان كل منكما يقول مقولة، فأنا الشكسبيرية، أقول لكما: ما الحياة إلا ظل يمشي، ممثل مسكين يقضي ساعته على المسرح ثم يمضي.. حكاية يرويها معتوه ملؤها الصخب والعنف ولا تعني أي شيء..

ابتسم آدم التائه وقال مبتسما ً

- لقد قلت القول الفصل.. والكلمة الأخيرة. الحياة.. حكاية يرويها معتوه ملؤها الصخب والعنف.. ولا تعني أي شيء..

وابتسموا جميعا ً

آدم البغـدادي : لقد حاولت قطع الفصل حينما كان يتحدث عني، لأثبت لآدم التائه بأني أنا الكاتب الأصلي وليس هو..ليس هو الذي سيكتب عني نصاً، وإنما أنا الذي أوجهه كما أشاء.. فكل كلمة يقولها، أنا الذي أضعها على شفتيه..هل يعتقد أنه يستطيع أن يتمرد إلى هذا الحد.. ؟ صحيح أنني أمنحه حرية الكلام والتصرف، لكن هذا لا يعني أن يتمرد ضدي، ويستقل

عني !!.. أنا أعرف شخصيات في تاريخ الأدب استقلت عن كتّابها، حتى صارت حية أكثر منه، بل تُذكر أحيانا دون ذكر خالقها، مثل هاملت، ودون كيخوته، مفستوفل، الملك لير، عطيل، أوفيليا، راسكولنيكوف.. إيفان كارمازوف..وغيرهم ، لكن آدم التائه ليس من هؤلاء..سأحاصره..سأقضي عليه إذا ما أراد التمادي أكثر.. سأنهي الرواية. لكنه يبدو ذكياً، فقد فاجأني بأنه يريد الاستمرار بمتابعة مصائر روايته (المرأة المجهولة – متاهة آدم).. إنه يعتقد بأن حواء الصايغ لم تُقتل، وانما كانت حجة لإلقاء القبض على المهندس آدم المطرود وأصدقائه.. أي انه يفكر بإعادة حواء الصايغ إلى مسرح الحياة.. لنرى كيف يستطيع ذلك..وهل يستطيع ذلك دون موافقتي، ومساعدتي له في ذلك.. ؟

* * *

إستاءت حواء الزاهد من حواء صحراوي لأنها لم تذهب إلى آدم التائه في شقته كما وعدته ، لكن ما ذنبها إذا كان آدم التائه نائماً.. وأخذت تحدث نفسها ، أهي الغيرة التي دفعتها للذهاب إلى إيفا ليسنج .. ؟ أكانت تظن أنه عندها .. ؟ غريبة نفسية المرأة .. لكن لماذا غضب آدم البغدادي هذا الغضب من آدم التائه .. ؟ أيعتقد أنه حينما ينهي الفصل فأنه يعاقب آدم التائه .. ؟ ألا يدرك بأنه يعاقب نفسه .. أم أنه يغار من بطله الذي وضعه بين امرأتين هائلتي الجمال .. ؟ ربما هي شطحة من شطحات الكتاب .. لا أكثر .. ثم أن التفكير بأن حواء الصايغ لم تمت هي فكرة مفاجئة وغريبة حقاً..!! لقد قرأت مخطوطته تلك عندما كان حبيبي آدم المحروم حياً.. لقد أحببت شخصية حواء الصايغ .. لكن كيف يعيدها إلى الحياة وقد تم إعدام حبيبها المهندس آدم المحروم بسبب ذلك .. ؟ أكان هناك لقاءات بينهما لم يُكشف عنها في تلك الرواية ، وأن زوجها آدم الولهان عرف بهذه اللقاءات ، فدبر له مؤامرة مع رجال السلطة ، الذين على رأسهم المحقق آدم التكريتي .. ؟ ربما .. ؟ هل سيكتب آدم التائه تلك الرواية حقاً.. ؟ ثم أنهم يتحدثون عن رواية (مرتفعات وذرينغ) التي لم أقرأها أنا بعد .. لكن كيف ستتضح معالم هذه العلاقة المعقدة بين هؤلاء الثلاثة .. سنرى ذلك..

بوح الحائر .. بسمة الشيطان

مرت ثلاثة أسابيع على وجود آدم التائه في لندن ، قضاها في كتابة نص روائي ليس بالكبير الحجم ، لكنه بالنسبة له كان نصاً يقود لنصوص أخرى . كان يلتقي بشكل يومي بإيفا ليسنج ، وبشكل متواصل بحواء صحراوي ،

ودائما بحضور صديقتها ، فبرغم وعودها المتكررة له بزيارته ، ألا إنها لم تلتق به على انفراد ، ولم تزره في شقته قط ، وإنما كانت تتصل به بشكل دائم في وقت متأخر جدا ًمن الليل ، وأحيانا في الساعات الأولى من بعد منتصف الليل ، وتظل تتحدث معه طويلا ًفي شتى المواضيع ، وكثيرا ًما كانت تتحدث معه وهي في سريرها ، وأحيانا كانا يقتربان من الملامسة الشفاهية عبر الهاتف ، وحينما يسألها عن وعدها بالمجيء كانت تتضاحك ، وتسأل إن كان الإتصال الهاتفي الليلي لا يكفيه؟ وأحيانا كانت تخبره بأنها تخاف من نفسها أن تنجرف معه إلى دروب تضيع فيها ، وأحيانا تعلل ذلك بخوفها عليه من غيرة طليقها ، الذي يبدو أنه لا يزال يتتبع حركاتها ، لأنه تواجد لأكثر من مرة ، في الأماكن التي تواجدوا فيها معا . ومرة تتحجج بأنها لا تريد أن تثير ريبة إيفا ليسنج .. وفي كل مرة تؤكد له بأنها أشد شوقا ًمنه إلى هذا اللقاء ، وأنها تحتاجه ، وأنه صار ضرورة في حياتها .. وهكذا .. لكنه لم يحظ منها سوى بالوعود.
كان واضحا له ، بأنها امرأة محرومة ، مّوارة بالحياة ، والرغبات المتأججة ، لكنها مقموعة بفعل التقاليد ، التي هي لا تتوانى ، إذا ما أتيحت لها الفرصة ، بأن تتحداها ، وتتجاوزها ، لكن على أن تحافظ على الواجهة الإجتماعية المحافظة لها ولأسرتها ، وأن يكون كل ذلك سرا ً.
مرة كشفت له عن خوفها منه ، بأنها إذا ما اقتربت منه لحد الإلتحام الجسدي فأنه سوف يستخدم ذلك في روايته ، ويسبب لها حرجا ً امام نفسها ، على الرغم من أنها تحب الأدب المكشوف الذي يتوغل في تفاصيل علاقة الروح بالجسد ، فوعدها بأنه لن يكتب عن هذا الجانب من علاقتهما إذا ما فكر بأن يكتب شيئا له علاقة بها ، كما أخبرها بأن الكتابة ليست تسجيلا ً لأحداث وتجارب ، فهي ليست تقريرا صحفيا ً، وإنما عالم متشابك من العلاقات ، والأقنعة ، والأشباح ، ولا يمكن أن نمسك بالوجه الكامل لصورة الشخصية الأصلية ، لأن الكاتب نفسه ، أحيانا لا يستطيع أن يفهم نفسه ، ولا من أين أتت هذه الشخصيات ، فهي أحيانا ً مجموعة مواقف ورؤى وتجارب لأشخاص مختلفين مروا في حياة الكاتب ، لكنها بالرغم من ذلك كانت تتهرب من اللقاء به ، بل وذات مرة حدثته بشكل صريح عن علاقتها بإيفا ليسنج ، وأخبرته بأنها تعرف أنه ضاجعها منذ مجيئة إلى لندن ، مرتين ، وقد عرفت ذلك منها ، وحينما أراد أن يتهرب من التصريح بذلك ، أكدت له بأن مرة كانت في ما بين الصالة ، والمطبخ ، والمرة الثانية في غرفة النوم ، وحينما سألها إن كانت إيفا ليسنج

تعرف بإتصالاتها الليلية معه ، نفت ذلك ، لكنه كان يشك في إجابتها ، إذ أحس بأنهما تخبران إحداهما الأخرى بكل شيء ، لكنه في هذا الأمر كان واهما ً، فحواء صحراوي ، شخصية ، برغم عذوبتها ، وصدقها ، وصراحتها ، إلا أن وضعها الإجتماعي ، وحصار التقاليد لها ، دفعها إلى أن تكون شخصية مراوغة ، تأخذ ولا تعطي إلا نادرا ً، وبإمكانها أن تكذب في أية لحظة ، وتنكر ، وقد أدرك ذلك من أول لقاء بينهما ، لكنه في ما يخص علاقتها بإيفا ليسنج ، لم يكن دقيقا ً، فقد قامت حواء صحراوي بإستدراج إيفا ليسنج بطريقة مراوغة للبوح عن علاقتها الجنسية بآدم التائه ، ولم تكن إيفا لتتحدث هكذا ، من باب تبادل الأخبار ، إذ أنها حصلت من إيفا ليسنج على أطراف الموقف ، واستكملته هي بتفاصيل من تصوراتها ، التي جاءت شبه متطابقة مع ما جرى في الواقع.

من خلال أحاديثه الليلية مع حواء صحراوي ، إكتشف عمقها الثقافي ، وأفكارها الفلسفية ، ورؤيتها للعالم ، وتحررها الشخصي ، بل وانفلاتها الأخلاقي الذي يصل إلى حدود الإباحة ، والجرأة التي لم يكن يتصور أنها تتناسب مع شخصيتها ، ورزانتها ، وإرستقراطيتها في التعامل اليومي . كانت تسأله أحيانا أسئلة محرجة جدا ً، فبينما كانا يبدآن الحديث في القراءات والأدب ، والحياة ، والأوضاع العربية ، ووضع الجاليات في لندن ، وسلوك النساء والرجال العرب والمسلمين فيها ، كانت تنتقل لتسأله عن تجاربه الحياتية مع النساء ، وماذا يعجبه في المرأة أكثر ، وأي النساء تعجبه ، وأي الأوضاع يعجبه في المضاجعة ، وهل يعجبه الفرج المشعر أو الحليق ، الكبير أو الصغير ، وهل يحب تقبيله ، هل يحب النهود الممتلئة أو الصغيرة الناعمة ، العجيزات الكبيرة أو المتناسقة ، وهل جرب الممارسة من الإست ، وهل جرب اللواط يوما ما في حياته ، وأسئلة مشابهة ، كان يتردد في الإجابة عنها مباشرة في البداية ، لكنه اعتاد في ما بعد أن يجيب ، وأحس أنها تتلذذ بأسئلتها ، بل وتثار وتتهيج من إجاباته ، وكان يحس ذلك من نبرة صوتها ، وتنفسها في التليفون ، إلى أن تجرأ على أن يسألها هو بدوره ، لكنها لم تكن تجيبه ، بل وتراوغ في الإجابة ، إلا في ما ندر.

ذات ليلة سألها عن علاقتها بالرجل العراقي ، هابيل الياسري ، الذي أحبته ، وارتبطت به سرا ً بعد طلاقها ، والذي قُتل من قبل زوجها السابق قابيل الموسى ، وطبيعة تلك العلاقة ، فأخبرته ، بأنها سبق وأن روت له حكايتها مع الرجل العراقي ، إلا أنها تجد راحة في البوح بأسرارها ، فالحائر يبوح بسره للغريب دائما ، فسألها إن كانت تعتبره غريبا ً، بينما قالت له

سابقا ًبأنه قريب منها جدا ً، بل صار وجوده ضرورة في حياتها ، فقالت له ، ربما ما قالته له ذات مرة كان في لحظة جنون ، والجنون ذروة العقل ، لذا عليه أن يألف حوارها ، ويألف جنونها ، لكنها أكدت له بأن كلما شعر المرء بالإستقرار والطمأنينة ، دبت الحياة في الرغبات المكبوتة ، وأنه منح حياتها شيئا ً من الطمأنينة ، وأن الرغبات المكبوتة في داخلها بدأت تبتسم ، لكنها ابتسامة الشيطان الماكرة ، لذا فهي تخاف من رغباتها ، فهي أحيانا ً تقبض على الأرواح التي تئن شوقا ً إلى السمو ، مثلما يمسك النسر بطريدته المسكينة . إن رغباتها تدفعها أحيانا لفعل أي شيء ليس له علاقة بالمنطق ، والضمير ، والتقاليد ، وهي تعرف نفسها جيدا ً، لأنها لا تريد أن تكون سجينة رغباتها ، فالحرية هي الروح.

في هذه الليلة الممطرة ، كان حوارهما طويلا ً. سألها عن إرادتها ، إذا ً، في صراعها مع رغباتها ، فأجابته بأن إرادتها هي قدرتها على أن تختار مع معرفتها سبب الإختيار ، لكنها لا تعرف ذلك دائما ، بل وتجبر على خيارات هي غير راضية عنها ، لكنها تعرف سبب اختيارها لها ، فتبدو وكأنها مارست ذلك بإرادتها .

قال لها ، بأن الإنسان يدرك ذاته من خلال الإختيار ، لكن الحرية حينما تكون خياراتنا غير مشروطة ، ثم سألها إن كان انتحارها هو عجز الإرادة ، أم تحقيق لإرادتها .. ؟ فقالت له إنها من خلال محاولتها الانتحار عبرت عن تمردها ، عن إرادتها في العصيان ولتمارس حريتها ، حتى ولو كانت بهذا الشكل المرعب .

قال لها إنها تذكره بشخصيات دوستويفسكي في رواية الشياطين ، فقالت له إنها مع الأسف لم تقرأ لدوستويفسكي سوى الجريمة والعقاب ، ومذلون مهانون ، وذكريات من بيت الموتى ، والأخوة كارامازوف . فسألها ، إذا كانت هي تمارس حريتها من خلال الانتحار ، لتؤكد عصيانها ، فلماذا لا تعيش حريتها من خلال تحقيق الإنسجام بين الروح والجسد .. ؟ فقالت له إن في أعماقها غابات مظلمة ، وشهوات آلآف النساء عبر العصور ، وإنها لو أطلقت لنفسها العنان ، فلربما ستجد نفسها في أسفل دركات الجحيم الأخلاقي ، الإجتماعي .

فاجأته بأنها أحيانا تود أن تعيش تجربة العاهرة ، تتمنى أن تكون عاهرة ليوم واحد على الأقل ، أن تكون مبتذلة ، وسوقية ، أن تُضرب وتهان أثناء ممارسة الجنس ، بودها أن تصرخ بملء فمها معبرة عن رغباتها الدفينة . أخبرته بأنها تتعرى أحيانا وتقف أمام المرآة لتتأمل جسدها المثير

وتأسف للقيود التي تكبله ، بل أنها تحب أن تتعرى ، وربما لهذا فأن النساء الشرقيات يشققن جيوبهن في حالات الانفعالات القوية والهستيريا ، لأنهم يعبرن عن رغبة خفية للتعري . أخبرته أنها حينما كانت متزوجة ، شعرت ذات مرة بالتجاوب ، وأخذت تلهث ، فتوقف زوجها عن الممارسة ، وأخذ ينظر إليها ليسألها عن سبب لهاثها ، وشبقها ذاك ، ونظر إلى ذلك باعتباره شيئا غير لائق ومبتذلا ً من طرفها ، فأخذت تكتم لهاثها ، بل وتذهب إلى الحمام بحجة الإغتسال ، لتريح نفسها بنفسها . أخبرته بأنه ، بالرغم من ولادته في أميركا ، ودراسته منذ طفولته إلى تخرجه من جامعاتها ، إلا أنه حينما يذهب إلى النوم ، يلبس الدشداشة ، ويمارس الجنس معها في الظلام ، وهي لم تعرف الرجل وجسده الحقيقي إلا مع صديقها القتيل . أخبرته عن رغباتها التي تبدو مبتذلة ، لكنها تبقى رغباتها الدفينة ، في أن يخترقها شيء عظيم ، أن تعرف اللذة في كل زوايا وفتحات جسدها ، تعيش لحظات مثل ما جرى مع الممثلة كيم باسنجر في أحد أفلامها الشهيرة ، بأن يسكب العسل على فرجها وثم لحسه باللسان ، أو أن تكون مع إيفا ليسنج ، ولو لمرة واحدة ، في الفراش ، لتجرب هذا الشيء بين النساء . بعد ذلك شكرته لأنه أتاح لها أن تتحدث بحرية عن رغباتها التي إذا ما سمعتها أمها منها فربما كانت ستصاب بالجلطة الدماغية ، أو إذا ما سمعها والدها فربما تبرأ منها إلى الأبد.

أخبرها هو بأنه أنهى روايته ، وأنه لم يكتب في حياته بهذه السرعة والسهولة مثلما كتب هذه المرة ، وأنه لشيء مذهل أن يكتب رواية تجاوزت المائة والخمسين صفحة في ثلاثة أسابيع . حينها أكدت له بأنها ستمر هذه المرة بشكل حقيقي ، وأنها تريد أن تقرأ الرواية ، حتى قبل أن تعرف بذلك إيفا ليسنج ، فأخبرها بأنه سيكون في إنتظارها .

فجأة س ُمع رنين جرس الباب ، توقفا عن الحديث ، قال لها أن جرس الباب يرن ، فسألته أن كان قد اتفق مع إيفا ليسنج أن تمر ، فأخبرها بأنه تحدث معها الساعة الحادية عشرة ، ولم يكن أي حديث عن إمكانية مرورها ، لاسيما في مثل هذا الوقت ، وقال لها يمكنها إغلاق الخط والإتصال بعد دقائق . كان الوقت حينها قد بلغ الثالثة فجرا ً. وكان هو متمددا ً على الصوفا ، ملتحفا ً ببطانية كان قد أخذها من غرفة النوم ، ليتدفأ بها حينما يتحدث بعد منتصف الليل مع حواء صحراوي.

ظن آدم التائه أن صوت رنين الجرس غير حقيقي ، إلا أن الرنين ، تكرر ، وبشكل أطول قليلا ً. لم يكن يصدق ما يسمع . انبثقت في ذهنه فكرة

أن إيفا ليسنج ربما تشك في علاقته بحواء صحراوي ، وأنها أرادت أن تتحقق من الأمر ، لكنه ما أن فتح الباب حتى فوجئ بوجود ثلاثة أشخاص ، ومعهم طليق حواء صحراوي ، وبدون مقدمات دخلوا الشقة ، ودفعوه أمامهم . أخرج أحدهم مسدسا ً كاتما للصوت ، وهدده ، بالإنكليزية ، أنه إذا ما صرخ فأنهم سيكتمون صوته بطلقة واحدة ، وأنهم لا يريدون منه شيئا سوى بعض المعلومات . شدوا وثاقه بحبل ، كان مع أحدهم لكنه لم ينتبه له أثناء دخولهم ، على الكرسي الذي يجلس عليه للكتابة . كان لا يعرف منهم إلا طليق حواء صحراوي . إثنان منهم كانا ضخمي الجثة ، ملامح وجهيهما تشي بأنهما من أواسط أوروبا ، من تلك الدول الإشتراكية التي تفككت ، فصدرت إلى العالم عصابات المافيا والعاهرات ، أما الآخر ، فكان أحمر الشعر ، وجهه مليء بالنمش.

وقف إثنان منهم على جانبي الكرسي الذي وضعوه ، بينما وقف أحمر الشعر خلف الصوفا التي جلس عليها قابيل الموسى . الرجال الثلاثة ، لم يكونوا يعرفون العربية ، إلا طليق حواء صحراوي ، الذي أخذ يحقق معه ، فسأله بالعربية:

- من أنت..؟
- أنا الدكتور آدم التائه

ابتسم قابيل الموسى ساخرا:

- أوه.. دكتور.. إذاً علينا أن نتحدث بهدوء دكتور..ماشي..

نظر آدم التائه إليه بتوتر ، وقلق ، فهو يعرف أنه قاتل غيور ، فأجاب:

- ماشي..
- إخبرني..من أين أنت..؟ وماذا تفعل في لندن..؟ بالرغم من أني أعرف من لهجتك بأنك عراقي..لكني أريد أن أتأكد من ذلك..
- أنا عراقي.. وأنا موجود هنا في زيارة..
- زيارة من..؟
- السيدة إيفا ليسنج.. وأعتقد أنك تعرف ذلك..فلقد إلتقيناك مرات عدة في المطاعم والمقاهي التي كنا نرتادها..
- أنت في زيارة الممثلة إيفا ليسنج أو لزيارة زوجتي..؟
- أنا لا أعرف زوجتك..هنا تعرفت عليها لأنها صديقة السيدة إيفا ليسنج..

غضب قابيل الموسى ، وشعت عيناه الواسعتان بأشعة غضب أسود ، وقال:

- لا تستغفلني أيها العراقي.. أنا أعرف أنك على علاقة مع زوجتي حواء صحراوي.. وأن وجود الممثلة إيفا ليسنج هو للتغطية على علاقتكما، لا

أكثر..
- هذا ليس صحيحاً..
- بل هذا هو الصحيح..إعترف فهذا الأمر أفضل لك..لأنك لو لم تعترف فسيكون مصيرك مصير العراقي الآخر قبلك..
- ما قلته هو الحقيقة.. ويمكنك أن تتأكد من ذلك..وقد نُشرت صورنا في الصحف أيضاً..
فقال قابيل الموسى وهو يكتم غضبا وعنفا ً:
- هل تستغفلني أيها العراقي..؟ أنا مولود في أميركا..وقضيت عمري كله في الغرب، وأعرف لعبة الإعلام.. هؤلاء القوم..وهؤلاء الممثلات يدفعن الأموال من أجل الكتابة عنهن، ونشر صورهن وأخبارهن..بل ويختلقن الفضائح وحتى الشتائم ضدهن من أجل أن يبقين دائما تحت الأضواء.. والممثلة إيفا ليسنج ليست إستثناءً.. لا سيما وهي لديها مشكلة مع زوجها، وعشيقها السابق، وقد وضعتك في الصورة معها، لأنها تريد أن تغيظ عشيقها السابق الذي ظهر قبل فترة مع ممثلة أخرى بعد أن ترك صديقتك، إيفا ليسنج.. لقد استخدمتك لمصلحتها لا أكثر..
- هذا غير صحيح..
فوقف قابيل الموسى غاضبا ، فانتبه الآخران لغضبه ، فلكمه أحدهما على رأسه . أحس آدم التائه بالألم ، وبدوائر حمر تتداخل أمام عينيه . وخلال ثوان تذكر ما كتبه هو عن بطله المهندس آدم المطرود في روايته المرأة المجهولة – متاهة آدم ، وكيف كان ي ُعذب من قبل آدم الضبع والمحقق آدم التكريتي ، لكنه حينها كان يعتمد على وثائق التعذيب وما رواه له بعضهم . نظر إلى الأمام فوجد قابيل الموسى ، قد جمع قبضته ليضربه ، لكنه لم يفعل لأن أحدهم كان قد قام بذلك . انتبه إلى أن أحدهم سأل قابيل الموسى بالإنكليزية:
- هل تريد أن ننهي الموضع هنا بسرعة أيها الرئيس..؟ أو نأخذه معنا إلى الغابة..؟
فرد قابيل الموسى ، غاضبا ، وبالإنكليزية:
- إنه لا يقول الحقيقة.. إنه لا يقول الحقيقة.. يضطرني لأن أنهي الموضوع بسرعة..
ثم نظر إلى آدم التائه سائلا ً:
- هل نكتها..؟ قل لي: هل نكتها..؟ وكم مرة فعلت ذلك..؟ وأين..؟ هنا..؟ على هذه الصوفا..؟ أنا أعرف أنها تحب النيك جداً..؟ وتحب ذلك بملابسها،

وبالحجاب على رأسها..؟ لقد أعترف العراقي قبلك بكل التفاصيل.. أريد أن أعرف منك أيضا..هيا أخبرني قبل أن ينفجر غضبي.. وأرسلك إلى جهنم وبئس المصير..
أحس آدم التائه بأنه في خطر حقيقي ، فهذا الرجل الغيور لا يريد أن يفهم ، ولا يبحث عن الحقيقة ، وإنما هو يريد تبريرا ًوتأكيدا ًلشكوكه ، وتخيلاته عن سلوك طليقته ، وربما هي فعلت ما فعلت مع الرجل العراقي هابيل الياسري ، لكنه هو شخصيا لم يفعل معها أي شيء ، فكيف سيقنع هذا الأعمى ، وخلال ثوان ، أشفق على نفسه ، من هذا المصير العبثي الذي يواجهه ، وبدون إرادة منه ، وبلا وعي انبثقت صورة طليقته حواء المؤمن وهي مكشوفة الجسد من الأسفل ، متربعة على يديها ورجليها ، مغطاة الرأس بالحجاب ، بينما آدم اللبناني يدخل فيها بعنف وهي تتوسله بأن يكون أعنف ، وتداخلت صورة حواء المؤمن بصورة حواء صحراوي.
كان قابيل الموسى ، ينظر إليه وشفتاه ترتجفان . قال له الرجل الذي خلفه ، هامسا ًبالإنكلزية:
- أيها الرئيس..هل يمكنني أن أتحدث معك على إنفراد لدقيقة..؟
تراجع قابيل الموسى إلى الوراء ، وصار الإثنان بالقرب من المائدة المرمرية ، فتحدث حامل المسدس همسا ً، نظر قابيل الموسى إليه لحظة ، ثم هز رأسه موافقا ً، ورجع إلى حيث كان أمام آدم التائه ، بينما دار الرجل حامل المسدس حول المائدة المرمرية ، وفتح جارورا ً، وأخرج منه سكين مطبخ كبيرة ، وجاء إلى حيث مكانه . حين نظر آدم التائه إلى ذلك ، أحس برعب شديد ، وأدرك أن نهايته قد اقتربت ، وهي نهاية فاجعة . سأل نفسه : ما الذي جاء بك إلى لندن ، لتموت يا آدم التائه بهذه الطريقة المرعبة .. ؟ وبالرغم من ذلك ، كان ثمة أمل بالنجاة يدفعه لكي يتنفس ويدافع عن نفسه ، فقال لقابيل الموسى ، برجاء:
- أنا أعرف أنك زوج مجروح..وأن السيدة حواء صحراوي ربما آذتك، وجرحت كرامتك، لكني أقسم لك بكل المقدسات لا تربطني بها أية علاقة خاصة، وأنما هي صديقة صديقتي إيفا ليسنج لا أكثر..
تحول قابيل الموسى ، إلى وحش حينما سمع كلمات آدم التائه ، وقال غاضبا ، محاولا ًأن يكتم صوته ما أستطاع:
- ما الذي تعرفه أنت عن كرامتي المجروحة..؟ ما الذي حكته لك عني..؟ هل حكت لك بأني فتحتها بإصبعي..؟ لأني لم أستطع ذلك في ليلة الزفاف

لأني كنت سكراناً، وأهلي وأهلها ينتظرون دم البكارة..؟ هل حكت لك عن ذلك..؟ ماذا تعرف عن جروحي، وكرامتي حتى تحدثني عن ذلك..؟ هل أخبرتك بأني شاذ جنسيا، أني ألوط بها من الخلف، بينما كانت تتوسل بصديقك العراقي، بعد أن تشبع من الأمام، أن يفعل بها من الخلف أيضا..؟ ماذا أخبرتك عني..قل لي..وإلا سأذبحك مثل أي تيس تافه..

كان آدم التائه يرتجف خوفا ً، دون إرادة منه ، وكان لا يعرف كيف يتحدث مع هذا الشخص ، فقد أراد أن يبدي تعاطفه معه ، حينما حدثه عن كرامته المجروحة ، فانقلب ذلك ضده.

كان الرجال الثلاثة يدركون أن الأمور آخذة بالتصاعد . انتبه حامل المسدس إلى الزبد الذي صار على طرفي شفة قابيل الموسى ، وحالة التشنج الذي بدأت تظهر على إحدى كفيه ، فوضع السكين على المائدة المرمرية ، ثم قاد قابيل الموسى إلى خارج الشقة . بقي ّ الإثنان عند آدم التائه . أحس آدم التائه ببعض الراحة عند خروج حامل المسدس وقابيل الموسى ، لكن لم تمض سوى دقائق معدودة حتى عاد حامل المسدس إلى الشقة ثانية.

كان قابيل الموسى يرتجف متشجنا ، مبتل الملابس قليلا ً، في السيارة الفارهة التي تقف في أحد جوانب باحة المبنى . كان المطر لا يزال يهطل ، حينما خرج الرجال الثلاثة مسرعين ، متوجهين إلى السيارة . دخلوا إليها وانطلقوا مسرعين.

باب الشقة كان مفتوحا ً حينما تعالى رنين جرس الهاتف . كانت حواء صحراوي متأججة بالغيرة ، لأن آدم التائه لم يكن يرد على الهاتف . قررت أن تذهب إليه بنفسها . فكرت أن تقوم بذلك صباحا ً، إلا أن غيرتها كانت أقوى من أي رأي ، فنزلت بهدوء شديد ، دون أن تثير أيا ً من الخدم . لم ترتد شيئا ، وإنما ببدلة النوم التي لبست عليها معطفا ً، وأخذت مفتاح سيارتها ، وخرجت.

كانت تفكر طوال الوقت بأمكانية أن تكون إيفا هناك ، وفكرت بأنها ستعرف ذلك حينما ترى سيارتها الجكوار الزرقاء ، لأن سيارتها الأخرى موجود في كراج المبنى ، وإذا لم تر سيارة إيفا ، فهذا يعني ربما واحدة من بائعات الهوى .. عندها ستقوم بطردها .. وستبقى عنده الليل كله ، وفكرت أنها لماذا لم تأت ِه في مثل هذا الوقت حيث الكل نيام ، ولا أحد يعرف شيئا ، بل حتى طليقها لا يعرف ذلك .. ؟

حين وصلت ، صعدت بحذر إلى الطابق الثاني ، حيث الشقة . استغربت حينما وجدت الباب مفتوحا . أرادت أن تضغط الجرس ، إلا أن هاجسا ً

دفعها إلى ألا تفعل ذلك . دخلت بهدوء إلى الصالة . تجمدت في مكانها . وقبل أن تصرخ ، وضعت لا إراديا يدها على فمها لتمنع الصرخة . كان آدم التائه مشدودا ً إلى الكرسي وصدره ، وقميصه مبتل بالدم ، ثمة لاصق على فمه . وجرح أسود في عنقه.

تقدمت بخطوات مرتجفة . كانت ترتجف . أحست بقطرات من البول تبلل فخذيها قليلا ً. فجأة أحست بجمود أعصابها . وكأن المشهد يعاد ، فقد أدركت بشكل حدسي بأن الفاعل هو طليقها قابيل الموسى .. رفعت رأسها قليلا ً لتتأكد من عدم وجود أحد .. رأت رزمة أوراق الرواية على الطاولة .. تقدمت إليها . أخذت مخطوطة الرواية . وقفت لحظات أمام آدم التائه . نزلت دمعتان من عينيها . أدركت بأنها سببت موته . غادرت المكان بسرعة ، دون أن تغلق الباب خلفها.

نهض آدم التائه من كرسيه . رفع رأسه . رأى إيفا بيرغمان تسقبله بإبتسامة ساحرة.

آدم البغدادي : أعتقد أنه كان يجب أن أتوسع في سرد تفاصيل الأسابيع الثلاثة التي قضاها آدم التائه في لندن . وربما كان من الأجدى أن أدون الحوار على شكل مسرحي ، نصي ، وليس سردا ً.. لكن هذه طريقة فيها إقتصاد لغوي وكثافة أيضا .

لكني انتبهت إلى أن تداخلا في مفهوم الحرية والإرادة ، بين ماركس وسارتر ، أثناء حوار آدم التائه مع حواء صحراوي ..!! ثم لماذا غيب ّت إيفا ليسنج عن النهاية .. ؟ هل هي محاولة للتواصل في نص جديد أروي فيه ما جرى في ما بعد .. ؟ ولماذا لم أتوقف عند الرواية التي كتبها آدم التائه في لندن ، والتي أراد فيها إعادة حواء الصايغ إلى الحياة .. ؟ أهناك شيء مشترك بين حواء الصايغ وحواء صحراوي .. ؟ لا أدري .. أعتقد أنه كان بالإمكان التوسع في هذا الفصل.

لكن أليس السطر الأخير في هذا الفصل ، وأقصد (نهض آدم التائه من كرسيه . رفع رأسه . رأى إيفا بيرغمان تسقبله بإبتسامة ساحرة .) سيخلق إيهاما ً بأن كل أحداث القتل ليست حقيقية ، لأن آدم التائه نهض لإستقبال إيفا بيرغمان .. ؟

لا .. لا .. إيفا بيرغمان روح .. وآدم التائه استقبلها كروح قد تحررت من الجسد..

لكن لماذا كل هذا الرعب .. ؟

أتراني كتبت ُالفصل بلا وعي مني ، بسبب الرعب الذي أعيشه يوميا ً في

بغداد .. ؟ وبسبب أخبار الإغتيال والقتل والذبح الطائفي ، والتصفيات السياسية اليومية ، فانعكست عليّ أثناء الكتابة ، بينما أنا أكتب عن أحداث تجري في لندن ، في بلاد آمنة كأوروبا .. ؟ أهناك مبالغة في الأمر .. ؟ ألا يُثار التساؤل بأنه كيف إستطاع مجرم ، قاتل ، الإفلات من قبضة العدالة في لندن ، ويرتكب جريمتين بهذه السهولة .. ؟ هل عليّ تمزيق هذا الفصل أو إعادة كتابته .. ؟
لا .. لا .. أوربا مليئة ، أيضا ، بالجرائم والأحداث الغامضة التي لم تصل الشرطة وأجهزة الدول الأوربية إلى حلها ، والقبض على مرتكبيها .. يمكن استعراض مواقع الجريمة في تلك البلدان لنعرف الكم الهائل من الجرائم التي لم يُعرف بعد من الذي ارتكبها .. بل هناك قوائم لمجرمين معروفين ، تنشر صورهم منذ سنوات لكن أجهزة الشرطة غير قادرة على القبض عليهم .. ؟ نعم .. نعم .. أن أوروبا بعد إنهيار الإتحاد السوفياتي وبقية دول أوروبا الشرقية صارت مرتعا لعصابات المافيا والقتلة المأجورين ، وصار ليس صعبا أن تقوم بقتل رجل أو الإعتداء عليه ، المهم أن تصل إلى إحدى العصابات التركية ، أو العربية ، أو الروسية ، أو الشيشانية ، أو اليوغسلافية ، المهم أن تدفع جيداً..
ثم أن قابيل هو قابيل دائما وأبداً.. نحن قتلة وضحايا بطريقة أو بأخرى .. وسنظل نقتل بعضنا بعضا إلى أن ينتهي آخر رجل على الأرض . إني لم أختر هذه الميتة لآدم التائه لأني أريد قتله ، وإنما ثمة هاجس داخلي كان يدفعني ويهمس لي بأن الأمور ستنتهي هكذا بطريقة أو بأخرى .. هل أنا محق في ذلك .. ؟ لا أدري..
لكــن متى كانت ولادة الموت .. ؟ متى بدأ الموت بالوجود .. ؟ هل للموت تأريخ .. ؟ ربما نعم .. فأول من مات من البشر هو هابيل ، حينما قتله أخوه قابيل . كان آدم حيا .. وحواء أيضا .. ولد الموت لحظة مقتل هابيل . قابيل هو الذي صنع الموت..!
وبالرغم من أن بطل هذه الرواية هو آدم التائه ، الكاتب الذي شكّل قناعاً لي ، إلا أن الرواية تحمل اسم متاهة قابيل .. ؟
هذه الرواية إذن تختم المتاهات التي كتبتها : متاهة آدم ، متاهة حواء .. وها هي متاهة قابيل .. لكن لماذا متاهة قابيل إذا كان كل الرجال هم آدم وكل النساء حواء .. ؟
أعتقدُ، ومن بعدي آدم التائه ، بأن آدم ليس أبا البشر .. ولا حواء أمهم .. آدم ، حسب الأساطير ، صنعه الرب من طين ، ومن ضلعه خلق

حواء .. قابيل وحده الذي هو من نطفة رجل في رحم امرأة .. إنه وحده الإنسان .. ومن نسله انحدر البشر .. فهم أبناء قابيل وليسوا بني آدم..!
قابيل الأب .. قابيل القاتل .. قابيل صانع الموت .. قابيل المؤسس الأول للجريمة .. والموت .. لكن ألم يكن الموت مقدراً على آدم حينما كان في الفردوس مع حواء .. ؟
قابيل ابن الأم .. وابن الأرض .. المغضوب عليه من الرب .. ليس لأنه قتل أخاه .. لا .. فالرب لم يقبل نذوره البسيطة .. نذور الفلاح البسيط .. وتقبل عطايا هابيل الراعي .. الذي قدم الذبائح للرب ، ونحر الأنعام له .. أكان الرب يتلذذ بالدم .. ويكره الفواكه .. ؟
لم غضب الرب على قابيل .. ؟ ألم يوزع هو عطاياه عليهما .. وبالتالي عليه تقبل ما أعطى هو أصلاً .. ؟ أغضب عليه لأنه استل الحياة من جسد هابيل .. ؟ ما هذه الحياة التي وهبها للبشر .. ؟ لا معنى لها .. فالإنسان يولد ويموت .. وما بينهما تفاهات عقيمة .. عمر الإنسان ينقضي في سنوات طفولة لا تعني شيئا ، وسنوات عجز وهرم وشيخوخة لا تعني شيئا أيضاً، بل تتحول إلى كرب وغم ومرض .. ثلث العمر أو أكثر ينقضي في النوم .. وما بينهما يتسرب في المشي في الطرقات ، أو في المسافة ما بين البيت ومكان العمل .. والإنتظارات القاتلة سواء لوسائل النقل أو عند الطبيب أو عند مراجعة الدوائر الحكومية أو .. أو .. وبعض الوقت ينقضي في التبرز والتبول .. ماذا يبقى من العمر إذاً.. كم هي فترة سعادة الإنسان طوال عمره .. لحظات اللذة الجنسية لا تتعدى الدقائق .. ولو أحصيناها من فترة المراهقة إلى مشارف الستين لما تجاوزت في مجموعها أياما قليلة من عمر الإنسان..
ربما قيمة الإنسان هي في لحظات التفكير المبدع .. في إنتاج الجمال .. أو الأفكار التي تساهم في فهم الإنسان لمعنى وجوده .. ؟ لكن كم يوماً من عمر الإنسان ، بل كم شهرا أو سنة ، ستشكل لحظات التفكير المبدع ، من عمر الإنسان المفكر .. ؟ هل للحياة معنى ، إذن .. ؟
سارتر يؤكد ، بأن الكائن الذي بصفته كائناً يضع كيانه موضع التساؤل .. وأننا لا ندرك ذواتنا إلا من خلال اختياراتنا ، وليست الحرية سوى كون اختياراتنا دائما غير مشروطة .. إنه لا يمل من القول بأن الإنسان محكوم عليه بأن يكون حراً، إنه يحمل ثقل العالم كله على كتفيه .. إنه مسؤول عن العالم وعن نفسه بصفته نوعاً متميزاً عن أنواع الكيان الأخرى ..!! لكن عن أية حرية يتكلم سارتر .. ؟ وعن أية اختيارات غير

مشروطة يتحدث .. ؟ ومن هو هذا الكائن الذي يحمل ثقل العالم كله على كتفيه .. ؟ أنا أرى شعوباً وليس كائنا إنسانياً واحداً، سادرة في العتمة .. تمشي كالسائر في النوم إلى هاويتها التي تمضي إلى قاع مظلم بلا قرار ..! أرى نخباً ثقافية وسياسية صفتها المميزة أنها أكثر إنحطاطاً من الحيوان بمراتب ..! حريتهم الوحيدة ، أو حسب قول سارتر ، اختياراتهم غير المشروطة ، هي ذبح الآخرين ، لا لسبب سوى لرغبة متعطشة بالتدمير وفناء الآخر..!

ليس محكوماً على الإنسان أن يكون حراً.. بل محكوم عليه بالضرورات وحدود الإمكان ..! ليذهب الإنسان إلى البرية وليقرر ويختار دون شرط أن يطير .. هل سيطير .. ؟ سيقول أحدهم هذا خيار مشروط .. إذن الإنسان سيواجه هذه الخيارات المشروطة دوماً وأبداً.. وبالتالي ليس محكوم على الإنسان ان يكون حراً.. على العكس محكوم عليه بشروط الضرورة .. حريته محدودة .. حريته الجسمانية تتوقف عن حدود جسم الآخر .. وحدوده الإجتماعية تتوقف عند القانون .. وحدوده الفكرية ربما هي الأكثر رحابة ، لكنها بالتالي محكومة باللغة وبهيمنة الفكر السائد في ذاك العصر .. هل نحن أحرار بعد كل هذا .. ؟

لكن ما علاقة كل هذا بمتاهتي .. ما علاقة كل هذا بمتاهة آدم .. وحواء .. وقابيل .. سأقولها ... إنها متاهة الإنسان .. منذ هيمنة أسطورة آدم وحواء .. وقابيل يقتل هابيل .. لكن في عصرنا هذا .. هابيل يتحالف مع الرب ليقتل قابيل .. الدين والسلطة يذبحان قابيل .. قابيل الإنسان الأول .. أبو البشر .. وأبو الموت .. إنه أنجب سلالة تتناسل آوادم وحواءات إلى نهاية الزمان .. إن كانت له نهاية حقاً كما يقول علماء الفيزياء الكونية .. وسيظل يدور في متاهة الوجود ..

* * *

حينما انتهت حواء الزاهد من مخطوطة الرواية التي بين يديها أحست بنفسها ترتعش خوفاً، وألماً. لقد تأثرت جداً من مصير آدم التائه المأساوي ، فقد تذكرت مصير حبيبها آدم المحروم ، حينما دخل أربعة رجال في الوقت نفسه الذي دخلوا فيه على آدم التائه ، وذبحوه أيضا . لكن هل هي مثل حواء صحراوي .. فهي من ذهب إليه فجراً.. وكأن آدم البغدادي يعيد بعض تفاصيل قصتها مع حبيبها آدم المحروم . لقد أحبت إيفا ليسنج ، وكذلك أحبت حواء صحراوي . قلبت الرواية بين يديها فانتبهت إلى أن آدم البغدادي قد وضع لها عنوانين : شطب أحدهما وأبقى

على عنوان متاهة قابيل .. سألت نفسها عن أي قابيل يتحدث آدم البغدادي .. هل هو الإنسان الذي كان يتحدث عنه آدم التائه باعتبارنا أبناء قابيل ولسنا أبناء آدم .. أو هو قابيل الموسى .. ؟ القاتل الذي انقلب ضد الأسطورة .. فقد قتل هابيل الياسري وآدم التائه . ؟ وبينما كانت حواء الزاهد تعيش تداعيات أفكارها . وصلت رسالة إلى هاتفها ، ضغطت عليها ، فقرأت :

يا عاهـرة .. عشيقك السافل .. قابيل الفهد راح إلى جهنم وبئس المصير .

ارتعبت ، وبيد مرتجفة طلبت رقم حواء الكرخي ، التي كانت عند آدم الشبيبي الذي أخبرها بوصول معلومات عن تصفية أحد الذين يشك في أنهم اختطفوا قابيل الفهد . حيث وجدت جثة رجل اسمه الحاج آدم الملا ، مقطوعة القضيب ، ومنخورة بالرصاص في منطقة عرصات الهندية ، وقد تسرب من مكتب أحد الجهات بأنه ربما كان مشتركا في إختطاف أستاذ جامعي ومدير مدرسة إبتدائية خلال اليومين الماضيين.

حينما رن الهاتف النقال عند حواء الكرخي وسمعت صوتها المرتعب ، وقرأت حواء الزاهد لها مضمون الرسالة التي وصلتها ، تأكدت من أن قابيل الفهد قد تمت تصفيته جسديا ً. أخبرت آدم الشبيبي بذلك ، وقالت له بأنها ستذهب إلى حواء الزاهد ، ستأخذها عندها إلى البيت ، فقد أصبح وجودها في ذلك البيت خطرا ً. اتفقا على أن يبقيا على إتصال دائم.

ليل الضباع

كانت منطقة المنصور في ذلك المساء المعتم شبه مقفرة . ما من أحد سوى إثنين عند بائع العصائر في الزاوية ، وعدد قليل جداً في مطعم المشويات المقابل لوزارة الأشغال والإسكان التي يحرس بواباتها من الجانبين عدد قليل من الحرس المدججين بالأسلحة الرشاشة ، وتمتد الأسلاك الشائكة على مسافات طويلة لتحيط بها ، إلى جانب مصدات حديدية تستخدم كموانع للإقتراب من المبنى الذي كان سابقاً مديرية للإستخبارات والتحقيقات الأمنية ، وكان ثمة رجال من الحرس الوطني يقفون في الجهة الأخرى عند تقاطع الشوارع القريب.

الجو الكابوسي المهيمن على المنطقة لم يخفف عنه سوى حركة بعض السيارات التي تمر أحيانا مسرعة ، إما لتواصل السير وإما لتلتف إلى أحد الشوارع الجانبية . كان رجال الحرس الوطني مسترخين قليلاً. أحدهم يتحدث في هاتفه النقال ، وتتعالى قهقهاته بين لحظة وأخرى ، آخر بيده لفة من المشويات يأكل منها بشهية واضحة ، وثالث واقف كالتمثال ، بيده سلاحه ، لكنه كان مستغرقاً في التفكير ، ساهياً عما حوله.

فجأة ، وبدون أي توقع من أحد ، أقبلت سيارة حديثة من جهة حي دراغ ، أنزل أحد الجالسين شباكها الصغير ومد رشاشه ثم أطلق سيلاً من الطلقات النارية على رجال الحرس الوطني الثلاثة ، بتصويب دقيق ، فأرداهم قتلى ، وانطلقت السيارة بأقصى سرعتها . أطلق حراس الوزارة النار على السيارة الهاربة ، لكنها كانت قد ابتعدت ، والتفت في شوارع جانبية لمنطقة المنصور . تجمع بعض رواد المطعم ، وبعض حراس مبنى الوزارة ، ليروا أن الجندي الذي كان يأكل فارق الحياة وما زالت كفه تقبض على لفة الطعام ، أما الذي كان يضحك وهو يتحدث في الهاتف ، فقد سقط على برميل نفايات قريب منه ، فانقلب البرميل ملوثا جسده ، بينما تهشم هاتفه ، وصار قطعا متناثرة بالقرب منه ، أما الرجل الثالث الذي كان يقف كالتمثال ، فقد كان مصابا بجروح خطيرة في بطنه ، وينزف دماً من فمه أيضا ، وكان كما يبدو في حالة خطيرة ، لكن وجهه ما زال يعبر عن شروده العميق.

في ذلك الوقت بالذات ، من تلك الليلة المظلمة التي غاب فيها القمر ، كانت حواء ذوالنورين تجلس في صالون بيتها وقربها قابيل العباسي ، الذي صار زوجها رسمياً، فقد تم كل شيء بإتفاقه مع أحد القضاة العاملين

في مجمع المحاكم القريب ، والذي يقع إلى جانب مدرسة الموسيقى والباليه ، ومقابل مبنى معهد الفنون الجميلة ، حيث أنجز لهما كل الأوراق الرسمية والعقد الشرعي.
كانا وحدهما في البيت ، الذي بدا جوه كئيبا لمناسبة كهذه . أحست حواء ذو النورين بأنها ، بعد زواجها ، قد ضاعت كليا ً، وفقدت كل شيء . وبالرغم من هذا الإحساس الثقيل ، القاهر ، فأنها لم تكن يائسة إلى ذلك الحد الذي يمكن أن يمنعها عن التفكير مع نفسها في البحث عن مخرج من هذه المتاهة التي وجدت نفسها مهجورة في دروبها الغامضة.
أدركت حواء ذوالنورين أن سلطة قابيل العباسي كبيرة ، فهو ليس رئيسا لمجموعة من المتعصبين الطائفيين فحسب ، وإنما هو شخصية سياسية لها نفوذها السري الغامض على الكثيرين ، فقد أتى بالقاضي مع سجله إلى البيت ، وكذلك ن ُفذ ما أمر به لنصب مولدتين كبيرتين ، فجاء المهندسون والفنيون ليستكملوا مد الأسلاك وربط المولدتين بخزان الغاز الذي امتلأ بالغاز السائل من جهة ، وبأنابيب التبريد من جهة أخرى ، وليعملوا بسرعة وجهد ، من أجل إنجاز عملهم ، كما انتبهت إلى أن القاضي كان يهابه بل ويخاف منه . أحست نحوه بشعور متناقض ، غامض ، غريب ، فثمة خوف بارد يسري في أوصالها ، وزوايا روحها منه ، وفي الوقت نفسه أحست بشعور غامض بالحماية معه.
بعد أن خرج القاضي والشهود ، وبقيا وحدهما ، أحست كأنها دخلت إلى مصيدة العنكبوت ، وأنها تنتظر لحظة إلتهامها بالكامل ، لكن في أعماقها أيضا ثمة عنكبوتا ً شرسة ، عليها أن تحركها ، توقظها من سباتها ، لتلتف على هذا السادر في هيلمان سلطته المنقوصة ، عليها أن تسيطر على هذا الفتى الذي صار زوجها رغما ً عنها ، والذي كلما نظرت إليه تذكرت ابنها آدم.
فكرت مع نفسها ، بينما كان هو يقلب قنوات التلفزيون ، بأن عليها أن تشبع غرائزه ، أن تطعمه جيدا وت ُشبع رغبته الجنسية الشبقة ، عليها أن تبدأ حالا ً، وإلا فأن الوقت سيتسرب من بين أصابعها مثل الرمل . فكرت بأن عليها أخذ الشريط منه أولا ً.. ومحاولة إعادة ابنها من المكان الذي أرسل إليه.
أخذ يسب ويشتم ، عندما رأى على شاشة التلفاز أحد المسؤولين العسكريين يعلن عن موقف الحكومة من أمور ذات طبيعة عسكرية . التفت إليها قائلا بثقة العارف بأن هذا الحقير الذي يتحدث من شاشة التلفزيون كان

ضابطاً بسيطاً في الإستخبارات العسكرية ، بينما منح الآن أعلى الرتب العسكرية . نظرت هي إليه محاولة أن تستميله لتأخذ منه الشريط ، فقالت له:

- أتريد أن أعد لك العشاء..؟

نظر إليها مبتسماً، قائلاً:

- لقد أوصيت على عشاء سيأتينا من المطعم.. أنت الليلة مدللة.. علينا أن نحتفل.. كما أوصيت للشباب بصينية طعام أيضاً.. هل لديك شراب..؟ أقصد عرق.. ويسكي..نبيذ.. أو شيء يُشرب..؟

- لا.. نحن لا نشرب في البيت..

- طيب أوصيت أنا على قنينة ويسكي، وقنينتين من النبيذ.. الويسكي لي..والنبيذ لك..

- لكني لا أشرب..

- لا..عليك الليلة أن تشربي..

صمتت قليلاً، ثم نظرت إليه بغنج ، وقالت:

- حبيبي..أنت وعدتني بأن تعطيني الشريط هذا المساء..

- صحيح..

- إذن..أين هو..؟

- سأعطيك إياه في غرفة النوم..

- ولماذا ليس الآن..؟

- لأني أريد ذلك..قلت لك في غرفة النوم...

- طيب حبيبي.. أنذهب الآن إلى غرفة النوم..؟

- أأنت مستعجلة على ذلك..دعينا نتعشى أولاً..

- طيب.. لننتظر..

قام قابيل العباسي من مكانه خارجاً. ومع لحظة اختفائه خلف الباب انقلبت ملامح حواء ذوالنورين . لقد خافت من نفسها ، أحست بأنها ربما لا تستطيع أن تمثل دورها كما يجب ، فالقلق ، والإحساس بالضياع ينتشران في أعماقها ، ويشوشان عليها تفكيرها . كانت تحس بحاجة لرؤية ابنها ، وفي الوقت نفسه تتمنى أن يتأجل لقاؤها به ، إلى أن تجد حلاً لوضعها الحالي ، فهي تستحي أن تنظر في عينيه إذا ما عرف بأنها صارت زوجة لصديقه قابيل العباسي.

حين خرج قابيل العباسي من الصالة انقلبت ملامحه أيضا ، وتجلت ملامح القساوة ، والشراسة ، والعدوانية لتعيد تشكيل شخصيته . عند الباب سأل

عن الطعام ، فقالوا له في الطريق ، سيصل بعد لحظات . كانت إحدى المولدات قد أنجزت ، وتم تجريبها ، والثانية على وشك الانتهاء منها بعد ربط محول الطاقة بينهما.

سأل قابيل العباسي أحد مرافقيه إن كانت السيارات المفخخة قد وصلت أهدافها بأمان ، فأكد له المرافق بأن كل شيء على ما يرام ، وأن بعض الضباط قد نبهوهم إلى أخذ الإحتياطات في منطقة الشعب ، والانتظار إلى ما بعد منتصف الليل حينما يكون أحد رجالهم هناك ، وحينما سأل عن جثة الحاج آدم الملا ، أكدوا له بأنهم ألقوا بها في عرصات الهندية كما أمر ، فغضب ، لأنه أراد أن تتم العملية ليلا ً، فقال له المرافق ، أن أحد الشباب أكد لهم بأن لديه معلومات عن تواجد بعض معارفنا في الدوريات هناك ، فقرروا القيام بالمهمة ، وقد أنجزوها دون أن يثيروا أية شكوك . أخبره المرافق بأن عملية التقاطع قد تمت بنجاح ، فقد تم قتل رجال دورية الحراسة في التقاطع قبل قليل ، وأن الجماعة تمكنوا من النجاة ، وبينما هو يتحدث مع مرافقه وصلت السيارة التي تحمل صينيتي ّ الطعام ، فقال لهم بأن يتعشوا ، وحمل بنفسه الصينية إلى الداخل.

ما أن رأته داخلا ً حاملا ً صينية الطعام ، متوجها إلى الطاولة ، حتى قامت مبتسمة ، ومضت لتحمل صحون الطعام . كانت تحاول أن تبين له رضاها بالزواج منه ، وتجبر نفسها على أن تبدو متلهفة لوصاله ، وكانت تستعجل الانتهاء من العشاء كي يذهبا إلى غرفة النوم ليسلمها الشريط ، بالرغم من أن ذلك يعني مضاجعتها ، ولم تكن مترددة من هذه الناحية ، على العكس ، كانت تدفعها رغبة غامضة في أن تمارس الجنس معه.

لم تتوقع حواء ذوالنورين أن يستمر العشاء كل هذا الوقت ، بل وانقلب إلى جلسة تعذيب نفسي . ما أن انتهى الطعام حتى بدا قابيل العباسي بشرب الويسكي ، وطلب منها أن تشاركه الشرب ، فحاولت أن تتهرب من ذلك ، إلا أنه كان قد فتح قنينة النبيذ وطلب منها أن تشرب معه . لم يكن أمامها سوى أن تجاريه ، فارتشفت قليلا ً من كأسها ، إلا أنه طلب منها أن تشرب كل ما في الكاس دفعة واحدة.

أحست حواء ذوالنورين بدبيب الدفء في أوصالها ، وسريانه إلى عنقها ثم خديها ، وبخدر لذيذ يصعد من ساقيها ليحتل جسدها كله . ابتسم قابيل العباسي لها ، معلقا بأنها أخذت تتفتح وتتورد مع النبيذ ، ثم صب لها كأسا ً أخرى ، وطلب منها بلهجة آمرة أن تشربها ، فلم تستطع أن تبدي رفضها ، لاسيما وهو ينظر إليها نظرة مليئة بالشبق ، الممزوج بشيء من

العدوانية الخفية ، فأخذت الكأس وعبت ما فيها إلى آخرها . في الدفقات الأخيرة من النبيذ كادت تختنق ، فسحبت الكأس عن شفتيها ، فأندلق شيء من النبيذ على جانبي شفتيها ، فقفز إلى جانبها ، والتهم شفتيها ، وبلسانه أخذ يلطع بقايا النبيذ . أحست بالإثارة الجنسية التي تفجرت فيها دون إرادة منها ، فتجاوبت معه وهي تلهث . صب لها ما تبقى من نبيذ في القنينة ، وطلب منها أن تشربه إلى آخره ، فأخذت الكأس بحماسة ورغبة وعبت النبيذ إلى آخره ، ومدت ذراعيها حول عنقه وقبلته من شفتيه بشبق ورغبة واضحة.

ابتعد عنها فجأة . رفع كأسه بيده ، وأخذ يتجول في الصالة . فوجئت هي من تصرفه ، فقد كان قبل قليل يقبلها بنهم ، بينما حينما أثارها وبدأت هي ترغب فيه ابتعد عنها . كانت تحس بأنها مستعدة لكل شيء ، فقط من أجل أن ينكحها ، الآن ، وحالا ً، إلا أنه اقترب من صورة زوجها في الصالة ، وأخذ ينظر إليها متأملا ً وعلى وجهه بسمة ساخرة . فجأة أخذ يكلم الصورة ، بنبرة سكران:

- لماذا تنظر إليّ هكذا..؟ أتعجب لأني تزوجت أرملتك..؟ إذا كان لا يعجبك أرحل..

التفت إلى حواء ذوالنورين التي كانت في حالة هياج وانفعال شديد ، حيث تداخل لديها شبقها الجنسي ورغبتها الملحة ، مع مشاعر الكره لقابيل العباسي الذي أهان زوجها من خلال الحديث مع صورته بهذه الطريقة الاستفزازية ، وقال لها آمرا ً:

- تعالي هنا إلى جانبي..

نهضت من مكانها واقتربت منه ، وهي في حيرة من أمرها ، كيف تتعامل مع هذا الكائن الجميل ، الشرير ، وقالت له بهدوء:

- ماذا تريد..؟
- أريد أن تقبليني أمامه..حتى يرى بعينيه أنك تحبينني أنا..
- حبيبي..دعك من هذه الأمور.. إنها صورة.. والرجل قد قُتل وانتقل إلى رحمة الله..
- قلت لك قبليني..

قبلته على خده قبلة خفيفة . نظر إليها بغضب ، وقال:

- ليس هكذا.. أريد قبلة حقيقية..
- حبيبي..لنمض من هنا إلى غرفة النوم..وهناك أقبلك كيفما تحب..
- لا..الآن..هنا.. وأمامه..

أحست هي بالحرج . صحيح أنها أمام صورة ، لكنها كانت تشعر بالخجل وكأن زوجها القتيل ينظر إليها حقا ً. حاولت التملص من الأمر ، متباطئة ، إلا أنه سحبها إليه ، وقبل شفتيها قبلة شبقة ، استرخت هي على أثرها ، فسحبته من يده ، وأخذته إلى غرفة النوم.

* * *

في مساء ذلك اليوم نفسه ، كان آدم ذوالنورين مستلقيا على سرير خشبي في غرفة طينية تضيئها شمعة كبيرة ، منفصلة عن بقية الغرف الطينية ، القليلة ، المتوزعة في ذلك المكان النائي . لقد وصل قبل ساعات إلى هذا المكان المقفر ، وأخذوه مباشرة إلى بيت طيني متعدد الغرف يبعد عن هذا المكان قليلا ً، لكن داخله كان مفروشا ًبالسجاد ، وفيه تلفزيون وثلاجة ، وأفرشة وبطانيات . هناك التقى رجالا ً بثوا الرعب في نفسه ، فقد كانوا بلحى كثيفة ، حليقي الشوارب ، يرتدون دشداشات قصيرة ، متوحشي النظرات ، يتحدثون بلكنات عربية مختلفة . أحس بأنه ربما جاء إلى المكان الخطأ ، فماذا يفعل هؤلاء في بلاده .. ؟ رحبوا به على مضض حينما لمحوا رقته وأناقته . أنقذه من ذلك الموقف المحرج بالنسبة له ، وصول رجال عراقيين يرتدون بنطلونات الجينز ، وقمصلات عسكرية . تحدثوا معه قليلا ً عن التدريبات التي عليه أن يقوم بها . لم يقل هو أي شيء ، إذ كان يستمع فقط . ثم أخذوه إلى بيت طيني مهدم من الخارج ، لكنه من الداخل واسع جدا ً، وهناك رأى ورشة لتلغيم السيارات وتجهيزها للإنفجار . وكان هناك ثلاثة رجال يعملون في تلغيمها . بقي هناك إلى أن جاء الرجل الطويل ، ضخم الجثة ، الذي رافقه في المجيء إلى هذا المكان ، مقترحا ً عليهم بأن يستريح الليلة ، وأن ي ُمنح الغرفة المنفصلة ، لذلك أرسلوه إلى تلك الغرفة النائية.

هذه الغرفة الطينية التي تكاد تكون فارغة ، إلا من سرير خشبي عليه فراش وسخ ، وبطانية قطنية ، وثمة صفيحة فارغة في زاوية الغرفة ، ربما كانت ت ُستخدم كطاولة أو مقعد للجلوس ، وثمة رف يتألف من خشبة عريضة نصبت على مسمارين في الجدار ، وضع عليه نسخة من القرآن وسجادة صلاة.

دخل عليه الرجل الطويل ، ضخم الجثة . فز آدم ذوالنورين من استرخائه ، وجلس متكئا على جانب من ذلك السرير . نظر الرجل إليه بشبق . كان في يده كيس ، سحب علبة صفيح كانت إلى جانب الحائط ، وفتح كيسه ليخرج منه خبزا وزبدا ًوعلبة عسل أسود وزيتونا ، وسكينة طويلة ، أشبه

بخنجر صغير . ووضعها على ظهر الصفيحة ، دون أن يقول شيئا ، وحينما انتهى ، نظر برقة ورغبة إلى آدم ذوالنورين وقال:
- أستاذ آدم..أرجوك أن تمد يدك لتناول شيئا من الطعام..أريد أن يكون بيننا الزاد والملح..
نظر آدم ذوالنورين إليه بريبة . أحس بنواياه المريبة نحوه ، فمنذ أن انطلقوا من بغداد كان يلامس فخذه بفخذه ، وينظر إليه نظرات جنسية صريحة . بدون أية دعوة جلس الرجل إلى جانبه على السرير . كانت الغرفة شبه مظلمة ، وضوء الشمعة جعل الوجوه شبحية ، وكان آدم ذوالنورين متضايقا من وجود هذا الرجل معه في هذه الغرفة النائية ، ومن جلوسه بهذه الطريقة الملاصقة له تقريبا ، وأحس بأن ثمة شيئا ً غير مريح سيحدث معه.
مد الرجل يده إلى يد آدم ذوالنورين التي كانت ممدوة بإسترخاء على فخذه ، وأخذ يداعبها برقة . سحب هو يده من على فخذه فصارت يد الرجل على فخذه . لم يرفع الرجل يده عنها ، بل أخذ يمرر يده برقة على جوانب الفخذ ، فما كان منه إلا أن رفع كف الرجل وأبعدها عنه . نظر الرجل إليه ، نظرات مليئة بالرجاء والشبق ، وقال له برقة:
- ألا يعجبك ذلك..؟ أنت تعبان من السفر.. وتحتاج إلى مساج..
كان آدم ذوالنورين خائفا ، ويحس بالعجز عن إيقاف الرجل عند حده ، وكان في أعماقه يود أن يصده بقوة ، لكنه كان يحس بالتشنج في جسده ، وبالعجز عن فعل أي شيء ، لكن كل الذي استطاعه هو أن ينطق بجملة واحدة:
- أريد أن أنام.. أنا تعبان..تعبان..
تحرك آدم ذوالنورين إلى الوراء ليبين للرجل أنه يريد أن ينام ، إلا أن الرجل ضخم الجثة ، أدرك عجز ورخاوة آدم ذوالنورين ، فهم ذلك بأنه ليس صعبا ، فمال عليه ، وأخذ وجهه بين كفيه بقوة ، بحيث لم يستطع أن يحرك رأسه ، وأخذ يقبل شفتي آدم ذوالنورين ويمصهما . حاول آدم ذوالنورين أن يدفعه عنه ، إلا أن الرجل ضخم الجثة ، ألقى بجسده على آدم ، فشل حركته ، بينما شفتاه تجولان في وجه آدم مقبلة ، وفي لحظة خاطفة ، قلب آدم ذوالنورين على بطنه ، وبحركة عنيفة ، لوى ذراعي آدم ذوالنورين إلى الوراء ، وأمسك بهما بإحدى كفيه ، بينما بيده الأخرى رفع أطراف دشداشته وسحب سرواله ، ثم مد يده إلى الصفيحة ، فأخذ شيئا من الزبد ، ودهن به إست آدم ذوالنورين ، وبهيجان واضح ، اخترقه .

أحس آدم ذوالنورين بالإختناق ، من عنف حركة الرجل ضخم الجثة ومن ثقله . في تلك اللحظات الغريبة ، أحس آدم ذوالنورين بالسقوط والضياع الكامل ، ولم يعد يهمه ما يجري ، فاستسلم للرجل ، منتظراً أن ينتهي منه فقط ، إلا أن الرجل ضخم الجثة فهم الأمر بأن ما يجري يعجبه ، فقال له وهو يلهث:

- هل يعجبك ذلك..؟ هل يعجبك ذلك؟ أتريد أن تكون فرخي..؟ سأدللك..

كان آدم ذوالنورين منفصلاً عن جسده ، وكان يتمنى أن يكون بين أحضان أمه فقط . أحس بشوق كبير لها . لم ينتبه إلى الرجل ضخم الجثة الذي كان قد عراه بالكامل ، وتعرى مثله . إلا أنه انتبه إليه حينما أخذ يفح وهو يقذف في داخله.

بعد أن انتهى الرجل ضخم الجثة منه لم يتركه ، بل تمدد معه على السرير محتضناً إياه . كانت الدموع تنزل من عيني آدم ذوالنورين . كان يحس بعبث هذا الوجود ، وبسقوطه الأخلاقي الذي لا خلاص بعده ، وبالشفقة على نفسه ، وعلى أبيه المقتول وأمه المغتصبة . فكر مع نفسه بأن عليه أن يهرب من هذا المكان بأية وسيلة ، وليس أمامه سوى هذا الرجل الذي لا يهمه سوى إشباع رغبته من جسده ، فقرر أن يطلب منه مساعدته بالمغادرة غداً، ويعده بالعودة مرة أخرى . حينها أخذ الرجل ضخم الجثة يداعب جسده ، ويقبله مرة أخرى ويسأله إن كان ذلك أعجبه ، فوجد آدم ذوالنورين يهز رأسه بالإيجاب . إبتسم الرجل وضمه بين ذراعيه ، وسأله أن كان يريد أن يكون مثل زوجة له ، فلم يجبه ، وحينما كرر الرجل ضخم الجثة سؤاله إن كان يريد أن يكون مثل زوجة له ، أخفض آدم ذوالنورين جفنيه ، وكأنه يبدي موافقته الصامتة .

بقي الرجل ضخم الجثة ليله في سرير آدم ذوالنورين ، الذي كان قد اتفق معه على أن يساعده بالوصول إلى بغداد صباحاً مع أول سيارة تتجه إلى هناك . كان الرجل يشخر وهو نائم إلى جانبه ، بالرغم من أن الوقت ليس متأخراً بعد.

كان آدم ذوالنورين يحس بأنه صار إنساناً آخر .. صار خلال أقل ساعتين من الزمان يحتقر ذاته ، ولا يأبه لأي شيء ، وصار يحتقر الأخلاق ، والناس ، والدين ، والوطن ، وقابيل العباسي . أحس أنه طاقة عاجزة عن فعل أي شيء .. لكن بالرغم من ذلك فثمة رغبة متأججة في داخله للإنتقام من كل شيء .. كل شيء .. رغبة في تدمير كل شيء مع إحساس بالسأم من الوجود .. تمنى لو أنه لم يولد .. كان منطوياً على ذاته الجريحة ، على فراغه

الداخلي ، ذلك الفراغ الغامض ، المشوش ، بل كان يخاف أن ينظر إلى أعماقه المظلمة ، إلى تلك الهاوية السوداء التي تمتد إلى قاع بلا قرار.

* * *

في غرفة النوم طلبت حواء ذوالنورين شريط الفيديو من قابيل العباسي ، فأخرجه من جيبه ، لكنه أشترط عليها أن تمتعه هذه الليلة ، وتمنحه نفسها ، بحيث يكون جسدها ملكه ، يفعل به ما يشاء . فلم تتردد في أن تعده بذلك ، وهكذا حصلت على شريط الفيديو ، ولم تكن تعرف أنه قد استنسخه ، ويحتفظ بنسخته في جارورالمكتب في الشركة . كانت معنوياتها عالية بعد استلام الشريط ، فأغدقت عليه بالمتعة ، وأخذت تساهم معه في الوصول إلى ذرى اللذة الغامضة ، وكانت هي مستمتعة معه ، تحس أنها صارت خفيفة ، وسعيدة ، وكأن كابوسا ً ثقيلا ً قد انزاح عن صدرها.

بعد ساعة تقريبا ً، كان هو متعبا ً، ومترعا ً باللذة ، وكانت هي عارية بكل جبروت جسدها المثير ، لكنها لم تشبع بعد ، إذ تفجرت في أعماقها رغبات دفينة لم تعرفها من قبل . لمح هو بابا ً جانبيا ً، لم ينتبه له سابقا ً. وحين سألها عنه ، قالت له إنها مكتب زوجها السابق ، فنهض من السرير ودخل إليه ، بينما ظلت هي تفكر في الطريقة التي تثيره فيها مرة أخرى . كانت سعيدة . فكرت مع نفسها بأن أفكارها السابقة بالرحيل ليست سوى أفكار سود ، إذ عليها أن تستمع بشبابه وقوته وسلطته ، فجأة انبثقت صورة ابنها في ذهنها ، فأحست بخجل مفاجئ ، وبدون إرادة منها سحبت الشرشف لتغطي جسدها العاري.

حين دخل قابيل العباسي المكتب وجد نفسه في مكتبة عامرة بالكتب . أخذ يستعرض رفوف الكتب ، واجما ً، مصدوما ً، وكأن رؤية الكتب بعثت الكآبة في نفسه . رفوف لكتب القانون ، وكتب الفلسفة والفكر ، والأدب ، ودواين الشعر ، وقواميس بثلاث لغات . روايات عالمية ، المؤلفات الكاملة لبعض الكتاب العالميين..

كانت حواء ذوالنورين تنتظره ، وهي تستعد لترتقي مرة أخرى إلى ذرى اللذة ، فقد كان معها شبقا ، داعرا ً، عنيفا ً، مارس معها بأوضاع لم تألفها سابقا ً، وجربت معه ممارسات كانت سابقا ً تتقزز منها ، وتعتبرها حيوانية ، ومنحطة ، لكنها معه عرفت لذتها الكثيفة ، وكانت تريد أن تجربها مرة أخرى ، لذا فوجئت عندما عاد من المكتب كئيبا ً، مشوش البال ، وجلس على حافة السرير مهموما ً. اقتربت منه ، والتصقت به من الخلف . أحس يطراوة نهديها على ظهره العاري ، سألته :

- ماذا بك..؟ ما لي أراك مهموماً بشكل مفاجئ..؟
لم يلتفت إليها ، لكنه أجابها بهدوء ، وبنبرة يأس:
- رأيت المكتب، والكتب.. فتذكرت نفسي..
- تذكرت نفسك..؟ هل أنت نسيت نفسك حتى تتذكرها..؟
التفت اليها برأسه ، نظر إليها للحظة ، استدار ثانية وكأنه يحدث نفسه:
- ماذا تعتقدين أنت..؟ أأنا هذا القاتل الذي ترينه أمامك.. الذي يقود بعض الفتيان المتعصبين، الخائبين، المقهورين، الجاهلين، الذين تحركهم مشاعر الإنتقام.. ليس إلا..؟ أنا يا حواء إنسان تعيس.. إني أموت يومياً غماً، لأن أيّاً من أحلامي لم يتحقق.. أنا ضحية أوهامي وخيالي المارق.. لم أشأ أن أعيش كملايين الناس المغمورين الذي مضوا، أو يعيشون بعد، وكأنهم لم يكونوا، أو يوجدوا أصلاً.. أحلامي..مخيلتي..أوهامي..فكري..كلها كانت أكثر قوة وجرأة من إرادتي الهشة..كبريائي بائسة وأملي ساذج..
- لماذا تعذب نفسك هكذا..؟ أنت اليوم شخصية مهمة.. يهابك الآخرون ويحترمونك..
- لا يهابني إلا الجبناء.. وضعاف النفوس..والجهلاء، الذين لا يعرفونني على حقيقتي.. أنا إنسان بائس وضعيف..أنا لستُ سوى مجموعة محاولات يائسة، وبائسة.. فليس هناك ثمة إنجاز في حياتي..حياتي فصل واحد طويل..طويل.. وقتي واحد.. فصلي شتاء.. ووقتي ليلٌ. ومع ذلك أسير بجرأة الجبان في الظلمات.. حتى امتلاكي للنساء.. وسمعتي الدون جوانية ليست إلا محاولة يائسة للهروب من نفسي، من خيبتي، من شكي في نفسي.. من أسئلتي المشؤومة عن جدوى وجودي، وسأمي القاتل.. حتى زواجي منك، ليس إلا محاولة لأثبت لنفسي بأني أستطيع أن أنجز شيئاً.. لكني إنسان فاشل..أنا هيكل من الوهم في ثياب مهرج أو قناع قاتل.. تحدوني رغبة عارمة في أن تتوجه الأنظار إليّ دائماً.. كان عليّ أن أشق طريقي في الحياة، لكني بقيت خجلاً، وخائفاً.. أتعتقدين أني أثق بك حينما تقولين لي: يا حبيبي..؟ أنا أعرف أنك تكرهينني..لكنك تخافين مني.. أنت أضعف مني..وربما أنت ضعيفة أمام شهوتك..فرجك هو الذي يقود حياتك.. لكنك أفضل مني.. أنا مزيف.. مزيف.. وجبان مثل ضبع تطارده الكلاب الشرسة..لكني أعض.. لذا لا أحد يمزح معي.. لكن أيمكنك أن تجيبيني على سؤال..؟
- ما هو..؟
- أيهما أفضل.. أن يكون الإنسان جباراً وعظيماً، لكنه شرير وقاتل، وعنيف، أم أن يكون أحمقَ، نكرة، ساذجاً، تافهاً، لكنه عاشق ممتاز..؟

ترددت في الإجابة . كانت مأخوذة بتداعياته التي كشفت وجها آخر له ، لم تكن تعرفه عنه أبدا ً، كما أنها فعلا ً لم تكن تستطيع الإجابة عن سؤاله ، فقد كانت تفكر مع نفسها عن الأفضل بينهما ، لكنها لم تكن تستطيع أن تحسم أمرها ، فقالت له برجاء:

- لا أدري كيف أجيبك..لكني أعرف أن المرأة ربما تحبُ أن تُحب، حتى من غبي وساذج وتافه، على أن تجبر على حب قاتل وشرير لكنه عظيم..وربما العكس هو الصحيح أيضاً..

نظر إليها صامتا ًللحظات ، ثم قال:

- كل مرة أطرح سؤالاً مشؤوماً، معتقداً أنه سؤال مهم، لكنني في خضم بحثي عن الإجابة انتبه إلى تفاهة السؤال أصلاً.. أتوقف في بحثي عن الجواب، لأبدأ بطرح سؤال آخر، معتقداً أنه مهم.. ثم أبحث عن جواب للسؤال الجديد، لأكتشف مرة أخرى سذاجته، فأتركه وأترك بحثي عن الجواب.. وهكذا.. شلالات من الأسئلة، وأحجار من الأجوبة الصامتة الصماء..

- لم أعتقد أنك عميق التفكير بالأشياء إلى هذه الدرجة..

نظر إليها للحظات متأملا ً، ثم عاد إلى نفسه ، واستعاد شراسته ، وجرأته العدوانية ، وقال لها:

- اسمعيني جيداً.. المجتمع البشري غابة متوحشة.. وأنا الذي كنت أعيش حياة هادئة، وأحلم أن أكون أديباً، أو استاذاً جامعياً، أو محامياً أو قاضياً، مثل زوجك الراحل، وجدت نفسي أدخل كلية الهندسة بناء على رغبة أبي، الذي لديه شركة مقاولات.. كنت أبحث عن وجاهة إجتماعية، تعوضني عن فشلي في تحقيق طموحاتي، ليست الوجاهة التي تأتيني عن طريق أبي، ولم أجد السبيل إليها إلا من خلال الإنتماء لحزب الحكومة، لكني كنت كالضبع.. أهرب.. وأهرب.. أركض.. وأركض.. ولم أحصل، بالرغم من إخلاصي، سوى على العظام البائسة، وأنت تعرفين جيداً كيف كانت منطقة المنصور كضيعة من ضياع أبناء الرئيس، وكنا نمشي فيها مذعورين، لذا حينما إنهار كل شيء، كنتُ متشفيا بسقوطه، وكنت آملاً أن تأتي حكومة عاقلة، تعيد تنظيم الحياة بما يدفع عنا قهر الذات، وقمعها، الذي جعلنا نكره الإستمرار في هذه الحياة التافهة، لكن الذي حصل أن الأميركان سلموا السلطة لهؤلاء، لجواسيس إيران، وهذا لغز الألغاز.. وهكذا أتى هؤلاء الأوباش، التافهون، مزورو الشهادات، الذين قضوا نصف أعمارهم في إيران، بل والكثير منهم يعمل سراً مع مخابراتها، باسم إنتخابات مزورة، ليحكموا البلاد، ولينتقموا منا، وكأننا نحن الذين كنا ننتقم منهم، وليس أبناؤهم الذين كانوا يشكلون

قاعدة الحزب وقياداته الوسطى، وضباط مخابراته..؟ ثم سمحوا للمخابرات الإيرانية بتصفية ضباطنا، وكوادرنا العلمية، وعلمائنا، وإعتقال أبنائنا بحجة الإرهاب، ومصادرة ممتلكاتنا، وطردنا من وظائفنا باسم قانون الإجتثاث.. إنهم يريدون إجتثاثنا من الحياة..هذا الوضع لا أستطيع أن أتقبله، بل وأستطيع أن أتحول إلى قاتل محترف لأمنع ذلك..فحياتي تافهة.تافهة..وربما تأخذ معناها من التصدي لهؤلاء التافهين.. ربما كانت كل حياتي السابقة، وإحباطاتي المتكررة سابقاً، لم تكن سوى تمهيد لما أنا عليه الآن.. أحس أنني مكلف بمهمة إلهية بالقضاء على هؤلاء الرافضة..أحس أحيانا بأن الله يهمس لي بأن أمضي في طريقي.. وسواء كان طريقي صحيحاً أم خاطئاً، فأن الناس يركضون لاهثين بسرعة فظيعة..يتزاحمون، ويدفع بعضهم بعضاً، مثل هؤلاء الذين يبدأون ركض الماراثون، لكنهم كلهم يتجهون إلى خط النهاية..خط الموت..

كانت هي تستمع له ، بتأثر ، ثم قالت له:

- ولكن إلى متى سيستمر هذا الإنتقام المتبادل..؟ ألا ترى أن الأبرياء ممن لا علاقة لهم بالأمر هم الضحايا..؟

نظر إليها بغضب وقال:

- ماذا...أتتعاطفين معهم..؟ هؤلاء لا أبرياء بينهم.. يجب تطهير الأرض منهم..دمهم مباح، ونساؤهم مباحات، ومالهم مباح..لا رحمة معهم.. لا فرق بين امرأة أو رجل، طفل أو شيخ، عذراء أو متزوجة.. المهم.. يجب القضاء عليهم.. وتنظيف البلاد من رجسهم..

أحست حواء ذوالنورين بالخوف ، حينما انتبهت لنظراته الغاضبة ، وبالعدوانية والحقد الذي كان كثيفا ً في نبرة صوته ، وبدون توقع منها ، سحب الشرشف عنها ، فصارت عارية أمامه ، وسحبها من ساقيها إلى طرف السرير ، وفتح فخذيها ودخل فيها . كانت طيعة ، ودافئة ، لكنها كانت في أعماقها باردة وكأن عاصفة ثلجية تمر عليها . كانت خائفة من هذا الوحش الآدمي .. وقررت ثانية مع نفسها أن تلوذ بالفرار مع ابنها من هذا القاتل المريض.

* * *

في ذلك الوقت نفسه كان الحاج هابيل والرجل مفتول العضلات ، والحاج آدم الأسير يجلسون ، في جو متوتر ، ببيت الحاج هابيل في المسبح . كانوا يتناقشون عن سر مقتل الحاج آدم الملا ، وما ساعدهم على تشخيص الفاعل هو قطع قضيبه . كانوا شبه متأكدين بأن الأمر له علاقة بإغتصابه

لأم آدم ذوالنورين ، وهناك إحتمال ضعيف بأن الأمر له علاقة بامرأة أخرى كانت له علاقة بها . لكنهم كانوا مرعوبين من شراسة القتلة ، بحيث أدخلوا جثته إلى منطقتهم ورموا جثته في وضح النهار قرب الدار . قال آدم الأسير ، بحقد دفين ، وبنبرة خوف:

- من المؤكد أن لديهم أعواناً ومتعاونين في المنطقة، وإلا كيف أدخلوا الجثة، ورموها دون أن يشك بهم أحد..؟

- السؤال المهم ليس هنا..فأمن البلاد مخترق أساساً، ويمكن شراء أي ضابط أو جندي أو شرطي أو أي مسؤول في الدولة، وإنما السؤال هو: هل يعرفوننا نحن أيضاً..؟ هل يعرفون عناويننا..؟ هل أعترف الحاج آدم الملا، وأدلى بمعلومات عنا..؟ ثم أين الكاميرا.. والشريط..؟ أليس كانت لديك..؟

ارتبك الحاج آدم الأسير قليلا ، وبان ذلك على وجهه ، لكنه استدرك الأمر ، فقال:

- صحيح أن الكاميرا، والشريط الذي بداخلها كانت في المكان حيث كنا هناك، لكني لم أجدها عصرا هذا اليوم حينما ذهبت إلى هناك، حتى أني ظننت أنكما أو الحاج آدم الملا قد جئتم لأخذه دون أن تقولا لي..

نظر الحاج هابيل إليه بغضب وقال:

- هل تريد القول بأن الشريط ليس عندك..؟

- طبعا ليس عندي..بل ظننت أنه عندكما..

نظر الحاج هابيل إلى الرجل الثالث مفتول العضلات نظرة خاصة ، مليئة بالمعاني التي لا يفهما سواهما ، لكنه لم يطل النظر سوى ثوان ، كي لا ينتبه الحاج آدم الأسير ، ثم قال:

- كيف ذلك ياحاج آدم..؟ القاعدة والبعث لم يأتيا إلى ذلك المكان لأخذ الكاميرا والشريط.. أليس كذلك..؟ وإلا كنت أنت القتيل وليس الحاج آدم الملا.. أليس كذلك..؟ أجبني.. أنت الوحيد الذي بقي في المكان..وكان عليك تصفية مدير المدرسة..لكننا لم نعرف أن كنت قد قمت بالعمل أم لا..؟ هل قتلته فعلاً، أو بعته أو حررته مقابل مال أو فدية، فأنا أعرفك..أنت تقتل أباك من أجل المال..

غضب الحاج آدم الأسير ، وشحب لونه ، وارتجفت شفتاه ، ثم قال بنبرة غضب حاول ان يكتمه:

- هذا كلام غير مقبول منك يا حاج هابيل..هل تشكك في ولائي للمذهب..؟ لقد قتلتُ مدير المدرسة وألقيتُ جثته في بركة الماء الموحلة في البستان.. يمكن التأكد من ذلك.. أما اختفاء الكاميرا والشريط فقد انتبهت

له عصر هذا اليوم، لأني صباحا كنت في المنطقة الخضراء..ثم ذهبت لوزارة التربية والتعليم.. وأنا مثلك لا أعرف سر ذلك.. فحتى لو افترضنا أن الذي قام بذلك هم الجماعة المتطرفة الأخرى، من أزلام البعث والقاعدة، فالسؤال هو: كيف عرفوا المكان؟ ولو فكرنا بأن الحاج آدم الملا قد اعترف وأبلغهم بالمكان فكيف جاءوا في وضح النهار إلى ذلك المكان، بلا خوف من أن يشك بهم أحد..؟ ثم لقد افترضنا أنه أعترف وأخبرهم عنا، فلماذا لا يأتون إلينا..؟ أمن المعقول أنهم جاءوا لأخذ الشريط فقط..؟ ثم كيف عرفوا الحاج آدم الملا..؟ وكيف اختطفوه، ومتى، وأين..؟ لا..لا.. هناك سر في هذا الموضوع..وأعتقد أن هناك من يعرف بالمكان، ويعرف أن هناك كاميرا وشريطاً..؟ على أية حال.. ستتضح الأمور غداً.. عليّ الآن أن أذهب.. غداً لدي دوام..بالمناسبة..وهذا هو أكبر دليل على أني قتلت مدير المدرسة قابيل الفهد هو أني أخذت اليوم كتاباً موقعاً من قبل (الحجي) بتكليفي إدارة المدرسة أثناء غياب مديرها قابيل الفهد..

نظر الحاج هابيل إليه مستغربا ً، وقال بتساؤل:

- ماذا..؟ أصرت مديراً للمدرسة..؟

أجاب الحاج آدم الأسير محاولا ًأن لا يثير غيرته :

- وكالةً..

- هذه هي دولة الواوية.. دولة الواوات.. دولة قائمة بالوكالة.. وأنت لست استثناءً..

فسأل الحاج آدم الأسير معاتبا ً:

- ألا تقول لي مبروك..؟

- أقول لك مبروك..؟ على أي شيء..؟ تقتل الرجل وتأخذ مكانه،، ثم تطلب أن يقال لك مبروك..؟ إذهب يا حاج آدم الأسير.. الله يفتحها عليك..

- ظننتك ستفرح لي..يا حاج هابيل..لست أنا الذي يقتل فقط..أنت أيضا ذبحت الشاب آدم المحروم بيديك..وهربت من السجن.. لقد تعاونت معك..ووضعتك دائما في المقدمة..وكنت أسير خلفك في المؤخرة.. دون أن أفكر بشيء سوى خدمة القضية والمذهب..

فقال الحاج هابيل محاولا ًأن يكتم توتره وغضبه :

- اسمع يا حاج آدم.. المقدمة والمؤخرة مسألة تافهة..لها علاقة بالمصالح.. ثم أن المقدمة تتحول إلى مؤخرة بتغيير الإتجاه.. أليس كذلك..؟ أما كلامك الآخر عن الذبح والهروب من السجن فأعتبره تهديداً لي.. أتهددني..؟

- لا أهددك.. يا حاج هابيل.. وإنما كنت أنتظر منك أن تبارك لي بالموقع

الجديد..
- أنت مثل الذي يثير العواصف في البحر كي لا يغرق وحده.. وإنما يُغرق الآخرين معه.. مبروك عليك الموقع.. يا حاج..
فقال الحاج آدم الأسير وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة صفراء :
- تقولها من وراء لسانك وليست من أعماق قلبك..
- احترتُ معك..
- الله لا يحير عباده الصالحين..
- وهل نحن لسنا من عباده الصالحين يا حاج آدم..؟
- لم أقل ذلك.. على أية حال.. ربما سنتواصل غداً..وربما سنلتقي في مجلس الفاتحة الذي سيقام على روح الحاج آدم الملا..
- إن شاء الله..
فقال الحاج آدم الأسير بنبرة فيها تحدي :
- ألا تشكرني.. قبل أن أذهب..؟
- على أي شيء أشكرك..؟
- ألم آتِك بعنوان زوجة أخيك حواء الزاهد..
- آه.. صحيح.. أشكرك جداً جداً... أنت محق.. بارك الله فيك يا حاج..
نظر الحاج آدم الأسير إليهما بحنق مكتوم ، وغادر المكان . نظر الحاج هابيل إلى الرجل مفتول العضلات .. وأعطاه إشارة بعينيه ، قائلا ً:
- تلك العاهرة سنقتص منها غداً، كلف الشباب أن يستعدوا على درجاتهم النارية.. أما هذا الأسير.. فأريد أن تنهي موضوعه الليلة.. أنا متأكد أنه هو الذي قتل الحاج آدم الملا.. كان يغار منه.. وأنا متأكد بأن الشريط عنده أيضا. لا أريده أن يهنأ بالمنصب الجديد..هذا الأمي..خريج المتوسطة..صار عنده شهادة جامعية.. اتبعه..وأريد أن تأتيني بخبره هذه الليلة قبل أن أنام.. مفهوم..؟
- أقرأ على روحه الفاتحة من الآن يا حاج..
قال الرجل مفتول العضلات ، وهو يخرج مسدسه الكاتم للصوت من جارور الطاولة التي عليها التلفزيون . يضعه في حزامه .. يأخذ مفاتيح السيارة ويخرج . بقي ّ الحاج هابيل في الصالة وحده .. أخذ الهاتف وكتب رسالة : يا عاهـرة .. عشيقك السافل .. قابيل الفهد راح إلى جهنم وبئس المصير . ضغط أحد الأزرار ، مرسلا ً إياها إلى حواء الزاهد.
* * *
في ذلك المساء كانت حواء الزاهد وحواء الكرخي ومعهما الصغير آدم الملاك

في الصالة الصغيرة ، وأمامهم كانت صينية الشاي مع صحن في مكعبات السكر . كانت حواء الكرخي قد وصلت قبل ساعة ونصف تقريبا ً، واتفقت مع حواء الزاهد بعدما قرأت الرسالة التي وصلتها ، بأن تنتقل مع أطفالها للعيش معها في شقتها إلى أن تتضح الأمور .
حاولت حواء الكرخي أن تخفف عنها الصدمة ، فقالت لها بأنه ليس هناك أي تأكيد على ما جاء في الرسالة ، بالرغم من أن الأستاذ قابيل الفهد قد أغلق هاتفه منذ أيام ، ولم تخبرها بشكل مباشر عن المعلومات التي أخبرها بها آدم الشبيبي ..
حدثتها حواء الزاهد ، بعد ذلك ، عن فكرة السفر التي خطرت في ذهنها ، واتفقتا على أن تقوم حواء الزاهد بإستحصال جوازات السفر لنفسها ولطفليها ، ثم يجري ترتيب الأمور الأخرى في ما بعد ، كما وعدتها حواء الكرخي بأنها لن تتركها وحدها لتواجه متاهة الغربة ، بل ستسافر معها ، سواء للأردن أم لسوريا ، ومن هناك تفكران بما سيتم التخطيط له لاحقا ً.. وستساعدها في ترتيب أمورها كلها هناك . وحين سألتها حواء الزاهد عن آدم الشبيبي ، أجابتها حواء الكرخي ، بأنه إنسان طيب في الجوهر ، لكنه ، بالرغم من أنه مدني وغير متعصب ، وديموقراطي التوجه ، لكنه مع كل هذا طائفي ، فحينما تحك جلده قليلا ً، وتزيح عنه قشرة الثقافة وأحاديث الأدب والفن ، يكشف لك عن معدنه الأعمق ، إذ يتضح معدنه الطائفي المقيت ، بل ويكشف عن تعصب أعمى يحاول أن يبحث له عن جذور تعود لألف وأربعمائة عام ، وعن خلافات جرت في مكة أو المدينة ، وليست في العراق .. بل ينسى كل مبادئه المدنية ، وحديثه الطويل عن دولة المواطنة ، التي كانت الأساس لبناء علاقتهما ، وأخبرتها بأنها كانت لا تريد مواجهته ، لكنها وجدته مترددا ً، توفيقيا ً، لا موقف واضحا ً أو ثابتا ًلديه ، حاله حال المئات من دعاة الثقافة في هذا البلد الذي أختلت كل موازينه ، حيث الكل مشارك في الجريمة : القتلة وضحاياهم أيضا ً.. الكل يسير مثل السومبي في نفق مظلم .. أو حتى في الشوارع في وضح النهار .. ليسوا سوى جثث تمشي.
تألمت حواء الزاهد من نهاية علاقتها مع آدم الشبيبي بهذه الطريقة اليائسة .. ثم حدثتها عن مخطوطة رواية الكاتب القتيل آدم البغدادي ، التي انتهت منها عصر ذلك اليوم ، فطلبت حواء الكرخي منها أن تحمل كل المخطوطات معها ، فهي تريد أن تقرأها أيضا.
فرشت حواء الزاهد لها في الصالة ، مثلما كانت تفعل مع حبيبها آدم

المحروم ، واتفقتا أن تخرجا بعد الفطور ، وقامت حواء الزاهد لغرفتها لتعد حقيبة الملابس الضرورية ، والأوراق اللازمة ، والمبالغ التي تحتفظ بها.
كان الليل ثقيلا ً على بغداد ، ليل بلا قمر ، وكان ي ُسمع دوي إطلاق صواريخ يأتي من بعيد .

صباح أسود

ف ُتحت بوابات الجحيم فجراً، وانفجرت خمس عشرة سيارات ملغومة في مناطق مختلفة من بغداد ، راح ضحيتها المئات من المواطنين وتجاوز الجرحى أكثر من ألف شخص.

فزّت حواء الكرخي وحواء الزاهد على هدير الانفجارات القريبة التي وقعت في شارع فلسطين ، والمشتل ، والنهضة ، وحي القاهرة ، كما سُمعت أصوات الإنفجارات التي حدثت في الكرادة وباب المعظم والصدرية أيضا.

كانت حواء الزاهد خائفة ، بينما كان الإنزعاج والغضب يكتسي وجه حواء الكرخي ، علقت على أصوات الإنفجارات التي تلاحقت ، قائلة بغضب:

- كل هذه الإنفجارات، وكل هذا القتل والدمار، بينما لا يستحي المسؤولون في الحكومة بالخروج على شاشات التلفاز ليقولوا إنهم قضوا على الإرهاب والإرهابيين، وأعادوا الأمن إلى البلاد..؟ لو كانت لديهم ذرة من الشرف والضمير لقدموا استقالاتهم وانصرفوا.. لو كانوا في بلاد أخرى لقدموا إلى المحاكم باعتبارهم مجرمين أهملوا أداء واجبهم بحفظ الأمن..

كانت حواء الزاهد صامتة ، لا تعرف كيف تجاريها . كانت خائفة ، وكانت تحس بشيء مزعج لا تعرف مصدره يقبض على قلبها.

في ذلك الوقت المبكر من ذلك الصباح البغدادي الأسود كان آدم ذوالنورين قد وصل إلى بغداد ، فقد أوفى الرجل ضخم الجثة بوعده ، وأرسله في سيارة خاصة ، لكنه أوصى السائق بألا يفارقه ، بل ويرجعه إلى المكان نفسه بعد أن يرى أمه ، إلا أن آدم ذوالنورين طلب منه أن يأخذه أولاً إلى الشركة ، إلى البيت الكبير.

لم يكن أحد في البيت – الشركة سوى الحرس الذين عرفوه ، واستغربوا من رجوعه ، لكنهم رحبوا به ، وادخلوه إلى البيت ، بل وأعدوا له فطوراً، من الخبز الحار والقيمر والعسل ، كما حملوا الفطور نفسه في صينية إلى السائق الذي ظل ينتظر في السيارة.

بعد أن انتهى آدم ذوالنورين من الفطور ، سأل عن قابيل العباسي ، فقال له أحد الحراس إن اللواء العباسي غير موجود لأنه تزوج ليلة أمس ، ثم أمسك لسانه ، بينما صفعت الجملة أذنيّ آدم ذوالنورين ، فشحب وجهه . حين صار وحده في البيت ، أخذ يتجول بين الغرف . تأججت في نفسه رغبة في أن يدخل مكتب قابيل العباسي ، وحينما حرك مقبض الباب وجده

مفتوحا . كان المكتب أنيقا ، وانتبه إلى وجود شاشة وجهاز تسجيل وعرض على الطاولة . استدار خلف الطاولة ليفتح جارورا ً. كان مقفلا ً، فأخذ سكينة نحاسية ت ُستخدم لفتح الرسائل ، وادخلها في مكان القفل وأدارها بقوة فانكسرت وف ُتح الجارور . وجد شريط الفيديو . أخذ قلبه يخفق بشدة ، راوده حدس بأن هذا الشريط يخص اغتصاب أمه . توجه مسرعا ً نحو الباب فأغلقه من الداخل . وضع الشريط في جهاز العرض ، وضغط على زر التشغيل.

أخذ جسد آدم ذوالنورين يرتجف ، والعرق يتصبب منه . كان يرى أمه عارية بالكامل لأول مرة . نظر إلى وجهها المذعور وهي تنزع ثيابها أمام الكاميرا . شاهدها عارية بالكامل . كانت ثمة لقطات مكبرة لوجهها المذعور ، ثم لقطات وهي مطوية الجسد على الطاولة ، وآدم الملا يولجه فيها . ولقطات مكبرة لوجهها وهي تغالب الإثارة التي يحدثها الرجل في جسدها . لم يستطع أن يتحمل أكثر .. فتح الدولاب الكبير فوجد مسدسات كثيرة ورشاشا أتوماتيكيا . أخذ مسدسا . فتح الباب ونزل إلى الطابق السفلي . كان هائجا كذئب يرى فريسته . وبدون أي تفكير دفع الباب الأول في الغرفة الأولى فوجد المرأة الشابة المنزوعة البنطال ، والتي اختطفت لمتعة الحرس ، التي ارتعبت عند رؤيته في تلك الحالة النفسية وبيده المسدس الذي وجهه إليها مباشرة ، حيث أطلق عليها طلقة في الرأس . توجه للغرفة الثانية حيث المرأة المحجبة الحامل زوجة المسؤول الكبير في الدولة فأطلق عليها رصاصتين في الجبين والبطن . ثم فتح باب الغرفة الثالثة فوجد العسكري مذعورا ً، أطلق الرصاص على رأسه. لم يستمر الأمر سوى دقائق معدودة أنهى خلالها حيوات هؤلاء المخطوفين .

كان صوت إطلاقات الرصاص قد س ُمعت من قبل الحراس ، فتراكضوا إلى داخل الدار ، وبينما هم يهبطون الدرج إلى الأسفل سمعوا طلقة أخرى وسقوط جسد على الأرض . حينما صاروا في الطابق الأسفل حيث جناح الغرف ، وجدوا آدم ذوالنورين مضرجا بدمه ، وقربه المسدس الذي أطلق منه النار على نفسه ، تفحصوا الغرف فعرفوا انه أعدم من كانوا في الغرف . ركضوا إلى الأعلى ليتصلوا بالعميد الأمير قابيل العباسي.

* * *

كانت حواء ذوالنورين قد فزت على صوت الإنفجارات التي اشعلت ذلك الصباح البغدادي . ذهبت إلى الحمام ، ارتدت ثوبا ً خفيفا ً.. لكن قلبها انقبض حينما سمعت رنين هاتف قابيل العباسي الذي لا يزال نائما . تكرر

الإتصال لأكثر من ثلاث مرات دفعها إلى أن تحاول إيقاظه ، إلا أنه لم يستيقظ ، فقد شرب ليلة البارحة قنينة كاملة من الويسكي ، فأخذت الهاتف لتجيب وتخبر المتصل بأن يتصل لاحقا ً، إلا أن الصوت المرتبك على الطرف الآخر لم يتبين صوت حواء ذوالنورين ، وإنما أخذ يتحدث مباشرة ، قائلا ً:

- سيدي حدثت كارثة.. آدم ذوالنورين دخل مكتبك.. ويبدو أنه لعب بأشرطتك..ثم أخذ سلاحا، بعدها نزل إلى الطابق الأسفل فأعدم جميع المخطوفين، وأخيراً انتحر بإطلاق رصاصة على رأسه.

ارتجفت يدها . ضغطت لا إراديا على زر الإغلاق . سقط الجهاز من يدها على الأرض . أحست بساقيها لاتستطيعان أن تحملاها . ساقاها ترتجفان . وجسدها يرتعش . جلست لا إراديا على الأرض متكئة على جانب السرير . أخذت الوسادة وضغطت بوجهها عليها وأخذت تبكي بصمت . بعد ربع ساعة من البكاء . حاولت الوقوف ، تشبثت بأطراف السرير . وأخذت تحبو كالمشلولة خارجة من الغرفة.

لم تكن تتصور أن ابنها قد انتحر ، بل وقد أقدم على إعدام أناس مخطوفين .. كيف ذلك وقابيل العباسي قد قال لها بأنه قد أرسله في دورة تدريبية لثلاثة أيام .. ؟ أحست بالبرد يسري في جسدها . ماذا عليها أن تفعل بعد أن خسرت كل شيء .. ؟ أيمكنها الإستمرار في هذه الحياة المرعبة .. ؟ ما العمل .. ؟ من المسؤول عن كل هذه المآسي .. ؟ كيف عليها أن تتصرف .. ؟ يجب مغادرة هذه البلاد بأي شكل .. يجب أن لا يعرف قابيل العباسي بأنها تعرف .. ؟ لم يعد يهمها شيء بعد الآن ، فم َن كانت قد ضحت من أجله بكل شيء قد رحل .. لكن هل انتحر فعلا ً.. ؟ ألا يمكن أن يكون الخبرملفقا ً وغير صحيح .. ؟ لا .. لا .. الشخص الذي اتصل لم يعرف أنه يتحدث معي وإنما يتحدث مع مسؤوله ..

فجأة نهضت .. بنشاط غريب لا يتناسب مع الكارثة التي حلت عليها ، ولا مع حالة الارتباك وشبه الشلل الذي انتابها عند سماع الخبر .. قررت مع نفسها المغادرة .. وحتى إذا اتضح بأن الخبر كاذب فأنها ستعرف ذلك في ما بعد .. هبط عليها سكون جامد غريب .. تجمدت عواطفها ، وتجلد ألمها ..

صعدت ثانية إلى غرفة النوم ، ومنها دخلت إلى مكتب زوجها . دفعت أحد الرفوف جانبا ً، فانكشف الحائط عن خزانة موضوعة في الجدار . أخذت المفتاح الذي كان في جارور المكتب . فتحت الخزنة ، وأخرجت جواز

سفرها وحزمة كبيرة من المال ، وضعتها في جوارير المكتب . ثم خرجت . وهي تفكر بمغادرة البلاد حينما يفيق هو ويذهب مع حراسه الذين يقفون عند الباب .
فكرت أول الأمر بالسفر بسيارتها الخاصة ، لكنها خافت منه ، وتذكرت بأنه مسؤول كبير ، وأن الطريق يمر بمناطق للعباسي علاقة بها ، فلذلك يفضل ألا تستخدم سيارتها الخاصة ، بل عليها ألا تثير الشبهة ، وذلك من خلال إستخدام سيارات النقل العام . السيارات التي تذهب إلى سوريا أو الأردن مقرها قريب منهم ، فهي مقابل معرض بغداد الدولي ، وهذا ما يسهل عليها الأمر . لن تأخذ ملابس كثيرة ، فكرت مع نفسها ، المهم أن يكون لديها أكبر كمية من المال . كانت في حالة غريبة من أثر الصدمة ، لا تشعر بأي ألم أو أحاسيس خاصة ، وكأن شيئا ً لم يحدث.

* * *

كان الجو خانقا ً، تتداخل فيه رائحة البارود مع رائحة الدم الزنخة ، ورائحة اللحم البشري المحترق النتنة ، وكانت سيارات الأسعاف تنقل الجثث والجرحى في منطقة الصخرة بشارع فلسطين ، وكان هناك حضور كثيف للعجلات البشرية.
ركض التلاميذ إلى نهاية الشارع وهم يصرخون:
- أستاذ آدم الأسير مقتول.. أستاذ آدم الأسير مقتول..
كانت جثة الحاج آدم الأسير مرمية قرب مدخل المدرسة في الفرع الجانبي .. في الموضع الذي تم فيه اختطاف قابيل الفهد بالضبط . تراكض رجال الحرس الوطني ليتبينوا الأمر.

* * *

ضمن حدود منطقة الانفجار ، لكن من الجانب الآخر لشارع فلسطين ، وفي الشارع الذي يقابل صعود الجسر الحديدي ، كانت حواء الزاهد وهي تحمل حقيبة ملابس كبيرة نسبيا ً، وحقيبة أصغر منها قليلا ً، وكان آدم الملاك فرحا بخروجهم بعد أيام من البقاء في البيت .
كانت حواء الكرخي تحمل الطفل الرضيع هابيل . أشارتا إلى سيارة تاكسي مرت من الشارع الرئيسي فانتبه السائق لهما وانعطف في الفرع . سألت حواء الكرخي عن سبب حمل كل هذه الثياب ، فأخبرتها بأن الحقيبة الكبيرة مليئة بثياب الطفلين أما الحقيبة الصغيرة ، ففيها كل أموالها ووثائقها إلى جانب مخطوطات آدم البغدادي.
لم ينتبه سائق التاكسي بعد أن ساعد المرأتين في وضع الحقيبة الكبيرة في

السيارة ، وفتح الباب لهما ، بأن ثمة دراجتين ناريتين يجلس على كل منها رجلان يضعان القبعات الواقية على رؤوسهم ، وينتظران حركته كي يلحقا به.
كان الطريق مغلقا من ناحية الطريق العام الرئيسي لذلك حاول السائق أن يسير في طريق جانبي مختصر ، يبعده عن الزحام ، ورجال الحرس الوطني والحضور الكثيف للقوات العسكرية .
سار السائق في طريق متعرج ، وحينما توقف عند منعطف شارع يقوده إلى باب المعظم من جهة الخلف ، أسرع الرجلان اللذان على الدراجتين الناريتين . التف ّا أمام السيارة ، وأمطرا السائق ، والمرأتين الجالستين بوابل من الرصاص من مسدسات كاتمة للصوت . ولاذا بالفرار.
لم يستمر الأمر سوى لحظات قليلة . أفاقت بعدها حواء الكرخي مرعوبة على ما حدث . كان السائق مجندلا رأسه على المقود ، وكانت حواء الزاهد مغمضة العينين وعباءتها مليئة بالدم . وفي حضنها ابنها آدم الملاك وقد اخترقت رصاصة وجهه الجميل .
فتحت حواء الكرخي الباب وهي تحمل هابيل في حضنها ، وبلا شعور منها مدت يدها إلى الحقيبة الصغيرة . أخذتها بيدها الأخرى . نظرت إلى حواء الزاهد مرعوبة ، فرأتها مثل تمثال العذراء المنتحبة لميكائيل انجلو بوجهها الملائكي وهي تحضن ابنها القتيل .
كان الشارع فارغا . لا أحد انتبه لهما .. سوى رجل كان في أقصى الشارع ، فجاء راكضا ً.
هزت حواء الكرخي صديقتها عسى أن تكون جريحة ولم تمت ، إلا أنها انتبهت إلى أن رصاصة قد اخترقت صدرها وأخرى جبينها . لم يكن أمامها في حالة الرعب تلك سوى أن تلوذ بالفرار ، فربما سيرجع هؤلاء القتلة ليتأكدوا من حصاد عمليتهم .
دخلت الفرع الجانبي ، ومن هناك ، وهي ترتجف من الخوف ، اتصلت بأخيها الذي أجاب مباشرة ، فأخبرته ، وهي في حالة هستيريا ، بأنها تعرضت لمحاولة إغتيال ، وأن صديقتها وابنها قد ق ُتلا ، وأنها تريد مغادرة البلاد فورا ً، واخذت تشتم هذه الدولة النتنة ، دولة اللصوص والقتلة ، فطلب منها أن لا تتحرك من مكانها ، وأنه سوف يرسل إليها سيارة تقلها إليه ، وطلب منها توصيف المكان وعنوانه ، فأخبرته وهي مرعوبة.
كانت تقف على مبعدة من مكان الحادث ، بحيث يمكنها أن ترى المشهد ولا يراها أحد ، أو حتى لو رآها أحد فلا يشك بعلاقتها بما كان . رأت

ثلاث نساء أقبلن إلى السيارة ، كانت إحداهن تلبس العباءة العراقية والأخريتان بملابس الراهبات . مالت النساء عليها . فتحن الباب ، تحدثن مع حواء الزاهد القتيلة ، التي في تلك اللحظة بدت لها حية . لم تصدق عينيها . نظرت مرة أخرى ، فرأت أن النساء الثلاث اختفين ، وتجمع الناس بشكل لم تتوقعه . من أين ظهر كل هؤلاء الناس .. ؟ وأين اختفين النساء الثلاث .. ؟ لا تعرف ، فقد كان الشارع خاليا.

* * *

خلال ساعة واحدة ، وهي تنتظر في مكتب أخيها الأنيق ، في أحد القصور المتوزعة في المنطقة الخضراء ، والتي قال لها بأن أحد المسؤولين المعروفين في النظام السابق كان يسكن فيه ، جاء إليها بجواز سفرها وفيه إضافة لإسم الطفل ، مع وثيقة أخرى خاصة به . سألته عن سرعة الإنجاز ، فأخبرها بأن لديهم دائرة خاصة داخل المنطقة الخضراء لإنجاز مثل هذه المعاملات السريعة الخاصة ببعض المسؤولين ، تجنبا لمراجعة الدوائر المماثلة التي يرتادها العامة من الناس .

خلال ذلك حاول أخوها أن يثنيها عن عزمها بالسفر ، وأن يجد لها منصبا مهما ً في الدولة ، إلا أنها لم تشأ أن تناقشه كثيرا ، فقط شكرته على ما قام به ، وطلبت منه أن يستكمل فضله بإيصالها إلى مكان السفريات إلى سوريا في منطقة المنصور ، مقابل معرض بغداد الدولي . ولم يجد نفسه سوى أن يأمر بعضا من حاشيته للقيام بذلك.

* * *

أفاق قابيل العباسي من نومه . انتبه لعدم وجود حواء ذو النورين في غرفة النوم . دخل غرفة الحمام ليأخذ دوشا ً. حينما ارتدى ثيابه ، وصار في الطابق الأسفل وجدها قد أعدت الفطور على الطاولة . بينما كان يفطران ، دخل مرافقه ، وهمس في إذنه . توترت ملامحه ، وأحم ّر وجهه . فقال له بأن يعدوا السيارات حالا ً.. خرج المرافق . أدى التحية وخرج.

كانت تنظر إليه إلا أنه كان يتجنب النظر إليها . سألته:

- هل هناك شيء ما..؟
- لا..لا..لاشيء.. بعض المشاكل.. ربما أتأخر اليوم قليلاً.. تغدي وحدك.. سنتلتقي في المساء..

قال ذلك وخرج ، دون أن يلتفت إليها.

ما أن انطلقت سيارته مع المرافقين ، حتى ركضت إلى الطابق الأعلى ، أخرجت حقيبة سفرها ، وضعت أقل ما يمكنها من الملابس . ووضعت حزم

الدولارات في حقيبتها اليدوية ، وجزءا ً منها في جيوب حقيبة الملابس الداخلية . وضعت بعض الرزم في معطفها الداخلي التي وجدته مناسبة لتستفيد من جيوبه . أخذت جواز سفرها . تأكدت من عدم وجود أحد من الحراس . أوقفت سيارة تاكسي وطلبت منه أن يوصلها إلى سيارات النقل البري التي تتجه إلى سوريا أو الأردن . وحينما وصلت لم تكن سيارات الأردن جاهزة ، وإنما السيارات المتجهة إلى سوريا على وشك الإنطلاق.

* * *

حينما صعدت ، توجهت الأبصار إليها . كانت تبدو جميلة على الرغم من أنها لم تتزين ولم تضع مكياجا على وجهها . فتشت عن مكان ، فلم تجد ، فالكثير من الأماكن يحتلها الأزواج مع زوجاتهم أو رجال فقط ، أو عوائل ، إلا أنها انتبهت بوجود مقعد فارغ في أقصى السيارة ، حينما توجهت إلى هناك ، رأت امرأة شابة أنيقة ، تحمل طفلا ً في حضنها ، ومخطوطة ورقية . سألتها ان كان المكان محجوزا لأحد ، فقالت لها المرأة الأخرى ، بأن المكان غير محجوز ويمكنها أن تجلس.

كانت كلا المرأتين متوترتين . لم تتبادلا الحديث عندما كانت الحافلة ما زالت تشق طريقها في شوارع بغداد . كانتا تنظران لبعضهما بفضول خفي ، وحينما صارت الحافلة خارج المدينة وعلى الطريق الدولي ، أحست كل منهما بشيء من الراحة والإسترخاء . التفت حواء ذوالنورين إلى المرأة الأخرى وسألتها بمودة:

- هل المحروس ابنك.؟
- نعم..
- ما زال صغيرا على السفر والبهذلة في الغربة..
- يبدو أنه قدرنا أن نتيه في الغربة..

انتبهت حواء ذوالنورين إلى طريقة كلام المرأة التي تجلس إلى جانبها ، فقالت لها:

- هل لديك أحد في سوريا..؟
- لا.. وأنت..؟
- أنا أيضا لا أحد لدي.. لكن هل كنت سابقا هناك أم هذه هي المرة الأولى..؟
- لا..أنا كنت أعيش هناك لسنوات..
- أوه.. أنا أسافر إليها لأول مرة.. هل تسكنين فيها..؟

- كنت أسكن فيها لكن الآن علي أن أبحث عن سكن أول الأمر.. لكن لا مشكلة في السكن هناك..

- هل يمكن أن أعتمد عليك أيضا في إيجاد سكن لي..؟ فأنا أسافر إليها أول مرة..

- ليست هناك مشكلة حينما نصل ستذهبين معي..ونبحث عن سكن..

- أنا اسمي حواء ذوالنورين..

- وأنا حواء الكرخي..

- عاشت الأسماء..

ابتسمت حواء الكرخي ابتسامة حزينة وقالت وهي تنظر في وجه هابيل الرضيع:

- وعاشت حواء..الزاهد..

- عفواً..ماذا قلت..؟

- لا شيء.. قلت عاشت حواء الزاهد أيضا..

- ومن هي حواء الزاهد..

- صديقتي.. ماتت اليوم..قُتلت هذا الصباح.. سأحكي لك عنها.. فأمامنا طريق طويل..

- نعم..أمامنا طريق طويل جداً.

كانت الحافلة تشق طريقها إلى المنفى مودعة هذا النهار البغدادي الدامي.

برلين

بــدأت يوم 1 - 11 - 2012

انتـهـت يوم 1 - 3 - 2013

كُتبت في برلين - باريس - هانوهان (تايلاند)

مصح باد مارغنتهايم - جنوب ألمانيا